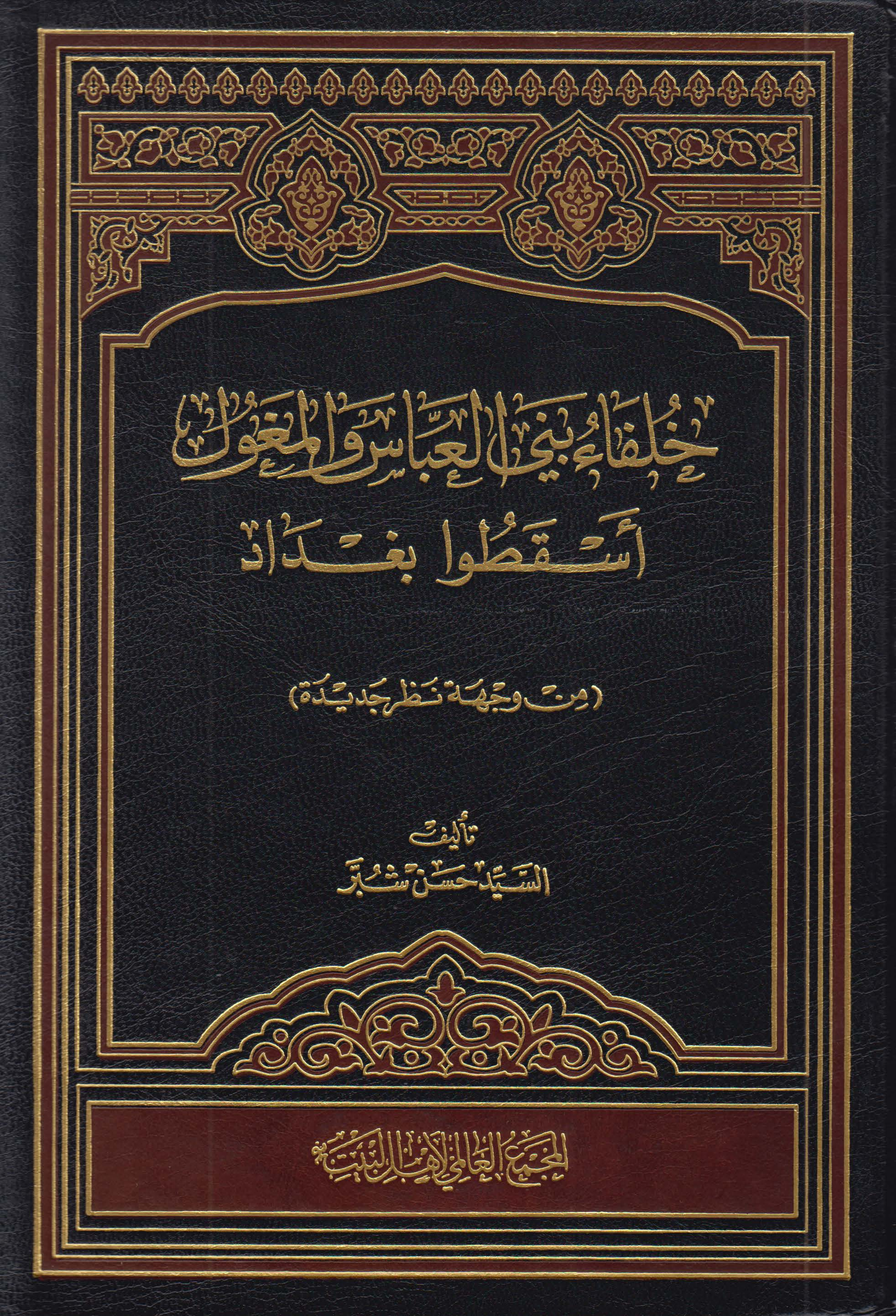


خلفاء بني العباس والمغول
أسقطوا بغداد
(من وجهة نظر جديدة)
تأليف
السيد حسن شبر
المجمع العالمي لأهل البيت



مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

خلفاء بني العباس والمغول
أسقطوا بغداد

(من وجهة نظر جديدة)

تأليف
السيّد حسن شبّر

المجمع العالمي لأهل البيت

إسم الكتاب :......... خلفاء بني العباس والمغول أسقطوا بغداد

المؤلف :................................ السيد حسن شبر

الموضوع : ....تاريخ

الناشر : .... المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

الطبعة :.. الرابعة

تاريخ النشر: .... ١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م

العنوان: بيروت ـ حارة حريك ـ شارع دكاش ـ بناية الحسنين

ت: ٠٠٩٦١١٢٧١٩٠٨ ـ ٠٠٩٦١٣٨٢٣٦٢٠

المستودع: حارة حريك - خلف كنيسة مار يوسف - بناية الزهراء لإحياء المجالس

أهل البيت عليهم السلام في القرآن الكريم

إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا

سورة الأحزاب / آية : ٣٣

أهل البيت عليهم السلام
في السنة النبوية

إني تارك فيكم الثقلين
كتاب الله وعترتي أهل بيتي
ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً

« الصحاح والمسانيد »

مقدمة الطبعة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

لم أكن أتوقع في كتابي هذا أن تتلاقفه الأيدي بهذه السرعة ، على رغم النسخ الكثيرة في الطبعتين السابقتين.

و هذا يدلّ على أن الكتاب يقرأه عدد كبير ممن يريدون ان يتعرفوا على الحقيقة.

و تأريخنا بصورة عامة يكثر فيه التزوير و طمس الحقائق، لأنّ المؤرّخين إمّا أن يكونوا من اولئك الذين يخشون سطوة السلطان، او يطمعون في عطاياه، أو لأنّهم ينتمون إلى طائفة معيّنة فيكيلون المديح لطائفتهم حقّاً أو باطلاً.

و ربّما ينسبون للرسول ﷺ أحاديث لم يقلها هو ولا أحد من صحابته الأكرمين، و عندها يسيئون إلى الشريعة و إلى صاحب الشريعة الغرّاء.

إضافة إلى أنّ الحقائق ـ تلك التي كانت مطمورة ـ ربّما تنكشف في يوم من الأيام و سوف يقول القرّاء أنّنا لا نصدّق بكم وبتأريخكم فإنّكم تخفون الحقائق و تزوّرون الوقائع.

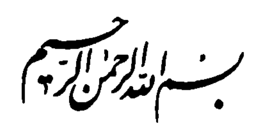
في حين أنّ كاتب التاريخ لابدّ أن يكون حياديّاً فيما يكتب، إذ ليس من المعيب على أيّ إنسان أن يكون في طائفته شخص منحرف.

و بناءً على ذلك، فإنّ توخّي الحقائق التاريخية ليس مسألة سهلة على المؤلّف، إذ لابدّ أن يبذلَ جهده للوصول إلى الحقيقة ليكون مؤرّخاً حقّاً.

و كتابي هذا الذي بين أيديكم ، لم أكتب فيه أيّة مفردة دون أن أستند إلى مصادر التأريخ لأضعها أمام القارئ الكريم وجهاً لوجه، و لا أكتب شيئاً من عنديّاتي إلاّ تعليقاً على المفردة ذاتها.

المؤلّف

حسن شبّر



مقدّمة البحث

لقد كان سقوط بغداد والقضاء على الخلافة العباسية بالصورة الّتي حصلت عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، كارثة عظيمة حلّت في دولة الاسلام.

فالخلافة الّتي كانت رمزاً ـ ولو ظاهرياً ـ لوحدة المسلمين، انتهت بدخول التتار على يد هولاكو.

وانتهت بعدها كلّ خلافة تمتّ إلى قريش، بناء على الحديث الّذي يقول (الأئمّة من قريش).

والعثمانيون الّذين حكموا بعد انقراض الدولة العباسية بأكثر من قرنين ونصف، حذفوا (شرط قريش) وأصبح خليفة المسلمين تركيّاً.

* * *

وأشبع الكتّاب والمؤلّفون الحديث عن سقوط بغداد والتغنّي بأمجادها والبكاء على أطلالها، أكثر من أي حديث آخر أصاب المسلمين دونه البكاء على الأندلس وعصورها الذهبية.

ولقد بحث أولئك كثيراً في الأسباب الّتي أدّت إلى سقوط بغداد والّذي يعني سقوط الخلافة أيضاً.

ولعلّ أكثر الكتّاب يعتبرون (ابن العلقمي) وزير الخليفة المستعصم، هو الّذي أوقع هذه الخسارة الفادحة.

والعجيب ان بعض المؤلّفين يطلقون افتراضات وكأنّها وقائع، وينسابون معها، ويبنون عليها أوهاماً يعتبرونها حقائق، ثمّ يبدأون بمناقشة أوهامهم، فيمتدحون موقفاً أو ينتقصون موقفاً آخر.

في حين انّ القصّة كلّها افتراض، ليس لها نصيب من الصحّة، وبذلك يجعلون القارئ في حيرة من الأمر، هل ان ما يقرأه هو عين الصواب؟

وإذا كان كذلك، فلماذا لم يستند المؤلّف إلى مصدر من المصادر التأريخية المعتبرة؟

وهذا يعطينا انطباعاً واضحاً كيف يُزوّر التاريخ؟ فليس المزوِّرون هم وعّاظ السلاطين فقط الّذين يتركّز همّهم في إرضاء السلطان ليكون لهم جاه أو مال، أو على الأقل ليدفعوا عن أنفسهم شرّاً محتملاً.

ولكن الّذي نراه ونقرأه أحياناً قد يتجاوز طريقة وعاظ السلاطين وهدفهم في الكتابة، ليشمل أصحاب الأهواء الّتي قد تكون أهواء قومية أو أهواء طائفية أو إقليمية أو غيرها.

والخطورة في كتابة التاريخ تكمن هنا، فما لم يكن الانسان متجرداً حين يكتب، فليس فيما يكتبه كبير ثقة وعظيم اطمئنان، وهو الّذي نجده في اختلاف الآراء في مفردة واحدة من مفردات التاريخ، حتّى ربّما كان المؤرِّخون قد عاشوا هذه المفردة بأنفسهم.

وكتب التاريخ والحوادث الّتي فيه كثيرة، يجد القارئ أمامه حشداً من القضايا الّتي تختلف حولها وجهات النظر.

وتبقى هذه المهمّة من مهمّات كاتب التاريخ الّذي يشترط فيه قبل أن يقدم على أي عمل ان يتجرّد من أهوائه الخاصّة، فلا يتقمّص ـ حين يكتب ـ شخصيته المنحازة مطلقاً، ليكون موفّقاً في الوصول إلى الحقيقة الّتي غالباً ما تضيع في غياهب الأهواء.

❊ ❊ ❊

وقضيّة سقوط بغداد على يد المغول الّتي استتبعت انتهاء الخلافة العباسية، مفردة

من تلك المفردات، الّتي تضاربت فيها الآراء ووجهات النظر، وتدخلت فيها الأهواء والنوازع كثيراً.

وإذا كان الوزير (ابن العلقمي) قد وجهت إليه أكثر السهام فإنّ بعض المؤرّخين يوجّهون السهام إلى الخليفة المستعصم نفسه، وإلى قائد جيوشه (مجاهدالدين أيبك الدواتدار) ويبرّئ ساحة ابن العلقمي.

والواقع إنّني كنت منذ فترة أعيش هاجس سقوط بغداد وأتمنّى أن تتوضّح لي الأسباب الّتي أدّت إلى ذلك، وكغيري عشتُ متاهات كثيرة في متابعتي لقراءة بعض الكتب الّتي تؤرخ لتلك الحادثة، وهو الّذي دعاني إلى أن أقوم ـ شخصيّاً ـ بالبحث الدقيق والدراسة الوافية الّتي تؤهلني لأن أكتب بتجرّد، وإن كنت انتمي إلى قومية معيّنة أو طائفة معيّنة أو إقليم معيّن.

فالمؤرّخ عليه أن يقول الحق، عليه أن يقول انّ شخصاً كان في بطون التاريخ يفعل كذا، سواء كان موافقاً للعقيدة الطائفية الّتي يعتقد بها الكاتب أو للقومية الّتي ينتمي إليها أم لا. وهذا لا يعتبر قدحاً في طائفته أو قوميته، فانّه ناقل للخبر ليس إلاّ، ولا تتحمل طائفته أو قوميته وزر تلك الحادثة.

أرجو من الله تعالى أن يوفقني في مهمّتي هذه الصعبة وأن أستطيع أن أقدِّم للقارئ صفحات من التاريخ كما هي، فلن أتحمّل أنا ولن يتحمّل القارئ وزر مَن فعل ذلك. والله من وراء القصد.

حسن شبّر

مفارقات

حصلت في الثورة والدولة

إبراهيم الإمام يطلب قتل كلّ شخص يتكلّم العربيّة

يجدر بنا أن نبحث ـ في البداية ـ عن خلفيات الطلب الّذي تقدم به إبراهيم الإمام العباسي إلى أبي مسلم الخراساني.

فان كتب التاريخ تجمع على أن إبراهيم الإمام وجّه كتاباً إلى أبي مسلم يتضمن تعليمات خطيرة.

فقد جاء في تلك الرسالة الّتي هي في جانب منها خطاب لأهل خراسان (انّه قد أجمع رأيه على أبي مسلم، وأمرهم بالسمع والطاعة له... ثمّ قال لأبي مسلم: انّك رجل منّا أهل البيت احفظ وصيّتي، انظر هذا الحي من اليمن، فالزمهم واسكن بين أظهرهم، فإنّ الله لا يتمّ هذا الأمر إلّا بهم، وأمّا مضر فإنّهم العدوّ القريب الدار... واقتل مَن شككت فيه، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان مَن يتكلّم بالعربية فافعل، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله...)[1].

فالكتاب يتضمن عدّة تعليمات، أهمّها اثنان:

١ ـ ان يلتزم اليمانية ويسكن فيهم.

٢ ـ وان يقتل من يتكلم بالعربية، مهما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

* * *

وإبراهيم الإمام، شخص ذكي، يعرف مِن أين تؤكل الكتف، وقائد محنّك مِن الطّراز الأوّل، لا يقول شيئاً هراء، وانّما هو رجل عبقري في التخطيط والسياسة والحرب.

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٥ / ص ٢١.

ورجل كإبراهيم الّذي يريد ان يقضي على امبراطورية كبرى كالامبراطورية الأمويّة، يفترض فيه ان يستفيد من كل تجمع، لبثّ دعوته أوّلاً، ومن ثمّ لخوض حرب سجال لم تكن نتيجتها معروفة مسبقاً.

فما دهاه يميّز قوماً على قوم، ثمّ يأمره بقتل كل عربي في خراسان، فيكون بذلك قد فتح عدّة جبهات في آن واحد؟

وقد حاولت ان استقصي كتب التاريخ لأجد فيها مبرراً لذلك، ولكنّني ما وجدت فيها شيئاً عدا انّهم يذكرون القصّة كما هي لا يعلّقون عليها.

* * *

والواقع إنّ الباحث ـ خصوصاً إذا كان متجرّداً يقف مدهوشاً أمام هذه التساؤلات الّتي تبدو لغير المتعمق ـ انّها في غاية الحماقة.

فلماذا هذا الأسلوب في التمييز بين عربي وآخر؟

وهل يبلغ به الغباء لهذا الحد؟ وهو في أمسّ الحاجة لاستيعاب كلّ الطاقات، ومن ثمّ لاستنفارها في مواجهة عدوّه لإقامة مشروعه الكبير.

فهل كان يحقد على العرب، ليوقع بينهم العداوة والبغضاء؟

وهو العربي الصميم.

وهل كان يريد ان يؤسّس دولة فارسية في خراسان؟

إذا كانت غايته تلك، فقد تكون الوسيلة مبررة.

ولكننا نجد انّ الدولة أصبحت عربية عاصمتها في بلاد العرب، في الكوفة والحيرة وبغداد وسامراء...

إذن لابدّ أن تكون غايته كبرى، تستأهل أن يقتل فيها كل عربي بلغ خمسة أشبار.

إنّ تلك أسئلة تبتعها أسئلة أخرى، قد تتفرّع عنها، لابدّ لباحث التاريخ ـ وليس لقارئه ـ أن يكتشفها، وهو ما نحاوله إن شاء الله فيما يأتي.

* * *

إبراهيم الإمام يلتزم القبائل اليمانية ضدّ المضرية

فالعنصرية القومية بين المضرية واليمانية كانت موجودة منذ نشأت قبائل الحجاز وقبائل اليمن.

وحيث كانت قريش ضمن المجموعة المضرية الحجازية، فقد كانت القبائل المضرية تجد نفسها أرفع مستوى وعنصراً من غيرها، ففيها أرومة العرب وهاماتها والكعبة الّتي هي مثابة العرب في كل مكان.

وكان الشعراء يتبارون ويتفنون بأمجادهم وشرفهم، كل واحد منهم يفضل قومه على غيرهم.

واستفاد الأمويون من هذه النعرة وقربوا إليهم المضريين على حساب اليمانيين، حتّى لقد كانت تنشأ بين الفريقين حروب ودماء.

فأراد إبراهيم الإمام ان يستفيد من نفس النعرة القومية تلك، ولكن في هذه المرة يريد أن يقدم اليمانية على المضرية، على عكس ما كان يفعله الأمويون.

* * *

ولعلّ فكرة التشويش على الأمويين بالعصبية القبلية كانت أسبق من إبراهيم الإمام. فإنّه ربّما استعارها من ابن عمّه الهاشمي عبدالله بن جعفر بن أبي طالب.

فالتأريخ يروي أنّ الشاعر (الكميت بن زيد الأسدي) المضري، نظم قصيدة بائيّة في مدح أهل البيت من بني هاشم، يقول في أوّلها:

طربت وما شوقاً إلى البيض أطربُ   ولا لعباً مني وذو الشعب يلعب

فلمّا أنشدها لعبدالله بن جعفر أكرمه بمائة ألف درهم، وقال للكميت:

يا أبا المستهل! أتيناك بجهد المقل، ونحن في دولة عدونا، وقد جمعنا لك هذا المال وفيه حلي النّساء كما ترى، فاستعن بها على دهرك.

فقال: بأبي أنت وأمّي، قد أكثرتم وأطيبتم، وما أردتُ بمدحي إيّاكم إلّا الله ورسوله، ولم أك لآخذ لذلك ثمناً من الدُّنيا، فاردده إلى أهله.

فجهد به عبدالله ان يقبله بكل حيلة، فأبى.

فقال: إنّ ابيت ان تقبل، فإنّي رأيت أن تقول شيئاً تغضب[1] به بين الناس، لعلّ فتنة تحدث فيخرج من بين أصابعها بعض ما تحبّ.

فابتدأ الكميت، وقال قصيدته الّتي يذكر فيها مناقب قومه من مضر... ويكثر من تفضيلهم ويطنب في وصفهم، وأنّهم أفضل من قحطان، وهي قصيدته الّتي أوّلها:

ألا حُيِّيتِ عنّا يا مدينا وهل ناس تقول مسلّمينا

إلى أن انتهى إلى قوله تصريحاً وتعريضاً باليمن فيما كان من أمر الحبشة وغيرهم فيها وهو قوله:

لنا قمر السماء وكل نجم تشير إليه أيدي المهتدينا
وجدت الله إذ سمّى نزاراً واسكنهم بمكّة قاطنينا
لنا جعلَ المكارم خالصات وللناس القفا ولنا الجبينا
وما ضربت هجائن من نزار فوالج من فحول الأعجمينا
وما حملوا الحمير على عتاقٍ مطهرة فيلفوا مبلغينا
وما وجدت نساء بني نزار حلائل أسودين وأحمرينا

❊ ❊ ❊

وقد نقض دعبل الخزاعي يرد على الكميت ـ وإن كان جاء من بعده ـ هذه القصيدة على الكميت، وذكر مناقب اليمن وفضائلها من ملوكها، وصرّح وعرّض بغيرهم، كما فعل الكميت، وذلك في قصيدته الّتي أوّلها:

---

١ ـ أي تثير في الفريقين الغضب على بعضهما.

أفيق من ملامك ياضعينا ... كفاك اللوم مرّ الأربعينا
ألم تحزنك أحداث اللّيالي ... يشيّبني النّوائب والقرونا
أحيّ الغرّ من سروات قومي ... لقد حُيّيت عنا يا مدينا
فإن يك آل إسرائيل منكم ... وكنتم بالأعاجم فاخرينا
فلا تنسَ الخنازير اللواتي ... مُسِخن مع القرود الخاسئينا
بأيلة والخليج لهم رسوم ... وآثار قدُمن وما محينا
وما طلب الكميت طلاب وترٍ ... ولكنّا لنصرتنا هُجينا
لقد علمت نزار أن قومي ... إلى نصر النبوّة فاخرينا

* * *

وغي قول الكميت في النزارية واليمانية، وافتخرت نزار على اليمن، وافتخرت اليمن على نزار، وأدلى كل فريق بماله من المناقب، وتحزّبت الناس وثارت العصبية في البدو والحضر، فنتج بذلك أمر مروان بن محمّد الجعدي وتعصبه لقومه من نزار على اليمن، وانحراف اليمن عنه إلى الدعوة العباسية وتغلغل الأمر إلى انتقال الدولة عن بني أميّة إلى بني هاشم[1].

أبو مسلم الخراساني يثير حرباً بين المضرية واليمانية

وكان إبراهيم الإمام ذكيّاً، عندما ضرب على وتر العنصرية، وهو بذلك يستطيع أن يكسب قلوب وأصوات وسيوف اليمانيين الّذين كانوا مبعّدين من السلطة وليستعين بهم على ضرب (مضر) أعوان مروان وبني أميّة كافّة.

ثمّ ربط إبراهيم الإمام، النصرَ بالإعتماد على اليمانية «فإنّ الله لا يتمّ هذا الأمر إلّا

---

١ ـ مروج الذهب للمسعودي / ج ٣/ ص ٢٣٠ ـ ٢٣٢.

بهم» فأي مدح أفضل من هذا؟ فقد جعل إرادة الله في النصر هو الاعتماد على اليمانيين دون غيرهم، وهذا يثير في اليمانية روحاً قويّة بالعزّة والكبرياء والتطاول على الآخرين، فقد أرادهم الله لذلك!!

وبالفعل فقد استطاع أبو مسلم الخراساني ان يستغل هذه النقطة أقوى استغلال...

يقول الطبري عن حوادث عام ١٢٩هـ في معرض حديثه عن القتال بين (نصر ابن سيار) عامل مروان على خراسان وبين (جديع بن علي الكرماني) الثائر عليه، وقد كان الأوّل يعتمد على المضرية في حين يعتمد الثاني على اليمانية...

يقول الطبري هنا:

فلمّا استيقن أبو مسلم أنّ كلا الفريقين قد أثخن صاحبه، وانّه لا مدد لهم، جعل يكتب الكتب إلى شيبان[1]، ثمّ يقول للرسول: اجعل طريقك على المضرية، فانّهم سيعرضون لك ويأخذون كتبك، فكانوا يأخذونها فيقرأون فيها «إنّي رأيت أهل اليمن لا وفاء لهم ولا خير فيهم فلا تثقنّ بهم ولا تطمئن إليهم،، فإنّي أرجو أن يريك الله ما تحب، ولئن بقيتُ لا أدع لهم شعراً ولا ظِفراً».

ويرسل رسولاً آخر في طريق آخر بكتاب فيه ذكر المضرية واطراء اليمن بمثل ذلك، حتّى صار هوى الفريقين جميعاً معه.

وجعل يكتب إلى (نصر بن سيار) وإلى (الكرماني) أنّ الإمام قد أوصاني بكم ولست أعدو رأيه فيكم[2].

فالطريقة هذه تدل على عبقرية واسعة في استغلاله للعنصرية القومية، ولإثارة جماعة على أخرى، وليكسب الجولة في الأخير، وهو الّذي حصل.

* * *

---

١ ـ وهم من اليمانية.

٢ ـ الطبري / ج ٩ / ص ١٩٧٢.

وأخيراً يقتل الكرماني في المعركة، ثمّ يعقد الصلح بين (نصر بن سيار وبين علي ابن الكرماني) المقتول، ويتّفق الطرفان على حرب أبي مسلم الخراساني.

فقال سليمان بن كثير (وكان من دُعاة العباسيين) لعلي بن الكرماني: يقول لك أبو مسلم: أما تأنف من مصالحة نصر بن سيار وقد قتل بالأمس أباك وصلبه؟ ما كنت أحسبك تجامع نصر بن سيار في مسجد تصلّيان فيه.

فأدرك (علي بن الكرماني) الحفيظة، فرجع عن رأيه وانتقض صلح العرب[1].

❊ ❊ ❊

ولمّا انتقض صلحهم بعث (نصر بن سيار) إلى أبي مسلم يلتمس منه ان يدخل مع نصر.

وبعثت (ربيعة وقحطان) إلى أبي مسلم بمثل ذلك.

فتراسلوا بذلك أيّاماً، فأمرهم أبو مسلم ان يقدم عليه وفد الفريقين حتّى يختار أحدهما، ففعلوا.

وأمر أبو مسلم الشيعة أن يختاروا (ربيعة وقحطان) فانّ السلطان[2] في مضر، وهم عمّال مروان الجعدي، وهم قتلة يحيى بن زيد.

فقدم الوفدان، فكان وفد مضر «عقيل بن معقل بن حسّان اللّيثي وعبيدالله ابن عبد ربّه اللّيثي والخطاب بن محمّد السلمي» في رجال منهم.

وكان وفد قحطان «عثمان بن الكرماني ومحمّد بن المثنى وسورة بن محمّد بن عزيز الكندي» في رجال منهم.

فأمر أبو مسلم (عثمان بن الكرماني) وأصحابه، فدخلوا بستان المحتفز، وقد بسط لهم فيه، فقعدوا، وجلس أبو مسلم في بيت في دار المحتفز. وأذن لعقيل بن معقل

---

١ ـ أي الصّلح الّذي تمّ بين مضر واليمانية حيث كان يمثّلها نصر والكرماني.

٢ ـ أي الدولة الأمويّة.

وأصحابه من وفد مضر، فدخلوا إليه.

ومع أبي مسلم في البيت سبعون رجلاً من الشيعة، فقرأ على الشيعة كتاباً كتبه أبو مسلم ليختاروا أحد الفريقين.

فلمّا فرغ من قراءة الكتاب، قام سليمان بن كثير فتكلم وكان خطيباً مفوهاً، فاختار (علي بن الكرماني) وأصحابه.

وقام أبو منصور طلحة بن زريق النقيب فيهم، وكان فصيحاً متكلماً، فقال كمقالة سليمان بن كثير.

ثمّ قام مزيد بن شفيق السلمي، فقال: مضر قتلة آل النبيّ ﷺ وأعوان بني أميّة وشيعة مروان الجعدي، ودماؤنا في أعناقهم وأموالنا في أيديهم، والتباعات قبلَهم، ونصر بن سيار عامل مروان على خراسان ينفذ أموره، ويدعو له على منبره ويسمِّيه أمير المؤمنين، ونحن في ذلك إلى الله براء وأن يكون مروان أمير المؤمنين وأن يكون نصر على هدى وصواب، وقد اخترنا (علي بن الكرماني) وأصحابه من قحطان وربيعة.

فقال السبعون الّذين جمعوا في البيت بقول مزيد بن شفيق.

فنهض وفد مضر عليهم الذلّة والكآبة[١].

* * *

وكان أبو مسلم الخراساني مسروراً بافتراق كلمة الوفدين العربيين، وأمرَ أصحابه أن يبتنوا المساكن ويستعدوا للشتاء، فقد أعفاهم الله من اجتماع (كلمة العرب) وصيّرهم بنا إلى افتراق الكلمة، وكان ذلك قدراً من الله مقدوراً[٢].

والّذي كان يظهره أبو مسلم من الميل إلى اليمانية، كان (تكتيكاً) مرحليّاً، فسوف

---

١ ـ الطبري / ج ٩ / ص ١٩٨٤ ـ ١٩٨٦.

٢ ـ المصدر السابق / ص ١٩٨٦.

يضرب كلّا الطرفين، ويعتمد على أهل خراسان من الفرس فقط.

امّا لماذا هذا؟

فله تفسير سوف نذكره إن شاء الله.

* * *

إبراهيم الإمام

كان لا يريد ان يشرك عرب خراسان في دعوته

ولم يكن أبو مسلم ـ في باطنه ـ يؤيّد العرب، سواء كانوا حجازيين أو يمانيين، وليس حقده عليهم لأنّه فارسي وهم عرب، وانّما لغرض سياسي كبير، له تأثير مهم في نجاح الدعوة العباسية.

فهو يطبق إرادة إبراهيم الإمام بحذافيرها «وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلّم بالعربية فافعل، وايما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله» هنا بيت القصيد.

انّ الإمام لا يريد ان يشرك في دعوته ـ في خراسان ـ شخصاً يتكلم العربية، فالعرب الّذين نزحوا من الحجاز أو الّذين نزحوا من اليمن، أو أبناء وأحفاد أولئك ـ بصورة عامّة ـ كانوا يعرفون أكثر من غيرهم المداخلات السياسية الّتي حدثت في الاسلام، سواء الّتي كانت في حياة النبي ﷺ أو بعد وفاته.

كانوا يعرفون ماذا حدث في سقيفة بني ساعدة، ويعرفون ماذا كان يرد على لسان النبي ﷺ في حق علي، وان كان كثير من تلك الروايات قد حاول القوم طمسها.

وهم يعرفون أيضاً كيف يفسّرون القرآن الكريم في (آية المباهلة وآية التطهير وغيرهما).

* * *

أمّا الفرس فقد كانوا يختلفون عن العرب في الاطلاع على تلك المداخلات أو فهمهم لها، ولكنّهم بصورة عامّة كانوا يحترمون الرسول وآل الرسول.

ولقد بلغهم مأساة الحسين وثورة زيد على بني أميّة وكذلك ثورة يحيى بن زيد الّتي وقعت في الجوزجان في خراسان.

وقد أدركوا ان كل ذلك كان لمواجهة ظلم بني أميّة وجورهم وفسق حكّامهم. وبالتالي فانّ الفرس كانوا يتوقون للقضاء على حكم بني أميّة، كما كانوا يتوقون إلى أن يتولّى الحكم من ينتسب إلى الرسول.

وشعار (الرضا من آل البيت) كان يحقق أهدافه في ربوعهم. وآل الرسول ـ عادة ـ هم ذرّيّته، وهو ينطبق فقط على ذرّيّة عليّ بن أبي طالب.

ولو اطّلعوا على أنّ المقصود من آل الرسول هم العباسيون لكان لهم رأي آخر. ولذلك فانّ إبراهيم الإمام كان يخشى من العرب ان يفضحوا فرية ذلك الشعار، لأنّهم كانوا أعرَف من غيرهم بحقيقة الأمر.

* * *

ولذلك فانّ الدعوة العباسية نجحت بهذا الشعار العائم (الرضا من آل البيت) الّذي استقطب الفرس أوّلاً وأغلب الحاقدين على بني أميّة والّذين عاشوا مظالمهم وفسقهم وفجورهم.

والشعار بهذا المقدار (الرضا من آل البيت) كان يكفي في تحييد الناس عن بني أميّة، كما كان يؤتي أكله بسرعه.

وليس بعيداً أنّ دعاة العباسيين كانوا يبيّنون للأمّة منزلة آل البيت على الاجمال، وانّ الله سوف ينقذ بهم الأرض ويخلصهم من شرور بني أميّة.

ونتيجة لذلك، فانّه كان من الأفضل لبني العباس أن يزيحوا من أمام دعوتهم في خراسان (المنطقة الّتي انطلقت منها الدعوة والثورة) أن يزيحوا من يخشى منه أن يبيّن للأمّة المقصود من (آل البيت) وليس أولئك إلّا العرب من الحجاز واليمن.

* * *

فإذا وجدنا انّ الدعوة اعتمدت على اليمانيين تكتيكاً في البداية، فانّه لا بـدّ مـن اقصاء كل عربي في النهاية، حجازياً كان أو يمانياً (إن استطعت ان لا تدع بخراسان أرضاً فيها عربي فافعل، وايما غلام بلغ خمسة أشبار، فاتهمته فاقتله)[١].

إذا اتّهمه بماذا؟

لا شك انّ المقصود انّه يتهمه انّه يعرف شيئاً عن تلك المداخلات وعـن حـقيقة المقصود (بآل البيت).

❊ ❊ ❊

ومن هذا المنطلق، فانّ إبراهيم الإمام ابن محمّد بن علي بن عبدالله بن العباس بعث شخصاً إلى خراسان ونهاه عن الاتصال برجل من نيسابور يقال له (غالب) لأنّه كان مفرطاً في حب بني فاطمة.

ويقال: أوّل من أتى خراسان من دعاة بني العباس، زياد أبو محمّد مولى همدان في ولاية أسد، بعثه محمّد بن علي بن عبدالله بن العباس، وقال له: إنزل في اليمن والطف مضر، ونهاه عن رجل من نيسابور، يقال له غالب لأنّه كان مـفرطاً في حبّ بـني فاطمة.

ويقال: أوّل من أتى خراسان بكتاب محـمّد بن علي، حرب بن عثمان مولى بـني قيس بن ثعلبة من أهل بلخ، فلمّا قدم زياد، دعا إلى بني العباس وذكر سيرة بني أميّة وظلمهم وأطعم الناس الطعام، وقدم عليه غالب وتناظرا في تفضـيل آل عـلي وآل العباس وافترقا[٢].

❊ ❊ ❊

الدعوة لأهل البيت كانت شعاراً

فشعار الدعوة (للرضا من آل البيت) لا يمكن ان يحقق نجاحاً إلّا إذا تمّ القضاء على

---

١ ـ الإمامة والسياسة لابن قتيبة/ ج ٢ / ص ١٣٧.

٢ ـ الكامل في التاريخ / ج ٤ / ص ٣٨٢.

مَن يعرف حقيقة أهل البيت وكنههم، وهم في خراسان ـ حينذاك ـ العرب من مضر وقحطان.

ومن يشك فيه انّه يعرف شيئاً من ذلك ممّن بلغ خمسة أشبار، وهو الّذي بلغ عشرة أعوام تقريباً، فلابدّ ان يقتل أيضاً.

ولا يهم الدعوة العباسية ـ لكي تنجح ـ ان يُقضى على مضر وقحطان، إذا كان أولئك حجراً في الطريق.

فقد أرسل إبراهيم الإمام كتاباً إلى أبي مسلم يلعنه فيه ويسبّه، حيث لم ينتهز الفرصة من (نصر والكرماني) وهما من مضر وقحطان، إذ أمكناه، ويأمره أن لا يدع بخراسان عربياً إلّا قتله[١].

* * *

إبراهيم الإمام يوهم الخراسانيين بأنّ أبا مسلم من أهل البيت

ولكي تكتمل الخطّة والحيلة والمكيدة على الأمّة المرحومة، فانّ إبراهيم الإمام القائد المحنّك يخاطب أبا مسلم بأنّك رجل منّا أهل البيت[٢] لأنّه يعلم أنّ هذه النسبة تؤتي أكلها في أهل خراسان خاصّة من غير العرب.

فالعرب يعرفون أبا مسلم ونسبه، ولا تنطلي عليهم هذه الحيلة، فليس أبو مسلم من أهل البيت، بل وليس عربياً.

ولذلك فان أبا مسلم نراه يخشى من أن يظهر نسبه.

فقد ذهب أبو مسلم إلى قرية يقال لها (بالين) في خباء ليس له حرس ولا حجّاب، وعظم أمره عند الناس، وقالوا:

ظهر رجل من بني هاشم، له حلم ووقار وسكينة، فانطلق فتية من أهل مرو

١ ـ الطبري / ج ٩/ ص ١٩٧٤.

٢ ـ المصدر السابق / ص ١٩٣٧.

نسّاك، كانوا يطلبون الفقه، فأتوا أبا مسلم في معسكره، فسألوه عن نسبه.

فقال: خبري خير لكم من نسبي.

وسألوه عن أشياء من الفقه.

فقال: أمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر خير لكم من هذا، ونحن في شغل، ونحن إلى عونكم أحوج منّا إلى مسئلتكم فاعفونا.

قالوا: والله ما نعرف لك نسباً ولا نظنّك تبق إلّا قليلاً حتّى تقتل، وما بينك وبين ذلك إلّا أن يتفرّغ أحد هٰذين[1].

قال أبو مسلم: بل أنا اقتلهما إن شاء الله، فرجع الفقيه[2].

وقد كان إبراهيم الإمام يعني ما يقول عندما خاطب أبا مسلم «بأنّك منّا أهل البيت» فان لذلك تأثيراً عظيماً على العامّة، ولكن بعض طلّاب الفقه الّذين يعتبرون أفضل من غيرهم، كانوا يعرفون ان من ينتسب إلى أهل البيت لابدّ أن يكون معه مقدار من العلم، بما يحفظ من أحاديث رسول الله ﷺ.

ولكنّهم عندما سألوه عن نسبه أحجم، وعندما سألوه عن بعض المسائل الفقهية أحجم أيضاً، وحاول أن يصرف الحديث إلى ناحية أخرى.

وكانت لهذه النسبة الّتي أضفاها إبراهيم الإمام على أبي مسلم أن جعلت الأمّة تتوارد عليه.

فقد بثّ أبو مسلم دعاته في الناس، وظهر أمره، وقال الناس: قدم رجل من بني هاشم. فأتوه من كل وجه، فظهر يوم الفطر في قرية (خالد بن إبراهيم) فصلّى بالناس يوم الفطر القاسم بن مجاشع، ثمّ ارتحل، فوافاه[3] في يوم واحد أهل ستين قرية[4]

---

١ ـ يقصد بهٰذين (نصر بن سيار والكرماني).

٢ ـ الطبري / ج ٩ / ص ١٩٦٥.

٣ ـ أي وافى أبا مسلم.

٤ ـ الطبري / ج ٩ / ص ١٩٥٢.

وكل أولئك، كانوا يعتقدون أمرين:

١ ـ أن أبا مسلم هو واحد من أهل البيت.

٢ ـ وأنّ المقصود من (أهل البيت) هم ذرِّيّة رسول الله.

والأمّة في خراسان، وإن كانت بعيدة عن حاضرة الاسلام (المدينة المنوّرة) وانّهم من مسلمة الفتح في زمن الخليفة عمر بن الخطاب، إلّا انّهم كانوا يقدسون أهل البيت تقديساً لنبيّ الاسلام ﷺ، ويعتقدون جازمين بأنّ الدعوة هي (الذريّة الرسول) بعيداً عن العنصريات القومية والمذهبية.

وحيث انّهم كانوا يواجهون فسق حكّام بني أميّة وجهاً لوجه، وحيث أنّ الدعوة الآن هي لأهل البيت، وهم لا بدّ ان يكونوا من ذرّيّة الرسول، فقد أخذوا يحوطون الدعوة بأنفسهم ويطلبون بذلك رضوان الله تعالى.

❊ ❊ ❊

ويذكر التاريخ:

أنّ إبراهيم الإمام، عندما عيّن أبا مسلم قائداً للدعوة في خراسان بعث معه كتاباً إلى أهل خراسان، وكان أبو مسلم حديث السن، ربّما لا يتجاوز التاسعة عشر، لم يقبله سليمان بن كثير (داعية العباسيين) لصغر سنه، وتخوّف ان لا يقوى على أمرهم، وخاف على نفسه وأصحابه فردّه.

وكان أبو داود خالد بن إبراهيم غائباً خلف نهر بلخ، ولمّا قدم (مرو) أقرأوه كتاب إبراهيم الإمام، فسأل عن الرجل الّذي وجهه فاخبروه، وان سليمان بن كثير ردّه.

فأرسل إلى جميع النقباء، فاجتمعوا في منزل عمران بن إسماعيل.

فقال لهم أبو داود: أتاكم كتاب الإمام فيمن وجهه إليكم وأنا غائب، فرددتموه، فما حجتكم في ردّه؟

فقال سليمان بن كثير: لحداثة سنه، وتخوفاً ان لا يقدر على القيام بهذا الأمر، فأشفقنا على من دعونا إليه وعلى أنفسنا وعلى المجيبين لنا.

فقال: هل فيكم أحد ينكر انّ الله تبارك وتعالى اختار محمّداً ﷺ وانتخبه واصطفاه وبعثِ برسالته إلى جميع خلقه؟ فهل فيكم أحد ينكر ذلك؟

قالوا: لا.

قال: افتشكّون انّ الله تعالى نزّل عليه كتابه، فأتاه جبريل ؑ الروح الأمين، أحلّ فيه حلاله وحرّم فيه حرامه، وشرع فيه شرائعه وسنّ فيه سننه، وأنبأه فيه بما كان قبله وما هو كائن بعده إلى يوم القيامة؟

قالوا: لا.

قال: افتشكّون انّ الله عزّ وجلّ قبضه إليه بعدما أدّى ما عليه من رسالة ربّه؟

قالوا: لا.

قال: أفتظنون ان ذلك العلم الّذي أنزل عليه رفع معه او خلّفه؟

قالوا: بل خلفه.

قال: افتظنونه خلفه عند غير عترته وأهل بيته الأقرب فالأقرب؟

قالوا: لا.

قال: فهل أحد منكم إذا رأى من هذا الأمر اقبالاً ورأى الناس له محبّين بدا له ان يصرف ذلك إلى نفسه؟

قالوا: اللّهمّ لا، وكيف يكون ذلك؟

قال: لست أقول لكم فعلتم، ولكن الشيطان ربّما نزغ النزغة فيما يكون وفيما لا يكون، فهل فيكم أحد بدا له أن يصرف هذا الأمر عن أهل البيت إلى غيرهم من عترة النبيّ ﷺ ؟

قالوا: لا.

قال: أفتشكّون انّهم معدن العلم وأصحاب ميراث رسول الله ﷺ ؟

قالوا: لا.

قال: فأراكم شككتم في أمرهم، ورددتم علمهم، ولو لم يعلموا ان هذا الرجل (أبو مسلم) الّذي ينبغي له ان يقوم بأمرهم لم يبعثوه إليكم، وهو لا يتهم في موالاتهم ونصرتهم والقيام بحقهم.

فبعثوا إلى أبي مسلم، فردّوه من (قومس) بقول أبي داود وولّوه أمرهم وسمعوا له وأطاعوا[١].

❊ ❊ ❊

كان العباسيون يجبون أموال الناس بحجّة انّهم أهل البيت

فالحيلة كانت تؤثّر أثرها في الدّعاة، حيث يعتقدون أنّ علم النبيّ ﷺ عند الأقرب فالأقرب من ذرّيّته، وهم الآن يدعون للأقرب دون تحديد لشخص الأقرب.

فهل كان أولئك الحاضرون في الاجتماع الّذي أقامه أبو داود، يعلمون من هو صاحب الدعوة؟

لا ندري...

فلربّما كان الأمر كذلك.

وبنفس الحيلة والمكيدة، كانت تُجبى الأموال لإبراهيم الإمام على أساس انّها تصل إلى أهل البيت.

فلقد توجّه في عام ١٢٧هـ (سليمان بن كثير ولاهز بن قريظ وقحطبه) إلى مكّة، فلقوا إبراهيم الإمام بها، وأوصلوا إلى مولى له عشرين ألف دينار ومائتي ألف درهم ومسكاً ومتاعاً كثيراً، وكان معهم أبو مسلم.

فقال سليمان لإبراهيم: هذا مولاك.

وفي عام ١٢٧هـ أيضاً، كتب بكير بن ماهان إلى إبراهيم الإمام، انّه في الموت وانّه

---

١ ـ الطبري / ج ٩ / ص ١٩٦١.

قد استخلف أبا سلمه الخلال (حفص بن سليمان) وهو رضا للأمر.

فكتب إبراهيم لأبي سلمة يأمره بالقيام بأمر أصحابه، وكتب إلى أهل خراسان يخبرهم انّه قد أسند أمرهم إليه.

ومضى أبو سلمة إلى خراسان، فصدّقوه وقبلوا أمره ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشيعة وخُمس أموالهم[١].

❊ ❊ ❊

والعباسيون في دعوتهم كانوا يدركون مدى تأثير شعار (الرضا من آل البيت) في بذل الناس لأموالهم، وسخائهم في إراقة دمائهم من أجلهم كأهل لبيت النبيّ ﷺ وهو ما لم يتحقق لأية فئة غيرهم في تاريخ الاسلام على الأقل، خصوصاً إذا عرفنا انّهم كانوا قد سرقوا هذا الشعار، أو فلنقل انّهم خدعوا الأمّة في رفعه.

ومن هذا المنطلق أراد أبو سلمة الخلال ان يصرف الدعوة إلى ذرّيّة فاطمة (جعفر الصادق وعبدالله المحض بن الحسن بن الحسن) ولكن الإمام الصادق كان يعرف واقع الأمر وكنه الحقيقة، فلم يقبل الدعوة، إلّا أنّ عبدالله تصوّر أنّ الأمر سوفَ يتم له بسهولة[٢].



من هذه المقدمة، نستطيع ان نكتشف لماذا القضاء على العرب، والاعتماد على الناس الّذين كانوا مخدوعين بشعار (الرضا من آل البيت).

فالأمّة الاسلامية، مهما كانت بعيدة عن المداخلات السياسية الّتي اكتنفت حياة المسلمين وتحزباتهم، فانّهم يحملون الود والتقديس للنبيّ ﷺ ولأهل بيته الكرام.

وهذا هو الّذي كان يبتغيه دعاة العباسيين، ويكفيهم في انجاح ثورتهم.

---

١ ـ الكامل في التاريخ / ج ٥ / ص ١٥، والطبري / ج ٩ / ص ١٩١٦.

٢ ـ يراجع كتابنا (شذرات سياسية من حياة الأئمة عليهم السلام) / ص ١٣.

أبو جعفر المنصور
يحارب النفس الزكيّة بالمخدوعين بالشعار الكاذب

وقد استفاد العباسيون بعد ذلك أيضاً من هذا الإبهام في الشعار، استفاد منه أبو جعفر المنصور في حربه لمحمّد النفس الزكية، الّذي كان قد ثار في (المدينة) وأرسل له أبو جعفر جيشاً بقيادة ابن أخيه (عيسى بن موسى) وكان الجيش في غالبه إن لم يكن كلّه من أهالي خراسان.

يقول الطبري:

عندما احتدمت المعركة، نادى محمّد النفس الزكية حميدَ بن قحطبة: إن كنت فارساً وأنت تعتد ذلك على أهل خراسان فابرز لي، فأنا محمّد بن عبدالله قال: قد عرفتك، وأنت الكريم بن الكريم، الشريف بن الشريف، لا والله يا أبا عبدالله، لا أبرز لك وبين يدي من هؤلاء الأغمار[١] انسان واحد، فإذا فرغت منهم فسأبرز لك لعمري[٢].

ويذكر الطبري أيضاً عن أحد المحاربين قال:

إنّا لعلى ظهر سلع[٣] ننظر وعليه أعاريب جهينة، إذ صعد إلينا رجل بيده رمح قد نصب عليه رأس رجل متصلاً بحلقومه وكبده وأعفاج بطنه، فرأيت منه منظراً هائلاً وتطيرت منه الأعاريب، وأجفلت هاربة حتّى أسهلت[٤] وعلا الرّجل الجبل، ونادى على الجبل رطانة لأصحابه بالفارسية (كوهيان)[٥] فصعد إليه أصحابه حتّى علوا

---

١ ـ الأغمار جمع غمر بمعنى الجاهل، ويقصد انّه لا يبرز له مادام معه جيش من هؤلاء الجهلة.

٢ ـ الطبري / ج ١٠ / ص ٢٤٥.

٣ ـ سلع: جبل حول المدينة.

٤ ـ أسهلت بمعنى نزلت من الجبل إلى السهل.

٥ ـ كوهيان: كلمة فارسية تعني (الجبليّون).

سلعاً فنصبوا عليه راية سوداء[1].

* * *

وقد قلنا فيما مضى ان أهل خراسان وإن لم يكونوا يعرفون المداخلات السياسية الّتي حدثت بعد زمان الرسول ﷺ إلّا انّهم كانوا يحملون قدسية للرسول وآله ولمدينة الرسول أيضاً.

ولكن يظهر أنّ العباسيين أوهموا الجيش الخراساني بأنّ الثائر هو شخص خارجي يريد ان يعيث في الأرض فساداً وانّه ثار على المنصور الّذي هو من أهل البيت، فكان الخراسانيون يقاتلون ببسالة.

وشجّع الأمّة على الاستجابة (للشعار) حنقهم على بني أميّة الّذين بدّلوا حالة الاسلام إلى حالة أشبه ما تكون بحالة الفسّاق والعيّارين، وكاد الاسلام أن يُمسَخ.

فلمّا سمعوا بشعار (الرضا من آل البيت) تنادوا له وأيقنوا انّ الأمر سوف يعود إلى أصله، إلى رسول الله ﷺ وذرّيّته (دون أن يعلموا بالتفصيل فيمن هم آل الرسول).

ولكن ذلك الشعار كان كافياً لتحريك الأمّة الّتي تبتغي الاسلام والارتباط برسول الله ﷺ . ـه

لم تكن استجابة الفرس لدعوة (الرضا من أهل البيت) لغرض القضاء على الاسلام

ولم نجد في التاريخ أنّ الفرس انّما استجابوا لدعوة بني العباس ليحققوا مآربهم في القضاء على الاسلام من الداخل.

ويحلو لبعض المؤلفين ان يؤكدوا انّ الفرس انّما دخلوا الاسلام بدافع عنصري، هو

---

١ ـ الطبري / ج ١٠ / ص ٢٤٤.

القضاء على دولة العرب (الاسلام).

ولعلّ أشدّ أولئك هو سلمان التكريتي في كتابه (بغداد مدينة السلام وغزو المغول) فهو يرى ان صراعاً بدأ بين الفرس والدولة العباسية ويعتقد انّ (الصراع بدأ يوم بدأ مجد الحضارة العربية يتألّق، وأفلت شمس الامبراطورية الفارسية المجوسية، ومهما كانت التدخّلات الأجنبية تنخر في كيان الدولة العربية، فانّها لم تكن تدخلات شخصية محضة لإرضاء المصالح الذاتية وتحقيق المكاسب الفردية، انّما كان يكمن وراءها عداءٌ للعرب ومحاولة القضاء على السيادة العربية وازالة نفوذهم في بلاد فارس وإقامة دولة فارسية تحلّ محل الدولة العربية الّتي أذلّت غرور الفرس الّذين شعروا بضآلة موقعهم كما هي سنّة البلدان المفتوحة، ويشعر الفاتحون بالاستعلاء مهما كانوا متواضعين.

وهذا ما أدّى إلى زيادة التحفّز ضدّ الدولة العربية ومحاولة ايجاد منافذ وثغرات لضرب هذه القوّة المتسلطة عليهم، حتّى بعد أن دخل الاسلام في قلوب أكثرهم، وظلّ أقلّهم على أديانهم القديمة الوثنية أو الثنوية، واستغل الفرس كل الظروف من أجل الوثوب ضدّ العرب وحاولوا الوقوف مع كل الثوار والمنتفضين والثوارات والانتفاضات مهما كان شكلها وهدفها، لأنّ المهم هو اضعاف الدولة العربية والسعي لتحطيم هذه القوّة المحتمية في رأيهم بالاسلام الّذي حارب دياناتهم القديمة الوثنية أو الثنوية.

لذلك نجد الفرس الّذين ينحازون دائماً وأبداً إلى القوّة المعارضة لضرب القوّة المتسلّطة، حتّى إذا تمكّنوا من النفوذ، إلى كيان الدولة العربية، وتسللوا إلى أجيالهم العربية بالتزاوج، فانّهم وجدوا فرصتهم السانحة في احتضان العلويين الّذين استضعفهم العباسيون ولم ينصفوهم باعطائهم ما يستحقون من سلطة ونفوذ في الدولة العربية العباسية[١].

---

١ ـ سلمان التكريتي في كتابه (بغداد مدينة السلام وغزو المغول) / ص ٨٠.

ثمّ يورد بعد ذلك مصاديق لهذا النوع، ما حدث لأبي مسلم الخراساني ومن قبله لأبي سلمة الخلال، فهو لا يعدو أن يضرب الأمثلة للأسماء دون ان يبيّن سنداً تاريخياً لذلك أبداً.

في حين انّ المؤرّخين الّذين يذكرون قصّة أبي مسلم وأبي سلمة، لم يذكروا مطلقاً انّهما انطلقا في البداية أو النهاية من دافع عنصري قومي، وانّما لأسباب أخرى لا صلة لها بالعنصرية.

* * *

لم تكن حركة أبي سلمة الخلال للإجهاز على الحكم الاسلامي

أمّا أبو سلمة الخلال فيذكر المؤرّخون الّذين يؤرخون لفترة سقوط الدولة الأموية ومن ثم نشوء دولة بني العباس، انّ إبراهيم الإمام بعد ما حُبس من قبل مروان آخر خلفاء بني أميّة، أمر اخوته أبا العباس السفاح وأبا جعفر المنصور وبقيّة أعمامه وذويه بالمسير إلى الكوفة.

وكان أبو سلمة الخلال (حفص بن سليمان) قائد الجيش الخراساني الثائر في العراق على مروان، فأنزلهم في دار الوليد بن سعد وأخفى أمرهم شهرين، ووكل بهم وكيلاً وأراد ان يحوّل الأمر إلى آل أبي طالب لمّا بلغه الخبر عن موت إبراهيم الإمام.

فقال له أبو الجهم، وهو من القواد الّذين تحت إمرته، ما فعل الإمام؟ (ويقصد أبا العباس السفاح).

قال: لم يقدم بعد، فألحّ عليه.

فقال: ليس هذا وقت خروجه لأن (واسطاً) لم تفتح بعد.

وكان أبو سلمة إذا سئل عن الإمام، يقول: لا تعجلوا.

ولم يكن يعبأ بالإمام كثيراً، حتّى ان أبا العباس أرسل إلى أبي سلمة يسأله مائة

دينار يعطيها الجمّال كراء الجمال الّتي حملتهم إلى الكوفة، فلم يبعث بها إليهم[١].

وخاف أبو سلمة انتقاض الأمر وفساده عليه، فبعث بمحمّد بن عبدالرّحمن ابن أسلم وكان أسلم مولى لرسول الله ﷺ وكتب معه كتابين على نسخة واحدة إلى أبي عبدالله جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وإلى أبي محمّد عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، يدعو كل واحد منهما للشخوص إليه ليصرف الدعوة إليه ويجتهد في بيعة أهل خراسان له، وقال للرسول: العجل العجل، فلا تكونّن كوافد عاد.

فقدم محمّد بن عبدالرّحمٰن المدينة على أبي عبدالله جعفر بن محمّد، فلقيه ليلاً، فلمّا وصل إليه، أعلمه أنّه رسول أبي سلمة، ودفع إليه كتابه.

فقال له أبو عبدالله: وما أنا وأبو سلمة؟ وأبو سلمة شيعة لغيري.

قال: إنّي رسول، فتقرأ كتابه وتجيبه بما رأيت.

فدعا أبو عبدالله بسراج، ثمّ أخذ كتاب أبي سلمة فوضعه على السراج حتّى احترق، وقال للرسول: عرّف صاحبك بما رأيت.

ثمّ أنشأ يقول متمثلاً بقول الكميت بن زيد:

أيا موقداً ناراً لغيرك ضوؤها ويا حاطباً في غير حبلك تحطب[٢]

❊ ❊ ❊

هذه هي قصّة أبي سلمة، كما يذكرها كلّ المؤرّخين الّذين يؤرّخون لتلك الفترة، ولم نجد فيها تصريحاً أو تلميحاً للعنصرية الفارسية.

فكيف علم سلمان التكريتي انّه أراد أن يحرف الدعوة لبني علي لدوافع مجوسية؟ من دون أن يقدّم دليلاً وبرهاناً على هذا الادّعاء.

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٥ / ص ٦٤.

٢ ـ مروج الذهب / ج ٣ / ص ٢٥٣ و ٢٥٤.

وكان الأولى به أن يكون مؤرّخاً موضوعيّاً، لا ينطق إلّا من الحادثة نفسها، وليس ارضاءً لصدّام الّذي كان يحارب إيران الاسلاميّة[1] والّذي كان شعاره انّه يحارب الفرس المجوس، فجاء تخرّصه هذا انسجاماً مع أهواء صدّام.

وإذا أردنا أن نكون متجرِّدين، وأن نكون موضوعيين، ولسنا وعّاظاً للسلاطين، يجب ان نكون كصاحب المختبر الّذي يضع المادّة في انبوب الاختبار ليتبيّن فيها حقيقتها.

❊ ❊ ❊

ونضيف إلى ما تقدّم، ونتمنّى لو يقرأه سلمان التكريتي ومن هو على شاكلته.

يقول المسعودي:

ولمّا أفضت الخلافة إلى الرشيد، دعا يحيى بن خالد، فقال له:

يا أبت! أنت أجلستني في هذا المجلس ببركتك ويمنك وحُسن تدبيرك وقد قلدتك الأمر، ودفع خاتمه إليه[2].

وقبله فعل أخوه وأبوه وجدّه المنصور مثل هذا.

ولعل ذلك كان اعترافاً من الخلفاء بحسن تدبير من ينصبونه للوزارة وقيادة الجيوش، وان كانوا ينكّبون بهم بعد حين، إذ ليس للسلاطين أمان.



هارون كان يخشى من ولديه وليس من الفرس

والواقع انّ هارون كان يخشى على نفسه من ولديه أكثر ممّا يخشاه من غيرهم.

في مرضه الّذي هلك فيه وهو في طريقه إلى خراسان، سايره الصباح الطبري، فقال له: يا صباح! لا أظنّك تراني أبداً، فدعاه، فقال: ما أظنك تدري ما أجد قال

١ ـ طُبِعَ الكتاب في بغداد عام ١٩٨٨م أيّام الحرب.

٢ ـ مروج الذهب / ج ٣/ ص ٣٣٧.

الصباح: لا والله، فعدل عن الطريق واستظل بشجرة، وأمر خواصّه بالبعد، فكشف عن بطنه، فإذا عليه عصابة حرير حوالي بطنه، فقال: هذه علّة اكتمها الناس كلّهم، ولكل واحد من ولدي عليّ رقيب.

فسرور رقيب المأمون، وجبرائيل بن بختيشوع رقيب الأمين، وما منهم أحد إلّا وهو يحصي أنفاسي ويستطيل دهري، وإن أردت ان تعلم ذلك، فالساعة أدعو بدابة فيأتوني بدابّة أعجف قطوف، لتزيد بي علّتي فاكتم عليّ ذلك.

فدعا له بالبقاء، ثمّ طلب الرشيد دابة فجاؤوا بها على ما وصف فنظر إلى الصباح وركبها[1].

فالأمين والمأمون، كانا يريدان موت أبيهما لتنتقل إليهما الدولة والأبهة والسلطان، فليست الدولة عندهم لخدمة الاسلام والأمّة الاسلامية.

ونحن لا نستبعد ان كلّاً من الأمين والمأمون كان ينوي ان يخلع أخاه وهما في حياة أبيهما، وهو الّذي وقع أخيراً.

فلماذا لا يذكر المؤرِّخون هذه الأمور الّتي فتتت الدولة منذ نشوئها حتّى إذا كانت على شرف هار، كانت تنتظر من يدفعها لتسقط إلى الهاوية.

❋ ❋ ❋

ولو كان لأبي سلمة دافع عنصري، لوجد في أبي مسلم الخراساني (بناء على مقولة النكريتي) خير معين على فكرته الفارسية.

وأبو مسلم في ذلك الوقت هو سيِّد الموقف بلا منازع، وهو في الواقع صانع الدولة العباسية، ولكنّنا نرى أنّ أبا مسلم، هو الّذي يبعث مِن قبله مَن يقتل أبا سلمة لانحرافه عن بني العباس في قصّة معروفة.

فلنتسمع إلى الطبري إذ يقول:

---

١ ـ الكامل في التاريخ / ج ٥ / ص ٣٥٠.

وقد قيل ان أبا العباس قد كان تنكّر لأبي سلمة قبل ارتحاله من عسكره بالنخيلة، ثمّ تحوّل عنه إلى المدينة الهاشمية، فنزل قصر الامارة بها وهو متنكر له، قد عرف ذلك منه.

وكتب إلى أبي مسلم يعلمه رأيه وما كان همّ به من الغش[1] وما يتخوف منه.

❊ ❊ ❊

أبو مسلم يأمر بقتل أبي سلمة الخلال لأنّه حاول صرف الدعوة لبني علي

فكتب أبو مسلم إلى أمير المؤمنين، إن كان اطّلع على ذلك منه فليقتله، فقال داود ابن علي[2] لأبي العباس: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فيحتج عليك أبو مسلم وأهل خراسان الّذين معك، وحاله فيهم حاله، ولكن اكتب إلى أبي مسلم فليبعث إليه من يقتله، فكتب إلى أبي مسلم بذلك.

فبعث لذلك أبو مسلم (مرار بن أنس الضبّي) فقدم على أبي العباس في المدينة الهاشمية واعلمه سبب قدومه.

فأمر أبو العباس منادياً، فنادى: ان أمير المؤمنين قد رضي عن أبي سلمة[3] ودعاه وكساه.

ثمّ دخل عليه بعد ذلك ليلة، فلم يزل عنده حتّى ذهب عامّة اللّيل، ثمّ خرج منصرفاً إلى منزله يمشي وحده حتّى دخل الطاقات، فعرض له مرار بن أنس ومن

---

١ ـ أي الغش الّذي بدا من أبي سلمة في صرف الدعوة لبني علي.

٢ ـ عمّ السفاح.

٣ ـ ويظهر من هذا ان أبا العباس خشي من سوء العاقبة، ولكيلا يقال ان أمير المؤمنين قتل وزيره (وكان قد لقّبه بوزير آل محمّد) وليلقي بكل التّبعات على غيره، شأنه في ذلك شأن جميع السياسيين الّذين يأمرون بالقتل ويتنصّلون.

كان معه من أعوانه، فقتلوه، واغلقت أبواب المدينة، وقالوا قتل الخوارج أبا سلمة.

ثمّ أخرج من الغد، فصلّى عليه يحيى بن محمّد بن علي، ودفن في المدينة الهاشمية. فقال سليان بن المهاجر البجلي:

انّ الوزيـــر وزيـــر آل محـمّد أودى فمن يشناك كان وزيرا[1]

وكان يقال لأبي سلمة (وزير آل محمّد) ولأبي مسلم (أمـين آل محـمّد) وهكـذا اسدل الستار على تاريخ أبي سلمة، قتلوه وقالوا انّ الخوارج هم الّذين قتلوه.

كما قتل من قبله الصحابي سعد بن عبادة الخزرجي، وقالوا قتله الجـن وأنشأوا على لسانهم شعراً يقول:

قد قتلنا سيِّد الخزرج سعد بن عباده ورميناه بسهمين فلم نخـطئ فـؤاده

وتلك طبيعة متأصِّلة في الحاكمين.

محاولة لاكتشاف دوافع أبي سلمة

أمّا نحن فنرى أنّ أبا سلمة كان شيعياً في هواه منذ البداية، ولكنّه ربّما كان يعتقد انّ (الدعوة للرضا من آل البيت) هي لبني عليّ خاصّة، إلّا أنّ بني العباس حرّفوها، أو إنّه كان يعلم كنه الدعوة واستغفال الأمّة الّذي حصل فيها، فأراد أن يصرفها إلى آل عليّ بعد ذلك حيث عواطفه معهم.

ولو كان دافع (أبي سلمة) في موقفه ذلك هو العنصرية الفارسية المجوسـية، لمـا أرسل مبعوثه يحمل رسالته ودعوته إلى الإمام جعفر الصادق وعبدالله بن الحسن ابن الحسن، وانّما سلك طريقاً آخر عير طريق هذين الشخصين العربيّين.

وليس وارداً مطلقاً ان يقال انّه أراد ان يستغفل الإمام جعفر الصادق، ومـن ثم ليصرف الدولة إلى حيث يشاء من المجوسية، فهو يعرف حـنكة الصـادق وقـدرته

---

١ ـ الطبري / ج ١٠ / ص ٦٠، وتاريخ ابن خلدون / ج ٣ / ص ١٧٦.

السياسية ومعرفته بالرجال.

ومما يؤيِّد ما ندّعيه في رأينا بأبي سلمة، أنّ بعض قادة الدعوة العباسية كانوا يعتقدون أيضاً بأنّ الدعوة هي لبني علي من آل البيت خاصّة وليست لغيرهم. فان (سليمان بن كثير) كبير الدعاة في خراسان، والّذي كان إبراهيم الإمام قد أوصى أبا مسلم بالسماع والطاعة له، لشدّة اعتماده عليه، ان سليمان هذا كان يرى نفس ما يراه أبو سلمة من انّ الدعوة لابدّ صائرة إلى بني علي.

فلنستمع إلى ما يقوله صاحب عمدة الطالب بهذا الخصوص:

... وورد عبيدالله[١] على أبي مسلم بخراسان، فأجرى له أرزاقاً كثيرة وعظمه أهل خراسان، فساء أبا مسلم ذلك.

وقال سليمان بن كثير الخزاعي لعبيدالله: إنّا غلطنا في أمركم ووضعنا البيعة في غير موضعها، فهلم بنا نبايعكم وندعو إلى نصرتكم، فظنّ عبيدالله ان ذلك دسيساً من أبي مسلم، فأخبره بذلك، فثقل عليه مكانه وجفاه، وقال له: يا عبيدالله! إن نيسابور لا تحملك، وقتل سليمان بن كثير الخزاعي[٢].

❊ ❊ ❊

أبو مسلم الخراساني لم يكن يفكر في حرف الدعوة للمجوسية

أمّا أبو مسلم الخراساني؟

فلم يرد في حيثيات الحكم عليه بالإعدام من قبل أبي جعفر المنصور، انّه كان يريد أن يحرف الدولة للفرس المجوس، تعصباً لقوميته على القومية العربية ولكفرد

---

١ ـ عبيدالله الأعرج بن الحسين الأصغر بن علي زين العابدين، وفد على أبي العباس السفاح فأقطعه ضيعة بالمدائن، تغلّ كل سنة ثمانين ألف دينار، وكان عبيدالله قد تخلّف عن بيعة النفس الزكية محمّد بن عبدالله المحض، فحلف محمّد إن رآه ليقتله، فلماّ جيء به غمّض محمّد عينيه مخافة أن يحنث.

٢ ـ عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب / ص ٣١٩، والطبري / ج ١٠ / ص ٦١.

بالإسلام.

فالمؤرِّخون يذكرون القصّة كما يلي:

(وهي قصّة طويلة نقتطع منها حيثيات الحكم بالإعدام).

... أرسل المنصور إلى أبي مسلم يستدعيه ... فدخل على المنصور فقال له المنصور: اخبرني عن نصلين أصبتهما مع عبدالله بن علي.

قال: هذا أحدهما.

قال: أرنيه، فأنضاه، وناوله إيّاه.

فوضعه المنصور تحت فراشه، واقبل يعاتبه.

وقال له: اخبرني عن كتابك للسفاح تنهاه عن الموات، اردت أن تعلمنا ديننا؟

قال: ظننت أن أخذه لا يحل، فلمّا أتاني كتابه علمت انّه وأهل بيته معدن العلم.

قال: فاخبرني عن تقدمك إيّاي بطريق مكّة.

قال: كرهت اجتماعنا على الماء، فيضرّ ذلك بالناس فتقدمتك للرفق.

قال: فقولك لمن أشار عليك بالإنصراف إليّ بطريق مكّة، وحين أتاك موت أبي العباس: إلى أن نقدم فنرى رأينا، ومضيت فلا أنت أقمت حتّى الحقك ولا أنت رجعت إليّ.

قال: منعني من ذلك ما أخبرتك من طلب الرفق بالناس، وقلت نقدم الكوفة وليس عليك من خلاف.

قال: فجارية عبدالله أردت ان تتخذها.

قال: لا، ولكني خفت ان تضيع، فحملتها في قبّة ووكلت بها من يحفظها.

قال: فمراغمتك وخروجك إلى خراسان.

قال: خفت أن يكون قد دخلك منّي شيء، فقلت آتي خراسان، فأكتب إليك بعذري، فأُذهِب ما في نفسك.

قال: فالمال الّذي جمعته بخراسان.

قال: أنفقته بالجند تقوية لهم واستصلاحاً.

قال: ألَست الكاتب إليّ تبدأ بنفسك وتخطب عمّتي آمنة بنت علي وتزعم انّك ابن سليط بن عبدالله بن عباس؟ لقد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعباً.

ثمّ قال: وما الّذي دعاكَ إلى قتل سليمان بن كثير مع أثره في دعوتنا؟ وهو أحد نقبائنا قبل ان ندخلك في شيء من هذا الأمر.

قال: أراد الخلاف وعصاني فقتلته[1].

ثمّ بعد هذا، يصفّق المنصور، فيخرج له أربعة رجال فيقتلون أبا مسلم.

* * *

فليس في الاتهامات الموجهة إلى أبي مسلم، انّه أراد ان يحرف الدعوة إلى غير العباسيين، فضلاً عن جعلها فارسية مجوسية، كما يدعي سلمان التكريتي.

وبناءً على ذلك، فان سلمان التكريتي لم يكن موفقاً في جعل العنصرية الفارسية سبباً مهمّاً في سقوط بغداد، ولم يكن أميناً في النقل العلمي والتجرد في البحث.

وهو مع ذلك، أبرز للفرس مقدرة عظمى في التأثير على دولة الاسلام منذ نشأت، وحاول ان ينسب لهم (كنعصريين) كل الأخطاء والمشاكل والمعضلات الّتي حدثت في التاريخ الاسلامي، وينسى أو يتناسى الأسباب الأخرى، خصوصاً الّتي أحاقت بالدولة العباسية، ومنها تدخّل الأتراك والخصيان والجواري والعيارين في شؤون الدولة والخلافة، إضافة إلى الانتهاكات الّتي ارتكبها الخلفاء أنفسهم.

وعلى كل حال، فلسنا نرى للعنصرية الفارسية تدخّلاً فيما ذكرناه، ولا يمكن الاعتماد على تخرّصات لا تستند إلى دليل وبرهان.

* * *

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٥ / ص ١٠٩، وابن خلدون / ج ٣ / ص ١٨٣.

كان الحديث السابق، مقدّمة ضرورية لتهيئة القارئ الكريم للدخول في البحث عن الأسباب الّتي أدّت إلى سقوط بغداد ومن ثمّ الخلافة العباسية.

ولقد آرتأينا أن نقسّم كتابنا هذا الموسوم بـ(الخلفاء العباسيون والمغول أسقطوا بغداد) إلى خمسة فصول كما يلي:

الفصل الأوّل:

كيف ساهم الخلفاء العباسيون في سقوط بغداد؟

الفصل الثاني:

ضعف الدولة وتمزّقها بعد دخول الأتراك والبويهيين والسلاجقة وانقسامها إلى دويلات.

الفصل الثالث:

الفتن العنصرية والطائفية والعيّارون واللّصوص والاختلاف بين الخلفاء.

الفصل الرابع:

الإسماعيليون والخوارزم وتحريض المغول على احتلال بلاد المسلمين.

الفصل الخامس:

التتار ونواقيس الخطر ثمّ الانهيار.

الملاحق

الفصل الأوّل

كيف ساهم

الخلفاء العباسيون في سقوط بغداد؟

خلفاء بني العباس والمغول أسقطوا بغداد

المجتمعات تُصاب بأمراض كما تُصاب الأجسام، فإذا كان السرطان والأيدز وأمراض أخرى تقضي على حياة الانسان، فكذلك الأنانية والحسد والمظالم الّتي يرتكبها الحكّام. والرغبة في التوسع والغلبة وما إلى ذلك، فانّها أمراض تقضي على المجتمعات أيضاً.

وكم نقرأ انّ الضرائب الّتي أثقلت كاهل شعبٍ ما، أدّت إلى انهيار الدولة، وانّ التعسّف الّذي يتّخذه الحكّام سيفاً في السيطراً على الشعب أدّى إلى انهيار الدولة، وانّ النظام الفاسد أسرع إلى انهيار الدولة وان اختلاف الحاكمين أدّى إلى انهيار الدولة... وهكذا.

وتلك أمور لا تحتاج إلى برهان، فلها أمثلة قديمة ولها أمثلة حديثة، فالّذي حدث في الأندلس، والّذي حدث في الاتحاد السوفيتي والّذي حدث في دولة الشاه في إيران، وقضايا أخرى كثيرة تتجاوز حدّ العد والإحصاء، كلّها أمثلة صارخة على ما ندّعيه.

ودولة العباسيين واحدة من تلك الأمثلة.

وكما انّه ليس من الحكمة عندما تعرض حالة المريض على الطبيب فيعطيه مخففاً للآلام دون أن يتعرّف على الأسباب الّتي أدّت إلى تلك الآلام ليقطع دابرها.

فكذلك المجتمع، ولنفترض انّه كان مجتمعاً غنياً، فكيف أصبح فقيراً؟ ان دارس التاريخ عليه ان يبحث عن الأسباب الّتي أدّت إلى ذلك، فإنّه ربّما يكتشف انّ الحاكم بسياسته الفاشلة أفسد الزراعة والاقتصاد وأفقر البلاد... وهكذا.

هذا كلّه في المجتمعات الاعتيادية، امّا الّتي تقوم على أساس الدين، بل على أساس الاسلام، فانّ العواقب سوف تكون وخيمة جدّاً لو انحرف الحاكمون واستطاعوا أن يحرفوا معهم الأحكام، ويتخذوا بطانة سوء من الفقهاء والولاة والوزراء الّذين يسايرونهم، إن لم نقل انّهم يحبذّون لهم الإنحراف.

وتعاليم الاسلام وحدة متكاملة متجانسة، في الأحكام والعبادات، يكمل بعضها بعضاً، اختارها الله لسعادة البشرية.

فالعبادة والضريبة المالية وايقاع القصاص والعقوبات والدفاع عن الثغور، وحفظ أموال الناس وأرواحهم وما إلى ذلك، إذا تعطل منها جزء كان نظاماً ناقصاً، لا يمكن ان يحقق المجتمع الّذي يريده الله لسعادة البشرية.

فالاسلام الّذي يحث على أداء العبادة من صوم وصلاة وحج، فانّه هو الاسلام الّذي يحث على الزّكاة والجهاد واقامة الحدود.

وواضح لدينا انّ الحكّام من بعد الرسول ﷺ بدأوا بممارسات أدّت إلى حرف الاسلام، وتركوا حدوداً أصابت الاسلام في كبده، وبدأت زاوية الانحراف كزاوية حادة قليلة الانحراف، ثمّ توسعت في الانحراف حتّى أصبحت متقاطعة مع الاسلام الأصيل.

❊ ❊ ❊

والأنكى من كل ذلك انّ حكّام المسلمين، كانوا يضفون على تصرّفاتهم تلك طابع الاسلام، واستطاع أولئك خلال فترة طويلة من الزمن ان يؤثروا على المجتمع، فأصبح الناس يعتقدون أنّ تصرّفات الملك، أو فلنقل (الخليفة أمير المؤمنين) هي الّتي تمثّل الاسلام.

نعم، كان في الأمّة من لا تنطلي عليه أحابيل الخلفاء الأدعياء، ولكن الأمّة بصورة عامّة انسجمت مع الحالة، أو انّ الخلفاء أنفسهم كانوا يريدون من الأمّة أن تنسجم مع الحالة الّتي يعيشونها لكيلا يتعرّضوا للانتقاد والاعتراض.

وإذا أخذنا الدولة العباسية كمقطع زمني محدّد من سنة ١٣٢ هـ إلى ٦٥٦هـ، فإنّنا نجد أنّ أبا العباس السفاح يختلف اختلافاً كبيراً عن المستعصم آخر خليفة عباسي، ضمن سبعة وثلاثين خليفة كلّهم كانوا يحكمون باسم الاسلام، باعتبارهم خلفاء لرسول الله ﷺ وأمراء المؤمنين.

فالانحراف كان يختلف في درجته بين أوّل خليفة وآخر خليفة، وكل الخلفاء كانوا منحرفين.

❊ ❊ ❊

وكل تلك الانحرافات، كانت تُقتَرَف باسم الاسلام أو لمصلحة الاسلام كما يدعون، فالمذابح والانتهاكات، كانت تمارس باسم الاسلام، بل كلّما كان يصدر من (الخليفة الزائف) من قول أو فعل أو تقرير كان يراد له ان يعتبر سنّة تمثل الاسلام.

وطبيعي جدّاً ان يكون لهؤلاء وعاظ وفقهاء يسهلون لهم أمورهم ويفتحون لهم السبل لسلوك طريق الانحراف.

ونحن لا ننكر ان تكون لبعض خلفاء بني العباس وقفات نفعت الاسلام، وهذا أمر طبيعي أن يقوم به من يدّعي الخلافة عن رسول الله وإمرة المؤمنين.

ولكن الشاذ غير الطبيعي أن يقترف أولئك المنكرات الّتي حرّمها الله ويتعاطوا الفسق والفجور.

والأمّة الّتي عاشت أيّام بني أميّة وخلفائهم الّذين ارتكبوا من المظالم والمفاسد والانتهاكات والانحرافات ما لم يرتكبه السفلة من الناس، أدركت بالتدريج أو فلنقل انّها انكشف لها فسق الحكّام الّذين يدّعون زوراً انّهم خلفاء رسول الله وأمراء المؤمنين.

وعندما جاءت دولة بني العباس على انقاض أولئك، كان الناس يتفاءلون خيراً، خصوصاً وقد كانت الدعوة باسم (الرضا من آل البيت) وأنّ الحاكمين هم أبناء عم رسول الله ﷺ.

إلّا انّ العباسيين سرعان ما ارتكبوا من الانحراف ما لم يرتكبه السابقون.

❊ ❊ ❊

العباسيون كانوا يوهمون النّاس انّهم سوف يستمرّون بالحكم حتّى يسلّموا الدولة للمسيح

وقد كانت أوّل خطبة لأبي العباس السفاح في الكوفة وهو يعدّد مظالم بني حرب

وبني مروان «فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها بما ملأ الله لهم حيناً حتّى آسفوه، فلمّا آسفوه انتقم منهم بأيدينا وردّ علينا حقنا وتدارك بنا أمّتنا وولي نصرنا والقيام بأمرنا ليمنّ بنا على الّذين استضعفوا في الأرض وختم بنا كما فتح بنا...»[١].

وكانت خطبة داود بن علي عم أبي العباس بعد خطبة السفاح، تؤكّد انّهم سوف يبقون حتّى تنتهي الحياة على الأرض، فيقول: «واعلموا ان هذا الأمر فينا ليس بخارج منّا حتّى نسلّمه إلى عيسى بن مريم عليه السلام »[٢].

❊ ❊ ❊

تفاءلت الأمّة ثمّ انكشف لها الزيف

ولا نشكّ أنّ الكثرة من الأمّة كانت متفائلة في البداية بأن عهداً جديداً أطلّ عليها، سوف يعيد للمسلمين كرامتهم كما يعيد للاسلام دوره الريادي الّذي أبعده الأمويون.

ولكنّهم سرعان ما ظهر لهم ان هؤلاء الجدد بدأوا يفوقون السابقين انحرافاً وظلماً وقتلاً وانتهاكاً لحرمات الاسلام والمسلمين.

بدأ العهد العباسي بتنفيذ توصيات إبراهيم الإمام لداعيته أبي مسلم الخراساني، بالقضاء على كل مَن يتكلّم اللّغة العربية في خراسان، وعلى من يتهمه ممّن بلغ خمسة أشبار حتّى قيل أن أبا مسلم قتل ما يزيد على ستمائة ألف انسان صبراً عدا من قتله في الحروب.

واستمرت حالات القتل وضرب الرقاب بصورة لم يسبق لها مثيل وكان المنصور أوّل من أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين وكانوا قبل شيئاً واحداً[٣] وقتل خلقاً

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٥ / ص ٦٦.

٢ ـ المصدر السابق / ص ٦٧.

٣ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٢٦١.

كثيراً حتّى استقام ملكه، وكان يجد نفسه مكلفاً من الله بأن يسوس الناس بالقتل والقهر (وأنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه ورشده، وخازنه على فيئه، أقسّمه بارادته وأعطيه بإذنه)[1].

وهنا يكمن موطن الخطر الأعظم عندما يبرِّر الانسان ظلمه للناس واستحواذه عليهم بأنّه مخوّل من الله في ذلك.

❊ ❊ ❊

ولعلّ من طبيعة الانسان ان يهفو إلى البذخ والتحلل والانعطاف نحو الموبقات ﴿إِنَّ النَّفسَ لَأَمَارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِم رَبِّي﴾.

والخلفاء، ملوك بني العباس، دانت لهم الدُّنيا بكل بهارجها وصخبها. وإذا أضفنا إلى ذلك انّهم عندما وجدوا انصياع الناس لهم لا سيما الخراسانين، تصوروا انّهم سوف يبقون، لأنّهم يحكمون في الأرض باسم الله الواحد القهّار.

في حين يفترض في الّذي يدعي انّه خليفة رسول الله، أن يسلك سلوك رسول الله ﷺ ما دام خليفة تابعاً له وأميراً للمؤمنين.

لكنْ هكذا كانت الأمور، وهكذا جرت المقادير، ذهب قوم وجاء قوم آخرون بادّعاء من التقوى والصلاح وإنقاذ الأمّة، ولكنّهم سرعان ما ساروا على طريقة الأوّلين ان لم يكونوا بخطوات أوسع وفي فترة أطول، دامت ٥٢٤ عاماً.

❊ ❊ ❊

ونستطيع القول، أنّ المنصور[2] هو الّذي أسس أساس الظلم والجور بين الناس في دولة بني العباس، وهو أوّل من خان ولاية العهد. فقد خلع عام ١٤٧هـ عمّه (عيسى ابن موسى) من ولاية العهد، وكان السفاخ عهد إليه من بعد المنصور، وكان عيسى هذا هو الّذي حارب الأخوين (محمّد النفس الزكية وإبراهيم) فظفر بهما، فكافأه

---

١ ـ المصدر السّابق / ص ٢٦٣.

٢ ـ أمّا إبراهيم الإمام، فقد كانت مظالمه في الدعوة قبل نشوء الدولة.

المنصور بأن خلعه مكرهاً وعهد إلى ولده المهدي.

ولقد تجبّر المنصور حتّى إذا أراد أحداً للقضاء وامتنع، فانّه ينكل به أشدّ التنكيل.

يقول السيوطي:

انّ المنصور قتل خلقاً كثيراً حتّى استقام ملكه، وهو الّذي ضرب أبا حنيفة ـ ﷺ ـ على القضاء، ثمّ سجنه، فمات بعد أيّام[1].

وفي سنة ١٥٨ هـ أمر المنصور نائب مكّة بحبس سفيان الثوري وعباد بن كثير فحبسا، وتخوّف الناس أن يقتلها المنصور إذا ورد للحج.

فلم يوصله الله مكّة سالماً، بل قدم مريضاً ومات، وكفاهما الله شرّه[2] وبلغ من حقد الخليفة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور، الّذي يعتبر مؤسس الدولة العباسية، بلغ من حقده انّه بعدما قضى على ثورة محمّد النفس الزكية في المدينة المنوّرة، انتقم من أهل المدينة كلّهم، صغيرهم وكبيرهم، من اشترك منهم بالثورة ومن لَم يشترك، من كان مولوداً في تلك الأيّام أو ولد بعد حين.

فلنستمع إلى الطبري:

لمّا قتل محمّد النفس الزكية، أمر أبو جعفر بالبحر فأقفل على أهل المدينة، فلم يحمل إليهم من ناحية البحار شيء، حتّى كان المهدي، فأمر بالبحر ففتح لهم واذن في الحمل[3] ولنستمع إلى الخليفة المنصور نفسه، عندما يتبجّح بأنّه يقتل المحسنين بلا ذنب، يقول الطبري أيضاً.

وكان أبو جعفر يقول: لو وجدت ألفاً من آل الزُّبير كلّهم محسن وفيهم مسيء واحد لقتلتهم جميعاً[4].

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٢٥٩.

٢ ـ المصدر السابق / ص ٢٦٢.

٣ ـ الطبري / ج ١٠ / ص ٢٥٧.

٤ ـ المصدر السابق / ص ٢٦٠.

ولا بأس بأن نذكر هذه القصّة الّتي جرت على يد المنصور يقول الطبري:

... وذكر أبو يعقوب بن سليمان، قال حدثتني (جمرة العطارة) عطارة أبي جعفر قالت: لمّا عزم المنصور على الحج دعا ريطة بنت أبي العباس امرأة المهدي وكان المهدي بالري، قبل شخوص أبي جعفر، فأوصاها بما أراد وعهد إليها ودفع إليها مفاتيح الخزائن، وتقدم إليها وأحلفها ووكّد الأيمان ان لا تفتح بعض تلك الخزائن ولا تطلع عليها أحداً إلّا المهدي، ولا هي إلّا أن يصح عندها موته. فإذا صحّ ذلك اجتمعت هي والمهدي وليس معهما ثالث حتّى يفتحا الخزانة.

فلمّا قدم المهدي من الري إلى مدينة السلام، دفعت إليه المفاتيح وأخبرته عن المنصور انّه تقدم إليها فيه ألّا يفتحه ولا يطلع عليه أحداً حتّى يصح عندها موته.

فلمّا انتهى إلى المهدي موت المنصور وولي الخلافة، فتح الباب ومعه (ريطة) فاذا أزج[1] كبير فيه جماعة من قتلاء الطالبيين وفي آذانهم رقاع فيها أنسابهم وإذا فيهم أطفال ورجال شباب ومشايخ عدّة كثيرة.

فلمّا رأى المهدي ارتاع لما رأى وأمر فحفرت لهم حفيرة فدفنوا[2].

❋ ❋ ❋

ولم يكن ظلم أبي جعفر المنصور يطال الناس بصورة عامّة وبني علي بصورة خاصّة، وانّما شمل ذلك حتّى اعمامه.

يقول المسعودي:

... وطال حبس عبدالله بن علي (عمّ المنصور) بأمر المنصور وأقام في محبسه تسع سنين وقيل غير ذلك، فلمّا أراد المنصور الحج في سنة تسع وأربعين ومائة، حوّله من عنده إلى (عيسى بن موسى) وأمره بقتله، وان لا يُعلم بذلك أحداً، فبعث عيسى ابن موسى إلى ابن أبي ليلى وابن شبرمة، فشاورهما في ذلك.

١ ـ الأزج: البيت يُبنى طولاً.

٢ ـ الطبري / ج ١٠ / ص ٤٤٥ ـ ٤٤٦.

فقال ابن أبي ليلى: امض بما أمرك به أمير المؤمنين.

وقال ابن شبرمة: لا تفعل.

فأبى ان يقتله، واظهر لأبي جعفر انّه قتله وشاع ذلك.

فكلم بنو علي المنصور في أخيهم عبدالله، فقال لهم: هو عند عيسى بن موسى.

فلمّا قدموا مكّة أتوا عيسى بن موسى، فسألوه عنه.

فقال: قد قتلته، فرجعوا إلى أبي جعفر، فقالوا: زعم عيسى انّه قد قتله.

فأظهر أبو جعفر الغضب على عيسى، وقال: يقتل عمّي، والله لأقتلنّه.

وكان أبو جعفر أحبّ ان يكون عيسى قتله، فيقتله به، فيستريح منهما جميعاً.

قال: فدعا به، فقال: لم قتلت عمّي؟

قال: أنت أمرتني بقتله.

قال: لم آمرك بذلك.

فقال: هذا كتابك إليّ فيه.

قال: لم أكتبه.

فلمّا رأى الجد من المنصور، وتخوف على نفسه، قال: هو عندي لم أقتله.

قال: ادفعه إلى أبي الأزهر المهلّب بن أبي عيسى، فدفعه إليه، فلم يزل عنده محبوساً، ثمّ أمره بقتله، فدخل عليه ومعه جارية له، فبدأ بعبدالله فخنقه حتّى مات، ثمّ مدّه على الفراش، ثمّ أخذ الجارية ليخنقها، فقالت يا عبدالله، قتلة غير هذه.

فكان أبو الأزهر يقول: ما رحمت أحداً قتلته غيرها، فصرفت وجهي عنها، وأمرت بها فخنقت، ووضعتها معه على الفراش وادخلت يدها تحت جنبه ويده تحت جنبها كالمعتنقين، ثمّ أمرت بالبيت فهدم عليهما، ثمّ أحضرنا القاضي ابن علاثة وغيره، فنظروا إلى عبدالله والجارية معتنقين على تلك الحال، ثمّ أمر به فدفن [1].

---

١ ـ مروج الذهب / ج ٣ / ص ٣٠٥.

هكذا كان أمير المؤمنين خليفة رسول الله أبو جعفر المنصور، يتصرف، بهذا اللؤم والحقد والوحشية والدناءة والخروج عن أحكام الاسلام.

وعلى نهجه سار الخلفاء الّذين جاؤوا من بعده من بني العباس، فقد أسّس لهم دولتهم كما أسّس لهم طريقة التعايش مع الناس.

وشاع ظلمه في الأمّة بما لم يكونوا يسمعون عن الحجاج وابن زياد أيّام الحكم الأموي.

وأخرج الأصمعي، قال: لقي المنصور اعرابياً بالشام، فقال: أحمد الله يا اعرابي الّذي رفع عنكم الطاعون بولايتنا أهل البيت.

قال الأعرابي: انّ الله لا يجمع علينا حشفاً وسوء كيل: ولايتكم والطاعون[1].

* * *

كان هذا قليلاً من كثير، من مناقب أمير المؤمنين خليفة رسول الله أبي جعفر المنصور، مؤسس الدولة العباسية، الّذي اسّس للخلفاء من بعده سنّة الظلم والجور والتجاوز على أحكام الله.

وهو وان لم يذكر التاريخ عنه انّه كان صاحب لهو ولعب ونسوان وخصيان، إلّا أنّ الّذين جاؤوا من بعده مارسوا كل رذيلة.

والانسان إذا خرج عن طاعة الله ووقع في حضيرة الشيطان، سهل عليه ان يقترف جميع الموبقات.

ولسنا هنا نريد ان نؤرّخ لسيرة الخلفاء العباسيين، فموضوع كتابنا ليس ذلك، وانّما أتينا على بعضها وسوف نأتي على بعض آخر منها ليكوّن القارئ الكريم فكرة عن سيرة الخلفاء الّذين ساهموا في سقوط بغداد.

ولا شك أنّ سلوكاً كالّذي ذكرناه والّذي نذكره فيما بعد، لابّد أن تكون نتيجته

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٢٦٥.

التشرذم والسقوط إن عاجلاً أو آجلاً على يد المغول أو البويهيين أو السلاجقة أو العيارين أو غيرهم.

فالمنصور إذا كانت حياته كلّها قتلاً وهتكاً وظلماً وجوراً وهدماً للدور ومصادرة للأموال، فانّ الّذين جاؤوا من بعده اقتدوا به واضافوا مظالم إلى مظالم وشرب الخمور واقتناء الخصيان واقتراف ما لا يقترفه السفلة من الناس، باسم خلافة رسول الله وإمرة المؤمنين، حيث كان هذان اللّقبان يضفيان عليهم هالة من القدسية وعدم المسؤولية عمّا يرتكبون، فانساقوا وراء الشهوات.

وإذا كان المنصور معروفاً بالشجاعة وقوّة الرأي والبصيرة وحسن التدبير، فان من جاء من بعده كان فاقداً لكلّ ذلك.

وهم كالّذي سار في طريق منحدر، يعلم انّه سوف يؤدّى به إلى السقوط في الهاوية، فإذا ما وقع انقضّ عليه من يسلب منه ثيابه، فصاح ولات حين مناص.

وربّما يأتي محلّلو التاريخ ليستنبطوا علّة السقوط، فيقولون أنّ مجرماً سرق ثياب شخص نبيل.

فأي نبل لهذا الأحمق الّذي كان يعرف من أوّل خطوة خطاها انّه سوف يسقط في الهاوية؟

امّا كان نبيلاً منذ البداية، لئلّا يسلك هذا الطريق المنحدر، ثمّ وقد سار، امّا كان نبيلاً فيقف في منتصف الطريق ليتدارك وضعه؟

ولكن هيهات، فان بحبوحة النعيم وهالة السلطنة تعمي الانسان وتصمّه، ثمّ لا يلومنّ إلّا نفسه.

❊ ❊ ❊

ولسنا نريد أن نبرّر لمن أنقضّ على فريسة الدولة العباسية عمله، فالسارق والمسروق هنا شريكان في الجريمة.

ولو خضعا لمحكمة عادلة لنال كل منهما عقوبته بما يستحق. إنّ المسروق هنا كالّذي

كانت عنده كمية من الذهب وبدلاً من ان يضع ذلك في حرز حريز، ألقاه جانباً دونما اهتمام، فجاء السارق ووجده غنيمة باردة سهلة الاحتواء.

وسوف نورد لكل خليفة من الخلفاء الّذين جاؤوا من بعد أبي جعفر المنصور، قليلاً من سيرته الّتي ساهمت في التردي ثمّ السقوط والانهيار، وسوف نقتطف من حياته نبذة قليلة جدّاً، نعتقد انّها تغنينا عن التفصيل، لنتبيّن كيف ساهموا جميعهم، الأجداء والأحفاد في السقوط؟

ربّما لا يدرك الانسان ناقوس الخطر من أوّل خليفة أو الثاني أو الخامس والسادس، ولكنّنا عند ما نقرأ سيرة سبعة وثلاثين خليفة، ندرك انّ الوضع كان على شفا جرف هار.

فلنتبيّن صحّة هذا الادّعاء:

الخلفاء العباسيون، كلّ واحد منهم يضرب مِعْولاً في جسم الدولة

أمّا المهدي بن المنصور

فقد قيل انّه أوجد ديوان المظالم ليأخذ على نفسه رفع الظلامة عن كواهل المظلومين، الّتي أثقلت من قبل الخليفتين السابقين أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور.

ولكن ما باله لا يأخذ النَصَف من نفسه عندما يظلم هو بالذات؟

فهل كان يريد أن يرفع الظلم عن الأمّة حقّاً؟

أو كان يريد أن يظهر للناس انّه الخليفة العادل، وليس كالّذين سبقوه؟

لننظر ماذا يقول ابن الأثير:

... وقال يعقوب بن داوود (وزير المهدي) بعث إليّ المهدي يوماً، فدخلت عليه وهو في مجلس مفروش بفرش مورّد على بستان فيه شجر مع صحن المجلس، وقد اكتسى ذلك الشجر بالأزهار من الخوخ والتفاح، فما رأيت شيئاً أحسن منه، وعنده جارية عليها نحو ذلك الفرش، ما رأيت أحسن منها.

فقال لي: يا يعقوب! كيف ترى مجلسنا هذا؟

قلت: على غاية الحسن، فمتّع الله أمير المؤمنين به.

قال: هو لك بما فيه، وهذه الجارية، ليتمّ سرورك به.

قال: فدعوت له.

ثمّ قال لي: يا يعقوب! ولي إليك حاجة أحبّ ان تضمن لي قضاءها.

قلت: الأمر لأمير المؤمنين وعليّ السمع والطاعة.

فاستحلفني بالله وبرأسه، فحلفت لأعملنّ بما قال.

فقال: هذا فلان بن فلان من ولد علي بن أبي طالب، وأحبّ أن تكفيني مؤونته وتريحني منه، وتعجل ذلك.

قلت: افعل.

فأخذته، وأخذت الجارية وجميع ما في المجلس، وأمر لي بمائة ألف درهم.

فلشدّة سروري بالجارية، صيّرتها في مجلس بيني وبينها ستر، وأدخلت العلوي إليّ وسألته عن حاله، فأخبرني، وإذا هو أعقل الناس وأحسنهم إبانةً عن نفسه، ثمّ قال: ويحك يا يعقوب تلقى الله بدمي وأنا رجل من ولد فاطمة بنت محمّد ﷺ؟

قلت: لا والله، فهل فيك أنت خير؟

قال: إن فعلتَ خيراً، شكرت، ولك عندي دعاء واستغفار.

فقلت: أي الطريق أحبّ إليك.

قال: كذا وكذا.

فأرسلت إلى من يثق إليه العلوي، فأخذه، واعطيته مالاً.

وأرسلتْ الجارية إلى المهدي تعلمه الحال، فأرسل إلى الطريق فأخذ العلوي وصاحبه والمال.

فلمّا كان الغد، استحضرني المهدي وسألني عن العلوي، فأخبرته إنّي قتلته.

فاستحلفني بالله وبرأسه، فحلفت له.

فقال: يا غلام! اخرج إلينا ما في هذا البيت.

فأخرج العلوي وصاحبه والمال، فبقيت متحيراً وامتنع منّي الكلام، فما أدري ما أقول.

فقال المهدي: قد حلّ لي دمك، ولكن أحبسوه في المطبق، ولا أذكّر به، فحبست في المطبق واتخذ لي فيه بئر فدُلّيت فيه.

فبقيت مدّة لا أعرف عددها وأصبت ببصري وطال شعري حتّى استرسل كهيئة البهائم.

قال: فإنّي لكذلك، إذ دُعي بي، وقيل لي: سلّم على أمير المؤمنين، فسلمت.

قال: أي أمير المؤمنين أنا؟

قلت: المهدي.

قال: رحم الله المهدي.

قلت: فالهادي.

قال: رحم الله الهادي.

قلت: فالرشيد.

قال: نعم، سل حاجتك.

فقلت: المقام بمكّة، فما بقي فيّ مستمتع لشيء ولابلاغ.

فأذن لي، فسرت إلى مكّة.

وكان يعقوب قد ضجر بموضعه قبل حبسه، وكان أصحاب المهدي يشربون عنده، فكان يعقوب ينهاه (أي ينهى المهدي) عن ذلك ويعظه ويقول: ليس على هذا استوزرتني ولا عليه صحبتك، أبعد الصلوات الخمس في المسجد الجامع يشرب عندك النبيذ؟[1]

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٥ / ص ٢٥٢.

نعم، هذا هو المهدي، الخليفة الثالث في سلسلة بني العباس، الّذي دوّن ديوان المظالم، فلا ينبغي ان يكون في عهده مظلوم، فهو الخليفة العادل!

وهل من العدالة في شيء قتل العلوي؟

ثم هل من العدالة هذا الظلم الفاحش مع الوزير؟

لقد كان قتله أهون على نفسه من هذا التعذيب المشين.

ولكن هكذا يجب ان يكون الخلفاء المزورون، وليس من الممكن ان يكونوا شيئاً آخر.

وهم انّما يريدون الخلافة لإشباع رغبات النفس والهوى في القوّة والجبروت والنّساء والخصيان والمغنين والملهين.

تلك كانت واحدة من خصال أمير المؤمنين المهدي، ولا بأس بذكر الثانية.

المهدي يتجرّأ على الله في حد شارب الخمر

... كان إبراهيم بن هرمة مغرماً بالشراب وحدّه عليه جماعة من عمّال المدينة (المنوّرة) فلمّا الحّوا عليه وضاق ذرعه بهم، دخل إلى المهدي بشعره الّذي يقول فيه (مدحاً لأبي جعفر المنصور).

له لحظات عن حِفافي سريره ... إذا كرّها فيها عقاب ونائلُ
لهم طينة بيضاء من آل هاشم ... إذا اسودّ من لؤم التراب القبائلُ
إذا ما أتى شيئاً مضى كالّذي أتى ... وإن قال إنّي فاعل فهو فاعلُ

فأعجب المهدي بشعره.

وقال له: سل حاجتك.

قال: تأمر لي بكتاب إلى عامل المدينة، ان لا يحدّني على شراب.

فقال له: ويلك، كيف نأمر بذلك؟ لو سألتني عزل عامل المدينة وتوليتك مكانه لفعلت.

قال: يا أمير المؤمنين! ولو عزلت عامل المدينة ووليتنى مكانه، امّا كنت تعزلني

أيضاً وتولّي غيري؟

قال: بلى.

قال: فكنت أرجع إلى سيرتي الأولى.

فقال المهدي لوزرائه: ما تقولون في حاجة ابن هرمة؟ وما عندكم فيها من التلطّف؟

قالوا: يا أمير المؤمنين! انّه يطلب ما لا سبيل إليه، اسقاط حدٍّ من حدود الله.

قال المهدي: ان عندي له حيلة إذ أعيتكم الحيل فيه، اكتبوا إلى عامل المدينة: من أتاك بابن هرمة سكران، فيضرب ابن هرمة ثمانين، ويضرب الّذي يأتيك به مائة.

فكان ابن هرمة إذا مشى في أزقّة المدينة، يقول: من يشتري مائة بثمانين؟[1]

ويضيف صاحب العقد الفريد «انّ المهدي كان مستهتراً بالنِّساء»[2]، وحيث قد وصل خبر المهدي إلينا بعد ألف ومائتين وستين سنة، فانّه لا شك كان هذا الخبر وأمثاله قد انتشر عن المهدي وغيره في أوساط الأمّة في عهده.

فهل يكون عندها وازع عن ارتكاب المحرمات؟ وأمراء المؤمنين يباشرونها؟

وأمّا أمير المؤمنين الخليفة موسى الهادي بن المهدي

وما أحسن هذه الأسماء (الهادي بن المهدي) كلا الاسمين مشتقان من الهداية.

فقد كان الهادي يتناول المسكر.

فإذا كان أبوه المهدي مستهتراً في النِّساء، فان ابنه الهادي كان يشرب الخمر بنهم ولا يقيم ابّهة للخلافة[3].

بل انّه ترك أمّه (الخيزران) تتصرّف بأمور الخلافة الكبرى، وانصرف هو للهو واللّعب.

---

١ ـ العقد الفريد لابن عبد ربّه / ج ٥ / ص ٢٨٥.

٢ ـ المصدر السابق / ص ٢٥١.

٣ ـ الكامل في التاريخ / ج ٥ / ص ٢٥١.

يقول المسعودي:

... وكان الهادي كثير الطاعة لأمّه الخيزران مجيباً لها فيما تسأل من الحوائج للناس، فكانت المواكب لا تخلو من بابها، ففي ذلك يقول أبو المعافى:

يا خيزران هنّاك ثمّ هنّاك إنّ العباد يسوسهم ابناكِ[١]

أمّا عن مظالمه؟

وكل أولئك كانوا جناة ظالمين، فلنستمع إلى ابن الأثير لنرى ماذا يقول:

... كان علي بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الّذي يلقب الجزري، قد تزوج رقية بنت عمر العثمانية، وكانت قبله تحت المهدي.

فبلغ ذلك الهادي، فأرسل إليه، فحمل إليه، فقال له: أعياك النِّساء إلّا امرأة أمير المؤمنين؟

فقال: ما حرّم الله على خلقه إلّا نساء جدّي ﷺ فأمّا غيرهن فلا.

فشجّه بمخصرة كانت في يده، وجلده خمسمائة سوط وأراده ان يطلقها فلم يفعل. وكان قد غشي عليه من الضرب[٢].

* * *

هارون الرشيد ينكح جارية أبيه

وإذا كانت غيرة الهادي لا ترضى له أن يتزوّج أحد من زوجة أبيه، فانّ أخاه هارون نكح حليلة أبيه.

يقول السيوطي:

أخرج السلفي في الطيوريات بسنده عن ابن المبارك، قال: لمّا أفضت الخلافة إلى الرشيد، وقعت في نفسه جارية من جواري المهدي، فراودها عن نفسها، فقالت: لا

١ ـ مروج الذهب / ج ٣ / ص ٣٢٧.

٢ ـ الكامل في التاريخ / ج ٥ / ص ٢٧٦.

أصلح لك، إن أباك قد طاف بي.

فشغف بها، فأرسل إلى أبي يوسف، فسأله، أعندك في هذا شيء؟

فقال: يا أمير المؤمنين! أوَكلّما ادّعت أمة شيئاً ينبغي أن تُصدّق؟

لا تصدِّقها، فإنّها ليست بمأمونة.

قال ابن المبارك: فلم أدرِ ممّن أعجب؟

من هذا الّذي قد وضع يده في دماء المسلمين وأموالهم، يتحرّج عن حُرمة أبيه؟ أو من هذه الأمة الّتي رغبت بنفسها عن أمير المؤمنين؟ أو من هذا فقيه الأرض وقاضيها؟ قال: اهتك حرمة أبيك واقض شهوتك وصيِّره في رقبتي[١].

هذا هو هارون الرشيد.

والطّريف في الأمر، انّ خلفاء بني العباس يتميّزون بألقاب تتصل بالله سبحانه وتعالى «الموفّق بالله والمتوكّل على الله والمستعين بالله والمسترشد بالله والناصر لدين الله... وهكذا».

في حين انّهم يشربون الخمر في سبيل الله ويقتلون الأبرياء لأجل رضوان الله... ألم يحكم هارون باعتباره أميراً للمؤمنين وخليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟

كيف جاز له ان ينكح حليلة أبيه؟

* * *

وكان هارون يلهو مع المغنِّين

... حدّث إبراهيم الموصلي، قال:

جمع الرشيد ذات يوم المغنين، فلم يبق أحد من الرؤساء[٢] إلّا حضر، وكنت

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٢٩١.

٢ ـ أي رؤساء المغنّين.

فيهم، وحضر معنا مسكين المدني ويعرف بأبي صدقة، وكان يوقع بالقضيب مطبوعاً حاذقاً طيب العشرة مليح البادرة.

فاقترح الرشيد ـ وقد عمل فيه النبيذ ـ صوتاً... الخ[١].

نعم، هذا هو أمير المؤمنين (يعمل فيه النبيذ).

وهو منذ تولّى الخلافة، انصرف للهوه ولعبه، وفوّض الأمور لغيره، وجعل للمغنِّين مراتب وطبقات[٢].

❊ ❊ ❊

فوّض هارون أمور الدولة إلى يحيى بن خالد وجعل أمّه (الخيزران) ناظرة عليه

يقول الطبري:

... وفيها (أي في السنة الّتي استخلف فيها وهي سنة ١٧٠هـ) قلّد الرشيد يحيى ابن خالد الوزارة، وقال له: قد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت، وأمضِ الأمور على ما ترى، ودفع له خاتمه.

ففي ذلك يقول إبراهيم الموصلي:

ألم تر انّ الشمس كانت سقيمة   فلمّا ولي هارون أشرق نورها

بيُمن أمين الله هارون ذي الندى   فهارون واليها ويحيى وزيرها

وكانت الخيزران هي الناظرة في الأمور، وكان يحيى يعرض عليها ويصدر عن رأيها[٣].

---

١ ـ مروج الذهب / ج ٣ / ص ٣٦٠.

٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٢٩٥.

٣ ـ الطبري / ج ١٠ / ص ٦٠٣.

وماتت الخيزران أم الهادي والرشيد في سنة ثلاث وسبعين ومائة ومشى الرشيد أمام جنازتها، وكانت غلة الخـيزران مائة ألف ألف وستّين ألف ألف درهـم[١] أي ١٦٠ مليون درهم.

فهل كان الرشيد مصيباً عندما جعل أمّه الخيزران ناظرة على وزيره يحيى؟

بل كانت ناظرة على شؤون الدولة العباسية المترامية الأطراف الّتي كانت في أيّامه تمثل نصف الكرة الأرضية؟

* * *

ثمّ جاء محمّد الأمين

فهبط منسوب الدولة إلى مستوى منخفض جدّاً، فلقد كان سيء التدبير ضعيف الرأي، أرعن، لا يصلح للإمارة، فأوّل ما بويع بالخلافة، أمر ثاني يوم ببناء ميدان جوار قصر المنصور للّعب بالكرة[٢].

ويقول الطبري انّه بناه صبيحة السبت بعد بيعته بيوم، فقال في ذلك شاعر من أهل بغداد:

بـنى أمـين الله مـيدانـا وصيّر الـساحة بستانا[٣]

ويضيف السيوطي إلى ذلك:

لمّا ملك الأمين ابتاع الخصيان وغالى بهم وصـيّرهم لخـلوته، ورفـض النّسـاء والجواري[٤].

ولمّا بايع محمّد الأمين لابنه موسى، ووجّه (عليّ بن عيسى) إلى حرب طاهر ابن الحسين قائد المأمون، قال شاعر من أهل بغداد في ذلك:

---

١ ـ مروج الذهب / ج ٣/ ص ٣٣٧.

٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٢٩٧.

٣ ـ الطبري / ج ١١ / ص ٧٧٤.

٤ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٣٠١.

لواط الخـــليفة اعـــجوبة وأعجب مـنه خـلاق الوزيـر
فـهذا يـدوس وهـذا يُـداس كذاك لعمري اختلاف الأمور
....
ولكـــنّ ذا لجّ في كــوثرٍ[١] ولم يشفِ هذا دعاس الحـمير
واعــجب مــن ذا وذا أنــنا نبايع للطفل فـينا الصـغير[٢]

في قصيدة من ١٦ بيتاً[٣].

❊ ❊ ❊

ويظهر من هذه الأبيات انّ الخليفة أمير المؤمنين كان لواطاً، ولعله بعدما وجد أباه ينكح حليلة أبيه، فأراد ان يسبقه في مبتكرات عالم الجنس، فترك النِّساء والجواري واتّخذ في اللواطة مهنة محبّبة.

فهذا يدوس وهذا يُداس...

اشارة للخليفة الأمين ولوزيره الفضل بن الربيع.

فهل كان جناب الوزير يلوط به أمير المؤمنين؟

الشعر يقول ذلك. وشاعر بغداد عاصر الأمين ووزيره.

ولربّما كانت سمعة الخليفة هابطة جدّاً، بحيث وصلت إلى اسماع جميع البغداديين.

وبخٍ بخٍ للمؤمنين في أميرهم اللّواط الّذي يجب ان يرجم بالحجارة حتّى يموت، لا أن يحكمّهم باسم خلافة الرسول ﷺ وإمرة المؤمنين ليقيم حدود الله وهو أولى بالحد.

وعصر الأمين، إذا قيس بالعصور الّتي تلته، يعتبر عصراً ذهبياً، فماذا في العصور

---

١ ـ كوثر خادم الأمين.

٢ ـ الطفل الصغير هو موسى بن الأمين الّذي بايعه لولاية العهد بعدما عزل أخاه المأمون.

٣ ـ الطبري / ج ١١ / ص ٨٠٤ ـ ٨٠٥.

اللّاحقة من انتهاكات؟

يا لوعة الاسلام والمسلمين!

❊ ❊ ❊

شهود آخرون على لواط الخليفة الأمين

ويقول ابن الأثير:

لمّا ملك محمّد وكاتبَه المأمون واعطاه بيعته، طلب الخصيان وابتاعهم وغالى بهم وصيَّرهم لخلوته في ليله ونهاره، وقوام طعامه وشرابه، وأمره ونهيه، وفرض لهم فرضاً سمّاهم (الجراديّة) وفرضاً من الحبشان سمّاهم (الغرابية) ورفض النِّساء والحرائر والإماء... ففي ذلك يقول بعضهم وكأنّه يخاطب هارون الرشيد المدفون في طوس:

ألا يا مزمن المثوى بطوس غريباً ما تفادى بالنفوس
لقد أبقيت للخصيان بعلاً يحمّل منهمُ شؤم البسوس
فأمّا نوفل فالشأن فيه وفي بدرٍ فيالك من جليس
وما العصميّ بشّار لديه إذا ذكروا بذي سهم خسيس
وما حسن الصغير أخسّ حالاً لديه عند مخترق الكؤوس
لهم من عمره شطر وشطر يعاقر فيه شربَ الخندريس
وما للغانيات لديه حظّ سوى التقطيب والوجه العبوس
إذا كان الرئيس كذا سقيماً فكيف صلاحنا بعد الرئيس[1][2]

❊ ❊ ❊

أمّا السيوطي فيقول:

لمّا ملك (الأمين) وجّه إلى البلدان في طلب الملهين وأجرى لهم الأرزاق واقتنى

---

١ ـ نوفل وبدر وبشّار وحسن الصغير، كلّهم من الّذين يلوط بهم أمير المؤمنين.

٢ ـ الكامل في التاريخ / ج ٥ / ص ٤١٠.

الوحوش والسباع والطيور، واحتجب عن أهل بيته وأمرائه واستخفّ بهم ومحق ما في بيوت الأموال وضيّع الجواهر والنفائس وبنى عدّة قصور للّهو[١].

ويضيف الطبري:

انّه قسّم ما في بيوت الأموال وما بحضرته من الجوهر في خصيانه وجلسائه ومحدثيه[٢] وانّه ابتنى سفينة انفق عليها ثلاثة آلاف ألف درهم[٣] ولم يتوقف الأمين عن اللّهو والحماقة حتّى في أشد حالات الحصار والقتال الّتي تعرّض لها من أخيه المأمون، فقد جاءه الخبر بقتل (علي بن عيسى) قائده الّذي أرسله إلى حرب المأمون، وهو يتصيّد السّمك في دجلة، فقال للّذي أخبره: ويلك دعني، فان (كوثراً)[٤] صاد سمكتين وأنا ما صدت شيئاً بعد[٥].

* * *

نعم، هذا هو الأمين أمير المؤمنين!

ولماذا نطيل فيه الحديث؟ فهو والآخرون من الخلفاء سواء، بين لواط وزان وسفّاك للدماء، ينفقون أموال المسلمين في فسقهم ومجونهم واستهتارهم بالمقدّسات، ويرتكبون من الفجور ما لم يرتكبه السفلة من الناس، ويطلبون منهم أن يحترموهم ويكيلوا لهم الثناء ويدعوا لهم على المنابر باعتبارهم خلفاء لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ألا بئس ما يفعلون.

وهم في كل ذلك، كانوا يعتقدون أو كانوا يوهمون أنفسهم ان دولتهم سوف تبقى حتّى يسلّموا الأمر إلى عيسى بن مريم في آخر الزمان وانّ أي قائم يريد الاساءة إلى

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٣٠١.
٢ ـ الطبري / ج ١١ / ص ٩٥١.
٣ ـ المصدر السابق / ص ٩٥٣.
٤ ـ كوثر، سبق التعريف به، فهو أحد خصيان الخليفة الأمين.
٥ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٣٠١.

دولتهم فانّ مصيره الفشل والسيف.

فقد كتب الأمين بخطه رقعة إلى طاهر بن الحسين لما انتدب لحربه:

يا طاهر! ما قام لنا ـ منذ قمنا ـ قائم بحقنا، فكان جزاؤه عندنا إلّا السيف فانظر لنفسك أو دَعْ (يلوّح بأبي مسلم وأمثاله الّذين بذلوا أنفسهم في النصح لهم، فكان مآلهم القتل)[1].

وجرى بين الأمين والمأمون في التخالع والقتال ما لم يجر بين اخوين في الدُّنيا، حتّى أصبحت القصص الّتي تروى في ذلك حديث الناس في الأجيال المتعاقبة.

فقد تسمّى كل واحد منهما بإمرة المؤمنين وخلافة الرسول ﷺ، بل زاد المأمون على ذلك وتسمّى بـ(إمام المؤمنين)[2] عندما تيقن بانّه خلع أخاه الأمين.

والأمّة المرحومة هي الأمّة الاسلامية الّتي تسلّط عليها أولئك الّذين لا يخافون الله، ويسوقونهم للقتال من أجل شهوة المتحاربين وسلطانهم ومآربهم الشخصية واطماعهم الدنيئة في اللّهو واللّعب واللّواطة والخمور وأمثال ذلك.

* * *

المأمون يبتدع فتنة خلق القرآن

وعندما جاء المأمون ابتدع عام (٢١٨هـ) فتنة خلق القرآن وامتحن الناس، وأمر بضرب أعناق من قال خلاف ذلك[3].

وهكذا أشغل المأمون نفسه بقضيّة خلق القرآن، وكأنّ مشاغل الخلافة قد انتهت ومشاكل الملك قد تقلصت، ولم يبق أمامه غير مشكلة خلق القرآن، فجعل كل همه فيها، من على القرب والبعد، يسفّه العلماء ويكفّر المحدِّثين ويتهم الأبرياء، ثمّ هو بعد

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٣٠٠.

٢ ـ المصدر السابق / ص ٢٩٨.

٣ ـ المصدر السابق / ص ٣٠٨.

ذلك يهدِّد علماء الأمّة بالسيف ويطلب إنفاذهم إليه حتّى ينصاعوا لقوله أو تضرب أعناقهم[١].

وسوف نتكلّم عن فتنة خلق القرآن في موضوع آخر بشيء من التفصيل إن شاء الله.

والمأمون وإن كان يُعتبر أعلم بني العباس إلّا انّه كان يعاقب على الأمر بالمعروف، يقول الحسن البزاز: أدخلت على المأمون ثلاث مرات رفع إليه أوّل مرّة أنّي آمر بالمعروف ـ وكان نهى أن يأمر أحد بمعروف ـ فأخذت فأدخلت عليه فقال لي: أنت الحسن البزاز؟ قلت: نعم، يا أمير المؤمنين! قال: وتأمر بالمعروف؟ قلت: لا، ولكني انهى عن المنكر، فرفعني على ظهر رجل وضربني خمس درر وخلّى سبيلي[٢].

وهو وإن كان من أذكياء خلفاء العباسيين، إلّا انّه عيّن يحيى بن أكثم قاضياً للقضاة، وكان هذا مشهوراً باللواط.

يقول ابن الوردي في تاريخه:

وكان ابن أكثم يتهم بالصبيان، وقد قيل فيه أشعار منها:

وكنّا نرجّي ان نرى العدل ظاهراً ... فأعقبنا من بعد ذاك قنوط

متى تصلح الدُّنيا ويصلح أهلها ... وقاضي قضاة المسلمين يلوط

ولأحمد بن نعيم:

انطقني الدهر بعد إخراسي ... لنائبات أطلن وسواسي

لا أفلحت أمّة وحق لها ... بطول نكس وطول إتعاس

ترضى بيحيى يكون سائسها ... وليس يحيى لها بسوّاس

قاضٍ يرى الحد في الزّناء ولا ... يرى على من يلوط من باس

يحكم للأمرد الغرير على ... مثل جرير ومثل عباس

---

١ ـ الإمام أحمد بن حنبل / مصطفى الشكعة ص ١٣٩.

٢ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم / ج ٧ / ص ٣٤.

فالحمد لله كيف قد ذهب العدل وقــــلّ الوفــاء في النـــاس

ثمّ يرتقي هذا الشاعر إلى الخليفة، بل إلى آل عباس كلّهم، لأنّهم أساس الظـلم والجور، فيقول:

أمــــيرنا يـرتشـــي وحـــاكـمنا يـلــوط والــرأس شر مــا راس
لا أحسب الجور ينقضي وعلى الأمّة والٍ مـــــن آل عـــباس[١]

* * *

المعتصم يحذو حذو المأمون في الفتنة ويستقدم الأتراك

وسار المعتصم على طريقة المأمون في امتحان الناس بخلق القـرآن، فكـتب إلى البلاد بذلك وأمر المعلمين أن يعلموا الصبيان ذلك.

وقاسى الناس منه مشقّة في ذلك وقتل عليه خلقاً من العلماء وضرب الإمام أحمد ابن حنبل، وهو أوّل خليفة أدخل الأتراك في الديوان[٢].

ويقول ابن الأثير بهذا الصدد:

وفيها (سنة ٢١٩ هـ) احضر المعتصم أحمد بن حنبل وامتحنه بالقرآن، فلم يجب إلى القول بخلقه، فأمر به فجلد جلداً عظيماً حتّى غاب عقله وتقطع جلده وحبس مقيّداً[٣].

وكان أهم عمل قام به بعد امتحان الناس بخلق القرآن هو انّه قتل العباس ابـن أخيه المأمون، وذلك عندما بويع بعد موت المأمون شغب عليه الجند، ونادوا باسم العباس بن المأمون، فخرج إليهم العباس فقال: ما هذا الحب البارد؟ وقد بايعت عمّي، فسكتوا (ولكن المعتصم قتله)[٤].

---

١ ـ تاريخ ابن الوري / ج ١ / ص ٢١٨ ـ ٢١٩.
٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٣٣٥.
٣ ـ الكامل في التاريخ / ج ٦ / ص ١٧.
٤ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ١٣٨.

أمّا طريقة قتله ؟

فيقال انّه أجاعه جوعاً شديداً ثمّ جيء بأكل كثير، فأكل منه وطلب الماء، فمنع حتّى مات.

ثمّ أمر المعتصم بلعنه وسمّاه اللعين [١].

أمّا عن بطاقته الشخصية ؟

فقد كان كثير اللهو مسرفاً على نفسه، وكانت له نفس سبعية إذا غضب لم يبال من قتل [٢].

أمّا صاحب كتاب الفخري، فينقل قصّة تدل على جهل وغباء المعتصم ووزيره أحمد بن عمار إذ يقول:

إنّ المعتصم استوزر (أحمد بن عمار) وكان جاهلاً بآداب الوزارة، وفيه يقول بعض شعراء عصره:

سبحان ربّي الخالق الباري   صرتَ وزيراً يا ابن عمارِ
وكنت طحّاناً [٣] على بغلةٍ   بغير دكانٍ ولا دارِ
كفرت بالمقدار إن لم تكن   قد جُزت في ذا كل مقدارِ

فمكث مدّة في وزارة المعتصم حتّى ورد كتاب من بعض العمّال يذكر فيه خِصبَ الناحية وكثرة الكلأ.

فسأل المعتصمُ أحمدَ بنَ عمار عن الكلأ، فلم يدر ما يقول.

فدعا (المعتصم) محمّد بن عبدالملك الزيات، وكان أحد خواصه وأتباعه، فسأله عن الكلأ.

---

١ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١٠ / ص ٣١٧.

٢ ـ شذرات الذهب / ج ٢ / ص ٦٣.

٣ ـ حيث كان أحمد بن عمار طحّاناً بالبصرة.

فقال: أوّل النبات يُسمّى بقلاً، فإذا طال قليلاً فهو الكلأ، فإذا يبس فهو الحشيش.

فقال المعتصم لأحمد بن عمار: انظر أنت في الدواوين، وهذا يعرض علي الكتب.

ثمّ استوزره، وصرف ابن عمار صرفاً جميلاً[1].

هذا هو المعتصم باختصار:

بدأ حياته بضرب العلماء وجلدهم، وقتل ابن أخيه بعدما أنكر على الجند مبايعتهم له وأخبرهم انّه بايع عمّه.

وكان كثير اللهو مسرفاً على نفسه في المنكرات والموبقات، وإذا غضب لم يبال من قتل.

وهو بالاضافة إلى ذلك جاهل، لا يعرف معنى الكلأ، وهو أمير المؤمنين وخليفة رسول الله ﷺ الّذي يفترض فيه ان يكون أعلم الناس وأورعهم وأشدّهم خشية في ذات الله.

ولكن المعتصم سار على طريقة آبائه وأجداده، لم يشذ عنهم، فكلهم في ذلك سواء.

والخلافة انّما يريدونها للدنيا وليس لتطبيق الشريعة كما يدعون.

❊ ❊ ❊

الواثق بن المعتصم

خلف أباه المعتصم في فتنة خلق القرآن وعاقب المخالفين عليها.

وكان مستهتراً في النِّساء على عادة آبائه، إذ يقول عنه ابن الفرات انّه كان مشغوفاً بحبّ الجواري واتّخاذ السّراري والتمتّع بالأنكحة، وقيل كان مع جارية فظنّها نامت، فقام إلى أخرى، فشعرت به الّتي كان معها.

---

١ ـ الفخري لابن الطقطقي / ص ٢٣٣.

فقامت مغضبة، فبعث إلى الخليع البصري وأخبره بقصّته، فقال:

غضبتْ إذ زرت أخرى خلسةً فـلها العـتبى لدينـا والرضـا
يا فدتك النـفس كـانت هـفوة فاغفريها واصفحي عـمّا مـضى
واتركي العزل عـلى مـن قـاله وانسبي جوري إلى حكم القضا
فـلقد نـبهتني مـن رقـدتي وعـلى قـلبي كـيزان الفـضا

فاصطلحا، وأجازه[1].

نعم، هكذا كان أميرالمؤمنين خليفة رسـول الله ﷺ، يـعترف بـالهفوة الّـتي صدرت منه، ويفدي جاريته بنفسه، ويطلب منها أن تغفر له وتـصفح عـمّا مـضى ويتضرّع لها، إذ نبّهته من رقدته وغفلته.

ولكن هل يخطر على باله يوماً انّه لابدّ ان يطلب المغفرة من ربّ العالمين، حيث يعصيه في كل لحظة، وحيث يسيء إلى منصب الخلافة، وإمرة المؤمنين، وحيث يجب أن يكون قدوة صالحة للرّعيّة، نراه يهـبط إلى أدنى مسـتوى للـرذيلة والانحـطاط الخلقي.

وعلى كل حال، فتلك مصيبة المسلمين إذ يكون الواثق وأمثاله خلفاء لهم.

* * *

وكان سبب موته ان طبيبه ميخائيل عبر عليه ذات يوم، فقال له: يا ميخائيل! ابغ لي دواء للباه.

فقال: يا أميرالمؤمنين! خف الله في نفسك. النكاح يهد البدن.

فقال: لابدّ من ذلك.

فقال: إذا كان ولا بدّ فعليك بلحم السبع إغلهِ بالخل سبع غليات، وخذ منه ثلاثة

---

١ ـ شذرات الذهب / ج ٢ / ص ٧٦.

دراهم[١] على الشراب، وإيّاك أن تكثر منه تقع في الاستسقاء.

ففعل الواثق ذلك، وأخذ منه فأكثر لمحبّته في الجماع.

فاستسق بطنه، فأجمع الأطباء أن لا دواء له إلّا أن يُسجر له تنور بحطب الزيتون، وإذا مُلئ جمراً، نحيّ ما في جوفه (أي جوف التنور) وألقي فيه على ظهره، ويجعل تحته، وفوقه الأشياء الرطبة، ويودع فيه ثلاثة ساعات وإذا طلب ماء لم يسق، فان سقي كان تلفه فيه.

فأمر الواثق فصنع به كذلك، وأخرج من التنور، وهو في رأي العين انّه احترق، فلمّا أصاب جسمه روح الهواء، اشتدّ عليه، فجعل يخور كما يخور الثور ويصيح ردّوني إلى التنّور.

فاجتمعت جواريه ووزيره محمّد بن الزيات فردّوه إلى التنور، فلمّا ردّوه إليه سكن صياحه وأخرج ميّتاً[٢].

* * *

طريقة بائسة في اختيار الخليفة

فمنذ مات الواثق بن المعتصم، فان (وصيف وايتاخ) وبعض من حضر، كانوا يريدون البيعة لمحمّد بن الواثق وهو غلام، فألبسوه لباس الخلافة، فإذا هو قصير.

ثمّ تناظروا فيمن يولونه؟ واحضروا المتوكل، فألبسه ابن أبي داود وعمّمه وسلم عليه بإمارة المؤمنين ولقّبه (المتوكل)[٣].

فأيّة استهانة هذه بمنزلة الخلافة؟

فكأنّهم يريدون من يتناسب جسمه والقميص، فإذا كان لا يناسبه، أبدلوه بغيره وهكذا...

---

١ ـ الدرهم: وزن ضئيل، يُستعمل للأدوية غالباً.

٢ ـ شذرات الذهب / ج ٢ / ص ٧٦ ـ ٧٧.

٣ ـ تاريخ ابن خلدون / ج ٣ / ص ٢٧٣.

فلماذا التباكي إذن على بغداد؟

وهي ليست بيد من يستحق البقـاء، فالخـلفاء هم الّذين فرّطوا بها وسـلّموها طواعية إلى غيرهم.

❊ ❊ ❊

المتوكل يعلن حرباً شعواء ضدّ العلويين ويأمرهم بهدم قبر الحسين

ثمّ جاء المتوكل بعدما اختاره (وصيف التركي) لأنّ طوله كـان يـناسب قـميص الخلافة، فأمر بهدم قبر الحسين وهدم ما حوله من الدور، وأن يعمل مزارع، ومنع الناس من زيارته، وبقي صحراء.

وكان المتوكل معروفاً بالتعصب، فتألم المسلمون من ذلك، وكتب أهل بغداد شتمه على الحيطان والمساجد، وهجاه الشعراء. فما قيل في ذلك:

بـالله إن كـانت أمـيّة قـد أتت قتل ابـن بـنت نـبيها مـظلوما
فـلقد أتـاه بـنو أبـيه بمثله هـذا لعـمري قـبره مـهدوما
أسفوا على أن لايكونوا شاركوا في قـتله فـتتبّعوه رمـيماً[1]

ثمّ نادى بالناس في تلك الناحـية: مَن وجدناه عند قبره بعد ثلاثة حبسـناه في المطبق، فهرب الناس وتركوا زيارته.

❊ ❊ ❊

وكان المتوكل شديد البغض لعلي بن أبي طالب عليه السلام ولأهل بيته، وكان يقصد مَن يبلغه عنه انّه يتولّى عليّاً وأهله بأخذ المال والدم.

وكان من جملة ندمائه (عبادة المخنث) وكان يشدّ عـلى بـطنه تحت ثـيابه مخـدّة ويكشف رأسه وهو أصلع، ويرقص بين يدي المتوكل، والمغنّون يغنّون:

---

١ ـ السيوطي / ص ٣٤٧.

قد أقبل الأصلع البطين خليفة المسلمين.

يحكى بذلك عليّاً عليه السلام .

والمتوكل يشرب ويضحك.

ففعل ذلك يوماً والمنتصر حاضر، فأومأ إلى (عبادة) يتهدّده، فسكت خوفاً منه.

فقال المتوكل: ما حالك؟ فقام وأخبره.

فقال المنتصر: يا أمير المؤمنين إنّ الّذي يحكيه هذا الكلب ويضحك منه الناس هو ابن عمّك، وشيخ أهل بيتك وبه فخرك، فكل أنت لحمه إذا شئت ولا تطعم هذا الكلب وأمثاله منه.

فقال المتوكل للمغنّين: غنّوا جميعاً.

غـار الفـتى لابـن عـمّه رأس الفتى في حرّ أمّه[1]

وبلغ به الأمر انّه ضرب شخصاً كان يظن انّه شيعي، فكان سنّيّاً.

فقد روى نصر بن علي بن نصر البصري وكان ثقة، يروي عنه مسلم في صحيحه وغيره فقال «انّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أخذ بيد حسن وحسين فقال: من أحبّني وأحبّ هٰذين وأباهما وأمّهما كان معي في درجتي يوم القيامة».

فأمر المتوكل ان يُضرب ألف سوط ظنّاً منه انّه رافضي، فقال له جعفر ابن عبدالواحد: هذا الرجل من أهل السنّة، فتركه[2].

* * *

إنّ المؤرّخ يُجانب الأمانة كثيراً عندما يكتب حدثاً ويترك حدثاً آخر حسبما يوافق رغبته وهواه، وهوى السلطان.

والأنكى من ذلك، ان يأتي بعد ذلك ليكيل المدح لمن يحب ويكيل الذم لمن يكره.

---

١ ـ الكامل في التاريخ / ج ٦ / ص ١٠٩.

٢ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم / ج ٧ / ص ٤٢.

وفي خضم ذلك، تضيع كثير من الحقائق ويطويها النسيان.

وتلك آفة الأخبار والأحداث، لم تكن في العصر القديم فقط وانّما هي في كل زمان ومكان، فالأهواء نفس الأهواء والأقلام نفس الأقلام والسلاطين من معدن واحد، من معدن الجبروت والكبرياء والقهر والغلبة.

والناس يخافون سطوتهم ويرجون نوالهم.

مع أنّ المتوكل كان قبل خلافته يتشبّه بالمخنثين، ولربّما كان واحداً منهم.

يقول صاحب كتاب المنتظم:

وكان محمّد بن عبدالملك قد كتب إلى الواثق، أتاني جعفر بن المعتصم (المتوكل) يسألني أن أسأل أمير المؤمنين الرضا عنه في زي المخنثين له شعر قفا.

فكتب إليه الواثق: ابعث إليه واحضره، ومر من يجز شعره واضرب به وجهه، ففعل ذلك[1].

فرحى للمسلمين، فقد أصبح المخنّث خليفتهم.

فإذا كان أمير المؤمنين (الأمين) لواطاً، ترك النِّساء واختصّ بالخصيان فانّ خليفتنا الآخر (المتوكل) كان مخنثاً.

والمتوكل الّذي نحن بصدده الآن يقول عنه السيوطي في باب المدح والثناء:

... وتوفر دعاء الخلق للمتوكل وبالغوا في الثناء عليه والتعظيم له، حتّى قال قائلهم: الخلفاء ثلاثة: أبو بكر الصدّيق ﷺ في قتل أهل الردّة وعمر بن عبدالعزيز في رد المظالم والمتوكل في إحياء السنّة وإماتة التجهم.

وقال أبو بكر بن الخبازة في ذلك:

وبعدُ فانّ السنّة اليوم أصبحت معززة حتّى كأن لم تذللِ
تصول وتسطو إذ أقيم منارها وحُطّ منار الإفك والزّور من علِ

---

١ ـ المنتظم في تواريخ الملوك والأمم / ج ٦ / ص ٤١٨.

وولّى أخو الإبداع في الدين هارباً إلى النار يهوي مدبراً غير مقبل
شفى الله منهم بالخليفة جعفر خليفته ذي السنّة المتوكل
خليفة ربّي وابن عم نبيه وخير بني العباس مَن منهمُ وَلي
وجامع شمل الدين بعد تشتت وفاري رؤوس المارقين بمنصل
أطال لنا ربّ العباد بقاءَه سليماً من الأهوال غير مبدل
وبوّأه بالنصر للدّين جنّة يجاور في روضاتها خير مرسل[1]

فهل كان المتوكل قد أحيا السنّة وأمات البدعة حقّاً؟

وهل كان شرب الخمر إحياء للسنّة واماتة للبدعة ليستحق هذا المدح والثناء؟

وشاعر السلاطين هذا هو من أولئك الّذين يتّبعهم الغاوون، لقد رفع المتوكل إلى درجة ليس فوقها درجة.

جامع شمل الدين ـ بالخمر طبعاً وباللّهو والغناء، الّذي سوف يكون مصيره جهنّم، وفي قعرها، وليس كما يقول الشاعر:

يجاور في روضاتها خير مُرسل...

بل إنّ وعّاظ السلاطين تابعوا المتوكل حتّى بعد موته، فنسبوا له من المناقب ما لم يكن لغيره من الصالحين.

يقول أحد أولئك: رأيت جعفر المتوكل في النوم وهو في النور جالس، قلت: المتوكل؟

فقال: المتوكل، قلت ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، قلت: بماذا؟

قال: بقليل من السنة أحييتها[2].

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٣٤٦.

٢ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم / ج ٧ / ص ١٠.

لقد بدأ المتوكل الخلافة وانهاها هكذا:

١ ـ الأتراك أرادوا (محمّداً) بن الواثق، ولكنّه كان غلاماً صغيراً، وعندما ألبسوه القميص كان أطول من قامته، فتركوه.

والبسوه للمتوكل فوجدوه مناسباً له.

فكأن مواصفات الخليفة ان يكون القميص مناسباً له في الطول والعرض.

٢ ـ قضى المتوكل فترة الخلافة الميمونة بالشرب، حتّى كان يشرب ١٤ رطلاً، وهي كمية كبيرة في عُرف شاربي الخمور، وكان يفقد اتزانه ويميل برأسه فيقيمه الخدم.

٣ ـ وأخيراً يقتله أولئك الأتراك الّذين نصبوه، أولئك الّذين جاء بهم أبوه المعتصم، فكانوا شؤماً عليهم، بل كانوا هم شؤماً على الأمّة.

* * *

وأمّا الخليفة المعتمد على الله

فكان قد شرب على الشط في الحسين ببغداد يوم الأحد شراباً كثيراً، وتعشّى فأكثر فمات[١].

واحضر المعتضد القضاة وأعيان الناس، فنظروا إليه، وحمل إلى سامراء فدفن فيها... وكان في خلافته محكوماً عليه، قد تحكّم عليه أخوه أبو أحمد الموفّق، وضيّق عليه، حتّى انّه احتاج في بعض الأوقات إلى ثلاثمائة دينار فلم يجدها ذلك الوقت، فقال:

أليس من العجائب أنّ مثلي ... يرى ما قلّ ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدُّنيا جميعاً ... وما مِن ذاك شيء في يديه
إليه تحمّل الأموال طراً ... ويمنع بعض ما يجبى إليه[٢]

١ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ١٤٨.

٢ ـ الكامل في التاريخ / ج ٦ / ص ٢٢٣.

وأمير المؤمنين المعتمد كان مشغوفاً بالطرب، والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهي[١].

أمّا السيوطي فيقول عنه:

... وانهمك المعتمد في اللهو والملذات واشتغل عن الرعية، فكرهه الناس، وأحبّوا أخاه طلحة[٢].

نعم، كان أمير المؤمنين المعتمد على الله منهمكاً في الملذات واشتغل عن الرعية وكان الغالب عليه المعاقرة وأنواع الملاهي، فأين إذن الأمّة؟ وأين أصبحت ومن لها؟ إذا كان أمير المؤمنين عياراً، فمن يهتم بشؤون المسلمين ودولة الاسلام؟

وهل كان أولئك الّذين اقتطعوا الولايات من الدولة العباسية ملومين في عملهم إذا كان خليفتهم عياراً؟

ودولة العيارين لابدّ ان تكون نهايتها التدحرج والانهيار.

* * *

كان الخليفة المعتمد على الله قد عقد مجلساً مع ندمائه، وجه سؤالاً لأحدهم:

اخبرني عن أوّل من اتّخذ العود[٣].

فأجاب هذا: قد قيل في ذلك يا أمير المؤمنين أقاويل كثيرة.

نعم، لابدّ ان يخاطبه هكذا (يا أمير المؤمنين) حتّى ولو كان عياراً لاهياً.

ثمّ سأله سؤالاً آخر:

فعلى كم تتقسم أنواع الطرب؟

ثمّ منزلة الايقاع وألقابه.

---

١ ـ مروج الذهب / ج ٤ / ص ١٣١.

٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٣٦٣.

٣ ـ مروج الذهب / ج ٤ / ص ١٣٢.

وأخيراً، قال له:

صف لي الرقص وأنواعه والصفة المحمودة من الراقص واذكر لي شمائله.

فقال المسؤول: يا أمير المؤمنين! أهل الأقاليم والبلدان مختلفون في رقصهم...[١]

* * *

فأمير المؤمنين المعتمد على الله، لم يكن يعرف آلات الطرب فقط وانّما يعرف الرقص وأنواعه أيضاً، فكأن من صفات خليفة المسلمين ان يعرف كل ذلك بل لا بدّ ان يمارسه، ليتمّ فضله وتعلو منزلته لدى أقرانه من العيارين.

ويقول المسعودي:

وللمعتمد مجالسات ومذاكرات ومجالس قد دوّنت في أنواع من الأدب، منها مدح النديم وذكر فضائله وذم التفرد في شرب النبيذ...[٢]

فلا ينبغي لأمير المؤمنين المعتمد أن يشرب النبيذ لوحده، فإنّه ليس من الآداب السلطانية، وليس ممّا يفرح القلب ويزيد في الأنس.

فرحى للمسلمين في خليفتهم ومرحى للمؤمنين في أميرهم.

وهل يحزن انسان مسلم على موت شخص كهذا؟

وهل يخسر المسلمون بموته شيئاً؟

لقد مات الخليفة المعتمد على الله من شربه المفرط للخمر، وذهب إلى جهنم غير مأسوف عليه.

ولكنّنا نتأسف على أولئك الّذين نصبوا أنفسهم وعاظاً للسلاطين الّذين اعتادوا على مدح المعتمد وغيره من الخلفاء، فلابدّ أن يقولوا في كل خليفة انّه نشر العدالة وأقام الشريعة وأحيا السنّة وامام الهدى... الخ.

فلنقرأ هذا الشعر في رثاء المعتمد:

---

١ ـ مروج الذهب / ج ٤ / ص ١٣٢.

٢ ـ المصدر السابق / ص ١٣٨.

لقد قرّ طرف الزّمان النّكِدْ　　وكان سخيناً كليلاً رَمِدْ
وبُلّغت الحادثات المنى　　بموت إمام الهدى المعتمد
ولم يبق لي حذر بعده　　فدون المصائب فلتجتهد[1]

❊ ❊ ❊

ثمّ جاء المعتضد بالله أميراً للمؤمنين وخليفة للمسلمين

ويقول عنه المسعودي:

... كان مع ذلك قليل الرحمة كثير الإقدام، سفاكاً للدماء، شديد الرغبة في ان يمثّل بمن يقتله.

وكان إذا غضب على القائد النبيل والّذي يختصه من غلمانه، أمر أن تحفر له حفيرة بحضرته، ثمّ يدلى على رأسه فيها، ويطرح التراب عليه، ونصفه الأسفل ظاهر على التراب، ويداس التراب، فلا يزال كذلك حتّى تخرج روحه.

وذكر من تعذيبه أنّه كان يأخذ الرجل فيكتف ويقيّد، فيؤخذ القطن فيُحشى في أذنه وخيشومه وفمه وتوضع المنافخ في دبره حتّى ينتفخ ويعظم جسده ثمّ يُسدّ الدّبر بشيء من القطن ثمّ يفصد وقد صار كالجمل العظيم من العرقين اللّذين فوق الحاجبين.

وربّما كان يقام الرجل في أعلا القصر مجرداً موثقاً ويرمى بالنشّاب حتّى يموت.

واتّخذ المطامير وجعل فيها صنوف العذاب وجعل فيها (نجاح الحرمي) المتولّي لعذاب الناس.

ولم يكن له رغبة إلّا في النّساء والبناء، فانّه انفق على قصره المعروف بـ(الثريّا) أربعمائة ألف دينار، وكان طول قصره المعروف بالثريا ثلاثة فراسخ[2].

والسيوطي يؤيّد كلام المسعودي إذ يقول:

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٣٦٨.

٢ ـ مروج الذهب / ج ٤ / ص ١٤٥.

ولكن رغبة المعتضد في البناء كان لخلوته بالنِّساء والجواري، وغرم[١] المعتضد على عمارة البحيرة ستين ألف دينار، وكان يخلو فيها مع جواريه وفيهنّ محبوبته (دُريرة) فقال ابن بسام:

ترك الناس بحيرة وتخلّى في البحيرة
قاعداً يضرب بالطّبل على حرّ دريره[٢]

ويضيف السيوطي عن المعتضد:

وكان مزاجه تغيّر من كثرة إفراطه في الجماع[٣].

* * *

إلّا ان ابن الأثير يقول عنه انّه كان عفيفاً ويستشهد لذلك بقوله:

حكى القاضي إسماعيل بن إسحاق، قال: «دخلت على المعتضد وعلى رأسه أحداث روم صباح الوجوه، فأطلت النظر إليهم، فلمّا قمت أمرني بالقعود، فجلست. فلمّا تفرّق الناس، قال: يا قاضي والله ما حللت سراويلي على غير حلال قط»[٤].

ربّما لم يحلّ المعتضد سراويله على حرام قط، لأنّه كان مشغوفاً بالنِّساء، ولكن لماذا دفع هذه الشبهة عنه؟

ألأنّ جدّه الأمين كان لوّاطاً؟

فظن القاضي إسماعيل بن إسحاق انّه لواط أيضاً، ولأنّ اللّواطة والزّنا وشرب الخمور وبقيّة الأعمال المنكرة كان ارتكابها من قِبَل الخلفاء أولئك أمراً شائعاً، فدفع المعتضد هذه الشبهة عنه.

---

١ ـ غرم بمعنى بذل.
٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٣٧٢.
٣ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٣٧٢. والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم / ج ٧ / ص ٣٤١.
٤ ـ الكامل في التاريخ / ج ٦ / ص ٤١١.

شخص نصرانيّ
يأخذ البيعة للمكتفي بالله ليكون خليفة للمسلمين

ولمّا توفّي المعتضد، كتب القاسم بن عبيدالله بالخبر إلى المكتفي كتباً وأنفذها من ساعته، وكان المكتفي مقيماً بالرقة.

فلمّا وصل الخبر إليه أمر الحسين بن عمرو النصراني كاتبه يومئذٍ بأخذ البيعة على من في عسكره[١].

وتعيين شخص نصراني أو يهودي في الدواوين كان أمراً شائعاً منذ أيّام بني أميّة، بل منذ معاوية بالذات.

أمّا المكتفي بالله، فقد طلب من كاتبه النصراني ان يأخذ له البيعة على المسلمين، وهذه (مكرمة!) لم يكن سبقه إليها أحد من الخلفاء الأجلاء!

وهذا يشبه أولئك الّذين كانوا قد استأجروا نصرانياً أو يهودياً للأذان، فكان يقول: وان أهل البلد يشهدون ان محمّداً رسول الله.

❊ ❊ ❊

الخليفة المكتفي بالله يعطي عهداً وأماناً ثمّ ينقضه

وكان القاسم بن عبيدالله، قد أغرى الخليفة المكتفي ببدر مولى المعتضد وقائد الجيش. واشتدّت الأزمة بين بدر والخليفة، وأخيراً اعطى المكتفي بدراً عهداً على لسان القاضي أبي عمر محمّد بن يوسف، فأرسل به إلى بدر، فأعطاه الأمان والعهود والمواثيق عن المكتفي، ثمّ غدر به وقتله.

فقال أحد الشعراء:

---

١ ـ الطبري / ج ١٣ / ص ٢٢٠٧.

قل لقاضي مـدينة المـنصور بمَ أحللت أخذ رأس الأمير
بعد إعطائه المواثيق والعـهد وعــقد الأمـان في مـنشور
أين أيمـانك الّتي يـشهد الله عــلى انّهـا يمــين فـجور
أين تأكيدك الطّلاق ثـلاثاً ليس فــيهن نــيّة التـخيير
إنّ كــفيك لا تـفارق كـفيه إلى ان ترى مـليك السـريـر
يا قليـل الحــياء يا أكذب الأمّـــة يا شـــاهداً شـــهادة زور
فأعدّ الجواب للحكم العادل مــن بــعد مـنكر ونكـير

❊ ❊ ❊

ويقول المسعودي ان بدراً بعد ان أعطوه الأمان، سألهم ان يصلّي ركعتين، وذلك في يوم الجمعة لست خلون من شهر رمضان سنة تسع وثمانين ومائتين قبل الزوال من ذلك اليوم، فأمهلوه للصلاة، فلمّا كان في الركعة الثانية قطعت عنقه، وأخـذ رأسـه فحمل إلى المكتفي، فلمّا وضع الرأس بين يدي المكتفي سجد وقال: الآن ذقت طعم الحياة ولذّة الخلافة[1].

إنّ إعطاء العهود والمواثيق من قبل الخليفة ـ والتنكر لها، حالة طالما تكررت على عهد الخلفاء، منذ معاوية بن أبي سفيان بعد صلحه مع الحسن عليه السلام، فانّه عندما دخل الكوفة قال: انّ شروطاً جعلتها للحسن، أضعها كلّها تحت قدمي.

إنّ هذه الحالة تعطي انطباعاً سيّئاً عن الاسلام الّذي من المفروض ان يمثله الخليفة أمير المؤمنين نفسه.

وقد أكّد الاسلام كثيراً على الالتزام بالعهود والمواثيق والأيمان، وكـان الرّسـول صلّى الله عليه وآله وسلّم قد أكّد عليها في آخر خطبة له في حجة الوداع.

وإنّ عدم الالتزام بالعهود يجعل الأمّة لا تثق مطلقاً بما يقوله الخليفة ـ حتّى ولو كان صادقاً في نفسه ـ.

---

١ ـ مروج الذهب / ج ٤ / ص ١٨٨.

ولذلك فانّنا نرى في دولة بني العباس كثيراً من الثائرين، وقد أعطاهم الخلفاء العهود والمواثيق والأمان والأيمان المغلظة في عدم التعرض لهم في حالة ترك الثورة واللقاء بالخليفة.

ولكن أولئك الثائرين كانوا لا يثقون بما يقوله الخلفاء، وقد جرّت هذه الحالة الويلات على الدولة العباسية بل على الاسلام بصورة عامّة.

والخليفة أمير المؤمنين (المكتفي) نجده هنا ـ وقد أعطى الأمان لبدر غلام المعتضد وقائد الجيش على لسان القاضي أبي عمر محمّد بن يوسف ـ ولكنّه أخيراً ينكل به ويقتله.

ولكن إذا كان الخليفة يشرب الخمر، أو يلوط ويزني أو يلهو ويلعب أو ينهب أملاك الناس كالمكتفي نفسه، ان خليفة كهذا لا نستغرب منه مطلقاً ان ينكث العهود والمواثيق، فهو في ذلك يقتفي آثار من مضى من أجداده.

وقد أضاف المسعودي منقبة أخرى للمكتفي بالله أمير المؤمنين.

... أمر أن يتخذ له قصر بناحية الشماسية، فأخذ بهذا السبب ضياعاً كثيرة ومزارع كانت في تلك النواحي بغير ثمن من ملّاكها، فكثر الداعي عليه[1].

ولقد رأينا المكتفي ينكث عهده الّذي أعطاه ويقتل صاحبه ويسجد تقرباً إلى الله.

وينتزع أموال الناس بغير ثمن فيكثر الداعون عليه.

في حين نجد واعظاً للسلاطين هو السيوطي، فيذكر المكتفي ويكيل له المدح فيقول:

... وهدم المطامير الّتي اتخذها أبوه وصيرها مساجد وأمر بردّ البساتين والحوانيت الّتي أخذها أبوه من الناس ليعملها قصراً إلى أهلها، وسار سيرة جميلة، فأحبه الناس ودعوا له[2].

---

١ ـ مروج الذهب / ج ٤ / ص ١٩٢.

٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٣٧٦.

فنحن أمام سندين مختلفين:

الأوّل: للمسعودي يقول (يدعون عليه).

الثاني: للسيوطي، يقول (يدعون له).

أمّا نحن فلا نستبعد ما يقوله المسعودي، لأنّ الرذيلة من شيم الخلفاء العباسيين، خصوصاً وقد وجدنا المكتفي ينكث العهد ويتقرب إلى الله بالقتل.

* * *

بطانة السوء تبايع للمقتدر لأنّه محتاج إليهم

يقول ابن العبري:

لمّا ثقل المكتفي في مرضه، استشار الوزيرُ ـ وهو حينئذٍ العباس بن الحسن ـ أصحابه فيمن يصلح للخلافة.

قالوا: أصلح الموجودين جعفر بن المعتضد.

قال: ويحكم هو صبي[١].

قال ابن الفرات: إلّا أنّه ابن المعتضد، ولا نأتي برجل كامل يباشر الأمور بنفسه غير محتاج إلينا.

فركن الوزير إلى قولهم[٢].

فالخليفة يعينه الوزيره ومشاوروه، لا على أساس الكفاءة والفضل والورع والشجاعة الّتي تشترط في الخليفة، فان تلك صفات لا يرغب فيها أولئك، فهم (لا يأتون برجل كامل يباشر الأمور بنفسه غير محتاج إليهم) وانّما هم يريدون شخصاً ناقصاً لا يستطيع أن يبرم الأمور لوحده، لكي يسيطروا عليه.

---

١ ـ فقد كان عمره ثلاثة عشرة سنة ولم يل الخلافة قبله أصغر منه.

٢ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

وما عليهم إلّا ان ينتزعوا (الخاتم والبردة والقضيب) وهي آلة الخلافة من الخليفة الّذي لم يحسن التصرف معهم ليعطوها إلى غيره وهكذا...

وكانت الأيّام كلّما تمادت بالدولة العباسية ازداد تدخل العصابات في أمر الخلافة حتّى أصبح الخليفة واحداً من العيارين.

* * *

أمّ المقتدر هي الآمرة الناهية

وتدحرجت الأمور إلى مستوى واطئ جدّاً، فكانت أمّ الخليفة المقتدر هي الحاكمة بأمرها.

يقول صاحب شذرات الذهب:

فيها (أي في سنة ٣٠٦ هـ) وقبلها أمرت أمّ المقتدر في أمور الأمّة ونهت، لركاكة ابنها، فانّه لم يركب للناس ظاهراً منذ استخلف إلى سنة إحدى وثلثمائة، ثمّ ولّى ابنه عليّاً إمرة مصر وغيرها وهو ابن أربع سنين، وهذا من الوهن الّذي دخل على الأمّة. ولمّا كان في هذا العام أمرت أمّ المقتدر (ثمل) القهرمانه ان تجلس للمظالم وتنظر في القصص كل جمعة بحضرة القضاة، وكانت تبرز التواقيع وعليها خطها[1].

* * *

ولا ينبغي للقارئ الكريم أن يستغرب، فالخليفة سيّد الدولة ورئيسها، مشغول بأمور يجدها أولى من أمور الدولة وادارة شؤونها.

فلربّما كان مشغولاً بالنّساء أو بالخصيان، وله أسوة بأجداده الكرام، فالرذائل هذه كانت ديدن الخلفاء الأجلاء!

والخلافة إنّما يريدونها للّهو واللّعب، للخمور والزّنا واللواط، ويجدون أنّ القتل وسمل العيون يهون أمام تلك الرغبات.

---

١ ـ شذرات الذهب / ج ٢ / ص ٢٤٧.

ولم يفعل المقتدر أمراً جديداً ولا جاء ببدعة جديدة، فالماضون من أجداده سبقوه إلى كل رذيلة.

والمقتدر هنا، كان قد سبقه آخرون في تخويل النِّساء أمر الدولة وسوف يلتحق به آخرون...

وينبغي أن لا نبخس حقّ المقتدر في هذه السابقة الجديدة وهي انّه ولّى ابنه عليّاً إمرة مصر وغيرها وهو ابن أربع سنين. وتلك في الواقع رذيلة أخرى تُضاف إلى ما ارتكبه العباسيون من رذائل.

* * *

الخليفة المقتدر يعطي الولايات على طريقة الضمان

يقول ابن الأثير:

في هذه السنة (٣٠٧هـ) ضمن حامد بن العباس[١] أعمال الخراج والضياع الخاصّة والعامّة والمستحدثة والفراتية بسواد بغداد والكوفة وواسط والبصرة والأهواز واصبهان[٢].

---

١ ـ حامد بن العباس، عندما سحبت منه الوزارة أصبح مقاولاً في أعمال الخراج.

٢ ـ عندما ساءت أمور الدولة سياسياً واجتماعياً، ساءت مالياً أيضاً، لأنّ الخليفة أصبح يصرف ما يرده على لهوه ومجونه بلا حساب. (المقتدر ختن خمسة من أولاده فغرم على ختانهم ستمائة ألف دينار) وأم الخليفة وزوجات الخليفة وجواري الخليفة وخصيان الخليفة وصبيان الخليفة والخدم والحشم الخاص بالخليفة، ثمّ الوزراء والقوّاد وأتباعهم اضافة إلى أقرباء الخليفة، كل أولئك وغيرهم كانوا ينهبون الدولة مهما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فالدنيا تؤخذ غلاباً.

والخليفة ربّما يقتل بعد أيّام أو تسمل عينه ويسقط في المنصب. والأتراك ينصبون خليفة ويعزلونه بين ليلة وضحاها.

كلّ ذلك يستدعي من أولئك (النهابين) أن يستعجلوا في النهب واللصوصية. وعندما عمّت الفوضى المالية، أصبح الخليفة يعطي كثيراً من المؤسّسات في القضاء والإدارة والجيش وجباية الأموال، يعطيها ضماناً.

←

وسبب ذلك انّه لمّا رأى انّه قد تعطل عن الأمر والنهي وتفرّد به عليّ بن عيسى، شرع في هذا ليصير له حديث وأمر ونهي.

واستأذن المقتدر في الإنحدار إلى واسط ليدبّر أمر ضمانه الأوّل، فأذن له في ذلك، فانحدر إليها واسم الوزارة عليه، وعلي بن عيسى يدبّر الأمور، واظهر حامد زيادة ظاهرة في الأموال وزاد زيادة متوفرة.

فسرّ المقتدر بذلك وبسط يد حامد في الأعمال حتّى خافه علي بن عيسى.

❊ ❊ ❊

ثورة للجياع

ثمّ إنّ السعر تحرّك ببغداد، فثارت العامّة والخاصّة لذلك واستغاثوا وكسروا المنابر.

وكان حامد يخزن الغلال وكذلك غيره من القوّاد ونهبت عدّة من دكاكين الدقّاقين[1].

فأمر المقتدر بإحضار حامد بن العباس، فحضر من الأهواز، فعاد الناس إلى شغبهم فأنفذ حامد لمنعهم، فقاتلوهم واحرقوا الجسرين وأخرجوا المحبسين من

← فالعامل على الكوفة مثلاً بدلاً من ان يكون له رزق محدد (راتب) فانّ الخليفة يضمّنها أحد الأشخاص بطريقة تشبه الإيجار، فيقول له الخليفة: لك ولاية الكوفة على أن تعطيني ألف ألف دينار مثلاً.

ونتيجة لذلك فان هذه الطريقة أطمعت كثيراً من الناس من أصحاب الطموح، فتصبح الولاية تحت المزايدة، فيأتي شخص آخر ويقول للخليفة (وأنا ادفع لك ألفي ألف دينار وهكذا).

والشخص الضامن يضطر إلى أن يجبي الأموال بكل الطّرق ليحقّق له مغنماً واسعاً ويسدِّد المبلغ المتّفق عليه مع جناب الخليفة، يقول ابن الأثير في سنة ٣٣٠ وزر أبو عبدالله البريدي للمتقي لله، وكان سبب ذلك ان ابن رائق استوحش من البريدي لأنّه أخّر حمل المال وانحدر إلى واسط عاشر المحرّم، فهرب بنو البريدي إلى البصرة، وسعى لهم أبو عبدالله الكوفي حتّى عادوا وضمنوا بقايا واسط بمائة وتسعين ألف دينار وضمنوها كل سنة بستمائة ألف دينار.

١ ـ الدقّاق الّذي يبيع الدقيق.

السجون ونهبوا دار صاحب الشرطة ولم يتركوا له شيئاً.

فأنفذ المقتدر جيشاً مع (غريب الخال) فقاتل العامّة، فهربوا من بين يديه، ودخلوا الجامع بباب الطاق، فوكل بأبواب الجامع وأخذ مَن كان فيه، فحبسهم وضرب بعضهم وقطع أيدي من يعرف بالفساد.

ثمّ أمر المقتدر من الغد، فنودي في الناس بالأمان، فسكتت الفتنة.

ثمّ أنّ حامداً ركب إلى دار المقتدر في الطيّار[1] فرجمه العامّة، ثمّ أمر المقتدر بتسكينهم فسكنوا.

وأمر المقتدر بفتح مخازن الحنطة والشعير الّتي لحامد ولأمّ المقتدر وغيرهما، وبيع ما فيها، فرخصت الأسعار وسكن الناس.

فقال علي بن عيسى للمقتدر: إنّ سبب غلاء الأسعار إنّما هو (ضمان حامد) لأنّه منع من بيع الغلال في البيادر وخزنها.

فأمر بفسخ (الضمان) عن حامد، وصرف عمّاله من السواد، وأمر علي بن عيسى أن يتولّى ذلك، فسكن الناس واطمأنوا.

وكان أصحاب حامد يقولون: ان ذلك الشغب كان بوضع من علي بن عيسى[2].

❊ ❊ ❊

نعم، هكذا...

عندما ينصرف الخليفة للهوه ولعبه وجواريه وخصيانه ويعطي إدارة الدولة لأمّه.

ثمّ أنّ أمّه كانت قد أعطت مقاليد خلافة العالم الاسلامي بيد القهرمانة (ثمل) لتنصرف هي إلى أساليب النهب والسلب، شأنها في ذلك شأن النّهابين الآخرين.

---

١ ـ الطيّار: نوع من الزوارق المائية السريعة.

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج٦ / ص٥٠٣.

إذا كان وضع الخلافة هكذا، فلابدّ أن تستتبعه أمور تزيد في التردي والإنهيار.

ولا شكّ أنّ الخليفة عندما يكون ضعيفاً، فان أصحاب الطموح والأطماع ـ وهم يزدادون في الأزمات ـ يبرزون بشكل سريع لاستثمار الوقت ونهب ما يستطيعون عليه قبل ان تذهب الفرصة.

فحامد بن العباس، عندما وجد انّه قد تعطّل عن الأمر والنهي وانّ علي بن عيسى قد تفرّد بالأمر، عرض على الخليفة أمراً، يعرف مسبقاً انّه سوف يقبله.

فقد عرض عليه ان يأخذ سواد بغداد والكوفة وواسط والبصرة... ضماناً، دون ان يكلف الخليفة متاعب نصب العمّال والكتّاب، ثمّ أظهر حامد (زيادة ظاهرة) على الوارد الاعتيادي الّذي كان يصل إلى خزائن الخليفة، وهذا ممّا يهشّ له الخليفة المقتدر.

وتمّت الصفقة بين الخليفة وبين حامد بن العباس في الضمان.

وحيث ان (حامد) أصبح هو الضامن، فقد احتكر الغلال، فزادت الأسعار، وزيادة الأسعار تؤدي إلى تململ العامّة في البداية ثمّ تثور ولا يقف أمام ثورة الجياع شيء، فكسروا المنابر ونهبوا الدكاكين واحرقوا الجسرين واخرجوا السجناء من المحبوس.

وتحرك الخليفة المقتدر هنا، ليس استجابة لجوع الثائرين وانّما لأنّه كان يخشى ان تتفاقم الأزمة فتأخذ بخناقه وتقضي عليه، وحينذاك يفلس من الجواري والخصيان والخمور الّتي كان يشربها بالكؤوس الذهبية على نغمات المغنيات التركيات.

تحرك المقتدر وفتح مخازن الحنطة والشعير الّتي لحامد ولأمّه (أمّ المقتدر) وباعها للعامّة، فرخصت الأسعار، وهدأ الناس.

واستغل علي بن عيسى ذلك، فتدخل في الأمر، ففسخ الخليفة (ضمان حامد) امّا إدارة أمور الخلافة، فقد كانت في أمان حيث كانت تباشرها قهرمانة أمّ المقتدر (ثمل).

وزراء المقتدر كالخليفة في الفساد

وحيث كان الوضع الإداري غارقاً في الفساد لسوء تدبير الخليفة ولانصرافه للشهوات ولهوه بالخصيان، فان وزراءه لابدّ ان يكونوا مثله.

يقول أبو إسحاق الزجّاج النحوي:

كنت أؤدِّب القاسم بن عبيدالله، فأقول له:

إن بلغك الله مبلغ أبيك ووليت الوزارة، ماذا تصنع بي؟

فيقول: ما أحببت.

فأقول: أن تعطيني عشرين ألف دينار، وكانت غاية أمنيّتي فما مضت إلّا سنون حتّى ولي القاسم الوزارة وأنا على ملازمتي له، وقد صرت نديمه.

فدعتني نفسي إلى إذكاره بالوعد، ثمّ هبته.

فلمّا كان في اليوم الثالث من وزارته، قال لي:

يا أبا إسحاق ألم أرك أذكرتني بالنذر؟

فقلت: عوّلت على رأي الوزير أيّده الله، وإنّه لايحتاج إلى إذكاري لنذر عليه في أمر خادم واجب الحق.

فقال: اسمح لي ان تأخذه منّي متفرقاً.

فقلت: افعل.

فقال: اجلس للناس وخذ رقاعهم في الحوائج الكبار واستجعل[1] عليها ولا تمتنع من مسألتي شيئاً تخاطب فيه صحيحاً كان أو محالاً إلى ان يحصل لك مال النذر.

ففعلت ذلك، وكنت أعرض عليه كل يوم رقاعاً فيوقع عليها، وربّما قال لي:

كم ضمن لك على هذا؟

---

١ ـ الجعل: هو أخذ شيء من المال على انجاز أمرٍ ما.

فأقول: كذا وكذا.

فيقول: غُبنت، هذا يساوي كذا وكذا، فاستزد.

فأراجع القوم، فلا أزال أماكسهم ويزيدونني، حتّى بلغ ذاك الحد الّذي رسمه لي، وعرضت عليه شيئاً عظيماً، فحصلت عندي عشرون ألف دينار وأكثر منها في مُديدة.

فقال لي بعد شهور: يا أبا إسحاق حصل مال النذر؟

فقلت: لا، فسكت.

وكنت أعرض، ثمّ يسألني في كل شهر أو نحوه هل حصل المال؟

فأقول: لا، خوفاً من انقطاع الكسب، إلى ان حصل عندي ضعف ذلك المال.

فسألني يوماً، فاستحييت من الكذب المتصل.

فقلت: قد حصل لي ذلك ببركة الوزير.

فقال لي: فرّجت والله عنّي، فقد كنت مشغول القلب إلى ان يحصل لك.

قال: ثمّ أخذ الدواة، فوقع لي إلى خازنه بثلاثة آلاف دينار صلة، فأخذتها وامتنعت ان أعرض عليه شيئاً.

فلمّا كان من غد جئته وجلست على رسمي، فأومأ إليّ: هات ما معك يستدعي من الرقاع على الرسم.

فقلت: ما أخذت من أحد رقعة، لأن النذر قدوقع الوفاء به، ولم أدر كيف أقع من الوزير.

فقال: يا سبحان الله أتراني كنت أقطع عنك شيئاً قد صار لك عادة وعلم به الناس، وصارت لك به منزلة عندهم وجاه وغدو ورواح إلى بابك ولا يعلم سبب انقطاعه، فيظن ذلك لضعف جاهك عندي أو تغيّر رتبتك.

أعرض عليّ على رسمك، وخذ بلا حساب.

فقبلت يده وباكرته من غد بالرقاع، وكنت أعرض عليه كل يوم إلى ان مات.

وهنا يعلّق أبو الفرج الجوزي:

رأيت كثيراً من أصحاب الحديث والعلم يقرأون هذه الحكاية ويتعجبون مستحسنين لهذا الفعل غافلين عمّا تحته من القبيح، وذلك انّه يجب على الولاة إيصال قصص المظلومين وأهل الحوائج.

فإقامة من يأخذ الأجعال على هذا قبيح حرام، وهذا ممّا يهن به الزجاج وهناً عظيماً، ولا يرتفع لأنّه إن كان لم يعلم ما في باطن ما قد حكاه عن نفسه، فهذا جهل بمعرفة حكم الشرع، وإن كان يعرف، فحكايته في غاية القبح نعوذ بالله من قلّة الفقه (١).

❊ ❊ ❊

فأيّة جناية هذه الّتي يقوم بها الوزير وينتفع بها مؤدّبه الزجّاج؟ فلقد تآمر الطرفان على سرقة أموال الناس ـ عندما يقول له الوزير (استجعل) أي خُذْ من أموالهم جعلاً عن كلّ رقعة تقدمها.

ثمّ يسأله: كم أخذت على الرقعة الفلانية، فاذا كان قليلاً، قال له خذ أكثر، فالموضوع ذو أهمية، وصاحبه يربح كثيراً.

والوزير ـ لغرض أن يسدِّد أمر النذر ـ كان يقول لمؤدبه (ولا تمتنع عن مسألتي شيئاً تُخاطب به صحيحاً كان أو محالاً) وهذه جريمة أخرى تضاف إلى حلوكه.

فالناس لهم أطماع ويطلبون كل شيء إذا تيقّنوا انّ مطاليبهم سوف تنجز، وحينذاك يحصل التخريب الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.

ويبقى الوزير مشغول القلب من أداء النذر، فلا يستقر له قرار حتّى يعلم انّه قد وفّى نذره. والمؤدب، وقد كان فاسد الرأي والدين، كان لا يبالي من ذلك ويكذب حتّى حصل على اضعاف النذر. وقد كرمه الوزير أيّما اكرام، عندما أمره بالبقاء في وظيفته الّتي يبتزّ فيها أموال الناس.

---

١ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم / ج ٨ / ص ٤٧ ـ ٤٨

وتلك واحدة من آلاف القصص الّتي تروى عن الفساد الإداري في دولة بني العباس الّتي كانت كل واحدة منها كفيلة باسقاط الدولة وانهيارها.



مؤنس الخادم يخلع المقتدر فتردّه العامّة

لا زلنا في زمان الخليفة المقتدر:

وفي سنة ٣١٧هـ خرج مؤنس الخادم الملقب بالمظفر على المقتدر لكونه بلغه انّه يريد أن يولّي إمرة الأمراء (هارون بن غريب) مكان مؤنس، وركب معه سائر الجيش والأمراء والجنود، وجاؤوا إلى دار الخلافة، فهربت خواص المقتدر وأخرج المقتدر بعد العشاء وذلك في ليلة رابع عشر المحرم من داره، وأُمّه وخالته وحرمُه، ونهب لأمّه ستمائة ألف دينار، وأشهد عليه بالخلع واحضر محمّد بن المعتضد وبايعه مؤنس والأمراء ولقبوه (القاهر بالله).

وفوّضت الوزارة إلى أبي علي بن مقلة، وذلك يوم السبت، وجلس القاهر يوم الأحد وكتب الوزير عنه إلى البلاد وعمل الموكب يوم الإثنين.

فجاء العسكر يطلبون رزق البيعة[1] ورزق السنّة، ولم يكن مؤنس حاضراً، فارتفعت الأصوات، فقتلوا الحاجب ومالوا إلى دار مؤنس، يطلبون المقتدر ليردّوه إلى الخلافة، فحملوه على أعناقهم من دار مؤنس إلى قصر الخلافة.

وأخذ القاهر، فجيء به وهو يبكي ويقول: الله الله في نفسي، فاستدناه وقبّله وقال له: يا أخي أنت والله لا ذنب لك، والله لا جرى عليك مني سوء أبداً فطب نفساً.

وسكن الناس وعاد الوزير فكتب إلى الأقاليم بعود الخليفة إلى خلافته، وبذل المقتدر الأموال في الجند[2].

---

١ ـ رزق البيعة: هو ما تسمّيه العامّة بـ(البخشيش) أي بخشيش البيعة بالخلافة.

٢ ـ السيوطي في تاريخ الخلفاء / ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣.

فرجل كمؤنس الّذي كان خادماً مملوكاً من مماليك الأتراك، ان هذا كان يستطيع أن يقوم بانقلاب على الخليفة.

فقد تحرّك وحرّك معه الجيش وأمراء الجيش، وخلع المقتدر ونصب وزيراً، ولكن حركة أخرى حصلت بصورة مفاجئة لم يخطط لها أعادت المقتدر إلى موضعه.

فأيّة درجة واطئة بلغها خلفاء بني العباس، أمراء المؤمنين، الّذين كان يتصرف بهم خادمهم كما يشاء؟

فهل نشأ هذا الهبوط بصورة مفاجئة اعتباطية؟

أو إنّ الأمور تدرّجت في التدنّي مرقاة مرقاة حتّى وصلت إلى هذا المستوى الّذي لم يكن يملك فيه الخليفة حتّى نفسه؟

فالخليفة ليس له إلّا الاسم، وآلة الخلافة (الخاتم والبردة والقضيب) امّا الدولة وشؤونها وأموالها وسياستها واقتصادها وزراعتها وأمور الناس فقد كان الخليفة نفسه يفوّضها لأولئك المماليك، من باب قصره إلى آخر الشرق ومن باب قصره إلى آخر الغرب.

والقصر الّذي كان يسكنه الخليفة لم يكن من مختصاته بحيث يكون هو سيّد القصر والمتنفّذ فيه، فأمّ الخليفة تحكم وخادمة الأمّ تحكم والمماليك والصبيان يحكمون. ثمّ يدخل المماليك فيسحبون الخليفة من على سريره ليعزلوه ويعصروا خصيتيه الشريفتين ويصفعوا وجهه الكريم...

إنّ ذلك كلّه يدعو للعجب عندما نجد أنّ المؤرّخين لا يعيرون اهتمامهم لهذه القضايا، وانّما يذكرون للخليفة صفات ومناقب وكأنّه سيّد البشر، ويتغافلون عن الواقع.

المقتدر والّذين سبقوه

تسبّبوا في ظهور خلفاء آخرين من غير بني العباس

وإذا كان هبوط خلفاء بني العباس يسير بوتيرة واحدة، فانّه على عهد الخليفة

المقتدر تدحرج تدحرجاً متزايداً، وفي أيّامه اضمحلت دولة الخلافة العباسية وصغرت وسمع أمير الأندلس بذلك، فقال: أنا أولى بإمرة المؤمنين، فلقب نفسه أمير المؤمنين الناصر لدين الله عبدالرّحمٰن وبقي في الخلافة إلى سنة خمسين وثلاثمائة، ولا شك أنّ حرمته ودولته كانت أمتن من دولة المقتدر[1].

وكان قبله قد غلب المهدي بالمغرب، وسلم عليه بالإمامة، ودعي له بالخلافة وبسط في الناس العدل والإحسان، فانحرفوا إليه، وتمهدت له المغرب، وعظم ملكه... وخرجت المغرب عن أمر بني العباس من هذا التاريخ.

فكانت مدّة مُلكهم (أي ملك بني العباس) جميعَ الممالك مائة وبضعاً وستّين سنة، ومن هنا دخل النقص عليهم[2].

❊ ❊ ❊

مَن فعل هذا بالدولة العباسية؟ ومن تسبّب في اقتطاع الأطراف والولايات والأقطار؟

هل هم البويهيون؟

البويهيون دخلوا العراق عام ٣٣٤ هـ، والمقتدر كان لحد عام ٣٢٠ هـ.

وهل هم السلاجقة؟

وهم جاؤوا عام ٤٤٧ هـ.

وهل هم التتار؟

وقد قضوا على الخلافة عام ٦٥٦ هـ.

إنّهم الخلفاء أنفسهم الّذين انصرفوا إلى ملاذهم وتركوا الحبل على الغارب بيد النِّساء والصبيان والجواري والخصيان. فحدث الّذي قلناه، ثمّ توالت الأطماع، فهجم على الدولة كل أولئك بما فيهم العيارون واللصوص، حتّى إذا سقطت بغداد بدأوا يبكون وتناسوا ما كانوا يفعلون.

---

١ ـ شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي / ج ٢ / ص ٢٨٤.

٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠.

مؤنس الخادم
يتحرّك من جديد ضدّ الخليفة المقتدر ويطيح به ويقتله

في سنة ٣٢٠هـ، ركب مؤنس على المقتدر، فكان معظم جند مؤنس من البرابرة، وأشار على المقتدر أصحابهُ بحضور الحرب، فانّ القوم متى رأوه عادوا جميعهم إليه.

فخرج وهو كاره وبين يديه الفقهاء والقرّاء ومعهم الصحف منشورة وعليه (البردة) والناس حوله.

فوقف على تلٍّ عالٍ بعيد عن المعركة، فأرسل قواده يسألونه التقدم، فلمّا تقدّم[١] من موضعه، انهزم أصحابه[٢]، فأراد الرجوع فلحقه قوم من المغاربه (البربر) وشهروا عليه سيوفهم.

فقال: ويحكم أنا الخليفة.

قالوا: قد عرفناك... يا سفله[٣].

وضربه واحد بسيفه على عاتقه، فسقط إلى الأرض وذبحه بعضهم ورفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرّون ويلعنونه، وأخذوا جميع ما عليه حتّى سراويله وتركوه مكشوف العورة إلى أن مرّ به رجل من الأكره[٤]، فستره بحشيش ثمّ حفر له في موضعه ودفن وعفا قبره[٥].

---

١ ـ فلمّا تقدّم الخليفة.

٢ ـ أصحاب الخليفة.

٣ ـ يخاطب الخليفة (يا سفله) أي أنت وغيرك من الخلفاء السفلة، فأيّ بؤس للخلفاء يخاطبهم الجنود البرابرة بهذه الكلمات؟

وأيّة دولة هذه الّتي على رأسها مجموعة من سفلة الناس؟

وهنا هل نوجّه اللّوم إلى العامّة؟ أم إلى الخلفاء الّذين نزلوا بأنفسهم إلى هذا الحضيض؟

٤ ـ الأكرة جمع أكّار، وهو الّذي يحرث الأرض.

٥ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ١٥٧.

هذا هو خليفة المسلمين، الّذي همّ بالهروب من الجند، ولكنّهم ذبحوه وأخذوا سراويله وتركوه مكشوف العورة.

ألم يكن في الجند من يحبّ الخليفة؟ وكان قد خرج وحوله الفقهاء والناس.

أين ذهب أولئك جميعاً فيدفعوا عنه أو ليستروا عورته على الأقل؟

ألم نكن على صواب عندما نقول انّ الخلفاء والمغول أسقطوا بغداد؟

ويوم جاء المغول، هل كانت الأمّة متراصّة صلدة؟

وهل كان الخليفة المستعصم شهماً نبيلاً متيقظاً؟ فلا يجد المغول ثغرة للدخول أم كانت الأوضاع متهيئة جاهزة لكل نكبة، لنكبة هولاكو وغيره، وليس في أيّام المستعصم فقط، وانّما كانت الدولة ـ منذ نشأت ـ (فريسةً) للطامعين الأتراك والبويهيين والسلاجقة والأمراء المماليك، حتّى جاء المغول فكانت بغداد تقف على شعرة واحدة، فقطعها المغول وتهاوت دولة أصحاب الخصيان والصبيان وشاربي الخمور ولاعبي الطيور الّذين يمنحون الشرق والغرب لهؤلاء، بل لخدم النِّساء، كما فعل خليفة المسلمين أمير المؤمنين المقتدر بالله!

❊ ❊ ❊

وعّاظ السّلاطين يصفون المقتدر بأنّه جيد العقل وصحيح الرأي

ويأبى واعظ السلاطين (السيوطي) إلّا ان يقول:

وكان المقتدر جيد العقل، صحيح الرأي، لكنّه كان مؤثراً للشهوات والشراب، مبذراً، وكان النِّساء غلبن عليه، فأخرج[1] عليهنّ جميع جواهر الخلافة ونفائسها وأعطى بعض حظاياه الدرّة اليتيمة ووزنها ثلاثة مثاقيل واعطى (زيدان) القهرمان سبحة جوهر لم ير مثلها، وأتلف أموالاً كثيرة، وكان في داره أحد عشر ألف خصيان[2]

---

١ ـ أخرج عليهنّ بمعنى صرف عليهنّ.

٢ ـ أحد عشر ألف غلام خصيان غير الصقالبة والروم والسود، انّ اتخاذ الخصيان في البداية كان

←

غير الصقالبة والروم والسود[١].

القاهر بالله صادر الأموال وعذب أمّ أخيه المقتدر

وجاء القاهر بالله خليفة وأميراً للمؤمنين بعد أخيه المقتدر.

وأوّل ما فعل انّه صادر آل أخيه المقتدر وعذبهم وضرب أمّ المقتدر حتّى ماتت في العذاب[٢].

أمّا ابن الأثير، فيفصّل كيفية تعذيب أمّ المقتدر، ويقول:

... ثمّ أحضرها القاهر عنده وسألها عن حالها، فاعترفت له بما عندها من المصوغ والثياب ولم تعترف بشيء من المال والجوهر، فضربها أشدّ ما يكون الضرب، وعلّقها برجلها، وضرب المواضع الغامضة من بدنها.

فحلفت انّها لا تملك غير ما اطلعته عليه، وقالت: لو كان عندي مال لما أسلمت ولدي للقتل.

ولم تعترف بشيء، وصادر جميع حاشية المقتدر وأصحابه[٣].

ووكل على بيع أملاك أمّ المقتدر وحلّ وقوفها فبيع جميع ذلك[٤].

* * *

والانتقام المتبادل بين آل الخليفة السابق والخليفة اللّاحق من بني العباس كان أمراً شائعاً، فلا يستخلف منهم خليفة حتّى يكون أوّل عمل يقوم به هو الانتقام من

← لغرض دخولهم على النّساء بلا خشية، لأنّ الخليفة أفقدهم رجولتهم، أمّا أن يكون الخصيان بالآلاف فلأنّهم أصبحت لهم وظيفة أخرى يقضيها معهم جناب الخليفة.

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٣٨٤.

٢ ـ المصدر السّابق / ص ٣٨٦.

٣ ـ الكامل في التاريخ / ج ٧ / ص ٧٦.

٤ ـ تاريخ مختصر الدول / ص ١٥٩.

ذوي الخليفة السابق حتّى إذا كان أخاه وعمّه وابن عمّه.

بل انّ الخليفة ـ وقد شاع هذا ـ يحبس ابنه وربّما كان ولياً للعهد لأنّه يخشى منه ان يثور عليه وينتقم منه.

* * *

الخليفة الرّاضي بالله كان يبيع الوزارة ويقاطع البلاد بالأموال

ولمّا قبضوا على القاهر، كان أبو العباس أحمد بن المقتدر ووالدته محبوسين، فأخرجوه وأجلسوه على سرير القاهر، وسلّموا عليه بالخلافة ولقّبوه (الراضي الله)[١].

وبذل ابن مقلة خمسمائة ألف دينار حتّى استوزره الراضي[٢] وفيها (أي عام ٣٢٢) بعث علي بن بويه إلى الراضي يقاطعه[٣] على البلاد الّتي استولى عليها بثمان مائة ألف ألف درهم كل سنة.

فبعث له لواء وخلعاً[٤].

وإذا كان الراضي يقاطع الولاة فان في سجله أيضاً من كان يقاطع اللصوص.

فلنستمع إلى ابن العبري إذ يقول:

ظهر ببغداد لص (ويعرف بابن حمدي) فأعجز الناس، فأمّنه ابن شيرزاد وهو من أكابر قوّاد توزون[٥] وخلع عليه وشرط عليه أن يصل إليه كل شهر خمسة عشر ألف دينار ممّا يسرقه هو وأصحابه، وكان يستوفيها منه بالرواتب، وهذا ما لم يسمع بمثله من شرّه[٦].

١ ـ تاريخ ابن الوردي / ج ١ / ص ٢٥٧.

٢ ـ الفخري لابن الطقطقي / ص ٢٨٠.

٣ ـ المراد انّه يريد من الخليفة الراضي ان يجعلها له اقطاعاً في مقابل ذلك المقدار من المال.

٤ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٣٩١.

٥ ـ توزون هو أمير الأمراء أيّام الخليفة الراضي.

٦ ـ تاريخ مختصر الدول / ص ١٦٥.

لقد كان الراضي محبوساً، فأخرجوه من السجن وسلّموا عليه بالخلافة، وخشي أن تنقضي أيّامه قبل ان يستوفي فيها أوطاره الدنيوية، فأنجز ما يلي بسرعة:

باع الوزارة بنصف مليون دينار.

واقطع البلاد بثمانمائة مليار درهم.

فالخليفة قبض الثمن وأخلد إلى الرّاحة والاستجمام واتباع الرغبات والشهوات ليعوِّض ما فاته عندما كان مسجوناً.

وأمّا الّذي اشترى الوزارة والبلاد، فانّه بدأ يعمل حثيثاً بجد ومثابرة في تحصيل المبالغ الّتي دفعها للبائع (الخليفة) ثمّ تحصيل الأرباح.

ومن ملك البلاد بغير حرب يهون عليه تسليم البلاد

❊ ❊ ❊

وأمّا الأمّة فعليها أن تخضع طائعة لهؤلاء إذ يجبون منهم الأموال ويرهقونهم في تحصيلها، ولا تستطيع الامتناع، فالمشتري يوقع عليها أشدّ العقاب بصورة رسمية، لأن الصفقة تمّت مع أمير المؤمنين بصورة رسمية.

وعندها تنشأ الأزمات، الاقتصادية والزراعية والنفسية، ولا بدّ أن تتفشّى في مجتمع كهذا حالات القنص والاحتيال واللصوصية، وهو الّذي حصل بالفعل.

ولكن مؤسّسة الدولة بدلاً من ان تقضي على هذه الحالة، فانّها استثمرتها لصالحها، فالقائد العسكري ابن شيرزاد، سمح (لابن حمدي) ان يسرق وأصحابه ما يشاؤون على ان يعطيه خمسة عشر ألف دينار ممّا يسرق في كل شهر.

وبذلك أصبحت اللّصوصية أمراً شرعيّاً مسموحاً به مِن قِبَل الدولة.

فَمَن المسؤول عن كلّ هذا الفساد والتخلف؟

المسؤول الأوّل هو الخليفة ذاته، ثمّ الّذين يحيطون به.

أمّا الناس؟ فقد كان واضحاً لديهم تخلف الخليفة، وكانوا يعلمون بأعمال الخليفة

المنكرة وفضائحه الّتي تزكم الأنوف.

ولذلك فانّ الّذي خاطب الخليفة المقتدر بـ(يا سفله) كان مصيباً جدّاً فيما يقول.

فالخلفاء الّذين يدّعون انهم أمراء المؤمنين، كانوا (سفلة الناس).

وكل هذه الفضائح كانت تجري باسمهم وتحت ظل رعايتهم المباركة! ومشاركتهم فيها.

❋ ❋ ❋

الخليفة الرّاضي يسلّم الأمور بيد أمير الجيش ويلغي الوزارة وتتقطّع أوصال الدولة

وكان الخليفة الراضي قد أعطى الأمور كلّها بيد أمير الأمراء (ابن رائق).

وبطلت بابن رائق وزارة بغداد، ونظر في الأمور كلّها، وتغلّبت العمّال على الأطراف، ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها، والحكم فيها لابن رائق وليس للخليفة حكم.

وأمّا الأطراف:

فكانت البصرة لابن رائق المذكور.

وخوزستان بيد البريدي.

وفارس بيد عماد الدولة بن بويه.

وكرمان بيد علي بن محمّد بن إلياس.

والرّي واصبهان والجبل بيد ركن الدولة بن بويه ويد (وشمكير) بن زياد أخي (مرداويج) يتنازعان عليها.

والموصل وديار بكر وديار مضر وربيعة بيد بني حمدان.

ومصر والشام بيد الإخشيد محمّد بن طغج.

والمغرب وافريقية بيد القائم العلوي بن المهدي.
والأندلس بيد عبدالرّحمٰن بن محمّد الأموي الناصر.
وخراسان وما وراء النهر بيد نصر بن أحمد الساماني.
وطبرستان وجرجان بيد الديلم.
والبحرين واليمامة بيد أبي طاهر القرمطي(١).
فصار المسمّون بأمير المؤمنين في الدُّنيا ثلاثة:
العباسي ببغداد.
وأمير المؤمنين بالأندلس.
والمهدي بالقيروان(٢).

* * *

وهكذا تقطّعت أوصال الدولة العباسية بعدما كانت مترامية الأطراف تغطي نصف مساحة العالم.

أمّا في عام ٣٢٠هـ، فلم يبق منها سوى بغداد وأعمالها، واصبح الخليفة مستضعفاً جدّاً، فيضربونه ويبكي ويلاحقونه فيهرب ويقتلونه ويتركونه مكشوف العورة وهكذا...

وليست هذه الحالة المتردية حدثت بصورة مفاجئة، بل ان الضعف كان يدبّ فيها قليلاً قليلاً.

والمؤرِّخ إذا تجرّد من عواطفه لابدّ ان يوجّه اللوم إلى الخلفاء أنفسهم الّذين ذاقوا حلاوة الخلافة، فأسرفوا في الاستهتار وتركوا شؤون الدولة للأمراء والوزراء والنِّساء والخصيان يتصرفون فيها كما يشاؤون.

---

١ ـ تاريخ ابن الوردي / ج ١ / ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠. وحياة الحيوان للدميري / ج ١ / ص ١٢٩.
٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٣٩٢.

وإذا كنّا نجد انّ الخلفاء قد تركوا الحبل على الغارب وهم أصحاب الدولة وأهلها ومؤسسوها، فكيف بغيرهم؟

إذا كان ربّ البيت بالدفّ ناقراً فشيمةُ أهل البيت كلّهم الرقص

إنّنا الآن في عام ٣٢٥هـ، وبقي على انقضاء الدولة العباسية أكثر من ٣٣٠ عاماً، فإذا استمرّت الأمور على هذا المنوال من التراجع والهبوط فكيف يكون المصير عندما يجيء جيش قوي كالّذي كان عليه المغول؟

سوف نجد ان جيش المغول وهم يحيطون بقصر الخليفة المستعصم، والخليفة كان مشغولاً مع راقصته فجاءها سهم، وما استيقظ ضميره وإنّما أمر بزيادة الستور. وتلك محنة الاسلام ولوعة المسلمين.

* * *

الخليفة المتّقي كذلك أعطى الأمور لغيره وأخلد للرّاحة

ونصب المتقي للخلافة بعد موت أخيه الراضي، وكان ضعيفاً بحيث لم يكن له سوى الاسم، أمّا التدبير فهو لأبي عبدالله أحمد بن علي الكوفي، كاتب بجكم[1].

وظاهرة تفويض الأمور للغير، ظاهرة وجدناها مع كثير من الخلفاء السابقين، وسف نجدها في الخلفاء اللّاحقين.

والتفويض ربّما يكون باختيار الخليفة لحبّه للشخص (المختار) فيفوّضه الشرق والغرب عدا باب قصره أو لأنّه يريد ان ينصرف للخصيان والجواري.

وربّما يكون مستضعفاً، وهو الأغلب في حياة الخلفاء.

وتلك مسألة طبيعية جدّاً، عندما ينصرف الخليفة لشهواته وبطنه وفرجه تضعف إرادته ويفقد حزمه وتدبيره، فيتسلّط عليه الأمراء والنّساء والغلمان.

ثمّ تتهاوى الدولة وتتساقط وتتسافل، فيطمع فيها أمراء الخليفة أوّلاً ثمّ عمّال

---

١ ـ بجكم: رجل تركي، كان أمير أمراء الجيش الخليفي.

الأطراف ويستقلون في ممالكهم ثمّ يطمعون ببغداد نفسها، ثمّ الطامعون في الخارج كالبويهيين والسلاجقة.

وعندما يصبح الخلفاء لا فرق بينهم وبين الأطفال في العقل ولا فرق بينهم وبين العيارين في اللصوصية ولا فرق بينهم وبين السفلة من الناس، يقعون فريسة للمغول، فيقضون على كل شيء، ولن ينفعهم حينذاك (القضيب) الّذي يحملونه بأيديهم وكأنّه صكّ الخلود في البقاء.

* * *

ثمّ يهرب الخليفة المتّقي إلى الموصل

وفي سنة ٣٣٠ هـ خرج[١] أبو الحسين علي بن محمّد البريدي، فخرج لقتاله الخليفة وابن رائق، فهزما وهربا إلى الموصل ونهبت بغداد ودار الخلافة[٢].

وسوف تتكرّر عمليات هروب الخلفاء وانهزامهم من أعدائهم ـ تماماً كالأطفال ـ فهل تبق لأمير المؤمنين خليفة رسول الله، حرمة لدى الرعية عندما يجدونه يهرب ناكصاً إلى الوراء؟ يبحث عن مكان أمين يختفي فيه.

وإذا هرب الإمام (وبئس الأئمّة أولئك) فانّ الجيش يهرب معه ثمّ تهرب الأمّة نفسياً فيتسلط عليهم من لا يرحمهم ويفرض عليهم الأتاوات ويبتزّهم كل شيء.

* * *

ويختلف مع (توزون) فتؤخذ منه بغداد ويهرب إلى نصيبين

وفي سنة ٣٣١ هـ وقعت الوحشة بين المتقي وتوزون، فأرسل توزون أبا جعفر شيرزاد من واسط إلى بغداد، فحكم عليها وأمر ونهى.

---

١ ـ خرج بمعنى ثار.

٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٣٩٤.

فكاتب المتقي ابن حمدان بالقدوم عليه، فقدم في جيش عظيم، واستتر ابن شيرزاد، فسار المتقي بأهله إلى تكريت، وخرج ناصر الدولة بجيش كثير من الأعراب والأكراد إلى قتال توزون، فالتقيا بعكبرا، فانهزم ابن حمدان والمتقي إلى الموصل، ثمّ تلاقوا مرّة أخرى، فانهزم ابن حمدان والخليفة إلى نصيبين.

فكتب الخليفة إلى الإخشيد صاحب مصر ان يحضر إليه، ثمّ بان له من بني حمدان الملل والضجر.

❁ ❁ ❁

الخليفة المهزوم يطلب الصلح مع عدوه (توزون)

لقد كان الخليفة ـ لاجئاً عند بني حمدان، وفكر في الرجوع إلى دست الخلافة، ولكن أنصاره قليلون جدّاً، وبنو حمدان كانوا مهزومين، وفقدوا حاضرتهم في الموصل ووصلوا في هزيمتهم مع الخليفة إلى نصيبين.

فرأى الخليفة ان يستعين بالإخشيد صاحب مصر، فكاتبه بالحضور لديه، إلّا أنّه لم يتحمل البقاء لدى الحمدانيين حتّى يحضر الاخشيد.

فبنو حمدان بدأوا يتضايقون منه، فقد كانوا يخشون ان ينتقم منهم (توزون) وأحسّ الخليفة بذلك ووجد انّ المصالحة مع (توزون) أفضل من البقاء لدى الحمدانيين، وهو أفضل من الاستنصار بالاخشيد.

فراسل الخليفةُ (توزون) في الصلح، فأجاب وبالغ في الأيمان، ثمّ حضر الإخشيد إلى المتقي وهو بالرقة وقد بلغه مصالحة توزون.

فقال: يا أمير المؤمنين! انا عبدك وابن عبدك، وقد عرفت الأتراك وفجورهم وغدرهم، فالله الله في نفسك، سر معي إلى مصر، فهي لك وتأمن على نفسك، فلم يقبل.

فرجع الإخشيد إلى بلاده.

وخرج المتقي من الرقة إلى بغداد في رابع المحرّم سنة ٣٣٣ هـ وخرج للقائه (توزون) فالتقيا بين الأنبار وهيت، فترجل توزون وقبّل الأرض، فأمره المتقي بالركوب، فلم يفعل، ومشى بين يديه إلى المخيم الّذي ضربه له.

فلمّا نزل قبض عليه وعلى ابن مقلة ومن معه، ثمّ كحَلَ الخليفة وأدخل بغداد مسمول العينين، وقد أخذ منه (الخاتم والبردة والقضيب) واحضر توزون (عبدالله ابن المكتفي) وبايعه بالخلافة ولقب (المستكفي بالله) ثمّ بايعه المتقي المسمول وأشهد على نفسه بالخلع مع ذلك لعشر بقين من المحرم وقيل في صفر.

ولمّا كحل قال القاهر (وقد كان مسمولاً أيضاً).

صرتُ وإبراهيم شيخي عمى   لابدّ للشيخين من مصدر
ما دام توزون له إمرة   مطاعة فالميل في المجر

وأخرج المتقي إلى جزيرة مقابلة للسندية، فسجن بها، فأقام بالسجن خمساً وعشرين سنة إلى ان مات في شعبان ٣٥٧هـ[١].

* * *

هؤلاء هم الأتراك الّذين جاء بهم المعتصم ليشبع بهم غروره، وألبسهم مناطق الذهب والفضّة وميّزهم على بقية جنوده، فأصبحوا عالة عليه وعلى من جاء من بعده من الخلفاء، بل عالة على الدولة العباسية، وهم الّذين جرّأوا آل بويه وآل سلجوق ومن ثمّ التتار.

إنّها حلقات متسلسلة مترتّبة حلقة على أخرى.

هذا فيما يتعلّق بالأتراك.

أمّا الخلفاء الأجلّاء؟

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٣٩٦.

فيا بؤسهم، أما كان فيهم رجل رشيد؟

إلى متى يتحملون الضيم والذل والخسّة والدناءة؟

أما يعتبر اللّاحق بالسابق؟

أما يرى اللّاحق منهم ما فعلوا بالسابق من إهانة وصفع بالمداس ورضّ الخصيتين وذبح وقتل وكشف العورة و و...؟

ولكن اللّاحق ـ وقد وجدناهم جميعاً كذلك ـ عندما يأتي، أوّل ما يفعل هو انّه يسيّب الأمور بيد واحد من أولئك الغلمان أو الخصيان أو بيد النسوان لينصرف هو إلى الشهوات الدنيئة واشباع البطن والفرج من كل حرام ومنكر.

وما هو إلّا عمر قصير فتكحل عينه بحديدة محماة وينتهي كل شيء، وربّما يصبح شخصاً يستعطي المصلّين في باب الجامع، أو ينفى إلى جزيرة ليعيش فيها ما بقي من حياته، إن لم يكن قد قتل واستراح وأراح.

بؤساً لكم يا حثالة البشر.

* * *

ابتداءً من الخليفة المستكفي الّذي بُويِعَ عام ٣٣٢هـ وخُلِعَ عام ٣٣٤هـ من قِبَل البويهيين، سوف لا نتوسّع في المفارقات الّتي جرت على أيدي الخلفاء العباسيين، وانّما نرجئها إلى الفصل الثاني من الكتاب، وهو الفصل المخصّص لدخول الأجانب (الأتراك والبويهيين والسلاجقة) كعناصر أدّت إلى تمزّق الدولة وانقسامها إلى دويلات.

علماً بأنّ الأتراك دخلوا الدولة العباسية عام ٢١٨هـ واستمرّوا حتّى نهايتها وإن كانوا قد ضعفوا بالتدريج لدخول البويهيين كعنصر قوي عام ٣٣٤هـ، حيث كان في زمن واحد خليفة وسلطان، ولكل واحد منهما وزير وإدارة مستقلّة وإن كانت إدارة السلطان أقوى بكثير من إدارة الخليفة، واستمرّ البويهيون حتّى عام ٤٤٧هـ عندما جاء دور السلاجقة واستمرّوا حتّى عام ٥٩٠هـ.

فالفترة هذه من ٣٣٤هـ ـ ٥٩٠هـ، سوف يكون حديثنا عنها في الفصل الأوّل مبتسراً، أمّا الإسهاب ففي الفصل الثاني إن شاء الله تعالى.

ثمّ جاء المستكفي وخلعه البويهيون

في عهده تغلب البويهيون ودخلوا كعنصر جديد في المعادلة اضافة إلى الأتراك، وسوف نفصّل ذلك في موقعه إن شاء الله.

بويع له سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، وورد الخبر إليه بوصول معزّ الدولة ابن بويه فخاف خوفاً شديداً، واضطرب الناس.

وأهدى المستكفي إلى معزّ الدولة ألطافاً وفاكهة، ووصل معزّ الدولة إلى حضرة المستكفي، فردّ إليه إمارة الأمراء وأعطاه الطوق والسوار، وآلة السلطنة وعقد له لواء. وهو أوّل ملوك بني بويه في الحضرة الخليفية، وهو الّذي لقّبه معزّ الدولة، ولقب أخاه الآخر عماد الدولة، وأمر ان تضرب ألقابهم على الدينار والدرهم، ونزلت الديلم دورَ الناس ببغداد ولم يكن يعرف ذلك من قبل[١].

وأخيراً خلعه البويهيون من الخلافة واجلسوا مكانه المطيع وسجن المستكفي إلى أن مات[٢].

❊ ❊ ❊

عندما وصل معزّ الدولة إلى بغداد، خاف أميرالمؤمنين خوفاً شديداً واضطرب الناس.

أمّا الناس؟

فلأنّهم علموا بخوف الخليفة، إمّا لأنّهم وصلتهم أخباره وإمّا لأنّهم كانوا يعرفون طبيعة الخلفاء الجبانة، إذ يخافون من العدو، فيهربون ثمّ يسحبونهم ويسملون عيونهم ويركلونهم بالأرجل ويصفعونهم بالمداس على الرأس.

---

١ ـ الفخري لابن الطقطقي / ص ٢٨٧.

٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٢٩٧.

وأمّا الخليفة!

فهو وإن كان قد لقّب نفسه (إمام الحق) وكان يضفي على نفسه الهيبة والجبروت (بالبردة والقضيب والخاتم) ولكن هذه لم تشفع له، فكل الطامعين في الملك، بل كل الناس، كانوا يعرفون انّ الخليفة لم يعد يملك إلّا الاسم والخطبة والضرب في السكة، وهذه أصبح له فيها شريك أيضاً.

والخلفاء هم الّذين أوصلوا أنفسهم إلى مستنقع الهاوية بضعفهم واستهتارهم وبعدهم عن الله عندما أغراهم الشيطان بالتوافه وسفاسف الأمور، وتغافلوا عن صفات الرجولة فضلاً عن صفات الخلفاء أمراء المؤمنين.

* * *

المطيع لله كان محبوساً فأخرجه البويهيون ونصبوه خليفة

ويقول المؤرّخون عن المطيع:

لمّا ولي المستكفي بالله الخلافة، خافه المطيع، لأنّه كان كل منهما يطلب الخلافة، ويسعى اليها.

فلمّا ولي المستكفي خافه (أي المطيع) فطلبه المستكفي أشدّ الطلب، فلم يظفر به، فلمّا قدم معزّ الدولة بغداد، قيل انّ المطيع انتقل إليه واستتر عنده وأغراه بالمستكفي حتّى قبض عليه وسمله.

فلمّا قبض المستكفي بُويعَ للمطيع لله بالخلافة يوم الخميس ثاني عشر جمادى الآخرة ٣٣٤هـ ولُقّب المطيع لله.

وأحضر المستكفي عنده، فسلّم عليه بالخلافة واشهد على نفسه بالخلع، وازداد أمر الخلافة إدباراً ولم يبق لهم من الأمر شيء البتة[١].

---

١ ـ الكامل في التاريخ / ج ٧ / ص ٢٠٧.

ولم يتخذ الخليفة وزيراً، انّما كان له كاتب يدبّر اقطاعه واخراجاته، وبالجملة لم يبق بيد المطيع إلّا ما اقطعه معزّ الدولة ممّا يقوم ببعض حاجاته[١].

وحيث كان الخليفة المطيع مستضعفاً، نشطت في أيّامه حركات المذاهب وكان الحنابلة هم المذهب الأنشط في المذاهب السنّيّة آنذاك، وكان لابدّ للمطيع أن يكون مطيعاً لهم ومتودداً إليهم، فكان يقول بمقالتهم ويروي مروياتهم.

يقول أبو محمّد التيمي: سمعت عمي أبا الفضل بن عبدالعزيز التيمي يقول: سمعت المطيع لله يقول: وقد أحدق به خلق كثير من الحنابلة حزروا[٢] ثلاثين ألفاً، فأراد أن يتقرب إليهم، فقال: سمعت شيخي ابن بنت منيع يقول: سمعت أحمد ابن حنبل يقول: إذا مات أصدقاء الرجل ذلّ[٣].

* * *

وكان المطيع مستضعفاً، فقد أصبح موظفاً لدى السلطان معزّ الدولة، وقرّر له كل يوم نفقة مائة دينار فقط[٤] بعدما كانت تُجبى الأموال باسمه ويتصرّف بها كيفما يشاء (فسبحان الّذي يعزّ مَن يشاء ويذلّ مَن يشاء).

وأصبح العوبة بيد معزّ الدولة البهويهي الّذي كان في الواقع صاحب الأمر والنهي، وهو (أي معزّ الدولة) أمير أمير المؤمنين والرئيس على خليفة المسلمين، ولا يستطيع أن يفعل المطيع شيئاً، بل ولا تحدِّثه نفسه أن يفعل شيئاً يخالف ارادة (معزّ الدولة) وإلّا فانّ مصيره سوف يكون نفس مصير المستكفي، يسحبه اثنان ويضعان عمامته في عنقه ثمّ تُسمل عيناه.

فالأولى له أن يسكت ويكتفي باللقب فقط، ثمّ لينصرف إلى لهوه ولعبه وخصيانه،

---

١ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ١٦٧.

٢ ـ حزروا بمعنى قدّروا.

٣ ـ المنتظم في تواريخ الملوك والأمم / ج ٨ / ص ٢٣٥.

٤ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٣٩٨.

كما فعل آباؤه وأجداده، وهو مقدار اهتمامه بالأمّة. أمّا الدولة وتصريف شؤونها فهي بيد غيره.

* * *

جاء الطائع فبلغ أعلا درجة من الطاعة لآل بويه

ثمّ جاء الطائع لله بن المطيع لله خليفة للمسلمين وأميراً للمؤمنين بعد أن خلع أبوه من قبل سبكتكين.

وأمور الدولة تتنازل يوماً بعد يوم، والخلفاء يتراجعون إلى الوراء، كلّما جاء خليفة كان من الضعف أكثر ممّن سبقه وهكذا...

وطالما قلنا أنّ ذلك كان نتيجة طبيعية لأولئك الّذين انشغلوا بنفوسهم وتركوا الأمّة.

لقد ولي الطائع الخلافة في ١٩ ذي القعدة ٣٦٣هـ، وبعد عشرين يوماً من خلافته صلّى بالناس صلاة العيد، وخطب فيهم، فكان ممّا قال: «الله أكبر متقرّباً إليه ومعتمداً عليه ومتوسّلاً بأكرم الخلائق لديه الّذي صيّرني إماماً منصوصاً عليه، ووهب لي أحسن الطاعة فيما فوّضه إليّ من الخلافة على الأمّة، الله أكبر مقرّاً بجميل آلائه فيما أسنده إليّ من حفظ الأمم وأموالها وذراريها، وقمع بي الأعداء في حضرها وبواديها، وجعلني خير مستخلف على الأرض ومن فيها...»[1].

نعم...

«صيّره الله إماماً منصوصاً عليه».

متى نصّ عليه الله؟ وقد نصبه المملوك التركي سبكتكين؟

فهل يعتبر هذا نصّاً من قبل الله عزّ وجلّ؟

بهذا الهراء كان بنو العباس يحكمون الأمّة المرحومة ويعتقدون أن من أراد بدولتهم سوءً أكبّه الله على منخريه، وانّهم سوف يستمرون بدولتهم حتّى قيام الساعة فتسلّم

١ ـ المنتظم في تواريخ الملوك والأمم / ج ٨ / ص ٣٨٤.

إلى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام.

«ووهب لي أحسن الطاعة فيما فوّضه إليّ من الخلافة على الأمّة».

أيّة أمّة كانت تطيعك أيُّها الطائع؟

هل كانت تطيعك الأمة؟ عندما سحبك اثنان من برجك العاجي وأهانوك وخلعوك؟

تباً لك في هذا الهراء.

وبئست لك هذه الخلافة الكاذبة.

«وقمع بي الأعداء في حضرها وبواديها».

فلقد قمعوك قبل أن تقمعهم وما كان بامكانك ان تقمع أحداً يا سفيه، أيّها المفتري على الله.

وأخيراً.

«وجعلني خير مستخلف على الأرض ومَن فيها».

نعم، مستخلف على الأرض! فلست تملك حتّى قصرك، فكلّ شيء بيد غيرك، المال والأرضون والقوّة والسلطان.

فلماذا هذا الهراء؟ ولماذا هذا الافتراء؟

* * *

ويضرب السيوطي مثلاً لانهيار الطائع امام عضد الدولة، فيقول:

وفي سنة ٣٦٨هـ أمر الطائع بأن تُضرَب (الدبادب)[١] على باب عضد الدولة في وقت الصبح والمغرب والعشاء، وان يخطب له على منابر الحضرة، قال ابن الجوزي: وهذان أمران لم يكونا من قبله، ولا أطلق لولاة العهود، وقد كان معزّ الدولة أحبّ ان تضرب له (الدبادب) بمدينة السلام، فسأل المطيع في ذلك فلم يأذن له، وما حظي عضد الدولة بذلك إلّا لضعف أمر الخلافة[٢].

---

١ ـ الدبادب تستعمل في الحروب لإحداث أصوات عالية ترهب العدو ثمّ استعملت عند أبواب قصور الخلفاء مثل الطبول في أوقات الصلاة كنوع من الاحترام والتقدير.

٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٠٧.

ثمّ يعود السيوطي فيقول:

ولقد حُدّثت أنّ السلطان الأشرف (برسباي) لمّا سافر إلى (آمد) لقتال العدو وصحب الخليفة معه، كانت الهيبة والعظمة للسلطان، والخليفة كآحاد الأمراء الّذين في خدمة السلطان.

وفي سنة ٣٧٠هـ خرج من همذان عضد الدولة وقدم بغداد، فتلقاه الطائع، ولم تجر عادة بخروج الخلفاء لتلقّي أحد[١].

* * *

القادر بالله منذ البداية تنازل عن كلّ شيء عدا قصره المنيف

أمّا القادر بالله؟

فقد اختصر الطريق على نفسه واحكم وضعه لكيلا تسمل عينه وتكشف عورته ثمّ يستغيث فلا يُغاث.

ففي بداية البيعة له عام ٣٨١هـ عقد مجلساً عظيماً وحلف القادر وبهاء الدولة كل منهما لصاحبه بالوفاء، وقلّده القادر ما وراء بابه ممّا تقام فيه الدعوة[٢].

وأراح واستراح، ولم يكلف نفسه العناء، فالقادر كان يكتفي من الخلافة بما تغلّقت عليه الأبواب حيث نساؤه وخدمه وحشمه وجواريه.

أمّا خارج الأبواب وإلى ما وصلت إليه الدعوة (أي الدعاء للقادر على المنابر) فكل ذلك لبهاء الدولة، يتصرف به كما يشاء باسم الخليفة أمير المؤمنين.

والواقع أنّ بهاء الدولة لم يكن محتاجاً إلى إذن الخليفة في ذلك ـ بقدر ما كان الخليفة محتاجاً له ـ فالدولة كلّها حيث وصلت إليها الدعوة وحتّى أمير المؤمنين نفسه وما تغلّقت عليه الأبواب أيضاً كلّها بيد بهاء الدولة، يستطيع أن يسحب القادر

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٠٩.

٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤١٢.

بعمامته ثمّ يسمل عينه ويقتله.

والقادر (وهو غير قادر أبداً) يعلم ذلك كلّه من البداية، فاحترم نفسه وتنازل عن كل شيء، إضافة إلى انّه استحلف بهاء الدولة بالوفاء، فقد كان خائفاً ان يهجم عليه داره.

ويبدو أنّ سياسة القادر كانت حكيمة ـ في تلك الأيّام ـ ولذلك فقد بقي في دست الخلافة ٤١ سنة.

ولكن الفتن في أيّامه كانت كثيرة بين السنّة والشيعة، أو بين الأتراك والشيعة ابتداءً ثمّ ينضم السنّة إلى الأتراك في عام ٣٩١ و ٣٩٨ و ٤٠٧ هـ كما يذكره ابن الأثير.

وقد ساهم القادر نفسه في هذه الفتن، حيث يذكر السيوطي أنّ القادر أنفذ الفرسان الّذين على بابه لمعاونة أهل السنّة فانكسر الروافض [1].

* * *

القائم بأمر الله هو الّذي أدخل السلاجقة في بغداد

أمّا القائم بأمر الله؟

فقد كان كالمستجير من الرمضاء بالنار، لقلّة حزمه وضعفه واستكانته، ولعله اتّخذ عبرة ممّن سبقه من الخلفاء الميامين، فخشي على نفسه وعلى عينه أن تسمل فقرّر المهادنة والابتعاد عن مواطن الفتنة مهما أمكن.

ولكن السياسة الخرقاء الّتي مرّت عليها عدّة قرون من آبائه وأجداده لم يعد يصلحها شيء من الأناة والتعقّل. فلقد سبق السيف العذل وجاوز الحزام الطبيين.

والمفارقات الّتي اقترفها أمراء المؤمنين من بني العباس، كان لابدّ أن تؤدّي بهم إلى حياة بائسة، إذا تنعّموا قليلاً بخصيانهم وصبيانهم ونسوانهم، فانّ كثيراً من البؤس

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤١٤.

ينتظرهم ولن يستطيعوا ان يجدوا لردّه سبيلاً.

فقد طلب الخليفةِ القائم بأمر الله، من طغرل بك ان يزور بغداد.

وما ان انتشر خبر ذلك في بغداد، وما يحمل في طياته من معنى الضعف الّذي يلفّ الخليفة حتّى تحرك أصحاب الأهواء، وقاموا بعمليات النهب.

فلنستمع إلى ابن الوردي إذ يقول:

وفيها (أي في سنة ٤٤٧هـ) قصد جماعة من السنّة دار الخليفة يطلبون أن يؤذن لهم أن يأمروا بالمعروف، فأذن لهم، وزاد شرّهم.

ثمّ استأذنوا في نهب دار البساسيري وهو غائب بواسط فأذن لهم فنهبوها وأحرقوها[١].

❊ ❊ ❊

فكيف سمح الخليفة أمير المؤمنين ان يقوم جماعة بالنهب بحجة الأمر بالمعروف؟

ومتى كان النهب أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر؟

ثمّ ألم يكن يخشى أن يتطاول أولئك فينهبوا داره يوماً من الأيّام؟

ولكنّها الضحالة في التفكير والضحالة في التصرف.

ثمّ توسّعت الحركة، فأصبحت حركة طائفية بين فئتين من المسلمين، بين الفقهاء الشافعية والحنابلة ببغداد.

ومقدم الحنابلة أبو علي بن الفرّاء وابن التميمي وتبعهم من العامة الجم الغفير، وانكروا الجهر (ببسم الله الرّحمٰن الرّحيم) ومنعوا من الترجيع في الأذان، والقنوت في الفجر، ووصلوا إلى ديوان الخليفة، ولم ينفصل لهم حال (أي لم يعمل لهم الخليفة شيئاً).

وأتى الحنابلة إلى مسجد باب الشعير، فنهوا إمامه عن الجهر بالبسملة، فأخرج

١ ـ تاريخ ابن الوردي / ج ١ / ص ٣٤٤.

مصحفاً وقال:

أزيلوها من المصحف حتّى لا أتلوها[1].

ثمّ اشتدّ أوار الفتنة الطائفية بين السنّة والشيعة وخصوصاً في منطقة الكرخ في بغداد.

راح ضحيّتها الآلاف من الطرفين على مرأى ومسمع من الخليفة، إن لم يكن الخليفة مساهماً فيها.

وينقل ابن العماد الحنبلي فيقول:

وفي صفر هذه السنة (٤٤٩هـ) كُبِسَت دار أبي جعفر الطوسي متكلّم الشيعة بالكرخ وأخذ ما وجد من دفاتره وكرسي كان يجلس عليه للكلام... فأحرق الجميع[2].

وإذا أردنا أن نبرئ ساحة الخليفة من عملية نهب الكتب، فانّ عملية الإحراق لا شك حصلت بعلمه، أو انّه سمع بها بعد ذلك.

ولم يحدِّثنا التاريخ انّ الخليفة اتخذ اجراء معيناً بحق الفاعلين، في حين ان الكتب ثروة ضخمة للأمّة بأسرها، ينبغي الحفاظ عليها.

ولو قارنّا بين ما فعله هؤلاء بمكتبة الطوسي عام ٤٤٩هـ وبين ما فعله التتار بمكتبات بغداد عام ٦٥٦هـ لوجدنا أنّ هؤلاء كانوا مسلمين وان أُولئك كانوا وثنيين.

فلماذا التباكي اذن؟

وإذا كان الاحراق قد نشأ من حالة طائفية فانّ المؤرّخين إنتابهم نفس المرض فكان مرورهم على ذلك مرور الكرام.

وأخيراً فانّ العيارين وجدوا في ضعف الخليفة القائم منفذاً للمنكرات وسوقاً رائجة في فتح حوانيت الخمور في بغداد عاصمة الخلافة العباسية وفي عهد أمير المؤمنين القائم نفسه، إذ يقول ابن الأثير:

---

١ ـ الكامل في التاريخ / ج ٨/ ص ٣٢٥.

٢ ـ المنتظم في تواريخ الملوك والأمم / ج ٩ / ص ٣٩١.

ومن عجيب ما يُحكى... أنّ الناس في العام الماضي كانوا قد أنكروا كثرة المغنيات والخمور. فقطع بعضهم أوتار عود مغنية كانت عند جندي، فثار به الجندي الّذي كانت عنده، فضربه.

فاجتمعت العامّة ومعهم كثير من الأئمّة (أئمّة المساجد) منهم أبو إسحاق الشيرازي واستغاثوا إلى الخليفة وطلبوا هدم المواخير والحانات وتبطيلها، فوعدهم أن يكاتب السلطان في ذلك، فسكتوا وتفرقوا[١] فالخليفة المسكين، لا يستطيع أن يهدم المواخير وحوانيت الخمور ـ وهو إمام المسلمين ـ وإنّما يكاتب السلطان في ذلك.

فهل كانت تلك المواخير ممّا ولّاه الله بها وجعلها في عهدة السلطان طغرل بك؟

❊ ❊ ❊

والأنكى من ذلك أن يُعيَّن الخليفة القائم وزيره لقاء مبلغ من المال يدفعه له الوزير، فلم يعد يُعيِّن في الوزارة الكفوء صاحب القدرات العالية، وانّما هو الشخص الّذي يدفع مبلغاً من المال يرتضيه الخليفة، بطريقة تشبه الضمان إلى حدٍّ ما.

يقول ابن الطقطقي عن فخر الدولة ابن جهير:

... تنقل في الخدمات حتّى اتصل بابن مروان صاحب دياربكر فخدمه مدّة وأثرى عنده ثروة ضخمة فسَمَت همّته إلى وزارة الخليفة، فأرسل سرّاً إلى القائم وعرض عليه نفسه وبذل له ثلاثين ألف دينار، فأرسل القائم بعض خواصه في رسالة إلى ابن مروان، وكان غرضه في إرسال ذلك الرّسول أن يجتمع بفخر الدولة سرّاً، وقرّر معه ما أراد، ثمّ لمّا أراد الرّسول الرّجوع إلى بغداد خرج فخر الدولة كأنّه يودّعه فانحدر معه إلى بغداد.

فلمّا وصل الرسول إلى بغداد وصُحْبَتُهُ فخر الدولة أرسل القائم إليه أصحابه يتلقونه، ثمّ خلع عليه الوزارة[٢].

---

١ ـ الكامل في التاريخ / ج ٨ / ص ٤٠٤.

٢ ـ الفخري لابن الطقطقي / ص ٢٩٤.

طريقة ضمان الولايات أصبحت تتكرّر

فالخليفة المقتدي الذي يوصف بأنّه كان فاضلاً، عالي الهمّة، ليس فقط أصبح لا يملك شيئاً، بل انّ الآخرين كانوا يتبايعون على أجزاء المملكة الّتي كانت خاضعة للخلافة العباسية.

ففي عهد الخليفة المقتدي، كانت البصرة قد أعطيت ضماناً إلى شخص يهودي.

يقول ابن الأثير:

وفيها (سنة ٤٧٢هـ) وصل السلطان ملكشاه إلى خوزستان متصيّداً، فوصل معه (خمار تكين وكوهرائين) في قتل (ابن علان) اليهودي، ضامن البصرة... وكان أمر اليهودي قد عظم إلى حدّ أنّ زوجته توفيت فمشى خلف جنازتها كل من في البصرة إلّا القاضي، وكان له نعمة عظيمة وأموال كثيرة.

فأخذ السلطان منه مائة ألف دينار، وضمن (خمار تكين) البصرة كل سنة بمائة ألف دينار ومائة فرس[1].

وطريقة الضمان لم تكن مقتصرة على الولايات فقط.

فانّه ربّما تضمن الدوائر العامّة أيضاً كالشرطة.

والخليفة المقتدي نفسه، أعطى (إدارة الشرطة) ضماناً لأحد الأشخاص، فأوغل (الشحنة = مدير الشرطة) في اشاعة الفجور ليكثر محصوله، ونتج عن ذلك مفاسد وشرور، وروجع الخليفة في ذلك، فأمر بإزالتها.

يقول ابن الجوزي في ذلك، عن حوادث عام ٤٦٩ هـ:

... أزيلت المواخير ودور الفسق ببغداد ونقضت، وهرب الفواسق، لخطاب جرى من الخليفة للشحنة الّذي كانت هذه إقطاعه، وبذل له عنها ألف دينار فامتنع، وقال:

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٨ / ص ٤٢١ ـ ٤٢٢.

هذه يحصل منها ألف وثماني مائة دينار.

فكوتب النظام (الوزير نظام الملك) بما جرى، فعوّض الشحنة من عنده وكتب بإزالتها[١].

❊ ❊ ❊

هكذا كانت الأمور في بغداد عاصمة الدولة العباسية الاسلامية تحت ظل أمير المؤمنين وخليفة المسلمين الإمام المقتدي بالله.

تفتح في عهده الكريم مواخير الخمور وأماكن البغايا (الفواسق) حيث أعطى ذلك ضماناً.

والخليفة يعلم انّ الضامن وهم (الشرطة) سوف يستغلون اجازة الخليفة في كل شيء من أجل الربح والكسب حتّى إذا كان بالخمور والبغاء.

امّا حين يلغي ذلك ويحاول ان يقنع الضامن بألف دينار فانّ الضامن يحتج ويدعي انّه يكسب ألف وثمانمائة دينار ويمتنع من الاستجابة، ولم تكن للخليفة سلطة قانونية لإجبار الضامن بأحكامه الصادرة، ولذلك فقد استعان بالوزير، وهذا أيضاً لم يكن يستطيع أن يجبر الضامن بالغاء الفجور، إلّا عندما يعوّض الشحنة من عنده وكتب بإزالتها.

وفكرة ضمان الولايات كانت منتشرة في الدولة العباسية خصوصاً على يد الخلفاء المتأخّرين منهم، فقد وجدوا في هذه الطريقة ما يحقق لهم رغباتهم في جمع الأموال وكنزها بدون عناء.

فهم غير قادرين على إدارتها، فالتجأوا إلى طريقة الضمان، وربّما كان يفكر الخليفة أنّ طريقة (الضمان) تضمن له تحصيل (الوارد) معجّلاً، وانتظار الخراج إلى نهاية السنة ربّما يفقده كل شيء، فقد يقضي عليه جنوده ومماليكه بالقتل أو الخلع أو سمل العيون. وهي طريقة فيها من الخطورة الشيء الكثير.

---

١ ـ المنتظم في تواريخ الملوك والأمم لابن الجوزي / ج ٩ / ص ٥٤٠.

وذلك لأنّ الضامن أو المستأجر سوف يبذل كل جهوده لكي يستحصل من الناس أكثر ممّا يعطي أضعافاً مضاعفة، وبذلك سوف يرهق الأمّة، وسوف تنشأ مضاعفات ومفارقات لا حدّ لها، خصوصاً إذا كان الضّامن شخصاً غير مسلم ولا يؤمن بدولة المسلمين وتعاليم الاسلام، فانّه لكي يأخذ الأتاوات من الناس، سوف يبيح لهم بيع الخمور وتعاطي المنكرات كما رأينا وهلمّ جرّا...

ولكن الخليفة لا يحسب لذلك أي حساب. فتتجمّع تلك الأموال في القصر كما جمعها الخليفة الناصر لدين الله حيث يقال انّه ملأ بركة من الذهب، فرآها يوماً وقد بقي شيء قليل حتّى تمتلئ، فقال: ترى أعيش حتّى املأها؟ فمات قبل ذلك.

ثمّ جاء المستنصر فشاهد هذه البركة فقال: تُرى اعيش حتّى أفنيها؟ وكذلك فعل[1].

* * *

الخليفة المستظهر كان غبيّاً بليداً

أمّا المستظهر؟

فيذكر وعاظ السلاطين انّه كان: لين الجانب كريم الأخلاق... يدل على فضل غزير[2].

ولكن صاحب كتاب الفخري يذكر عنه قصّة تدعو للاستغراب ـ وقصص الخلفاء أُولئك كلّها تستدعي الاستغراب ـ فهي تنبئ انّه لم يكن فاضلاً كما يقول السيوطي، بل كان شديد الجهل والغباء وقليل العقل والتدبير.

والقصّة جرت بين الخليفة المستظهر وبين وزيره أبي المعالي هبة الله بن محمّد ابن المطلب، الّذي يقول عنه صاحب كتاب الفخري:

---

١ ـ الفخري لابن الطقطق / ص ٣٢٢.

٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٦٢.

كان رجلاً كافياً من كفاة الدولة العباسية، استوزره المستظهر بعد زعيم الرؤساء ابن جهير، وكان قبل الوزارة يتولى ديوان الزمام.

فحدّث عنه بعض أصحابه قال:

دخلتُ يوماً إليه قبل الوزارة وهو صاحب ديوان، فرأيته مفكراً مضطرب الحال، فسألته عن السبب.

فقال: كنت قد أنهيت إلى المستظهر في السنة الخالية اجتهادي في عمارة البلاد وضبطي للارتفاع وتثميري للحاصل وقلت: قد حصل في هذه السنة اثنا عشر ألف كرّ وفي السنة المستقبلة يحصل عشرون ألف كرّ.

فخرج جوابه يشكرني ويثني عليّ، وشرّفني بشيء من ثيابه، فسررت وقلت: هذه ثمرة الاجتهاد.

ثمّ جرّدتُ همّتي للعمارة وانبعثت بجهدي وطاقتي في عمارة المستقبل، فاتّفق أن انفجر بثق، فتلف من الارتفاع شيء كثير، وجرت أحوال أخر اقتضت خفوق الارتفاع بحيث نقص عن السنة الخالية جملة.

فكتبتُ مطالعة إلى الخليفة أعرّفه فيها بخفوق الارتفاع، وقلت في نفسي: إن سألني عن السبب شرحته له.

فخرج جوابه إليّ يشكرني ويثني عليّ وشرّفني بشيء من ثيابه كما فعل في السنة الخالية.

فقلتُ في نفسي: وا ويلاه، هذا حالي معه في حالة الاجتهاد والتقصير، وقد شكرني على الحالتين المتناقضتين، وهذا يدل على انّه لا يفكّر فيما يقوله ويفعله.

فما يؤمنني ان بعض من هو قريب إليه من أعدائي يعرض عليه في أمري ما يكون سبباً لهلاكي، فلا يتأمّل القضيّة بل يتقدم بما يوافق غرض العدو.

قال الحاكي:

فقلتُ له: يعيذك الله ويقيك ممّا تحذر، وما برحت حتّى سلّيته وأزلت غمّه[١].

* * *

نعم، هذا هو الخليفة الّذي كان على فضل غزير!

فقد اكتشفه الوزير انّه (لايفكّر فيما يقوله ويفعله)، فكيف يُرجى خير للإسلام والمسلمين من خليفتهم الّذي يتصرّف بلا تفكير؟ مع انّه ذو فضل غزير.

فيا ضيعة المسلمين في خليفتهم الّذي لا يفكّر فيما يقول.

فخليفة تشرئبّ إليه أعناق المسلمين ويقبّلون حوافر فرسه، فكيف يكون حال الدولة والاسلام عندما يكون غبيّاً أحمق أو عيّاراً مرتشياً أو فاسقاً فاجراً أو لوّاطاً زانياً؟

* * *

المسترشد ذو الهمّة العالية! يؤسر ثمّ يقتل

والمسترشد يقع أسيراً بيد الأعداء، على الرغم من انّ السيوطي يقول عنه:

انّه كان ذا همّة عالية وشهامة زائدة وإقدام ورأي وهيبة شديدة، ضبط أمور الخلافة ورتّبها أحسن ترتيب وأحيا رسم الخلافة ونشر عظامها وشيّد أركان الشريعة وطرّز أكمامها[٢].

ولكن تاريخ المسترشد لا ينبئ عن همة مطلقاً، لا عالية ولا دانية، ولم يكن له رأي سديد، ولو كان كذلك ـ كما يقول السيوطي ـ لما وقع أسيراً بيد أعدائه.

فالخليفة ربّما يقتل وربّما يصالح الأعداء، ولكن وقوعه أسيراً بيد الأعداء فذلك هو الذل المبين.

---

١ ـ الفخري لابن الطقطقي / ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.

٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٣١.

وعلى رغم هذه الديباجة الّتي يضفيها عليه واعظ السلاطين السيوطي، فانّه كان لا يستطيع أن يقف أمام العيارين وفسادهم في بغداد، حيث كثر أمرهم بالجانب الغربي من بغداد.

فعبر إليهم نائب الشحنة في خمسين غلاماً أتراكاً، فقاتلهم، فانهزم منهم.

ثمّ عبر إليهم في الغد في مائتي غلام، فلم يظفر بهم. ونهب العيارون يومئذٍ قطفتا[1].

❉ ❉ ❉

وللخليفة المسترشد شعر يقول فيه:

أنا الأشقر المدعوّ بي في الملاحم ومن يملك الدُّنيا بغير مزاحم

ستبلغ أرض الرّوم خيلي وتنتضى بأقصى بلاد الصّين بيض صوارمي[2]

فأين همته وشجاعته وشهامته وهيبته؟

وكيف أحيا رسم الخلافة ونشر عظامها؟

ثمّ كيف يقول الخليفة نفسه عن نفسه انّه يملك الدُّنيا بغير مزاحم، وقد رأيناه. لا يستطيع أن يسيطر على بغداد؟

وهل وصلت أرض الروم خيل الخليفة؟

إنّه سخف وهراء.

فمسيرة الخلفاء العباسيين آخذة بالهبوط والانحدار إلى الحضيض من خليفة إلى آخر.

فإذا جاء وعد (المستعصم) تكون المسرحية قد أكملت مشاهدها وأدوارها، وكان لا بدّ ان ينتهي كل شيء، حيث ساهم الخلفاء ذوو الهمم العالية مع المغول في سقوط بغداد.

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٩ / ص ١٧٩.
٢ ـ السيوطي / ص ٤٣٣.

فقد سار الخلفاء باتجاه الهاوية، فجاء المغول ونفخوا عليهم، فتهاوت دولتهم إلى الأعماق...

* * *

الخليفة الراشد يدّعي يوم بويع انّه منصوب من قبل الله

بُويعَ للراشد بعد قتل أبيه، بل أنّ السلطان مسعوداً ـ وقد كان في مراغة ـ كتب إلى شحنته (بكبه)[1] أن يبايع للراشد.

وتمّت له البيعة في ٢٧ / ذي القعدة / ٥٢٩ هـ.

وبعد أسبوع من ذلك التأريخ، أي في ٥ ذي الحجّة، حضر الناس ببيت النوبة وجلس الراشد، وسلم إلى حاجب الباب (إنهاءً)[2] فأخذه ونهض قائماً، فقرأه، وكان فيه:

«بسم الله الرّحمٰن الرّحيم، لمّا أجلّ الله محلّ أمير المؤمنين وجعله نائباً عنه في أرضه أمراً في سمائه وارتضاه خليفة على عباده وعاملاً بالحق في بلاده...»[3].

* * *

بهذا الهراء والهذيان يفتتح الخليفة الراشد بيانه الأوّل في خلافته المحترمة فالله سبحانه وتعالى أعزّ ملك الراشد وأجلّه، والله هو الّذي جعله نائباً عنه في أرضه.

كيف جعله الله نائباً عنه؟

يدّعي الراشد انّ الله وهو في سمائه، أمر بهذا (الفرمان) في تنصيب الراشد خليفة للمسلمين وجعله نائباً عنه.

مع أنّ السلطان مسعود هو الّذي أمر ببيعته بعد أبيه بطريقة مزرية جدّاً، سوف

---

١ ـ امّا ابن الأثير فيسميه (بك آبه).

٢ ـ إنهاء بمعنى بيان.

٣ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم / ج ١٠ / ص ٢٧٩.

نشرحها في الفصل الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله.

ثمّ يتطاول على الله سبحانه وتعالى ويدّعي أنّ الله ارتضاه خليفة على عباده وعاملاً بالحق في بلاده.

متى ارتضاه الله؟ وبأيّة صورة غيبية تمّ ذلك؟ وهل كان الراشد عاملاً بالحق في بلاده؟ مع انّه ارتكب النهب والسلب والقتل الفضيع في مراغة وهمدان[١].

بهذه العقلية كان يحكم بنو العباس، منذ اليوم الأوّل، منذ الدعوة الّتي صدرت من إبراهيم الإمام حتّى آخر خليفة منهم (المستعصم). ففي كل مناسبة وغير مناسبة كانوا يفترون على الله ويدّعون انّ من أراد بهم سوءً فيلقمه الله حجراً ويكبّه على منخريه، وانّهم باقون ما بقي الدهر حتّى يسلّموا الراية إلى المسيح بن مريم، وهم في طول فترتهم الّتي بلغت ٥٢٤هـ عاماً كانوا يتصرّفون وكأنّهم شعب الله المختار منصوبون من قبله تعالى لرعاية البشرية في كلّ مكان.

❊ ❊ ❊

ثمّ يهرب الخليفة الراشد إلى الموصل وآذربيجان

عندما بويع الراشد كان قتل أبيه المسترشد من قِبَل السلطان مسعود وجماعته هاجساً يقلق عليه حياته، لا من أجل أخذ الثار، وانّما خوفاً من ان تتكرر العملية معه.

وكان مسعود لا يزال في (مراغة) وهو حينذاك ملك الملوك. فاستغل ملوك الأطراف خلوّ بغداد منه، وربّما استشعروا حنق الراشد وغضبه عليه حيث قتل والده.

اجتمعوا وخرجوا عن طاعة السلطان مسعود، ثمّ خطبوا لابن أخيه داود، وكان واضحاً أنّ الخليفة كان مع هذا التجمع.

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٣٦.

ولكن سرعان ما علم السلطان مسعود بذلك، فتوجّه إلى بغداد، وما أسرع ما هرب الخليفة إلى الموصل ثمّ إلى آذربيجان.

❋ ❋ ❋

كان هذا هو الراشد بالله خليفة المسلمين وأمير المؤمنين، وهو الّذي يقول عنه السيوطي: إنّه كان شجاعاً حسن السيرة[١].

فأيّة شجاعة في الرّجل؟ وهو الّذي هرب إلى الموصل وآذربيجان لمجرّد أنّه سمع بمجيء السلطان مسعود إلى بغداد.

فهل نجد في حياته دوراً يمثل الشجاعة؟ وماذا وجد فيه السيوطي حتّى يصفه بالشجاعة؟

ولكن وعّاظ السلاطين يصفون الشيء بنقيضه، فالجبان شجاع، والضعيف عالي الهمّة والفاسق حسن السيرة...

❋ ❋ ❋

أمّا أدوات الخلافة (البردة والقضيب) فحيث كانا مع المسترشد، وكان قد قتل في (مراغة) فقد بقيتا هناك، ولم يصلا إلى ولده الراشد.

ثمّ إنّ السلطان (سنجر) أرسلها مع رسوله إلى (المقتفي) عام ٥٣٥هـ.

فتعساً للخلفاء أولئك الّذين لم يبق بيدهم إلّا البردة والقضيب ليصوّروا للناس إنّهم حقّاً خلفاء رسول الله ﷺ بحملهم (البردة والقضيب).

ثلاثة أخبار طريفة حدثت أيّام المقتفي

إنّ تاريخ الخليفة المقتفي حافل بالمفارقات والخروج عن طريق الصواب، ومليء بتدخّل الغرباء في شؤون الدولة والأمّة، عندما وجدوا ضعف الخليفة.

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٣٦.

وسوف نفصل ذلك في الفصل الثاني من هذا الكتاب الّذي خصّصناه (لضعف الدولة وتمزّقها بعد دخول الأتراك والبويهيين والسلاجقة وانقسام الدولة إلى دويلات).

أمّا الآن، فأقتصر على ثلاثة أخبار تُنبئ عن انهيار الخلفاء وتخبّطهم واستهتارهم في دولة الاسلام وإساءتهم للشرع.

الخبر الأوّل:

حدث عام ٥٣٣هـ:

طرد الكتّاب من اليهود والنصارى من الديوان والمخزن، ثمّ أعيدوا في الشهر أيضاً[١].

الخبر صغير يحتل منطقة صغيرة جدّاً من الكتاب، ولكنّه ينبئ عن أمور كثيرة.

فأولئك اليهود والنصارى كانوا موظّفين على مستوى عالٍ في شؤون الدولة، والخبر لم يبيّن أنّ هؤلاء، هل كانوا موظّفين لدى السلطان أو لدى الخليفة؟

ولكن المتبادر إلى الذهن انّهم كانوا لدى الخليفة المقتفي، بقرينة (الديوان والمخزن) الّتي غالباً ما تستعمل لمؤسسات الخليفة.

وعلى كلّ حال فانّ وجود اليهود والنصارى بهذا المستوى في الدولة ينبئ عن أشياء كثيرة.

فلماذا يعين هؤلاء ولا يعين غيرهم من المسلمين؟

وهل كانوا يتميّزون عن غيرهم بأصول الكتابة وضبط الحساب؟

في حين أنّ الدولة العباسية مضى عليها في تلك الأيّام ٤٠٠ عام.

ألَم يستطع خلفاء المسلمين وأمراء المؤمنين أن يوفّروا الموظّفين المسلمين الأكفاء؟

أم هو الإنحلال والإبتعاد عن الدِّين وشؤون المسلمين والانصراف للّهو واللّعب

---

١ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم / ص ٣١١.

والخصيان وما إلى ذلك؟

ولو قارنّا عهد المقتفي بعهد المغول، لوجدنا أنّ المغول لم يسلِّطوا غير المسلمين على العراق، وإنّما تحرّوا أن يكون الحكّام والموظفون كلّهم من المسلمين.

ولَسنا هنا نريد أن ندافع عن المغـول وننعى على المقتفي، فالكلّ أسـاؤوا، ولولا إساءة الماضين لما وقعت النتيجة الوخيمة الّتي قضت على الخلافة العباسية.

ولكنّنا نعتب على المؤرِّخين وعلى وعّاظ السلاطين الّذين يتركون أمراً ويكتبون أمراً آخر.

وربّما الّذي تركوه أخطر من الّذي أثبتوه، ويمدحون ويكيلون المدح إذا كان المدح يتّسق مع هواهم وطائفتهم الّتي ينتمون إليها وعنصريتهم الّتي يـنحدرون مـنها، ثمّ يذمّون الّذي يكرهون.

وهكذا تضيع الحـقائق وتُدفن في القبور الّتي حفرها وعاظ السلاطين بأقلامهم المسمومة.

والخبر هذا الّذي أثبتناه يُنبئ أنّ هناك كانت بعض الصيحات الّتي ترفض توظيف اليهود والنصارى بهذه المناصب، فاضطر الخليفة إلى عزلهم، ولكن ما إن هدأت تلك الصـيحات حتّى أعيدوا إلى مراكزهم، وربّما شرّفوهم بالجـوائز لأنّهم أسـاءوا إلى كرامتهم، فأرادوا أن يجبروا الكسر الّذي أحدثوه.

وأمّا الخبر الثاني:

فقد حدث عام ٥٣٥ هـ.

فلنستمع للجوزي ماذا يقول:

وفي ربيع الآخر أخذ (المغربي الواعظ) مكشـوف الرأس إلى باب النوبي، لأنّه وجد في داره خابية نبيذ مدفونة وآلات اللهو من عود وغيره، فحبس وانهال الناس

عليه يسبّونه، وكان ينكر ذلك ويقول: إنّ امرأته مغنّية والآلات لها وما علمتُ[١].

والإعتذار بأنّ النبيذ وآلات اللّهو تعود إلى زوجته، أتعس من الفعل نفسه، علماً بأنّ (المغربي) يشغل وظيفة وعظيّة في أحد الجوامع أو في المؤسّسات الكبرى، وهو لا شكّ أحد الكبار الّذين لهم مقام محترم في الدولة ولدى الخليفة.

والّذي نريد ان نقوله: ان هذا وأمثاله من وعاظ السلاطين هم الّذين يكتبون التاريخ ويزيفونه ويقولون عن الخليفة انّه كان عالي الهمة سديد الرأي أحيا عظام الدولة العباسية بعدما كانت رميماً.

وأمّا الخبر الثالث:

في يوم الإثنين تاسع ربيع الآخر ٥٣٥هـ، أنفذ السلطان مسعود كأساً لبهروز ليشربه، فشربه، وعلقت بغداد وعمل سماعاً (حفلاً غنائياً) عظيماً في دار البرسقي، فحضر عنده أرباب الدولة وحضر جميع القيان، وأظهر الناس الطبول والزمور والفساد والخمور[٢].

نعم، هكذا...

سلطان المسلمين في دولة المسلمين وتحت رعاية خليفة المسلمين وأمير المؤمنين، يهدي خمراً إلى أحد المقرّبين له ليشربه، فيشربه، وتعلن بغداد عاصمة الدولة الاسلامية عن فرحتها وتعلّق معالم الزينة والابتهاج، ويعلن الفسق والفجور وتشرب الخمور ويجري الفساد على قدم وساق في حفل غنائي واسع يحضره أرباب الدولة لمشاهدة القيان والمغنيات...

فأيّ تحدٍّ هذا لمشاعر المسلمين؟

---

١ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم / ج ١٠ / ص ٣٢٤.

٢ ـ المصدر السابق / ص ٣٢٤.

وأين غيرة الخليفة الّذي نصبه الله بأمر صدر من السماء ليكون نائباً له في الأرض ليحق الحق ويزهق الباطل، كما أعلنها هو يوم مبايعته للخلافة ؟.

إنّها كلمات تقال، لا فرق بينها وبين كلمات الفسق والفجور، وما يقوله الخليفة هو لإلهاء الناس وبسط السيطرة عليهم، للتمتع بالمغنيات والخصيان.

لا فرق بين خليفة وخليفة من أولئك وبين سلطان وسلطان، إنّما المناصب للدنيا.

وأمّا الدِّين فهو الضحيّة.

وأمّا الأمّة فهي المنكوبة المظلومة الّتي يراد منها أن تؤدّي فروض التجلّة والاحترام وتقبيل الأيدي والأقدام.

وعلى الإسلام السّلام.

* * *

الخليفة المستنجد

يوصف بالذّكاء الغالب ولكن يتغلّب عليه الأمراء

أمّا الخليفة المستنجد؟

فقد تعرّض لمحاولة اغتيال وأبوه المقتفي لا يزال ينازع الموت.

ذكر ذلك أكثر المؤرّخين الّذين كتبوا عن تلك الفترة، منهم ابن العبري وابن خلدون وابن الأثير.

وارتأينا ان نذكر ما كتبه ابن الأثير إذ يقول:

وكان للمقتفي حظيّة، وهي أمّ ولده (أبي علي) فلمّا اشتدّ مرض المقتفي وأيست منه، أرسلت إلى جماعة من الأمراء، وبذلت لهم الإقطاعات الكثيرة والأموال الجزيلة ليساعدوها على أن يكون ولدها الأمير (أبو علي) خليفة.

فقالوا: كيف الحيلة مع ولي العهد؟ (وهو المستنجد إذ كان ولي عهد أبيه).

فقالت: إذا دخل (المستنجد) على والده، قبضت عليه، وكان يدخل إلى أبيه كل يوم.

فقالوا: لا بدّ لنا من أحد من أرباب الدولة.

فوقع اختيارهم على «أبي المعالي ابن الكيا الهراسي) فدعوه إلى ذلك، فأجابهم على ان يكون وزيراً، فبذلوا له ما طلب.

فلمّا استقرّت القاعدة بينهم، وعلمت أم (أبي علي) أحضرت عدّة من الجواري وأعطتهنّ السكاكين وأمرتهنّ بقتل ولي العهد (المستنجد بالله)، وكان له خصي صغير يرسله كل وقت يتعرّف أخبار والده، فرأى الجواري بأيديهنّ السكاكين ورأى بيد (أبي علي) وأمّه سيفين.

فعاد إلى المستنجد وأخبره، وأرسلت هي إلى المستنجد تقول له: إنّ والده قد حضره الموت، ليحضر ويشاهده، فاستعدى أستاذ الدار عضد الدولة وأخذه معه وجماعة من الفراشين، ودخل الدار وقد لبس الدرع وأخذ بيده السيف.

فلمّا دخل ثار به الجواري، فضرب واحدة منهن فجرحها وكذلك أخرى وصاح. ودخل أستاذ الدار ومعه الفرّاشون، فهرب الجواري، وأخذ أخاه أبا علي وأمّه فسجنهما وأخذ الجواري فقتل منهنّ وغرّق منهنّ[1].



الإمام الناصر ذهب بصره، فكانت جاريته تنفّذ الأمور

ولقد أشاد المؤرِّخون بالخليفة الناصر، حتّى قالوا انّه كان يعلم الغيب، ولكن الواقع انّه كان قد بثّ جواسيسه في كل مكان، وكانوا يوافونه بكل شيء، فاعتقد الناس انّه يعلم الغيب.

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٩ / ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩.

وهذا يعطينا انطباعاً عن رؤية الناس للأحداث، كيف ينظرون إليها وكيف يسجلونها؟ ويبالغون فيها أو يهملونها، لأنّها لا تلائم ما يعتقدون وما يهوون.

وامتدّت خلافة الناصر سبعة وأربعين عاماً، بحيث لم يبلغها أحد من الخلفاء العباسيين، وفي أواخر أيّامه ضعف بصره، فكانت تكتب له جارية، بحيث لم يعلم بذلك حتّى الوزير.

يقول السيوطي:

... قلّ بصر الناصر في آخر عمره، وقيل ذهب كلّه، ولم يشعر بذلك أحد من الرعيّة، حتّى الوزير وأهل الدار، وكان له جارية قد علّمها الخط بنفسه، فكانت تكتب مثل خطّه فتكتب على التواقيع[1].

فأيّ استهتار هذا من الخليفة عندما يستهين بالمسلمين وحتّى بوزيره، حيث يخفي عليهم فقدانه لبصره خشية من أن يُعزَل، لأنّ البصر شرط من شروط الخلافة.

ولذلك فإنّ الأتراك كانوا يسملون عيون الخلفاء لكي يسقطوهم عن الاعتبار والمطالبة بالخلافة.

والمؤرّخون وإن كانوا يمدحون قوّة الناصر وشجاعته وهيبته، ولكنّهم يكادون يجمعون على انّه كان قبيح السيرة.

إذ يقول صاحب كتاب (العسجد المسبوك):

وكان قبيح السيرة في رعيّته، طالما أخذ أموالهم وأملاكهم بغير وجه شرعي، فخرّب العراق في أيّامه، وكان يفعل الخير ثمّ يتركه، ويترك الشر ثمّ يعود إليه.

عمل دور الضيافة ببغداد يفطر عليها الفقراء في رمضان ثمّ أبطلها[2].



١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٥٢.

٢ ـ العسجد المسبوك / ص ٤٠٨.

وقبح السيرة كان ديدن الناصر حتّى مع وزرائه، فلنستمع إلى هذه القصّة من ابن العبري:

... ولمّا مات المستضيء قام (ظهير الدين بن العطار) في أخذ البيعة لولده الناصر لدين الله أبي العباس أحمد، فلمّا تمّت البيعة صار الحاكم في الدولة مجد الدين أبو الفضل ابن الصاحب. وفي سابع ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة (وهي السنة الّتي تولّى الخلافة فيها) قبض على ابن العطار ووكل عليه في داره، ثمّ نقل إلى التاج وقيّد وطلبت ودائعه وأمواله ثمّ أخرج ميتاً على رأس حمّال سرّاً، فغمز به بعض العامّة، فثار به العامّة، فألقوه عن رأس الحمّال وكشفوا سوأته وشدّوا في ذكره حبلاً وسحبوه في البلد، وكانوا يضعون في يده مغرفة ويقولون: وقّع لنا يا مولانا، إلى غير ذلك من الأفعال الشنيعة، ثم خلّص من أيديهم ودفن. هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم، وكفّه عن أموالهم وأعراضهم[1].

والّذي قبض على الوزير ابن العطار، سواء كان الخليفة الناصر نفسه أو مجدالدين أبو الفضل، فان عملاً كهذا لا يليق ان يتم تحت نظر الخليفة وعلمه، فيقتل ابن العطار الّذي كان قبل يوم وزيراً مقرّباً للخليفة، بل هو الشخص الأوّل بعد الخليفة في إدارة أمور الناس ورعاية حقوقهم.

❊ ❊ ❊

الخليفة الناصر لدين الله ينتسب رسميّاً إلى نقابة العيّارين

وبلغ الناصر في قبح سيرته وسوء عمله أنّه انتسب رسمياً إلى العيارين عندما لبس ملابسهم الخاصّة (الفتوّة).

ففي أيّام الخليفة المقتفي بالله كان أبناء الوزراء والأمراء يلبسون ملابس الفتوة

١ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ٢١٧ ـ ٢١٨.

ويتحالفون مع (أبي بكران) رئيس العيارين والمفسدين، امّا هنا فان أمير المؤمنين الناصر لدين الله نراه يلبس هو ملابس (الفتوّة).

وما يدرينا لعلّه أراد ان ينصر دين الله بانتسابه إلى نقابة العيارين المفسدين فتزيّا بزيّهم.

ومع أنّ الناصر لدين الله بلغ سبعين عاماً إلّا انّه بدأ يتلهّى كالشقاوات ويلعب بالبندق ليصيد العصافير، بل انّه تجاوز ذلك فتسافل أكثر فأكثر، فأصبح شخصاً يتعاطى اللّعب بالطّيور كما يفعل السّفلة من الناس، حيث يصعد على السطوح وينشغل بالطّيور، في حين إنّ بعض المذاهب لا تقبل شهادة اللّاعب بالطّيور.

يقول ابن خلدون عن الناصر:

وكان مع ذلك كثيراً ما يشتغل برمي البندق واللعب بالحمام ويلبس سراويل الفتوة شأن العيارين من أهل بغداد، وكان له سند إلى زعمائها... وكان ذلك كلّه دليلاً على هرم الدولة وذهاب الملك عن أهلها بذهاب مُلّاكها[1].

وتمادى الخليفة الناصر لدين الله في انتسابه للمفسدين وطلب من ملوك الأطراف أن يشربوا (الأنخاب) لهذه المناسبة (الميمونة) وأن يقتدوا به.

فلنستمع إلى ابن الوردي لنرى ماذا يقول:

وفيها (سنة ٦٠٧ هـ) وردت رسل الخليفة الناصر لدين الله إلى ملوك الأطراف أن يشربوا له كأس الفتوة ويلبسوا له سراويلها وأن ينتسبوا إليه في رمي البندق ويجعلوه قدوتهم فيه.

قلت (والقول لا يزال لابن الوردي): وكان بعض الفضلاء قد استفتى في هذه (الفتوّة) بمصر والشام وأخذ بتحريمها خطوط العلماء الأعلام، فمنهم من أجاب على جاري العادة ومنهم من أجاب بنثر أبدعه ونظم أجاده وأحضرها بعد ذلك إليَّ

١ ـ تاريخ ابن خلدون / ج ٣ / ص ٥٣٥.

فامتنعت من الكتابة عليها لقصوري، فألحّ علي فكتبت ما صورته:

أمّا بعد، حمداً لله الّذي مَن اتّبع ما أنزله قُبِل ومَن خالف كتابه وسنّة نبيّه خُذِلَ، والصّلاة على رسوله محمّد الّذي شريعته هي الفتوّة حقّاً وطريقته هي المروءة صدقاً وعلى آله أهل الرأفة والإشفاق وصحبه المأخوذ عنهم مكارم الأخلاق، فقد غاضني حتّى هاضني، وأحنقني حتّى خنقني ما أحدثه أهل الجهل والابتداع وسكت عنه العلماء حتّى شاع في الرّعاع وذاع، وهي البدعة الّتي يجب إخفاء رسمها والمنكرة المعروفة بـ(الفتوّة) وهي ضدّ اسمها، وكيف لا؟ وقد عكف عليها أتباع الضّلالة ودعا إليها الحمق وأهل البطالة، يجمعون لها الجموع والأنباط، ويحضرها المُرد وأهل اللّواط، فمنهم من يتصابىٰ على سنّه، ومنهم من يمشي على بطنه...

ثمّ يضيف:

ليس الفتى من أقام الشنائع وشهر على الأمّة السلاح.

الفتى من دقّق الذرائع وسهر في جمع الكلمة والاصلاح.

ليس الفتى من كان من أهل اللّياط.

الفتى من أخذ بالورع والاحتياط...

ثمّ يقول:

فالواجب علينا ان تُزجر وتُهجر، والمنكر عليك يُؤجر والراضي بهذه البدعة كفاعلها.

أعاننا الله على إزالة أزلها وإبطال باطلها، فانّها طريقة مذمومة وفعلة محرمة مسمومة، كم أفتى بتحريمها عالم...

سمّاها بعض شياطين الأنس (فتوّة) قصّر الله عمره، فلا حول وأضعفه فلا قوّة[1] والرسالة طويلة أخذنا منها بعضها.

---

١ ـ تاريخ ابن الوردي / ج ٢ / ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

نعم، هكذا يكون:

الإمام الناصر لدين الله.

خليفة المسلمين.

أمير المؤمنين.

يصفه علماء رعيته من المسلمين بأنّه كان يتبع البدع والضلال ويجلس مجالس الحمق وأهل البطالة واللواط...

فأيّة هيبة يمكن أن يفرضها الإمام الناصر على الأمّة بعد ذلك؟

وأيّة (بردة وقضيب) يمكن أن تشفع لحاملها فتضفي عليه أسباب التجلّة والاحترام؟

وهل كان الناصر لدين الله ناصراً لدين الله حقّاً، وهو يجمع حوله اللّوّاطين وأهل البدع والضّلالة والبطالة.

وهل كان الناصر لدين الله خليفة لرسول الله ﷺ؟ وهو يحارب سيرته وشريعته. وهل وهل؟؟

ومع ذلك فان وعاظ السلاطين لا يخجلون، فيصفون الناصر بأنّه لم تزل مدّة حياته في عزّة وجلال، يوقع العداوة بين ملوك متفقين وهم لا يفطنون، وقيل انّه كان مخدوماً من الجن (لورعه وتقواه)[1].

نعم، هكذا كان الخليفة أمير المؤمنين الناصر لدين الله، فكل اهتمامه كان بالطيور وبأعمال المفسدين، وليس له أي اهتمام بالدولة وبالاسلام والمسلمين، فما دامت الأموال تجبى له، فلينشغل هو بالطيور والعيارين والحراميه، فالذهب يكدّس له بلا حساب.

يقول صاحب كتاب الفخري:

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩.

إنّه ملأ بركة من الذهب، فرآها يوماً وقد وبقي يعوزها حتّى تمتلئ وتفيض شي يسير.

فقال: تُرى أعيش حتّى أملأها؟

فمات قبل ذلك[1].

* * *

الخليفة الظاهر بن الناصر
جعل الكيل صحيحاً بعدما كان ناقصاً أيّام أبيه

وجاء الظاهر بأمر الله بعد أبيه الناصر، وهو لم تطل أيّامه في الخلافه، فكل مدّته فيها كانت تسعة أشهر، ووليها وعمره اثنان وخمسون سنة.

فلم يذكر التأريخ عنه سيّئات السابقين، ولعلّ قصر مدّة الخلافة وعمره لم يتيحا له فعل المنكرات، وهو الذي كان يقول: أنا فتحت الدكان بعد العصر، فاتركوني أفعل الخير، فكم بقيت أعيش[2].

والخليفة الظاهر لم يكن مرغوباً من قبل والده الناصر، وهو وإن كان قد بايع له بولاية العهد، إلّا انّه نفر عنه بعد ذلك وخافه على نفسه، فأسقط اسمه من ولاية العهد في الخطبة، واعتقله وضيّق عليه ومال إلى أخيه الصغير (الأمير علي) إلّا انّه لم يعهد إليه.

فاتفقت وفاة الأمير علي الصغير في حياة والده... فعلم الإمام الناصر انّه لم يبق له ولد تصير الخلافة إليه بعده غيرُه (أي غير الظاهر) فعهد إليه وبايع له الناس وهو في الحبس مضبوط عليه[3].

---

١ ـ الفخري لابن الطقطقي / ص ٣٢٢.

٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٥٩.

٣ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ٢٤٢.

فلمّا توفي أبوه، ولي الخلافة، وأحضر الناس لأخذ البيعة وتلقّب بالظاهر بأمر الله وعنى أن أباه وجميع اصحابه، أرادوا صرف الأمر عنه، فظهر وولي الخلافة بأمر الله لا بسعي من أحد[1].

ويورد له المؤرّخون أفعالاً جميلة:

منها:

انّه كان لأبيه (صنجة)[2] زائدة لقبض المال، فخرج توقيع الظاهر بإبطالها، وأوّله: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[3].

فلقد كان أبوه (الناصر لدين الله) عندما يأخذ أموال الناس يكيلها بمكيال خاص فيسرقهم فيها حيث أنّ صنجة الخزانة كانت راجحة نصف قيراط في المثقال، يقبضون بها. يعطون بصنجة البلد[4].

وهذا يعطينا انطباعاً أنّ الخليفة أمير المؤمنين (الناصر) ولعلّ الّذين سبقوه أيضاً كانوا يسرقون الناس ويكيلون لهم بمكيالين «يستوفون لهم ويخسرون الناس» في حين انّ المفروض أن يكونوا الأمناء على الأمّة ليصبحوا قدوة لهم في كل أمر جميل.

ومن الأعمال الجميلة الّتي كانت تنسب إلى الظاهر بأمر الله:

إنّ العادة كانت ببغداد أنّ الحارس بكل درب يبكّر ويكتب مطالعة إلى الخليفة بما تجدّد في دربه من اجتماع بعض الأصدقاء ببعض على نزهة أو سماع أو غير ذلك، ويكتب ما سوى ذلك من صغير وكبير، فكان الناس في حجر عظيم.

فلمّا ولي هذا الخليفة جزاه الله خيراً أتته المطالعات على العادة، فأمر بقطعها وقال:

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ١٠ / ص ٤٥٣.

٢ ـ الصنجة: مكيال لوزن الذهب.

٣ ـ تاريخ ابن الوردي / ج ٢ / ص ١٤٤.

٤ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٥٩.

أي غرض لنا في معرفة أحوال الناس في بيوتهم؟

فلا يكتب أحد إلينا إلّا ما يتعلّق بمصالح دولتنا[١].

فقد كان الناصر يسجل على الناس كل تحركاتهم ويحصي عليهم أنفاسهم، حتّى قيل انّه يعلم الغيب.

* * *

الخليفة المستنصر واجه خزانة فارغة فأسقط الجند

وأوّل ما واجه المستنصر انّه وجد الخزينة شبه خالية، إذ لم يُبق له الماضون فيها شيئاً، ووجد ان الجباية قد انتقصت أو عدمت، فضاقت عن أرزاق الجند وأعطياتهم، فأسقط كثيراً من الجند واختلفت الأحوال[٢] فالسابقون كانوا قد نهبوها في لهوهم وعبثهم وإغداقهم على قصورهم، وبركة الذهب الّتي مرّ بنا ذكرها كانت في زمن الخليفة الناصر وكان ينقصها شيء، ويأمل أن تمتلئ.

أمّا متى فرغت البِركة؟

فالأرجح انّها فرغت أيّام ولده الظاهر، وعندما آلت الخلافة للمستنصر، كان يشكو العوز والفاقة، ولذلك اضطر إلى انقاص الجند.

ولم يكن المستنصر يهتم بالجند كثيراً، فكان كلّما نقصت الخزينة توجّه إلى الجند فأنقصهم، حتّى إذا جاء المستعصم من بعده، سار على سيرة أبيه، فكان يزيد في انقاص الجند.

وعندما زحف هولاكو على بغداد، كان جند الدولة لا يفون بالغرض ولا يقفون أمام الزحف الهادر.

أمّا أين ذهبت تلك الأموال وتلك البركة من الذهب؟

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ١٠ / ص ٤٥٤.

٢ ـ تاريخ ابن خلدون / ج ٣ / ص ٥٣٦.

فالجواب واضح عرفناه من سلوك الخلفاء الّذين كانوا ينفقون على لهوهم ومجونهم بلا حساب، وكانت عطاياهم للّذين يمجدون بهم ويحمدون لهم سيرتهم بلا حساب، اضافة إلى المصاريف الّتي تصرف على القصر ومستلزماته بإسراف.

ولنستمع إلى صاحب كتاب (العسجد المسبوك) الّذي يعطينا صورة عمّا كان يصرف على القصور:

وكانت النفقة والجرايات بالمخزن المعمور على حاشية القصر والأبواب للخليفة مثل النواب والكتاب في الحضرة في خاص أعمال الخليفة وديوانه الخاص والأطباء والحجّاب والخدم والوساقية والطستداريه[1] والشرابدارية والمطربين والفرّاشين والناقوسيين والوقّادين للحمّامات إلى آخر أيّام الخليفة الظاهر ومدّة أيّام الناصر ومن قبله ستين ألف دينار وبلغت في خلافة المستنصر بالله مائتي ألف دينار، خارجاً عن قيمة الحنطة لأجل الخبز وغيره والله أعلم[2].

كانت هذه مصاريف القصر فقط لشهر واحد ـ أيّام المستنصر بالله ـ.

❊ ❊ ❊

ويضيف صاحب كتاب (العسجد المسبوك) خبراً آخر لا يخلو من غرابة إذ يقول:

وفي شهر شعبان أمر الخليفة المستنصر بالله بعمارة المقصورة بجامع القصر، فلمّا كان يوم الجمعة، خرج راكباً من باب الفردوس، فسمع ضجّة عظيمة، فسأل عنها، فقيل له (الأذان) فنزل عن مركوبه وسعى على قدمه إلى المقصورة تواضعاً لله[3].

فهل كان الخليفة المستنصر بالله لم يسمع بالأذان قبل هذا؟ فلم يكن يعرف معنى الصياح، فسأل عنه، فقيل له انّه الأذان؟ فسعى إلى الصلاة وكأنّه جاء بأمر عظيم لم يأته الأولون، فاستحق ان يمدحه أحد الشعراء في قصيدة طويلة، يقول فيها:

---

١ ـ الّذين يمسكون «الطست» لغسل الأيدي.

٢ ـ العسجد المسبوك / ص ٤٢١.

٣ ـ العسجد المسبوك / ص ٤٢١.

نفسي الفدا لخليفة أحيى الورى بصِلاته وهداهم بصَلاته
ساوى النبيّ بهديه وبفضله وبجوده وبعلمه وهباته[١]

وحيث انّه صلّى في المسجد، فقد أصبح مساوياً للنبي ﷺ في هديه وفضله! ولله في خلقه شؤون.

* * *

في أيّام المستنصر
تقطّعت أوصال الدولة العباسية ولم يبق إلّا بغداد

ثمّ إنّ الدولة قد تناقصت وتقطعت ولم يسلم للخليفة إلّا بغداد، وحتّى بغداد فقد كان فيها عدّة منافسين للخليفة، ابتداء من الأمراء والوزراء وذوي الخليفة والطموح وانتهاء بالعيارين والمفسدين.

أمّا الخليفة؟

فلم يعد يملك إلّا (البردة والقضيب) وهما كل بضاعته. والدولة العباسية الّتي كانت في يوم ما مترامية الأطراف، تقطّعت وتمزّقت، حتّى عصت تكريت عليهم وفي ذلك يقول شاعرهم:

في العسكر المنصور نحن عصابة من دولة أخْيِس بنا من معشر
خذ عقلنا من عقدنا فيما ترى من خِسّةٍ ورقاعةٍ وتهور
تكريت تعجزنا ونحن بعقلنا نغضي لنأخذ تُرمذاً من سنجر

حتّى أنّ (إربل) لم تكن في حكمهم، وما زالت خارجة عن حكمهم إلى أن مات مظفر الدين علي كوجك صاحب إربل، وذلك في أيّام المستنصر، فعُيّن علي شرف الدين إقبال الشرابي، وكان مقدم الجيوش ليتوجّه إلى إربل ثمّ فتحها، وجهزه بالعساكر.

فتوجّه الشرابي إليها وأقام عليها أيّاماً محاصراً ثمّ فتحها.

---

١ ـ المصدر السابق / ص ٤٢٢.

فضربت البشائر ببغداد يوم وصول الطائر بفتحها.

فانظر إلى دولة تُضرب البشائر على أبواب صاحبها ويُزيّن البلد لأجل فتح قلعة إربل الّتي هي اليوم في هذه الدولة من أحقر الأعمال واصغرها وأهونها، بل قد كان ملوك الأطراف مثل ملوك الشام ومصر وصاحب الموصل يحملون إليهم في كل سنة شيئاً على سبيل الهدية والمصانعة ويطلبون منهم تقليداً بولاية بلادهم بحيث يتسلّطون بذلك على رعيّتهم، ويوجبون عليهم طاعتهم بذلك السبب(١).

نعم، هكذا يُقال (فتحت أربيل).

وكان الأولى أن يُقال (استرجعت أربيل).

فأربيل والموصل والشام والحجاز واليمن وخراسان، وآذربيجان وغيرها كانت في يوم من الأيّام تحت سيطرة الخليفة العباسي، يوم كان الخليفة قويّاً ويوم كان الناس يتصوّرون أنّ العباسيين سوف يسيرون بسيرة رسول الله ﷺ وسيرة أهل بيته.

ولكنّهم سرعان ما كشفوا عن وجوههم وعن نواياهم وأعمالهم الّتي لا تمتّ إلى الدين بصلة، إن لم تكن تخالف الدين والمروءة الّتي فاقت أعمال بني أميّة.

فتقضّمت الدولة وتناقصت وتهرأت، فكان الاستيلاء على (إربل) يعتبر فتحاً عظيماً، وهذا الفتح لم يكن يستطيع انّ يحققه المستنصر إلّا بعد أن مات عنها صاحبها مظفر الدين.

وحين وصول البشائر إلى بغداد بالفتح، ضربت الطبول وفرح أهلها وكتب التقليد عليها لإقبال (سيف الدين أبي الفضل).

وامتدح الشعراء هذا الفتح، وقال بعضهم:

يا يوم سابع عشر شوّال الّذي ... رزق السعادة أوّلاً وأخيرا
هُنّيتَ فيه بفتح إربلَ مثلما ... هُنِّيتَ فيه وقد جلست وزيرا(٢)

---

١ ـ الفخري لابن الطقطقي / ص ٣١ ـ ٣٢.

٢ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١٣ / ص ١٥٨.

الفصل الثاني

ضعف الدولة وتمزّقها بعد دخول الأتراك والبويهيين والسّلاجقة وانقسامها إلىٰ دويلات

لقد وجدنا في الفصل السابق أنّ الدعوة العباسية ومن ثمّ الدولة، انّما انتصرت بالفرس، فلولاهم لما قامت للعباسيين قائمه.

وكان إبراهيم الإمام ذكيّاً عندما اختار لدعوته أرض خراسان، وكان ذكيّاً أيضاً عندما انتقى شعاراً فضفاضاً (الرضا من آل البيت) الّذي لم يكن ليؤتي أكله في غير أرض خراسان.

وبحثنا في الفصل السابق الأسباب الّتي دعته لاختيار المكان هذا، ثمّ وجدنا أنّ إبراهيم الإمام كان يأمر أبا مسلم الخراساني بأن يقتل كلّ من شكّ به ممّن بلغ خمسة أشبار من العرب.

فالدعوة إذن كانت بين ظهراني الفرس، اختارها إبراهيم الإمام، وهو الّذي اختار لها أبا مسلم حيث وجد فيه الكفاءة واللّياقة والقابلية العالية.

* * *

وعندما تأسّست الدولة العباسية، كان أولئك الفرس يدافعون عنها بقوّة، فلقد كانوا يعتقدون أنّ العباسيين هم (آل الرسول) حقّاً، اضافة إلى أنّ الفرس آنذاك كانوا يتميّزون بالطاعة العمياء لملوكهم وزعمائهم.

فاستغلّ العباسيون هذه الناحية أيما استغلال حتّى أنّ المنصور عندما حارب (محمّد النفس الزكية) في المدينة، أرسل له جيشاً من الخراسانيين بقيادة ابن أخيه عيسى ابن موسى ولم يكونوا يعرفون انّ النفس الزكية من أهل البيت وقد مرت بنا القصة كاملة في الفصل الأوّل.

لم يكن الفرس
أصحاب نوايا للانقلاب على الدعوة والدولة العباسية

ثمّ نشأت الدولة، فكان الفرس وزراء وأمراء وقادة في هذه الدولة الجديدة... ولم يُشر المؤرِّخون إلى أنّهم كانوا ينوون الكيد للدولة ـ وإن كان الكيد طبيعة بشرية درج عليها الناس حتّى مع الأنبياء والمصلحين ـ ولكنّنا عندما نؤرِّخ للفترة تلك نجد أنّ الفرس أخلصوا في خدمتهم للخلفاء وللدولة.

حتّى أنّ المنصور عندما عزم على بناء بغداد، شاور أصحابه وكان فيهم خالد ابن برمك، فأشار أيضاً بذلك وهو خطّها[1].

فاستشاره في نقض المدائن وايوان كسرى ونقل نقضها إلى بغداد.

فقال: لا أرى ذلك، لأنّه عَلَم من اعلام الاسلام، يستدل به الناظر على أنّه لم يكن ليزال مثل أصحابه عنه بأمر الدُّنيا وإنّما هو على أمر دين[2]، ومع هذا ففيه مصلى عليّ بن أبي طالب.

قال المنصور:

لا أبيتَ يا خالد إلّا بالميل إلى أصحابك العجم؟

وأمر بنقض القصر الأبيض، فنقضت ناحية منه وحمل نقضه، فنظر فكان مقدار ما يلزمهم له أكثر من ثمن الجديد.

فدعا خالد بن برمك، فأعلمه ذلك.

فقال: يا أمير المؤمنين! قد كنت أرى ان لا تفعل، فأمّا إذ فعلت فانّي أرى أن تهدم لئلّا يقال: إنّك عجزت عن هدم ما بناه غيرك.

---

١ ـ أي ان خالد بن برمك الفارسي هو الّذي خط بغداد.

٢ ـ أي انّ الشّرخ الّذي أصاب الطاق إنّما هو حدث يوم ولد الرسول محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم.

فأعرض عنه، وترك هدمه[1].

* * *

إلّا أنّ بعض الأشخاص، ولا نقول (المؤرخين) يحاولون أن يتخرّصوا في ذلك، وكأنّهم اكتشفوا أمراً لم يكتشفه الآخرون.

فسلمان التكريتي.

وهو لا شكّ يعتبر من وعّاظ السلاطين لرئيسه صدّام حسين، حين كتب كتابه (بغداد مدينة السلام وغزو المغول) حاول بمناسبة وغير مناسبة أن يجعل كل المآسي الّتي لحقت بالإسلام بصورة عامّة وبالدولة العباسية بصورة خاصّة انّما نشأت من الفرس.

ونحن هنا لسنا بصدد الدفاع عن الفرس، كما لا نريد أن نتجنّى عليهم، وما دمنا نريد أن نؤرّخ، كان لا بدّ أن نتقصّى الحقيقة.

وسلمان هذا، استند في نظريته تلك على عدّة وقائع، هي:

١ ـ أبو سلمة الخلّال.

٢ ـ أبو مسلم الخراساني.

٣ ـ طاهر بن الحسين (قائد جيش المأمون).

٤ ـ البرامكة.

* * *

تخرّصات التكريتي لا تستند إلى دليل

فقد جاء في كتابه:

«وقبل بدء أيّام سلطة الخلافة العباسية، تغلغل الدعاة الفرس وعاونوا العباسيين على اسقاط الدولة العربية الأموية، فإذا تسلم العباسيون السلطة أناطوا بهم المراتب والمسؤوليات.

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٥ / ص ١٧٧.

فإذا أبو سلمة الخلال يصبح أوّل وزير لأوّل خليفة عباسي، واسمه حفص ابن سليمان أبو سلمة الخلال... وهو مولى بني الحارث بن كعب... من مياسير أهل الكوفة.

وكان سبب وصوله إلى بني العباس انّه كان صهراً لبكير بن ماهان، وكان بكير ابن ماهان كاتباً خصيصاً بإبراهيم الإمام... و قام أبو سلمة بأمر دعوتهم قياماً عظيماً.

فلمّا سبر أحوال بني العباس عزم على العدول عنهم إلى بني علي (رض) فكاتب ثلاثة من أعيانهم[١].

* * *

كان هذا كلام التكريتي، فأي دليل في هذا الحديث على انّه عزم على العدول من الدولة العباسية العربية إلى الفارسية؟

والمؤرّخ يقبح به ان يتبنّى رأياً ونظرية دون أن يقدم لها دليلاً.

نعم، صحيح انّه حاول ان يحوّل الدولة إلى جعفر الصادق أوّلاً أو إلى عبدالله المحض، في قضيّة معروفة.

إذن أين الكيد الفارسي؟

فهل كان جعفر الصادق فارسياً؟

نعم، لك أن تقول: انّه خان العهد الّذي أعطاه في الدعوة للعباسيين، ففي ذلك وجهة نظر، امّا انّه حاول ان يجعلها فارسية فهو كلام مردود.

أمّا لماذا هذه المحاولة منه في تحويل الدولة للإمام الصادق؟

فالّذي نعتقده أن أبا سلمة كان مخدوعاً في (فرية الرضا من آل البيت) ثمّ اكتشف أخيراً الخديعة، فأراد أن يجعلها في أهلها الحقيقيين[٢].

والقضيّة كلّها لا يشمّ فيها عنصرية فارسية قومية مطلقاً، ولم يرد في حيثيات

---

١ ـ بغداد مدينة السلام وغزو المغول / ص ٦٩.

٢ ـ لمن أراد التفصيل يراجع مقدّمة الكتاب / ص ٣٠ وما بعدها.

الحكم عليه بالاعدام انّه أراد ان يجعلها فارسية مجوسية، وانّما لأنّـه اتـصل بجـعفر الصادق ـ وهو حينذاك سيِّد العلويين ـ في حين ان دعوتهم كانت لأبناء العباس فقط.

هذا كل ما في الأمر.

فلماذا المزايدات يا وعّاظ؟

* * *

أمّا أبو مسلم الخراساني؟

فهو كذلك لم يذكر أحد من المـؤرخين انّه أراد ان يـقتطع خـراسـان للـعنصرية الفارسية الوثنية، وانّما هي تخرصات من التكريتي ليس إلّا.

والّذي اعتقده انّ الّذي شجّع أبا مسلم على حالة الغطرسة والانتفاخ هو إبراهيم الإمام نفسه الّذي خوّله كل شيء.

ولقد قتل الداعية الكبير (سليمان بن كثير) بموجب هذا التخويل المطلق الّذي منحه إيّاه إبراهيم الإمام.

والمحاسبة العنيفة الّتي تعرّض لها أبو مسلم من قبل أبي جعفر المنصور لم يرد فيها هذا الاتهام مطلقاً وإنّما أمور أخرى، فصلناها في المقدّمة.

* * *

وأمّا البرامكة؟

فإنّ التكريتي يوجّه إليهم التّهمة نفسهـا، ويستبعد أن تكون النّكبة ناشـئة عـن القضيّة المعروفة في زواج (العبّاسة أخت الرشيد) من جعفر البرمكي.

إذ يقول التكريتي:

فليس من المعقول أن يقوم الخليفة هارون الرشيد بهذه النكبة عن عمل شخصي قام به أحدهم، مهما كان ذلك العمل سيّئاً مشيناً ولا أخلاقي[١].

---

١ ـ سقوط بغداد وغزو المغول / ص ٧٣.

فدليل التكريتي انّه (ليس من المعقول) أن يقوم هارون بهذا العمل، (كل حجّته ودليله هي عدم المعقولية).

* * *

ولكن كيف اعتبر ذلك ليس من المعقول؟ من شخص مثل هارون الّذي كان مغروراً لا يتورّع عن عمل الأمور اللّاأخلاقية حتّى نكح حليلة أبيه كما تقدّم في الفصل الأوّل.

وهارون هو نفسه الّذي أمر بقتل ستين علوياً، فلنستمع إلى هذه القصّة الرهيبة:

قال عبيدالله البزاز النيسابوري ـ وكان مسناً ـ: كان بيني وبين حميد بن قحطبة الطائي الطوسي معاملة.

فرحلت إليه في بعض الأيّام، فبلغه خبر قدومي، فاستحضرني للوقت وعليّ ثياب السفر لم أغيّرها، وذلك في شهر رمضان وقت صلاة الظهر.

فلمّا دخلت إليه رأيته في بيت يجري فيه الماء، فسلّمت عليه وجلست، فأتي بطست وإبريق فغسل يديه ثمّ أمرني فغسلت يدي.

فقال لي حميد: مالك لا تأكل؟

فقلت: أيُّها الأمير! هذا شهر رمضان، ولست بمريض ولا بي علّة توجب الإفطار، ولعلّ الأمير له عذر في ذلك أو علّة توجب الإفطار.

فقال: ما بي علّة توجب الإفطار، وإنّي لصحيح البدن، ثمّ دمعت عيناه وبكى.

فقلت له بعدما فرغ من طعامه: ما يبكيك أيُّها الأمير؟

فقال: أنفذ إليّ هارون وقت كونه بطوس في بعض اللّيل أن أجب.

فلمّا دخلت عليه، رأيت بين يديه شمعة تتّقد وسيفاً أخضر مسلولاً وبين يديه خادم واقف.

فلمّا قمت بين يديه، رفع رأسه إليّ، فقال: كيف طاعتك لأمير المؤمنين؟

فقلت: بالنفس والمال.

فأطرق، ثمّ أذن لي في الانصراف.

فلم ألبث في منزلي، حتّى عاد الرسول إليّ، وقال: أجب أمير المؤمنين.

فقلت في نفسي، إنّا لله، أخاف أن يكون قد عزم على قتلي، وانّه لمّا رآني استحيا منّي.

فعدت إلى بين يديه، فرفع رأسه إليّ، فقال: كيف طاعتك لأمير المؤمنين؟

فقلت: بالنفس والمال والأهل والولد.

فتبسّم ضاحكاً، ثمّ أذن لي في الانصراف.

فلمّا دخلت منزلي، لم ألبث أن عاد الرسول إليّ، فقال: أجب أمير المؤمنين فحضرت بين يديه وهو على حاله، فرفع رأسه إليّ، فقال: كيف طاعتك لأمير المؤمنين؟

فقلت: بالنفس والمال والأهل والدين.

فضحك، ثمّ قال لي: خذ هذا السيف وامتثل ما يأمرك به هذا الخادم.

قال: فتناول الخادم السيف وناولنيه، وجاء إلى بيت، بابه مغلق، ففتحه فاذا فيه بئر في وسطه، وثلاث بيوت أبوابها مغلقة.

ففتح باب بيت فيها فإذا فيه عشرون نفساً عليهم الشعور والذوائب، شيوخ وكهول وشبان مقيّدون.

فقال لي: إنّ أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء، وكانوا كلّهم علوية من ولد علي وفاطمة، فجعل يخرج إليّ واحداً بعد واحد فاضرب عنقه حتّى أتيت على آخرهم ثمّ رمى بأجسادهم ورؤوسهم في تلك البئر.

ثمّ فتح باب بيت آخر، فاذا فيه أيضاً عشرون نفساً من العلوية من ولد علي وفاطمة مقيّدون.

فقال لي: إن أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء.

فجعل يخرج إليّ واحداً بعد واحد، فأضرب عنقه ويرمي به في تلك البئر حتّى أتيت على آخرهم.

ثمّ فتح باب البيت الثالث، فاذا فيه مثلهم عشرون نفساً من ولد علي وفاطمة مقيّدون عليهم الشعور والذوائب.

فقال لي: ان أمير المؤمنين يأمرك ان تقتل هؤلاء أيضاً.

فجعل يخرج إليّ واحداً بعد واحد، فأضرب عنقه، فيرمي به في تلك البئر حتّى أتيت على تسعة عشر نفساً منهم، وبقي شيخ منهم عليه شعر، فقال لي: تباً لك يا مشؤوم، أي عذر لك يوم القيامة إذا قدمت على جدّنا رسول الله ﷺ وقد قتلت من أولاده ستين نفساً قد ولدهم علي وفاطمة؟

فارتعشت يدي وارتعدت فرائصي.

فنظر إليَّ الخادم مغضباً وزبرني، فأتيت على ذلك الشيخ أيضاً فقتلته ورمى به في تلك البئر.

فإذا كان فعلي هذا، وقد قتلت ستين نفساً من ولد رسول الله ﷺ فما ينفعني صومي وصلاتي؟ وأنا لا أشك أنّي مخلد في النار[1].

❊ ❊ ❊

ولم يذكر لنا التاريخ ان هؤلاء الستين قاموا بثورة ضدّه أو انّهم أرادوا أن يقوموا بالثورة.

فلماذا قتلهم هارون؟

ألَيس لأنّ جريمتهم الوحيدة انّهم علويون؟

وحقد هارون وغطرسة هارون ولؤم هارون، يدفعه إلى أن يقتل الستين وأكثر

---

١ ـ شذرات سياسية من حياة الأئمّة عليهم السلام للمؤلف / ص ٢٧٩.

منهم، ويفعل ما يشاء من المنكرات.

فهل من العقل والحكمة يا تكريتي ان يقتل هارون الّذي يدّعي انّه خليفة رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين، ان يقتل ستين نفساً لمجرد انّهم علويون؟

من يقتل هؤلاء بلا سبب، يوقع النكبة بالبرامكة لأتفه الأسباب، في حين انّ البرامكة عملوا لبني العباس منذ السفاح الّذي استكتب خالد بن برمك، ولم يكن يبدو منهم انّهم يريدونها فارسية.

بل كانوا لا يتركون مناسبة إلّا واستغلّوها في الانتقاص من دنيا آبائهم المجوس.

فلنستمع إلى ابن العماد الحنبلي وهو يتكلم عن الفضل بن يحيى البرمكي إذ يقول:

ومن مناقبه (أي الفضل) انّه لما ولي خراسان دخل إلى بلخ وهي وطنهم وبها (النوبهار) وهو بيت النار الّتي كانت المجوس تعبدها، وكان جدّهم برمك خادم ذلك البيت، فأراد الفضل هدم ذلك البيت، فلم يقدر، لإحكام بنائه، فهدم منه ناحية وبنى فيها مسجداً[1].

وكل أحوال البرامكة كانت تدل على الإخلاص للعباسيين.

والمؤرِّخون لم يذكروا الّذي ذكره سلمان التكريتي، وانّما يذكرون أسباباً أخرى أهمّها ثلاثة:

١ ـ العبّاسة أخت الرشيد:

حيث يرى هذا، صاحب مروج الذهب والإمامة والسياسة وابن الوردي، والبداية والنهاية، وابن الأثير، والقصّة كما يرويها ابن الأثير:

... وفي هذه السنة (١٨٧ هـ) أوقع الرشيد بالبرامكة وقتل جعفر بن يحيى، وكان سبب ذلك أنّ الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عباسة بنت المهدي، وكان يحضرهما إذا جلس للشرب.

---

١ ـ شذرات الذهب / ج ١ / ص ٣٣٢.

فقال لجعفر: أزوِّجكها ليحل لك النظر إليها ولا تقرّبها، فإنّي لا أطيق الصبر عنها، فأجابه إلى ذلك، فزوجها منه.

وكانا يحضران معه ثمّ يقوم عنهما وهما شابان، فجامعها جعفر فحملت منه، فولدت له غلاماً، فخافت الرشيد، فسيّرته مع حواضن له إلى مكّة، فأعطته الجواهر والنفقات.

ثمّ انّ عباسة وقع بينها وبين بعض جواريها شرّ، فانهت أمرها وأمر الصبي إلى الرشيد، وأخذت علماً بمكانه[1].

٢ ـ وهناك سبب آخر يذكره المؤرخون، يقول عنه ابن الأثير أيضاً: وقيل كان سبب ذلك انّ الرشيد دفع يحيى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن إلى جعفر بن يحيى ابن خالد، فحبسه، ثمّ دعا به ليلة وسأله عن بعض أمره، فقال له: اتق الله في أمري ولا تتعرضنّ ان يكون غداً خصمك محمّد ﷺ، فوالله ما أحدثت حدثاً ولا آويت محدثاً، فرقّ له وقال: اذهب حيث شئت من بلاد الله قال: فكيف اذهب ولا آمن ان أوخذ بعد قليل، فوجّه معه من أدّاه إلى مأمنه.

وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كانت له من خواص جعفر، فرفعه إلى الرشيد، فقال: ما أنت؟ وهذا فعله عن أمري.

ثمّ احضر جعفراً للطعام، فجعل يلقّمه ويحادثه، ثمّ سأله عن يحيى.

فقال: هو بحاله في الحبس الضيق والأكبال.

فقال: بحياتي.

ففطن جعفر وكان من أدق الخلق ذهناً وأصحّهم فكراً، فهجس في نفسه انّه قد علم بشيء من أمره، وقال: علمت انّه لا مكروه عنده.

---

١ ـ ابن الأثير / ج ٥ / ص ٣٢٧، ومروج الذهب / ج ٣ / ص ٣٧٦، والإمامة والسياسية / ص ٢٠٢. وتاريخ ابن الوردي / ج ١ / ص ١٩٨، والبداية والنهاية لابن كثير / ج ١٠ / ص ٢٠٤.

فقال: نِعْمَ ما فعلت، ما عدوتَ ما في نفسي.

فلمّا قام عنه، قال: قتلني الله إن لم أقتلك، فكان من أمره ما كان[١].

٣ ـ السمعة الّتي حقّقها البرامكة لأنفسهم والسّخاء الّذي عمّ الخلق بسببهم والأموال الطائلة الّتي تملكوها.

يقول صاحب البداية والنهاية: ويقال إنّما قتلهم الرشيد لأنّه كان لا يمرّ ببلد ولا إقليم ولا قرية ولا مزرعة ولا بستان إلّا قيل هذا لجعفر[٢].

* * *

وهناك أسباب أُخرى غيرها كالسعايات والوشايات والحسد وأمثالها. وفي جميعها ليس فيها ما ذكره التكريتي.

ولو كان ما ادّعاه التكريتي، لمّا تأسّف الرشيد على ما فعله، إذ يذكر صاحب البداية والنهاية انّ الرشيد قال:

إنّي ندمت على قتل البرامكة ووددت أنّي خرجت من نصف ملكي ونصف عمري ولم أكن فعلت بهم ما فعلت، فإنّي لم أجد بعدهم لذّة ولا راحه[٣] وأخيراً قتل قاتلهم (ياسر) لأنّه لم يستطع أن يراه.

* * *

وأمّا طاهر بن الحسين؟

فقد ولّاه المأمون محاربة أخيه الأمين، فقتل في البداية علي بن عيسى بن ماهان، وهو فارسي أيضاً.

---

١ ـ ابن الأثير / ج ٥ / ص ٣٢٧، مروج الذهب / ج ٣ / ص ٣٦٨، ابن خلدون / ج ٣ / ص ٢٢٣، وابن الوردي / ج ١ / ص ١٩٨، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم / ج ٥ / ص ٤٩٧.

٢ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١٠ / ص ٢٠٤، مروج الذهب / ج ٣ / ص ٣٦٨، وابن الوردي / ج ١ / ص ١٩٨.

٣ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١٠ / ص ٢٠٩.

ويقول سلمان التكريتي عن (طاهر):

... وكان بالإمكان أيضاً عدم القيام بمثل هذه المثلة، بقطع رأس الخليفة الأمين وتقديمه إلى أخيه في صينية أو طبق. فان مثل هذا المنظر لا شك يثير حفيظة الأخ على قتل أخيه، حتّى لو كان هو قد أوصىٰ بقتل أخيه، لكن كان يمكن تفادي هذه المثلة، انّما القيام بها يعني وجود حقد لئيم كان يكنه القائد الفارسي طاهر بن الحسين ابن ماهان، فعبّر عن هذا الحقد بقتل الأمين وقطع رأسه[1].

❊ ❊ ❊

إنّ تقديم رأس المقتول إلى القائد العام طريقة كانت متبّعة في الحروب، نعم التمثيل بالمقتول يعتبر أمراً مستهجناً، كما فعل الرشيد بجعفر البرمكي، فانّه قطع رأسه وجعل جثته نصفين وعلقهما في بغداد.

ثمّ لماذا لا يوجه اللوم إلى المأمون نفسه الّذي بعثه إلى مقاتلة أخيه، أو على الأقل كان المفروض فيه ان يقول له: إذا ظفرت بأخي الأمين فلا تقتله.

ولكن هذا هو ديدن الملوك، يأمرون بالقتل ثمّ يتباكون على القتيل ويتنصّلون عمّا فعلوا.

فيزيد بن معاوية أمر بقتل الحسين، وأمر بتحويل الأسرى إليه، وعندما وجد أنّ أهل الشام انكشفت لهم فرية (الخوارج) الّتي أطلقها على أسرى الحسين، عندها تنصّل عن القتل وقال انّه لم يأمر عبيدالله بن زياد بذلك.

ولقد رأينا في مقدمة الكتاب كيف أنّ السفاح أمر بقتل (أبي سلمة الخلال) وكتب إلى أبي مسلم بذلك، ثمّ تظاهر بأنّه رضي عن أبي سلمة لكي يتحمّل تبعة القتل غيره.

والتأريخ زاخر بهذه الأمثال.

---

١ ـ سقوط بغداد وغزو المغول / ص ٧٤.

وفي التاريخ المعاصر أمثلة كثيرة تسلك نفس المضمار.

وتباكي المأمون على أخيه لا شك كان من أجل ذويه من العباسيين الّذين كانوا يميلون للأمين بن زبيدة، وليس للمأمون بن مراجل.

ثمّ انتصر المأمون وقتل أخاه، وكان قد بايع للإمام الرضا عليه السلام وخلع السواد ولبس الخضرة، ثمّ دخل بغداد فاتحاً، كل تلك الأحداث كانت تجعل المأمون شخصاً غير مرغوب فيه، على الأقل لدى العباسيين، فاضطر إلى ان يقتل الرضا بعدما انهى مهمته معه، ويلبس السواد من جديد ثمّ يتباكى ويتظاهر في حزنه على أخيه وكأنّه يتهم في ذلك قائده طاهر بن الحسين.

إنّنا لانميل إلى أنّ (طاهراً) كان يفكّر فضلاً عن انّه كان يعمل على اقتطاع خراسان أو جزء من خراسان والثورة على المأمون.

فليس في التاريخ ما يشير إلى ذلك.

❊ ❊ ❊

وقصّة طاهر بن الحسين، نستطيع ان نجملها كما يلي.

... إنّ طاهراً دخل يوماً على المأمون، والمأمون يشرب النبيذ، فبكى المأمون، ثمّ استطاع طاهر ان يعلم سرّ بكاء المأمون، فقد قال لساقيه: إنّي ذكرت محمّداً أخي وما ناله من الذل، فخنقتني العبرة، فاسترحت إلى الافاضة ولن يفوت طاهراً منّي ما يكره...

ثمّ يعين المأمون طاهراً على خراسان[1].

وبعدها يعيّن المأمون عبدالله بن طاهر والياً (من الرقة إلى مصر).

ولمّا استعمله المأمون، كتب إليه أبوه طاهر كتاباً جمع فيه كل ما يحتاج إليه الأمراء من الآداب والسياسة وغير ذلك، وقد أثبت فيه أحسنه لما فيه من الآداب والحثّ

---

١ ـ منقول بشيء من التصرف عن ابن الأثير / ج ٥ / ص ٤٥٤.

على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيّم لأنّه لا يستغني عنه أحد من ملك وسوقه[١].

فلمّا رأى الناس هذا الكتاب تنازعوه وكتبوه وشاع أمره، وبلغ المأمون خبره، فدعا به، فقرئ عليه، فقال: ما أبقى أبو الطيب ـ يعني طاهراً ـ شيئاً من أمر الدُّنيا والدين والتدبير والرأي والسياسة واصلاح الملك والرعية وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلّا وقد أحكم وأوصى به.

وأمر المأمون فكتب به إلى جميع العمّال في النواحي.

فسار عبدالله إلى عمله، فاتبع ما أمر به وسار بسيرته[٢].

* * *

ولنقرأ ما كتبه ابن عبد ربه في العقد الفريد بهذا الصدد:

أبو جعفر البغدادي قال:

لمّا انقبض طاهر بن الحسين بخراسان عن المأمون وأخذ حِذره، أدّب المأمون وصيفاً بأحسن الآداب وعلّمه فنون العلم، ثمّ أهداه إليه مع ألطاف كثيرة من طرائف العراق وقد واطأه على ان يسمّه واعطاه سمّ ساعة، ووعده على ذلك بأموال كثيرة.

فلمّا انتهى إلى خراسان وأوصل إلى طاهر الهدية، قبل الهدية وأمر بإنزال الوصيف في دار، وأجرى عليه ما يحتاج إليه من التوسعة في النّزالة[٣] وتركه أشهراً.

فلمّا بَرِم الوصيف بمكانه كتب إليه: يا سيّدي! إن كنت تقبلني فاقبلني وإلّا فردّني إلى أمير المؤمنين.

فأرسل إليه وأوصله إلى نفسه. فلمّا انتهى إلى باب المجلس الّذي كان فيه، أمره بالوقوف عند باب المجلس، وقد جلس على لِبْدٍ أبيض وقرّع رأسه[٤] وبين يديه

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٥ / ٤٥٧.
٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٥ / ص ٤٦٥.
٣ ـ النزالة بالكسر: الضيافة.
٤ ـ قرّع رأسه: أذهب شعره.

مصحف منشور وسيف مسلول.

فقال: قد قبلنا ما بعث به أمير المـؤمنين غيرَك، فإنّا لا نقبلك، وقد صرفناك إلى أمير المؤمنين، وليس عندي جواب أكتبه، إلّا ما ترى من حالي، فأبلغ أمير المؤمنين السّلام وأعلمه بالحال الّتي رأيتني فيها.

فلمّا قدم الوصيف على المأمون، وكلّمه بما كان من أمره، ووصف له الحال الّتي رآه فيها، شاور وزراءه في ذلك وسألهم عن معناه، فلم يعلمه واحد منهم.

فقال المأمون: لكني قد فهمت معناه:

أمّا تقريعه رأسه وجلوسه على اللبد الأبيض، فهو يخبرنا أنّه عبد ذليل.

وأمّا المصحف المنشور، فانّه يذكرنا بالعهود الّتي له علينا.

وأمّا السيف المسلول فانّه يقول: إن نكثت تلك العهود فهذا يحكم بيني وبـينك، اغلقوا عنّا باب ذكره، ولا تهيّجوه في شيء ممّا هو فيه.

فلم يهجه المأمون حتّى مات طاهر بن الحسين وقام عبدالله بن طاهر بن الحسين مكانه، فكان أخف الناس عليه.

وكتب طاهر بن الحسين إلى المأمون في اطلاق ابن السندي من حـبسه، وكـان عامله على مصر فعزله عنها وحبسه، فأطلقه له وكتب إليه:

أخي أنت ومولاي فما تـرضاه أرضـاه
وما تهوى من الأمر فـإنّي أنـا أهـواه
لـك الله عـلى ذاك لـك الله لـك الله[1]

* * *

وفي هذه القصّة يظهر أنّ طاهر بن الحسين لم ينكث العهد، وإنّما الّذي نكث العهد أو كاد أن ينكث فهو المأمون.

---

١ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه / ج ١ / ص ٤٠٧.

وحتّى إذا نكث المأمون عهده الّذي أعطاه طاهراً، فان طاهراً سوف يحاربه ولكن لا على أساس الرجوع إلى المجوسية. وانّما هي حرب بحرب، كما كان يخرج الخارجون على الدولة العباسية.

وأمّا الأبيات الثلاثة فهي تنبئ عن إخلاص شديد يكنه طاهر إلى المأمون.

* * *

وفي سنة ٢٠٧هـ، وكان طاهر لا يزال في خراسان، حضرت الجمعة، فصعد طاهر المنبر فخطب، فلمّا بلغ إلى ذكر الخليفة أمسك عن الدعاء له، وقال:

اللّهم أصلِح أمّة محمّد بما أصلحت به أولياءك واكفنا مؤنة من بغى علينا وحشد فيها بلمّ الشعث وحقن الدماء واصلاح ذات البين[1].

ثمّ حدث به حادث من حمّى أصابته، فمات في تلك اللّيلة.

فلمّا بلغ المأمون حادث الخطبة، قرّر ان يؤتى بطاهر إليه، ثمّ لمّا بلغه موته، عيّن ولده (طلحة بن طاهر) في مكانه.

* * *

هذا باختصار كل ما يتعلّق بالمقطع الأخير من حياة (طاهر بن الحسين) وهو في جملته لا ينهض دليلاً على ما يدّعيه التكريتي بأنّه حاول أن يرجع خراسان إلى الفارسية الأولى، فليس في كلامه شيء يدل على ذلك...

أمّا قطع الخطبة للمأمون؟

فلا ندري ما هو سببه، والاحتمالات كثيرة، ولربّما وجد في المأمون انتهاكاً فاضحاً للشريعة...

وعلى كل حال، فلماذا لا نوجّه اللّوم إلى المأمون نفسه؟ وقد رأينا في الفصل الأوّل فسق الخلفاء واستهتارهم بالاسلام والمسلمين.

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٥ / ص ٤٦٨.

ثمّ لا ننسى رسالة (طاهر بن الحسين) لولده عبدالله وهو في مصر في التشديد على الاسلام وخدمة المسلمين ورعاية أمور الخليفة.

ثمّ إذا كان ما يقوله التكريتي صحيحاً، فلماذا عين المأمون ابنه طلحة في مكانه؟

إنّ تخرّصات التكريتي نابعة من فكر حاقد ومن واعظ لسلطان (صدّام حسين) أيّام حربه إيران الإسلامية.

* * *

ولعلّ هذه القصّة الّتي سنوردها الآن تنبئ عن مدى إخلاص طاهر بن الحسين للمأمون، فقد جاء في الكامل لابن الأثير ما يلي:

قال إسحاق بن إبراهيم المصعبي: دعاني المعتصم يوماً، فدخلت عليه، فقال: أحببت أن أضرب معك بالصوالجة، فلعبنا بها ساعة، ثمّ نزل وأخذ بيدي يمشي إلى أن صار إلى حجرة الحمّام.

فقال: خذ ثيابي، فأخذتها ثمّ أمرني بنزع ثيابي، ففعلت ودخلت، وليس معنا غلام، فقمت إليه فخدمته ودلكته، وتولّى المعتصم منّي مثل ذلك، فاستعفيته، فأبى عليّ.

ثمّ خرجنا ومشى وأنا معه حتّى صار إلى مجلسه، فنامَ وأمرني فنمتُ حذاءه بعد الامتناع.

ثمّ قال لي: يا إسحاق إنّ في قلبي أمراً أنا مفكّر فيه منذ مدّة طويلة، وإنّما بسطتك في هذا الوقت لأفشيه إليك.

فقلت: يا أمير المؤمنين! فانّما أنا عبدك وابن عبدك.

قال: نظرت إلى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة فأفلحوا واصطنعتُ أربعة فلم يفلح أحد منهم.

قلت: ومن الّذين اصطنعهم المأمون؟

قال: طاهر بن الحسين، فقد رأيت وسمعت، وابنه عبدالله بن طاهر فهو الرّجا،

الّذي لم يُر مثله، وأنت فأنت والله الرّجل الّذي لا يتعاصى السلطان عنك أبداً وأخوك محمّد بن إبراهيم وأين مثل محمّد؟

وأنا اصطنعت الأفشين، فقد رأيت إلى ما صار أمره.

وأشناس ففشل.

وايتاخ فلا شيء.

ووصيف فلا معنى فيه.

فقلت: أجيب على أمان من غضبك؟

قال: نعم.

قلت له: يا أمير المؤمنين نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها، واستعمل أمير المؤمنين فروعاً فلم تنجب إذ لا أصول فيها.

فقال: يا إسحاق لَمقاساة ما مرّ بي طول هذه المدّة أيسر عليَّ من هذا الجواب[1].

* * *

ومنذ أيّام السفّاح ولحد المأمون لم يحدِّثنا التأريخ أنّ أولئك الوزراء والأمراء من الفرس قتلوا أحداً من الخلفاء أو تآمروا عليه.

ولكن الأمور اختلفت كثيراً منذ جاء المعتصم بالأتراك، فقد أصبح العد يتنازل بسرعة ويزداد زخماً في هبوطه أكثر ممّا سبق.

وهو ما سوف نراه في الصفحات اللّاحقة إن شاء الله.

---

١ ـ ابن الأثير / ج ٦ / ص ٧٢.

دخول الأتراك عنصراً جديداً
في الدولة العباسية
أضعفها وعمل على تمزيقها

إنّ دخول الأتراك الساحة العباسية السياسية، أضعف الدولة كثيراً، فالأتراك بالاضافة إلى انّهم لم يكونوا بمستوى الدولة، كانت لهم أطماع كثيرة.

وسوف نرى انّهم كيف عملوا بالتدريج على النفوذ في شؤون الخليفة، حتّى أصبحوا يقتلون الخليفة وينصبون غيره.

والوزراء والأمراء الفرس الّذين سبقوهم ـ كما قال عنهم إسحاق بن إبراهيم المصعبي ـ كانوا أصولاً فأنجبوا فروعاً، فآل برمك وآل طاهر وغيرهم كانوا من الدرجات الرفيعة في مجتمعاتهم، وكانت فروعهم (أبناؤهم) بمستوى الدولة.

في حين نجد انّ الأتراك الّذين جاء بهم الخليفة المعتصم، كانوا فروعاً فلم تنجب، وكانوا مماليك وصعاليك، جاء بهم لأنّه كانت له هواية في جمعهم ليزداد بهم أبّهة وجلالة، ولأنّه كما يقول عنه السيوطي:

كان يتشبّه بملوك الأعاجم ويمشي مشيتهم، وبلغت غلمانه الأتراك بضعة عشر ألفاً[١] وهو أوّل خليفة أدخل الأتراك إلى الديوان[٢].

* * *

والتشبّه بملوك الأعاجم ربّما كان عن شعوره بعقدة النقص حيث كان أمّياً لا يقرأ ولا يكتب.

ويذكر عنه انّه كان يتردّد معه إلى الكتاب غلام، فمات الغلام، فقال له الرشيد: ما فعل غلامك؟

قال: مات فاستراح من الكتّاب.

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٣٣٥.

٢ ـ المصدر السابق / ص ٣٣٦.

فقال الرشيد: وقد بلغ منك كراهة الكتّاب إلى أن تجعل الموت راحة منه؟ والله يا بني لا تذهب بعد اليوم إلى الكتاب، فتركوه أميّاً[١].

ولعلّ القصيدة الّتي هجاه بها دعبل الخزاعي، هي لهذه الحالة الّتي فيه (الأميّة زائداً ولعه بالأتراك) إذ يقول فيها:

ملوك بني العباس في الكتب سبعة ... ولم يأتنا في ثامن منهم الكتب
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة ... غداة ثووا فيها وثامنهم كلب
واني لأُعلي كلبهم عنك رفعة ... لأنّك ذو ذنب وليس له ذنب
لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم ... وصيف وأشناس وقد عظم الخطب
وهمّك تركي عليه مهابة ... فأنت له أمٌّ وأنت له أب[٢]

* * *

الخليفة المعتصم كان مغرماً بجمع المماليك الأتراك

فجمع حوله هؤلاء الأتراك الّذين يقول عنهم صاحب البداية والنهاية:

وقد استخدم المعتصم من الأتراك خلقاً عظيماً، كان له من المماليك الأتراك قريب من عشرين ألفاً[٣].

وليت المعتصم اكتفى بجمع المماليك من الأتراك فقط، ولكنّه ألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهّبة والحلية المذهّبة وأبانهم بالزي عن سائر جنوده[٤] ثمّ أصبحوا طامّة عليه وعلى غيره من الخلفاء الّذين جاؤوا من بعده، كما كانوا طامّة على الدولة العباسية، حيث عمل أولئك على نخر الدولة والسيطرة على مقدّرات الأمور.

---

١ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١٠ / ص ٣٢٤.
٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٣٣٥.
٣ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١٠ / ص ٣٢٥.
٤ ـ مروج الذهب / ج ٣ / ص ٤٦٥.

ظاهرة الأتراك تسبّبت احراجات كثيرة للمعتصم

وأوّل ما فعله أولئك، انّهم كانوا يسيئون التصرّف في بغداد، إمّا استهانة بالناس وإمّا لأنّهم كانوا جفاة لا يفقهون.

يجمع المؤرّخون ومنهم الطبري، فيقول:

إنّ غلمانه (أي غلمان المعتصم) الأتراك كانوا لا يزالون يجدون الواحد بعد الواحد منهم قتيلاً في أرباضها، وذلك انّهم كانوا عجماً جفاة يركبون الدواب فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها، فيصدمون الرّجل والمرأة ويطأون الصبي فيأخذهم الأبناء فينكسونهم عن دوابهم ويجرحون بعضهم، فربّما هلك من الجراح بعضهم.

فشكت الأتراك ذلك إلى المعتصم، وتأذّت بهم العامّة.

فذكر انّه رئي المعتصم راكباً منصرفاً من المصلّى في يوم عيد أضحى أو فطر، فلمّا صار في مربعة الحرشي نظر إلى شيخ قد قام إليه، فقال له: يا أبا إسحاق! فابتدره الجند ليضربوه.

فأشار إليهم المعتصم، فكفّهم عنه.

فقال للشيخ: ما لك؟

قال: لا جزاك الله عن الجوار خيراً، جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج فأسكنتهم بين أظهرنا، فأيتمت بهم صبياننا وأرملت بهم نسواننا وقتلت بهم رجالنا، والمعتصم يسمع ذلك كلّه.

ثمّ دخل داره فلم يُرَ راكباً إلى السنة القابلة في مثل ذلك اليوم، فلمّا كان في العام المقبل في مثل ذلك اليوم خرج فصلّى بالناس العيد ثمّ رجع إلى منزله ببغداد، ولكنّه صرف وجه دابته إلى ناحية القاطول وخرج من بغداد ولم يرجع إليها[1].

---

١ ـ تاريخ الأمم والملوك للطبري / ج ١١ / ص ١١٨١.

ولذلك فانّ المعتصم اضطر إلى ان ينتقل من بغداد.

يقول الطبري نقلاً عن أحمد بن خالد:

قال بعثني المعتصم في سنة ٢١٩ هـ، وقال لي: يا أحمد! اشتر لي بناحية سامراء موضعاً ابني فيه مدينة، فإنّي أتخوّف ان يصيح هؤلاء الحربية صيحة فيقتلون غلماني حتّى أكون فوقهم، فإن رابني منهم ريب أتيتهم في البر والبحر حتّى آتي عليهم[١].

* * *

فالمماليك الأتراك أصبحوا مبغوضين من الأهلين ومن الحربيين (العسكر) فان تصرفاتهم تسيء للجميع، وليس فيها من الذوق شيء، والمعتصم نفسه بدأ يشعر بهذا الاحراج الّذي حصل بسببه.

فهو في جانب يريد ان يشبع غروره بهؤلاء المماليك، وهو من جانب آخر، كان يخشى أن يتولّد ضدّهم من الناس عامّة ومن الحربيين خاصّة ما يسيء إليهم، وربّما تتطوّر المصادمات إلى ما لا تحمد عقباه، فقرّر أخيراً أن يبني لهم مدينة سامراء فانتقل إليها.

ويظهر انّ المعتصم، كان مغرماً بالأتراك وعاشقاً لهم، فهو لم يميّزهم بالأزياء والمناطق الذهبية فقط وانّما جعل لهم قطائع متميّزة، واقطع أشناس التركي وأصحابه من الأتراك الموضع المعروف بكرخ سامراء[٢].

* * *

ولقد رأينا في الفصل الأوّل كيف انّ الخلفاء بميوعتهم واستهتارهم وخلاعتهم وتطاولهم على الله ورسوله قد أضعفوا الدولة وزعزعوا ثقة الأمّة بهم، وكان للمعتصم مساهمة فاعلة أضيفت إلى مجمل تلك الأسباب الّتي نخرت بالبلاد والعباد والّتي ساهمت مع ما سبقها من انحرافات وما لحقها في سقوط بغداد.

---

١ ـ تاريخ الرّسل والملوك للطبري / ج ١١ / ص ١١٧٩.

٢ ـ مروج الذهب للمسعودي / ج ٣ / ص ٤٦٧.

فالأتراك الّذين دخلوا ميدان السياسة والجيش في الدولة العباسية والّذين كانوا نتيجة نزوة صبيانية من المعتصم ليتجمّل بهم ويزداد ابهة وجلالة، اصبحوا شؤماً عليه خاصّة وعلى الدولة بصورة عامّة.

ولعلّ المعتصم استذوق أشكال الأتراك وألوانهم، فقد كانوا يميلون إلى الحمرة وعليهم مسحة من الجمال. فأكثر منهم وقرّبهم وسلّطهم على الناس والدواوين وقصور الخلفاء.

وهو أوّل من اتّخذ القوّاد من الأتراك[1] حتّى كانوا نكالاً عليه وعلى من جاء من بعده، ثمّ ساهموا مساهمة فعّالة في سقوط بغداد وانهاء الحكم العباسي.

* * *

قد يكون المعتصم عندما اتّخذ المماليك الأتراك، كان يقصد من وراء ذلك ان لا يعتمد على جند العراق، فانّهم ربّما يثورون عليه مطالبين بأرزاقهم أو يحركهم أحد الطامعين. وحينذاك يستنجد بالأتراك، فيضرب بعض الجند ببعض.

ولكنّه كان عليه ان يفكر بالأمر ملياً قبل ان يقدم عليه، ثمّ انّه لا ينبغي له ان يميّز بين الجند في العطاء والأزياء والقرب والبعد.

اضافة إلى ان هؤلاء المماليك كان يظهر انّهم كانوا جديدي عهد بالاسلام، وكانوا قد عاشوا في مناطق نائية عن الحضارة، فوجدوا أنفسهم على حين غفلة في حاضرة الدولة العباسية يكلأهم أمير المؤمنين بعطفه ورعايته ويزيد في أعطياتهم ويميّزهم في كل شيء وهذا لا شك يزيد في تهورهم واستهتارهم بالاسلام والمسلمين ويثير حساسيّة الجند الآخرين.

انّنا نستطيع القول: انّ المعتصم أساء للدولة العباسية اساءة بالغة، إذ أنّه جاء بالمماليك الأتراك وسلطهم على رقاب الناس، فكان ذلك مشجعاً للبويهيين ان يظفروا بغنيمة باردة هي (الدولة العباسية) عندما وجدوا الأتراك يتنعمون فيها.

---

١ ـ مروج الذهب للمسعودي / ج ٣ / ص ٤٦٧.

ثمّ تتابع الطامعون... وأخيراً التتار.

فليس هناك مَن يُدافع عن الدولة، وحالة الاسترخاء كانت متفشية والرجل المريض كان ينتظر من يطلق عليه رصاصة الرحمة، فكان الانهيار نتيجة حتميّة لما سبق من أسباب متعدّدة تعاقبت وتظافرت.

* * *

لقد بلغ من ولع المعتصم بالأتراك انّه اتّخذ (أشناس التركي) قائداً عسكرياً وفضّله على بقيّة القوّاد.

ففي عام ٢٢٥هـ أجلسه المعتصم على كرسي وتوّجه ووشّحه في شهر ربيع الأوّل[١] وهذه ظاهرة ليس لها سابقة، وفي فترة قصيرة جدّاً استطاع (أشناس التركي) أن يتبوّأ أعلى المناصب بعد منصب الخليفة.

وكان قبل ذلك قد تزوّج الحسن بن الأفشين (أترجه) بنت أشناس ودخل بها في (العمري) قصر المعتصم. وكان المعتصم يباشر بنفسه تفقد من حضر حفلة العرس[٢].

وحجّ أشناس عام ٢٢٦هـ، فدعي له على جميع المنابر الّتي مرّ بها، من سامراء إلى مكّة والمدينة، وكان الّذي دعا له على منبر (الكوفة) محمّد بن عبدالرّحمان ابن عيسى بن موسى، وعلى منبر (فيد) هارون بن محمّد بن أبي خالد، وعلى منبر (المدينة) محمّد بن داود بن عيسى بن موسى.

وسُلِّم عليه في هذه الكور كلّها بالإمارة، وكانت له ولايتها إلى أن رجع إلى سامرا[٣].

* * *

١ ـ تاريخ الرسل والملوك للطبري / ج ١١ / ص ١٣٠٢.

٢ ـ المصدر السابق / ص ١٣٠١.

٣ ـ المصدر السابق / ص ١٣١٩.

والدعوة على المنابر لـ (أشناس) ليس لها سابقة أيضاً، إذ لم تكن الدعوة لغير أمير المؤمنين.

والمأمون إنّما سخط على طاهر بن الحسين لأنّه قطع له الدعوة، ولكن الأتراك تجاوزوا ذلك بمراتب كثيرة.

فالدعوة أصبحت لشخص آخر غير الخليفة، فهي لقائد عسكري، في حين أنّ سلمان التكريتي مؤلّف كتاب (بغداد وغزو المغول) لم يتعرّض لهذه الحادثة مطلقاً، في الوقت الّذي أسهب في قضيّة طاهر بن الحسين، وتنبّأ فيها انّه كان يريد أن يحرف الدولة إلى الفارسية لمجرّد انّه لم يدعُ للمأمون.

وحتّى أبو مسلم الخراساني، لم يتجرّأ أن يدعو لنفسه على المنابر، ولم يكن في حيثيات اعدامه من قبل المنصور ذلك، وإنّما لأنّه كان يتقدّم على الخليفة في المسير ويوزّع الهدايا.

* * *

فلماذا سكت سلمان التكريتي هنا، عندما يجد ان أحد الأمراء الأتراك يُدعى له وهو في مسيره إلى الحج من سامراء إلى المدينة ومكّة، وكان الولاة هم الّذين تولّوا هذه الدعوة.

وانّه من الغرابة بمكان ان يكون أحد العباسيين وهو (محمّد بن داوود بن عيسى ابن موسى) والي مكّة هو الّذي يدعو له على منبرها.

نعم، سكت التكريتي كما سكت المؤرّخون الّذين يكتبون التاريخ حسب هواهم، فإذا وجدوا ما ينافي متبنياتهم أهملوه، وكأن شيئاً لم يكن.

وكتابة التاريخ إذا تدخّل فيها الهوى ورغبات النفس فسدتْ ونَحَتْ منحىً آخر يشبه إلى حدٍّ ما مواعظ السلاطين.

وتلك آفة التاريخ الّتي كانت طامّة على الناس في كل الأزمان.

الأتراك يسلبون الدولة من الواثق ويبق له القصر

عندما جاء الواثق، كان الأتراك قد ترسّخت أقدامهم في الدولة وولجوا في جميع أبوابها.

وكان أوّل من عقد له الواثق من قوّاده (أشناس التركي) ولّاه من بابه إلى آخر عمل المغرب، فوجّه عمّاله وكتب إلى محمّد بن إبراهيم الأغلب بولاية المغرب من قبله.

وولّى الواثق خراسان (ايتاخ التركي) والسند وكور دجله[١].

وإذا كان المعتصم قد توّج (أشناس) وألبسه وشاحين فانّ الواثق توّجه وألبسه وشاحين بالجوهر[٢].

ثمّ مات أشناس، فصيّرت مرتبته وأكثر أعماله إلى (ايتاخ التركي) وتركت ضياعه وأمواله بحالها إلى ولده[٣].

وعند ذلك أصبح (ايتاخ التركي) هو الشخص الأوّل في العالم الاسلامي، فالخليفة لا يملك إلّا قصره وما انغلقت عليه أبواب القصر.

أمّا (ايتاخ) فله كل هذا العالم الزاخر وهو الناهي الآمر.

وايتاخ هذا كان مملوكاً مدللاً، استطاع أن يصل إلى أعلا درجة في الدولة، لأنّ الخليفة كان مشغولاً بخصيانه ونسوانه وملاهيه.

* * *

وهو أوّل شخص بهذا المستوى، ينال هذه المرتبة، ثمّ يتوالى الأشخاص وتتوالى المراتب.

---

١ ـ تاريخ اليعقوبي / ص ٤٧٩.
٢ ـ تاريخ الرسل والملوك للطبري / ج ١١ / ص ١٣٣٠.
٣ ـ تاريخ اليعقوبي / ص ٤٨١.

ويقول السيوطي عن الواثق: وأظن انّه أوّل خليفة استخلف سلطاناً، فإنّ الترك إنّما كثروا في أيّامه[١].

وعن قريب سوف ننظر كيف يتآمر أولئك المماليك على الخلفاء وعلى السياسة العامّة للدولة العباسية.

وأخيراً سوف يصبحون هم أصحاب الحق والخلفاء يكسبون ودّهم ورضاهم ويخضعون لهم.

❊ ❊ ❊

تعاظم خطر الأتراك على المتوكل

فالمماليك أولئك، دخلوا الساحة وهم مدللون، وعندما جاء المتوكل كان أمرهم قد استفحل أكثر وأشد.

فهم أيّام المعتصم كانوا مدللين.

وفي أيّام الواثق أصبحوا يملكون الشرق والغرب بأمر الخليفة الّذي أخلد للراحة وفي أيّام المتوكّل قويت شوكتهم وترسخت أقدامهم وأحكموا سيطرتهم، وبدأوا يتآمرون على الخليفة لأنّهم وجدوه ضعيفاً منهمكاً في شرابه ولذاته ثمّ قتلوه ووزيره معاً.

وشجّعهم على ذلك المنتصر (ابن المتوكل) فكان إقدامهم على هذه الخطوة سريعاً وهكذا فعلوا... وهكذا تتسلسل الأمور، وهي الآن في بداياتها وسوف نرى إلى أيّة درجة تؤول...

❊ ❊ ❊

الأتراك يخطّطون لقتل الخليفة المتوكل

وكان المتوكل قد جفا ابنه محمّداً المنتصر، فأغروه به[٢] ودبّروا على الوثوب عليه،

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٣٤٠.

٢ ـ ربّما هو الّذي أغراهم به.

فلمّا كان يوم الثلاثاء لثلاث خلون من شوال سنة ٢٤٧هـ دخل جماعة من الأتراك، منهم بغا الصغير وأوتامش صاحب المنتصر وباغر وبغلو وواجن وكنداش.

وكان المتوكل في مجلس خلوة، فوثبوا عليه، فقتلوه بأسيافهم وقتلوا الفتح ابن خاقان معه[١].

ولكن المسعودي، يذكر تفصيلاً في ذلك، ينبهر منه القارئ عندما يجد كيف كان الأتراك يتآمرون في الدولة على قتل المتوكل، وان مخططاتهم كانت من الدقّة بحيث انطلت على المتوكل نفسه.

قال سعيد: وقد كان الأتراك قد رأوا انّهم يقتلون المتوكل بدمشق[٢] فلم يمكنهم فيه حيلة بسبب بغا الكبير[٣] فانّهم دبروا في إبعاده عنه، فطرحوا في مضرب المتوكل الرقاع يقولون فيها:

إنّ بغا دبّر أن يقتل أمير المؤمنين، والعلامة في ذلك أن يركب في يوم كذا في خيله ورجله فيأخذ عليه أطراف عسكره ثمّ يأخذ جماعة من الغلمان العجم[٤] يدخلون عليه فيفتكون به.

فقرأ المتوكل الرقاع فبهت ممّا تضمّنته ودخل في قلبه من (بُغا) كل مدخل، وشكى إلى الفتح ذلك، وقال له في أمر (بُغا) والإقدام عليه وشاوره في ذلك.

فقال: يا أمير المؤمنين انّ الّذي كتب الرقاع قد جعل للأمر دلائل في وقت بعينه سمّاه له من ركوب الرّجل بالأطراف من العسكر وتوكيله بنواحيه، وبعد ذلك سيتبيّن الأمر. وأنا أرى أن تمسك، فإنّ صحّ هذا الدليل نظرنا كيف نفعل وإن بطل ما كتب به، فالحمد لله.

وأقبلت الرقاع تطرح في كل وقت على جهة التنصّح وأن في أعناق من كتبها بيعة

١ ـ تاريخ اليعقوبي / ص ٤٩٢.

٢ ـ كان المتوكل قد خرج من سامراء إلى دمشق للنزهة أو ربّما أراد أن ينقل مقرّ الخلافة إلى هناك.

٣ ـ الّذي يحمل اسم (بغا) اثنان كبير وصغير وكلاهما تركيّان.

٤ ـ كلّ غير عربي فهو أعجمي.

لم يجد معها بداً من النصح والصدق.

فلمّا علموا بما علم به الخليفة وتمكّن به ما عندهم من الأمر، كتبوا رقاعاً فطرحوها في مضرب بغا، يقولون فيها: ان جماعة من الغلمان والأتراك قد عزموا على الفتك بالخليفة في عسكره، ودبّروا ذلك واتفقوا عليه وتعاقدوا على ان يأتوه من نواحي كذا ونواحي كذا، فالله الله إلّا ما احترست لأمير المؤمنين وحرسته في هذه اللّيلة من هذه المواضع وحصّنتها بنفسك ومَن تثق به، فإنّا قد نصحنا وصدقنا، وأكثروا طرح الرقاع بهذا المعنى والتوكيد في حراسة الخليفة.

فلمّا وقف بُغا عليها وتتابعت عليه لم يأمن أن يكون ما كتب إليه فيها حقّاً، مع ما كان وقع عليه من الأمر قبل ذلك.

فلمّا كانت اللّيلة الّتي ذكروها جمع جيوشه وأمرهم بالرّكوب بالسلاح وركب معهم إلى المواضع الّتي ذكرت، فأخذها على المتوكل وحرسها واتصل الخبر بالمتوكل فلم يشك أنّ ما كتب له حق.

فأقبل يتوقع من يوافيه فيفتك به، وسهر ليلته وامتنع من الأكل والشرب. فلم يزل على تلك الحال إلى الغداة، وبُغا يحرسه، والأمر عند المتوكل على خلاف ذلك، وقد اتّهم بُغا واستوحش من فعله.

فلمّا عزم المتوكل على الانصراف قال له: يا بُغا قد أبت نفسي مكانك منّي، ورأيت أن أقلّدك هذا الصّقع وأقرّ عليك ما كان لك من رزق وحباء ونُزُل ومعونة وكل سبب.

فقال: أنا عبدك يا أمير المؤمنين فافعل ما شئت وأمرني بما أحببت، فخلّفه بالشام وانصرف.

فأحدث الموالي عليه ما أحدثوا، فلم يعلم المتوكّل وجه الحيلة، ولم يعلم كل واحد منها الحيلة في ذلك إلى أن تمّت الحيلة[1].

١ ـ مروج الذهب للمسعودي / ج ٤ / ص ٣٤.

وتمكّنت الحيلة للأتراك فقتلوا المتوكل

ولمّا عزم (بغا الصغير) على قتل المتوكل دعا بـ (باغر التركي) وكان قد اصطنعه واتخذه، وملأ عينه في الصّلات، وكان مقداماً أهوج.

فقال له: يا باغر! أنت تعلم محبّتي لك وتقديمي إيّاك وإيثاري لي لك وإحساني إليك وإنّي قد صرت عندك في حدّ من لا يُعصى له أمر ولا يخرج عن محبّته، وأريد أن آمرك بشيء فعرّفني كيف قلبك فيه؟

فقال: أنت تعلم كيف هو، فقل لي ما شئت حتّى افعله.

قال: إنّ ابني فارس قد أفسد عليّ عملي وعزم على قتلي وسفك دمي وقد صحّ عندي ذلك منه.

قال: فتريد منّي ماذا؟

قال: أريد أن يدخل عليّ غداً. فالعلامة بيننا أن أضع قلنسوتي في الأرض فاذا أنا وضعتها في الأرض فاقتله.

قال: نعم، ولكن أخاف اِن يبدو لك أو تجد في نفسك عليّ.

قال: قد آمنك الله من ذلك.

فلمّا دخل فارس، حضر باغر ووقف موقف الضارب، فلم يزل يراعي (بغا) ان يضع قلنسوته، فلم يفعل، وظن انّه نسي، فغمزه بعينه أن إفعل، قال: لا.

فلمّا لم ير العلامة وانصرف فارس، قال له بغا: اعلم إنّي فكرت في انّه حَدَثٌ وانّه ولدي وقد رمت ان استخلصه هذه المرة.

فقال له باغر: أنا قد سمعت وأطعت وأنت أعلم وما دبّرت وقدّرت عليه في صلاحه.

ثمّ قال له: وها هنا أمر أكبر من ذلك وأهم، فعرّفني كيف تريد ان تكون فيه؟

قال له: ما شئت حتّى أفعله.

قال: أخي (وصيف) قد صحّ عندي انّه يدبّر عليّ وعلى، رفقائي، وان مكاننا قد ثقل عليه، وانّه عوّل على ان يقتلنا ويفنينا وينفرد بالأمور.

قال: فماذا تريد ان يُصنع به؟

قال: إفعل هذا، فانّه يصير إليّ غداً، فالعلامة أن انزل عن المصلى الّذي يكون معي قاعداً عليه، فاذا رأيتني نزلت عنه فضع سيفك عليه واقتله.

قال: نعم.

فلمّا صار وصيف إلى بغا، حضر باغر وقام مقام المستعد، فلم ير العلامة حتّى قام وصيف وانصرف.

قال فقال له بغا: يا باغر إنّي فكرت في انّه أخي وإنّي قد عاقدته وحلفت له فلم استجز ان أفعل ما دبّرته.

ووصله وأعطاه.

ثمّ انّه أمسك عنده مدّة مديدة ودعا به.

فقال: يا باغر قد حضرت حاجة أكبر من الحاجة الّتي قدمتها فكيف قلبك؟

قال: قلبي على ما تحب، فقل ما شئت حتّى افعله.

فقال: هذا المنتصر قد صحّ عندي انّه على إيقاع التدبير عليّ وعلى غيري حتّى يقتلنا، وانّني أريد ان أقتله، فكيف ترى نفسك في ذلك؟

ففكّر (باغر) في ذلك، ونكّس رأسه طويلاً، وقال: هذا لا يجئ منه شيء.

قال: وكيف؟

قال: يقتل الابن والأب باقٍ؟ اذاً لا يستوي لكم شيء ويقتلكم أبوه كلكم به.

قال: فما ترى عندك؟

قال: نبدأ بالأب أوّلاً فنقتله، ثمّ يكون أمر الصبي أيسر من ذلك.

فقال له: ويحك ويفعل هذا ويتهيأ؟

قال: نعم، وأفعله وادخل عليه حتّى أقتله.

فجعل يردّد عليه، فيقول: لا تفعل غير هذا.

ثمّ قال له: فادخل أنت في اثري فان قتلته وإلّا فاقتلني وضع سيفك عليّ، وقل أراد أن يقتل مولاه.

فعلم (بغا) حينئذٍ انّه قاتله وتوجّه له في التدبير في قتل المتوكل[١].

* * *

كيفيّة قتل المتوكّل

أمّا كيفية قتل المتوكل، فننقلها من مروج الذهب أيضاً إذ يقول:

... وسكر المتوكل سكراً شديداً، وكان من عادته أنّه إذا تمايل عند سكره أن يقيمه الخدم الّذين عند رأسه.

قال: فبينما نحن كذلك ومضى نحو ثلاث ساعات من اللّيل إذ أقبل (باغر) ومعه عشرة نفر من الأتراك وهم متلثمون والسيوف في أيديهم تبرق في ضوء تلك الشمع، فهجموا علينا، واقبلوا نحو المتوكل حتّى صعد باغر وآخر معه من الأتراك على السرير.

فصاح بهم الفتح: ويلكم، مولاكم.

فلمّا رآهم الغلمان ومن كان حاضراً من الجلساء والندماء، تطايروا على وجوههم، فلم يبق أحد في المجلس غير الفتح وهو يحاربهم ويمانعهم.

قال: فسمعت صيحة المتوكل وقد ضربه (باغر) بالسيف ـ الّذي كان المتوكل دفعه إليه ـ على جانبه الأيمن، فقدّه إلى خاصرته، ثمّ ثناه على جانبه الأيسر، ففعل مثل ذلك.

واقبل الفتح يمانعهم عنه فبعجه واحد منهم بالسيف الّذي كان معه في بطنه فأخرجه من متنه وهو صابر لا يتنحّى ولا يزوال.

---

١ ـ مروج الذهب للمسعودي / ج ٣ / ص ٣٥ ـ ٣٦.

قال: فما رأيت أحداً كان أقوى نفساً ولا أكرم منه، ثمّ طرح بنفسه على المتوكل، فماتا جميعاً.

فلفّا في البساط الّذي قتلا فيه وطرحا ناحية، فلم يزالا على حالتهما في ليلتهما وعامّة نهارهما حتّى استقرت الخلافة للمنتصر، فأمر بهما فدفنا جميعا.

وقد كان (بُغا) الصغير توحش من المتوكل، فكان المنتصر يجتذب قلوب الأتراك، وكان (أوتامش) غلام الواثق مع المنتصر.

فكان المتوكل يبغضه لذلك، وكان أوتامش يجتذب قلوب الأتراك إلى المنتصر.

وعبيدالله بن خاقان الوزير والفتح بن خاقان منحرفين عن المنتصر مائلين إلى المعتز، وكانا قد أوغرا قلب المتوكل على المنتصر، لا يبعد المتوكل أحداً من الأتراك إلّا اجتذبه، فاستمال قلوب الأتراك[1].

* * *

هكذا كان يتآمر الأتراك تآمراً دقيقاً، وكان باكورة أعمالهم انّهم قتلوا الخليفة المتوكل ونصبوا ابنه المنتصر.

فقد كانت قلوبهم مع المنتصر وكانوا يكرهون المتوكل.

وإذا علمنا انّ الأتراك دخلوا الساحة السياسية في الدولة العباسية عام ٢١٨هـ من قِبَل المعتصم، فكان لهم يوم قتلوا المتوكل ٢٩ عاماً، استطاعوا خلالها أن ينفذوا إلى أعلا المراتب في الدولة، بحيث استطاع أن يدخل عشرة أشخاص منهم ملثّمين على المتوكل، فيقتلونه ويهرب الحراس والندماء ومن كان حاضراً، في حين إنّ الفرس كان لهم من يوم تأسّست الدولة العباسية إلى يوم مجيء الأتراك عام ٢١٨هـ كان لهم ٩٠ عاماً، لم يحدِّثنا التاريخ انّهم كانوا يتآمرون فيها على الخليفة أو الدولة.

وإذا بدأنا بالحساب من يوم نشأت الدعوة عام ١٠٠هـ، يكون للفرس يومذاك ١١٨ عاماً.

---

١ ـ مروج الذهب للمسعودي / ج ٣ / ص ٣٨.

وليس سبب ذلك سوء تصرف هؤلاء وحُسن تصرّف أولئك فقط، وانّما لأنّ الخلفاء كما وجدنا في الفصل الأوّل، أصبحوا يتراكضون نحو الانحدار جيلاً بعد جيل، وخليفة بعد خليفة، ممّا شجع الأتراك على التمرّد والتآمر، وسوف يتشجّع البويهيون والسلاجقة والتتار على افتراس الصيد السمين (الغنيمة الباردة) الدولة العباسية.

* * *

الأتراك يجبرون الخليفة المنتصر على خلع أخويه

وتسارعت الأمور، وتسارع الأتراك في الاستيلاء على مقاليد الأمور.

وعندما جاء دور المنتصر كخليفة بعد قتل أبيه المتوكل، كان الغالب عليه (أوتامش التركي) وليس لأميرالمؤمنين عزّة وشرف وكبرياء، وليس هو الّذي يصرِّف أمور الدولة كما يشتهي ويشاء. فذلك كلّه لغيره ممّن يستولي عليه ويتغلّب.

أمّا الخليفة؟

فله الاسم، وله عدّة الخلافة فقط (القضيب والبردة والخاتم) وهذه العدّة لم تكن خالصة للخلفاء، فالمتغلّبون كانوا يتصرّفون بها أيضاً، يأخذونها ممّن يكرهون ويعطونها من يحبون.

ولقد رأينا كيف انّ الأتراك تآمروا على المتوكل وقتلوه وبايعوا المنتصر. وكان المتوكل قد بايع لأولاده الثلاثة، المنتصر والمعتز والمؤيد، فخشي أولئك الأتراك أن يموت المنتصر ويجيء المعتز والمؤيد فينتقمان منهم، ولذلك فانّهم عملوا على خلعهما ونجحوا.

يقول ابن العبري:

وفي سنة ٢٤٨هـ جدّ (وصيف وبغا) وباقي الأتراك في خلع المعتز والمؤيد وألحّوا على المنتصر وقالوا:

نخلعهما ونبايع لابنك عبدالوهاب، فلم يزالوا به حتّى أجابهم وخلعهما بالكره منه ومنهما، ثمّ دعاهما وقال لهما:

أترياني خلعتكما طمعاً في ان أعيش حتّى يكبر ولدي وأبايع له؟

والله ما طمعت في ذلك ساعة قط، ولكن هؤلاء (واومأ إلى سائر الموالي الأتراك ممّن هو قائم وقاعد) ألحّوا علي في خلعكما[1].

ويضيف ابن الأثير:

إنّ المعتز قال: ما كنت لأفعل (ويقصد الخلع) فإن أردتم القتل فشأنكم، فأعلموا المنتصر، ثمّ عادوا بغلظة وشدّة، وأخذوا المعتز بعنف وأدخلوه بيتاً واغلقوا عليه الباب.

فلمّا رأى المؤيد ذلك، قال لهم بجرأة واستطالة: ما هذا يا كلاب؟ قد ضربتم على دمائنا تثبون على مولاكم هذا الوثوب، دعوني وإيّاه حتّى أكلمه، فسكتوا عنه وأذنوا له في الاجتماع به بعد إذن من المنتصر بذلك.

فدخل عليه المؤيد وقال: يا جاهل! تراهم نالوا من أبيك ـ وهو هو ـ ما نالوا ثمّ تمتنع عليهم؟

إخلع، ويلك لا تراجعهم.

فقال: وكيف اخلع وقد جرى في الآفاق؟

فقال: هذا الأمر قتل أباك وهو يقتلك، وإن كان في سابق علم الله أن تلي لتلينّ.

فقال المعتز: افعل[2].

* * *

فالدولة أصبحت دولة الأتراك، وأصبح القصر قصرهم، هم المتنفّذون فيه وهم الّذين يرتّبون الخليفة وولي عهد الخليفة.

ولو شاء أحدهم ان يصبح خليفة لفعل، ولكنّه كان يخشى من العواقب، وكانت تقف أمامه حاجزاً مقولة (الأئمّة من قريش).

---

١ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ١٤٦.

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٦ / ص ١٤٧.

ولعلّ وضع الأتراك كان أفضل بكثير من وضع الخليفة الّذي كان عليه ان يتحمل كل السلبيات، في حين انّ الأتراك كان لهم الغنم دون الغرم، يفعلون ما يشاؤون.

والخليفة هو المسؤول الأوّل ـ نظرياً ـ وهو الّذي يتعرّض لسمل العيون وللقتل والخلع والتعذيب والإهانات وما إلى ذلك.

فالدولة العباسية، بدأت منذ مدّة طويلة بالانحدار، وكان الخلفاء في البداية هم الّذين يقودون دولتهم للانهيار، ثمّ دخل معهم عنصر آخر هو عنصر الأتراك الّذين استغلوا ضعف الخلفاء وانحلال الدولة، فبدأوا يسرعون بالدولة ذاتها إلى الهاوية.

وسوف يشاركهم في المستقبل البويهيون والسلاجقة، وأخيراً التتار.

ولو أوقفنا أولئك جميعاً أمام محكمة التاريخ ـ بعد سقوط بغداد ـ لكان المسؤول الأوّل هم الخلفاء أنفسهم، وكان الآخرون مشاركين ثانويين.

* * *

الأتراك يغتالون الخليفة المنتصر بالسم

والمنتصر هذا الّذي يُقال إنّه تعاون مع الأتراك في قتل أبيه، والّذي أجبره الأتراك على عزل أخويه (المعتز والمؤيد).

المنتصر هذا، يذكر التاريخ انّ الأتراك قتلوه أيضاً.

يقول صاحب كتاب شذرات الذهب:

وقيل إنّ أمراء الترك خافوه، فلمّا حُمّ دسّوا إلى طبيبه (ابن طيفور) ثلاثين ألف دينار، ففصده بريشة مسمومة... وقد أجمعوا على أنّ المنتصر بالله مات مسموماً، وكان سبب ذلك انّه رأى (باغر التركي) في حفدته الأتراك، فقال: قتلني الله إن لم أقتلكم جميعاً.

فبلغهم الخبر، فسمّوه في ريشة الفاصد، ومات وله من العمر خمس وعشرون سنة [1].

---

١ ـ شذرات الذهب / ج ٢ / ص ١١٨ ـ ١١٩.

فهنالك اجماع على انّ المنتصر مات مسموماً بدسيسة من الأتراك، لأنّه لم يكد يتحمّلهم خصوصاً وقد رأى (باغر التركي) يمشي في حفدته كأنّه ملك، فحلف أن يقتلهم جميعاً ولكنّهم سبقوه فقتلوه.

فالقوّة الفعلية للأتراك، والخليفة مأخوذ على يده، مقبوض على أمره، وليس له من إمارة المؤمنين عدا الاسم وعدا آلة الخلافة (البردة والقضيب والخاتم).

* * *

الأتراك يعقدون مؤتمراً
يفوّضون فيه ثلاثة منهم لاختيار الخليفة بعد المنتصر

وعندما تخلّص الأتراك من المنتصر وقتلوه، وكانوا قبل ذلك قد أكرهوه على عزل أخويه (المعتز والمؤيد) لئلّا ينتقما لأبيهما من الأتراك الّذين قتلوه.

فانّهم الآن، وبعد أن قتلوا المنتصر راودهم نفس الهاجس (الخشية من أولاد المتوكل).

يقول ابن الأثير:

لمّا توفي المنتصر اجتمع الموالي وفيها (بغا الكبير وبغا الصغير وأوتامش) وغيرهم فاستحلفوا قواد الأتراك والمغاربة والأشر وسنية على أن يرضوا بمن رضي به (بغا الكبير وبغا الصغير وأوتامش...) فحلفوا وتشاوروا وكرهوا ان يتولّى الخلافة أحد من ولد المتوكل لئلّا يغتالهم.

وأجمعوا على أحمد بن محمّد بن المعتصم (المستعين) وقالوا: لا تخرج الخلافة من ولد مولانا المعتصم، فبايعوه ليلة الإثنين لست خلون من ربيع الأوّل وهو ابن ثمان وعشرين سنة ويكنّى أبا العباس[1].

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٦ / ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

والأمور كانت تتطوّر لصالح الأتراك من جيل إلى جيل ومن خليفة إلى خليفة، فقد كانوا يقتلون الخليفة ثمّ يعينون خليفة آخر كما وجدنا في المتوكل والمنتصر.

ثمّ تطوّرت الأمـور بعد ذلك، فالناس كلّ الناس انّما يبايعون من يرضى به (بغا الكبير والصغير وأوتامش) وهذه منقبة تضاف للأتراك لم يكن لها سابقة من قبل...

والخلافة أصبحت واهية جدّاً، والخلفاء رضوا لأنفسهم الذلّ والمهانة، والخليفة أصبح يكتفي أن يقال له أمير المؤمنين لينعم بهذا الاسم ولو قليلاً.

والأمّة كلّها، بما فيهم الخليفة نفسه والعباسيون والأمراء والقوّاد كانوا يدركون انّ الأتراك الّذين جاء بهم المعتصم لنزوة في نفسه أصبحوا شؤماً عـليه وعـلى الّـذين جاؤوا من بعده.

فلن يبايع للخليفة إلّا إذا رضي أولئك الثلاثة من الأتراك، وكان في مقدور هؤلاء أن يضعوا الخلافة حيث يشاؤون.

ولذلك فقد كان الخلفاء الأذلّاء يخطبون ود الموالي الأتراك ليحضـوا بـ (القضيب والبردة والخاتم) ولكي يُطلق عليهم (أمير المؤمنين وخليفة رسول الله).

وبناء على ذلك فان (المستعين) كان أوّل عمل قام به هو أن يرد الجميل للأتراك الّذين نصبوه خليفة، فاستوزر أوتامش وجعل المتولي لأمر الوزارة والقيم بها كاتباً لأوتامش يقال له (شجاع بن القاسم)[١].

ولم يكن للمستعين أمر ونهي وانّما الأمر لبغا ووصيف، ولذلك فـقد قـال أحـد الشعراء:

خـليفة في قـفص ... بين وصـيف وبـغـا
يقـول مـا قـالا له ... كما تقـول البـبـغا[٢]

١ ـ مروج الذهب للمسعودي / ج ٤ / ص ٦٠.
٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٣٥٨.

المستعين يرد الجميل لـ (أوتامش) فيطلق يده في أموال المسلمين

ولعلّ المستعين أراد ان يشبع غرور (أوتامش) أو ربّما كان مكرهاً، فأطلق يده في الأموال. وهذا كان يثير وصيفاً وبغا، وهم وإن كانوا كلّهم أتراكاً، إلّا أنّ الحساسية كانت شديدة بينهم.

ولذلك فقد أخذ (وصيف وبغا) يغريان الموالي بـ(أوتامش).

وكانت الموالي تنظر إلى الأموال تؤخذ، وهم في ضيقة. فاجتمعت الأتراك والفراغنة عليه، وبلغه الخبر، فأراد الهرب، فلم يمكنه، واستجار بالمستعين، فلم يُجره.

فأقاموا على ذلك يومين، ثمّ دخلوا الجوسق وأخذوا (أوتامش) فقتلوه وقتلوا كاتبه (شجاع) ونهبت دور أوتامش، فأخذوا منه أموالاً جمّة وغير ذلك[1].

* * *

واختلف اللّصوص فيا بينهم ووقعت الفتنة

واثيرت الحساسية مرّة أخرى بين الأتراك أنفسهم، بين (باغر) ومَن معه من جانب وبين (بغا ووصيف) من جانب آخر.

وأحسّ (باغر) ومن معه بالشر، فجمع إليه الجماعة الّذين كانوا بايعوه على قتل المتوكل ومعهم غيرهم، فجدد العهد عليهم في قتل (المستعين وبغا ووصيف) وقالوا نبايع (علي بن المعتصم) أو (ابن الواثق) ويكون الأمر لنا كما هو لهذين، فأجابوه إلى ذلك.

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٦ / ص ١٥٤.

وانتهى الخبر إلى المستعين، فبعث إلى (بغا ووصيف) وقال لهما: أنتما جعلتماني خليفة[١] ثمّ تريدان قتلي.

فحلفا انّهما ما علما بذلك.

فأعلمهما الخبر، فاتّفق رأيهم على أخذ (باغر) ورجلين من الأتراك معه وحبسهم.

فأحضروا (باغر) فأقبل في عدّة، فعُدِلَ به إلى حمّام وحُبِسَ فيه.

وبلغ الخبر الأتراك، فوثبوا على اصطبل الخليفة فانتهبوه وركبوا فيه وحصروا الجوسق بالسلاح.

فأمر بغا ووصيف بقتل (باغر) فقتل[٢].

قتل (باغر) أثار الأتراك وحرّك الغوغاء

ولكن قتل (باغر التركي) لم يكن يسيراً على أتباعه من الأتراك، فاستمرّوا على شغبهم وثورتهم عندما بدأوها يوم كان معتقلاً.

والناس ـ عادة ـ مع الغوغاء، سواء كانت للحق أم للباطل، وتوسعت حركتهم وخشي المستعين على نفسه فانحدر إلى بغداد ومعه (بغا وووصيف وشاهك الخادم) فركب جماعة من قواد الأتراك إلى هؤلاء المشغبين، فسألوهم الانصراف فلم يفعلوا.

فلمّا علموا بانحدار المستعين وبغا ووصيف ندموا...

---

١ ـ لقد كان الخليفة أمير المؤمنين (المستعين) صادقاً عندما يقول (لوصيف وبغا) أنتما جعلتماني خليفة.
وكأنّه بذلك يستجدي عطفهما: إذا كنتما قد جعلتماني خليفة فلماذا تقتلانني؟
وتلك إهانة عظيمة يعترف بها الخليفة على نفسه.
وليته شعر بالعزّة والكرامة والأنفة، فيحاسبهما على ما يريدان أن يفعلاه.
وهذا يعطينا دليلاً على قوّة تأثير الأتراك في تعيين الخليفة وعزله، كما هو دليل واضح على ضعف الخليفة وشعوره بالحقارة والاستهانة بنفسه.

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٦ / ص ١٦٢.

ومنع الأتراكُ الناس من الانحدار إلى بغداد، وأخذوا ملّاحاً قد أكرى سفينة فضربوه وصلبوه.

فامتنع أصحاب السفن الإكراء.

ولمّا استقرّ المستعين ببغداد، أتاه جماعة من قواد الأتراك المشغبين، فدخلوا عليه، وألقوا أنفسهم بين يديه، وجعلوا مناطقهم في أعناقهم تذللاً وخضوعاً، وسألوه الصفح عنهم والرضا.

قال لهم:

ألم ترفعوا إلي في أولادكم، فألحقتهم بكم وهم نحو من ألفي غلام؟

وفي بناتكم، فأمرت بتصيرهن في عداد المتزوجات وهن نحو من أربعة آلاف[1]، وغير ذلك، كلّه أجبتكم وأدرت عليكم الأرزاق، فعملتم آنية الذهب والفضّة.

ومنعت نفسي لذّتها وشهوتها ارادة لصلاحكم ورضاكم، وأنتم تزدادون بغياً وفساداً.

فعادوا وتضرّعوا وسألوا العفو.

فقال المستعين: قد عفوت عنكم ورضيت.

فقال أحدهم:

فإن كنت قد رضيت، فقم فاركب معنا إلى سامرا، فانّ الأتراك ينتظرونك، فأمر محمّد بن عبدالله بعض أصحابه، فقام إليه فضربه.

وقال محمّد: هكذا يقال لأمير المؤمنين (قم فاركب معنا)؟

فضحك المستعين وقال:

---

١ ـ يقصد بذلك انّه ألحق أولاد الأتراك بآبائهم في إعطاء الرّزق، وكذلك في البنات، ممّا يظهر أن رزق المتزوّجات كان أكثر من اللّاتي لم يتزوّجن.

فالمستعين هنا يذكّرهم بفضله عليهم.

هؤلاء قوم عجم لا يعرفون حدود الكلام.

وقال لهم المستعين: ترجعون إلى سامراء، فإن أرزاقكم دارة عليكم، وأنظر أنا في أمري.

فانصرفوا آيسين منه، وأبغضهم ما كان من محمّد بن عبدالله، واخبروا مَن وراءهم خبرهم، وزادوا وحرّضوا تحريضاً لهم على خلعه.

❊ ❊ ❊

الأتراك يشغبون فيخلعون المستعين ويبايعون للمعتز

فاجتمع رأيهم (الأتراك) على اخراج المعتز من الحبس، وأخذوا من شعره، فكان قد كثر، وبايعوا له بالخلافة، وأمر للناس برزق عشرة أشهر للبيعة، فلم يتم المال، فأعطوا شهرين لقلّة المال عندهم.

وكان المستعين خلّف بيت المال في سامرا فيه نحو خمسمائة ألف دينار وفي بيت مال أمّ المستعين ألف ألف دينار وفي بيت مال العباس (ابن المستعين) قيمة ستمائة ألف دينار[1].

❊ ❊ ❊

نعم، للخليفة بيت مال.

ولأمّه وأخيه بيوت أموال.

هي أموال المسلمين قطعاً، جمعوها من المستضعفين بالقوّة والقهر.

أمّا الخليفة؟

فقد كان يجبي الأموال باسم المنصب (الخلافة عن رسول الله وإمرة المؤمنين).

وأمّا الأم والابن؟

فمن الاقطاعات الواسعة والنّهب والهدايا والرّشاوي.

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٦ / ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

والخليفة، أي خليفة كان، عندما يُبايع، يضع في حسبانه أنّه ربّما لا تطول مدّته، فيهتبل الفرص، لأنّها تمر مرّ السحاب، وآله وذووه كذلك.

انّهم يتخذون عبرة من الخلفاء الماضين الّذين لم تصفو لهم الحياة، حتّى أزيحوا.

وليتهم يأخذون العبرة في كل شيء.

لماذا في نهب الأموال فقط؟

كان عليهم ان يعتبروا في كل شيء، فيقلعوا عن الاسراف والتبذير وعن الجواري والغلمان وعن الملاهي والخصيان وعن الخمور والاستهتار بالاسلام والمسلمين.

وأن يستشعروا دوماً انّهم أصبحوا قادة للمسلمين فليحسنوا التصرّف مع الأمّة ليخشوا الله.

ولكن:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادى

فقد رضي الخلفاء أُولئك بالذلّة والمسكنة والخضوع والخنوع وانهمكوا في دنيا رخيصة زائلة ورضوا أن تكون نتيجتهم الخلع وسمل العيون والقتل والحبس والإهانة.

وإذا كانوا قد رضوا بتلك الإهانات، فليأخذوا نصيبهم منها وهم يستحقّون ذلك وأكثر.

ولكن الطامّة الكبرى انّهم كانوا يضربون الاسلام بالمعاول ويشجعون أصحاب الطموح والأطماع والعيارين والفساق على التخريب، فكانت الأمور تسرع بزخم شديد نحو الهاوية وهو الّذي حدث عام ٦٥٦هـ.

الأتراك يتسبّبون في معارك طاحنة بين بغداد وسامراء

ثمّ حدثت معركة دامية، بل معارك بين جيش بغداد وهم مناصرون للمستعين وجيش سامراء وهم مناصرون للمعتز.

وكان الأتراك مع جيش المعتز، وانتصروا في المعارك تلك وطلبوا من المستعين أن

يخلع نفسه، فامتنع من الإجابة إلى الخلع وظنّ ان (وصيفاً وبغا) معه، وأخيراً استجاب للخلع.

وكان سبب إجابته للخلع ان محمّد بن عبدالله وبغا ووصيفاً لما ناظروه في الخلع أغلظ عليهم.

فقال وصيف: أنتَ أمرتنا بقتل (باغر) فصرنا إلى ما نحن فيه وأنت أمرتنا بقتل (أوتامش) وقلت ان محمّداً ليس بناصح، وما زالوا يفزعونه وقال محمّد بن عبدالله ابن طاهر: وقد قلت لي: إن أمرنا لا يصلح إلّا باستراحتنا من هذين الاثنين.

فلمّا رأى (المستعين) ذلك أذعن بالخلع، وتمّ الأمر للمعتز فقال بعض الشعراء في خلع المستعين:

خلع الخليفة أحمد بن محمّد وسيُقتل التالي له أو يُخلعُ
ويزول ملك بني أبيه ولا يُرى أحد تملّكَ منهم يستمتع
إيهاً بني العباس إن سبيلكم في قتل أعبدكم سبيل مهيع
رقّعتم دنياكم فتمزّقت بكم الحياة تمزقاً لا يُرقع[1]

فلمّا بايع المستعين للمعتز، وجّهه إلى البصرة ومنها إلى واسط، وتقدّم بقتله، فقتل وحمل رأسه إلى المعتز وهو يلعب بالشطرنج.

فقال: ضعوه حتّى أفرغ من الدست.

فلمّا فرغ، نظر إليه وأمر بدفنه وأمر لسعيد (الحاجب) الّذي باشر قتله ألف درهم وولّاه معونة البصرة[2].

خلع المستعين نفسه مكرهاً، ثمّ قتل، والّذي يأتي من بعده سوف يرى نفس الحالة، الخلع أو القتل أو كليهما، وأتعس ممّا رأى السابق.

ولقد وجد القارئ معنا ان أيّ خليفة لم يستمتع في حياته وخلافته وإمرته

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٦ / ص ١٨٣.
٢ ـ المصدر السابق / ص ١٨٦.

للمؤمنين رغم انّه كان يحمل أدوات الخلافة (القضيب والبردة والخاتم) إذ سرعان ما تُؤخذ هذه منه لتُعطى إلى غيره موقّتاً ريثما تؤخذ منه لتعطى إلى غيره وهكذا...

والشاعر هنا يخاطب بني العباس: انّ سبيلكم الوحيد في الاستمتاع بالحياة هي القضاء على مواليكم الأتراك، وهو طريق واضح لا شائبة فيه، وإلّا فانّ حياتكم ممزّقة وسوف لن ترقّع أبداً.

والعجيب إنّ المؤرّخين عندما يؤرّخون لخليفةٍ ما، يذكرون عنه انّه كان موصوفاً بالأدب والحكمة والخلق الطيّب والنّبل والشهامة والشجاعة والحزم والكرم وقوّة الرأي وشدّة البصيرة والاطلاع الواسع على سنن الماضين.

ولكنّنا في النتيجة نراه ضعيفاً أمام الأتراك، يتلقّى منهم الإهانات والصفعات على وجهه وظهره ورضّ الخصيتين والحبس في الحمّام والتجصيص عليه وسمل العيون وما إلى ذلك.

وإذا قلنا ان أحدهم قد غلبته التقادير والحسابات، فلماذا لا يعتبر الّذي يأتي مِن بعده؟ فيكون حازماً حقّاً فيثأر لكرامته؟

إلّا انّهم مُسِخوا عن كرامة الانسان، وانصرفوا لملاذهم في الخصيان والنسوان وشرب الخمور وفعل المنكرات الّتي لا تليق بالانسان المسلم فضلاً عمّن يدّعي لنفسه انّه (خليفة رسول الله وأمير المؤمنين) ويمتلك ناصية الرِّياسة والخلافة، فانتقم الله منهم، فكانت نتيجتهم هذه الّتي قرأناها، وهي نتيجة حتمية لمن يسلك طريقهم ويبتعد عن الله.

ولو أساء أولئك الخلفاء الأدعياء لأنفسهم فقط، لكان الأمر هيّناً، ولكنّهم أساؤوا إلى مسيرة الاسلام ومسيرة الانسان في الأرض وشجّعوا الأمّة على ارتكاب الرذائل والابتعاد عن الفضائل.

وكلّ تلك التصرّفات كانت لابدّ أن تؤتي أكلها عام ٦٥٦هـ فيأتي قوم آخرون لهم طبائع هي من سنخ طبائع أدعياء الخلافة فيقضون عليهم ويصبحون عبرة تأريخية لمن أراد أن يعتبر.

الخلفاء أوّلاً ثمّ الأتراك كانوا شركاء في تمزّق الدولة

فالمماليك الأتراك الّذين جاء بهم المعتصم، قلنا عدّة مرّات انّهم كانوا شؤماً عليه وعلى من جاء من بعده، ينصبون من يشاؤون خليفة ويؤدون له واجب الاحترام ويقبلون يديه ورجليه، ثمّ يضربونه بالدبابيس ويوقفونه على رجليه في الشمس ويمنعون عنه الطعام والشراب حتّى يموت.

ويتصرفون بالدولة تصرف الملوك، حتّى لقد أصبحوا يولّون عمال الأطراف، كما حدث لأحمد بن طولون في مصر، وهكذا...

وهم كما يقول المؤرخون عنهم، كانوا يستخلفون من أحبّوه، من غير ديانة منهم ولا نظر للمسلمين.

ألم يكن هذا دخيلاً في سقوط بغداد؟

بل في الواقع إن بغداد كانت ساقطة فعلاً والحاكم الحقيقي هو غير الخليفة.

فأي فرق بين (بغا الكبير وبغا الصغير وأوتامش ووصيف وأمثالهم) الّذين كانوا يتصرفون في الأمّة وفي الدولة كصاحب البيت الّذي يتصرّف ببيته.

ما الفرق بينهم وبين هولاكو؟

فاذا كان هولاكو قد قتل الخليفة المستعصم، فان هؤلاء قتلوا أو ساهموا في قتل أكثر من عشرة خلفاء.

وإذا كان هولاكو قد أعمل القتل والفتك في بغداد، فإنّ هؤلاء والعيّارين وأصحاب الأهواء أفسدوا الدولة بأسرها حتّى لم يعد يحكم الخليفة إلّا داخل جدران قصره.

وحتّى القصر المنيف الّذي كان يسكنه، كان أولئك يدخلون عليه أحياناً ويقتلونه وهو متربّع على دست الخلافة.

لماذا يتناسى المؤرِّخون تلك المآسي

فلماذا لا يذكر المؤرِّخون ذلك؟

ولماذا ينسونه أو يتناسونه؟

إنّ سوء سلوك الخليفة نفسه في شربه للخمور واللّواطة والزّنا والمغنيات والعيّارين والبطانة السيّئة والأهواء والمظالم، ان ذلك كلّه ساهم في سقوط الدولة.

ونعيد فنقول:

انّه ليس من الأمانة في شيء، أن يتغافل المؤرِّخ عن كل الأسباب الّتي ساهمت في السقوط.

وإذا كانت الأسباب عشرة، فلماذا يتغافل عن تسعة منها ويركّز على العاشر فقط؟

ولكنّها الأحقاد والأهواء والطائفية والعنصرية ومداراة السلطان، وأخيراً فانّ الضحيّة هي الحقيقة.

* * *

الخلفاء العبّاسيّون
تسبّبوا في تمزيق الدولة وتقسيمها إلى ولايات

ولسوء تدبير الخلفاء، تمزّقت الدولة وتهرّأت وتقسّمت، وتضيّقت حدود الدولة العباسية في تلك الأيّام الّتي كانت تحدّدها المنابر التي يُدعى فيها للخليفة.

ولكن هذه المنابر تقلّصت، وبدأت تستقل في دعواتها ضمن المنطقة التي يسيطر عليها أحد الأمراء.

وأمراء المؤمنين أصبحوا في وقت من الأوقات ثلاثة في بغداد ومصر والأندلس، كلّهم يدّعون خلافة رسول الله ﷺ، لأن هذا اللقب كان أكبر الألقاب في تلك

العصـور، ولو كان هناك لقب أكبر منه لاتخذه أولئك ليتحكّموا فيه بـرقاب الأمّـة المرحومة.

ولنستمع إلى ابن خلدون، ماذا يقول بهذا الصدد:

كان بنو العباس حين ولوا الخلافة قد امتدت ايالتهم على جميع ممالك الاسلام كما كان بنو أميّة من قبلهم.

ثمّ لحق بالأندلس من بني أميّة من ولد هشام بن عبدالملك، فأجاز البحر ودخل الأندلس، فلكها من يد عبدالرّحمٰن بن يوسف الفهري، وخطب للسفاح فيها حولاً ثمّ لحق به أهل بيته من المشرق فعزلوه في ذلك[1] فقطع الدعوة عنهم، وبقيت بلاد الأندلس مقتطعة من الدولة الاسلامية عن بني العباس.

ثمّ لمّا كانت وقعة فخ أيّام الهادي وقتل داعيتهم حسين بن علي بن حسن المثنى وجماعة من أهل بيته ونجا آخرون، وخلص منهم إدريس بن عبدالله بن حسن إلى المغرب الأقصى وقام بدعوته البرابرة هـنالك، فـاقتطع المـغرب عـن بـني العـباس فاستحدثوا هنالك دولة لأنفسهم.

ثمّ ضعفت الدولة العباسية بعد الاستفحال وتغلّبَ عـلى الخـليفة فـيها الأوليـاء والقرابة والمصطنعون من حين قتل المتوكل وحدثت الفتن ببغداد، وصار العلوية إلى النواحي مظهرين لدعوتهم.

فدعا أبو عبدالله الشيعي سنة ست وثمانين ومائتين بأفريقية لعبيدالله المهدي ابن محمّد بن جعفر بن محمّد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وبايع له وانتزع أفريقية من يد بني الأغلب، استولى عليها وعلى المغرب الأقصى ومصر والشام واقتطعوا سائر هذه الأعمال عن بني العباس واستحدثوا له دولة أقامت مائتين وسبعين سنة كما يذكر في أخبارهم.

ثمّ ظهر بطبرستان من العلوية الحسن بن زيد بن محمّد بن إسماعيل بن الحسن ابن

---

١ ـ أي جعلوه في معزل عن الخلافة العباسية.

زيد بن الحسن السبط، ويعرف بالداعي خرج سنة خمسين ومائتين أيّام المستعين ولحق بالديلم فأسلموا على يديه وملكِ طبرستان ونواحيها وصار هنالك دولة أخذها من يد أخيه سنة إحدى وثلاثمائة، الأطروش من بني الحسين.

وظهر باليمن الرئيس وهو ابن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن حسن المثنى فأظهر هنالك دعوة الزيدية، وملك صعدة وصنعاء وبلاد اليمن، وكانت لهم هنالك دولة ولم تزل حتّى الآن[1].

ثمّ ظهرت فتنة صاحب الزنج، فكانت له ولبنيه دولة بنواحي البصرة أيّام الفتنة، قام بها الزنج إلى أن انقرضت على يد المعتضد أيّام السبعين ومائتين.

وفي خلال هذا كلّه تضايق نطاق الدولة العباسية إلى نواحي السواد والجزيرة فقط إلّا انّهم قائمون ببغداد على أمرهم.

ثمّ كانت للديلم دولة أخرى استولوا فيها على النواحي وملكوا الأعمال ثمّ ساروا إلى بغداد وملكوها وصيروا الخليفة في مملكتهم عن لدن المستكفي أعوام الثلاثين والثلاثمائة، وكانت من أعظم الدول.

ثمّ أخذها من أيديهم السلجوقية من الغز إحدى شعوب الترك، فلم تزل دولتهم من لدن القائم سنة أربعين وأربعمائة إلى آخر المائة السادسة، وكانت دولتهم من أعظم الدول في العالم.

ثمّ استبدّ الخلفاء من بني العباس آخراً في هذا النطاق الضيّق ما بين دجلة والفرات وأعمال السّواد وبعض أعمال فارس، إلى أن خرج التتار من مفازة الصين وزحفوا إلى الدولة السلجوقية وهم (أي التتار) على دين المجوسية، وزحفوا إلى بغداد فقتلوا الخليفة المستعصم وانقرض أمر الخلافة، وذلك سنة ست وخسمين وستمائة ثمّ أسلموا بعد ذلك وكانت لهم دولة عظيمة[2].

---

١ ـ ابن خلدون توفي عام ٨٠٨هـ.

٢ ـ تاريخ ابن خلدون / ج ٣ / ص ٢٨٠ ـ ٢٨٢.

اللّصوص والعيّارون يملأون كل فراغ

وحيث انّ اللّصوص والعيارين، كانت لهم سوق رائجة في تلك الأيّام، وكانت لهم سطوة ربّما يقتلون الخلفاء والأمراء، فانّ الخلفاء بدورهم كانوا يدارونهم ويتقربون إليهم تخلّصاً من شرّهم أو للاستفادة من قوّتهم.

فانّ الخليفة أمير المؤمنين (المستعين بالله) فرض فرضاً للعيّارين وجعل عليهم عريفاً اسمه (يبنويه) وعمل لهم تراساً من البواري المقيّرة وأعطاهم المخالي[1] ليجعلوا فيها الحجارة للرمي[2].

وهكذا... فانّ الخليفة عندما يهبط خلقياً أوّلاً ثمّ يهبط في تدبيره يتشبّث باللصوص والعيارين والقتلة وغيرهم ليتغلّب على عدوّة.

ولكن هيهات فانّ الداء هو الداء، وكلّما لجأوا إلى أمثال أولئك، ازدادوا حاجة للجوء إلى غيرهم وهكذا...

❊ ❊ ❊

الأتراك يثيرون فتنة مع المغاربة

ولم تنقضِ الفتن الّتي كان يثيرها الأتراك، ففي كل يوم لهم فتنة ومع كل خليفة وأمير لهم فتنة.

ففي مستهلّ عام ٢٥٢هـ كانت لهم فتنة ببغداد مع المغاربة الّذين كانوا قد غلبوا الأتراك على الجوسق (القصر) وأخرجوهم منه وقالوا لهم: كل يوم تقتلون خليفة وتخلعون آخر وتعملون وزيراً.

وصار الجوسق وبيت المال في أيدي المغاربة وأخذوا الدواب الّتي كان تركها

---

١ ـ المخالي جمع مخلاة: تشبه ما يستعمله الفلسطينيون ضدّ الصهاينة في ضربهم بالحجارة.

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٦ / ص ١٦٧.

الأتراك فاجتمع الأتراك وأرسلوا إلى من بالكرخ والدور منهم فاجتمعوا وتلاقوا هم والمغاربة، وأعان الغوغاء والشاكرية المغاربة فضعف الأتراك وانقادوا[١].

وتدنّت الأمور إلى مستوى متدنٍ جدّاً، فقد كان للشاكرية (وهم عمّال البناء) قوّة يخيفون بها الخليفة وأعوان الخليفة، وكذلك الغوغاء، فقد كانوا جيشاً غير منظم، وكان سلاح أولئك البواري المقيّرة والمخالي.

والخليفة أمير المؤمنين في كل ذلك ملتفع بالبردة وبيده القضيب وفي جيبه الخاتم، وهي تمثّل أدوات الخلافة، فكأنّ مَن يحوزها فقد حاز الخلافة حقّاً، ثمّ بعد ذلك يُضرَب على رأسه أو تُسمَل عينه، ويُقتَل ليعطي هذه الأدوات لغيره صاغراً، ثم يثور أولئك الغوغاء أنفسهم والجنود على الخليفة الجديد لأنّه أخّر أرزاقهم وهكذا...

ثمّ يأتي المؤرّخون فيتباكون على الدولة الساقطة على يد هولاكو، ولكنّهم لا يتعرّضون لما كان يفعله الخلفاء أنفسهم من تفاهات.

تجدّد المعارك بين الأتراك أنفسهم

وليس دائماً تكون معارك الأتراك مع أقوام أخرى، فلربّما تكون فيما بينهم أيضاً ففي عام ٢٥٣هـ، شغبوا على الخليفة المعتز وطلبوا أرزاقهم لأربعة أشهر، فخرج إليهم بغا ووصيف وسيما (وكلّهم أتراك).

فكلمهم وصيف، فقال لهم: خذوا التراب ليس عندنا مال[٢].

وقال بغا: نعم، نسأل أمير المؤمنين ونتناظر في دار أشناس.

فدخلوا دار أشناس، ومضى سيما وبغا إلى المعتز، وبقي وصيف في أيديهم.

---

١ ـ الكامل لأبن الأثير / ج ٦ / ص ١٨٦.

٢ ـ «ليس عندنا مال» كلمة لها مدلول عميق، فوصيف يعتقد أنّ المال ماله سواء كان تحت تصرّفه أو تحت تصرّف الخليفة، وهو عندما يقول (ليس عندنا مال) فانّما يتكلّم مِن موقع الحاكم الّذي يمتلك خزائن الدولة.

فوثب عليه بعضهم، فضربه بالسّيف، ووجأه آخر بسكّين، ثمّ ضربوه بالطبرزنيات حتّى قتلوه، وأخذوا رأسه ونصبوه على محراك تنور.

وجعل المعتز ما كان إلى وصيف، إلى بغا الشرابي، وهو بغا الصغير وألبسه التاج والوشاحين[١].

❊ ❊ ❊

والتاج والوشاحان يشبهان إلى حدٍّ ما (القضيب والبردة والخاتم) فتلك رموز السلطان الأكبر وهذه رموز الخليفة الأعظم.

ولكنّها كلّها هباء في هباء وخداع في خداع، فسرعان ما تؤخذ هذه الشعارات عنوة فتعطى لشخص آخر، ليبدأ هذا فصلاً جديداً لا يخلو من ضحك على الذقون بل ضحك من الانسان على نفسه، لأنّه يعلم أنّ هذه لا تمنحه حصانة ولا مهابة.

فالصفعات قد يتلقّاها وهو متلبّس بها ولا يستطيع ان يتفاداها.

وكأنّ الخليفة لابدّ له ان يعتمد على أحد القواد الأتراك، إذا ذهب واحد منهم يأتي تركي جديد.

وهي حالة تشبه الطريقة الّتي يستعملها المستعمرون الآن، حين يفرضون على الملك أو الرئيس شخصاً لوزارة الداخلية أو الدفاع أو أي منصب آخر.

وواضح جدّاً أنّ الأتراك كانوا من القوّة بحيث لا يستطيع الخليفة أن يمتنع، وإلّا فانّ التعذيب والقتل أمامه، ثمّ يأخذون منه (القضيب والبردة والخاتم) ويعطونها إلى غيره، وهكذا...

فالخليفة في الواقع أصبح موظّفاً لدى الأتراك، ليس له أن يتجاوز الخطوط الحمراء الّتي رسمت له، فإذا ما أراد أن يستقل برأيه ويتجاوز تلك الخطوط فانّ مصيره معلوم.

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٦ / ص ١٨٩.

ولا نستبعد انّ الخلفاء أو بعضهم كانوا يشعرون بالذل ويتمنّون لو يستطيعون أن يخرجوا من الشرنقة الّتي نصبها الأتراك حولهم، كما فعل المعتز بالقائد (بغا الشرابي) الّذي كان قد ألبسه تاجاً ووشاحين، فانّ بغا كان قد تكبّر وتجبّر واستعلى واستولى على كل شيء.

واستطاع المعتز في غفلة ان يأمر بقتله، فقتل وحمل رأسه إلى المعتز ونصب بسامراء وبغداد. وأحرقت المغاربة جسده[1].

ولكنّه تخلّص من تركي واحد، فما يفعل للآخرين؟ وقد قلنا سابقاً أنّ الأتراك إذا ذهب منهم واحد، يأتي آخرون وهكذا...

وهو الّذي حصل بالفعل مع المعتز نفسه الّذي كان قد تصوّر انّه قادر على مجابهة الأتراك.

المعتز يخلع نفسه بعد تعذيب شديد

في عام ٢٥٥هـ خلع المعتز نفسه من الخلافة.

وكان سبب ذلك، انّ الأتراك ساروا إلى المعتز يطلبون أرزاقهم وقالوا:

أعطنا أرزاقنا حتّى نقتل (صالح بن وصيف).

فلم يكن عنده ما يعطيهم.

فنزلوا معه إلى خمسين ألف دينار، فأرسل المعتز إلى أمّه يسألها أن تعطيه مالاً ليعطيهم فأرسلت إليه ما عندي شيء.

فلمّا رأى الأتراك انّهم لا يحصل لهم من المعتز شيء ولا من أمّه وليس في بيت المال شيء، اتفقت كلمتهم على خلع المعتز، فساروا إليه وصاحوا، فدخل إليه صالح ومحمّد ابن بغا المعروف بأبي نصر وبايكباك في السلاح.

فجلسوا على باب داره وبعثوا إليه أن أخرج إلينا.

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج٦ / ص ١٩٤.

فقال: قد شربت أمس دواء وقد أفرط فيّ العمل، فإن كان أمر لا بدّ فيه فليدخل بعضكم، وهو يظن ان أمره واقف على حاله.

فدخل إليه جماعة منهم، فجرّوه برجله إلى باب الحجرة، وضربوه بالدبابيس، وخرّقوا قميصه، وأقاموه في الشمس في الدار، فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدّة الحرّ.

وكان بعضهم يلطمه وهو يتّقي بيده[1].

ويبكي ويقول له الضارب اخلعها، والناس مجتمعون.

ثمّ ادخلوه حجرة مضيقاً عليه فيها، وما زالوا عليه بأنواع العذاب حتّى خلع نفسه من الخلافة وولّى بعده (المهتدي بالله).

ثمّ سلّموه إلى مَن يسومه سوء العذاب بأنواع المثلات، ومنع من الطّعام والشراب ثلاثة أيّام حتّى جعل يطلب شربة من ماء البئر فلم يُسقَ.

ثمّ أدخلوه سرداباً فيه جص جير، فدسّوه فيه فأصبح ميتاً، فاستلوه من الجص سليم الجسد وأشهدوا عليه جماعة من الأعيان أنّه مات وليس به أثر[2].

أمّا المسعودي فيذكر في خلع المعتز:

انّه لمّا رأى الأتراك إقدام المعتز على قتل رؤوسهم وإعمال الحيلة في فنائهم، وانّه قد اصطنع المغاربة والفراغنة دونهم، صاروا إليه بأجمعهم وجعلوا يقرعونه بذنوبه ويوبخونه على أفعاله وطالبوه بالأموال، ثمّ خلعوه[3].

وبويع للمهتدي الّذي سوف يخلعه الأتراك وهكذا...

* * *

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٦ / ص ٢٠٠.

٢ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١١ / ص ٢١.

٣ ـ مروج الذهب / ج ٤ / ص ٢٠٢.

أرأيتم كيف صنع الأتراك بأمير المؤمنين المعتز؟

يا سوأة الخلافة هذه، ويا بئس الخليفة هذا.

يجرّونه برجله ويخرقون ثيابه ويقيمونه في الشمس، فيرفع رجلاً ويضع أخرى من شدّة الحرّ ويلطم على وجهه، وفي بعض التواريخ انّهم كانوا يبصقون في وجهه أيضاً، ويمنع من الطّعام والشراب ثلاثة أيّام حتّى يطلب شربة من ماء البئر فلم يُسق، ثمّ يؤمر بالخلع فيخلع نفسه.

وأخيراً يوضع في الجص، فيُقضى عليه، ويشهد الفقهاء والأعيان ـ كعادتهم ـ انّه مات موتاً طبيعياً وليس فيه أثر للإعتداء.

هكذا كان يفعل الأتراك بالخلفاء، ولم يكن قد مضى عليهم من يوم المعتصم أكثر من ٣٥ عاماً، فلقد تحكّموا بالخلافة وبالدولة وبالأمّة بأسوأ ما يمكن من الأفعال الشنيعة، ولم يكن يردعهم (القضيب والبردة والخاتم).

وإذا تتابع القارئ معي، فسوف يجد تطوراً هائلاً في أفعال الأتراك بالبلاد جرّ عليها الويلات والخراب والفساد، وهو ما شجّع قوى أخرى في خارج البلاد وأطمعها في الإمساك برقاب الخلفاء والاستحواذ على كل صغيرة وكبيرة.

وسوف نرى البويهيين والسلاجقة يتسابقون للفريسة المتردية والمنخنقة (الدولة العباسية).

وأخيراً سوف نرى قوماً ليسوا من المسلمين، هم التتار يقضون على كل شيء، وينتهي على أيديهم عصر الخلفاء الّذين ظلموا أنفسهم كما ظلموا الأمّة، فسلّط الله عليهم غيرهم ليكونوا عبرة لمن أراد أن يعتبر.

❊ ❊ ❊

المهتدي بايعه الأتراك خليفة ثمّ عصروا خصيتيه وخلعوه

وعندما جاء دور المهتدي، كان الغالب عليه اثنان من الأتراك، (صالح بن وصيف وبايكبال) وسلبه الأتراك إرادته، فأراد ان يثأر لكرامته، فكتب كتاباً إلى موسى ابن

بغا، أن يسلِّم العسكر إلى (بايكبال) والرجوع إليه.

وكتب إلى (بايكبال) أن يتسلّم العسكر ويقتل (موسى بن بغا).

وكان يظنّ انّه سوف يتخلص منهما معاً، ولكنّهما لم تنطل عليهما هذه الحيلة، فقد اطّلعا على الحيلة واتفقا على قتله.

ودخل (بايكبال) إلى المهتدي، فحبسه المهتدي وقتله، وركب لقتال موسى، ففارقت الأتراك الّذين مع المهتدي عسكر المهتدي وصاروا مع موسى بن بغا[١].

وقيل قتل من الأتراك نحو أربعة آلاف وقيل ألفان وقيل ألف.

قتل من أصحاب المهتدي خلق كثير، وولّى منهزماً وبيده السيف، وهو ينادي: يا معشر المسلمين! أنا أمير المؤمنين، قاتلوا عن خليفتكم، فلم يجبه أحد من العامّة إلى ذلك.

فسار إلى باب السجن فأطلق من فيه[٢] وهو يظن انّهم يعينونه، فهربوا ولم يعنه أحد.

فسار إلى دار أحمد بن جميل صاحب الشرطة، فدخلها وهم في أثره، فدخلوا عليه وأخرجوه وساروا به إلى الجوسق على بغل، فحبس عند أحمد بن خاقان، وقبل المهتدي يده فيما قيل مراراً عديدة[٣] وجرى بينهم وبينه ـ وهو محبوس ـ كلام كثير أرادوه فيه على الخلع، فأبى، واستسلم للقتل.

---

١ ـ تاريخ ابن الوردي / ج ١ / ص ٢٢٥.

٢ ـ لقد كان المهتدي أحمق جدّاً عندما فتح السجون، فالسجناء إنّما دخلوا السجن بأمر من المهتدي نفسه، وليس من المعقول أن يتعاطف معه السجناء ويحملوا السيف ليحاربوا أعداءه في حين أنّ الخليفة عدوّهم وهو الّذي سجنهم.

والّذي يلجأ إلى السجن فيفتحه إنّما هو المعارض لسلطة الحاكم لا الحاكم نفسه والسجناء معارضون للخليفة سواء كان مسجونين ظلماً وتعسّفاً أو استحقاقاً.

ويبدو أنّ السجناء كانوا من الكثرة بحيث يحاول أن يستنجد بهم خليفتهم المهزوم.

٣ ـ كم كان المهتدي بائس الحظ عندما يقبل يدي صاحب الشرطة وهو الخليفة.

فقالوا: انّه كتب بخطه رقعة لموسى بن بغا وبايكبال وجماعة من القواد انّه لا يغدر بهم ولا يغتالهم ولا يفتك بهم ولا يهمّ بذلك، وانّه متى فعل ذلك، فهم في حلٍّ من بيعته والأمر إليهم يُقعدون من شاؤوا.

فاستحلّوا بذلك نقض أمره، فداسوا خصيتيه وصفعوه وشهدوا على موته[١] انّه سليم ليس به أثر[٢].

وقيل انّهم رأوا المهتدي بدار أحمد بن جميل، قاتلهم، فأخرجوه وكان به أثر طعنة، فلمّا رأى الجرح ألقى بيده اليهم، أرادوه على الخلع، فأبى أن يجيبهم. فمات يوم الأربعاء وأظهروه للناس يوم الخميس... وكانوا قد خلعوا أصابع يديه من كفيه ورجليه من كعبيه حتّى ورمت كفاه وقدماه، وفعلوا به غير شيء[٣] حتّى مات، وطلبوا محمّد بن بغا، فوجدوه ميتاً فكسروا على قبره ألف سيف[٤].

أمّا صاحب كتاب البداية والنهاية فيصف المشهد الأخير من حياة الخليفة المهتدي: انّهم كانوا يصفعونه ويبزقون في وجهه، وسلّموه إلى رجل فلم يزل يجأ خصيتيه ويطأهما حتّى مات[٥].

وهنا فقد ابتكر الأتراك اسلوباً جديداً في التعذيب، هو عصر الخصيتين الكريمتين للخليفة المهتدي، وهو اسلوب جيد لمن يريد أن يأتي بالشهود على سلامة الميت من الاعتداء.

---

١ ـ طريقة الاشهاد، استعملها قبلهم هارون الرشيد، عندما سمّ الإمام موسى بن جعفر، ثمّ اشهد القضاة انّه مات موتاً طبيعياً، ثمّ تبعه الخلفاء من بعده على هذه الطريقة، وكذلك استعملها الّذين يقتلون الخلفاء، ولكن الواقع، لا الخليفة كان عادلاً في ذلك ولا القضاة ولا الفقهاء ولا الشهود. والكل يعرف الكل انّهم يشهدون على الباطل.

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٦ / ص ٢٢١.

٣ ـ ما المقصود من كلمة (وفعلوا به غير شيء)؟ ربّما كان أمراً تعفّف ابن الأثير عن ذكره.

٤ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٦ / ص ٢٢١.

٥ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١١ / ص ٢٨.

والمهتدي الّذي يعتبره المؤرخون في بني العباس كعمر بن عبدالعزيز في بني أميّة في الزُّهد والورع والاجتناب عن المحارم، نجده ينادي: قاتلوا عن خليفتكم ولكن لم يجبه أحد.

فالغوغاء لا يمكن السيطرة عليهم بسهولة إذا ثاروا، خصوصاً إذا كان في ذلك نهب وسلب، اضافة إلى انّ العامّة كانوا قد عايشوا قبل المهتدي خلفاء آخرين سلبهم الأتراك حياتهم وأموالهم، فلم تبق لهم حرمة ومنزلة لديهم.

* * *

الخليفة القاهر بالله كان مقهوراً بالأتراك خلعوه وسملوا عينيه

في عام ٣٢١هـ حصلت وحشة بين القاهر بالله وبين مؤنس التركي. أقام مؤنس (يلبق) حاجباً للخليفة[١] وجعل أمر الخلافة إليه، فضيّق على القاهر، ومنع دخول امرأة إلى دار الخلافة حتّى يعرف من هي.

فانّ القاهر كان قد استمال جماعة في الباطن (في السر) في أوّل شعبان من سنة ٣٢١هـ للقبض على (يلبق ومؤنس) واتفق معه الساجية وطريف السنكري أكبر القوّاد.

وحضر ابن يلبق وأظهر انّه يريد الاجتماع بالخليفة بسبب القرامطة، وقصده القبض على القاهر، ولم يعلم ابن يلبق بما رتّبه له القاهر، دخل فقبض عليه القاهر في دار الخلافة، وبلغ أباه ذلك، وكان مريضاً، فحضر إلى دار الخلافة بسبب ذلك فقبض عليه أيضاً.

ثمّ استدعى القاهر مؤنساً فامتنع، فحلف له ان قصده منه الكشف عن مال يلبق وابنه، فان صحّ ما بلغه عنهما وإلّا أطلقهما.

---

١ ـ الحاجب ـ عادة ـ يعينه المحجوب له، وهو هنا الخليفة، ولكن الأتراك الّذين كانوا يعينون الخلفاء ويعزلونهم، كان يسيراً عليهم أن يعينوا لهم الحجّاب.

فحضر مؤنس فقبض عليه أيضاً...

وشغب أصحاب مؤنس وكانوا أكثر العسكر، وثاروا بسبب حبس مؤنس وطلبوا اطلاقه، فذبح ابن يلبق ووضع رأسه في طست.

وكان قد حبسهم متفرّقين، ثمّ احضر الرأس في الطست إلى أبيه، فـجعل يـلبق يبكي ويرسف الرأس. ثمّ قتله القاهر وجعل رأسه مع رأس ابنه، واحـضرهما إلى مؤنس، فتشهد مؤنس ولعن قاتلهما، فقتله أيضاً.

وطيف بالرؤوس الثلاثة في بغداد[1].

وفي سنة ٣٢٢هـ خلع القاهر لغدره بطريف السنكري وحنثه في اليمين بـالأمان للّذين قتلهم.

فاستوحش القواد منه وحضروا إليه وقد بات يشرب أكثر ليلته، وأحدقوا بالدار، فاستيقظ مخموراً، فهرب إلى سطح حمـام، فـتبعوه واحـضروه إلى حـبس طـريف السنكري، فحبسوه مكان طريف وسملوا عينيه[2].

❊ ❊ ❊

لا نستغرب أبداً ان ينكث أمير المؤمنـين القاهر عهده وأيمـانه المـغلّظة، فـالّذي لا يخشى الله ويشرب الخمر يفعل كل محرم.

ولقد دأب الخلفاء من قبله على ذلك حتّى تعوّد الناس انّهم لا يثقون بعهد الخليفة وأيمانه، وتلك كارثة كبرى حين لا تثق الأمّة بعهد خلفائها.

وهي مأساة المسـلمين عندما يسـيطر عليهم أمثال أولئك الّذين يحكمون بـاسم الخلافة عن رسول الله ولكنّهم يخالفون رسول الله ويتّبعون الشيطان في كل رذيلة.

---

١ ـ تاريخ ابن الوردي / ج ١ / ص ٢٥٤.

٢ ـ المصدر السابق / ص ٢٥٦.

الخليفة المتقي
آخر خليفة عباسي تُسمل عيناه من قبل الأتراك

أمّا الخليفة المتقي، فلقد قبض عليه قائده التركي (توزون) وسمل عينيه، فصاح المتقي وصاح النِّساء والخدم لصياحه، فأمر توزون بضرب الدبادب حول المضرب فخفي صراخ الخدم وادخل إلى الحضرة مسمول العينين، وأخذ منه البردة والقضيب والخاتم وسلّم إلى المستكفي بالله.

وبلغ ذلك القاهر فقال: قد صرنا اثنين، نحتاج إلى ثالث، يعرّض بالمستكفي بالله[1].

* * *

وانّه لعجيب أمر هؤلاء الخلفاء، فهم على رغم ما يصنع بهم نجدهم يُقبلون على الخلافة ويتنازعون عليها ويتخاصمون ويتقاتلون، ويحبس أحدهم الآخر، ثمّ يقتل السابق ويبصق في وجهه الصعاليك ويصفعونه ويدوسون خصيتيه.

ثمّ يأتي اللّاحق منهم يسيل لعابه، ولا يلبث ان يُهان كما أهين السابقون وهكذا...

والأتراك والطامعون في مغانم الدولة العباسية سرعان ما اكتشفوا في الخلفاء ضعفهم ونزواتهم الصبيانية وتصرّفاتهم البليدة واستهتارهم بالدِّين والمقدّسات، فتحكّموا فيهم كما يتحكّم الرّجل بالطِّفل.

ولن يستطيع مؤرِّخ منصف ـ وهو يقرأ تاريخ الخلفاء العباسيين ـ إلّا ويشعر انّهم كانوا يسعون لحتفهم والقضاء على دولتهم بأنفسهم.

وإذا وجدنا ان دولتهم قد طالت بها المدّة، فلأنّ الطامعين كانوا يريدون للدولة ان تستمر لتدوم لهم المغانم.

---

١ ـ مروج الذهب للمسعودي / ج ٣ / ص ٢٥٠.

فالأتراك ومن بعدهم البويهيون ثمّ السلاجقة كانوا ينتمون للاسلام (ولو كان انتماءً باهتاً) ولذلك فانّهم كانوا يحافظون على هذا الكيان لأن وجودهم بوجوده ولأن مغانمهم باستمرار الدولة وبقائها.

أمّا التتار، فقد كانوا عبدة الأوثان، لا يعترفون بالاسلام، بل انّهم كانوا يعتبرون المسلمين أعداء لهم.

وكانت لهم دولة قائمة مترامية الأطراف، فأرادوا أن يوسعوها ويزيدوا في حدودها، فكان القضاء على الدولة العباسية من مصلحة هؤلاء الوثنيين.

وما جرّأهم على فعلتهم وأعانهم عليها إلّا الخلفاء أنفسهم الّذين كانوا يتلقّون الصفعات والبصاق في الوجوه ورضّ الخصى وهتك الحرمات، كانوا يتلقّون كل ذلك بعدم اكتراث.

ثمّ يمضي منهم مهان ويأتي بعده مهان آخر وهكذا...

* * *

ويستمرّ الأتراك شغباً ونهباً وسلباً وتخريباً وقتلاً للخلفاء وتسلّطاً على الأمور، مع انّنا لا نشكّ أن منهم مَن كان ينزِّه نفسه عن ذلك، إلّا أنّ الأمور كانت كما أسلفنا.

وفي أيّام الخليفة الراضي كان الأمير (بجكم) هو الّذي لقّبه الخليفة عام ٣٢٦هـ بلقب (أمير الأمراء) وكان يرى نفسه هو الأمير الحقيقي للبلاد، فقد كان يكتب الكتب إلى الأمراء وإلى الولاة باسم الخليفة الراضي من حيث لا يدري[١].

يقول المسعودي:

وحدّث أبو الحسن العروضي مؤدب الراضي، قال: اجتزت في يوم مهرجان بدجلة بدار (بجكم) التركي، فرأيت من الهرج والملاهي واللّعب والفرح والسرور ما لم أر مثله، ثمّ دخلت إلى الراضي بالله فوجدته خالياً بنفسه قد اعتراه هم، فوقفت بين

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٧ / ص ١٣٩.

يديه، فقال لي: أدنُ، فدنوت، فإذا بيده دينار ودرهم، في الدينار نحو من مثاقيل وفي الدرهم كذلك، عليها صورة (بجكم) شاكٍ في سلاحه وحوله مكتوب:

إنّما العزّ فاعلم   للأمير المعظّم   سيّد الناس بجكم

وفي الجانب الآخر، الصورة بعينها وهو جالس في مجلسه كالمفكر المطرق.

فقال الراضي: أمّا ترى صنع هذا الانسان وما تسمو إليه همّته وما تحدّث به نفسه؟

فلم أجبه بشيء، وأخذت به في أخبار من مضى من الخلفاء وسيرهم في أتباعهم ثمّ نقلته إلى أخبار ملوك الفرس وغيرها وما كانت تلقاه من أتباعها وصبرهم عليهم وحسن سياستهم لذلك حتّى تصلح أمورهم وتستقيم أحوالهم.

فسلا عمّا عرض لنفسه[1].

❊ ❊ ❊

وأخيراً يتم قتل (بجكم) عام ٣٢٩هـ واستولى الخليفة المتقي على دار (بجكم) فأخذ ماله منها وكان قد دفن فيها مالاً كثيراً، وكذلك أيضاً في الصحراء لأنّه خاف أن ينكّب فلا يصل إلى ماله في داره.

وكان مبلغ ما أخذ من ماله ودفائنه ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار وكانت مدّة إمارة (بجكم) سنتين وثمانية أشهر وتسعه أيّام[2].

وبقتل (بجكم) يكون قد أفل حكم الأتراك في الدولة العباسية ليبدأ من بعدهم في عام ٣٣٤هـ حكم البويهيين الّذين كانوا أقوى من الأتراك واعرق منهم في الحكم.

---

١ ـ مروج الذهب للمسعودي / ج ٤ / ص ٢٤٥.

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٧ / ص ١٥٥.

انقضى عهد الأتراك فجاء البويهيون

وكانوا أشد تنكيلاً بالخلفاء

وأكثر تخريباً للدولة

تعريف بالبويهيين

ظهر بنو بويه منذ أوائل القرن الرابع الهجري في صورة طائفة قويّة تستطيع توجيه سير الأحداث في إيران والعراق واحتلال مكان على مسرح التاريخ الاسلامي في منطقة الشرق الأوسط.

والبويهيون طائفة من طوائف الديلم، وقد أسلم الديلم في النصف الأوّل من القرن الأوّل الهجري وحسن اسلامهم.

وقد تمكّن البويهيون بقيادة معز الدولة أحمد بن بويه من دخول بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وبسط نفوذهم عليها.

وقبل الخليفة العباسي مضطرّاً، وجودهم في عاصمة الخلافة وأمر بذكر حاكمهم في الخطبة بعد ذكر اسمه.

وهكذا تيسّر للبويهيين ان يساهموا في توجيه سير التاريخ الاسلامي مدّة استمرت أكثر من قرن من الزمان منذ دخولهم بغداد في العام المذكور، فشهدوا ظهور قوّة السلاجقة، وقيام دولتهم الّتي أسقطت دولة البويهيين وأخذت مكانها في دار الخلافة العباسية ببغداد.

وكان نفوذ البويهيين حين ظهور قوّة السلاجقة قد امتد حتّى شمل جميع أنحاء العراق، وتجاوز العراق إلى عدد من البلاد التابعة للخلافة العباسية مثل عمان وفارس والري وهمدان واصفهان[1].

وأبق البويهيون الخليفة العباسي ولكنّهم جرّدوه من أملاكه ومن سلطاته الزمنية

---

١ ـ إيران والعراق في العصر السلجوقي للدكتور عبدالنعيم محمّد حسنين / ص ١٧.

ولم يتركوا له إلّا بعض الاسم في الأمور الرئيسية كإعلان الجهاد وإقرار المساجد الّتي تُقام فيها الجمعة وإمامة الصلاة وإقرار تعيين القضاة. وقد وصلت سلطة الخليفة أدنى دركات الضعف خلال الفترة القصيرة الّتي استغرقت إقامة عضد الدولة ببغداد[١].

غير أنّ هذا النفوذ أخذ في الضعف تدريجياً في أواخر القرن الرابع الهجري حين كثر التنازع بين أمراء الجند.

وكان هؤلاء، من الأتراك الّذين استعملهم البويهيون في خدمتهم، فلمّا قوي نفوذ هؤلاء الأمراء تدخّلوا في أمور الدولة المختلفة، وطغى نفوذهم على سلطان الحكام البويهيين، فأمسكوا بزمام الأمور، وأخذوا يوجهون سير الأمور في الدولة العباسية.

وظهر ضعف الحكّام البويهيين في النصف الأوّل من القرن الخامس الهجري حين أصبحت الكلمة لأمراء الجند، فأخذوا يتدخّلون في تولية هؤلاء الحكّام وعزلهم ويحملونهم على أن يحلفوا لهم على الطاعة والوفاء، والخليفة في ذلك كلّه لا يملك إلّا تنفيذ رغباتهم.

فلمّا أخذ السلاجقة في الظهور على مسرح التاريخ بعد وفاة محمود الغزنوي في عام ٤٢١هـ (١٠٣٠م) كان نفوذ البويهيين آخذاً في الأفول والزّوال، وساعدت على أفوله وسرعة زواله، الحروب الّتي قامت بين الملك الرحيم البويهي واخوته، فلم يستطع البويهيون الوقوف في وجه السلاجقة حين اتجهوا بزعامة سلطانهم طغرل بك إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية ليدخلوها دخول الظافرين تلبية لدعوة الخليفة العباسي القائم بأمر الله بعد ان اعترف الخليفة بدولتهم، كما اعترف بحكمهم على البلاد الّتي فتحوها.

فزالت دولة البويهيين بدخول طغرل السلجوقي بغداد في عام ٤٤٧هـ = ١٠٥٥م[٢].

---

١ ـ العراق في التاريخ لمجموعة من المؤلّفين / ص ٤٤١.

٢ ـ إيران والعراق في العصر السلجوقي للدكتور عبدالنعيم محمّد حسنين / ص ١٩.

كيف وصل البويهيون إلى العراق؟
ومسكوا بزمام الخلافة العباسية

ربّما يقوم الانسان بعمل نتيجة شهوة عارمة أو نزوة صبيانية أو لرغبة عـابرة، ويعتبره حدثاً آنياً ليس له أيّة تبعة، وليس له من تأثير، سوف ينقضي بانقضاء تلك النزوة وهاتيك الرغبة.

وتمرّ الأيّام، وتثبت أنّ الانسان ذلك كان مخطئاً في الحساب والتقدير، فليس ما فعل ذهب مع الريح، بل انّه جرّ الكوارث والويلات عليه وعلى من جاء من بعده.

والنزوة الّتي أحاطت بالمعتصم، عندما جاء بالأتراك وألبسهم مناطق الذهب وميّزهم عن غيرهم من الجند والمماليك، كانت هذه النزوة طامّة على المعتصم نفسه وعلى الخلفاء الّذين جاؤوا من بعده وعلى الدولة العباسية ذاتها.

ولقد رأينا ـ فيما مضى من هذا الكتاب ـ نموذجاً مصغراً جدّاً لما قام به الأتراك من تخريب وانتهاك وقتل وفضائح لم تنته بانتهاء دور الأتراك خلال ١١٦ عاماً من عام ٢١٨ ـ ٣٣٤ هـ، وإنّما بقي أثرها إلى ما بعد ذلك أيضاً.

وأثبتنا فيما سبق انّ الأتراك الّذين أضعفوا الخلفاء ضمن ما عملوا، شجعوا غيرهم من لصوص وعيارين وفسّاق لاغتنام الفرص، والأهم من كل ذلك انّهم شجعوا بني بويه على دخول حلبة السباق القائمة في دار الخلافة العباسية ببغداد، ثمّ شجع ذلك السلاجقة والتتار الّذين سقطت الخلافة على أيديهم.

فالأمور متشابكة، بل هي مترتبة، الواحدة بعد الأخرى، كالبناء إذا سحبت منه آجرّة تهاوت الأخريات واحدة بعد أخرى حتّى ينهدم البناء كلّه.

* * *

يروي المؤرّخون أنّ القائد التركي (توزون) مات عـام ٣٣٤هـ، وأصـبح (ابـن شيرزاد) التركي قائداً للجيش وأميراً للأمراء بتعيين من الخليفة المستكفي بالله.

فاعتمد ابن شيرزاد على اثنين من قواده الأتراك (ينال كوشه) على واسط و (اللشكري) على تكريت.

ولم يكن ابن شيرزاد يستطيع ان يعطي أرزاق الجند، فكان يغازل ناصر الدولة الحمداني بردّ الرياسة إليه، إذا أمدّه بالمال، وكان ذلك مشجعاً للقائد (اللّشكري) أن يلتحق بناصر الدولة في الموصل.

وأمّا (ينال كوشه) فانّه كاتب معز الدولة البويهي وحسّن له المجيء إلى بغداد لخلوّها من الجيش، فاستقدمه وصار معه.

* * *

ابن الأثير يروي قصّة دخول البويهيين حلبة الصراع في العراق

ولقد وجدت أنّ خير من كتب عن تلك الفترة هو ابن الأثير، إذ يقول: لمّا كاتب (ينال كوشه) معز الدولة بن بويه ـ وهو بالأهواز ـ ودخل في طاعته، سار معز الدولة نحوه، فاضطرب الناس ببغداد.

فلمّا وصل (باجسرى) اختفى المستكفي بالله وابن شيرزاد ـ وكانت امارته ثلاثة أشهر وعشرين يوماً ـ فلمّا استتر، سار الأتراك إلى الموصل، فلمّا أبعدوا، ظهر المستكفي وعاد إلى بغداد، فاجتمع (أي معز الدولة) بابن شيرزاد بالمكان الّذي أستتر فيه، ثمّ اجتمع بالمستكفي.

فأظهر المستكفي السرور بقدوم معز الدولة وانّه انّما استتر من الأتراك ليتفرّقوا، فيحصل الأمر لمعز الدولة بلا قتال.

ووصل معز الدولة إلى بغداد حادي عشر جمادى الأولى، فنزل بباب الشماسية، ودخل من الغد إلى الخليفة المستكفي وبايعه، وحلف له المستكفي، وسأله معز الدولة أن يأذن لابن شيرزاد بالظهور وان يأذن ان يستكتبه.

فأجابه إلى ذلك، فظهر ابن شيرزاد ولقي معز الدولة، فولّاه الخراج وجباية

الأموال.

وخلع الخليفة على معز الدولة، ولقّبه ذلك اليوم (معز الدولة) ولقّب أخاه علياً (عماد الدولة) ولقب أخاه الحسن (ركن الدولة)، وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم.

ونزل معز الدولة بدار مؤنس، ونزل أصحابه في دور الناس. فلحق الناس من ذلك شدّة عظيمة، وصار رسماً عليهم بعد ذلك[1] وهو أوّل من فعله ببغداد، ولم يعرف بها قبله.

وأقيم للمستكفي بالله كل يوم خمسة آلاف درهم لنفقاته[2].



لم يطل الوفاق بين الخليفة المستكفي والبويهيين حتّى سملوا عينه وخلعوه

وباكورة عمل البويهيين مع الخلفاء كان مع سيّئ الحظ (المستكفي بالله) حيث

---

١ ـ إذا كان ورود الأتراك إلى بغداد عام ٢١٨ هـ قد أضرّ الناس بتركاضهم على الخيول وقتل النّساء والصبيان، فانّ البويهيين كانوا قد أساؤوا إلى الأمّة عندما وردوا بغداد، حيث نزلوا في دور الناس ولحقهم من ذلك شدّة عظيمة، حتّى صار رسماً، بحيث اعتاد الجند أن يدخلوا البيوت عنوة.

وإذا كان أوّل الغيث قطراً ثمّ ينهمر.

فليس عمل البويهيين هذا هو أوّل الغيث، وأوّل الإساءة إلى الناس، فالإساءة تعمّدها أمير المؤمنين المعتصم يوم جاء بالأتراك عام ٢١٨ هـ ليشبع غروره.

ثمّ كانت الويلات وسمل العيون ورضّ الخصى.

وجرّأوا اللّصوص والعيّارين وفتحوا عيون البويهيين على غنيمة (دار الخلافة) الّتي أصبحت سهلة يسيرة.

واضحت الدولة تتقاذفها الأيدي العابثة كالكرة، أو هي كشيء ثمين بيد طفل لا يعرف قيمته، فيتسابق الكبار أيّهم يحوزه؟

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٧ / ص ٢٠٦.

سملوه عينيه وحبسوه.

يقول ابن الأثير:

وفي هذه السنة (٣٣٤هـ) خلع المستكفي بالله لثمان بقين من جمادى الآخرة، وكان سبب ذلك ان علماً القهرمانة[1] صنعت دعوة عظيمة حضرها جماعة من قواد الديلم والأتراك.

فاتهمها معز الدولة انّها فعلت ذلك لتأخذ عليهم البيعة للمستكفي ويزيلوا معز الدولة، فساء ظنّه لذلك لمّا رأى من اقدام (علم)...

فلمّا مضى اثنان وعشرون يوماً من جمادى الآخرة، حضر معز الدولة والناس عند الخليفة وحضر رسول صاحب خراسان، ومعز الدولة جالس، ثمّ حضر رجلان من نقباء الديلم يصيحان، فتناولا يد المستكفي بالله، فظن انّهما يريدان تقبيلها، فمدّها إليهما فجذباه عن سريره وجعلا عمامته في حلقه.

---

١ ـ في كثير من القصص والحوادث، تدخل المرأة عنصراً مهمّاً فيها كبطلة من بطلات الرواية، و(علم) هذه إمرأة يذكرها بعض المؤرّخين، ولكنّهم لم يوضحوا لنا هويتها وانتسابها، ومن الّذي دفعها لتقوم بالدور الّذي قامت به.

ولم أجد في المصادر المتوفرة لديّ اشارة لها عدا ما ذكره ابن العبري وابن الأثير، يقول ابن العبري في كتابه (تاريخ مختصر الدول ص ١٦٦).

لمّا قبض (توزون) على المتقي، أحضر المستكفي بالله وبايعه هو وعامّة الناس في سنة ٣٣٣هـ، وكان سبب البيعة له، ما حكاه بعض خواص (توزون)، قال: إنّني دعاني صديق لي، فمضيت إليه، فذكر لي انّه تزوج إلى قوم وان امرأة منهم قالت له: ان هذا المتقي قد عاداكم وعاديتموه وكاشفكم ولا يصفو قلبه لكم.

وههنا رجل من أولاد الخلافة، وذكرت عقله ودينه، تنصبونه للخلافة فيكون صنيعكم وغرسكم ويدلّكم على أموال جليلة لا يعرفها غيره وتستريحون من الخوف والحراسة. فقلت له اريد ان أسمع كلام المرأة، فجاءني بها ورأيت امرأة عاقلة جزلة، فذكرت لي نحواً من ذلك، وأحضرت الرجل أيضاً عندي في زي امرأة فعرّفني نفسه وضمن إظهار ثمانمائة ألف دينار وخاطبني خطاب رجل لبيب فهم.

فأتيت (توزون) فأخبرته، فوقع الكلام في قلبه وجرى ما جرى.

ونهض معز الدولة، واضطرب الناس، ونهبت الأموال، وساق الديلميان المستكفي بالله ماشياً إلى دار معز الدولة، فاعتقل بها، ونهبت دار الخلافة حتّى لم يبق بها شيء.

وقبض على أبي أحمد الشيرازي كاتب المستكفي، وأخذت (علم) القهرمانة فقطع لسانها.

وكانت مدّة خلافة المستكفي سنة واحدة وأربعة أشهر، وما زال مغلوباً على أمره مع (توزون) وابن شيرزاد.

ولمّا بُويعَ المطيع لله سُلّم إليه المستكفي فسمله وأعماه وبقي محبوساً إلى أن مات[1].

* * *

فما الّذي دعا معز الدولة إلى ان يخلع الخليفة المستكفي؟

وهو الّذي أنعم عليه وكرّمه ولقّبه بأمير المؤمنين وخلع عليه الخلع الجزيلة. في حين لم تطل المدّة بين التكريم والخلع أكثر من ستّة أسابيع.

هناك عدّة احتمالات.

من الممكن ان تكون إحداها أو كلّها هي الّتي عجّلت بالفصام بين الخليفة والأمير:

الاحتمال الأوّل:

الوليمة الّتي أقامتها (القهرمانة علم) الّتي قلنا عنها انّها كانت مجهولة الهوية، وهي الّتي سعت في البيعة إلى المستكفي واحضرته في زي إمرأة إلى (توزون) واقتنع به.

هذه المرأة القويّة نجدها الآن تقيم دعوة عظيمة يحضرها جماعة من قواد الديلم والأتراك. فلربّما ارتاب منها معز الدولة.

انّها بدهائها تريد ان تحقق أمراً لم تستأذن فيه معز الدولة، ولربّما كانت هذه الوليمة

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٧ / ص ٢٠٧.

للايقاع بمعز الدولة نفسه. ولذلك نجده يسرع بخلع المستكفي وقطع لسان (القهرمانة علم).

والاحتمال الثاني:

وهو الّذي حدث بعد اللقاء السري الّذي تمّ بين الخليفة المستكفي وبين أحد قواد معز الدولة (اصفهدوست) حيث طلب منه الخليفة ان يلقاه متنكراً دون أن يعلم بذلك أحد[١].

ولم يذكر المؤرخون ما دار في هذا اللقاء السري من حديث، ولعلّ الخليفة كان يريد أن يكتشف قدراته في محاولة للقضاء على معز الدولة.

وعلى كل حال فانّ (اصفهدوست) أخبر معز الدولة بهذا اللقاء، فخشي الأخير من مؤامرة تحاك ضدّه، فأقدم على خلعه سريعاً.

والاحتمال الثالث:

وهو أنّ المطيع لله الّذي بويع له بعد المستكفي كان مستخفياً أيّام المستكفي، حيث كان بينهما منازعة. فلمّا قدم معز الدولة بغداد، قيل انّ المطيع انتقل إليه واستتر عنده وأغراه بالمستكفي حتّى قبض عليه وسمله[٢].

وربّما لم يكن واحد من تلك الاحتمالات، وانّما أراد معز الدولة ان يظهر قوته ومقدرته أمام الناس والقواد والطامعين وأمام بني العباس خاصّة، فأقدم مسرعاً على خلع المستكفي، ومن ثمّ سمل عينيه ليثير الرعب والخوف في النفوس، كما يفعل ذلك صدام حسين رئيس الجمهورية العراقية حالياً (١٩٩٨م) حيث يقتل الناس بدون مبرر لإشاعة الخوف والرهبة، وتلك عادة المتجبرين الجفاة.

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٧ / ص ٢٠٧.
٢ ـ المصدر السابق / ص ٢٠٧.

كان للخلافة العباسية مظاهر باهتة
ولكن البويهيين قضوا عليها

وبدخول البويهيين بغداد، فقدت الخلافة الرونق الباهت الّذي أبقاه الأتراك.

وتلك مسألة طبيعية جدّاً، فكلّ أولئك كانوا طامعين في الدولة وغنائمها بما فيهم الخلفاء أنفسهم.

ولو كان عملهم للاسلام لكان لهم شأن آخر ـ وإن كنّا لا نستبعد أنّ البعض كان يتمنّى لو يستطيع أن يحقّق للاسلام شيئاً ـ ولكن لم يكن يستطيع.

فالقطار ماضٍ بسرعة والأمور خارجة عن اليد والطامعون كثيرون والغنيمة كبيرة، وإن كانت تتقلّص يوماً بعد آخر.

فلقد كانت دولة الخلافة العباسية تسع منطقة واسعة من الكرة الأرضية ولكن بسوء تدبير الخلفاء والنزاعات الّتي نشبت بينهم وانصرافهم للملاهي من النِّساء والصبيان والخصيان وما إلى ذلك، أفقدهم الشيء الكثير بسرعة هائلة، لأنّهم هم كانوا ضمن الّذين يتراكضون بسرعة لمغانم الدُّنيا وملذّاتها.

* * *

وتوضّح للأمّة الابتعاد الواسع بين الاسلام الّذي يدعون إليه وبين الحقيقة والواقع.

وهم منذ اليوم الأوّل الّذي جاؤوا فيه للحكم لم يكن هدفهم الاسلام وتطبيق الأحكام كما يقولون.

وإنّما للدنيا ومغانمها، فتعطلت الأحكام، وبالاستمرار لم يبق من الاسلام إلّا الاسم الّذي يتمسكون به بقوّة لأنّه مبرر خلافتهم وحكمهم.

* * *

وعندما انصرف الخلفاء لأنفسهم وتهرّأت الدولة، شجّع ذلك الغرباء عنهم

(الأتراك) أوّلاً، فدخلوا في جميع مرافق الدولة، ثمّ نافسوا الخلفاء عليها، وأخيراً سيطروا على الأمور سيطرة المالك.

ثمّ تشجّع البويهيون، فدخلوا حلبة السباق واستطاعوا بقوتهم ان يزيحوا قوّة الأتراك الضاربة، وأمسكوا هم بعنق الدولة وأنفاس الخلفاء.

يقول ابن الأثير في هذا المقطع:

وازداد أمر الخلافة ادباراً ولم يبق لهم من الأمر شيء البتة، وقد كانوا يُراجعون ويؤخذ أمرهم فيما يُفعل، والحرمة قائمة بعض الشيء، فلمّا كان أيّام معز الدولة زال ذلك جميعه، بحيث انّ الخليفة لم يبق له وزير، وانّما كان له كاتب يدبر اقطاعه وإخراجاته لا غير، وصارت الوزارة لمعز الدولة، يستوزر لنفسه من يريد[1].

أمّا ابن خلدون فيقول:

وتسلّم عمّال معز الدولة وجنده من الديلم وغيرهم أعمال العراق وسائر أراضيه، وصار الخليفة ربّما يتناول منه ما يقطعه معز الدولة ومن بعده، فما يسدّ بعض حاجاته. نعم، كانوا يفردونهم بالسرير والمنبر والسكة والختم على الرسائل والصكوك والجلوس للوفد وإجلالهم في التحية والخطاب... وكانت الخلافة حاصلة للعباسي المنصوب لفظاً مسلوبة معنى[2].

ثمّ طلب الجند أرزاقهم بأكثر من العادة لتجدّد الدولة، فاضطر إلى ضرب المكوس ومد الأيدي إلى أموال الناس، وأقطعت جميع القرى والضياع للجند، فارتفعت أيدي العمّال وبطلت الدواوين، لأن ما كان منها بأيدي الرؤساء لا يقدرون على النظر فيها، وما كان بأيدي الأتباع خُرّب بالظلم والمصادرات والحيف في الجباية وإهمال النظر فيها في اصلاح القناطر وتعديل المشارب وما خُرّب منها عوّض عنه بآخر، فيخربه كما يخرّب الآخر.

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٧ / ص ٢٠٧.

٢ ـ تاريخ ابن خلدون / ج ٣ / ص ٤٢١.

ثمّ ان معز الدولة أفرد جمعها من المكوس والظلامات، وعجز السلطان عن ذخيرة يعدّها لنوائبه، ثمّ استكثر من الموالي ليعتز بهم على قومه، وفرض لهم الأرزاق والأقطاع، فحدثت غيرة قومه من ذلك، وآل الأمر إلى المنافرة كما هو الشأن في الدول[١].

* * *

وطبيعي جدّاً إذا مرضت الدولة وضعفت، فانّ الطامعين بها يكثرون.

والبويهيون عندما وجدوا دولة العباسيين تتقاذفها الرياح انقضّوا عليها وتربّعوا على عرش السلطنة.

ولكن ذلك أطمع الحمدانيين في الموصل أيضاً، وبعد أقل من شهر من استيلاء البويهيين على بغداد، سار ناصر الدولة بن حمدان إلى بغداد.

وأرسل معز الدولة بن بويه عسكراً لقتاله، فلم يقدروا على دفعه. وسار ناصر الدولة من سامراء عاشر رمضان إلى بغداد.

وأخذ معز الدولة (الخليفة المطيع) معه وسار إلى تكريت فنهبها لأنّها لناصر الدولة وعاد معز الدولة بالخليفة إلى بغداد ونزل بالجانب الغربي (الكرخ) ونزل ناصر الدولة بالجانب الشرقي (الرصافة).

ولم يخطب تلك الأيّام للمطيع ببغداد[٢] وجرى بينهم ببغداد قتال كثير، آخره ان ناصر الدولة وعسكره انهزموا واستولى معز الدولة على الجانب الشرقي[٣].

* * *

ونهب الديلم باب الطاق وسوق يحيى، وقتل من العامّة جماعة، وخرج نساء وصبيان من بغداد هاربين في طريق عكبرا، لأنّه وقع للناس أنّ الديلم إذا ملكوا

---

١ ـ تاريخ ابن خلدون / ج ٤ / ص ٤٣٥.

٢ ـ ذلك لأنّ مقرّ الخليفة كان في الجانب الشرقي من بغداد، فإذا تمّ الإستيلاء عليه فمعنى ذلك هو الإستيلاء على الخليفة وسقوطه.

٣ ـ تاريخ ابن الوردي / ج ١ / ص ٢٦٩.

الجانب الشرقي وضعوا السيف تشفياً من العوام، لأنّهم كانوا يشتمون معز الدولة والديالمة شتماً مسرفاً.

واستعمل معز الدولة الحلم، ومنع من القتل، إلّا من هرب من الرّجال والنّساء والصبيان، وتلف في طريق عكبرا من الحر والعطش خلق كثير، لأنّهم خرجوا مشاة حفاة.

ويضيف صاحب كتاب (المنتظم):

لمّا دخل الديلم من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي، وخاف الناس السيف، فهربوا على وجوههم، وكانت المرأة العذراء والمخدّرة المترفة من ذوات النعم، والصبية والأطفال والعجائز وسائر الناس يخرجون على وجوههم يتعادون، يريدون الصحراء.

وكان ذلك اليوم حاراً فلا يطيقون المشي.

قال أبو محمّد الصلحي: انهزمنا يومئذٍ مع ناصر الدولة نريد الموصل من بين يدي معز الدولة، وقد عبر من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي، فرأيت ما لا أحصي من أهل بغداد قد تلفوا بالحرّ والعطش.

ونحن نركض هاربين، فما شبهته إلّا بيوم القيامة، فأخبرني جماعة انّهم شاهدوا امرأة لم ير مثلها في حسن الثياب والحلي وهي تصيح: أنا فلانة ابنة فلان، ومعي جوهر وحلي بألف دينار، ورحم الله من أخذه منّي وسقاني شربة ماء، فما يلتفت إليها أحد حتّى خرّت ميّتة، وبقيت متكشّفة والثياب عليها والحلي وما يعرض له أحد[١].

❊ ❊ ❊

وأعيد الخليفة (المطيع) في المحرّم سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة[٢].

وتمكّن معز الدولة من الدولة أيّما تمكن، والخليفة أصبح خاضعاً له تمام الخضوع،

---

١ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم / ج ٨ / ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.

٢ ـ تاريخ ابن الوردي / ج ١ / ص ٢٦٩.

ليس بيده إلّا أن يوقع ويمضي على الطلبات الّتي يريدها معز الدولة، علماً بأنّ معز الدولة لا يحتاج إلى مَن يمضي له إرادته، فإرادته فوق كل إرادة، ولكنّه ليظهر للأمّة شيئاً من الشرعية والرسمية على أعماله (كما يفعل صدّام حسين رئيس جمهورية العراق، حيث يصدر القوانين بنفسه لتبرير أعماله الإجرامية).

ولذلك فانّ معز الدولة طلب من المطيع أن يشرك معه في الأمر أخاه (علي ابن بويه) عماد الدولة، ويكون من بعده، فأجابه المطيع، ثمّ لم ينشب أن مات عماد الدولة من عامه، فأقام المطيع أخاه ركن الدولة والد عضد الدولة[1].

* * *

ولقد ساءت الحياة المعيشية للناس إلى درجة رهيبة، حتّى اضطروا إلى ذبح الأطفال وأكلهم، وإذا راثت الدواب اجتمع جماعة من الضعفاء على الروث فالتقطوا ما فيه من حب الشعير فأكلوه، وكانت الموتى مطرحين، فربّما أكلت الكلاب لحومهم.

وخرج الناس إلى البصرة خروجاً مسرفاً، فمات أكثرهم في الطريق، ومات بعضهم بالبصرة وصار الضعفاء يفنى أكثرهم، وصار العقار والدور تباع بالرغفان من الخبز، ويأخذ الدلال بحق دلالته بعض الخبز.

وبيع على معز الدولة عند اشتداد الغلاء، وهو مقيم بظاهر بغداد من الجانب الغربي كر حنطة بعشرة آلاف درهم، ومرّة أخرى بعشرين ألف درهم.

(مع أنّ سعره الطبيعي لم يكن يتجاوز الدرهمين).

ولحق الناس في السواد من جانبي بغداد ضر عظيم[2].

وحالة الناس في معاشهم الّتي نقلناها عن ابن الجوزي من كتابه (المنتظم) كان لها تأثير عظيم على الدولة ومرافقها، فلقد نشبت أظفارها في كل مكان وأصبح التخريب ظاهرة تعم البلاد.

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٣٩٩.

٢ ـ المنتظم في تواريخ الملوك والأمم / ج ٨/ ص ٢٣٦.

يقول ابن الأثير:

... شغب الجند على معز الدولة بن بويه وأسمعوه المكروه، فضمن لهم ايصال أرزاقهم في مدّة ذكرها لهم، فاضطر إلى خبط الناس، وأخذ الأموال من غير وجوهها، وأقطع قواده وأصحابه القرى جميعها الّتي للسلطان وأصحاب الأملاك، فبطل لذلك أكثر الدواوين، وزالت أيدي العمّال.

وكانت البلاد قد خُرّبت من الاختلاف والغلاء والنهب، فأخذ القواد القرى العامرة، وزادت عمارتهم معها، وتوفّر دخلها بسبب الجاه، فلم يمكن معز الدولة العود عليها.

وأمّا الأتباع فإنّ الّذي أخذوه ازداد خراباً فردّوه، وطلبوا العوض عنه فعوّضوا وترك الأجناد الاهتمام بمشارب القرى وتسوية طرقها، فهلكت وبطل الكثير منها.

وأخذ غلمان المقطعين في ظلم وتحصيل العاجل، فكان أحدهم إذا عجز الحاصل تمّمه بمصادراتها.

ثمّ أنّ معز الدولة فرض حماية كل موضع إلى بعض أكابر اصحابه فاتخذه مسكناً، وأطمعه فاجتمع إليهم الأخوة.

وصار القوّاد يدّعون الخسارة في الحاصل فلا يقدر وزيره ولا غيره على تحقيق ذلك، فان اعترضهم مُعترِض صاروا أعداء له، فتركوا وما يريدون، فازداد طمعهم، ولم يقفوا عند غاية.

فتعذّر على معز الدولة جمع ذخيرة تكون للنوائب والحوادث.

وأكثر من إعطاء غلمانه الأتراك، والزيادة لهم في الإقطاع، فحسدهم الديلم وتولّد من ذلك الوحشة والمنافرة[1].

* * *

ولن يضرّ معز الدولة ذلك، فالأموال تُجبى من أولئك الناس المساكين بالقوّة والغلبة.

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٧ / ص ٢١٠ ـ ٢١١.

ليتمتّع بها معز الدولة وحاشيته كما يتمتع بها الخلفاء فقد بنى معز الدولة قصراً له في تلك الأيّام وصرف عليه مائة مليون دينار من الذهب.

لنستمع لما يقول ابن الجوزي في كتابه:

... ثمّ انتقل في جمادى الأولى من داره بسوق الثلاثاء إلى البستان المعروف ببستان الصيمري، وأخذ في أن يهدم ما يليه من العقار والأبنية إلى حدود (البيعة) وأصلح ميداناً وبنى داراً على دجلة في جوار (البيعة) ومَدّ المسنّاة، وبنى الاصطبلات، وقلع الأبواب الحديد الّتي على مدينة أبي جعفر المنصور، وأبواب الرصافة، وقصر الرصافة ونقلها إلى داره، وهدم سور الحبس المعروف بـ(الجديد) ونقل آجرّه إلى داره، وبنى به، ونقض (المعشوق) بسرّ من رأى، وحمل آجرّه، وأنفق على البناء إلى أن مات مائة ألف ألف دينار، وقبض على جماعة، فصودروا على مال عظيم.

فأمر أن يصرف إلى بناء الدار والاصطبلات.

ولحق الناس في هذا الصقع شدّة شديدة من التنزّل عليهم[1].

ومرض معز الدولة عام ٣٥٦ هـ، فتزايد عليه المرض، فعهد إلى ابنه (بختيار) ولقبه (عز الدولة).

وأساء (بختيار) السيرة، ولعب وعاشر النّساء ونفى كبار الديلم شَرَهاً في أقطاعهم[2].



آل بويه يتخاصمون حول أحد الغلمان

معز الدولة وبها الدولة وركن الدولة وعز الدولة وعضد الدولة...، أسماء كلّها أدّت إلى سقوط الدولة وأساءت إلى الدولة وإلى الأمة وإلى الاسلام...

---

١ ـ تاريخ ابن الوردي / ج ١ / ص ٢٨٢.

٢ ـ المصدر السابق / ص ٢٨٢.

كان (عز الدولة) هذا شخصاً سيّئاً جدّاً، ففي عام ٣٦٥هـ حصلت وقعة بينه وبين عمّه (عضد الدولة) وأسّر فيها غلام تركي لعز الدولة.

فجنّ عليه واشتدّ حزنه وامتنع من الأكل، واخذ في البكاء، واحتجب عن الناس وحرّم على نفسه الجلوس في الدست.

وكتب إلى عضد الدولة يسأله ان يردّ الغلام إليه، ويتذلّل، فصار ضحكة بين الناس، وعوتب فما ارعوى لذلك، وبذل في فداء الغلام جاريتين عوديتين، كان قد بُذلَ له في الواحدة مائة ألف دينار، وقال للرسول: إنّ توقّف عليك في ردّه، فزد ما رأيت ولا تفكّر، فقد رضيتُ أن آخذه وأذهب إلى أقصى الأرض، فردّه عضد الدولة عليه[1].

* * *

أي سخيف هذا؟

بل أي كلب حقير عز الدولة هذا؟ الّذي تسلّط على رقاب المسلمين، والّذي يبذل في غلام تركي مئات الآلاف من الدنانير المجموعة من الخراج والجزية والغنائم ثمّ من المكوس والمظالم المفروضة على الأمّة.

لقد كان يرضى هذا الكلب أن يُرجعوا له غلامه ويترك كل شيء، ويذهب إلى أقصى الأرض (إلى حيث...) فليس هناك شيء يهتم به من (البلاد والعباد) فانّه يكفيه من الدنيا، هذا الغلام التركي الجميل الّذي لا شك انّه كان يحتفظ به (للّواط والمنكر).

مَن جاء بهذا الحقير؟ ليحتلّ المركز الأوّل في إدارة الدولة العباسية؟

وهل جاء صدفة؟

أم أنّ هناك أسباباً هيّأت له ذلك؟

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٠٦.

لقد أشاح وعاظ السلاطين عن الخوض في ذكر الأسباب الّتي خوّلت (لعز الدولة) وغيره ان يتبوّأوا هذه المراكز الحساسة، واهتمّوا بأمور أخرى.

اهتمّوا بـ (القضيب والبردة والخاتم).

واهتمّوا بشكل الخليفة ولحيته وحجم أنفه ومحاسنه وشعره وأدبه وقوّة ساعده، ولم يعيروا اهتماماً بالاسلام والمسلمين.

من جاء بهذا اللواط ليصبح سلطاناً يتوّجه الخليفة أمير المؤمنين تاجاً من ذهب ووشاحين ويمنحه سلطة ما وراء باب داره؟

تعساً لأولئك السلاطين، وتعساً وبؤساً لأولئك الخلفاء الّذين جرّأوا بأفعالهم الشنيعة هذا الحقير وغيره ليفعل هذه المنكرات.

ونكرر ونعيد، انّ الّذي جرّأ البويهيين والسلاجقة والتتار ومن قبلهم الأتراك على احتلال هذه المراكز، (هم الخلفاء أنفسهم).

ثمّ ألم يكن الخليفة أمير المؤمنين المعتصم قد جلب الأتراك وخوّلهم كل شيء وميّزهم عن غيرهم من الجند بكل شيء؟ وألبسهم مناطق الذهب وجمع حوله الخصيان والصبيان.

فاللواطة إذن عريقة في ظل الخلافة العباسية من يوم أمير المؤمنين (الأمين) ثمّ باشرها كابر عن كابر، سلطان عن خليفة.

وما خفي علينا أعظم واعظم، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

* * *

الخليفة المطيع يبيع ثيابه ويعطي ثمنها إلى عزّ الدولة

وكان الخليفة المطيع لله مستضعفاً جدّاً من قبل البويهيين، حتّى أنّ بختيار (عز الدولة) أنفذ إلى المطيع، يطلب منه مالاً يخرجه في الغزاة.

فقال المطيع: إنّ الغزاة والنفقة عليها وغيرها من مصالح المسلمين تلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وتجبى إليّ الأموال.

وأمّا إذا كانت حالي هذه، فلا يلزمني شيء من ذلك، وانّما يلزم مَنْ البلاد في يده، وليس لي إلّا الخطبة، فإن شئتم ان اعتزل فعلت.

وتردّدت الرسائل بينهما حتّى بلغوا إلى التهديد، فبذل له المطيع أربعمائة ألف درهم، فاحتاج إلى بيع ثيابه وأنقاض داره وغير ذلك، فلمّا قبض بختيار المال صرفه في مصالحه وبطل حديث الغزاة[1].

❊ ❊ ❊

فالدولة كلّها بيد بختيار صاحب قصّة الغلام التركي الّذي لا شكّ انّه كان يريد الأموال من المطيع ليبذلها في منكراته، وليس في الأمر غزاة مطلقاً.

والخلفاء لم يعودوا يفكرون في الغزاة، وحتّى إذا فكروا فلا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً.

والمطيع هنا وقد بلغت به المهانة أن يبيع ثيابه وأنقاض داره ليُرضي بها غرور بختيار.

فلماذا إذن هذا التهالك على مقام الخلافة؟ وحبس الأبناء والأرحام والتعرّض لسمل العيون وضرب الرقاب؟!

❊ ❊ ❊

المطيع يخلع نفسه من الخلافة ويسلم من سمل العيون

وإذا جاء آل بويه وحكموا العراق، فليس معنى ذلك أنّ الأتراك قد انتهى وجودهم، فانّهم لا يزالون موجودين ويتبوّأ بعضهم أعلا المناصب، كما بقي عدد كبير جدّاً من الجند الّذين كانوا يسببون للدولة مشاكل ومتاعب.

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٧ / ص ٢٣٠.

ففي أصحاب معز الدولة كان (سبكتكين) التركي قد تغلب على بغداد وكان أكبر حجّابه، ولم تزل منزلته ترتفع عند معز الدولة، حتّى عظم أمره ونفذت كلمته، خاف المطيع لله منه على نفسه، وانضاف إلى ذلك أنّه لازمه المرض، فخلع نفسه من الخلافة طائعاً وسلّمها لولده الطائع لله[1].

ولكن صاحب كتاب الفخري يقول:

وقوي الفالج على المطيع وثقل لسانه، فدخل عليه سبكتكين حاجب معز الدولة فدعاه إلى خلع نفسه ومبايعة ولده الطائع ففعل ذلك[2].

ويؤيّده ما جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي وابن الوردي.

* * *

ولقد أحسن المطيع في الخلع، وحفظ نفسه، ولو كان قد امتنع قليلاً لكان ينتظره سمل العينين والصفعات على الوجه والظهر ورضّ الخصيتين وربّما القتل.

ولكنّه كان عاقلاً في ذلك، وتجنب سوء العواقب.

* * *

معركة حامية بين سبكتكين التركي وعزّ الدولة الديلمي

فقد اشتدّت شوكة سبكتكين التركي، فخشي منه عز الدولة.

ثمّ انّ عز الدولة أدخل يده في اقطاع سبكتكين، فجمع سبكتكين الأتراك الّذين ببغداد، ودعاهم إلى طاعته فأجابوه، وراسل أبا إسحاق بن معز الدولة يعلمه بالحال ويطمعه أن يعقد له الأمر، فاستشار والدته، فمنعته من ذلك.

فصار إليها من ببغداد من الديلم، وصوّبوا لها محاربة سبكتكين، فحاربوه، فقهرهم واستولى على ما كان ببغداد لعز الدولة.

---

١ ـ حياة الحيوان الكبرى للدميري / ج ١ / ص ١٣١.

٢ ـ الفخري لابن الطقطقي / ص ٢٨٩.

وثارت العامّة تنصر سبكتكين.

وبعث سبكتكين إلى عز الدولة يقول له: إنّ الأمر قد خرج من يدك، فتنزح لي عن بغداد وواسط ليكونا لي وتكون البصرة والأهواز لك، ولا تفتح بيننا باب حرب.

وكتب عز الدولة إلى عضد الدولة يستنجده، فماطله بذلك.

ثمّ انّ الناس صاروا حزبين، فأهل التشيع ينادون بشعار عز الدولة والديلم، وأهل السنّة ينادون بشعار سبكتكين والأتراك.

واتصلت الحروب، وسفكت الدماء، وكبست المنازل، واحرق الكرخ حريقاً ثانياً[1].

* * *

ولكن اين الخليفة الطائع؟

لقد كان كالشاة الّتي يتعاطاها البائعون، ليس لها من الأمر شيء.

والعراق أصبح بين اثنين، كل منها قوي:

تركي يستند إلى تاريخه القديم في العراق منذ المعتصم، منذ أكثر من مائة عام وديلمي يستند إلى سلطانه وجبروته.

ويظهر انّ التركي كان أكثر تعقلاً من صاحبه الديلمي، فقد أراد ان يتحاشى الحرب وسفك الدماء، وجنح إلى تسوية الأمور بهدوء وبالوفاق السلمي:

سبكتكين له بغداد وواسط.

وعز الدولة له البصرة والأهواز.

وانقسمت الأمّة ـ وهي دائماً كذلك ـ إلى حزبين، كل حزب بما لديهم فرحون.

أمّا الخليفة؟

فهو مستعد لتوشيح المنتصر منهما بالتاج واللواء.

---

١ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم / ج ٨ / ص ٣٨٤.

الخليفة الطائع يفوّض ما وراء بابه مرّتين

والطائع لخـوفه من سبكتكين ورهبته منه، فانّه عندما ولي الخـلافة، خلع على سبكتكين خلع الملوك، ولقّبه ناصر الدولة، وعقد له الإمارة[1] وولّاه ما وراء بابه[2].

وفي أيّامه أيضاً استولى الملك عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه عـلى بـغداد وملكها، فخلع عليه الطائع لله الخلع السلطانية وتوّجه وطوّقه وسوّره وعقد له لواءين وولّاه ما وراء بابه[3].

* * *

أيّ خليفة هذا الّذي يولي الناس ما وراء بابه كل يوم؟ ليـبق له القـصر الّـذي يسكنه فقط، وحتّى هذا لم يسلم له أيضاً، فلربّما اقتحمه الجند وسحبوه وجرّدوه من ثيابه ووضعوه في الشمس يرفع رجلاً ويضع أخرى.

عجيب أمرهم حين يتهافتون على الخلافة، وهم يعلمون بتبعاتهـا، ولكن يـبدو أنّهم كانوا يفرحون بحفلة التتويج ومن بعد ذلك الجواري والخصيان، وعلى الله التكلان.

يقول السيوطي عن حفلة تتويج الطائع لله:

... وجلس الطائع على السرير وحوله مائة بالسيوف والزينة وبين يديه مصحف عثمان وعلى كتفه البردة وبيده القضيب وهو متقلد بسيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ودخل الأتراك والديلم وليس مع أحد منهم حديد، ووقف الأشراف وأصحاب المراتب من الجانبين، ثمّ اذن لعضد الدولة فدخل، ثمّ رفعت الستارة وقبّل عضد الدولة الأرض، فارتاع (زياد) القائد لذلك، وقال لعضد الدولة:

ما هذا أيّها الملك؟ أهذا هو الله؟

فالتفت إليه وقال: هذا خليفة الله في الأرض، ثمّ استمر يمشي ويقبل الأرض سبع

---

١ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١١ / ص ٣١٣.

٢ ـ حياة الحيوان الكبرى / ج ١ / ص ١٣٢.

٣ ـ المصدر السابق / ص ١٣٢.

مرّات، فالتفت الطائع إلى (خالص) الخادم وقال: استدنِه.

فصعد عضد الدولة، فقبل الأرض مرّتين:

فقال له: ادنُ إليّ، فدنا، وقبل رجله، وثنّى الطائع يمينه عليه وأمره، فجلس على الكرسي بعد أن كرّر عليه: اجلس وهو يستعفي.

فقال له: أقسمت عليك لتجلسن.

فقبّل الكرسي وجلس.

فقال له الطائع: قد رأيت ان افوّض إليك ما وكل الله إليّ من أمور الرعية في شرق الأرض وغربها وتدبيرها في جميع جهاتها سوى خاصّتي وأسبابي فتولّ ذلك فقال: يعينني الله على طاعة مولانا أمير المؤمنين وخدمته، ثمّ أفاض عليه الخلع وانصرف[1].

يقول السيوطي تعقيباً على ذلك:

انظر إلى هذا الأمر، وهو الخليفة المستضعف الّذي لم تضعف الخلافة في زمن أحد ما ضعفت في زمنه، ولا قوي أمر سلطان ما قوي أمر عضد الدولة.

وقد صار الأمر في زماننا إلى انّ الخليفة يأتي السلطان يهنئه برأس الشهر، فأكثر ما يقع من السلطان في حقّه ان ينزل عن مرتبته ويجلسا معاً خارج المرتبة، ثمّ يقوم الخليفة يذهب كأحد الناس ويجلس السلطان في دست مملكته[2].

لا شكّ انّ السلطان لم يكن صادقاً في ابداء التجلة والاحترام للخليفة عندما يقبل الأرض والكرسي، فكلها مظاهر يبتهج بها جناب الخليفة.

ولكن السلطان كان يبتغي فيها خداع الخليفة، ليتسلم منه (فرماناً) بالتوكيل عنه في إدارة أمور الدنيا في شرقها وغربها سوى خاصّته، وكأنّه كان يمتلك الشرق والغرب حقّاً.

إنّها كلّها مظاهر كان يعلم الخليفة نفسه والسلطان والناس أجمعون انّها تافهة ليس

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٠٨.

٢ ـ المصدر السابق / ص ٤٠٩.

فيها من الواقع شيء، وسرعان ما تنقلب عليه الأمور، وهو الّذي حدث فعلاً كـما حدث لأجداده من قبل.

وتكرّرت مهزلة أخرىٰ

وفي سنة ٣٧٩هـ مات شرف الدولة وعهد إلى أخيه أبي نصر.

فجاءه الطائع إلى دار المملكة يعزّيه، فقبّل الأرض غير مرّة، ثمّ ركب أبو نصر إلى الطائع وحضر الأعيان، فخلع الطائع على أبي نصر سبع خلع أعلاها سوداء وعمامة سوداء وفي عنقه طوق كبير وفي يده سواران، ومشى الحجّاب بين يديه بالسيوف ثمّ قبل الأرض بين يدي الطائع وجلس على كرسي وقرئ عهده ولقبه الطائع (بهاء الدولة وضياء الملّة)[1].

* * *

الخليفة الطائع لم تشفع له تلك المظاهر الكاذبة وخلعه صاحب اللّقبين بهاء الدولة وضياء الملّة

وفي سنة ٣٨١هـ قبض على الطائع، وسببه: انّه حبس رجلاً من خواص بهـاء الدولة فجاء بهاء الدولة وقد جلس الطائع في الرواق متقلّداً سيفاً، فلمّا قرب بهـاء الدولة قبّل الأرض وجلس على كرسي.

وتقدّم أصحاب بهاء الدولة فجذبوا الطائع من سريره، وتكاثر الديلم، فلفّوه في كساء وأصعد إلى دار السلطنة، وارتج البلد ورجع بهاء الدولة وكتب على الطائع أيماناً بخلع نفسه وانّه سلم الأمر إلى القادر بالله، وشهد عليه الأكابر والأشراف وذلك في تاسع عشر شهر رمضان ونفذ إلى القادر بالله ليحضر وهو بالبطيحة[2].

وكان الشريف الرضي حاضراً عندما جرت هذه القضيّة على الطائع، فبادر بالخروج،

---

١ ـ المصدر السابق / ص ٤١٠.

٢ ـ المصدر السابق.

وقال أبياتاً من جملتها:

مِن بعد ما كان ربُّ الملك مبتسماً إليّ أدنوه في النجوى ويدنيني
أمسيت أرحم مَن قد كنت أغبطه لقد تقارب بين العزّ والهون
ومنظر كان بالسرّاء يضحكني يا قرب ما عاد بالضرّاء يبكيني
هيهات أغترّ بالسلطان ثانية قد ضلّ وُلّاج أبواب السلاطين[1]

❊ ❊ ❊

نعم، هكذا يكون الضحك على الذقون، حيث ضحك (بهاء الدولة وضياء الملة) على ذقن أمير المؤمنين.

يقبّل الأرض بين يدي الخليفة عدّة مرّات، ثمّ يسحبه ويلفّه في كساء ليخلع نفسه، لأنّه تجاوز حد باب الدار، حيث فوّض للسلطان تدبير شرق الأرض وغربها بيده عدا خاصّة نفسه في نسائه وخصيانه.

وهنا تجاوز الخليفة حدّه وحبس رجلاً من خواص بهاء الدولة، فاستحق بذلك الخلع. فيا سوأة الخلفاء، ويا سوأة القدر الّذي جاء بهؤلاء الخلفاء وأمثالهم لرعاية أمور المسلمين!

قبّحهم الله أنّى يؤفكون.

❊ ❊ ❊

الخليفة يثأر لكرامته فيعترض على قرع الطبول

وتسوء حالة الخلفاء على عهد البويهيين لحد لا مثيل له.

وإذا كانت قد بقيت للخلفاء بعض المراسيم الطفولية البسيطة من خطبة وأمثالها، فانّ السلاطين شاركوهم فيها أيضاً.

يقول الدكتور فاروق عمر فوزي:

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٧ / ص ٤٤٩.

... وانّ السلطان شارك الخليفة في العديد من الامتيازات.

١ ـ الخطبة ـ في ذكر اسمه إلى جنب اسم الخليفة.

٢ ـ (النوبة) ـ كانت الطبول تقرع على أبواب قصر الخليفة خمس مرّات يومياً، وحين جاء عضد الدولة البويهي، طلب من الخليفة السماح بقرع الطبول أمام بابه ثلاث مرّات، وبذلك حقق عضد الدولة امتيازين للأمير البويهي لم يحصل عليهما أحد قبله، وهما الخطبة باسمه في بغداد والنوبة.

ورغم أنّ بعض الأمراء البويهيين المتأخرين مثل شرف الدولة وسلطان الدولة وغيرهما قد أمر بقرع الطبول خمس مرّات على بابه، إلّا انّ الخليفة اعترض ولم يأذن بذلك بصورة رسمية[١].

فلقد أخذت الخليفة أمير المؤمنين الغيرة والشهامة العربية، وأراد ان يثأر لكرامته المهدورة، فاعترض على قرع الطبول خمس مرّات وليس ثلاثة.

ألا شاهت هذه الوجوه، وبئست هاتيك العقول!

* * *

ثمّ لماذا كان الخلفاء يتنازعون ويتخاصمون فيما بينهم على هذه الخلافة البائسة، ويحبس أحدهم الآخر؟

أليس هو طمعاً في حفلة التنصيب والقضيب والبردة والخاتم وتقبيل اليدين وقرع الطبول ومن ثمّ النِّساء والخصيان؟

ولقد كان الطائع سعيداً في حظِّه إذ لم يقتل، وانّما اكتفوا منه بالخلع، وأودع في قصر القادر بالله يعيش معه إلى أن مات سنة ٣٩٣هـ.

ويقول عنه السيوطي:

واستمرّ الطائع في دار القادر بالله مكرّماً محترماً في أحسن حال، حتّى انّه حمل إليه شمعة قد أوقد نصفها، فأنكر ذلك، فحملوا إليه غيرها[٢].

---

١ ـ تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية الاسلامية للدكتور فاروق عمر فوزي / ص ٢٩٩.

٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤١١.

نعم، هكذا تأبى شهامة الخليفة المخلوع (الطائع لله) أن يقبل نصف شمعة، فمقامه الكريم لابدّ أن يوزن بشمعة كاملة، امّا الدولة وامّا الخلافة والأبهة والسلطان، فقد فرّط فيها أيّما تفريط، وانصرف كما انصرف آباؤه من قبل إلى أرذل ما يفعله السفهاء وأبناء الشوارع في الجواري والخصيان وما إلى ذلك، ثمّ يأبى نبل الخليفة إن يقبل بنصف شمعة.

إنّ الطائع نموذج ناطق لبقية الخلفاء الّذين اتخذوا الخلافة مكسباً دنيوياً، ولم يدر في حساباتهم ان يعملوا لله ويذبّوا عن سبيل الله ويحفظوا دولتهم من أعداء الله.

وإذا ذكروا الله على ألسنتهم، فانّما لأن ذلك يدخل في طغيان الدُّنيا وجبروتها، فهو أمير المؤمنين وخليفة رسول الله ﷺ ظلماً وعدواناً، وتقبل يداه ورجلاه والأرض الّتي يمشي عليها لأنّه يتصف بتلك الصفات الكاذبة.

وليت أحدهم إذا لم يكن له عقل ودين أن يعتبر بمن مضى من آبائه فيرعوي ويتذكّر دائماً ان خليفة رسول الله لابدّ أن يحذو حذو رسول الله في الهدى والسلوك ولكن انّى لهم الذكرى، وقد استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله.

❊ ❊ ❊

المعارك تتجدّد بين الأتراك والبويهيين

قلنا انّ أعداداً كبيرة من الأتراك كانت موجودة في ظل البويهيين والسلاجقة، وكانت لهم صولات وجولات ومشاكل ومتاعب.

يقول عنهم الدكتور عبدالنعيم محمّد حسنين:

وكان الترك أقوى الطوائف نفوذاً في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، فكان سلطانهم طاغياً في النواحي السياسية والحربية، فسلبوا الخلفاء سلطتهم في هذه النواحي.

وكانت أمّهات الخلفاء العباسيين تركيات، فتدخلنّ من وراء حجاب في توجيه دفّة السياسة وفي تـ نية الوزراء وعزلهم، كما تدخلن في ولاية العهد واختيار من يلي

الخلافة ممّا أشعل نيران الفتنة والمنافسة بين أفراد البيت العباسي وهيّأ فرص التنازع والانقسام داخل الدولة العباسية.

فأدّت الأحوال المضطربة إلى تقلّباتها في الأوضاع السياسية وسقوط دويلات ودول وحلول أخرى محلّها[1].

وشغب الأتراك على جلال الدولة (البويهي) سنة ٤٣٢هـ وخيّموا بظاهر البلد ونهبوا منها مواضع، وخيّم جلال الدولة بالجانب الغربي وأراد الرحيل عن بغداد، فمنعه أصحابه.

فاستمدّ (دبيس بن مزيد) و (قرواشاً صاحب الموصل) فأمدّوه بالعساكر، ثمّ صلحت الأحوال بينهم وعاد إلى داره.

وطمع الأتراك وكثر نهبهم وتعديهم، وفسدت الأمور بالكلّيّة[2].

ومعنى ذلك انّ قوّة الأتراك، كانت بحيث تهدد قوّة السلطان جلال الدولة حتّى أراد الرحيل من بغداد خوفاً منهم، ولم يستطع الوقوف أمامهم إلّا بعد أن استنجد بصاحب الحلّة وصاحب الموصل.

ولكن الأتراك أحسّوا بضعف السلطان فزاد طمعهم ونهبهم للبلاد.

❊ ❊ ❊

ويقول ابن الأثير:

وفي هذه السنة (٤١٩هـ) ثار الأتراك ببغداد على جلال الدولة وشغبوا وطالبوا الوزير (أبا علي بن ماكولا) بمالهم من العلوفة والأدرار، ونهبوا داره ودور كتّاب الملك وحواشيه حتّى المغنين والمخنثين ونهبوا صياغات أخرجها جلال الدولة لتضرب دنانير ودراهم وتفرّق فيهم.

وحصروا جلال الدولة في داره ومنعوه الطعام والماء حتّى شرب أهله ماء البئر.

---

١ ـ إيران والعراق في العصر السلجوقي / ص ١٢.

٢ ـ تاريخ ابن خلدون / ج ٣ / ص ٤٥٠.

فسألهم أن يمكنوه من الانحدار، فاستأجروا له ولأهله وأثقاله سفناً، فجعل بين الدار والسفن سرادقاً لتجتاز حرمه فيه لئلّا يراهم العامّة والأجناد.

فقصد بعض الأتراك السرادق، فظن جلال الدولة انّهم يريدون الحرم، فصاح بهم يقول: بلغ أمركم إلى الحرم، وتقدم إليهم وبيده طَبَر[١].

فصاح صغار الغلمان والعامّة: جلال الدولة يا منصور، ونزل أحدهم عن فرسه وأركبه إيّاه وقبلوا الأرض بين يديه.

فلمّا رأى قواد الأتراك ذلك، هربوا إلى خيامهم بالرملة وخافوا على نفوسهم، وكان في الخزانة سلاح كثير فأعطاه جلال الدولة أصاغر الغلمان وجعلهم عنده.

ثمّ أرسل إلى الخليفة ليصلح الأمر مع أولئك القواد، فأرسل إليهم الخليفة القادر بالله، فأصلح بينهم وبين جلال الدولة، وحلفوا، فقبلوا الأرض بين يديه ورجعوا إلى منازلهم، فلم يمض غير أيّام حتّى عادوا إلى الشغب.

فباع جلال الدولة فُرشه وثيابه وخيمه وفرّق ثمنها فيهم حتّى سكنوا[٢].

* * *

لقد نهب الأتراك دور المغنين والمخنثين...

ففي قصور الملك مغنون ومخنثون.

أمّا المغنون فلتطييب اسماع جلالة الملك (جلال الدولة).

وأمّا المخنثون فلتطييب نفسه فيهم.

نعم، ملك المسلمين في عاصمة دولة المسلمين تحت ظل خليفة المسلمين يأوي المخنثين في قصره المنيف ليقضي فيهم وطره.

والانسان مجبول على الشر، والنفس أمّارة بالسوء، ولكن الملك وكل الأشرار من أمثاله، كان يشجعهم في أعمالهم المنكرة تصرف الخلفاء أنفسهم.

---

١ ـ الفأس.

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٨ / ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

فالفضائح الّتي وصلت إلينا من قصور الخلفاء من بعد ألف سنة، لا شك انّها كانت في تلك الأيّام على ألسنة العوام من الناس.

فإذا كان أمير المؤمنين لواطاً فليكن ملك المسلمين كذلك ولينتشر المنكر ويكثر العيّارون واللّصوص.

ثمّ فليبكوا على دولتهم الّتي أسقطها المغول وليلطموا على وجوههم، (فعلى نفسها جنت براقش) امّا اللعنة فعلى من أسّس أساس الظلم والجور، ومَن سنّ سنّة سيّئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم الدّين.

ولقد وجد (اللواط) طريقه إلى دولة بني العباس منذ يوم أمير المؤمنين الأمين ثمّ في قصر قاضي القضاة يحيى بن أكثم، وهلم جرّا...

ويعود ابن الأثير فيقول:

في هذه السنة ٤٢٣ في ربيع الأوّل (ولا زلنا في عهد البويهيين).

تجدّدت الفتنة بين جلال الدولة وبين الأتراك، فأغلق بابه، فجاءت الأتراك، ونهبوا داره وسلبوا الكتّاب وارباب الديوان ثيابهم...

وخرج جلال الدولة إلى عكبرا في شهر ربيع الآخر، وخطب الأتراك للملك (أبي كاليجار) وأرسلوا إليه يطلبونه وهو بالأهواز، فمنعه العادل (بن مافنه) عن الإصعاد إلى ان يحضر بعض قوادهم، فلمّا رأوا امتناعه من الوصول إليهم، أعادوا خطبة جلال الدولة، وساروا إليه وسألوه العود إلى بغداد واعتذروا.

فعاد إليها بعد ثلاثة وأربعين يوماً ووزر له أبو القاسم (ابن ماكولا) ثمّ عزل ووزر بعده عميد الدولة أبو سعد بن عبدالرحيم، فبقي وزيراً أيّاماً ثمّ استتر، وسبب ذلك ان جلال الدولة تقدم إليه بالقبض على أبي المعمر إبراهيم بن الحسين البسّامي طمعاً في ماله، فقبض عليه وجعله في داره، فثار الأتراك وأرادوا منعه، وقصدوا دار الوزير وأخذوه وضربوه وأخرجوه من داره حافياً ومزّقوا ثيابه وأخذوا عمامته وقطّعوها وأخذوا خواتيمه من يده، فدميت اصابعه.

وكان جلال الدولة في الحمّام، فخرج مرتاعاً، فركب وظهر لينظر ما الخبر؟

فأكبّ الوزير يقبّل الأرض ويذكر ما فُعِلَ به، فقال جلال الدولة: أنا ابن بهاء الدولة وقد فُعل بي أكثر من هذا، ثمّ أخذ من البسّامي ألف دينار واطلق، واختفى الوزير[١].

* * *

هكذا كانت قوّة الأتراك.

كانوا في البداية مماليك، جاء بهم المعتصم ليفتخر بهم، وميّزهم بالرزق واللباس ومناطق الذهب، وشعروا هم بالإمتنان على الخليفة، فعاثوا فساداً.

وخشي المعتصم من أهل بغداد، فهرب إلى سامراء، ثمّ اشتدّت شوكتهم وتغلبوا على الخلفاء وأمور الخلافة، ونفذ أمرهم في البلاد والعباد، حتّى لم يعد الخليفة ولا السلطان يستطيع ان يقلل من امتيازاتهم ونفوذهم. فهم لكل من تسوّل له نفسه ذلك بالمرصاد، يسحبونه من عمامته ويسملون عينيه ويرضّون خصيتيه.

وتستمرّ الخلافة هكذا... من سيّئ إلى أسوأ، منذ كان الأتراك الوحيدين في الميدان مع الخليفة، ثمّ دخل البويهيون عنصراً جديداً ومن ثمّ السلاجقة.

ولكن الأتراك كانوا قد ضربوا بجذورهم في الأعماق، فكثير من أمّهات الخلفاء تركيات، ثمّ انّ الأتراك يوم دخل البويهيون كانوا قد مرّ عليهم أكثر من مائة وعشر سنوات، ومعنى هذا انّهم قد تناسلوا فأصبحوا يعدّون بمئات الآلاف.

وهكذا يزدادون لينغّصوا على الخلفاء والسلاطين حياتهم. يضاف إلى ذلك انّ الخلفاء أنفسهم انصرفوا إلى ما يشبع غرورهم وشهواتهم وملذّاتهم.

ولعلّهم كانوا يفرحون ويشعرون بالسرور عندما كانوا يجدون غيرهم من سلاطين ومماليك يتخاصمون فيما بينهم وهم يرفلون بالدعة وحفلات الغناء والرّقص في حضرة الجواري والخصيان والمخنثين، وقرع الطبول باليوم خمس مرّات.

وأخيراً يأتي التتار عندما يجدون انّ الغنيمة باردة وجاهزة لا يحتاج التهامها إلى

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٨ / ص ٢٠٣.

كثير عناء، فقد أعان العباسيون على أنفسهم (كالساعي لحتفه بظلفه).

* * *

الأتراك نغّصوا على جلال الدولة حياته

وإذا كان الأتراك قد أخرجوا جلال الدولة من بغداد ونهبوا داره وسلبوا كتّابه ثيابهم، ثمّ أرضوه وأرجعوه واعتذروا إليه.

فانّهم لن يهدأوا ولن يتركوا طريقتهم، وسوف يواصلون شغبهم، وهو الّذي حدث عام ٤٢٧هـ.

يقول ابن الأثير:

في هذه السنة ثار الجند ببغداد بجلال الدولة وأرادوا اخراجه منها، فاستنظرهم ثلاثة أيّام، فلم ينظروه ورموه بالآجر، فأصابه بعضهم.

واجتمع الغلمان فردّهم منه، فخرج من باب لطيف في سمّارية[١] متنكّراً، وصعد راجلاً منها إلى دار المرتضى بالكرخ، وخرج من دار المرتضى وسار إلى رافع ابن الحسين بن مقن بتكريت.

وكسر الأتراك أبواب داره ودخلوها ونهبوها وقلعوا كثيراً من ساجها وأبوابها، فأرسل الخليفة إليه وقرّر أمر الجند وأعاده إلى بغداد[٢].

* * *

فأي مجتمع هذا؟

لا الخليفة آمن ولا الملك آمن ولا الوزير والكتاب ولا الناس والجند آمنون، انّه مجتمع يشبه إلى حدٍّ ما مجتمع الغابة، القوي يأكل الضعيف.

وإذا كان بعضهم قوياً هذا اليوم، فسوف يكون ضعيفاً غداً وهكذا... ومن

١ ـ السمّارية نوع من الزوارق النهرية.

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج٨ / ص ٢١٩.

المسؤول عن ذلك كلّه؟

لانستطيع أن نبرئ أحداً من أولئك، فكلّهم يحمل نفساً عدوانية، ونفساً شهوانية، ينتقم ليشبع رغباته وملذاته، وإن كنّا نوجّه اللوم بصورة أكبر لأمراء المؤمنين، الخلفاء الأجلاء الّذين كانوا يعتبرون أنفسهم ظل الله في الأرض.

ارتضوا هذه النتيجة بمحض إرادتهم ورغبتهم يوم انصرفوا لصبيانهم وخصيانهم واكتفوا من أمور الخلافة بقرع الطبول!

ألا شاهت الوجوه...

* * *

ولكن العجيب في الأمر، ان جلال الدولة على رغم تكرّر هروبه من الجند الأتراك، وتلقيه الاهانات، ونهب داره لعدّة مرّات، فانّه يطلب من الخليفة القائم ان يخاطبه بملك الملوك وكأنّه كان قد حقّق انتصارات باهرة على ملوك الأرض، وتوسعت رقعة الدولة العباسية ورجعت إليها عزّتها وكرامتها. فطلب هذا اللقب باستحقاق!

ولكن الخليفة امتنع في البداية، ثمّ وافق بشرط ان يفتي له الفقهاء بجواز ذلك وأصحاب الفتيا حاضرون لما يريده الخليفة. فالتغيير أصابهم أيضاً كما أصاب الخلفاء والناس أجمعين.

وأصبحوا وعاظاً للسلاطين رغبة أو رهبة، فأفتوا بجواز ذلك. فجرى ذكر جلال الدولة في الخطب بهذا اللقب الجديد «ملك الملوك»[١].

* * *

وعلى رغم انّ الخليفة القائم بأمر الله، كان قد منح جلال الدولة (ملك الملوك) إلّا انّ الوحشة وقعت بينهما عام ٤٣٤ هـ وبلغت حدّاً انّ الخليفة جمع الهاشميين بالدار

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٨ / ص ٢٢٧.

والرجّالة، وتقدم باصلاح الطيار والزبازب[١] وأرسل إلى أصحاب الأطراف والقضاة بما عزم عليه وأظهر العزم على مفارقة بغداد.

ثمّ سوّيت الأمور بينهما واستقرّت الحال[٢].

* * *

مات جلال الدولة (ملك الملوك) وتحرّك الأتراك للشغب والنهب

وتوفّي جلال الدولة عام ٤٣٥هـ، وقد كان بلغ من الضعف وشغب الجند واستبداد الأمراء والنواب فوق الغاية.

وموت جلال الدولة كان مناسبة فريدة استغلها الأتراك للقيام بالشغب والنهب. فهرب الوزير كمال الملك وأصحاب السلطان الأكابر إلى حريم دار الخلافة خوفاً من الأتراك والعامّة، واجتمع قواد العسكر فمنعوهم من النهب[٣].

* * *

إنّ هذه الحادثة توضح لنا قوّة الأتراك عندما يقومون بعملية الشغب، خصوصاً إذا قامت معهم العامّة، فيحدث نفير عام عند قواد العسكر وأصحاب السلطان الأكابر، فيهربون جميعهم ويلجأون إلى حريم دار الخلافة.

وإذا كان هذا حال الأكابر وحال السلطان (ملك الملوك) من قبل، فالخليفة أمير المؤمنين هو كذلك أيضاً، إن لم يكن أكثر بؤساً وأشد ذلّة، فليس الخليفة مهتماً بحفظ النظام، وانّما هو مفوّض ذلك إلى السلطان الّذي له شرق الأرض وغربها.

نقطة الارتكاز (باب الخليفة) فما عدا ذلك فهو للسلطان، والسلطان هو الّذي رأيناه، مع انّه لقّب بملك الملوك، كان كثير الهرب عن الأتراك، ثمّ يدفع لهم ما

---

١ ـ أنواع من السفن.

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٨ / ص ٢٥٩.

٣ ـ تاريخ ابن خلدون / ج ٤ / ص ٤٨٤.

يريدون، فيرضون عنه ويرجع إلى دست المملكة في بغداد وهكذا...

وأخيراً يموت، فيثورون على قصره ويهرب قواد العسكر وأصحاب السلطان الأكابر.

واللطيف في الأمر ان هؤلاء الأكابر (الأصاغر) كانوا يعلمون أنّ الأتراك سوف يثورون في وجوههم، فاتخذوا الحيطة باللجوء إلى حريم دار الخلافة.

يا بئس الحال ويا بئس الرّجال وبئس السلاطين والخلفاء.



هبّت رياح طغرلبك فاشتط الأتراك وتطاولوا إلى الفتنة

وفي عام ٤٤٦هـ كانت رياح طغرلبك السلجوقي تهب على بغداد بعد انتصاراته واستيلائه على النواحي واحتمال دخوله بغداد.

والأتراك كانوا يغتنمون كل فرصة ومناسبة ليثوروا ويطالبوا بالأرزاق والرسوم[١] والرياح هذه كانت فرصة جيّدة لهم.

ولذلك يقول ابن خلدون:

كان الأتراك من جند بغداد قد استفحل أمرهم على الدولة واشتطّوا وتطاولوا إلى الفتنة عندما هبّت ريحها بظهور طغرلبك واستيلائه على النواحي، فطالبوا الوزير في محرّم ٤٤٦ هـ بمبلغ كبير من أرزاقهم ورسومهم وأرهقوه، واختفى في دار الخلافة، فاتبعوه وطلبوه من أهل الدار، فجحدوه، فشغبوا على الديوان وتعدّوا إلى الشكوى من الخليفة وساء الخطاب بينهم وبين أهل الديوان وانصرفوا... وشاع بين الناس انّهم محاصرون دار الخلافة... ووقف أهل الدروب لمنع بيوتهم من الأتراك، فنهبوا

---

١ ـ كان من الرسوم (رسم البيعة والاستيزار) فالخليفة الجديد عندما يبايع له كان لابدّ أن يدفع للجند رسماً زائداً على أرزاقهم، هدية لهم للفرحة الّتي عمّت الخليفة وعمّت البلاد والعباد، وكذلك الأمر في الاستيزار.

الواردين وعدمت الأقوات... إلى أن ظهر الوزير وقام بهم بما عليهم من أثمان دوابه وقماشه واتصل الهرج وعاد الأعراب والأكراد إلى العبث والإغارة والنهب والقتل... وقوي طمع السلجوقية في البلاد وخافت الديلم[1].

* * *

هكذا تتسلسل الأمور:

الخليفة (المعتصم بالله) يرغب بهذا العنصر الجديد من المماليك الّذين كانت ألوانهم تختلف عمّا ألفوه من ألوان المماليك الآخرين.

وكان يعتزّ بهم ويفضلهم على غيرهم في الامتيازات واللِّباس ومناطق الذهب، فأخذت أولئك العزّة والكبرياء والترفّع والتجبّر على بقيّة الجند أوّلاً، ثمّ على سائر الناس ثمّ على الخلفاء أنفسهم، فكانوا يقتلونهم ويسملون عيونهم وينصبون غيرهم ممّن يرغبون به وممّن يرون انّه سوف يكون آلة صمّاء بأيديهم.

وضعفت الدولة بضعف خلفائها، وازداد العيارون شرّاً وبلاءً، وتحرك الأعراب والأكراد وقطاع الطرق واللصوص.

وأصبحت الدولة مطمعاً لملوك الأطراف، فدخل البويهيون حلبة الميدان، لأنّهم وجدوا في دار الخلافة غنيمة باردة ذات طعم جديد.

واشترك البويهيون مع الآخرين في التخريب وانتهاك الحرمات وإشاعة الفساد، وكان السلاجقة بعيدين عن بغداد ودولة العباسيين، ولكنّهم الآن في عام ٤٤٦هـ وجدوا أنّ الأمور أصبحت تقترب لتحقّق مطامعهم، وهو الّذي يقوله ابن خلدون (وقوي طمع السلاجقة في البلاد).

وخافت الديلم من الترك في الداخل ومن السلاجقة الّذين يتحفّزون للانقضاض على بغداد.

---

١ ـ تاريخ ابن خلدون / ج ٣ / ص ٤٥٧.

وسوف نرى في المستقبل كيف يتدحرج الخلفاء إلى الحضيض ويتسافلون ليتحرك التتـار ويلتهموا ما بقي من الدولة الّتي تقطعت أوصالها وتعمّق خوارهـا وتـقضّمت أطرافها.

ونتطرق الآن إلى ذكر السلاجقة، وسوف يتداخل الحديث في البداية عنهم وعن البويهيين، ثمّ يتلاشى وجود البويهيين ليتركّز الحديث عن السلجوقيين.

❊ ❊ ❊

السّلاجقة
ودورهم في تخريب البلاد

تعريف بالسّلاجقة

كان السلاجقة مجموعة من القبائل التركية تنتمي - في الأصل - إلى طائفة الأوغوز[١] الّتي كانت قبائلها تنتشر في تركستان وماوراء النهر[٢].

وقد أخذ اسم السلاجقة يذكر في الكتب المختلفة وبخاصّة كتب التاريخ في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري منذ عام ٣٧٥هـ - ٩٨٥م تقريباً.

أي بعد أن تولّى سلجوق زعامتها ووحد شملها وقادها إلى منازلها في الهضاب القريبة من بحيرة خوارزم، فكانت تنزل بالقرب من السواحل الشرقية لبحر قزوين[٣] وفي الهضاب المحيطة بنهري سيحون وجيحون، وتتنقّل في هذه المنطقة في أثناء رحلتي الشتاء والصيف، فكانت مساكنها حينذاك تقع بين بلاد ماوراء النهر.

ويبدو أنّ القبائل التركية الّتي ينتمي إليها السلاجقة هاجرت من أقصى بلاد التركستان في خلال القرن الثاني الهجري ثمّ أخذت تتنقّل في أنحاء التركستان متجهة نحو الغرب حيث تتوافر موارد المياه حتّى طاب لها المقام في القرن الرابع الهجري في بلاد ما وراء النهر[٤].

أمّا صاحب كتاب الفخري فيقول:

هم قوم أصلهم من الترك الخزر، وكانوا يخدمون مع ملوك الترك، ونشأ جدّهم سلجوق، وكانت امارات النجابة لائحة عليه ودلائل السعادة ظاهرة على حركاته، فقرّبه ملك الترك واختص به ولقبه (شباشي) ومعناه في لغتهم قائد الجيش.

---

١ - خفف هذا الاسم على مرّ العصور فصار (الغزّ).

٢ - المقصود بالنهر، نهر جيحون.

٣ - سمي هذا البحر بعد ذلك بحر الخزر وهي التسمية الرائجة الآن.

٤ - إيران والعراق في العصر السلجوقي / للدكتور عبدالنعيم محمّد حسنين / ص ٢٤.

فنبغ سلجوق بعلوّ همّته واستمال قلوب الرجال بكرمه وعقله، وانقادت الأكابر إليه.

فيُقال انّ زوجة ملك الترك قالت لزوجها، إنّي أتوسّم في سلجوق تغلّباً عليك، والرأي عندي أن تقتله، فقد كثر ميل الناس إليه.

فقال لها: سوف أبصر ما أصنع في أمره.

ثمّ أحسّ سلجوق بشيء من ذلك العزم، وظهر له التغيّر، فجمع عشيرته ومن تبعه وحالفهم واستجلب من أطاعه وصار قائداً معظماً للغُزّ. ونفر بهم من بلاد الترك إلى بلاد المسلمين. فلمّا دخلها أظهر الاسلام ليكون المسلمون عوناً له وليمكّنوه من المراعي والمساكن.

ونزل بالجند وشرع في غزو من قاربه من أصناف الترك، وكان لملك الترك (إتاوة)[1] على تلك البلاد المتاخمة له، فقطعها سلجوق وطرد نوابه.

ومات سلجوق وعمره مائة سنة.

ثمّ نشأ أولاده في القوّة والنعمة والدولة، فاستولوا على كل موضع استضعفوه من العجم.

وما زال أمرهم ينمى حتّى ملكَ (طغرل بك) ـ وهو أوّل سلاطينهم ـ طائفة من بلاد العجم[2].

* * *

طغرل بك يضع عينه على العراق

وعندما وجد طغرلبك نفسه قد انتصر انتصاراً باهراً على الغزنويين، قرّر ان يسير هو على رأس أكبر جيوش السلاجقة لفتح قلب إيران، ثمّ يسير بعد استكمال سيطرة السلاجقة على إيران لفتح العراق وبسط نفوذ السلاجقة على عاصمة الخلافة الاسلامية.

---

١ ـ الاتاوة بمعنى الضريبة.

٢ ـ الفخري لابن الطقطقي / ص ٢٩٢.

كما قرّر اتّخاذ (الري) عاصمة لدولة السلاجقة الكبرى بدلاً من نيسابور، حتّى تكون العاصمة الجديدة في مكان وسط بالنسبة لأقاليم الدولة المختلفة[1].

وأخذ طغرل بك يحقق آماله بعد تنظيم صفوف السلاجقة وتحقيق هدفهم، فبدأ بالكتابة إلى الخليفة العباسي (القائم بأمر الله) طالباً منه الاعتراف بقيام دولة السلاجقة حتّى تأخذ صفة رسمية وتصطبغ بصبغة شرعية، فيستطيع السلاجقة التحرّك وفتح الأقاليم المختلفة على انّهم جنود الخلافة العباسية.

وكانت رسالة طغرل إلى الخليفة (القائم بأمر الله) العباسي في عام ٤٣٢ هـ متضمّنة ولاء السلاجقة للخلافة العباسية وحبّهم للجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاته، ثمّ طلب السلاجقة في نهاية رسالتهم من الخليفة العباسي الموافقة على قيام دولتهم والاعتراف بشرعية قيامها على أساس من الدين وأمرٍ من أمير المؤمنين[2].

* * *

القائم بأمر الله

يعترف بدولة السلاجقة لقاء عشرة آلاف دينار

والسلاجقة كانوا أذكياء في خطوتهم بأخذ الاعتراف بدولتهم من الخليفة. والواقع أن دولتهم كانت قائمة منذ عام ٤٢٩ هـ، ولكنّهم كانوا يعرفون ضعف الخليفة ودولة الخلافة العباسية، وكانت أطماع طغرل بك كبيرة وواسعة.

وكان كثير من الناس البعيدين عن الصراعات داخل دولة الخلافة لا يزالون يكنّون احتراماً للدين ويعتقدون أنّ خليفة بغداد هو حامي هذا الدين، خصوصاً أولئك الّذين كانوا يعيشون بعيدين عن العراق، فانّ أنباء فسق الخلفاء لم تكن تصلهم بصورة موسّعة.

---

١ ـ إيران والعراق في العصر السلجوقي للدكتور عبدالنعيم حسنين / ص ٢١.

٢ ـ المصدر السابق / ص ٤١.

فأراد طغرل أن يستغل هذا الجانب (الاعتراف بوجوده ودولته) عسى أن ينفعه في توسعاته الّتي يصبو إليها.

ولكنّنا سوف نرى انّ السلاجقة ليس فقط لا يعترفون بالخلافة، وانّما يـقتلون الخلفاء.

وعلى كل حال فقد شعر الخليفة العباسي القـائم بأمر الله بازدياد قوّة السلاجقة وارتفاع نجمهم واطّراد تقدّمهم، فبادر بارسال مبعوث من قبله إلى مدينة (ري) يحمل دعوة من الخليفة للسلطان السلجوقي لزيارة بغداد[١].

والخليفة لم يعترف فقط بدولة السلاجقة وانّما وجّه دعوة للسلطان طغرل ليزور بغداد ولعلّ الخليفة استبق الأحداث، فوجد أن طغرل سوف يغزو بغداد إن عاجلاً أو آجلاً، فأراد أن يمنّ عليه بتوجيه الدعوة إليه.

ربّما كان يتصوّر انّه سوف يتخلّص بالسلاجقة من مشاكل الديالمة، ولكنّه أخطأ كثيراً فالديالمة كانوا قد ضعفوا كثيراً، وكانوا يلفظون أنفاسهم الأخيرة في العراق.

وكان بإمكان الخليفة القائم نفسه أن يستعد لفراغ الساحة من الديالمة ليقوي نفسه ودولته، ولكنّه استقدم السلاجقة ليكونوا وبالاً عليه وعقبة كأداء أمام الخلفاء مـن بعده.

يقول ابن خلدون:

إنّ الخليفة القائم بأمر الله بعث إلى طغرلبك بالخلع والألقاب وولّاه ما غلب عليه، فبعث إليه طغرلبك بعشرة آلاف دينار واعلاق نفيسة من الجواهر والثياب والطيب وإلى الحاشية بخمسة آلاف دينار وللوزير رئيس الرؤساء بألفين، وحضروا العيد في سنة ٤٤٣هـ ببغداد، فأمر الخليفة بالاحتفال في الزينة، والمراكب والسلاح[٢].

---

١ ـ إيران والعراق في العصر السلجوقي / ص ٤١.

٢ ـ تاريخ ابن خلدون / ج ٣ / ص ٤٥٥.

وقد أبلغ مبعوث الخليفة السلطان السلجوقي بأن الخليفة سُرّ برسالة السلاجقة إليه أيّما سرور وتقبلها بقبول حسن، وردّ عليها ردّاً رقيقاً يتضمّن موافقته على قيام دولة السلاجقة، وانّ الخليفة يسرّه أن يرى سلطان السلاجقة في بغداد مقرّ الخلافة ضيفاً عزيز وزائراً كريماً.

فأحسن طغرل استقبال مبعوث الخليفة ورحّب بدعوته إيّاه لزيارة بغداد، ووعد بالقيام بها في الوقت المناسب.

وظل مبعوث الخليفة مقيماً في الري ثلاث سنوات لاصطحاب طغرل حين يتوجّه لزيارة بغداد. ثمّ رجع وحده بعد أن أكّد له طغرل حرصه على هذه الزيارة بعد فراغه من غزو الأقاليم الغربية والجنوبية من إيران بعد أن بسط سيطرة السلاجقة على الأقاليم الشرقية منها[1].

❊ ❊ ❊

كان السّلاجقة أكبر قوّة في العالم الاسلامي عام ٤٤٧ ﻫ

كان السّلاجقة في عام ٤٤٧ ﻫ أكبر قوّة في العالم الاسلامي بعد أن بسطوا سيطرتهم على إيران وتغلبوا على الغزنويين والبويهيين.

بينما كانت الخلافة العباسية قوّة روحية لا حول لها ولا طول في ميدان الحرب والسياسة. وكانت الأحوال مضطربة نتيجة لتدخل البويهيين وقواد الجند في توجيه سير الأمور وعجز الخليفة عن الصمود في وجه تيارات الأحداث أو القيام بدور إيجابي في توجيه هذه الأحداث، لأن نفوذ جند الأتراك كان طاغياً في بغداد وما جاورها، فلم يكن الخليفة القائم بأمر الله يقوم على معارضة القائد التركي وجنوده.

وفي عام ٤٤٧ ﻫ وقعت فتنة طائفية ببغداد ـ كالعادة بين السنّة والشيعة ـ وفتنة أُخرى بين الأشاعرة والحنابلة، وقوي جانب الحنابلة قوّة عظيمة بحيث انّه كان ليس لأحد من الأشاعرة أن يشهد الجمعة ولا الجماعات[2].

---

١ ـ إيران والعراق في العصر السلجوقي / ص ٤٤.

٢ ـ المصدر السابق / ص ٤٥.

الخليفة القائم يجدِّد دعوته لطغرل بك في زيارة بغداد

لقد كان أرسلان المعروف بـ(البساسيري التركي)[١] قد عظم أمره واستفحل لعدم أقرانه من مقدمي الأتراك واستولى على البلاد وطار اسمه، وخافته أمراء العرب والعجم، ودُعي له على كثير من المنابر العراقية والأهواز ونواحيها.

وشهد جماعة من الأتراك انّه عازم على نهب دار الخلافة، وأنّه يريد القبض على الخليفة.

فعند ذلك كاتب الخليفةُ طغرل بك يستنهضه على المسير إلى العراق.

فانفضّ أكثر من كان مع البساسيري وعادوا إلى بغداد سريعاً، ثمّ أجمع رأيهم على قصد دار البساسيري وهو في الجانب الغربي، فأحرقوها وهدموا أبنيتها.

* * *

طغرل بك يصل بغداد

وصل السلطان طغرل بك إلى بغداد في رمضان سنة سبع وأربعين وأربعمائة، وقد تلقاه في أثناء الطريق الأمراء والوزراء والحجاب.

ودخل بغداد في أبهة عظيمة جدّاً وخطب له بها ثمّ بعده للملك الرحيم (البويهي) ثمّ قطعت خطبة الملك الرحيم ورفع إلى القلعة معتقلاً عليه وكان آخر ملوك بني بويه... ونزل طغرلبك دار المملكة بعد الفراغ من عمارتها ونزل أصحابه دور الأتراك.

ووقعت الفتنة بين الأتراك والعامّة ونهب الجانب الشرقي بكماله، وجرت خبطة عظيمة.

وأمّا البساسيري، فانّه فرّ من الخليفة إلى بلاد الرحبة وكتب إلى صاحب مصر بأنّه على إقامة الدعوة له بالعراق.

---

١ ـ كان مملوكاً تركيّاً لبهاء الدولة.

فأرسل إليه بولاية الرحبة ونيابته بها، ليكون على أهبة الأمر الّذي يريد[١].

❋ ❋ ❋

نشوب القتال بين البساسيري والخليفة ووقوع الخليفة أسيراً

ولكن البساسيري، هذا المملوك التركي، استطاع بدهائه أن يؤثر على أبناء قومه الأتراك، فجمعهم حوله من جديد، وكاتبَ صاحبَ مصر، فأمدّه بالأموال، واستطاع أيضاً أن يثير (ينال) أخا طغرل بك في همدان وأطمعه بمنصب أخيه.

فخرج (ينال)[٢] واشتغل به طغرل بك، ثمّ قدم البساسيري بغداد سنة ٤٥٠هـ ومعه الرايات المصرية، ووقع القتال بينه وبين الخليفة، ودعا لصاحب مصر المستنصر بجامع المنصور.

ثمّ خطب له في كل الجوامع إلاّ جامع الخليفة ودام القتال شهراً.

ثمّ قبض البساسيري على الخليفة في ذي الحجة وسيّره إلى (عانه) وحبسه بها[٣].

وعظم أمر البساسيري بعد استيلائه على بغداد، فتمكن من الاستيلاء على واسط، وظل نفوذه في اتساع حتّى وصل إلى البصرة.

كيف اعتُقِل الخليفة القائم بأمر الله ؟ وكيف تذلّل لأعدائه ؟

الصورة ينقلها لنا صاحب كتاب (المنتظم في تواريخ الملوك والأمم) إذ يقول:

وفي هذا اليوم انقطعت دعوة الخليفة من بغداد (٤ ذي الحجة ٤٥٠هـ) وجرى بين البساسيري وقريش بن بدران في أمر الخليفة من التجاذب ما أدى إلى نقله عن بغداد، وأن لا يكون في يد أحدهما، وتسليمه إلى بدوي يعرف بـ(مهارش) صاحب

---

١ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١٢ / ص ٨٣ ـ ٨٤.

٢ ـ المقصود انّه ثار في وجه أخيه.

٣ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤١٨.

حديثة عانة، واعتقاله فيها إلى ان يتقرّر لهما عزم.

فعرف الخليفة ذلك فراسل (قريش) بالمجيء إليه، فلم يفعل.

فقام (الخليفة) ومشى إلى خيمته (خيمة قريش) فدخل، فعلق بذيله (بذيل قريش) وقال له: ما عرفت ما استقر العزم عليه من إبعادي عنك وإخراجي عن يديك، وما سلّمتُ نفسي إليك إلّا لما أعطيتني الّذي يلزمك الوفاء به.

وقد دخلت الآن إليك ووجب لي عليك ذمام كان، فالله الله في نفسي، فمتى أسلمتني أهلكتني وضيعتني، وما ذاك معروف عند العرب.

فقال: ما ينالك سوء، ولا يلحقك ضيم، غير أنّ هذه الخيمة ليست دار مقام مثلك، وأبو الحارث (البساسيري) لا يؤثر مقامك في هذا البلد، وأنا أنقلك إلى الحديثة وأسلمك إلى (مهارش) ابن عمّي، وفيه دين.

فلا تخف، واسكن إلى مراعاتي لك وعد إلى مكانك.

فلمّا يئس منه، قام عنه وهو يقول: لله أمر هو بالغه، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم[١].

بهذه الذلّة وهذه المسكنة، يتضرّع (الخليفة) ويتوسّل ويتمسّك بذيل (أطرف) ثوب (قريش) على طريقة العوام.

وحيث دخل عليه في خيمته وتمسك بذيله، فاذا أسلمه، فذلك غير معروف عند العرب.

فالخليفة فقد كلّ شيء، ولم تشفع له خلافته وإمارته للمؤمنين، ولا هيبته وهو يمسك بيده القضيب ويلبس البردة ويضع الخاتم في جيبه.

كلّ ذلك لم ينفعه. فهؤلاء المماليك الأتراك الّذين جاء بأجدادهم جدّه (المعتصم) هم الآن يمسكون بالأمور، ولا يعيرون للخليفة أي اهتمام، على رغم ما بذله من ماء

---

١ ـ المنتظم في تواريخ الملوك والأمم / ج ٩ / ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨.

وجهه وتذلّله ومسكنته.

وتلك نتيجة حتمية لأولئك الّذين يدّعون زوراً انّهم خلفاء المسلمين وأمراء المؤمنين، وهم يرتكبون من المنكرات ما لا يرتكبه سفلة الناس.

وسبحان الله الّذي يعزّ مَن يشاء ويذلّ مَن يشاء وهو على كل شيء قدير.

* * *

أنصار الخليفة يستنجدون بالسلطان طغرلبك فيسرع إلى بغداد ويرسل إلى الخليفة من ينقذه من الأسر

واستنجد أنصار الخلافة العباسية بالسلطان طغرل السلجوقي وبخاصّة بعد فراغه من القضاء على ثورة أخيه (ينال).

فأسرع في السير إلى بغداد، وأرسل إلى الخليفة العباسي من يفكّ أسره ويصحبه إلى دار الخلافة بعد أكثر من عام من تركه لها.

بينما آثر (البساسيري) الخروج من العراق والفرار إلى الشام[١].

وأخيراً تتوثّق العلاقة بين الخليفة القائم بأمر الله وبين طغرلبك حيث يتزوج الخليفة ابنة أخي طغرل ويتزوّج طغرل ابنة الخليفة.

* * *

كان هذا اختصاراً شديداً لتكوّن السلاجقة ثمّ نشوء دولتهم، ومكاتبة الخليفة القائم بأمر الله لهم، واستقدام طغرلبك للعراق وتبادل الخلع والهدايا.

ومن ثمّ انقاذ الخليفة من الأسر، وأخيراً التزواج بينهما.

وسوف نرى كيف أنّ الخليفة الناصر لدين الله، يستدعي (التتار) للمنطقة

---

١ ـ إيران والعراق في العصر السلجوقي / ص ٤٩.

الاسلامية ليضرب الخوارزمية، والّذين سوف يطمعون بالدولة العباسية.

ولعلّ الخلفاء كانوا في وضع يضطرون فيه لاستقدام هؤلاء، وهي مسألة طبيعية أن يستنجد الانسان بكل مَن يتصوّر انّه سوف ينقذه ممّا هو فيه.

ولكن نتساءل:

لماذا وصل الخلفاء إلى هذه الدرجة؟

ولماذا أصبحوا يستنجدون بالشر؟

ألم تكن دولتهم تتسع لنصف الدُّنيا؟

ألم تكن الملوك تخضع لهم؟

ألم يكن ملوك الروم يحاولون ان يتقربوا لهم؟

فلماذا هذه النتيجة البائسة الّتي وصل إليها أولئك الخلفاء؟

فكانوا في كلّ يوم يتقربون إلى أمير ووزير وسلطان، ويخلعون عليهم الخلع والألقاب، (عضد الدولة وجلال الدولة وبهاء الدولة وركن الدولة...) أليس هذا خنوعاً؟

أين ذهبت هيبة الخلفاء وعزّتهم؟

ولماذا أراقوا ماء وجوههم وأضاعوا شرفهم وكرامتهم؟

❊ ❊ ❊

إنّ الغلطة الكبيرة الّتي ارتكبها المعتصم في تقريبه للماليك الأتراك جرّت عليه وعلى من جاء من بعده الويلات والمحن الكبار.

وتعرّض الخلفاء بعد ذلك إلى القتل وسمل العيون والتعذيب والحبس والعطش والجوع والإهانات والبصق في وجوههم والصفعات على ظهورهم وتجريدهم من الثياب... وهكذا... كل ذلك وغيره قد جعل أمراء المؤمنين يطلبون النجدة ممّن يتوقّعون ان يرجع إليهم بعض الاعتبار، فكانوا يخلعون الخلع ويضفون الألقاب، حتّى كانت هذه تزيد في ذلتهم وانكسارهم وإن كانوا يتسمّون بأمراء المؤمنين ويحملون

القضيب والبردة والخاتم.

وسوف نرى انّ السلاجقة الّذين طلبهم الخليفة القائم بأمر الله واستقدمهم إلى بغداد، كيف سيكونون شرّاً وبلاء عليه وعلى من جاء من بعده...

والمسألة واضحة جدّاً، فالأساس كان ضعيفاً، وأي محاولة للترميم كانت تزيد البناء ضعفاً حتّى سقط البناء كلّه في حملة قام بها التتار، لأنّهم حينذاك أصبحوا طعمة للطامع وبلغة للراغب.

لقد ذهب آل بويه وجاء عهد آل سلجوق ليكون لهم مشوار طويل مع الخلفاء العباسيين والدولة العباسية.

وكالعادة، فانّ الأمير الجديد أو السلطان الجديد، يحضى بخدمة الخليفة ليخلع عليه ويوليه الشرق والغرب في الدُّنيا.

* * *

يقول ابن الوردي:

وفيها (أي في سنة ٤٤٩هـ) عاد طغرلبك إلى بغداد، فتلقّاه كبراء بغداد، مثل عميد الملك وزيره بها ورئيس الرؤساء (وزير الخليفة).

وقصد الاجتماع بالخليفة القائم، فجلس له الخليفة وعليه البردة على سرير عال عن الأرض نحو سبعة أذرع وحضر طغرلبك في جماعته وحضر أعيان بغداد وكبراء العسكر، فقبّل طغرلبك الأرض ويد الخليفة، ثمّ جلس على الكرسي.

ثمّ قال له الخليفة مع رئيس الرؤساء: انّ الخليفة قد ولّاك جميع ما ولّاه الله تعالى من بلاده، وردّ إليك مراعاة عباده، فاتق الله فيما ولّاك واعرف نعمته عليك.

وخلع على طغرلبك واعطى العهد، فقبّل الأرض ويد الخليفة ثانياً وانصرف.

فبعث إلى الخليفة خمسين ألف دينار وخمسين مملوكاً من الأتراك بخيولهم وسلاحهم وقماشهم [1].

---

١ ـ تاريخ ابن الوردي / ج ١ / ص ٣٤٦.

نعم، هكذا يولي الخليفةُ السلطانَ جميع ما ولّاه الله تعالى من بلاده، وكأنّ الخليفة القائم قد نصّ الله عليه بالوحي كما ينص على الأنبياء والمرسلين.

وهذه مقولة يكررها كلّ الخلفاء أولئك، في حين أنّ الأتراك والمماليك هم الّذين كانوا يعيّنون الخليفة ويقتلونه أو يسملون عيونه، ثمّ يختارون الّذي يليه ضعيفاً ليكون في متناول أيديهم.

فمتى ولّاه الله على البلاد والعباد؟

ولكنّها فرية يخدعون بها الناس، وربّما أصبح الخليفة يعتقد بها لكثرة ترديدها ومخاطبة الناس له بذلك.

والسلاجقة الّذين كان يستبشر بهم الناس والخليفة خاصّة لينقذوهم من البويهيين، سوف نرى انّ السلاجقة بشر كغيرهم تهويهم السلطة والأموال والنِّساء والتيجان، وإذا احترموا الخليفة يوماً فلمصلحة آنية، وقد تقتضي مصلحتهم ان يخلعوا الخليفة وربّما يقتلونه.

* * *

السّلاجقة يغتصبون دور الناس ويعيثون فساداً

وذهب طغرل بك لبعض حروبه، ورجع إلى بغداد عام ٤٥٥هـ.

ويقول صاحب كتاب الشذرات عن ذلك:

فيها (أي في ٤٥٥هـ) دخل السلطان أبو طالب محمّد بن ميكال سلطان الغزّ المعروف بطغرلبك، بغداد، فنزلوا في دور الناس وتعرّضوا لحرمهم. حتّى أنّ قوماً من الأتراك صعدوا إلى جامات الحمامات ففتحوها ثمّ نزلوا، فهجموا عليهنّ[١] وأخذوا من أرادوا منهنّ وخرج الباقيات عُراة[٢].

فقد تكشّفت أخلاق السلاجقة وظهرت للعيان تصرفاتهم ونواياهم، لقد كانوا

---

١ ـ هجموا على النِّساء في الحمامات.

٢ ـ شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي / ج ٣ / ص ٢٩٤.

بعيدين عن الحضارة، ولم يكن الدين قد تعمق في قلوبهم.

والواقع انّ الناس شاهدوا فساد الغزّ منذ الأيّام الأولىٰ من دخولهم بغداد، يقول صاحب كتاب المنتظم عن حوادث عام ٤٤٧هـ:

وكثر فساد الغزّ ونهبهم، فثار العوام وقتلوا عدداً من الغزّ وكثر النهب حتّى بلغ الثور خمسة قراريط إلى عشرة والحمار قيراطين إلى خمسة[١].

وكان السلاجقة قد أجازوا فتح مواخير الخمر في بغداد، عاصمة الخلافة العباسية، ولم تغلق إلّا بعد أن أسيء إلى القرآن.

يقول صاحب كتاب المنتظم:

وفي ربيع الآخر / ٤٥٤هـ عطّلت المواخير وغلقت ونودي بإزالتها، وكان السبب انّه كثر الفساد وشرب الخمر، وشرب رجل يهودي وتغنّى بالقرآن[٢].

ولولا ذلك لبقيت مباحة ببركة السلطان طغرل بك الّذي يصفه وعاظ السلاطين ـ كالعادة ـ بأنّه في غاية العبادة.

فلنستمع لما يقوله صاحب كتاب شذرات الذهب:

وكان عادلاً في الجملة، حليماً، كريماً، محافظاً على الصّلوات، يصوم الخميس والإثنين ويعمر المساجد[٣].

❊ ❊ ❊

الخشية تدفع الخليفة أن يتزوّج ابنة أخي طغرل والطمع يدفع طغرك أن يتزوّج بنت الخليفة

وأراد الخليفة القائم بأمر الله أن يوثق علاقته بالسلاجقة ليتقوّى بهم ويزداد بهم صلابة، فتزوّج ابنة أخي طغرل بك.

---

١ ـ المنتظم في تواريخ الملوك والأمم / ج ٩ / ص ٤٧٨.

٢ ـ المصدر السابق / ص ٤٤٣.

٣ ـ شذرات الذهب / ج ٣ / ص ٢٩٥.

وهذا أطمع طغرل بك أيضاً أن يتزوّج ابنة الخليفة عام ٤٥٤هـ، بعد أن خوّله الخليفة حكم المشرق والمغرب، فسوف يكون في هذه النسبة الجديدة محسوباً على العائلة العباسية صاحبة السمعة، وفيها الخلافة وإمرة المؤمنين.

ولكن الخليفة لم يكن راضياً بتزويج ابنته من طغرل، ودافع بكل ممكن وانزعج واستعفى، ثمّ لان لذلك برغم منه.

وهذا أمر لم ينله أحد من ملوك بني بويه مع قهرهم للخلفاء وتحكمهم فيهم[1].

❊ ❊ ❊

فما هو المقصود بـ (ثمّ لان برغم منه)؟

فلقد أرغم أمير المؤمنين القائم بأمر الله بتزويج ابنته من شخص غير عربي، وهو الّذي كان يدافعه وينزعج منه.

ولم يتمكّن الخليفة أن يبقى ممتنعاً، فقوّة السلاجقة هؤلاء الّذين وردوا بغداد كانت تقهره، ويحقّقون ما يريدون، ثمّ انّه كان يخشى على وجوده وخلافته إذا استمرّ في الامتناع، فوافق أخيراً صاغراً.

وفي سنة ٤٥٥هـ دخل السلطان بابنة الخليفة، وضمّن بغداد بـ ١٥٠ ألف دينار، ثمّ رجع إلى الري.

واقيم في السلطنة بعده ابن أخيه عضد الدولة ألب أرسلان وبعث إليه القائم بالخلع والتقليد، وهو أوّل مَن ذُكِرَ بالسلطان على منابر بغداد، وبلغ ما لم يبلغه أحد من الملوك[2].

❊ ❊ ❊

وقضيّة التضمين من القضايا الّتي تتكرّر على طول حكم بني العباس.

وهي طريقة وجدوها توفر عليهم كثيراً من المتاعب، وتقلل عنهم كثيراً من

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٢٠.

٢ ـ شذرات الذهب / ج ٣ / ص ٢٩٥.

النفقات، فيعطون بغداد أو البصرة أو أيّة مدينة أخرى لشخص من الأشخاص وغالباً ما يكون من العيارين حتّى يستطيع ان يفرض قوّته وأساليبه في سلب الناس أموالهم ليعطي للخليفة أو للسلطان المبلغ الّذي اتفقا عليه ويأخذ الباقي له هنيئاً مريئاً.

وقد مرّت بنا كثير من قضايا التضمين، وجدنا فيها انّ الخليفة ربّما يبادر إلى عمليات التضمين، وقد قلنا انّه ربّما كان يخشى أن لا تطول فترة خلافته، فيستعجل الجباية وينهب أموال الناس قبل أن تصل إلى غيره، إضافة إلى انّ الخلفاء كانت نفوسهم ضعيفة، وقد وجدنا أنّ القائم يعترف بولاية طغرل بك لقاء عشرة آلاف دينار.

بل انّه كان ربّما يأخذ الرشاوى على انجاز بعض الأعمال.

فلقد كان طغرل بك قد صادر أموال وأملاك (قريش بن بدران) فطلب هذا إلى الخليفة أن يكتب إلى طغرل بإرجاعها وبذل للخليفة عند تمام ذلك عشرة آلاف دينار[١].



مات طغرل وتحرّك العيّارون واللّصوص

ومات السلطان طغرل بك عام ٤٥٥هـ.

وورد الخبر بموته إلى بغداد من جهة زوجته ابنة الخليفة، وكالعادة في تحرّك العيّارين واللصوص في كل حادث، لأنّه ربّما يستتبع أموراً أخرى من عزل أو نصب أو انقلاب على السلطة القائمة.

فما أن انتشر خبر موت طغرل في الأعراب في سواد بغداد وما حولها حتّى ثاروا وقطعوا الطرقات، وأخذوا ثياب الناس حتّى في الزاهر وأطراف البلد واستاقوا من عقرقوف من الجواميس ما قيمته ألوف الدنانير، وامتنعت الزراعة إلّا على المخاطرة، وكثرت استغاثة أهل السواد...[٢]

---

١ ـ المنتظم في تواريخ الملوك والأمم / ج ٩ / ص ٤٣٦.

٢ ـ المصدر السابق / ص ٤٥٠.

حفلات تتويج الملوك تدل على ضعف الخلفاء

وأصبح (ألب أرسلان) سلطاناً بعد طغرل بك، وجاء إلى بغداد عام ٤٥٦هـ لأوّل مرّة وجلس الخليفة جلوساً عامّاً سابع جمادى الأولى، وسلمت الخلع بمشهد من الخلق[١].

والخليفة حاضر دائماً في إعطاء (الخلع والنياشين) على الملوك والسلاطين والوزراء والأمراء وكل الّذين يخافهم الخليفة ويخشاهم.

وهو حاضر أيضاً ان يفوضهم الشرق والغرب عدا باب داره.

وحفلات التكريم تلك بالاضافة إلى انّها تسبغ على الخليفة هيبة وأبهة، فانّه لا شك يقبض فيها (بخشيشاً) لا يقل عن عشرة آلاف دينار.

ولذلك فهو يتمنى لو تتكرر عدّة مرّات بالشهر الواحد.

وفي هذا السياق أرسل السلطان (ألب أرسلان) عام ٤٦٤هـ، يطلب من الخليفة ان يأذن في ان يجعل ولده (ملكشاه) ولي عهده.

فأذن وسيّرت له الخلع مع عميد الدولة[٢].

ولكن السلطان (ألب أرسلان) يقتل عام ٤٦٥هـ، وتنتقل السلطنة إلى ولده (ملكشاه) فيرسل رسوله إلى بغداد عام ٤٦٦هـ، ويجلس الخليفة ويعطيه عهد السلطان، ويكرمه بالخلع.

❊ ❊ ❊

العيّارون يقامرون على موت الخليفة

أمّا الخليفة القائم بأمر الله، فانّه في ٢٨ رجب من عام ٤٦٧هـ تعرّض لمرض،

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٨ / ص ٣٦٧.

٢ ـ المصدر السابق / ص ٣٩١.

وبلغ الناس ذلك، فماجوا واختلطوا وكثر الإرجاف، ونقلوا أموالهم من الحريم إلى دواخل الدار وإلى الجانب الغربي.

وخيف من العيارين، وكانوا يقامرون ويقترضون على موت الخليفة لينهبوا[1] ثمّ اتفقت الوفاة ليلة الخميس ١٣ شعبان / ٤٦٧هـ.

❊ ❊ ❊

فقد كان العيارون يقامرون على موت الخليفة، أحدهم يقول (يموت الخليفة هذا اليوم) والثاني يقول (يموت غداً أو بعد غد) ويجعلون بينهم (جعلاً).

وراجت المقامرة بين الناس، فربح قوم وخسر آخرون.

أمّا لماذا هذا القمار؟

فلأنّ العيارين كانوا ينشطون في الحوادث المهمّة كموت الخليفة، فينهبون الناس أموالهم ويكسبون (ربحاً كثيراً).

ولذلك فانّهم كانوا يقترضون، والوفاء يكون يوم وفاة الخليفة، حيث سوف تصبح لديهم أموال كثيرة يستطيعون ان يسددوا بها ديونهم وزيادة.

تماماً كالموظف الّذي ينفق راتبه، فيستقرض إلى حين يستلم الراتب في نهاية الشهر.

❊ ❊ ❊

السّلطان ملكشاه السلجوقي يطلب من الخليفة المقتدي أن يخرج من بغداد إلى أى بلاد شاء

فقد تولّى (المقتدي بالله) خلافة المسلمين بعد أبيه (القائم بالله)، وقيل عنه أنّه كان رجلاً فاضلاً عالي الهمّة.

ولكن المؤرّخين أولئك جميعهم يذكرون عنه قصّة ليس فيها شيء من علو الهمّة،

---

١ ـ المنتظم في تواريخ الملوك والأمم / ج ٩ / ص ٥١٩.

بل دليل الضعف والخنوع.

فلنستمع لما يقوله صاحب كتاب المنتظم:

في مستهل رمضان، توجه السلطان (ملكشاه) من اصفهان إلى بغداد، بنيّة غير مرضية، ذكر عنه أنّه أراد تشعيث[١] أمر المقتدي... وبعث السلطان إلى الخليفة يقول: لابدّ أن تترك لي بغداد وتنصرف إلى أي البلاد شئت.

فانزعج الخليفة من هذا انزعاجاً شديداً، ثمّ قال:

أمهلني شهراً.

فعاد الجواب: لا يمكن أن تؤخّر ساعة.

فقال الخليفة لوزير السلطان: سله أن يؤخِّرنا عشرة أيّام.

فجاء (الوزير إلى السلطان) فقال: لو أنّ رجلاً من العوام أراد أن ينتقل من دار، تكلّف للخروج، فكيف بمن يريد أن ينقل أهله ومَن يتعلّق به؟ فيحسن أن تمهله عشرة أيّام، فقال (السلطان): يجوز.

فلمّا كان يوم عيد الفطر صلّى السلطان بالمصلّى العتيق وخرج إلى الصّيد، فافتصد، فأخذته الحمى، وكان قد فوّض الأمر[٢] إلى تاج الملوك ابن الغنائم وأوقع عليه اسم الوزارة واستقرّ أن تفاض عليه الخلع رابع شوال، فمنع هذا الأمر الّذي جرى، وتوفي السلطان[٣].

❊ ❊ ❊

فإذا كان المقتدي بأمر الله من أفاضل خلفاء بني العباس وهو بهذه الضعة والتردّي فكيف بالآخرين الّذين ليسوا من الأفاضل؟

وكيف يكون فاضلاً وهو يطلب مهلة عشرة أيّام ليخرج من دار خلافته ومملكته

---

١ ـ تشعيث بمعنى تفريق.

٢ ـ المقصود من الأمر هو (اخراج الخليفة من بغداد على الموعد المقرّر).

٣ ـ المنتظم في تواريخ الملوك والأمم / ج ٩ / ص ٦٤٢.

ويسلم البلاد والعباد لرجل سلجوقي غريب عن البلاد وعن الأسرة العباسية ؟

فهل يعتبر هذا فضلاً منه وعلوّ همّه ؟

والمستعصم على شدّة ضعفه، كان أفضل من المقتدي لأنّه قاوم قليلاً ولم يتنازل بسرعة.

ولو لم يكن السلطان قد مات، ونفّذ ما يريده من الخليفة، فعندها ماذا سيقول المؤرخون ؟

فهل سيتهمون وزيره بسوء التدبير والتواطؤ مع ملكشاه ؟

* * *

نعم، هكذا كان يتصرف ملوك وسلاطين وأمراء السلاجقة مع الخلفاء، أولئك السلاطين الّذين كانوا يقبلون الأرض بين يدي الخليفة.

ولقد قلنا سابقاً ولعدّة مرّات: انّ تقبيل الأرض واليدين والخلع والألقاب وتولية شرق الأرض وغربها، كلّها أمور تافهة، اعتاد الخلفاء على جريانها، حيث تجري دون أن تحمل معنى واقعياً.

فالخليفة يعلم انّه في الواقع لا يملك إلّا داره، وداره في أحيان كثيرة يتمّ الهجوم عليها وتنهب محتوياتها.

والسلطان يعلم أيضاً انّه يتظاهر بالتقدير والاحترام للخليفة، لأنّه يريد أن يخدع بعض المساكين من الناس، وإلّا فهو المالك الحقيقي للبلاد وهو صاحب القوّة والنفوذ.

ولذلك وجدنا انّ السلاطين البويهيين والسلاجقة وكذلك الأتراك، متى ما اقتضت مصلحتهم ان يهينوا الخليفة فعلوا ورضّوا خصيتيه وبصقوا في وجهه وصفعوه وسملوا عينيه وقتلوه، وجاؤوا بغيره ممّن يستطيعون ان يلعبوا به كما يشاؤون.

وملكشاه نجده هنا يأمر الخليفة بالخروج من بغداد ولا يمهله ساعة واحدة. ويمتثل الخليفة أمير المؤمنين، ولكنّه يطلب مهلة، فلا يوافق السلطان، ويتوسّل بوزير السلطان

فيوافق على عشرة أيّام.

ولا شكّ أن أخبار الخلفاء والسلاطين والعيّارين واللّصوص كانت تصل للآخرين، كما وصلت إلينا ونحن نبعد عنهم أكثر من ألف عام، بل انّ المعلومات الّتي تصل إلينا هي النزر اليسير منها.

ولم يجرؤ البويهيون على اقتحام الدولة العباسية ومركز الخلافة إلّا بعد أن سمعوا بضعف الخلفاء أمام الأتراك، ثمّ لم يتقدم السلاجقة إلّا بعد أن سمعوا بالتهام البويهيين لغنيمة الدولة العباسية.

وأخيراً سوف نجد انّ التتار ـ وقد انتفخوا بانتصاراتهم واتّساع ممالكهم ـ وجدوا أنّ مجدهم وسلطانهم إنّما يتمّ بالإستيلاء على هذه الدولة المتهرّئة المستضعفة (الدولة العباسية).

والأمور دائماً مترتبة، ولن يتم أمر إلّا بعد أن تتهيّأ أسبابه.

* * *

الخليفة المقتدي
يأمر بالخطبة لابن ملكشاه وعمره أربع سنوات

ونرجع إلى الحديث عن السلطان ملكشاه، الّذي مات بصورة مفاجئة في بغداد، فان موته أحدث مشكلة واجهت الخليفة المقتدي.

فمن هو الّذي سوف يكون سلطاناً للسلاجقة؟

وكان للسلطان ولدان، وكان التنافس على العرش ينحصر بين (بركيارق ومحمود) امّا بركيارق فكان الابن الأكبر لملكشاه من زوجته العربية (زبيدة خاتون)، وكان في الثانية عشر من عمره.

وأمّا محمود فكان الابن الأصغر لملكشاه من زوجته الأميرة التركية الرائعة الجمال المدلّلة ذات النفوذ (تركان خاتون) بنت ملك الخانيين، وقد ولد قبل وفاة والده

ملكشاه بأربع سنوات وبضعة أشهر، وكانت شقيقته إحدى زوجات الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله.

وهكذا انقسم السلاجقة إلى معسكرين متنازعين، يجاهر كل منهما الآخر بالعداء، أحدهما يُعسكر في بغداد والآخر يُعسكر في اصفهان.

وكانت كفّة معسكر (محمود) أرجح في بداية الأمر، لأن ملكشاه توفي في بغداد، مقر الخليفة العباسي زوج شقيقة محمود، كما انّ الخليفة هو الّذي تطلب موافقته على تعيين فرد من أفراد البيت السلجوقي سلطاناً على الدولة حتّى يصير حكمه شرعياً، فكان من المنطقي ان تصدر موافقة الخليفة المقتدي بأمر الله على تعيين محمود سلطاناً على السلاجقة، برغم انّه أصغر أبناء ملكشاه سناً[1].

أمّا ابن العبري فيقول هنا:

إنّ ملكشاه عندما مات، سترت زوجته (تركان خاتون) موته وكتمته... وبذلت الأموال للأمراء، واستحلفتهم لابنها محمود، وكان تاج الملك وزيرها يتولّى ذلك لها.

وأرسلت إلى الخليفة المقتدي في الخطبة فأجابها، وخطب لمحمود وعمره أربع سنين[2].

ويضيف ابن خلدون:

انّها عندما سارت إلى اصفهان لقتال (بركيارق) أنزلت أموالها وأموال أهل الدولة بحريم دار الخلافة[3].

❊ ❊ ❊

نعم، انّه أمير المؤمنين المقتدي بأمر الله.

كيف اقتدى بالله، ويخطب لطفل عمره أربع سنوات؟

---

١ ـ إيران والعراق في العصر السلجوقي / ص ٩١ ـ ٩٢.

٢ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ١٩٤.

٣ ـ تاريخ ابن خلدون / ج ٣ / ص ٤٧٨.

فهل يجوز له ذلك شرعاً وسياسة؟

والأدهى من ذلك انّه لقّبه (ناصر الدُّنيا والدِّين) كما يقول عنه السيوطي[١] وكان الخلفاء السابقون يكتفون بألقاب الدُّنيا فقط (جلال الدولة وبهاء الدولة وعضد الدولة...) ولكن أمير المؤمنين هنا أضفى على الطفل لقب (ناصر الدُّنيا والدِّين) والخطبة له سوف تكون هكذا: اللّهمّ انصر السلطان بن السلطان ناصر الدُّنيا والدِّين محمود...

فإلى أين وصلت عقول أولئك الخلفاء حينما لم يبقوا حرمة للدِّين؟

والمقتدي هو الّذي يقول عنه المؤرِّخون انّه كان (ديِّناً خيِّراً قويّ النفس عالي الهمّة من نُجباء بني العباس...)[٢].

فأين هي نجابته وهمّته العالية؟

وأين دينه والخير الّذي فيه؟

ولقد رأينا ان ملكشاه أمر الخليفة المقتدي بالنزوح من بغداد وأن لا يتأخّر ساعة واحدة. فهل كانت فيه همة عالية ونجابة أن يطلب إمهاله شهراً ثمّ عشرة أيّام؟

وهو الآن يقرن نفسه بهذا الملك الطفل (محمود) في الخطبة من على المنابر!

❊ ❊ ❊

ولكن هكذا كان هو، وهكذا كان آباؤه وأجداده ضعاف النفوس، يلفّهم الخنوع ويعيشون الذلّ والهوان والحقارة والاستهانة، ويرتكبون من المعاصي ومن مخالفة الشريعة ما لا يُعدّ ولا يُحصى.

فماذا يرتجى منهم؟ وماذا يؤمل من خلفاء الجور والعصيان؟ عندما يتمسكون بالقضيب والبردة والخاتم ويتصوّرون أنّ هذه (الرموز) تعطيهم الشرعية وتحصنهم من ذلّ الدُّنيا وحساب يوم القيامة؛

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٢٥.

٢ ـ المصدر السابق / ص ٤٢٣.

فويل لهم وهم يرتكبون المحرمات وينتهكون الأعراض ويدعون انّهم يحكمون باسم الله، وانّ الله ولّاهم الدُّنيا شرقها وغربها وبقيّة أطرافها، ثمّ يوزعون منها ما يشاؤون على من يشاؤون!

❊ ❊ ❊

ينتصر (بركيارق) على أخيه محمود فيخطب له الخليفة على المنابر

وسيّرت (تركان خاتون) العساكر لقتال (بركيارق) فانحاز جماعة من عساكرها إلى (بركيارق) فقوي بهم، وأخيراً انتصر عليها[١].

وفي عام ٤٨٦هـ قدم (بركيارق) إلى بغداد، وأرسل إلى الخليفة المقتدي بأمر الله يطلب الخطبة، فأجيب إلى ذلك، وخطب له ولقب (ركن الدين) وحمل الوزير عميد الدولة ابن جهير الخلع إلى (بركيارق) فلبسها وعرض التقليد على الخليفة ليعلّم عليه، فعلّم فيه[٢].

وهذا ديدن الخلفاء...

فهم يخلعون الخلع ويمنحون الألقاب على كل من يتغلب، وإذا كان الطفل محمود يوم أمس سلطاناً ولقّبه الخليفة بـ (ناصر الدُّنيا والدِّين) فان أخاه (بركيارق) لقّبه الخليفة بـ(ركن الدين) وأجرى اسمه في الخطبة... وهكذا بلا حياء ولا رجولة، ينهار امام المال، فلكل لقب يمنحه للآخرين هدية سمينة يتسلّمها الخليفة رسماً معروفاً كنثرية للجلسة العامّة الّتي يعقدها الخليفة ويهيء لها الجنود والحراس وأصحاب الطبول والدفوف والأبواق.

والجلسة تلك، اضافة إلى انّ فيها ربحاً مادّياً، فانّها لا تخلو من كبرياء وجبروت يشعر بهما الخليفة عندما تقبّل الأرض بين يديه وهو يحمل بيده القضيب ويضع على كتفيه البردة، ويصوِّر له كبرياؤه أنّه يملك الدُّنيا حقّاً.

---

١ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ١٩٤.

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٨ / ص ٤٩٣.

الخليفة المقتدي بأمر الله يموت فجأة وربّما قتل!

ولقد حدث في اليوم الثاني من الخطبة للسلطان (بركيارق) أن مات الخليفة المقتدي بأمر الله.

حيث خطب لـ(بركيارق) ومنح لقب (ركن الدين) وأعطي الخلع يوم الجمعة ١٤ محرّم / ٤٨٧ هـ. ومات الخليفة يوم السبت ١٥ محرّم.

فماذا دهاه؟

انّ المؤرخين يقولون ومنهم ابن الأثير:

وكان قد أحضر عنده تقليد السلطان (بركيارق) ليعلّم فيه[1] فقرأه وتدبّره ثمّ قدم إليه طعام، فأكل منه وغسل يديه، وعنده قهرمانته (شمس النهار).

فقال لها: ما هؤلاء الأشخاص الّذين دخلوا عليّ بغير استئذان؟

قالت: فالتفتُّ، فلم أر شيئاً ورأيته قد تغيّرت حالته واسترخت يداه ورجلاه وانحلّت قوّته وسقط إلى الأرض، فظننتها غشية قد لحقته.

فحللت أزرار ثوبه، فوجدته قد ظهرت عليه امارات الموت، ومات لوقته.

قالت: فتماسكت وقلت لجارية عندي: ليس هذا وقت اظهار الجزع والبكاء، فإن صحتِ قتلتك.

واحضرتُ الوزير فأعلمته الحال.

فشرعوا في البيعة لولي العهد وجهّزوا المقتدي وصلّى عليه ابنه (المستظهر بالله) ودفنوه[2].

ولكن صاحب كتاب شذرات الذهب يشكك في موته ويقول: وقيل ان جاريته سمته[3].

---

١ ـ أي ليمضيه ويوقع فيه.

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٨ / ص ٤٩٣.

٣ ـ شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي / ج ٣ / ص ٣٨٠.

وكذلك السيوطي: ويقال ان جاريته شمس النهار سمته[١].

❊ ❊ ❊

وليس بعيداً ذلك، فانّ (بركيارق) كان يجد نفسه أحقّ بالسلطنة من أخيه الطفل (محمود) وكان اعتراف الخليفة بالطفل سلطاناً يغيض (بركيارق).

هذا أوّلاً.

ثمّ انّ الخليفة المقتدي كان قد تزوّج شقيقة الطفل من أمّه (تركان خاتون) وهي عدوّة لـ (بركيارق).

فلربّما أقدم على قتله على يد قهرمانته (شمس النهار) انتقاماً منه، وتلك عادة السلاطين والجبابرة.

❊ ❊ ❊

أمّا المقتدي بأمر الله؟

فقد ذكر له المؤرِّخون صفات حسنة تختلف عن صفات السابقين له من الخلفاء.

يقول صاحب كتاب شذرات الذهب: وكان ديّناً خيراً قوي النفس عالي الهمّة من نجباء بني العباس ومن محاسنه انّه أمر أن لا يدخل أحد الحمّام إلّا بمئزر، وخرّب أبراج الحمام...[٢] فأمير المؤمنين المقتدي بأمر الله، يهتم بمئزر الحمّام وأبراج الحمام، ولكنّه يتغافل عن أمور الخلافة ويتضاءل أمام إدارة (تركان خاتون)، فيولّي وليدها الطفل السلطة، والمشرق والمغرب عدا باب داره.

فأين هي همته العالية ونجابته العباسية؟

نعم، ربّما كان نجيباً، لأنّه لم يكن لواطاً كالخليفة الأمين ولم يكن يشرب الخمر كالخليفة المتوكل وبقية الأجداد الكرام ولم يكن يجمع حوله الصبيان والخصيان كجدّه المعتصم، فلم يذكر له المؤرِّخون ذلك.

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٢٦.

٢ ـ شذرات الذهب / ج ٣ / ص ٣٨٠.

جاء الخليفة المستظهر ومات السلطان بركيارق والخطبة من جديد لطفل عمره أربع سنوات

وفي أيّام الخليفة المستظهر، مات السلطان (بركيارق)، فأقام الأمراء بعده ولده جلال الدولة ملكشاه (ملك الملوك) وقلّده الخليفة وخطب له ببغداد وله دون خمس سنين[١].

ويقول صاحب كتاب البداية والنهاية:

انّه في عام ٤٩٨هـ توفيِّ السلطان (بركيارق) وعهد إلى ولده الصغير (ملكشاه) وعمره أربع سنين وشهور، وخطب له ببغداد ونثر عند ذكره الدنانير والدراهم[٢].

أمّا ابن خلدون فيقول:

... ووصل السلطان محمّد (أخو بركيارق) آخر جمادى من سنة ٤٩٨هـ ونزل بالجانب الغربي وخطب له هنالك الملك شاه (ابن بركيارق) بالجانب الشرقي، واقتصر خطيب جامع المنصور على الدُّعاء للمستظهر ولسلطان العالم فقط[٣].

❊ ❊ ❊

إلى هذه الدرجة المتدنِّية وصلت همّة الخلفاء ورأيهم المتخاذل.

وليس بعيداً ان أمير المؤمنين (المستظهر) لم يكن يستطيع ان يمتنع عن تقليد الطفل، فأمراء المؤمنين الّذين سبقوه، ساروا على هذا المنوال، وارتضوه لأنفسهم رغبة ورهبة.

رغبة بالدنانير الّتي توزع عادة عند تنصيب أي سلطان جديد، ولا بدّ أن تكون حصّة الخليفة منها حصّة كبيرة دسمه.

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٢٩.
٢ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١٢ / ص ٢٠٢.
٣ ـ تاريخ ابن خلدون / ج ٣ / ص ٤٩٣.

ورهبة من أصحاب السلطان، إذا أراد ان يخالفهم، فشبح القتل يترآى أمامه ثمّ انّه يتأسّى بأمير المؤمنين (المقتدي) الّذي خطب للطفل (محمود) وكان عمره أربع سنين.

❊ ❊ ❊

هكذا هبطت الخلافة، ليس في أعين الناس فقط، وانّما في أعين الخلفاء أنفسهم، فهم يدركون واقعهم غاية الإدراك وإن كانوا يتظاهرون بالعظمة والكبرياء عندما يتوشحّون بالبردة ويحملون القضيب، وتدقّ الطبول أمام دورهم، يضفون على السلاطين الألقاب ويخولونهم شرق الأرض وغربها عدا باب الدار.

❊ ❊ ❊

والملاحظ هنا في هذه الواقعة انّ الخطبة أصبحت للسلاطين وليس منها للخليفة شيء، فقد كانت في السابق للخليفة والسلطان، أمّا الآن فهي في شرق بغداد للطفل (ابن بركيارق) وفي غرب بغداد لعمّه السلطان محمّد.

أمّا الخليفة، فله فقط جامع المنصور، وحتّى هذا الجامع فقد كان الخليفة يخشى فيه اسم السلطان، وهو يخشى ان ينحاز لأحد سلطاني الشرق أو الغرب فاستعمل نوعاً من التورية السياسية، فخطب لسلطان العالم.

ألا بئس الخلفاء أولئك وبئس السلاطين آمين يا ربّ العالمين.

❊ ❊ ❊

الخليفة المسترشد
قتله السلاجقة وجدعوا أنفه وأذنيه وتركوه عرياناً

ويقول عنه ابن الأثير:

كان شهماً شجاعاً كثير الاقدام بعيد الهمة ...[1].

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٩ / ص ٢٨٣.

وهذه ديباجة يضفيها المؤرِّخون عادة على الخلفاء لأنّهم يحاولون ان يبرزوهم كما يحلوهم وكما ينبغي أن يكون عليه أمراء المؤمنين.

وسوف نتبيّن صدق هذه الديباجة أو كذبها من خلال تاريخه.

* * *

فقد وقع اختلاف شديد بين المسترشد والسلطان محمود الّذي عزم على قتال بغداد. ثمّ ان جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة ونهبوا التاج وحُجرَ الخليفة[1] فلمّا رأى الإمام المسترشد بالله الأمر على هذه الصورة، أجاب إلى الصّلح... وحمل الخليفة من المال إليه كل ما استقرّت القاعدة عليه... وأهدى له سلاحاً وخيلاً وغير ذلك[2].

هذه كانت شجاعة الإمام المسترشد وشهامته؟؟

نعم، ربّما كان شجاعاً، لأنّه حاول ان يتدارك أمره قبل ان يهجم عليه السلطان فيقضي على كل شيء.

ويورد ابن الأثير هنا خبراً يقول فيه:

(وعندما حصل خلاف بني المسترشد والسلطان، كان أعداء الخليفة يشيرون على السلطان بإحراق بغداد، فلم يفعل).

يُرجّح أنّ المقصود من أعداء الخليفة هم غير عسكر السلطان.

فَمَن هم أولئك؟

ولماذا لا تُسلّط عليهم الأضواء؟

انّه من غير البعيد أن يكون أولئك هم من المتنفِّذين في الدولة (دولة الخلافة) الّذين يستطيعون ان يصلوا إلى السلطان ويشيروا عليه بذلك.

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٩ / ص ٢٣٨.

٢ ـ المصدر السابق / ص ٢٣٩.

ونعود فنقول: لماذا لا تسلّط عليهم الأضواء؟

في حين نجدهم يقيمون الدنيا على ما حدث أيّام هولاكو وينسبون النكسة كلّها الى تدبير الوزير؟[١]

❊ ❊ ❊

مات السلطان محمود سنة خمس وعشرين وخمسمائة، فأقيم ابنه داوود مكـانه، فخرج عليه عمّه مسعود، فاقتتلا، ثمّ اصطلحا على الاشتراك بينهما، ولكلٍ مملكة.

وخطب لمسعود بالسلطنة ببغداد ومن بعده لداوود وخلع عليهما ثمّ وقعت الوحشة بين الخليفة ومسعود، فخرج لقتاله، فالتقى الجمعان، وغدر بالخليفة أكثر عسكره[٢].

ويقول صاحب كتاب الفخري:

انكسر عسكر المسترشد، واستظهر السلطان مسـعود عليهم ونهب عسكرُه من العسكر الخليفي أموالاً عظيمة.

فيقال انّ صناديق المال كانت على مائة وسبعين بغلاً وهي أربعة آلاف ألف دينار، وكان الرّحل على خمسمائة جمل، وكان معـه عشرة آلاف عمامة وعشرة آلاف جبّة وعشرة آلاف قباء.

كلّ ذلك من فاخر الثياب، كان قد أعدّها للتشريفات إن ظفر، فيقال ان جملة ما نهب عشرة آلاف ألف دينار[٣].

وعن قتل الخليفة يقول الفخري:

واختلف الناس عند قتل المسترشد في سبب قتله:

فقال قوم: ان مسعوداً لم يعلم بذلك ولا رضي به.

وقال قوم: بل مسعود هو الّذي واطأ الباطنية على قتله وأمرهم بذلك، لأنّه خافه

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٩ / ص ٢٣٩.

٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٣٢.

٣ ـ الفخري لابن الطقطقي / ص ٣٠٢.

حيث قويت نفسه على جمع الجموع وجرّ الجيوش، ولم يمكنه قتله ظاهراً، ففعل ما فعل من الإحسان ظاهراً، ثمّ قتله باطناً.

ثمّ انّه أخرج جماعة من أهل الجرائم فقتلهم وأوهم الناس انّه قتل قتلته، ثمّ أطلقهم سرّاً[١].

ويضيف ابن الأثير: انّ الّذين هجموا على الخليفة المسترشد جرحوه ما يزيد على عشرين جراحة ومثلوا به، فجدعوا أنفه وأذنيه وتركوه عرياناً[٢].

وكان قتله في (مراغه) سنة ٥٢٩هـ.

❊ ❊ ❊

نحن نرجّح ان يكون قتل الخليفة المسترشد على يد السلطان مسعود، لأنّه كان تحت حمايته وحراسته، حيث يستبعد جدّاً ان يهجم جماعة من الباطنية على الخليفة وهو في جيشه وعسكره.

وتلك طريقة غالباً ما يتّبعها السلاطين والمتحكّمون في الأمور، يقتلون شخصاً ثمّ ينسبون ذلك لغيرهم، كما نسب قتل الصحابي سعد بن عبادة إلى الجنّ.

ومهما يكن من أمر، فانّ الخلفاء العباسيين الّذين كانوا يستبشرون بمجيء السلاجقة إلى بغداد ليتخلّصوا من البويهيين، وجدوا على يد السلاطين الجدد ما يزيد على ما كان يفعله البويهيون.

❊ ❊ ❊

ربّما كان المسترشد يريد ان يعيد للخلافة العباسية قوتها، ونهض لحرب السلطان مسعود السلجوقي، لكنّهم جدعوا أنفه وأذنيه وتركوه عرياناً، فلقد جاوز الحزام الطبيين، ولن ينفع الخلفاء سياسة أو حرب أو أي شيء آخر، وضُرِبَت عليهم الذلّة والمسْكَنة، وأصبحوا كالباحث عن حتفه بظلفه.

---

١ ـ الفخري لابن الطقطقي / ص ٣٠٢.

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٩ / ص ٢٨٣.

وجرت المقادير على ذلك، منذ مئآت السنين، منذ بدأوا يقلبون ظهر المجن للاسلام وشريعته وحرمة موقع الخلافة.

منذ بدأ الخلفاء يشربون الخمور ولا يلتزمون بالعهود الّتي يقطعونها على أنفسهم وعلى الناس.

منذ بدأوا يهتمون بالنسوان والخصيان وتركوا شؤون الدولة.

منذ جمع المعتصم حوله المماليك الأتراك وألبسهم مناطق الذهب وسلّطهم على الجند الآخرين.

منذ زنى هارون الرشيد بحرمة أبيه المهدي.

ومنذ كان قتل الناس صبراً على يد المنصور.

ولن تستقيم الأمور مطلقاً، وإذا حصل فيهم من يريد، ان يرقّع الوضع، فلا يستطيع، فلقد اتّسع الخرق على الراقع.

والخلافة متهرّئة من كل جانب.

واللّوم إنّما يُوجّه في أكثره للخلفاء أنفسهم الّذين كانوا يظنّون انّهم يمتلكون البلاد والعباد بأمر من الله وتفويض منه، وان لهم حصانة ممنوحة لهم من ربّ العالمين، يفعلون ما يشاؤون، وليس لأحد من الخلق ان يسألهم أو يوجه إليهم أصابع الاتهام!

الخليفة (الرّاشد) يؤدي اليمين بأن لا يكيد للسلطان مسعود

انتهت صفحة الخليفة المسترشد وبدأت صفحة ابنه الراشد الّذي بُويعَ بالخلافة بعد قتل أبيه، وأيّده حاكم بغداد من قبل السلطان[1].

أمّا طريقة المبايعة؟

فقد كانت بائسة جدّاً، تدلّ على خوف الراشد من الجرّ والسحل وما يتبع ذلك.

يقول صاحب كتاب المنتظم:

---

١ ـ إيران والعراق في العصر السلجوقي / ص ١٣٠.

كان الراشد حين قتل أبوه المسترشد ببغداد، فكتب السلطان مسعود إلى الشحنة الّذي من قبله ببغداد واسمه (بكبه)[1] أن يبايع الراشد.

فجاء أصحابه كالعميد والضامن، وجرت مراسلات ليدخل إلى الدار، فاستقرّ أن يقوم من وراء الشباك ممّا يلي الشط.

وجلس الراشد في المثمّنة الّتي بناها المقتدي في الشباك الّذي يلي الشط، وبايعه الشحنة من خارج الشباك[2].

وأخذ اليمين من الراشد هكذا: «إنّني متى جنّدت أو خرجت أو لقيت أحداً من أصحاب السلطان مسعود بالسيف فقد خلعت نفسي من الأمر»[3].

كان الخلفاء في السابق يأخذون اليمين على (الخارجين) إذا قبضوا عليهم أو على الّذين يخشى منهم الخلاف، وهي مسألة طبيعية.

أمّا الآن فانّنا نجد الخليفة (الراشد) يؤخذ منه اليمين على أن لا يخرج على السلطان. وهذا يعلمنا إلى أين وصلت درجة الخلفاء من الضعف والاستكانة، وكيف كان يتصرّف معهم الملوك والسلاطين والأمراء والناس أجمعون.

فالأخبار تلك أصبح يسمعها الجميع بما فيهم العيّارون واللّصوص الّذين يغتنمون كلّ مناسبة وفرصة للتخلخل في الأوضاع السائدة لينشطوا فيها، وهم بالاضافة إلى أنّ لهم أنصاراً وعاملين فانّ الغوغاء معهم ـ عادة ـ أولئك الّذين يميلون مع كل ريح، وينعقون مع كلّ ناعق.

❊ ❊ ❊

والضعف هذا الّذي نراه في الخليفة (الراشد) لم يحصل فجأة، وانّما تدرّجت الأمور تدرّجاً، ففي بعض الأحيان كان التدرج ينساب بصورة هادئة وفي أحيان أخرى كان التدرّج تدحرجاً.

---

١ ـ ويسميه ابن الأثير (بك آبه).

٢ ـ المنتظم في أخبار الملوك والأمم / ج ١٠ / ص ٢٧٩.

٣ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ٢٠٥.

وقلنا لعدّة مرّات انّ التدرّج نحو السقوط بدأ من يوم دعوة (إبراهيم الإمام) ثمّ أخذ الخلفاء العباسيون يسيرون على سكّة الهبوط، حتّى وصلت النوبة للخليفة (الراشد) الّذي يؤدّي اليمين على أن لا يخرج على السلطان.

وسوف نرى أنّ الأوضاع تتدحرج أكثر فأكثر حتّى تصل إلى الخليفة (المستعصم) الّذي كان (يراقص جاريته) في حين أنّ التتار كانوا يحيطون بقصره.

أمّا فيما يتعلّق بالخليفة المسترشد المقتول والراشد ابنه الّذي أصبح خليفة، وموضوع الأخذ بالثأر، فانّ الدكتور عبدالنعيم يقول:

ولكن الناس حنقوا على مسعود وحمّلوه دم الخليفة المسترشد بالله، وأصبح على الخليفة الجديد الراشد بالله ان يطالب بدم أبيه، فبقيت العداوة بين السلاجقة والخلافة العباسية.

وقد صار السلطان مسعود بعد قتل الخليفة المسترشد بالله قويّاً مرهوب الجانب، فحاول التخلص من جميع أعدائه، وأخذ يبسط سلطانه على العراق وسائر الأقاليم الداخلة في حدود سلاجقة العراق.

غير انّ الخليفة الراشد بالله لم يلبث ان جاهره بالعداء، وسواء أكان سبب هذا العداء رغبة الراشد بالله في الأخذ بثأر أبيه أم كان سببه مطالبة مسعود للراشد بالله بضريبة كبيرة، فانّ الحرب قامت فعلاً بين الطرفين في عام ٥٣٠هـ.

واجتمع كثير من الأمراء وحكّام الأقاليم حول الخليفة العباسي، فأمر بحذف اسم مسعود من الخطبة، واستقرّ رأيه احلال ابن أخيه داوود محلّه.

فسار مسعود علي رأس جيش كبير إلى بغداد في العام المذكور وحاصرها حصاراً شديداً، استمرّ نيفاً وخمسين يوماً، حتّى دبّ اليأس إلى قلوب أنصار الخليفة فتفرّقوا.

واضطرّ الخليفة نفسه إلى الفرار إلى الموصل[1].

---

١ ـ إيران والعراق في العصر السلجوقي / ص ١٣٠ ـ ١٣١.

فاحضر السلطان مسعود القضاة والأعيان والعلماء وكتبوا محضراً فيه شهادة طائفة بما جرى من الراشد من الظلم وأخذ الأموال وسفك الدماء وشرب الخمر، واستفتوا الفقهاء فيمن فعل ذلك، هل تصحّ إمامته؟ وهل إذا ثبت فسقه يجوز لسلطان الوقت أن يخلعه ويستبدل خيراً منه؟[1]

وعرض عليهم اليمين الّتي حلف بها الراشد له وفيها بخط يده.

فأفتوا وخُلعَ وقُطِعَت خطبته من بغداد وسائر البلاد[2]، وكان الّذي حكم بخلعه أبو طاهر بن الكرخي قاضي البلد.

وعندها عزل مسعودُ الخليفة الراشد بالله، وعين مكانه عـمّه المـقتفي لأمـر الله، وأخذ البيعة له، وحدّد له مخصّصاته، ووضع يده على زمام الأمور في دار الخلافة[3].

❊ ❊ ❊

وبلغ الراشد الخلع، فخرج من الموصل إلى بلاد آذربيجان وكـان مـعه جمـاعة، فقسّطوا على (مراغه) مالاً وعاثوا هناك ومضوا إلى همدان وأفسدوا وقتلوا جمـاعة وصلبوا آخرين وحلقوا لحىٰ جماعة من العلماء، ثمّ مضوا إلى أصبهان فـحاصروها ونهبوا القرى.

ومرض الراشد بظاهر أصبهان مرضاً شديداً، فدخل عليه جماعة من العجم كانوا فراشين معه، فقتلوه بالسكاكين ثمّ قتلوا كلّهم[4]. •

❊ ❊ ❊

هكذا كانت تجري الأمور...

فالخلفاء وان كانوا يتوشحون بالبردة ويحملون القضيب، ويفوّضون شرق الأرض

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٣٦.

٢ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ٢٠٥.

٣ ـ إيران والعراق في العصر السلجوقي / ص ١٣١.

٤ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٢٠٥.

وغربها ـ ممّا خوّلهم الله ـ لغيرهم، وعلى رغم حفلات التتويج ودق الطبول ونفخ الأبواق وتقبيل اليدين والرجلين والأرض، فانّها كلّها توافه لا تغني من الواقع شيئاً.

فالحاكم الواقعي هو السلطان أو الأتراك أو صاحب القوّة الحقيقية وهم غير الخليفة. أمّا الخليفة، فيعلم في قرارة نفسه انّها كلّها مسرحية مضحكة، سرعان ما يدخل عليه اثنان ويسحبانه، وقد وضعا عمامته في رأسه.

ثمّ يرضّون خصيتيه ويفعلون به ما يشاؤون، والنتيجة سمل العيون وخلع الخلافة والقتل...

وليت الخلفاء يعتبرون بمن مضى وما مضى، ولكنّهم استحوذ عليهم الشيطان وهيمنت عليهم أنفسهم الوضيعة، وانصرفوا للخصيان.

وإذا حوصر (المستعصم) قال: ان بغداد تكفيني ولا أظنّهم يبخلون بها علي.



شجاع، حسن السيرة يؤثر العدل، ويكره الشر...

هذه بعض صفات الخليفة الراشد، كما يكتبها المؤرخون، وهو ينهب القرى كاللّصوص ـ كما رأينا ـ ويقسّط الأموال على الناس، ويعيث فساداً كالعيارين.

ولو كان عيّاراً منتسباً إلى فريقهم لهان الأمر، ولكنّه يدّعي انّه أميرالمؤمنين وخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في العالمين، ثمّ ينهب الناس ويعيث في أرضهم فساداً.

ولكن فلنتركه اكراماً له، لأنّه جواد حسن السيرة.

ولننظر ماذا فعل أولئك السلاجقة الّذين استقدمهم الخليفة القائم عام ٤٤٧هـ، لينقذوه من المتسلّطين عليه وعلى البلاد، البويهيين والأتراك والعيّارين وغيرهم.

يوم دخل طغرلبك بغداد وتلقاه الكبراء ورئيس الرؤساء (الوزير) وقصد الاجتماع بالخليفة القائم وقبّل الأرض بين يديه، ثمّ ولّاه الخليفة جميع ما ولّاه الله تعالى.

فهل كان السلاجقة منقذين حقّاً؟ أو مستعمرين؟

انّهم يشبهون إلى حدٍّ ما الجنرال الانكليزي (مود) الّذي دخل بغداد عام ١٩١٧م على أعقاب الحكم التركي، وقال: جئناكم محررين لا فاتحين!

ولكن الفرق انّ السلاجقة استدعاهم خليفة المسلمين، والانكليز دخلوا العراق عنوة.

* * *

وهل اتّقى السلاجقة ربّهم فيما ولّاهم به الخليفة عندما نصحهم بذلك؟

وهل كان من السياسة والتدبير أن يستعين أمير المؤمنين بفاتِكٍ على فاتِك؟ وسارِقٍ على سارِق؟

نعم، يمكن ذلك إذا كان دفعاً للشر فقط، وليس على أساس أن تسكنه بيتك وتمكّنه من أمورك وتخوّله أمور العباد.

فليس ذلك من الحكمة في السياسة، ولكن الخليفة القائم كانت تستهويه حفلة التنصيب حيث تقبل الأرض بين يديه وتدق الطبول، ثمّ يعطى خمسين ألف دينار وخمسين مملوكاً من الأتراك بخيولهم وسلاحهم وقماشهم.

هو الخوف والجبن أوّلاً، ثمّ هو الطمع والشهوات الّتي أوقعت أُولئك الخلفاء في المنحدرات وجرّ الويلات على المسلمين...

ولو كان الانحدار فقط لهان الأمر.

ولكنّهم أساؤوا إلى سمعة الاسلام والمسلمين، وأسّسوا أساساً للظلم والجور والتهتّك والانفلات من الشرع والأخلاق والنواميس.

والعجيب في الأمر ان نرى المؤرخين يكيلون لهم المديح والثناء ويحلوّنهم في مواقع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو منهم بريء، لأنّهم أساؤوا إلى شريعته باسمه، فلا ينبغي لمن يدّعي انّه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يزني ويرتكب اللواطة ويشرب الخمر ويهتك الأعراض ويجلب الويلات على الأمّة الاسلامية ويتحكّم فيها تحكّم الطّغاة الظالمين.

هكذا تجري الأمور، وهؤلاء هم المؤرِّخون الّذين لم يؤدّوا الأمانة كما هي وانّما زوّروا الحقائق وانساقوا وراء الحكّام رغبة ورهبة وتركوا الأمّة الإسلامية في حيرة من أمرها تعيش التناقضات والشكوك والأوهام والقلق، وخلقوا فيهم حالة اليأس!

❊ ❊ ❊

وأخيراً وجدنا انّ أميرالمؤمنين الخليفة الراشد يُقتَل من قِبَل خدمه الفرّاشين الّذين كانوا معه، بعدما أصابهم التعب والنصب في تجوالهم في البلدان، مطرودين خائفين. ولم تُؤخَذ البردة والقضيب من الراشد حتّى قُتِلَ عام ٥٣٢ هـ، فقد كان متمسِّكاً بها، على أمل أن تشفع له وتنفعه يوماً ما، أو تمسّك بها حقداً على الّذي سوف يليه.

ومن المُضحك المُبكي أنّ الخلفاء العباسيين أولئك كانوا ينتسبون في ألقابهم لله سبحانه وتعالى (القائم بأمر الله والقادر بالله والناصر لدين الله...).

وتلك ألقاب كانوا قد حققوا فيها الشيء الكثير من رغباتهم وشهواتهم في الدُّنيا من أبّهة وسلطان.

❊ ❊ ❊

بُويعَ للمقتفي بالخلافة
على أن يدفع ضريبة للسلطان بمقدار مائة وعشرين ألف دينار

بُويعَ للمقتفي، بل الأحرى انّ السلطان مسعوداً بعدما استحصل فتوى بخلع الراشد بايع للمقتفي[1] على ان يدفع للسلطان مائة وعشرين ألف دينار، وادّعى الخليفة انّه لايملك هذا المبلغ، فقبل السلطان باحتساب ذلك من أثاث وأدوات المنزل.

ولذلك فانّ السلطان مسعوداً.... بعث فأخذ جميع ما كان في دار الخلافة من خيل وبغال وأثاث وذهب وفضّة وزلالي وستور وسرادق وحصر ومساند، ولم يترك في

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٣٧.

اصطبل الخاص (الخليفة) سوى أربعة أرؤس من الخيل وثلاثة من البغال برسم الماء، فقيل انّهم أخذوا ذلك ليحسبوا ممّا تقرّر على الخليفة، وكان قد تقرّر عليه مائة وعشرين (وعشرون) ألف دينار.

... وفي رابع عشر ذي الحجّة أذن المقتفي في بيع عقاره وتوفية السلطان ما استقرّ عليه من الأموال[١].

❊ ❊ ❊

هكذا كانت بداية الخليفة المقتفي.

وكالعادة فان ابن الوردي يقول عنه: ... انّه أقام حشمة الدولة العباسية وقطع عنها طمع السلاطين[٢].

وكذلك ابن الأثير، فيقول: كان حليماً كريماً عادلاً حسن السيرة، من الرجال ذوي الرأي والعقل الكثير[٣].

وكذلك صاحب شذرات الذهب: انّه كان شجاعاً مهيباً خليقاً للإمارة[٤].

❊ ❊ ❊

فأين هي الشجاعة؟ وأين هو العقل الكثير؟ وأين هي الحشمة الّتي أعادها للدولة العباسية؟ وكيف قطع عنها طمع السلاطين؟

والسلطان يجرِّده من كل شيء عدا أربعة أرؤس من الخيل وثلاثة من البغال، ويفرض عليه مائة وعشرين ألف دينار.

لقد أتعبنا أولئك المؤرِّخون، وكأنّهم ينسون ما يقولون.

فالخليفة متجرِّد من كل شيء وهو في نفس الوقت شجاع، كيف يجتمع الضدّان

---

١ ـ المنتظم في تواريخ الملوك والأمم / ج ١٠ / ص ٢٩٢.

٢ ـ تاريخ ابن الوردي / ج ٢ / ص ٦٢.

٣ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٩ / ص ٤٣٨.

٤ ـ شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي / ج ١٢ / ص ١٧٢.

يا وعّاظ السّلاطين؟ قليلاً من الحياء؟

في حين يذكر المؤرِّخون ان خلافاً نشأ بين السلطان مسعود وبين الخليفة المقتفي في سنة ٥٤١ هـ، فيقول السيوطي:

قدم السلطان مسعود بغداد وعمل دار ضرب، فقبض الخليفة على الضرّاب الّذي تسبّب في اقامة دار الضرب، فقبض مسعود على صاحب الخليفة.

فغضب الخليفة وغلق الجامع والمساجد ثلاثة أيّام (استنكاراً) ثمّ أطلق الحاجب وأطلق الضرّاب وسكن الأمر[1].

أين صارت الشجاعة إذن؟ أيُّها المؤرِّخون.

ان دار الضرب خاصّة للخليفة، منذ نشأت الدولة العباسية، يضرب ما يشاء ويكتب عليها ما يشاء بأمر الخليفة، وربّما أشرك معه السلطان.

أمّا أن تكون هناك دار ضرب أخرى، فهو شيء جديد وإهانة جديدة للخليفة وازدراء به وعدم اعتناء.

فكيف إذن عادت للدولة العباسية حشمتها؟

❊ ❊ ❊

السّلاطين يتنافسون على بغداد والمقتفي هو المستضعف

ثمّ يموت السلطان مسعود، ويليه السلطان سليمان شاه، ويقرنه الخليفة المقتفي معه في الخطبة على المنابر، ويتم الاتفاق بينهما:

العراق للخليفة، ولسليمان شاه ما يفتحه من خراسان[2].

ثمّ جاء السلطان محمّد السلجوقي وأراد ان ينافس سليمان شاه في العراق وفي الخطبة وأرسل إلى الخليفة يطلب ان يخطب له ببغداد والعراق، فامتنع الخليفة من

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٣٨.

٢ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١٢ / ص ٢٩٤.

أجابته إلى ذلك (لأنّه خشي من سليمان شاه) فحاصر بغداد، وحصل بينهما قتال شديد[١].

* * *

هكذا كانت حقيقة الخليفة المقتفي مع السلاجقة...

يجرِّده السلطان مسعود من كل شيء، وتستحدث في زمانه دار للضرب على غرار دار الضرب الراجعة للخليفة.

فيغضب الخليفة ويعتقل الضرّاب، فيُعتقل حاجبه.

وأخيراً يطمع فيه السلطان محمّد ويريد منه ان يخطب له، بدلاً عن السلطان سليمان شاه، ويحدث بينهما قتال شديد.

والعاقل اللبيب لا يرى في كل صفحات تاريخ أمير المؤمنين (المقتفي) أيّة شجاعة ولا يجد في الدولة العباسية حشمة ووقارا.



الخليفة المستنجد بالله
يتآمر عليه السّلاجقة ويخنقونه في الحمّام

أمّا المستنجد، فلا نطيل فيه الكلام.

فلقد تغلّب عليه سلجوقيان (استاذ الدار عضد الدين وأمير العسكر قطب الدين قايماز) وتآمرا على أمير المؤمنين، ومعهما أصحابهما، فحملوه وهو مريض إلى الحمّام وألقوه وأغلقوا الباب عليه وهو يصيح إلى ان مات[٢].

وكالعادة فانّ المؤرِّخين يذكرون صفات الخليفة، فيقولون عن المستنجد: انّه كان شهماً عارفاً بالأمور، موصوفاً بالفهم الثاقب والرأي الصائب والذكاء الغالب

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٩ / ص ٤٠٩.

٢ ـ الفخري لابن الطقطقي / ص ٣١٧.

والفضل الباهر [١] إلى آخر السجع.

ولكن، كيف كان عارفاً بالأمور؟

وأين فهمه الثاقب ورأيه الصائب وذكاؤه الغالب؟ حتّى أصبح يحمل إلى الحمّام وهو يستغيث ولا يغاث.

ولماذا وصل إلى هذا الحد؟

وأين كان عنه أهله وحرّاسه، وخدمه وعشيرته؟

ولكن هذه هي طريقة وعاظ السلاطين وتلك (كليشه) يضعونها على كل خليفة.

❋ ❋ ❋

الخليفة المستضيء بأمر الله يتحكّم فيه السلاجقة

بويع للمستضيء بأمر الله بعد المستنجد عام ٥٦٦هـ، وكان اللّذان أخذا عليه البيعة هما: (عضد الدين وقطب الدين).

ولكنّهما اشترطا عليه أن يكون عضدالدين وزيراً وابنه كمال الدين أستاذ الدار، وقطب الدين أمير العسكر، فأجابهم إلى ذلك [٢].

ولكن قطب الدين قايماز أمير العسكر، استفحل أمره وسيطر على البلاد والعباد وعلى الخليفة المستضيء نفسه.

وهنا يقول ابن الأثير:

وفي سنة ٥٦٧هـ، أي بعد تولّيه الخلافة بسنة، عزل الخليفة المستضيء بأمر الله وزيره عضد الدين أبا الفرج ابن رئيس الرؤساء، لأن قطب الدين قايماز ألزمه بعزله، فلم يمكنه مخالفته [٣].

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٤٣، وابن الأثير / ج ١٠ / ص ٢٨، وابن العبري / ص ٢١٤.

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ١٠ / ص ٢٩.

٣ ـ المصدر السابق / ص ٢٨.

فأراد قطب الدين أن ينتقم لنفسه، فاتفق مع سلجوقي آخر، هو زوج أخته (علاء الدين تنامش) وهو من أكابر الأمراء ببغداد، ونهبوا بغداد، وبالغوا في أذاهم في شوال ٥٧٠ هـ.

وتوجه الناس إلى الخليفة لينقذهم، فلم يغاثوا لضعف الخليفة، فقصدوا جامع القصير واستغاثوا فيه ومنعوا الخطيب، وفاتت الصلاة أكثر الناس...

فلمّا كان خامس ذي القعدة، قصد قطب الدين قايماز أذى ظهير الدين بن العطّار، وكان صاحب المخزن، وهو خاص الخليفة وله به عناية تامّة، فلم يراع الخليفة في صاحبه، وأحرق دار ابن العطّار، وحالف الأمراء على المساعدة والمظاهرة له، وجمعهم وقصد دار الخليفة لينهبها.

فلمّا علم الخليفة ذلك، ورأى الغلبة، صعد إلى سطح داره وظهر للعامة وأمر خادماً فصاح واستغاث، وقال للعامة:

«مالُ قطب لكم ودمه لي».

فقصد الخلق كلّهم دار قطب الدين للنهب، فلم يمكنه المقام لضيق الشوارع وغلبة العامّة، فهرب من داره من باب فتحه في ظهرها لكثرة الخلق على بابها، وخرج من بغداد، ونهبت داره[1].

❊ ❊ ❊

لقد جاء العامّة في البداية لنهب دار الخليفة وقتله إذا استدعت الحاجة، فليست للخليفة حرمة، والغوغاء إذا تحركوا للنهب لا يقف أمامهم شيء ولا يردعهم رادع.

ولكن المستضيء كان هنا ذكياً، فقد وجهّهم لنهبٍ مشروع يأمر به الخليفة نفسه، لينهبوا دار أمير العسكر.

وما أسرع ما توجه الغوغاء إلى هناك، وأمن الخليفة من شرّهم.

فالدُّنيا تؤخذ غلاباً، وأمير المؤمنين إذا كان يفقد سيطرته الشرعية، فليستعمل

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ١٠ / ص ٧١.

ذكاءه في تحريك الغوغاء واللصوص.

وهكذا تدحرجت أمور الدولة إلى هذا المستوى، الخليفة والعامّة فيها سواء، والكل يتحرّك نحو النهب والاستحواذ والسيطرة، وليس للخليفة أمير المؤمنين، وليس للقانون والشريعة أي إلزام.

والناس على دين ملوكهم...

الخلفاء يصادرون أموال الأمراء والوزراء والمغضوب عليهم.

والسلاجقة والبويهيون والأتراك وأصحاب النفوذ يصادرون أموال الناس وأصحاب المقاطعات. ويبيعون المؤسّسات بالمزاد العلني.

ثمّ يأتي الغوغاء وهم يشملون أكثر قطاعات الأمّة، وهم المنكوبون من الدولة ورجالها، يأتون فينهبون ما جمعه أولئك وهكذا...

* * *

الخليفة الناصر يدعو الناس لطاعة بني العباس ليدخلوا الجنّة

ثمّ جاء الناصر لدين الله.

والمؤرّخون يضفون عليه كثيراً من أوصاف الشجاعة والذكاء والمهابة[1] وأحيا بهيبته الخلافة، وكانت قد ماتت بموت المعتصم ثمّ ماتت بموته، ودانت السلاطين للناصر، وذلّت له العتاة والطغاة وانقهرت بسيفه الجبابرة... وكان أشد بني العباس. تتصدّع لهيبته الجبال...[2]

وعاش أكثر من أي خليفة عباسي آخر.

وقيل عنه انّه استقلّ في أمر الدولة العباسية، إلّا انّ المؤرّخين أنفسهم يذكرون له أموراً تدلّ على خضوعه وخنوعه، وكأنّهم نسوا مقالتهم عنه بأنّه كان قد أخضع

---

١ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١٢ / ص ٣٧٥.

٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٥٠.

الملوك والسلاطين.

ولنقرأ هذه الديباجة لنرى الهيبة الّتي يحاول الناصر أن يضفيها على نفسه، يقول صاحب كتاب الفخري:

لمّا استوزر الناصر وزيره مؤيّد الدين محمّد بن برز القمي، خلع عليه خِلَعَ الوزارة، ثمّ جلس القمي في منصب الوزارة، والناس جميعاً بين يديه، فبرز من حضرة الخليفة مكتوب لطيف في قدر الخنصر بخط يد الناصر، فقرئ على الجميع، فكان فيه:

«بسم الله الرّحمٰن الرّحيم، محمّد بن برز القمي نائبنا في البلاد والعباد، فمن أطاعه فقد أطاعنا، ومن أطاعنا فقد أطاع الله، ومن أطاع الله أدخله الجنّة. ومن عصاه فقد عصانا ومن عصانا فقد عصى الله ومن عصى الله أدخله النار».

فنبل القمي بهذا التوقيع في عيون الناس وجلّت مكانته وقامت له الهيبة في الصدور[1].

❊ ❊ ❊

مَن أنتم أيُّها المتكلِّم؟

أنت الناصر الّذي تشبّهت بالعيارين والمفسدين واشتغلت بالحَمام كما يفعل أبناء الشوارع ولعبت بالبنادق وكنت تزن للناس بصنجة ناقصة؟

أم أنتم خلفاء بني العباس الّذين تنكحون ما نكح الآباء وتشربون الخمور وتجمعون حولكم الصبيان والخصيان وتقتلون الناس وتهتكون الأعراض وتفعلون كل قبيح؟

هل انّ مَن يطيعكم في هذا يكون كأنّه أطاع الله؟

ومَن عصاكم كأنّه يعصي الله؟

---

١ ـ الفخري لابن الطقطقي / ص ١٥٣.

ما هذا الهذيان والطغيان يا خلفاء الجور؟

انّ الواحد منكم كان ينبغي ـ لو كانت للحق جوله ـ ان يقام عليه الحد من جلد وقتل وتعزير، يا من أفسدتم البلاد والعباد.

ومن أنت حتّى تقول هذا يا قبيح السريرة؟

* * *

الخليفة الناصر
يبلغ حدّاً من الضعف أطمع فيه ملوك السلاجقة

يقول ابن الأثير:

في هذه السنة (٥٨٣هـ) قوي أمر السلطان طغرل، وكثر جمعه وملك كثيراً من البلاد. فأرسل (قزل) إلى الخليفة الناصر يستنجده ويخوّفه من (طغرل) ويبذل من نفسه الطاعة.

وأرسل طغرل رسولاً إلى بغداد يقول:

أريد ان يتقدم الديوان بعمارة دار السلطنة لأسكنها إذا وصلت.

فأكرم (الناصر) رسولَ (قزل) ووعده بالنجدة، وردّ رسول السلطان بغير جواب، وأمر الخليفة بنقض دار السلطنة، فهدمت إلى الأرض وعفي أثرها[1].

فلو لم يكن الناصر ضعيفاً أكان يستطيع طغرل اين يخاطبه هكذا؟ ويأمر الخليفة بأن يهيء له دار السلطنة ليسكنها؟

فهل هذا من الشهامة والشجاعة والنبل؟

نعم، كان (الناصر) ذكياً هنا، عندما علم ان قوّة (قزل أرسلان) أكبر من قوّة طغرل، وهو (أي الناصر) لابدّ ان يستند على قوّة خارجية، وليس كما يقولون عنه انّه أخضع الملوك والسلاطين، ولذلك فقد ساهم مع جيش أرسلان بقوّة يرسلها من

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ١٠ / ص ١٦٣.

بغداد في قتاله طغرل.

وإذا كان الخليفة، الإمام الناصر لدين الله، أمير المؤمنين، مشغولاً بطيوره، متشبهاً بالعيارين، فلابدّ ان يكون عسكره ضعيفاً مهزوماً.

يقول ابن الأثير عن حوادث عام ٥٨٤هـ ما يلي:

في هذه السنة جهّز الخليفة الناصر لدين الله عسكراً كثيراً، وجعل المقدم عليهم وزيره جلال الدين عبيدالله بن يونس، وسيّرهم إلى مساعدة قزل ليكفّ الناس طغرل عن البلاد.

فسار العسكر ثالث صفر إلى أن قارب همدان، فلم يصل قزل إليهم، وأقبل طغرل إليهم فالتقوا واقتتلوا، فلم يثبت عسكر بغداد، بل انهزموا وتفرّقوا...

وتأسّر الوزير من قبل طغرل وما معه من خزانة وسلاح ودواب وغير ذلك، وعاد العسكر إلى بغداد متفرّقين[١].

ويقول الدكتور عبدالنعيم حسنين:

إنّ جيش الخليفة وصل إلى همدان قبل وصول جيش (قزل أرسلان) فأضطر إلى القتال وحده، فهزم شر هزيمة ورجع إلى العراق مدحوراً.

وعلا شأن السلطان طغرل بعد انتصاره على جيش الخليفة[٢].

ويبقى السلطان طغرل هاجساً للخليفة الناصر وشبحاً مخيفاً يتمثّل أمامه دائماً، ممّا اضطر الخليفة المستضعف أن يراسل حاكم خوارزم على القضاء على طغرل بعدما يئس من قوّة قزل أرسلان.

... كما اشترك الخليفة العباسي في تحريض حاكم خوارزم على القضاء على طغرل، وأرسل إليه في ذلك العام (٥٩٠هـ) نفسه رسولاً يشكو من طغرل، ويطلب منه قصد بلاده، ومعه منشور، بإقطاعه البلاد...

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ١٠ / ص ١٧٨.

٢ ـ إيران والعراق في العصر السلجوقي / ص ١٥٠.

ودارت بين الطرفين معركة عنيفة فاصلة بالقرب من مدينة (ري) في منتصف عام ٥٩٠، وحمل طغرل بنفسه في وسط عسكر خوارزم، فأحاطوا به وألقوه عن فرسه وقتلوه، وأرسلوا رأسه إلى الخليفة العباسي ببغداد، ايذاناً بالقضاء على دولة سلاجقة العراق [١].

❊ ❊ ❊

فالخليفة المستضعف لابدّ وان يستند أو يكون محكوماً إلى جهة خارجية أخرى فهل صحيح ما يقال عن الناصر انّه كان قد أخضع الملوك والسلاطين، أو كان الأمر معكوساً؟

فلنتحقّق من ذلك:

لقد كانت سمعة صلاح الدين الأيوبي في الربع الأخير من القرن السادس قد طبّقت آفاق المنطقة، ومنها العراق.

والخليفة الناصر كان يجد نفسه مضطرّاً إلى أن يتشبّث بأحد السلاطين ليقوي مركزه، ولذلك فانّه بعث إلى السلطان صلاح الدين رسلاً يحملون إليه الخلع والهدايا.

فلبس السلطان خلعة الخليفة بدمشق، وزيّنت له البلد وكان يوماً مشهوداً [٢]، ثمّ عاود الخليفة مغازلته للسلطان، فبعث إليه رسلاً يعلمونه بولاية العهد لأبي نصر الملقّب بالظاهر بن الخليفة الناصر.

فأمر السلطان خطيب دمشق أبا القاسم عبدالملك بن زيد الدولعي ان يذكره على المنبر، ثمّ جهز السلطان مع الرسل تحفاً كثيرة وهدايا سنية وأرسل بأسارى من الفرنج على هيئتهم في حال حربهم وأرسل بصليب الصلبوت، فدفن تحت عتبة باب النوى من دار الخليفة [٣].

---

١ ـ إيران والعراق في العصر السلجوقي / ص ١٥٠.

٢ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١٢ / ص ٢٧٦.

٣ ـ المصدر السابق / ص ٤٠٦.

ولقد سبق أن رأينا أنّ الخليفة الناصر كان يغازل خوارزمشاه قبل القضاء على الدولة السلجوقية لأنّه خشي منه، ففضّل أن يغازله ويطمعه في اقطاعه البلاد منذ البداية قبل أن يهجم على العراق.

وبالفعل، فقد فعلها حاكم خوارزمشاه.

يقول صاحب شذرات الذهب:

فيها (أي في سنة ٦٢٢هـ) جاء جلال الدين بن خوارزمشاه، فبذل السيف في (دقوقا) وفعل ما لا تفعله الكفرة، وأحرق (دقوقا) وعزم على هجم بغداد، فانزعج الخليفة الناصر وحصّن بغداد وأقام المجانيق وأنفق ألف ألف دينار.

ففجأ ابن خوارزمشاه انّ الكرج قد خرجوا على بلاده فساق إليهم[1].

* * *

فقد قرّر حاكم خوارزمشاه ان يحتل بغداد، وهي حالة طبيعية في الحكّام والملوك، يحاولون أن يوسعوا مملكتهم ويضمّوا إليها ما يستطيعون من الممالك الأخرى ما لم يقف أمامهم شيء.

وكان باستطاعة جلال الدين أن يحتل بغداد وينهي الخلافة العباسية، فالأمور مهيّئة جدّاً، والخليفة الناصر مشغول بطيوره ولعبه بالبنادق. وإذا أراد جلال الدين ان يتلطّف بالناصر ويبايع لغيره، كما فعل قبله الأتراك والبويهيون والسلاجقة لفعل، ولكن الصدف هي الّتي فاجأت جلال الدين، عندما وجد أنّ (الكرج) قد خرجوا على بلاده، فارتدّ مسرعاً.

أمّا ابن الأثير فيقول:

إنّ عسكر خوارزمشاه كان قد وصل في البداية إلى (بعقوبا) وهي قرية مشهورة بطريق خراسان، بينها وبين بغداد نحو سبعة فراسخ، فلمّا وصل الخبر إلى بغداد

١ ـ شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي / ج ٥ / ص ٩٧.

تجهّزوا للحصار.

وأمّا عسكر جلال الدين، فنهب البلاد وأهلها وسار من (بعقوبا) إلى (دقوقا) فحصرها... وجدّ في قتالهم، ففتحها عنوة وقهراً، ونهبتها عساكره وقتلوا كثيراً، فهرب من سلم منهم من القتل، وتفرّقوا في البلاد[1].

فهل كانت تنفع الناصر تشبثاته بالسلاطين (قزل أرسلان وصلاح الدين وخوارزمشاه)؟ انّهم متى ما أرادوا ان يهجموا عليه داره فعلوا، ولن تردعهم صداقة ومودّة وهدايا وخلع. وتلك طبيعة بشرية متأصلة.

والّذي نريد ان نقوله هنا: انّ الخليفة الناصر لم يكن مستقل الرأي كما يقول عنه المؤرِّخون ولم يُعد للخلافة هيبتها ومجدها.

وربّما كنّا نعذر الخليفة الناصر في ذلك، فالرجل ضعيف ويريد أن يحافظ على دولته ومركزه، فكان يستنجد بملك مسلم ليحميه من ملك مسلم آخر.

ولكن أخطر ما في الأمر انّ الخليفة بعدما خشي من قوّة الخوارزمية استنجد بالوثنيين (التتار) وهو ما يذكره جلّ المؤرِّخين ومنهم ابن خلدون إذ يقول:

ويقال انّه الّذي أطمع التتر في ملك العراق، لما كانت بينه وبين خوارزمشاه من الفتنة[2].

ويؤيّده ابن الوردي: وقيل انّه هو الّذي كاتَبَ التتر ليشتغل خوارزمشاه عن العراق[3].

وسوف نفصِّل هذا في موقع آخر من هذا الكتاب إن شاء الله، وهو الفصل الّذي نتحدّث فيه عن هجوم التتار على بغداد.

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ١٠ / ص ٤٤٤.

٢ ـ تاريخ ابن خلدون / ج ٣ / ص ٥٣٥.

٣ ـ تاريخ ابن الوردي / ج ٢ / ص ١٤٤.

حقيقة صفات الخليفة الناصر

المؤرِّخ ابن الأثير يصف الخليفة الناصر فيقول:

ولم يطلق في طول مرضه (أي مرض الخليفة الناصر) شيئاً كان أحدثه من الرسوم الجائرة، وكان قبيح السيرة في رعيته ظالماً، فخرب في أيّامه العراق وتفرق أهله في البلاد، وأخذ أملاكهم وأموالهم.

وكان يفعل الشيء وضدّه، فمن ذلك أنّه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها في رمضان، فبقيت مدّة ثمّ قطع ذلك، ثمّ عمل دور الضيافة للحجاج فبقيت مدّة ثمّ أبطلها، وأطلق بعض المكوس الّتي جدّدها ببغداد خاصّة ثمّ أعادها وجعل جلّ همّه في رمي البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوّة، فبطّل الفتوة في البلاد جميعها إلّا مَن يلبس منه سراويل يدعى إليه[١].

ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوّة.

وكذلك أيضاً منع الطيور المناسيب لغيره إلّا ما يؤخذ من طيوره ومنع الرمي بالبندق إلّا من ينتمي إليه[٢].

فأجابه الناس بالعراق وغيره إلى ذلك...

وإن كان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من انّه هو الّذي أطمع التتر في البلاد وراسلهم في ذلك، فهو الطامّة الكبرى الّتي يصغر عندها كل ذنب عظيم[٣].

---

١ ـ يبدو أنّ سراويل الفتوّة كان يلبسها العيارون خاصّة، فتشبّه بهم الخليفة الناصر ولبس سراويل الفتوّة، ولكنّها كانت ذات طراز خاص، فمنع الناس من لبس سراويل الفتوّة إلّا إذا كانت على النحو الّذي يلبسه هو.

٢ ـ واللّعب بالطّيور والبندق ما يفعله العيارون والبطالون من أبناء الشوارع على نحو القمار والمغالبة. فأمير المؤمنين الناصر منع الناس من اللّعب بذلك إلّا ما يؤخذ من طيوره الخليفية.

٣ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ١٠ / ص ٤٥٢ ـ ٤٥٣.

نعم، استنجد أمير المؤمنين الخليفة الناصر بالوثنيين التتار ليعاونوه في صد هجوم الخوارزمية، وهو الطامّة الكبرى كما يقول ابن الأثير.

سوف نكتفي بهذا المقدار في الحديث عن القوى الأجنبية الّتي أثّرت في اضمحلال وضع العباسيين وتدهور الدولة.

أمّا المستنصر والمستعصم فانّ الحديث عنهما سوف يكون في فصل التتار الّذين بدأوا يتغلّبون على البلاد بسرعة فائقة، ثمّ وجهوا أنظارهم إلى بغداد حيث كانت الدولة العباسية تنتظر من يلتهمها، نتيجة للتراكمات التخريبية الّتي ساهم فيها الخلفاء أنفسهم مساهمة فعالة.

* * *

الفصل الثالث

الفتن العنصرية والطائفية والعيارون واللّصوص والاختلاف بين الخلفاء

هناك قضايا كثيرة ساهمت في سقوط بغداد، وإن كانت تتصل في نتيجتها بالخلفاء الّذين كانوا هم أنفسهم قد خلقوا بعض الفتن لتحقيق مآربـاهم في بسط نفوذهم واستحواذهم على الأمور ـ فيا يتصوّرون ـ اضافة إلى أنّ بعض الفتن الأخرى حصلت نتيجة لضعف الخلفاء.

فالعيّارون مثلاً واللّصوص وعمليّات النّهب انّما حدثت عندما أصبح الخلفاء ضعافاً يسيطر عليهم غيرهم من الأتراك والبويهيين والسلاجقة، وهو أمر طبيعي جدّاً، فالانسان متى ما أصبح ضعيفاً طمع فيه الآخرون.

ولقد رأينا انّ الضعف الّذي كان ينتاب الخلفاء، لم يكن ضعفاً وراثياً أو نتيجة لنقصٍ في الخلقة، ولكنّهم انصرفوا لأمور أخرى، اختاروها بأنفسهم وبمحض إرادتهم في الخمور والنِّساء والغناء والخصيان وما إلى ذلك.

واعتمدوا على غيرهم في إدارة الدولة، الّذين ربّما كان قد ولّاهم أمير المؤمنين ـ ولو نظرياً ـ شؤون شرق الدُّنيا وغربها عدا باب داره.

وهم وإن كانوا يعلمون انّ الشرق والغرب لم يكن مملوكاً للخلفاء، إلّا ان هذه العبارة كانت تمنحهم ثقة عالية في التصرف بالبلاد والعباد كما يشاؤون.

وهؤلاء بدورهم كانوا يعتمدون على أناس آخرين من سنخهم، والجميع انصرفوا لأنفسهم وملاذهم.

وتهرّأت الدولة وتمزّقت وتقضّمت من أطرافها حتّى بقيت بغداد وحدها، ثمّ أصبحت بغداد جانبين (شرقي وغربي) وسلطة الخليفة في جانبها الشرقي، ولربّما بلغ الحد أن تكون الخطبة للخليفة في جامع المنصور فقط دون بقية الجوامع، حتّى أصبحت الدولة العباسية عام ٦٥٦هـ لقمّة سائغة للتتار.

وسوف نبحث في هذا الفصل عن تلك القضايا الّتي ساهمت في سقوط بغداد، وارتأينا ان نتكلم عنها حسب الترتيب التالي:

١ ـ فتنة إبراهيم الإمام العنصرية.

٢ ـ فتنة أبي جعفر المنصور القبلية أو العشائرية.

٣ ـ فتنة المأمون في خلق القرآن.

٤ ـ الفتن الطائفية.

٥ ـ العيارون واللصوص.

٦ ـ الخلاف بين الخلفاء.

❊ ❊ ❊

١ ـ فتنة إبراهيم الإمام العنصرية:

وهي أوّل فتنة حدثت في الدعوة العباسية، عندما أعطى إبراهيم الإمام توجيهاته إلى أبي مسلم الخراساني في رسالة وجهها إلى أهل خراسان يقول فيها:

انّه قد أجمع رأيه على أبي مسلم وأمرهم بالسمع والطاعة له...

ثمّ قال لأبي مسلم:

انّك رجل منّا أهل البيت، احفظ وصيتي، انظر هذا الحي في اليمن، فالزمهم واسكن بين أظهرهم، فانّ الله لا يتم هذا الأمر إلّا بهم، وأمّا مضر فانّهم العدو القريب الدار... واقتل من شككت فيه، وان استطعت ان لا تدع بخراسان من يتكلم العربية فافعل، وأيّما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فافعل...[1]

❊ ❊ ❊

فالأمويون كانوا يعتمدون على المضرية في مقابل اليمانية، وأراد إبراهيم الإمام ان يضرب على وتر العنصرية ويتقرب إلى اليمانية ليكسب عواطفهم وسيوفهم، أولئك

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٥ / ص ٢١.

الّذين كانوا مبعدين عن السلطة أيّام بني مروان وآل أبي سفيان، وجعل النصر لا يتم إلّا على يد اليمانية بطريقة أشبه ما تكون بالإيحاء بالغيب.

وأوقعت تلك الفتنة الخلاف وأثارت الضغائن وأثرت تأثيراً فادحاً في الأمّة. ولقد بحثنا في هذا الموضوع بصورة مسهبة واستقرأنا الأسباب الّتي دعت إبراهيم الإمام إلى أن يتبنّى هذه السياسة، ولا نرانا بحاجة إلى إعادة ما كتبناه هناك فليراجع ابتداء من الصفحة العاشرة.

* * *

٢ ـ فتنة أبي جعفر المنصور القبلية:

والفتنة الثانية هي فتنة أبي جعفر المنصور الّتي أوقعها بين الهاشميين أنفسهم بعدما كانوا شيئاً واحداً[١].

فدقّ المنصور إسفيناً بينها وأصبحوا علويين وعباسيين، ولعلّ الّذي دعاه إلى هذا العمل، هي البيعة الّتي سبقت منه للنفس الزكية محمّد بن عبدالله بن الحسن، عندما اجتمع وجوه بني هاشم في الأبواء وبايعوا للنفس الزكية، وكان منهم السفاح والمنصور نفسه.

ولكن الأمور اتّخذت اتجاهاً آخر عندما كانت الدعوة (للرضا من آل البيت) واستغلوا عواطف الناس وحبّهم للرّسول ﷺ وذرّيّته. فما انكشف للناس إلّا يوم خطب أبو العباس السفاح خطبته الأولى في مسجد الكوفة.

وعند ذاك توضّح للناس أنّ الدعوة حقيقتها لبني العباس خاصّة وليست لآل البيت الّذين هم ذرّيّة علي من ولديه الحسن والحسين ولدي فاطمة بنت الرّسول ﷺ.

وكان السفاح منسجماً مع أبناء عمّه العلويين أو أنّه كان لا يظهر حقده اتجاههم، ولكن المنصور هو أوّل من بدأ يسلك معهم سلوكاً عنيفاً وكأنّهم ألدّ أعدائه، ولم تكن

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٢٦١.

تأخذه فيهم رحمة ورأفة وخوف من الله تعالى.

وفي أوّل عملية له ضدّ العلويين انّه أخذ من أولاد الحسين بن علي بن أبي طالب اثني عشر انساناً ورحّلهم من المدينة إلى الكوفة وحبسهم في بيت ضيق، لا يمكّن أحد من مقعده، يبول بعضهم على بعض ويتغوّط ولا يدخل عليهم روح الهواء ولا تخرج عنهم رائحة القذارة حتّى ماتوا عن آخرهم[١].

ففتنة إبراهيم الإمام كانت عنصرية بين العرب أنفسهم يمانيين ومضريين، وفتنة المنصور فتنة قبلية داخلية أذكى أوارها ليقضي على الطرف الآخر من العلويين، على طريقة السارق والمسروق، فانّ السارق يحاول أن يقضي على المسروق منه خوفاً من العاقبة والافتضاح.

وكذلك المنصور، فانّه لم يعتقل أولئك الّذين ثاروا عليه من العلويين أو الّذين يحتمل انّهم سوف يثورون عليه فحسب، وانّما اعتقل جميع أبناء علي حتّى الصغار منهم ليخفي السرقة التاريخيّة الّتي اقترفها العباسيون في بدء دعوتهم، وكانوا قبلاً والعلويين يداً واحدة فلمّا انتصروا تنكّروا لأبناء عمّهم وبدأوا بهم حبساً وتنكيلاً وقتلاً وتشريداً، ممّا لم يحدثنا التاريخ بمثيل له.

والفتنة تلك لم تتحدّد بفترة المنصور فحسب وتنتهي بموته، وانّما أذكاها المنصور وبقيت مستعرة على طول حكم بني العباس، كان نتيجتها ثورات متعاقبة للعلويين في كل مكان ضد بني العباس، وكانت تفشل بعض تلك الثورات، في حين كان بعضها ينجح ويشكل دويلات ودولاً في المشرق والمغرب ومصر والأندلس وأماكن أخرى كثيرة. حتّى ان بعضها استمر لما بعد انهيار الخلافة العباسية في بغداد.

* * *

ولقد كان العباسيون في غنى عن هذا كلّه، لو سلكوا مع أبناء عمّهم سلوكاً جيداً ليقضوا على حكم بني أميّة ويعيدوا للاسلام حكمه وقوته وحيويته، وكان بإمكانهم

---

١ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ١٢٢.

أن يشركوا معهم أبناء عمّهم من العلويين في الحكم ليكونوا وإيّاهم قوّة واحدة ويداً واحدةً وإرادة واحدة في خدمة الاسلام وصد أعدائه.

ولكن الأمور سارت على عكس ذلك ممّا أدّى إلى خلاف وتصدّع وتهرّؤ وخراب.. ما دامت الأطماع والشهوات هي الّتي تسيطر على النفوس وتوجّه المسيرة.

* * *

٣ ـ فتنة المأمون في خلق القرآن:

أمّا الفتنة الّتي تبعت فتنة المنصور وأحدثت شرخاً في فصيل من المسلمين، فهي الفتنة الّتي اختلقها المأمون في موضوع (خلق القرآن) والّتي استمرّت عشرين سنة، راح ضحيّتها كثير من الناس والفقهاء، وكأنّها أصبحت محكّاً لمعرفة المسلم من غير المسلم، ولشدّة اهتمام المأمون بها، جعلها ضمن وصيته إلى أخيه المعتصم.

يقول السيوطي:

وفي سنة ٢١٨هـ امتحن الناس بالقول بخلق القرآن (وكان في الرقة) فكتب إلى نائبه على بغداد إسحاق بن إبراهيم الخزاعي ابن عم طاهر بن الحسين في امتحان العلماء كتاباً يقول فيه:

... وقد عرف أمير المؤمنين انّ الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشوة الرعية وسفلة العامّة ممّن لا نظر له ولا رويّة ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه، أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه وقصور ان يقدروا الله حق قدره، ويعرفوه كنه معرفته ويفرقوا بينه وبين خلقه، وذلك انّهم ساووا بين الله وبين ما أنزل من القرآن، فأطبقوا على انّه قديم لم يخلقه الله ويخترعه.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً﴾ فكل ما جعله الله فقد خلقه. كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّور﴾.

وقال ﴿كَذٰلِكَ نَقَصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَق﴾.

فأخبر انّه قصص لأمور أحدثه بعدها.

وقال ﴿أُحْكِمَتْ آيَاته ثُمَّ فُصِّلت﴾ والله محكم كتابه ومفصله، فهو خالقه ومبتدعه، ثمّ انتسبوا إلى السنّة واظهروا انّهم أهل الحق والجماعة وان من سواهم أهل الباطل والكفر، فاستطالوا بذلك وغرّوا به الجهّال.

حتّى مالَ قوم من أهل السمت الكاذب والتخشّع لغير الله إلى موافقتهم، فتركوا الحق إلى باطلهم، واتخذوا دون الله وليجة إلى ضلالهم...

إلى أن قال: فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شرّ الأمّة المنقوصون من التوحيد حظّاً وأوعية الجهالة واعلام الكذب ولسان إبليس الناطق في أوليائه والهائل على أعدائه من أهل دين الله، وأحق من يتهم في صدقه، وتطرح شهادته ولا يوثق به من عمى عن رشده وحظّه من الإيمان بالله وبالتوحيد، وكان عمّا سوى ذلك أعمى واضل سبيلاً.

ولعمر أمير المؤمنين، ان أكذب الناس من كذب على الله ووحيه وتخرّص الباطل ولم يعرف الله حق معرفته.

فاجمع من بحضرتك من القضاة، فاقرأ عليهم كتابنا وامتحنهم فيما يقولون واكشفهم عمّا يعتقدون في خلقه وإحداثه، واعلمهم انّي غير مستعين في عملي ولا واثق بمن لا يوثق بدينه.

فإذا أقرّوا بذلك ووافقوا فمرهم بنص من بحضرتهم من الشهود ومسألتهم عن علمهم في القرآن وترك شهادة من لم يقرّ انّه مخلوق.

واكتب إلينا بما يأتيك من قضاة أهل عملك في مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك.

وكتب إليه في إشخاص سبعة أنفس، وهم محمّد بن سعد كاتب الواقدي ويحيى ابن معين وأبو خيثمة وأبو مستملي يزيد بن هارون وإسماعيل بن داود وإسماعيل ابن أبي مسعود وأحمد بن إبراهيم الدورقي، فأشخصوا إليه فامتحنهم بخلق القرآن فأجابوه.

وكتب إلى إسحاق بن إبراهيم بأن يحضر الفقهاء ومشايخ الحديث ويخبرهم بما

أجاب به هؤلاء السبعة، ففعل ذلك.

فأجابه طائفة وامتنع آخرون، فكان يحيى بن معين وغيره يقولون: أجبنا خوفاً من السيف.

ثمّ كتب المأمون كتاباً آخر من جنس الأوّل إلى إسحاق وأمره بإحضار من امتنع، فأحضر جماعة منهم أحمد بن حنبل[1].

❊ ❊ ❊

وتعرّض أحمد بن حنبل بالذات إلى السياط والتعذيب والقيود وبقي على رأيه على قدم القرآن.

وهناك تفصيل للفتنة، أحجمنا عن ذكره.

والمؤرّخون يقولون: ان أصل الفتنة كان من المعتزلة الّذين كانوا يسيطرون على المأمون، حتّى قيل انّ المأمون انتسب إلى مذهبهم، واختار من بينهم وزيراً متعصباً هو أحمد بن أبي دؤاد وكذلك إسحاق بن إبراهيم الّذي كان صاحب شرطته[2].

ونحن لا نستبعد ان تكون الفتنة من أساليب المعتزلة للقضاء على مخالفيهم بعدما أعجزتهم المناظرات الّتي كانوا يتوقعون انّهم سوف ينجحون بها ويحققون نصراً مؤزّراً لمذهبهم.

فاستطاعوا ان يؤثروا على رأس الدولة الاسلامية (المأمون) الّذي كان معروفاً بالعلم والمعرفة، فتبنّى فكرة امتحان الناس (بخلق القرآن) ليتميّز فيهم من يؤيّده ومن لا يؤيّده.

ولكنّه لم يكن يحسن الامتحان لأنّه كان امتحاناً تحت السياط والقيود والحبس، وانتقلت هذه الفتنة من المأمون إلى أخيه المعتصم ثمّ إلى الواثق واستمرت.

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٣٠٩ ـ ٣١٠.

٢ ـ الإمام أحمد بن حنبل للدكتور مصطفى الشكعة / ص ١٢٣.

والمفارقة العجيبة في فتنة القرآن، حيث كان الخلفاء يعاقبون من لا يقول (بخلق القرآن).

فانّ الخليفة (القادر بالله) أصدر بياناً معكوساً تماماً:

يقول ابن الجوزي:

انّه قرئ يوم الخميس السابع عشر من المحرّم عام (٤٠٩هـ) في الموكب بدار الخليفة.

كتاب بمذاهب السنّة وقيل فيه «مَن قال إنّ القرآن مخلوق فهو كافر حلال الدم»[١].

كان هذا اختصاراً لأساس الفتنة، ولكن آثارها كانت بعيدة الغور، أحدثت في المسلمين شرخاً واسعاً، وقسمتهم إلى مؤمن (يؤيد المأمون) وكافر (لا يـؤيّده) ولم تكن المعركة بين الفقهاء فقط، وإنّما امتدّت إلى الأمّة الّتي تنتمي لهذا المذهب أو لمذهب آخر، وتؤيّد هذا الفقيه أو فقيهاً آخر.

وإذا كانت فتنة إبراهيم الإمام قد أحدثت شرخاً بين اليمـانية والمضرية وفـتنة المنصور بين العلويين والعباسيين، فانّ فتنة المأمون أكملت الشوط الّـذي سـعى له خلفاء بني العباس بأنفسهم لتحقيق مآرب آنية، ولكنّها تسبّبت في اختلافات عميقة بين فئآت كثيرة من الأمّة تعيش في ظلّ الدولة العباسية، وهي ليست من عوام الناس وإنّما من طبقات ذات تأثير.

كلّ تلك الفتن إذا اجتمعت وتداخلت مع بعضها وأضيف إليها الأسباب الأخرى الّتي نخرت في جسم الدولة، فانّ الدولة ذاتها سوف تهتزّ وتترنّح وتميل بالتدريج نحو الانهيار الّذي لا بدّ أن تتوفّر أسبابه.

❊ ❊ ❊

٤ ـ الفتن الطّائفيّة:

ثمّ كانت الفتن الطائفية، واتخذت أشكالاً متعددة، فقد تكون بين الشيعة والسنّة،

---

١ ـ المنتظم في تواريخ الملوك والأمم / ج ٩ / ص ١٥٩.

وقد تكون بين مذاهب السنّة.

وفتن المذاهب غير الشيعية، يكون الحنابلة في الغالب أحد الطرفين المتخاصمين فيها، وهي ربّما تكون حول الجهر بـ(بسم الله الرّحمٰن الرّحيم) في الصلاة الّتي يمنعها الحنابلة وكذلك حول (رؤية الله يوم القيامة) الّتي يعتقد بها الحنابلة وينفيها الآخرون وهكذا...

وفي جميع تلك الفتن يذهب من الضحايا العدد الكبير، وإذا هدأت فانّها تعود بعد فترة أخرى.

يقول ابن الأثير:

في عام (٣١٧هـ) وقعت فتنة عظيمة ببغداد بين أصحاب أبي بكر المروزي الحنبلي وبين غيرهم من العامة، ودخل كثير من الجند فيها.

وسبب ذلك أنّ أصحاب المروزي قالوا في تفسير قوله تعالى ﴿وَعَسَى رَبّك ان يَبعثك مَقاماً مَحموداً﴾ هو أنّ الله سبحانه يُقعِد النبيّ ﷺ معه على العرش.

وقالت الطائفة الأخرى (انّما هو الشفاعة).

فوقعت الفتنة واقتتلوا، فقتل بينهم قتلى كثيرة[1].

ويذكر ابن الأثير أيضاً:

ان في عام (٣٥١هـ) في جمادى الأولى، كانت فتنة بالبصرة وبهمدان أيضاً بين العامة، بسبب المذاهب، قتل فيها خلق كثير[2].

وعن الفتنة الّتي حدثت عام (٤٦٩هـ) يقول السيوطي:

قدم بغداد أبو نصر بن الأستاذ أبي القاسم القشيري، فوعظ بالنظامية، وجرى له فتنة كبيرة مع الحنابلة، لأنّه تكلم على مذهب الأشعري وحطّ عليهم، وكثر أتباعه والمتعصّبون له، فهاجت فتن وقتلت جماعة.

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٧ / ص ٥٧، والسيوطي / ص ٣٨٣.

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٧ / ص ٢٧٦.

وعزل فخر الدولة بن جهير من وزارة المقتدي لكونه شذّ عن الحنابلة[١].

ويعود ابن الأثير فيقول:

ورد إلى بغداد هذه السنة (٤٧٥هـ) الشريف أبوالقاسم البكري المغربي الواعظ، وكان أشعري المذهب، وكان قد قصد نظام الملك فأحبّه ومال إليه وسيّره إلى بغداد، وأجرى عليه جراية وافرة، فوعظ بالمدرسة النظامية، وكان يذكر الحنابلة ويعيبهم، ويقول: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ والله ما كفر أحمد ولكن أصحابه كفروا، ثمّ انّه قصد يوماً دار قاضي القضاة أبي عبدالله الدامغاني بنهر القلائين، فجرى بين بعض أصحابه وبين قوم من الحنابلة مشاجرة أدّت إلى الفتنة، وكثر جمعه، فكبس دور بني الفراء وأخذ كتبهم وأخذ منهم كتاب (الصفات) لأبي يعلى، فكان يقرأ بين يديه وهو جالس على الكرسي للوعظ، فيشنع به عليهم، وجرى له معهم خصومات وفتن.

ولقّب البكري من الديوان بـ(علم السنّة) ومات ببغداد ودفن عند قبر أبي الحسن الأشعري[٢].

❊ ❊ ❊

كانت تلك نماذج قليلة لفتن طائفية كثيرة (في المذهب الواحد) حدثت في مناطق متعدّدة في ظل الدولة الاسلامية.

ولعلّ أشدّ فتنة في تأثيرها على الدولة، تلك الّتي حدثت في اصفهان بين فريقين من السنّة (الحنابلة والشافعية).

حين طلب الحنابلة من التتار أن يقدموا ويعاونوهم على قتال الشافعية، ليعطوهم اصفهان.

فجاء التتر واحتلوا اصفهان وقتلوا الطرفين.

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٨ / ص ٤٢٨.

٢ ـ المصدر السابق / ص ٤٢٨.

وسوف نتكلّم عنها بشيء من التفصيل في موضعها إن شاء الله.

ومن تلك الحادثة ومن مجمل القضايا الطائفية، نتبيّن مدى الأخطار الّتي تسببها في كيان الدولة ووحدتها، الّتي لا بدّ ان تكون متراصة كالبنيان المرصوص الّذي يشدّ بعضه بعضاً.

❊ ❊ ❊

أمّا الفتن الطائفية بين الشيعة والسنّة:

فلقد اتخذت مساراً حاداً، استمر منذ بداية تشكيل الدولة العباسية وحتّى نهايتها. والمهم في الأمر، انّنا نجد بعض الخلفاء يكونون طرفاً في الخصومة وعوناً للسنّة على الشيعة.

وهو أمر يقبح جدّاً بالحاكم، أي حاكم كان، حين يثير قوماً على قوم وطائفة على أخرى وفئة على غيرها، لأنّ الوحدة الوطنية مطلوبة لمن يريد العزّة والقوّة لبلاده، ويجب ان يكون الحاكم فوق الميول والاتجاهات ـ كما يقولون ـ.

وإذا كان الحاكم يدّعي انّه أمير المؤمنين وخليفة لرسول الله ﷺ، فينبغي عليه أن يترفّع عن هذه الأنانيات وان يكون قدوة في اتّباع خط رسول الله في جمع الشمل وتوحيد الناس في مقابل القوى المعادية.

والفتن الطائفية تلك كان لها تأثير سلبي في قوّة وصلابة الدولة العباسية، خصوصاً وان شعوب الدولة كانت كلّها تتخذ من الاسلام ديناً، وكان رسول الله ﷺ يقول: «مَن قال لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، فقد حقن دمه وماله وعرضه» بل انّ الاسلام يشدّد على الالتزام بالعهود المضروبة للذميين وللمشركين.

ولكن الخلفاء أولئك الّذين ذكرنا قليلاً من حياتهم، كانوا حريصين على كل شيء إلّا على الاسلام وأهله، وحتّى إذا وجدناهم يسيّرون الغزاة والصوائف فللمغانم الّتي تشغل الجند وتحقيق الثراء والترف العظيم للخلفاء.

والحاكم أو الخليفة ربّما يعتنق مذهباً معيّناً، وهذا أمر طبيعي جدّاً، ولكن غير

الطبيعي هو أن يثير الفتن الطائفية ويعاون البعض على البعض الآخر، فتقع الحروب ويقع القتل وتتأزّم النفوس وتشتدّ الأحقاد، وإذا هي هدأت، فلكي تتحفّز تارة أخرى بحالة أشدّ من الأولى وهكذا...

فكيف كان يرتضي الخلفاء ذلك؟

مع أنّ المؤرّخين يصفون أكثرهم بأنّهم كانوا أصحاب رأي سديد وقوّة وشجاعة وذكاء وهمّة عالية... إلى آخره.

ولعلّنا لا نجد مبرِّراً لما كان يفعله الخلفاء من إثارات واحقاد إلّا إذا رجعنا إلى ما ذكرناه في فتنة أبي جعفر المنصور القبلية، فانّ الدعوة العباسية والدولة من بعدها، انّما قامت بشعار (الرضا من آل البيت).

فالخلفاء نفترضهم هكذا: لو ساووا بين الطوائف الاسلامية وبين الشيعة والسنّة بالخصوص، فانّهم يخشون من قوّة الشيعة الّذين يتصورون ان عواطفهم ليست مع الخلفاء، ولكن حتّى إذا كان هذا سبباً مبرراً، فانّ الخلفاء كان بامكانهم ان يسلكوا سلوكاً ذكياً ليضمنوا عواطف كل الفئات.

وسوف نذكر بعضاً من تلك الفتن كنموذج يطّلع عليها القارئ الكريم ومَن ثمّ ليستشعر مساهمة تلك الفتن في خلق الأجواء الّتي هيّأت لتدخل القوى الأجنبية كالبويهيين والسلاجقة وأخيراً التتار الّذين قضوا على كل شيء. •

❊ ❊ ❊

يقول ابن الأثير:

في هذه السنة (٣٦٢هـ) في شعبان احترق الكرخ[1] حريقاً عظيماً، وسبب ذلك انّ صاحب المعونة قتل عامياً، فثار به العامّة والأتراك، فهرب ودخل دار بعض الأتراك فاخرج منها مسحوباً وقتل واحرق وفتحت السجون، فاخرج من فيها.

---

١ ـ الكرخ: جانب بغداد الغربي وكان مسكوناً من قبل الشيعة.

فركب الوزير أبو الفضل لأخذ الجناة، وأرسل حاجباً له يُسمّى (صافياً) في جمعٍ لقتال العامّة بالكرخ، وكان شديد العصبية للسـنّية، فألق النار في عدّة أماكن مـن الكرخ، فاحترق حريقاً عظيماً.

وكان عدّة من احترق فيه سبعة عشر ألف انسان وثلاثمائة دكّان وكثير من الدور وثلاثة وثلاثين مسجداً ومن الأموال ما لا يُحصى[1].

هذه واحدة من الفتن، يذهب فيها سبعة عشر ألف انسان ومن المساجد والدور والدكاكين والأموال الكثير.

وقد كان بالإمكان خنق الفتنة في محلها عند وقوعها، ولكن الوزير أرسل من قبله شخصاً شديد التعصب للسنّية، واحدث تلك الأعمال الشنيعة.

وهل تنتهي تلك الكـوارث بانتهائها آنيّاً؟ أو تبقى سـاخنة في النفوس كالمرجل يتناقلها الأبناء عن الآباء لتعمّق الخلاف بين الطائفتين وتجذّره وتجعله أمراً يـصعب القضاء عليه.

ويعود ابن الأثير فيقول:

وثارت العامّة من أهل السنّة ينصرون (سبكتكين) عام (٣٦٣هـ) لأنّه كان يتسنّن، فخلع عليهم وجعل لهم العرفاء والقوّاد، فثاروا بالشيعة وحاربوهم وسُفِكَت بـينهم الدماء وأحرقت الكرخ حريقاً عظيماً، وظهرت السنّة عليهم[2].

كان سبكتكين تركياً، فذهبت إليه العامّة يؤيدونه، فكرّمهم سبكتكين بالخلع ونظّم صفوفهم، فجعل منهم العرفاء واتخذ منهم القواد للقيام بثورة ضدّ الشيعة. وظهرت السنّة عليهم.

وكان لابدّ أن تظهر السنّة عليهم، لأنّ قائد المعركة الحقيقي سبكتكين كان أميراً لجيش الخَليفة الطائع لله، يقول عنه صاحب كتاب المنتظم:

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير/ج ٧/ص٣٣٦، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم/ج ٨/ص٣٧٣.
٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير/ج ٧/ص ٣٤١.

ولمّا ولي الطائع وعليه البردة ومعه الجيش وبين يديه سبكتكين في يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي القعدة (٣٦٣هـ) ومن غد هذا اليوم خلع على سبكتكين الخلع السلطانية وعقد له لواء الامارة ولقبه نصر الدولة[١].

فالدولة بقوّتها وهيبتها وسلاحها وتخطيطها وسجونها وبكل امكاناتها تتصدّى لفئة من المسلمين يسكنون الكرخ، فيبدأون بإشعال النار فيها ليخلقوا فيهم حالة الرُّعب والخوف، وتتهدّم البيوت على ساكنيها ويذهب ضحيتها الآلاف.

ونحن لا نشكّ أنّ الخليفة الطائع كان مشاركاً لأمير الجيش في حملته ضدّ الشيعة، في الموافقة على الأقل، وهو ديدن الخلفاء.

ويؤيّد رأينا، هذا الخبر الّذي يذكره صاحب كتاب البداية والنهاية إذ يقول: وفي عاشر رجب عام (٣٩٨هـ) جرت فتنة بين السنّة والرّافضة، سببها أنّ بعض الهاشميين قصد أبا عبدالله محمّد بن النعمان المعروف بابن المعلم (الشيخ المفيد) ـ وكان فقيه الشيعة ـ في مسجده بدرب رباح، فعرض له بالسب.

فثار أصحابه له، واستنفر أصحاب الكرخ وصاروا إلى دار القاضي أبي محمّد الأكفاني والشيخ أبي حامد الاسفراييني، وجرت فتنة عظيمة طويلة...

وبلغ ذلك الخليفة (القادر بالله)، فغضب وبعث أعوانه لنصرة أهل السنّة، فحرّقت دور كثيرة من دور الشيعة، وجرت خطوب شديدة، وبَعَثَ عميدَ الجيوش إلى بغداد لينفي عنها (ابن المعلم) فقيه الشيعة، فأخرج منها ثمّ شفع فيه[٢].

ويضيف ابن الأثير بعض المعلومات إلى هذه الحادثة فيقول:

وفيها وقعت الفتنة ببغداد في رجب، وكان أوّلها انّ بعض الهاشميين من باب البصرة (وسكّانها من أهل السنّة) أتى ابنَ المعلم فقيه الشيعة في مسجده بالكرخ فآذاه ونال منه.

١ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم / ج ٨/ ص ٣٨٣.

٢ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١١ / ص ٣٨٩.

فثار به أصحاب ابن المعلم واستنفر بعضهم بعضاً وقصدوا أبا حامد الاسفراييني وعظمت الفتنة...[1]

فالمعتدى عليه ابتداء، فقيه الشيعة ابن المعلم، ثمّ تحصل الفتنة، ولكن أمير المؤمنين الخليفة يغضب للحادث ويبعث أعوانه لنصرة أهل السنّة على الشيعة.

ولكن نقول: أما كان للخليفة أن يتخذ قراراً آخر لإسكات الفتنة؟

ثمّ ماذا سوف يكون تصور الشيعة عن الخليفة القادر وأمثاله من الخلفاء؟

فهو سيكون حباً أم حقداً؟؟

وهل كان من وظيفة أمير المؤمنين القادر أن يؤيِّد فئة على فئة أخرى من المسلمين، فيحرق عليهم دورهم ويقتل منهم مقتلة عظيمة.

وقلنا سابقاً ونقول هنا أيضاً، انّ الخليفة إذا انتسب إلى مذهب معيّن من مذاهب الاسلام، فذلك أمر طبيعي، ليس لنا كلام فيه، ولكن غير الطبيعي ان يعاون الخليفة فئة على فئة أخرى ويشترك معهم في الغوغائية والإحراق وتهديم البيوت، ثمّ يكون مساهماً قوياً في إذكاء الطائفية بين المسلمين، لا تكون خسارتها على فئة واحدة وإنّما الخسارة على المسلمين جميعاً، وسوف يشجّع ذلك فئآت أخرى تأتي من الخارج، فتسيطر عليهم جميعاً وعلى مقدّرات الأمور، وهو الّذي حصل في البويهيين والسلاجقة والتتار في آخر المطاف.

❊ ❊ ❊

ويقول ابن خلدون بهذا الصدد:

كان في نفس الخليفة (المستنجد بالله) من بني أسد أهل الحلّة لفسادهم ومساعدتهم السلطان محمّداً في الحصار، فأمر (يزدن بن قماج) بإجلائهم عن البلاد.

وكانوا منبسطين في البطائح، فجمع العساكر وأرسل إلى ابن معروف، فقدم السفن وهو بأرض البصرة، فجاءه في جموع وحاصرهم وطاولهم.

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٨ / ص ٤٩.

فبعث المستنجد يعاتبه ويتهمه بالتشيع، فجهز هو وابن معروف في قتالهم وسدّ مسالكهم في الماء، فاستلموا، وقتل منهم أربعة آلاف ونودي عليهم بالملأ من الحلة، فتفرقوا ولم يبق بالعراق منهم أحد، وسلّمت بطائحهم وبلادهم إلى ابن معروف[1].

أمّا ابن الأثير فيفصّل الحادثة أكبر من ابن خلدون فيقول:

في هذه السنة (٥٥٨) أمر الخليفة المستنجد بالله بإهلاك بني أسد، أهل الحلة المزيدية لمّا ظاهر من فسادهم ولمّام كان في نفس الخليفة منهم، من مساعدتهم السلطان محمّداً لمّا حصر بغداد، فأمر (يزدن بن قماج) بقتالهم، وإجلائهم من البلاد، وكانوا منبسطين في البطائح واللوير، فلا يقدر عليهم.

فتوجه يزدن إليهم وجمع عساكر كثيرة من فارس وراجل، وأرسل إلى ابن معروف مقدم المتفق وهو بأرض البصرة فجاء في خلق كثير وحصرهم، وسكر عنهم الماء وصابرهم مدّة.

فأرسل الخليفة يعتب على يزدن ويعجّزه وينسبه إلى موافقته في التشيع، وكان يزدن يتشيع.

فجدّ هو وابن معروف في قتالهم والتضييق عليهم وسد مسالكهم في الماء، فاستسلموا حينئذ فقتل منهم أربعة آلاف قتيل ونودي فيمن بقي: من وجد بعد هذا في الحلة المزيدية فقد حلّ دمه، فتفرقوا في البلاد، ولم يبق منهم بالعراق من يعرف.

وسُلّمت بطائهم إلى ابن معروف وبلادهم[2].

* * *

في هذه القصص تبدو لنا عدّة ملاحظات:

١ ـ بنو أسد المزيديون الّذين يسكنون الحلة والبطائح ساعدوا السلطات محمّداً في حصاره لبغداد.

---

١ ـ تاريخ ابن خلدون / ج ٣ / ص ٥٢٣.

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٩ / ص ٤٦٤، وشذرات الذهب / ج ٤ / ص ١٨١.

٢ ـ يتهم (يزدن بن قماج) بالتشيّع.

٣ ـ الخليفة المستنجد بعد اتهامه (يزدن) بالتشيّع، يشترك هو وابن معروف بالهجوم على مناطق بني أسد.

٤ ـ سكّر (قطع) عنهم الماء.

٥ ـ قتل أربعة آلاف نسمة من العراقيين ممّن يعيشون في الدولة العباسية.

٦ ـ نودي عليهم (من وجد بعد هذا في الحلة فقد حلّ دمه).

٧ ـ وأخيراً يعطي أراضيهم وبلادهم إلى ابن معروف الّذي أبدى شجاعة متناهية في سفك دمائهم...

* * *

وإذا أردنا ان نناقش هذه الملاحظات واحدة واحدة، فعلينا ان نتساءل: لماذا ساعد بنو أسد السلطان محمّداً في حصار بغداد؟

والمشاركون لاعداء الخلفاء كثيرون على مر تأريخهم، قد يكونون من العيارين واللصوص. وقد يكونون من الأتراك وغيرهم.

ولكننا ما سمعنا أبداً انّ الخلفاء قد أجلوا العيارين عن بغداد، حاضرة ملكهم، بل انّ الخليفة الناصر كان يتقرب إليهم ويخطب ودّهم ويتلبّس بلباسهم.

أمّا لماذا ساعد بنو أسد السلطان محمّداً؟

فانّنا من أجل هذا نقول انّ الخليفة يجب ان يعمل على وحدة الصف ووحدة الكلمة ليكونوا صفاً واحداً متراصاً أمام الأعداء إذا جدّ الجد واقتضت الحاجة.

ثمّ نتساءل:

هل كان من المروءة بخليفة المسلمين وأمير المؤمنين ان يقطع الماء عن شعبه في مناطق واسعه من العراق؟

وهل انّ أعماله هذه تجعله محبوباً لديهم؟

ثمّ هل ان هذه الطريقة ممّا يوافق عليها الشرع؟

عفواً، لقد سبقني القلم، فانّه لا ينبغي أن يخاطب أولئك بما يوافق الشرع ويخالفه، فأعمالهم كلّها حرب لله ولرسوله.

وهل من الإنصاف والمروءة والسياسة أن يُنادى عليهم (مَن وُجِدَ في الحلّة فقد حلّ دمه)؟

فبأيّ دين جرى هذا ويجري؟

بدين الاسلام؟ أم بدين خلفاء بني العباس؟

وأخيراً فانّه يكرّم قائده المغوار (ابن معروف) فيعطيه أراضي بني أسد الّتي اغتصبها منهم إكراماً للدماء الّتي سفكها حين قتل أربعة آلاف شخص منهم وأيتم أطفالهم وأرمل نساءهم.

تلك كانت صفحة واحدة من صفحات الخلفاء السوداء.

ولكن العجيب أنّ المؤرّخين كلّهم يذكرون هذه القضيّة وأمثالها وكأنّها لم تحدث.

* * *

إنّ المستنجد لم ينطلق في كل ذلك إلّا من منطلق طائفي بغيض، كان عليه أن يترفع عنه لأنّه إمام المسلمين وأميرهم وملجأهم عندما تتأزّم الأمور وتشتدّ المعضلات.

وما يضيره ويضير دولته عندما يتمذهب الناس بمذاهب إسلامية شتّى؟

وما يضير الخلفاء لو جهر الناس بـ(بسم الله الرّحمٰن الرّحيم) في الصّلاة أو لم يجهروا؟

وما يضيرهم عندما تقول طائفة من المسلمين في الأذان (حيّ على خير العمل) وهي الّتي تثير الفتن والقتل والسلب والنهب، ويساعد الخليفة على ذلك؟

وهل استفاد المأمون عندما أجبر الناس على القول (بخلق القرآن)؟

نحن لا نشك ان فعل المستنجد كان من قصر النظر وقلّة الدراية وضعف البصيرة، وليس هو كما يقوله السيوطي: انّه كان موصوفاً بالفهم الثاقب والرأي الصائب والذكاء

الغالب والفضل الباهر[١].

ولو استطاع الخليفة ان يتغاضى عن معتقدات الناس ويتركهم كما يعتقدون، لكان أجمل به وأجدى بكثير، ولكان الجميع يدافعون عنه وعن دولته ومشاريعه بكل إخلاص.

❊ ❊ ❊

والفتن تلك، سواء كانت طائفية أو عنصرية أو حالات من النهب واللصوصية. ساهمت في نتيجتها باسقاط الدولة العباسية، وإن كنّا نعتقد انّها ترتبط ارتباطاً وثيقا بضعف الخلفاء وان قسماً منها كان بتوجيه الخلفاء أنفسهم وبتأييد منهم.

والخليفة في مفهومه، انّه يخلف رسول الله ﷺ في رعاية الأمّة. والأمّة تضم دائماً شرائح متعددة ومختلفة في توجهاتها، خصوصاً بعد ما نشأت المذاهب الفقهية والاتجاهات الفلسفية.

وبعض تلك المذاهب كان الخلفاء يتبنونها في فترة من الفترات. ولذلك فان على الخليفة أن يرعى الأمّة بأسرها وبجميع مذاهبها، بل انّ الخليفة مسؤول أيضاً عن حماية الذميين الّذين يتواجدون في دولة الاسلام.

وخليفة رسول الله ﷺ يُفتَرَض فيه أن يكون ذا رأي سياسي حصيف في مداراة الناس ورعاية شؤونهم وأن يطبِّق الرأي الاسلامي في تعامله مع الفئات الاسلامية ومع الذميين والمشركين والمحاربين ومع الأسرى والمعاهدين...

❊ ❊ ❊

ولكن أمراء المؤمنين، خلفاء المسلمين أولئك، كانوا من الضحالة في الدرك الأسفل منها، وإلّا فبأي وجه شرعي يقتل المستنجد فئة من المسلمين تقول (لا إله إلّا الله محمّد رسول الله) أربعة آلاف شخص؟

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٤٣.

ألم يفكِّر جناب الخليفة في عواقب هذه الأعمال؟

ألم يفكِّر في رصّ الصفوف وتكتيل التجمعات ليكونوا صفاً واحداً أمام كل طامع يريد شرّاً بدولة الاسلام؟

ولكنّهم كما قال الشاعر عنهم:

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حيّاً ولكن لا حياةَ لِمَن تُنادي

ولا شك أنّ هيمنة الأتراك والبويهيين والسلاجقة ومن ثمّ التتار لم تتحقق إلّا بعد ان تهرّأت الأمور من الأعلى إلى أدنى الدرجات في الدولة.

من الخليفة الّذي يهتم ببطنه وفرجه وإلى الوزير الّذي يهتم بتكديس الأموال وجباية الناس وتضمين المؤسّسات والأقاليم ليقبض الربح نقداً مقدماً، وإلى الأمراء وأبناء الخلفاء والعيارين واللصوص والناس أجمعين.

❊ ❊ ❊

أين إذن الحصافة والنجابة والرأي السديد والقوّة والهمة وما إلى ذلك من الألقاب الكاذبة الّتي يضفيها وعّاظ السلاطين على الخلفاء الّذين كانوا يصدِّقون بما يقوله عنهم أولئك، وتدق لهم الطبول والدبادب فيمنحون السلطان ولاية شرق الأرض وغربها عدا ما اشتملت عليه أبواب دار الخليفة؟

فتعساً لكم يا خلفاء السوء، يا خلفاء بني العباس الّذين فرّطتم في الاسلام وأحكامه، وأسأتم إلى الأمّة وأغضبتم رسول الله ﷺ الّذي انتسبتم إليه زوراً وبهتاناً، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

❊ ❊ ❊

ولو أراد الخلفاء ان يشيعوا الود والائتلاف بدل الحقد والاختلاف لاستطاعوا، فالناس وان كانت نفوسهم تميل إلى الشر، فان فيهم أيضاً نزعات الخير إذا أحسن استغلالها.

فلنستمع لما يقوله صاحب شذرات الذهب بهذا الخصوص:

فيها أي في عام (٤٤٢هـ) عُيِّن ابن النسوي لشرطة بغداد، فاتفقت الكلمة من السنّة والشيعة انّه متى ولي نزحوا من البلد ووقع الصلح بهذا السبب بين الفريقين.

وصار أهل الكرخ يترحّمون على الصّحابة، وصلّوا في مساجد السنّة، وخرجوا كلّهم إلى زيارة المشاهد وتحابّوا وتوادّدوا، وهذا شيء لم يعهد من دهر[1].

وكان على الخليفة (القائم بأمر الله) أن يستثمر هذا الاتفاق ويعمل على إدامته، ولكن القائم ـ مع الأسف ـ كان قاعداً لا تهمّه هذه الأمور مطلقاً، ولذلك فانّ الأمور سرعان ما عادت إلى سابق عهدها من الفتن والاضطرابات حيث يقول ابن الأثير: في هذه السنة (٤٤٣هـ) في صفر تجدّدت الفتنة ببغداد بين السنّة والشيعة وعظمت أضعاف ما كانت، فكان الاتفاق الّذي ذكرناه في السنة الماضية غير مأمون الانتقاض لما في الصدور من الإحن.

وكان سبب هذه الفتنة ان أهل الكرخ شرعوا في عمل السماكين وأهل القلائين في عمل ما بقي من باب مسعود.

ففرغ أهل الكرخ وعملوا أبراجاً كتبوا عليها بالذهب (محمّد وعلي خير البشر).

وأنكر السنّية ذلك، وادعوا أنّ المكتوب (محمّد وعلي خير البشر فمن رضي فقد شكر ومن أبى فقد كفر).

وأنكر أهل الكرخ الزيادة[2] وقالوا: ما تجاوزنا ما جرت به عادتنا فيما نكتبه على

---

١ ـ شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي / ج ٣ / ص ٢٦٧.

٢ ـ أي انّ أهل الكرخ اعترفوا بكتابة (محمّد وعلي خير البشر) أمّا هذه الزيادة (فمن رضي فقد شكر ومن أبى فقد كفر) فليست منهم، وربّما وضعت من حيث لا يشعرون.

ونحن لا نستبعد ان تحدث كثير من الفتن بنحوٍ من هذا. ولقد وجدنا في عهدنا كثيراً من هذه الألاعيب الّتي تتخذ لإثارة الآخرين لأغراض دنيئة.

ففي عام ١٩٥٠ و١٩٥١م بعدما زُرِعَت إسرائيل في قلب الوطن الاسلامي وهاجر إليها اليهود.

←

مساجدنا.

فأرسل الخليفة القائم بأمر الله أبا تمام نقيب العباسيين ونقيب العلويين وهو عدنان ابن الرضي لكشف الحال وانهائه.

فكتبا بتصديق قول الكرخيين، فأمر حينئذٍ الخليفةُ ونوّاب الرحيم (الملك) بكفّ القتال، فلم يقبلوا.

وانتدب ابن المذهب القاضي والزهيري وغيرهما من الحنابلة أصحاب عبدالصمد بحمل العامّة على الإغراق في الفتنة.

فأمسك نواب الملك الرحيم عن كفهم غيظاً من رئيس الرؤساء لميله إلى الحنابلة.

ومَنع هؤلاء السنيّة من حمل الماء من دجلة إلى الكرخ، وكان نهر عيسى قد انفتح بثقه، فعظم الأمر عليهم.

وانتدب جماعة منهم وقصدوا دجلة وحملوا الماء وجعلوه في الظروف وصبوا عليه ماء الورد ونادوا (الماء للسبيل) فأغروا به السنيّة.

وتشدّد رئيس الرؤساء على الشيعة، فمحوا (خير البشر) وكتبوا (عليهما السلام) فقالت السنيّة: لانرضى إلّا أن يقلع الآجر الّذي عليه (محمدّ وعلي) وأن لا يؤذّن (حيّ على خير العمل).

وامتنع الشيعة من ذلك، ودام القتال إلى ثالث ربيع الأوّل، وقتل فيه رجل هاشمي من السنيّة، فحمله أهله على نعش وطافوا به في الحربية وباب البصرة وسائر محال السنة، واستنفروا الناس للأخذ بثأره، ثمّ دفنوه عند أحمد بن حنبل.

← فكان بعض يهود العراق لا يرغبون بالهجرة، فأُطلِقَت عدّة قنابل على كنائس اليهود في بغداد وهدمتها وقُتِلَ فيها بعض الأشخاص، واستغلّ قادة اليهود بأنّ هذا من عمل المسلمين أعداء اليهود واتّخذ ذلك ذريعة لإقناع أولئك الممتنعين بالسّفر والهجرة إلى إسرائيل.

وظهر أخيراً أنّ الفاعلين هم أصلاً من اليهود ليحفّزوا أخوانهم على الهجرة.

كما كان بعض الفئات والأحزاب المتصارعة في العراق يزوّر بعضهم على البعض الآخر بيانات ووثائق للطّعن بخصومهم، وكأنّها صادرة منهم.

وقد اجتمع معهم خلق كثير أضعاف ما تقدم، فلمّا رجعوا من دفنه، قصدوا مشهد باب التبن، فاغلق بابه، فنقبوا في سورها وتهددوا البواب، فخافهم وفتح الباب، فدخلوا ونهبوا ما في المشهد من قناديل ومحاريب ذهب وفضّة وستور وغير ذلك.

ونهبوا ما في الترب والدور، وأدركهم اللّيل فعادوا.

فلمّا كان الغد كثر الجمع، فقصدوا المشهد وأحرقوا جميع الترب والأبراج واحترق ضريح موسى وضريح ابن ابنه محمّد بن علي والجوار والقبتان الساج اللّتان عليهما، واحترق ما يقابلها ويجاورهما من قبور ملوك بني بويه معين الدولة وجلال الدولة ومن قبور الوزراء والرؤساء وقبر جعفر بن أبي جعفر المنصور وقبر الأمين محمّد ابن الرشيد وقبر أمّه زبيدة.

وجرى من الأمر الفضيع ما لم يجر في الدُّنيا مثله.

فلمّا كان الغد خامس الشهر عادوا وحفروا قبر موسى بن جعفر ومحمّد بن علي لينقلوهما إلى مقبرة أحمد بن حنبل، فحال الهدم بينهم وبين معرفة القبر، فجاء الحفر إلى جانبه.

وسمع أبو تمام نقيب العباسيين وغيره من الهاشميين والسنية الخبر، فجاؤوا ومنعوا عن ذلك.

وقصد أهل الكرخ إلى خان الفقهاء الحنفيين فنهبوه وقتلوا مدرس الحنفية أبا سعد السرخسي وأحرقوا الخان ودور الفقهاء.

وتعدّت الفتنة إلى الجانب الشرقي فاقتتل أهل باب الطاق وسوق بج والأساكفة وغيرهم.

ولمّا انتهى خبر إحراق المشهد إلى نور الدولة دبيس بن مزيد عظم عليه واشتدّ وبلغ منه كل مبلغ، لأنّه وأهل بيته وسائر أعماله من النيل وتلك الولاية كلّهم من الشيعة، فقطعت في أعماله خطبة الإمام القائم بأمر الله.

فروسل في ذلك وعوتب، فاعتذر بأن أهل ولايته شيعة، واتفقوا على ذلك، فلم

يمكنه أن يشقّ عليهم.

كما انّ الخليفة لم يمكنه كفّ السفهاء الّذين فعلوا بالمشهد ما فعلوا، وأعاد الخطبة إلى حالها[1].

❊ ❊ ❊

صحيح ما ذكره ابن الأثير، انّ الاتفاق الودّي الّذي حصل في عام ٤٢٢هـ لم يدم طويلاً (لما في الصدور من الإحن).

وكان على (القائم بأمر الله) ـ كما قلنا ـ أن يستثمر ذلك الاتفاق ويعمل على إدامته وتحقيق المصالحة والاستقرار في البلاد والاطمئنان للأمّة.

ولكن الخليفة ـ مع الأسف الشديد ـ لم يكن يهتم بهذه الأمور. إن لم يكن هو نفسه يقصدها ويغذّيها.

ولقد رأينا الخليفة (القائم بأمر الله) في هذه الفتنة، يأمر في البداية باجراء تحقيق من قبل النقيبين (العباسي والعلوي) فكتبا له بتصديق قول الكرخيين بأنّهم ما كتبوا العبارة الّتي نسبت إليهم (فمن رضي فقد شكر ومن أبى فقد كفر) ثمّ أمر بكفّ القتال ولكن الغوغاء لم يقبلوا.

والسؤال الّذي يفرض نفسه هو:

لماذا طلب الخليفة إجراء التحقيق؟

فقد كان عليه أن يتدخّل رأساً لإيقاف الفتنة من أي جانب كانت ومن ثمّ إجراء التحقيق في سببها لتنال الجهة المسبّبة عقابها مثلاً.

أمّا القاضي المحترم، الّذي يفترض فيه انّه أعرف من غيره بأحكام الشريعة وأكثر حذراً في مخالفتها، ولكن الحنابلة معه دعوا العامّة (الغوغاء) على الإغراق في الفتنة.

نعم، على (الإغراق في الفتنة) في القتل والنهب والهدم ونبش الموتى وإحراق المشاهد.

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٨ / ص ٣٠١.

فلماذا انسحب الخليفة نهائياً من أجل إيقاف الفتنة؟

بل ترك الأمور تجري كما هي وكما يريدها الغوغاء.

ولكن نقيب العباسيين أبا تمام يتدخل من جديد عندما يبلغه إحراق القبتين الساج على قبر موسى بن جعفر وحفيده محمّد بن علي، ولم يفلح أيضاً.

ولعلّ تحـرّكه، لم يكن من أجل الإمامين، وانّما لأنّ النبش طال قبـور أهل بيته العباسيين.

أين كان الخليفة القائم بأمر الله؟

وهو الّذى يصفه السيوطي بأنّه كان ورعاً ديناً زاهداً عالماً قوي اليقين بـالله... مؤثّراً للعدل والإحسان[1].

وهل كان من الورع والدِّين والزّهد أن تجري هذه الأمور بحضرته ولا يقدِّم ولا يؤخِّر فيها شيئاً؟

فإذا كان يتمكّن من ردع الغوغاء ولم يفعل، فتلك مصيبة وإذا كان لا يـتمـكّن فالمصيبة أعظم.

نعم، كان الخليفة القائم بأمر الله غاضباً على دبيس بن مزيد صاحب الحلة لأنّه قطع الخطبة للخليفة القائم، عندما بلغه عمل الغوغاء في مشهد الإمامين، فعاتبه على ذلك وأعيدت.

❊ ❊ ❊

فتن وقتال والخلفاء سادرون في اللّهو

ثمّ فلننظر ماذا يقول ابن كثير في البداية والنهاية عن حوادث عام (٣٥٣هـ):

في عاشر المحرّم منها، عملت الروافض عزاء الحسين كما تقدّم في السنة الماضية،

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤١٧.

فاقتتل الرّوافض وأهل السنّة في هذا اليوم قتالاً شديداً[١].

ولماذا هذا الاقتتال؟

فانّه ينبغي أن تكون المذاهب في ظل دولة خلفاء بني العباس حرّة في اعتقادها وعبادتها ما لم تكن تسيء إلى المذاهب الأخرى أو تسيء إلى الدولة في أمنها واستقرارها وسيادتها. وخروج الشيعة للعزاء والنوح على الحسين يوم عاشوراء، لا نظنه يسيء إلى أحد، فلماذا هذا الاقتتال الشديد بين أهل السنّة وبينهم؟

ثمّ أين كان الخليفة؟

لا نشك انّه كان سادراً في شهواته وخصيانه، لا يجد فراغاً للتدخل في شؤون الناس، وإذا تدخل فليس هناك من يسمع قوله.

فياويله من خليفة، ويا ويل المسلمين من خلفاء كهؤلاء...

ويعود ابن كثير ليؤرّخ لمحرم من العام القابل، فيقول:

في عاشر المحرّم (٣٥٤هـ) عملت الشيعة مأتمهم وبدعتهم على ما تقدّم، وغلّقت الأسواق وعلّقت المسوح وخرجت النّساء سافرات ناشرات شعورهنّ ينحن ويلطمن وجوههنّ في الأسواق والأزقة على الحسين، وهذا تكلّف لا حاجة إليه في الاسلام، ولو كان هذا أمراً محموداً لفعله خير القرون وصدر هذه الأمّة وخيرتها وهم أولى به (لو كان خيراً ما سبقونا إليه) وأهل السنّة يقتدون ولا يبتدعون.

ثمّ تسلّطت أهل السنّة على الرّوافض، فكبسوا مسجدهم مسجد براثا الّذي هو عش الرّوافض وقتلوا بعض مَن كان فيه من القوّمه[٢].

* * *

ولكن يا ابن كثير، لم يكن صدر هذه الأمّة يقتلون من يخالفهم بهذه الطريقة، وما

---

١ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١١ / ص ٢٨٦.

٢ ـ المصدر السابق / ج ١١ / ص ٢٨٨.

هو ذنب من يقوم على خدمة المسجد للكنس والفرش والتنظيف؟

ثمّ تأتي أنت وتنتقد طائفة بكاملها لأنّها تبكي وتنوح على إمامها المقتول، وما هو الّذي يضير الطوائف الأخرى؟

ولماذا لم يقتدِ أولئك بالسّلف الصالح الّذين كانوا يقتدون ولا يبتدعون؟

قاتل الله وعاظ السلاطين، أولئك الّذين يؤيّدون السلطان في ظلمه وجوره ويساهمون وإيّاه في النكبات الّتي تحل بالمسلمين.

الخليفة المقتدي بأمر الله يقود حملة طائفية لقتال الشيعة

فلنستمع لما يقوله صاحب شذرات الذهب:

وفيها (٤٨٣هـ) كانت فتنة طائفية هائلة لم يسمع بمثلها بين السنّة والرّافضة، وقتل بينهم عدد كثير، وعجز والي البلد واستظهرت السنّة بكثرة من معهم من أعوان الخليفة.

واستكانت الشيعة وذلّوا ولزموا التقيّة، وأجابوا إلى أن كتبوا على مساجد الكرخ (خير الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر)[1].

وهذه الفتنة أدهى من سابقاتها، فالسابقات إمّا ان يتدخل فيها جناب الخليفة، ولكن لا يسمع قوله، وإمّا ان لا يتدخل لكثرة أشغاله في الغرف المغلقة عندما يسدل عليها الستور.

أمّا هذه؟ فانّ السنّة يستظهرون على الرّافضة (الشيعة) بكثرة من معهم من أعوان الخليفة، وهنا العجب العجاب.

خليفة المسلمين يشترك بأعوانه الكثيرين في ضرب فئة من المسلمين ممّن يعيشون في ظلّ دولته العتيدة.

١ ـ شذرات الذهب لأبي العماد الحنبلي / ج ٣ / ص ٣٦٧.

فهل يحدث مثل هذا في قانون الغاب؟

انّنا كنّا ننتقد الخليفة عندما لم يتدخّل لإيقاف الغوغاء، ولكنّه الآن يكون واحداً منهم.

في حين انّ المؤرّخ السيوطي يصف أمير المؤمنين (المقتدي بأمر الله) بأنّه: كان ديّناً خيّراً قوي النفس عالي الهمة، من نجباء بني العباس، وكانت قواعد الخلافة في أيّامه باهرة وافرة الحرمة، بخلاف من تقدمه، ومن محاسنه انّه أمر ان لا يدخل أحد الحمّام إلّا بمئزر[1].

❊ ❊ ❊

أين منه الدِّين إذن؟

وأين همّته العالية؟

وكيف كان من نجباء بني العباس؟

وهل هذه الفعلة من النجابة بشيء عندما يقتل مقتلة عظيمة من الشيعة؟

إنّ السيوطي يوضِّح اهتمامات الخليفة انّه أمر ان لا يدخل أحد الحمّام إلّا بمئزر لرعاية الحرمة والآداب.

ولكن الخليفة لماذا لم يراعِ حرمة دماء المسلمين في طائفة كاملة؟

فهل هو من الدِّين وعلوّ الهمّة والنجابة في شيء؟

يا بؤس الخلفاء ويا مصيبة المسلمين.

ولو تركنا الدِّين جانباً، فهل كان من العقل والسياسة والتدبير أن يقوم من يدّعي انّه أمير المؤمنين بقتل طائفة كبيرة من طوائف المسلمين؟

❊ ❊ ❊

إنّ هذه السياسة الخرقاء والإرادة الرعناء من قبل أمثال أولئك الجبناء هي الّتي

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٢٣.

جلبت الويل والثبور للمسلمين، وأطمعت فيهم الأعداء والغرباء وعملوا على زرع روح التنافر والتناحر والعداء بين المسلمين الّذين أصبحوا بالتدريج يرزحون تحت وطأة الاستعمار القديم والجديد وباتوا شعوباً من العالم الثالث يستولي عليهم الكافر ويسومهم سوء العذاب والإهانة ويهيمن على مقدراتهم وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

* * *

الخليفة المستنصر يعمق الخلاف بين طوائف الأمّة

ولنستمع لما يقوله السيوطي وهو يؤرخ للخليفة المستنصر إذ يقول:

انّه بنى على دجلة من الجانب الشرقي مدرسة ما بنى على وجه الأرض أحسن منها، ولا أكثر منها وقوفاً[1].

وهي بأربعة مدرسين على المذاهب الأربعة، وعمل فيها مارستاناً ورتّب فيها مطبخاً للفقهاء ومزملة للماء البارد، ورتّب لبيوت الفقهاء الحصر والبسط والزيت والورق والحبر وغير ذلك.

وللفقيه بعد ذلك في الشهر ديناراً، ورتّب لهم حماماً، وهو أمر لم يسبق إلى مثله[2] امّا ابن العبري فيعطينا وصفاً أكثر، فيقول:

... وتقدّم بانشاء مدرسته المعروفة بالمستنصرية الّتي لم يعمّر في الدُّنيا مثلها، فعمّرت على أعظم وصف في صورتها وآلاتها واتساعها وزخرفها وكثرة فقهائها ووقوفها، ووقفها على المذاهب الأربعة ورتّب فيها أربعة من المدرسين في كل مذهب مدرساً وثلاثمائة فقيه، لكل مذهب خمسة وسبعون فقيهاً، ورتب لهم من المشاهرات والخبز والطعام في كل يوم ما يكفي كل فقيه ويفضل عنه، وبنى لهم داخل المدرسة حماماً خاصّاً للفقهاء وطبيباً خاصّاً يتردّد إليهم في بكرة كل يوم يتفقدهم ومخزناً فيه كل ما يحتاج إليه من أنواع ما يُطبخ من الأطعمة ومخزناً آخر فيه أنواع الأشربة

---

١ ـ بمعنى الأوقاف.

٢ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ٢٤٣.

والأدوية[١].

❊ ❊ ❊

صحيح إنّ المدرسة المستنصرية لم يكن بُنيَ على وجه الأرض مثلها حتّى ذلك الحين، ويبدو أنّ الاهتمام فيها كان فائقاً جدّاً، حتّى جعل فيها الخليفة المستنصر مستشفى خاصّاً ورتّب فيها الحصر والبسط وما إلى ذلك، وجعل فيها أربعة مدرِّسين على المذاهب الأربعة.

ولكن لماذا لم يجعل مدرِّساً على مذهب أهل البيت؟

أليس في هذا إثارة طائفية من ذات الخليفة أمير المؤمنين، حيث لم يعترف بالتشيّع كمذهب؟

في حين انّه جعل نقيباً للعلويين إلى جانب نقيب العباسيين.

وهل أنّ أتباع مذهب أهل البيت كانوا أقلّ من الّذين يتّبعون أي واحد من المذاهب الأربعة؟

أسئلة متعدِّدة تُثار أمام أمير المؤمنين المستنصر.

ولا شكّ أنّ الخليفة المستنصر نفسه، إذا كان متديِّناً لا بدّ أن يلتزم واحداً من المذاهب الأربعة.

ولكنّه في مدرسته، لم يقتصر على فقيه مذهبه فقط، وحسناً فعل عندما جعل المدرسين متعدِّدين.

ونعود فنقول: لماذا لم يعترف بمذهب أهل البيت؟

ونريد أن نخلص من هذا إلى انّ الخلفاء أنفسهم كانوا يساهمون في اثارة الفتن الداخلية وهو الّذي وجدناه.

---

١ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ٢٤٣.

الخليفة المستعصم يسرف في قتل الشيعة ويرتكب العظائم

وما فعله الخليفة (المستعصم بالله) أوضح بكثير ممّا فعله المستنصر.

إذ يقول صاحب كتاب العسجد المسبوك عن وقائع عام ٦٥٥هـ:

... وكانت الفتن قد ثارت بين السنّة والشيعة وتجالدوا بالسيوف وقتل جماعة ونهبوا.

وشكا أهل باب البصرة[1] إلى الأمير ركن الدين الدويدار والأمير أبي بكر ابن الخليفة، وتقدّما إلى الجند بنهب الكرخ، فهجموا عليهم وقتلوا منهم جماعة ونهبوا محالّهم وارتكبوا من الشيعة العظائم[2].

فالخلاف وقع بين الطائفتين كالعادة.

ولكن الأمير أبا بكر بن الخليفة المستعصم وأمير الجيوش الدويدار كيف سوّلت لهما نفسهما ان يحرّكا الجند لضرب أهل الكرخ، في حين أنّ هولاكو كان قد ضرب أطنابه حول بغداد آنذاك؟

❊ ❊ ❊

كان ذلك حديثاً عن الفتن الطائفية الّتي أصابت الدولة العباسية بالصميم.

والّذي أوردناه كان نموذجاً مصغراً جدّاً، جئنا به لنضرب مثلاً لما كان يحدث في الدولة العباسية ودَوْرِ الخلفاء في هذه الفتن.

وكتب التاريخ العباسي زاخرة بالفتن من سنخ الّذي تطرّقنا إليه، وهي في الغالب بين السنّة والشيعة أو بين الحنابلة وبقيّة المذاهب السنيّة.

والقارئ الكريم يستطيع أن يتلمّس الأخطار الّتي ترتبت على هذه الفتن وما

---

١ ـ وكانوا يحسبون على أهل السنّة.

٢ ـ العسجد المسبوك / ص ٦٢٥.

صاحبها من قتال وإحراق وهدم للمساجد ونبش للقبور، وما يولّده ذلك من ضغائن وأحقاد لا تنتهي بانتهاء الحادث وانّما تبق مع مرور الأيّام ويتناقلها الأحفاد عن الأجداد، وربّما يضاف إليها عند النقل والحديث عنها اضافات كثيرة لم تكن حدثت أصلاً، سواء كانت من الغالب أو المغلوب.

وفي جميع الأحوال، فان تلك الحوادث وغيرها ممّا ذكرناه في مطاوي هذا الكتاب وممّا سوف نذكره أيضاً من أمر العيارين وغيرهم، انّ كلّ تلك الأمور كانت تسحب الدولة العباسية بقوّة فائقة نحو الانحدار والتردّي. وهو الّذي جعلها أخيراً لقمة سائغة للتتار الّذين التهموها بسهولة وقضوا على كل شيء.

* * *

٥ ـ العيّارون[١]:

والدولة إذا ضعفت انتابتها الأمراض والكوارث من كل طرف ومكان. شأنها في ذلك شأن الانسان إذا لم يكن جهازه العصبي يعمل بصورة طبيعية، فانّه سوف يتعرّض لأزمات حادة تفقده اتزانه.

والخليفة الّذي يفترض انّه ـ خليفة رسول الله ﷺ ـ كما يدعي هو، يجب ان يتذكّر دائماً ان وظيفته خدمة الاسلام وإقامة الحدود ونشر العدل وقمع الباطل وحمل الناس على جادة الصواب ورصّ الصفوف وتوحيد الكلمة...

وان يكون في أوصافه الخاصّة في أعلا درجات العلم والتقوى والزُّهد والورع والصلاح.

أمّا الذين وجدناهم، فلم يكن فيهم مَن هذه صفاته أو تلك اهتماماته، فكلّهم اتّجه اتجاهات أخرى، لم يكن الدِّين منها.

---

١ ـ العيّار لغة: الكثير التجوّل. والّذي يتردّد بلا عمل، ويخلّي نفسه وهواها، ولكنّها أصبحت تطلق أيّام العباسيين على اللصوص الّذين ينهبون الناس جهاراً.

وإذا ما ذكر الدِّين بشيء فإنّما هو للدنيا والمنصب لئلّا يفقد مبرِّرات التسمية (خليفة رسول الله وأمير المؤمنين).

نعم، ضعف الخليفة أو فلنقل انّه أضعفَ نفسَه بإرادته، فركبه الوزير والقائد ثمّ العيارون لّذين يحاولون دائماً ان يجدوا لهم منفذاً لينفذوا فيه إلى مآربهم.

وعادة ما يكون العيارون واللصوص أذكياء، فانّهم في البداية يقومون بعمل طفيف يستطلعون فيه ردّ الفعل.

وهم في الدولة العباسية كانوا يصعّدون من وتائر تحركاتهم، فيجدون السبيل أمامهم سالكاً والأبواب مفتّحة، وانّ الخليفة مغلوب على أمره وان السلطان غائب والوزير نائم وقائد الشرطة يتحاشى الاصطدام، والكل مشغولون بأنواع متفرقة من النهب، والسلب والمصادرات...

❋ ❋ ❋

والأمّة المسكينة في هرج ومرج من أمرها، تعيش الاضطراب والفتن والقتال وأطماع الأمراء وخيانة الخلفاء...

وكتب التاريخ مليئة بأعمال العيّارين، ولو أردنا أن نستقصيها لخرجنا من موضوعنا الأساس، ولكنّنا سوف نقتطف منهم بعض أعمالهم كنماذج يطلع عليها القارئ الكريم، ليكوّن له صورة عن دولة بني العباس وكأنّه يعيش معتركاتها ومفارقاتها، وسوف يكتشف القارئ كيف كانت الدولة العباسية تسير نحو الهاوية، وان سقوطها عام ٦٥٦هـ لم يكن مفاجئة تأريخية، وانّما هناك أسباب متعدِّدة ساهمت في هذا السقوط والانهيار، كان منها الخلفاء أنفسهم، وكان منها دخول الأجانب والفتن.

وقد أشبعنا الحديث عن كل ذلك فيا مضى من هذا الكتاب، وإن كنّا نرى أنّ الخلفاء يتحمّلون القسط الأكبر في كل تلك الانهيارات.

الخليفة المستعين يعترف رسمياً بالعيارين ويجعل لهم عريفاً

وحيث انّ اللصوص والعيارين كانت لهم سوق رائجة في تلك الأيّام وكانت لهم سطوة، ربّما يقتلون الخلفاء والأمراء، فانّ الخلفاء بدورهم كانوا يدارونهم ويتقربون إليهم تخلصاً من شرّهم أو للاستفادة من قوتهم.

فانّ الخليفة أمير المؤمنين (المستعين بالله) فرض فرضاً للعيارين وجعل عليهم عريفاً اسمه (ينبويه) وعمل لهم تراساً من البواري المقيّرة واعطاهم المخالي ليجعلوا فيها الحجارة للرمي[1].

يقول ابن الجوزي:

أوقع العيارون حريقاً بالخشابين من باب الشعير، فاحترق أكثر هذه السوق وما يليها من سوق الجزارين وأصحاب الحصر وصفّ البواري.

فهلك شيء كثير من هذه الأسواق من الأموال، وزاد أمر العيارين في هذه السنة حتّى ركبوا الدواب وتلقّبوا بالقواد وغلبوا على الأمور واخذوا الخفائر عن الأسواق والدروب.

وكان في جملة العيارين قائد يعرف بـ (أسود الزبد) لأنّه كان يأوي إلى قنطرة الزّبد، ويستطعم مَن حضر وهو عريان لا يتوارى.

فلمّا كثر الفساد رأى هذا الأسود من هو أضعف منه قد أخذ السيف فطلب سيفاً، ونهب وأغار، واجتمع إليه جماعة، فأخذ الأموال...[2]

❊ ❊ ❊

كان ذلك أيّام الخليفة (الطائع لله) وكان أمر العيارين جهاراً نهاراً، وتلقّبوا بالقواد

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٦ / ص ١٦٧.

٢ ـ المنتظم في تواريخ الملوك والأمم لابن الجوزي / ج ٨ / ص ٣٩٣.

وكانوا يضعون الحراس والرقباء على الأسواق والدروب، ولهم قائد معين هو (أسود الزّبد) وكان هذا الأسود في البداية مغموراً.

ولكن الّذي دفعه (للعيارية) أمران:

١ ـ كثرة الفساد.

وإذا استشرى الفساد تشجّع أصحاب النهب والسلب.

٢ ـ رأى من هو أضعف منه قد أخذ السيف.

وعند ذلك طلب سيفاً، ثمّ نهب وأغار، ثمّ أصبح قائداً عاماً للعيارين.

فالحصول على الأموال في عاصمة الخلافة العباسية (بغداد) كان ميسوراً للخليفة والسلطان والوزراء والقواد العسكريين وقواد العيارين.

وكان العيارون عام ٣٦٤هـ من القوّة بحيث سيطروا على الأسواق والطرق، والأمر الملفت للنظر انّ سيطرة العيارين على البلد بهذه الصورة لم يكن يحرك الخليفة أو الشرطة أو أي جهة أخرى، وهو يعطينا أنطباعاً واضحاً عن سوء الإدارة في ذلك الوقت، وهو يعطينا وضوحاً أيضاً انّ السيطرة على الدولة كانت من السهولة بمكان.

فإذا استطاع رئيس اللّصوص أن يحتل الأسواق والطرق، فانّ احتلال الدولة يكون ميسوراً جدّاً للبويهيين والسلاجقة، وهو أسهل للتتار ما دام الخلفاء مشغولين بأمور أخرى تخصهم فقط.

❊ ❊ ❊

العيّارون يحتلّون بغداد، والشّرطة تهرب

ثمّ قوي أمر العيارين، فأصبحوا لا يخشون من السلطان، إذ يقول ابن كثير:

... فيها أي في عام (٤١٦هـ) قوي أمر العيّارين ببغداد ونهبوا الدور جهرة واستهانوا بأمر السلطان.

وفي ربيع الأوّل منها توفي شرف الدولة بن بويه الديلمي صاحب بغداد والعراق وغير ذلك، فكثرت الشرور ببغداد ونهبت الخزائن...

ثمّ تفاقم الأمر ببغداد من جهة العيارين وكبسوا الدور ليلاً ونهاراً وضربوا أهلها كما يضرب المصادرون، ويستغيث أحدهم فلا يغاث...

واشتدّ الحال وهربت الشرطة من بغداد، ولم تغن الأتراك شيئاً، وعملت السرايج على أفواه السكك فلم يفد ذلك شيئاً، واحرقت دار الشريف المرتضى، فانتقل منها، وغلت الأسعار جدّاً ولم يحج أحد من أهل العراق وخراسان[١].

أمّا صاحب الشذرات فيذكر عن نفس السنه:

وأخذ العيارون الناس جُهاراً وكانوا يمشون باللّيل بالشمع والمشاعل ويكبسون البيت ويأخذون صاحبه ويعذبونه إلى أن يقرّ لهم بذخائره[٢].

أمّا الفترة الّتي استولى فيها العيارون على بغداد، فيقول عنها ابن الجوزي:

وكان هذا الاختلاط من شهر رجب سنة خمس عشرة إلى آخر سنة ست عشرة[٣].

* * *

أمور مترتبة الواحدة بعد الأُخرى، هكذا...

يضعف الخليفة وجهاز الدولة ويقوى أمر العيارين فينهبون الدور ويستهينون بالسلطان ويضربون الناس ويعذبونهم ولا يخشون أحداً.

وأعمالهم تلك في النهار جهاراً، وفي اللّيل تحت أضواء الشموع والمشاعل، وتهرب الشرطة، ويستغيث الناس فلا يُغاثوا. لأنّ الحكومة مفقودة ولأنّها سادرة من خليفتها إلى سلطانها وأمرائها، كل منهم له شغل يغنيه عن الآخرين، وأشغالهم تلك لا تتعدّى البطن والفرج.

---

١ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١٢ / ص ٢٣.

٢ ـ شذرات الذهب لابن عماد الحنبلي / ج ٣ / ص ٢٠٤.

٣ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي / ج ٩ / ص ٢٠٠.

وأخيراً فانّ الحـوادث تلك تمنع الناس من الحج، لا من العراق فحسب حـيث العيارون، بل من خراسان أيضاً لأنّ طريقهم سوف يكون على عيارى العراق.

❊ ❊ ❊

ماذا تقول أيُّها القارئ الكريم لو سمعت بهذا؟ قبل أن يُقال لك انّه كان يحدث في دولة الخلفاء الجبناء؟

أكنت تصدِّق؟

نعم، انّه كان يحصل تحت ظل الخليفة العباسي (القادر بالله).

ثمّ السؤال هو:

كم كان عدد أولئك العيارين الّذين تهرب منهم الشرطة؟

لا شك أصبحوا من القوّة بحيث كانوا يهددون به الدولة.

وأين كان الخليفة في كل ذلك؟

هل كان حياً فيرى؟ ثمّ يسكت فيرضى؟

أم هو من الّذين لا يحلّون ولا يربطون ولا يقدرون على حفظ مدينة بغداد؟

وهي الّتي بقيت بيد الخليفة المحترم الّذي اكتفى بدق الطبول في بابه خمس مرّات باليوم، فتنتفخ أوداجه ويملأ عطفيه كبرياء وعظمة وينتظر سلطاناً يموت ليأتي مـن بعده سلطان جديد، فتقام له حفلة تنصيب يجلس في مقدّمتها أمير المؤمنين ثمّ تقبّل الأرض بين يديه ويمنح السـلطان شرق الأرض وغربها ويمنحه السـلطان (نثرية) التنصيب خمسين ألف دينار، ليزيد خزينته الخاصّة ويشتري بها الجواري والخصيان.

فليلة واحدة مع الخصيان تساوي شعباً كاملاً.

❊ ❊ ❊

توسّعت حملات العيّارين، فدخل معهم الأتراك والعامّة

ولنستمع لما يقوله ابن الأثير:

في هذه السنة (٤١٧هـ) كثر تسلّط الأتراك ببغداد، فأكثروا مـصادرات النـاس

وأخذوا الأموال، حتّى انّهم قسّطوا على الكرخ خاصّة مائة ألف دينار.

وعظم الخطب وزاد الشر وأحرقت المنازل والدروب والأسواق، ودخل في الطّمع العامّةُ والعيارون، فكانوا يدخلون على الرجل فيطالبونه بذخائره كما يفعل السلطان بمن يصادره.

فعمل الناس الأبواب على الدروب، فلم تُغنِ شيئاً، ووقعت الحرب بين الجند والعامّة، فظفر الجند ونهبوا الكرخ وغيره، فأخذ منه مال جليل وهلك أهل الستر والخير[1].

* * *

وما دام الخليفة لاهياً والسلطة غائبة، فانّ الغوغاء لا بدّ أن يتحرّكوا، فتلك هي فرصتهم الّتي يتمكّنون فيها من نهب أموال الناس والتعرّض لأمنهم واستقرارهم حيث لا يجدون من يعترضهم ويقف أمام أطماعهم.

والغوغاء إذا انطلقوا لهدف، فانّهم سرعان ما ينطلقون لهدف آخر لمجرّد أن ينادي أحدهم ويدعو جماعته إليه.

هذه هي الفوضى الّتي تنطلق من الغوغاء، ولو كان عملهم منظماً، لمّا سمّوهم غوغاء.

انّهم تماماً كما يقول عنهم الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «همج رعاع يتبعون كلّ ناعق ويميلون مع كل ريح» وحينئذٍ يفلت الزمام ويكون من الصعوبة البالغة ايقاف حملاتهم أو الحدّ منها.

وفي الفوضى أعلاه عام (٤١٧هـ) توسّع نطاق النهب، حيث تسلّط الأتراك في البداية، ثمّ ساهم معهم الطامعون من العامّة والعيارين، وفرضوا على الكرخ مائة ألف دينار.

تماماً كما يفعل السلاطين حين يفرضون الأتاوات على الناس، وهم هنا انّما فرضوا

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٨ / ص ١٥٦.

على أهل الكرخ، لأنّهم كانوا أصحاب أموال وتجارة ولأنّ أهل الكرخ من الشيعة وهم مستضعفون من الخليفة وأعوانه.

وضجّ الناس منهم وحاولوا أن يغلقوا الأزقّة والطّرقات، ولكن ذلك لم يجدِ شيئاً، وأخيراً وقعت الحرب بين أولئك الغوغاء وبين الجند.

وظفر الجند، ولكنهم نهبوا الكرخ وأخذوا ما أبقاه لهم الغوغاء، وهكذا... وتبدو البلاد كالسفينة الّتي تتقاذفها الأمواج، وليس لها من يوجّه سيرها.

وكان الناس آيامذاك لا يستغربون الحالة تلك، لأنّهم اعتادوها، وكان لزاماً على كل أحد أن يحافظ هو على عياله وممتلكاته ويضع السدود ويغلق الأبواب، ولكن العيارين كانوا أقوى من الناس، بل كانوا أقوى من الخليفة والسلطان.



البرجمي العيّار

يسيطر على بغداد خمسة أعوام ويخطب له على منابرها

ثمّ تهاوت منزلة الخليفة العباسي إلى منسوب دون الحضيض بمراتب، حيث سيطر العيارون على الدولة سيطرة تامّة، على الخليفة وعلى السلطان معاً، يقول الدكتور فاروق:

وتشير روايات تأريخيّة إلى ان (البرجمي العيار) سيطر على بغداد خمس سنوات بكاملها (٤٢١ ـ ٤٢٥هـ) يحافظ على الاستقرار ويجبي الضرائب من التجّار وأصحاب الحرف.

وكانت الخطبة في بعض جوامع بغداد باسمه وليس باسم الخليفة العباسي أو الملك البويهي، إلّا ان سيطرة العيارين هذه كانت في فترة ضعف البويهيين وانتقال مقرهم إلى شيراز[1].

---

١ ـ تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية اسلامية للدكتور فاروق عمر فوزي / ص ٣١٤.

أمير المؤمنين، وخليفة الله في الأرض، يشعر بالجبروت والكبرياء عندما يخدعه السلطان فيقبّل الأرض بين يديه سبع مرّات، ثمّ يقبّل رجليه، فيأمره الخليفة بالجلوس فلا يجلس تأدّباً، حتّى يُقسم عليه إلّا ما جلس.

ثمّ يصدر الخليفة مرسوماً للسلطان بتقليده أمور الأرض في شرقها وغربها عدا خاصّة نفسه. هذا الخليفة الأضحوكة، يتسلّط عليه العيار، فيخطب له على المنابر دون الخليفة خمسة أعوام.

فأيّة مهانة من الممكن ان يتصورها انسان يتعرض لها خليفة الزمان؟

❊ ❊ ❊

ويضيف ابن العماد الحنبلي بعض المعلومات الأخرى عن (البرجمي) فيقول:

فيها، أي في عام (٤٢٤هـ) اشتدّ الخطب ببغداد بأمر الحرامية وأخذوا أموال الناس وقتلوا صاحب الشرطة، وأخذوا لتاجر ما قيمته عشرة آلاف دينار، وبقي الناس لا يجسرون ان يقولوا فعل (البرجمي) خوفاً منه، بل يقولوا عنه القائد أبو علي[١].

أمّا ابن الجوزي فيقول:

وفي يوم الإثنين لست بقين من صفر (٤٢٤هـ) كبس البرجمي العيار درب أبي الربيع ووصل إلى مخازن فيها مال عظيم... فظهر من خوف الخلق منه ما أوجب نقل الأموال إلى دار الخليفة وواصل الناس المبيت في الدروب والأسواق للتحفظ، وزيد في حرس دار الخلافة، وطيف وراء السور، وقتل صاحب الشرطة بباب الأزج غيلة، واتصلت العملات[٢].

... وزادت المخافة من هذا العيار حتّى صار أهل الرصافة وباب الطاق ودار الروم لا يتجاسرون على ذكره إلّا ان يقولوا (القائد أبو علي) لئلّا يصل إليه منهم غير ذلك.

---

١ ـ شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي / ج ٣ / ص ٤٦٢.

٢ ـ العملات جمع عملة وهي المباغتة.

... وكان يسكن في أجمة ذات قصب وماء كثير تمتد خمسة فراسخ وفي وسطها تل قد جعله معقلاً ومنزلاً... وفي جمادى الأولى كثرت الحملات والكبسات ووقع القتال في القلائين وعلى القنطرتين، وعاد الاختلاط وطرحت النار فاحترق شيء عظيم وأسواق ومساجد وغيرها، ووقع النهب في درب عون، وأخذت أبوابه ودرب القراطيس إلى نهر الدجاج[1].

ويزيد ابن كثير: ولم يحجّ أحد من أهل العراق وخراسان لفساد البلاد[2].

* * *

فلقد تفاقمت الأمور كثيراً وتشجّع العيارون حيث لم يجدوا صدوداً واعتراضاً، وقتلوا صاحب الشرطة، واتخذوا لهم زعيماً يسمى (البرجمي) وأصبحت له الطاعة والاحترام على الناس الّذين غدوا لايجسرون ان يقولوا فعل البرجمي، خوفاً منه، بل يقولون القائد (أبو علي).

وفقد الأمان في بغداد، وحَرَس الناس دورهم و دار الخليفه... الخ.

لقد شاهت وجوه الخلفاء أولئك، حيث لا يستطيعون ان يحفظوا دورهم، فالقائد أبو علي أصبحت له الكلمة المسموعة والرأي النافذ حتّى قيل انّ البرجمي سيطر على بغداد خمس سنوات بكاملها، وكانت الخطبة في بعض جوامع بغداد باسمه، وليس باسم الخليفة العباسي أو الملك[3].

* * *

فإلى أين وصلت الحالة المزرية في بغداد؟

فقد غاب الخليفة تماماً، والخطبة الّتي كان يحرص عليها الخليفة أصبحت الآن

---

١ ـ المنتظم في تواريخ الملوك والأمم لابن الجوزي / ج ٩ / ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨.

٢ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١٢ / ص ٤٤.

٣ ـ تاريخ العراق في عصر الخلافة العربية الاسلامية للدكتور، فاروق عمر / ص ٣١٤.

لشيخ العيارين (البرجمي) والخطبة عادة لا تتجاوز هذه الألفاظ (اللّهمّ احفظ أمير المؤمنين خليفة رسول الله، أو السلطان ملك الملوك، وأخيراً اللّهمّ احفظ القائد الهمام والبطل الضرغام زعيم الخاص والعام أبا علي العظيم العبقري البرجمي).

ماذا فعلتم بالأمّة الاسلامية أيُّها الخلفاء؟

وإلى أين أوصلتموها؟

وألقيتم حبلها على غاربها وانشغلتم بالخمور والطيور والنِّساء والخصيان، وأوصلتم الأمة إلى ان تدعو للصوص والعيارين في خطب المساجد.

فيا ضيعة الاسلام ممّا فعله العباسيون الّذين فقدوا دينهم وأخلاقهم، ويا ويلهم من عذابَ الله، وهو عذاب تطول مدّته ويدوم مقامه (جزاء وفاقاً، انّهم كانوا لا يرجون حساباً وكذبوا بآياتنا كذابا).

لقد كان ينبغي لأولئك الّذين يدّعون انّهم خلفاء رسول الله ﷺ أن يكونوا أمناء على الأمانة الّتي تحمّلوها، ولكنّهم انصرفوا لشهوات البطن والفرج وتركوا البلاد والعباد يعيث فيها المفسدون، وينتهز خيراتها الطامعون.

إنّ بغداد الّتي تملّك ناصيتها البرجمي العيار والّذي يكنّى بالقائد أبي علي خوفاً منه واحتراماً له، هل تراها تمتنع على التتار الّذين ملكوا الأرض؟

إنّ المقولة الّتي ادّعيناها في أنّ خلفاء بني العباس والتتار اسقطوا بغداد، استطعنا أن نتلمّس صحّتها تماماً.

فالخلفاء وقد سرنا معهم ابتداء من الدعوة إلى الدولة، ثمّ واحداً بعد آخر وجدناهم يتسارعون إلى هذه النتيجة المحتومة الّتي أوصلوا فيها الدولة إلى الانهيار، وقدّموها على طبق من ذهب إلى الغزاة.

وسوف نجد انّ الخليفة المستعصم وهو محاصر من قبل التتار، كان يلهو مع جاريته حتّى أصابتها السهام وهي ترقص، فما ارعوى وما غيّر شيئاً من عقله إلاّ انّه أرخى الستور، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

أصبح للعيّارين أعيان وأشراف

وكلّما مرّت الأيّام، اشتدّ أمر العيارين وزاد عددهم وكثر خطرهم، وإذا كان لهم في بعض الأيّام قائد يسمّى (البرجمي) فلقد أصبح فيهم عام (٤٩٣هـ) أعيان وأشراف، إذ يقول ابن الأثير:

في هذه السنة (٤٩٣هـ) زاد أمر العيارين بالجانب الغربي من بغداد في شعبان، وعظم ضررهم.

فأمر الخليفةُ كمالَ (يمن) بتهذيب البلد، فأخذ جماعةً من أعيانهم وطلب الباقي فهربوا[1].

فالعيارون واللّصوص أيضاً لهم أعيان ورؤساء وشرفاء، وما يمنع من ذلك؟ إذا كانت البلاد خالية فليتبوّأها اللّصوص.

ونحن لا نستبعد انّ العيارين وجدوا الخليفة والوزير والأمير كلّهم يسرقون الناس، فارتأوا ان يحذوا حذوهم.

وإذا كان الخليفة يسرق الناس بقانون المصادرات، فليصادرهم العيّارون بقانون الغوغائية، إذ الأمور كلّها غوغائية وإن تلبّست بالقانون، والنتيجة كلّها نهب وسرقات وتلصّص وهيمنة واستحواذ.

❊ ❊ ❊

العيّاران ابن بكران وابن البزاز أرادا أن يضربا السكّة باسميهما

ثمّ تفاقمت الأمور وكادت الأوضاع السائدة في بغداد ان ترشّح العيارين لتشكيل الدولة.

أمّا الخليفة!

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٩ / ص ٢٩.

فلا يهمّ أمره، سواء رضي أم لم يرض، وسواء بارك أو لم يبارك للعيارين، فانّهم ماضون في خطّتهم وكادوا أن يقوموا بانقلاب أبيض ويتسلّموا الحكم ويشكّلوا الوزارة ويعيّنوا أمراء الجيش وما إلى ذلك.

فلنستمع إلى ما يقوله ابن الأثير:

في هذه السنة (٥٣٢ هـ) في ذي الحجّة، عظم أمر ابن بكران العيار ببغداد والعراق، وكثرت أتباعه، وصار يركب ظاهراً في جمع من المفسدين، وخافه الشريف أبو الكرم الوالي ببغداد، فأمر أبا القاسم ابن أخيه حامي باب الأزج أن يشتدّ إليه ويلبس سراويل فتوة منه ليأمن من شرّه.

وكان ابن بكران يكثر المقام بالسواد ومعه رفيق له يعرف بابن البزاز، فانتهى أمرهما إلى انّهما أرادا ان يضربا باسميهما سكّة في الأنبار.

فأرسل الشحنة والوزير شرف الدين الزينبي إلى الوالي أبي الكرم، وقالا: إمّا ان تقتل ابن بكران وامّا ان نقتلك.

فأحضر ابن أخيه وعرّفه ما جرى، وقال له:

امّا ان تختارني ونفسك وامّا ان تختار ابن بكران.

فقال: أنا أقتله.

وكان لابن بكران عادة يجيء في بعض اللّيالي إلى ابن أخي أبي الكرم فيقيم في داره ويشرب عنده، فلمّا جاء على عادته وشرب، أخذ أبو القاسم سلاحه ووثب به فقتله وأراح الناس من شرّه، وصلب وقتل معه جماعة من الحرامية. فسكن الناس واطمأنوا وهدأت الفتنة[1].

هكذا كانت الأمور، وهكذا كان الوضع السائد أيّام الخليفة (المقتفي) الّذي يقول عنه واعظ السلاطين السيوطي:

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٩ / ص ٣٠٦.

كان من سروات الخلفاء، عالماً أديباً، شجاعاً حليماً، دمث الأخلاق، كامل السؤدد خليقاً للإمارة، قليل المثل في الأئمّة، لا يجري في دولته أمر ـ وان صغر ـ إلّا بتوقيعه[١] فكيف كان (المقتفي بأمر الله) من سروات الخلفاء؟ وابن بكران يركب ظاهراً في جميع من المفسدين؟

وكيف يكون شجاعاً في حين ان والي بغداد المعين من قبل الخليفة كان يخاف من ابن بكران؟

ثمّ كيف كان (المقتفي بأمر الله) كامل السؤدد خليقاً للإمارة؟ والعيارون والحرامية هم الّذين يحكمون بغداد، بل العراق كلّه، حتّى بلغ بشيخ العيارين ابن بكران ان يقدم على ضرب السكة ويدعى له بعد ذلك على المنابر ليحفظه الله ويبقيه رئيساً للعيارين وشيخاً للحرامية.

فأيّة مهانة هذه؟

ولماذا طلب والي بغداد (الشريف أبو الكرم) من ابن أخيه حامي باب الأزج ان يلبس ملابس العيارين؟

ذلك لأنّ العيارين اتخذوا لهم ملابس خاصّة هي ملابس الفتوة، والّذي يتقرب للعيارين فانّ الأفضل له ان يلبس ملابسهم الخاصّة ليطمئنوا إليه.

وسراويل الفتوة كانت تمثل النبل والشهامة والرجولة. وصار ابن بكران يركب ظاهراً في جمع من المفسدين بسراويل الفتوة مزهواً بفتوته وشهامته.

وعادة اللصوص انّهم يختفون من الناس، ولكن الأمور انقلبت في أيّام خلفاء بني العباس، فأصبح العيار والحرامي يتظاهر بذلك، ويزهو ويفتخر أمام الناس ليخافوه ويؤدّوا إليه ما يناسب من الاحترام والتجلّة والتقدير.

فإلى أي درجة هبطت الدولة العتيدة لبني العباس الّذين درجوا على الفساد والإفساد والتلهي بالنسوان والخصيان وشرب الخمور وما إلى ذلك، حتّى طمع فيهم

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٤٠.

العيارون، بل أصبحوا ينافسونهم في ضرب السكة.

فتعساً للخلفاء أولئك الّذين تسلطوا على رقاب الأمّة وصوروا للناس انّهم يحكمونهم بتفويض من الله ما داموا يمسكون بالبردة والقضيب.

❊ ❊ ❊

العيّارون كانوا يحتمون بأمراء الدولة العباسية

وأخذت أمور العيّارين تتطور يوماً بعد يوم، فكلّما كان الخليفة ضعيفاً والسّلطة غائبة كان نشاط العيارين بارزاً متنامياً.

وكما يفعله اللصوص في أيّامنا هذه عندما يشاركون كبار الدولة، فان عياري ولصوص ذلك الزمان كانوا يفعلون نفس الشيء.

فلنستمع إلى ابن الجوزي:

... فظهر (عام ٥٣٦هـ) من العيارين ما حيّر الناس، وذاك ان كل قوم منهم احتموا بأمير، فأخذوا الأموال وظهروا مكشوفين، وكانوا يكبسون الدور بالشموع، ويدخلون الحمامات وقت السحر فيأخذون الأثواب.

وكان ابن الدجاجي جالساً ليلة بالحربية فكبسوها وأخذوا عمامته، ودخلوا إلى خان بسوق الثلاثاء بالنهار، وقالوا: إن لم تعطونا أحرقنا الخان، ولبس الناس السلاح لما زاد النهب... وزادت الكبسات حتّى صار الناس لا يظهرون من المغرب[1].

ولمنفعة العيار ان يشارك حاكماً أو أميراً أو أي سند قوي في الدولة، ليشعر بالقوّة والاعتداد. ومتى ما يُقبض عليه، فانّ صاحبه سرعان ما يطلق سراحه لأنّه شريكه، وليبقى له كسبه مادام العيار طليقاً.

---

١ ـ المنتظم في تواريخ الملوك والأمم لابن الجوزي / ج ١٠ / ص ٣٣١.

وأصبح حكّام بني العباس شركاء للعيارين

ثمّ تفاقت الأمور، فأصبح السلاطين والوزراء شركاء العيارين فيما ينهبونه من الناس، فلقد فقدت السلطة قدرتها على البلاد، ولم يبق إلّا أولئك العيّارون الّذين أصبحوا هم الحكّام الّذين يفرضون الأتاوات والضرائب، وينهبون الناس بوضح النهار، وعلى ذمّة القانون الخليفي والسلطاني.

يقول ابن الأثير:

وفي هذه السنة (٥٣٨هـ) زاد أمر العيارين بسبب ابن الوزير وابن قاورت أخي زوجة السلطان لأنّهما كان لهما نصيب من الّذي يأخذه العيّارون.

وكان النائب في شحنة بغداد مملوكاً اسمه (يلدكز) وكان صارماً مقداماً ظالماً، فحمله الاقدام إلى أن حضر عند السلطان.

فقال له السلطان: انّ السياسة قاصرة، والناس قد هلكوا.

قال: يا سلطان العالم! إذا كان عقيد العيّارين ولد وزيرك وأخا امرأتك فأي قدرة لي على المفسدين، وشرح له الحال.

فقال له: الساعة تخرج وتكبس عليهما أين كانا.

فلم يجده، فأخذ من كان عنده، وكبس على ابن قاورت، فأخذه وصلبه، فأصبح الناس، وهرب ابن الوزير وشاع الأمر ورئي ابن قاورت مصلوباً.

فهرب أكثر العيارين وقبض على من أقام وكفى الناس شرّهم[1].

فأمراء الحكومة إذن شركاء للعيّارين واللّصوص وهم جميعهم لصوص ـ كما قلنا ـ ولكل واحد منهم أسلوبه الخاص.

فابن الوزير وأخو زوجة السلطان يصعب عليهما أن يسرقا أموال الناس علانية

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٩ / ص ٣٢٩.

وجهاراً، ولكنّهما احتالا، فاشتركا مع العيارين شركة مضاربة تجارية محدوده:

العيّارون يقومون بالتنفيذ.

وهذان يحميان اللّصوص من متابعة القانون لهما ـ إذا كان هناك قانون ـ وكان الله مع الساترين.

وقضيّة أخرى للعيّارين يذكرها ابن الجوزي:

... وقدم السلطان مسعود في ربيع الآخر (٥٣٨ هـ) فنزل أصحابه في دور الناس، وتضاعف فساد العيارين بدخوله، وكثرت الكبسات والاستقفاء نهاراً، ونقل الناس رحالهم إلى دار الخلافة وباب المراتب.

وكان اللّصوص يمشون بثياب التجّار في النهار فلا يعرفهم الانسان حتّى يأخذوه فأخذت خرق الصيارف وضاقت المعايش، واعيد إلى الولاية أبو الكرم الهاشمي في جمادى الأولى، فطاف البلد وأخذ ثلاثة فلم ينفع.

وكان للعيّارين عيون على الناس من النِّساء والرّجال يطوفون الخانات والرحبة والصيارف والجوهريين، فاذا عاينوا من قد باع شيئاً تبعوه وأخذوا ما معه، وكانوا يجتمعون في دور الّذين يحمونهم في دار وزير السلطان[١].

* * *

الخليفة الناصر لدين الله يصبح عياراً

ويتطوّر أمر العيّارين تطوّراً سريعاً، والناس سريعو الانجرار للنّهب والسّطو إذا أمنوا القانون. أمّا إذا علموا انّ صاحب القانون معهم، فسوف يتحرّكون، كالسيل الجارف الّذي لا يُبقي ولا يُذر.

ولعلّ بعضهم كان يعتقد بمشروعية ذلك إذا كان تحت نظر السلطات المسؤولة. امّا الطامّة الكبرى والفتق الواسع الّذي لا يرقّع، فهو عندما انتسب الخليفة أمير المؤمنين

---

١ ـ المنتظم في تواريخ الملوك والأمم لابن الجوزي / ج ١٠ / ص ٣٤٣.

الإمام[١] الناصر للعيارين.

ويبدو انّ العيّارين في زمانه أصبحوا يمثّلون قوّة كبيرة جدّاً وانّ عملهم أصبح عملاً مقبولاً ليس فيه منقصة على الانسان، بل ربّما يعتبر عملاً من الفتوّة والرّجولة. ولذلك انتسب إليهم الإمام الناصر ليحسب عليهم وعلى فرقتهم الرياضية.

والعيّارون أولئك كانوا قد اتخذوا لهم ملابس خاصّة، فلبسها الإمام، ولكنّه اتّخذها ذات طراز خاص ألزم العيّارين ان يلبسوها.

يقول ابن خلدون:

... وكان مع ذلك كثيراً ما يشتغل برمي البندق واللعب بالحمام المناسيب ويلبس سراويل الفتوّة شأن العيارين من أهل بغداد، وكان له فيها سند إلى زعمائها يقتصّه على من يلبسه إيّاها، وكان ذلك كلّه دليلاً على هرم الدولة وذهاب الملك عن أهلها بذهاب مُلّاكها منهم[٢].

أمّا صاحب كتاب العسجد المسبوك فيقول:

كثر شغب العيارين ببغداد وعظم فسادهم حتّى صاروا يخطفون عمائم الناس وثيابهم من الحمامات وغيرها خطفاً وقهراً وقتلوا جماعة من باب النوبي وغيرهم[٣].

ثمّ يقول:

وفيه (عام ٦٤٩هـ) هلك شرف الدين علي بن أبي الفتح بن أبي الفرج بن رئيس الرؤساء وكان السبب في ذلك انّه رأى يهودياً صيرفياً معه كيس ذهب، فرصده إلى أن دخل داره، فهجم عليه وقتله في داره فتكاً وأخذ الكيس.

---

١ ـ الناصر لدين الله كان يطلق عليه كلمة الإمام، على أساس انّه ورع تقي، وكل من أضمر له سوء رماه الله بالخذلان، وانّه كان مخدوماً من الجن، وذلّت له العتاة والطغاة واندحض أعداؤه وكثر أنصاره كما في السيوطي / ص ٤٥٠.

٢ ـ تاريخ ابن خلدون / ج ٣ / ص ٥٣٥.

٣ ـ العسجد المسبوك / ص ٦١٢.

فصاحت عليه زوجته فقتلها، وخرج هارباً، فقُبِضَ عليه وحُمِلَ إلى باب النوبي وأنهي حاله، فقُتِلَ توسيطاً.

ولم أعلم أنّ أحداً من أولاد الوزراء قتل هذه القتله[١].

ثمّ يذكر طريقة فريدة لأحد العيارين اللصوص فيقول:

وفي هذه الأيّام كثر العيارون وتنوع فسادهم حتّى ان واحداً منهم قصد شخصاً من ذوي الهيئات في صورة ناصح له، وقال له: إن في دارك امرأة تفتح الباب نصف اللّيل وتدخل رجلاً.

فعظم ذلك على الرجل وأنكره.

فقال: قف في دهليز دارك، فاذا دق عليك الباب خفية، فافتح الباب، وستجد مصداق ذلك.

فأظهر الرجل ان معه ضيفاً واستدعى بغلام أمسى معه وكأنّهما يرصدان الضيف فلمّا كان نصف اللّيل طرق الباب، فقام الرجل وفتح الباب، فهجم عليه العيّارون وكتّفوه وكتفوا غلامه وأخذوا جميع ما كان عنده وكذا فعلوا مع غيره[٢].

* * *

نكتفي بهذا المقدار الضئيل من قصص العيّارين الّذين كان لهم شأن في الدولة العباسية، ونعتقد انّ القارئ الكريم استطاع ان يكوّن له صورة عن الوضع الداخلي فيها وهو بلاشك دليل على ضعف الدولة بجميع أجهزتها، ابتداء من الخليفة وانتهاء بأجهزة الشرطة.

ولقد رأينا ان هناك اشارات وتصريحات إلى اشتراك السلطة مع العيارين في إشاعة الفوضى والخوف، وما أدّى ذلك إلى مصادرة الأموال وإزهاق النفوس.

---

١ ـ العسجد المسبوك / ص ٥٨١.

٢ ـ المصدر السابق / ص ٥٧٨.

٦ ـ الخلاف بين الخلفاء:

لسنا بحاجة إلى بيان المخاطر الّتي تنشأ من الاختلاف، خصوصاً إذا كان بين الخلفاء وقادة الرأي في الدولة.

ولا شكّ انّ مخاطر الاختلاف أشدّ وقعاً وتأثيراً من العدوّ الخارجي.

فالاختلاف الّذي نشأ في البيت العباسي بعد وفاة أبي العباس السفاح، بين المنصور وعمّه عبدالله بن علي، كان قد قسم ولاء أقربائهم والمرتبطين بهم إلى قسمين، ثمّ شطرهم شطرين آخرين عندما اختلف المنصور مع عيسى بن موسى، وكذلك الاختلاف الّذي نشأ بين الأخوين الأمين والمأمون وهكذا...

والنتيجة سوف تصبح عدّة ولاءات، وربّما كان الولاء للحاكم المتسلّط هو الأضعف. ولا نريد أن نبحث عن الأسباب الّتي تؤدي إلى الاختلافات بين أولئك، فالأمر واضح جليّ، وأهمّ ما فيه هو الدُّنيا وبهرجتها وسلطانها وعنفوانها وما يترتّب على ذلك من إشباع للغرائز، وعلى رأسها (البطن والفرج).

وعادة ما يحيط بكل واحد من أولئك مجموعة من المرتزقة الّذين يحسّنون للخليفة ارادته وطموحه ورغباته، لأنّهم يخشون أن يخالفوه في شيء، ولأنّ النعيم الّذي يتحقّق لصاحبهم سينالهم أيضاً.

ووعّاظ السلاطين موجودن في كل زمان، وهم بلاء عظيم في إحداث المفارقات التأريخية.

❊ ❊ ❊

والاختلافات تؤدّي غرضها سواء استتبعت حرباً أم لا، فهي:

أوّلاً: تذكي الأحقاد في النفوس من أولئك الّذين يقفون مع هذا أو ذاك، حتّى إذا كانوا يخفون تلك الأحقاد، فانّها سرعان ما تتحرك فتؤثر أثرها.

ثانياً: تعطي انطباعاً للأمّة بأن خلفاءها، ليس فيهم من الورع والزُّهد والتقوىٰ والدِّين أي شيء، وبالتالي فانّهم سوف يفقدون ولاءهم إلّا ما كان بالقهر والقوّة.

ثالثاً: انّ نقض العهد المكتوب والمشهود عليه، يعتبر أمراً خطيراً جدّاً، ذلك لأنّ الخلفاء وهم الّذين يدّعون انّهم خلفاء رسول الله ﷺ يجب أنّ يكونوا قدوة للوفاء بالعهود والأيمان، ولكن الّذي كان يحدث، كان يعطي انطباعاً سيّئاً عن الخلفاء.

رابعاً: إنّ اختلاف الخلفاء وضعفهم وانغماسهم في اللّهو والملذّات والنسوان والخصيان وشرب الخمور والابتعاد عن الدين، ثمّ الفتن الطائفية وفتن العيارين ونقض العهود والمواثيق والحروب الّتي تنشأ نتيجة ذلك، كان يشجع القوى الداخلية على اقتطاع بعض الولايات والاستقلال بها، وقطع الرابطة مع المركز إلّا من خلال الخطبة للخليفة. كما كان يشجع القوى الخارجية على التهام الفريسة (الدولة العباسية) وهو الّذي حدث على أيدي البويهيين والسلاجقة وأخيراً التتار عام ٦٥٦هـ.

* * *

ولقد بلغ الاختلاف بين الخلفاء، انّهم كانوا يحبسون من يشكّون في معارضته لهم، بل كانوا يحبسون حتّى أولادهم خوفاً من أن يثوروا عليهم أو يتواطأوا مع الأتراك أو الديلم وغيرهم.

والمستعصم آخر خليفة عباسي، يصفه المؤرّخون بأنّه الوحيد بين الخلفاء الّذي لم يكن قد حبس أولاده على عكس ما كان يفعله أجداده.

علماً بأن خلفاء بني العباس كانوا أكثر اختلافاً فيما بينهم من خلفاء بني أميّة، إذ دبّ فيهم الاختلاف منذ مات أبو العباس السفاح، فانّ عمّه عبدالله بن علي دعا إلى نفسه بالبيعة.

وأغلب الخلفاء أولئك كانوا يعقدون ولاية العهد لأحدهم ثمّ ينقضون العهد. ولأمّهات الخلفاء ـ وأغلبهنّ من أمّهات الأولاد ـ كان لهنّ رأي مؤثّر على الخليفة.

ولكنّنا سوف نحجم عن التفصيل ونقتصر على بعض النماذج كما هو ديدننا في المواضيع الّتي سبقت، وإلّا لاحتجنا إلى موسوعات.

* * *

أوّل خلاف بين الخلفاء العباسيين، كان بين المنصور وعمّه عبدالله بن علي

يقول صاحب كتاب الفخري:

انّه (عبدالله بن علي عمّ المنصور) طمع في الخلافة بعد موت السفاح، وخطب الناس وقال: انّ السفاح ندب بني العباس لقتال مروان، فلم ينتدب غيري، وانّه قال لي: إن ظهرتَ عليه وكانت الغلبة لك، فأنت ولي العهد بعدي، وشهد له جماعة بذلك، فبايعه الناس.

ولمّا اتصل الخبر بالمنصور أقامه ذلك وأقعده، فقال له أبو مسلم الخراساني:

إن شئتَ جمعت ثيابي في منطقتي وخدمتك.

وإن شئتَ أتيتُ خراسان وأمددتك بالجنود.

وإن شئت سرتُ إلى حرب عبدالله بن علي.

فأمره بالمسير إلى حرب عبدالله.

فسار أبو مسلم بعسكر كثيف، فتطاول الأمد بينهما شهوراً، كانت في آخرها الغلبة لعسكر أبي مسلم.

فهرب عبدالله بن علي إلى البصرة ونزل على أخيه سليمان بن علي بن عبدالله ابن عباس، فشفع سليمان فيه إلى المنصور وطلب له الأمان.

فآمنه المنصور وكتب له كتاباً بليغاً التزم فيه بكل شيء.

فلمّا جاء إليه حبسه ومات في حبسه، فقيل انّه بنى له بيتاً وجعل في أساساته ملحاً ثمّ أجرى الماء فيه فسقط البيت عليه فمات[1].

أمّا المسعودي فيقول:

... وطال حبس عبدالله بن علي بأمر المنصور، وأقام في محبسه تسع سنين، وقيل

---

١ ـ الفخري لابن الطقطقي / ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

غير ذلك، فلمّا أراد المنصور الحج في سنة ١٤٩هـ حوّله من عنده إلى عيسى بن موسى وأمره بقتله وان لا يعلم بذلك أحداً. في قصّة طويلة[١].

* * *

المنصور أيضاً ينقض ولاية العهد

فقد حبس الخليفة أمير المؤمنين عمّه عبدالله بن علي، بعد أن اعطاه الأيمان والأمان والعهود والمواثيق في أوّل عملية من هذا القبيل تقع في دولة بني العباس. وبذلك ضرب مثلاً لمن يجيء من بعده، حيث تكرّرت عمليات خرق العهود والتنكّر للأيمان.

وإذا كان إدّعاء عبدالله بن علي بولاية العهد مستنداً إلى شهادة الشهود، فان ولاية العهد كانت لعيسى بن موسى بعد أبي جعفر المنصور بنصٍ مكتوب من السفاح نفسه.

يقول الطبري:

وفي هذه السنة (١٣٦هـ) عقد أبو العباس عبدالله بن محمّد بن علي لأخيه أبي جعفر الخلافة من بعده وجعله ولي عهده ومن بعد أبي جعفر، عيسى بن موسى بن محمّد ابن علي. وكتب العهد بذلك وصيّره في ثوب وختم عليه وخواتيم أهل بيته ودفعه إلى عيسى بن موسى[٢].

فالعهد هذه المرّة مكتوب ومختوم ومشهود عليه بخواتيم أهل بيته، وليس فيه أي شائبة.

ولكن المنصور لا يروق له ذلك، وقد كبر ابنه المهدي، فعزم على البيعة له.

فكلّم عيسى بن موسى في ذلك، وكان يكرمه ويجلسه عن يمينه ويجلس المهدي عن يساره، فلمّا قال له المنصور في معنى خلع نفسه وتقديم المهدي عليه أبى.

---

١ ـ مروج الذهب للمسعودي / ج ٣/ ص ٣٠٥.

٢ ـ الطبري / ج ١٠ / ص ٨٧.

وقال: يا أمير المؤمنين! كيف بالأيمان عليّ وعلى المسلمين من العتق والطلاق وغير ذلك[1]؟

فالدنيا بجبروتها وكبريائها وملاذها ولهوها ولعبها أغْوَت المنصور وتمنّاها أن تكون لولده المهدي.

وتغيّر المنصور على عيسى بن موسى، وباعده بعض المباعدة، وصار يأذن للمهدي قبله، ثمّ سقاه سماً ليموت، فمرض من ذلك واشتدّ مرضه ثمّ عوفي.

ثمّ قيل للمنصور: ان عيسى بن موسى انّما يريد الخلافة لتكون من بعده لولده (موسى) فأمر المنصور وزيره الربيع بخنق (موسى) فخنقة بحمائله، وموسى يصيح «الله الله في دمي يا أمير المؤمنين».

والمنصور يقول: يا ربيع ازهق نفسه، والربيع يوهم انّه يريد تَلَفَه وهو يرفق به وموسى يصيح، وكان أبوه عيسى حاضراً.

فلمّا رأى ذلك أبوه قال: والله يا أمير المؤمنين! ما كنت أظن انّ الأمر يبلغ منك هذا كلّه، فاكفف عنه، فها أنا ذا أشهدك ان نسائي طوالق ومماليكي أحرار وما أملك في سبيل الله، تصرف ذلك فيمن رأيتَ يا أمير المؤمنين، وهذه يدي بالبيعة للمهدي، فبايعه للمهدي[2].

في قصّة طويلة لسنا بحاجة لها. المهم انّ المنصور خلع عيسى بن موسى بالقوّة، بالسم أوّلاً ثمّ بخنق ابنه وأمور أخرى مفصّلة في كتب التاريخ.

* * *

ولا شك انّ الّذي فعله المنصور بعمّه عبدالله بن علي ثمّ بابن أخيه عيسى ابن موسى، كان قد قسم العباسيين إلى قسمين كما قلنا سابقاً، بين مؤيد يخشى المعارضة ويطمح بالعوض وبين حانق يكتم غيضه ويتحيّن الفرص.

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٥ / ص ١٨٠.

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٥ / ص ١٨٢.

والأمر كلّه يجري جهاراً نهاراً أمام الأمّة الاسلامية الّتي كانت قد سمعت من أبي العباسي في خطبته الأولى في مسجد الكوفة انّهم جاؤوا ليقيموا الحق الّذي هضمه الأمويون «وانّي لأرجو ان لا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح... حتّى أدركتم زماننا وآتاكم الله بدولتنا فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا...»[١].

هذا باختصار ما حدث لولاية العهد بعد السفاح والمنصور.

والبطل فيها هو أبو جعفر المنصور أبو الخلفاء الّذي سنّ سنّة سيّئة لأولاده الخلفاء (٣٥ خليفة من بعد المنصور).

وسوف نرى كيف انّهم كانوا يتناطحون كالكباش على الخلافة يوم أصبح سمل العيون والبصق في الوجوه والصفع على الظهور، وعصر الخصيتين صفة مميّزة فيها، ثمّ أدّى اختلافهم وما اقترفوه من جرائم ومنكرات إلى أن يغزوهم الكافر في عقر دارهم، فيقضي عليهم وعلى كل آمالهم، وأخذ منهم (القضيب) الّذي كانوا يعتبرونه صكاً من صكوك الخلافة، من يمتلكه فكأنّه يمتلك ناصية الدين.

وذهبوا بعد أن أفسدوا الأمّة وأحرقوا الحرث والنسل وأساؤوا إلى العباد والبلاد وزرعوا فيها الضغائن والفتن والأنانيّات، حتّى لم تعد الدولة دولة للاسلام، فكل ما فيها محرّف مزيف، ولا يتحمّل وزر ذلك إلّا الخلفاء.

الخليفة المهدي يجدّد الطّلب من عيسى بن موسىٰ بخلع نفسه والبيعة لولديه موسىٰ وهارون

ثمّ جاء المهدي بن المنصور.

ويذكر ابن العبري هذه القصّة في موت المنصور والبيعة لولده المهدي، فيقول:

لمّا مات المنصور ببئر ميمون، لم يحضر عند وفاته إلّا خدمه والربيع مولاه، فكتم

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٥ / ص ٦٦.

الربيع موته وألبسه وسنّده وجعل على وجهه كلّة خفيفة، يُرى شخصه منها ولا يفهم أمره، وأدنى أهله منه.

ثمّ قرب الربيع منه كأنّه يخاطبه، ثمّ رجع إليهم وأمرهم عنه بالبيعة للمهدي ابن المنصور فبايعوا، ثمّ أخرجهم.

وبعد ذلك خرج إليهم باكياً مشقوق الجيب لاطماً رأسه[1].

❊ ❊ ❊

وكما قلنا انّ لكل خليفة أنصاراً ووعاظاً للسلاطين يؤيدونه ويطمعون في نواله. ولمّا بويع للمهدي، كان جماعة من بني هاشم وشيعة المهدي قد خاضوا في خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد والبيعة لموسى الهادي بن المهدي.

فلمّا علم المهدي بذلك سرّه[2] وكتب إلى عيسى بن موسى بالقدوم عليه وهو بقرية الرحبة من أعمال الكوفة.

فأحسّ عيسى بالّذي يراد منه، فامتنع من القدوم، فاستعمل المهدي على الكوفة روح بن حاتم للإضرار به، فلم يجد روح إلى الإضرار به سبيلاً، لأنّه كان لا يقرب البلد إلّا كل جمعة أو يوم عيد.

وألحّ المهدي عليه، وقال له: إنّك إن لم تجبني أن تنخلع من ولاية العهد لموسى وهارون استحللت منك بمعصيتك ما يستحل من أهل المعاصي، وإن أجبتني عوّضتك عنها ما هو أجدى عليك وأعجل نفعاً، فلم يقدم عليه.

فوجّه إليه المهدي عمّه العباس بن محمّد برسالة وكتاب يستدعيه، فلم يحضر معه، فلمّا عاد العباس وجّه المهدي إليه أبا هريرة محمّد بن فروّخ القائد في ألفٍ من أصحابه ذوي البصائر في التشيّع للمهدي وجعل مع كل واحد منهم طبلاً وأمرهم أن يضربوا

---

١ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ١٢٥.

٢ ـ نحن لا نستبعد ان تكون المبادرة من المهدي ولكنّه دسّ إليهم من يتكلم بما يريد وكأنّ المبادرة منهم، وتلك عادة السياسيين.

طبولهم جميعاً عند قدومهم إليه.

فوصلوا سحراً وضربوا طبولهم.

فارتاع عيسى روعاً شديداً، ودخل عليه أبو هريرة وأمره بالشخوص معه، فاعتلّ بالشكوى فلم يقبل منه، وأخذه معه.

فلمّا قدم عيسى بن موسى نزل دار محمّد بن سليمان في عسكر المهدي، فأقام أيّاماً يختلف إلى المهدي ولا يُكلّم بشيء ولا يرى مكروهاً.

فحضر الدار يوماً قبل جلوس المهدي، فجلس في مقصورة للربيع وقد اجتمع شيعة رؤساء المهدي على خلعه، فثاروا به ـ وهو في المقصورة ـ فأغلق الباب دونهم، فضربوا الباب بالعمد حتّى هشّموه وشتموا عيسى أقبح الشتم.

وأظهر المهدي إنكاراً لما فعلوه[1]، فلم يرجعوا، فبقوا في ذلك أيّاماً إلى ان كاشفه أكابر أهل بيته، وكان أشدّهم عليه محمّد بن سليمان.

وألحّ عليه المهدي فأبى، وذكر ان عليه أيماناً في أهله وماله[2] فأحضر له من القضاة والفقهاء عدّة، منهم محمّد بن عبدالله بن علانة ومسلم بن خالد الزنجي فأفتوه بما رأوا، فأجاب إلى خلع نفسه، فأعطاه المهدي عشرة آلاف ألف درهم وضياعاً بالزاب وكسكر، وخلع نفسه لأربع بقين من المحرّم عام (١٦٠هـ) وبايع للمهدي ولابنه موسى الهادي.

---

١ ـ وهذه طريقة يستعملها العاملون في السياسة، يأمرون بشيء ويظهرون التنكّر له.

٢ ـ أي انّ عيسى بن موسى كان يرى انّه قد بويع من قبل أهله وخاصته، وهذا عقد لا يجوز له التنازل عنه، فجيء بالفقهاء ـ وهم حاضرون دائماً ـ فأجازوا له ذلك.

أمّا الطبري فيقول: (وصار إلى المهدي ابتياع ماله من البيعة في أعناق الناس بما يكون له فيه رضى وعوّض ممّا يخرج...).

أي انّ المهدي اشترى البيعة لعيسى بن موسى بالمال حسب فتوى الفقهاء، وهذا أمر غريب جدّاً لم يحدث له مثيل من قبله ولا من بعده كفتوى شرعيّة، وهو من مبتدعات خلفاء بني العباس النجباء!

ثمّ جلس المهدي من الغد وأحضر أهل بيته وأخذ بيعتهم، ثمّ خرج إلى الجامع وعيسى معه، فخطب الناس وأعلمهم بخلع عيسى والبيعة للهادي ودعاهم إلى البيعة، فسارع الناس إليها وأشهد على عيسى بالخلع[1].

* * *

ولنسدل الستار على ما فعله المهدي مع ابن عمّه عيسى بن موسى، وكيف اشترى البيعة بعشرة ملايين درهم.

والمهدي شأنه شأن اللصوص وقطاع الطرق، فالمال الّذي بذله استحصله من الناس بالقوّة والغلبة.

ولا ينظر المهدي لعواقب هذه العملية ابتداء من الترهيب والترغيب وانتهاء بالتنازل والخلع والاشهاد.

وإذا كان أبوه المنصور قد فعل هذا، فهو على سرّه، وسوف يأتي احفاده ليفعلوا ما فعله جدهم وهكذا...

ولا ينظر أحدهم للنتائج الوخيمة الّتي تنشأ من هذه العمليات، ولعلّ أهمّها تحلّل الدولة الاسلامية وتفكّكها ومن ثمّ تمزّقها وطمع الطامعين فيها، وأخيراً وقوعها فريسة سهلة يسيرة بيد التتار الوثنيين.

* * *

الخليفة الهادي ودوره في خلع الرشيد

والسنّة السيّئة الّتي سنّها أبو جعفر المنصور، سرى مفعولها في ذرّيّته، وآتت أكلها في ايقاع الفتنة واستشرائها في كيان الدولة العباسية، وتشرذم العباسيين وانقسامهم إلى ولاءات واحقاد وأعداء يتربّص البعض بالبعض الآخر، ويتآمرون ويشنّون الحروب السجال على حساب الاسلام والمسلمين ووحدة الصف.

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٥ / ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

ولولا الاختلاف الّذي دبّ بين الخلفاء العباسيين والتخالع بينهم لكان للدولة شأن آخر. ولكنّهم لم يكونوا ينظرون لما سوف تحدثه تلك الاختلافات، وانّما ينطلقون من مكاسب آنية وأنانيات جلبت على دولتهم البؤس والخسران وصبّت على رؤوسهم العذاب.

ولقد رأينا الخليفة المهدي قبل قليل والأساليب اللّئيمة الّتي اتبعها مع عيسى ابن موسى في سبيل ان يخلع نفسه من ولاية العهد ليعقدها لولده الهادي.

وهذا هو الهادي الآن وقد أصبح خليفة بعد أبيه، سلك نفس السلوك الّذي سلكه أبوه وجده.

فولاية العهد كانت إلى هارون الرشيد من بعد أخيه الهادي حسب وصيّة أبيهما المهدي، ولكن الهادي لم يلتزم بوصية أبيه، فعمل على خلع الرشيد وتصيير ولاية العهد لولده الطفل (جعفر).

والآن فلنستمع إلى مختصر في القضيّة ننقلها من تاريخ اليعقوبي إذ يقول:

... وشجرت بين موسى وبين أخيه (هارون) الوحشة، فعزم على خلعه وتصيير ابنه جعفر وليّ العهد، ودعا القواد إلى ذلك.

فتوقّف عامّتهم، وأشاروا عليه أن لا يفعل، وسارع بعضهم، وقوّوا عزيمته في ذلك، وأعلموه انّ الملك لا يصلح إن صار إلى هارون.

فكان ممّن سعى في خلعه أبو هريرة محمّد بن فرّوخ الأزدي القائد من الأزد، وقد كان موسى (الهادي) وجّه به في جيش كثير يستنفر مَن بالجزيرة والشام ومصر والمغرب، ويدعو الناس إلى خلع هارون، فمن أبى جرّد فيهم السيف، فسار حتّى صار إلى الرّقة، فأتاه الخبر بوفاة موسى.

وأخذ موسى (الهادي) يحيى بن برمك فحبسه وأشرف عليه بالقتل عدّة مرار، فحدّثني بعض المشايخ عن يحيى بن خالد قال:

حبسني موسى بسبب الرشيد[١] وتربيتي إيّاه، ومكاني معه، وكان الرشيد دُفع إلينا مولوداً في الخرق، فغذّته ثدي نسائنا، وربّي في حجورنا، فقال: بلغني انّك ترضى هارون للخلافة ونفسك للوزارة، والله لآتينّ على نفسه ونفسك قبل ذلك وحبسني في بيت ضيق لا أقدر أن أمدّ رجليّ فيه[٢].

أمّا ابن الأثير فيقول:

انّ المهدي استدعى يحيى بن خالد ليلة، فخاف وأوصى وتحنّط وحضر عنده.

فقال له: يا يحيى مالي ولك عليّ؟

فقال: من أنا حتّى أدخل بينكما، انّما صيّرني المهدي معه، ثمّ أمرتني أنت بالقيام بأمره فانتهيت إلى أمرك، فسكن غضبه.

وقد كان هارون الرشيد طاب نفساً بالخلع، فمنعه يحيى عنه، فلمّا أحضره الهادي وقال له في ذلك، قال يحيى: يا أمير المؤمنين! إنّك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم وإن تركتهم على بيعة أخيك، ثمّ بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكد للبيعة، قال: صدقت وسكت عنه.

فعاد أولئك الّذي بايعوه من القواد فحملوه على معاودة الرشيد بالخلع، فاحضر يحيى وحبسه[٣].

نعم، هكذا سرت تلك السنّة السيّئة وتلك الفتنة اللئيمة الّتي مزقت شمل الدولة العباسية...

من أبي جعفر المنصور ثمّ لولده المهدي ثمّ لولده الهادي ثمّ للأمين والمأمون ولدى هارون وهكذا...

---

١ ـ كان يحيى بن خالد بن برمك يتولّى أمور الرشيد بأمر الهادي، فقيل للهادي ليس عليك من أخيك خلاف انّما يحيى يفسده، فبعث إليه وتهدده ورماه بالكفر.

٢ ـ تاريخ اليعقوبي لابن واضح / ج ٢ / ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

٣ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٥ / ص ٢٧٠.

انّ تلك الفتن حفرت أخاديد في جسم الدولة حتّى غدت مريضة عليلة لا تقوى على مواجهة الأعاصير والرياح الّتي هبّت مع الأتراك والبويهيين والسلاجقة ثمّ التتار الّذين كان سقوط بغداد على أيديهم.

* * *

الأمين والمأمون خليفتان تخالعا وتحاربا

وقصتهما أشهر من ان نذكرها، فعلى رغم كثرة التخالع الّذي أصيبت به الخلافة العباسية إلّا ان تخالع الأمين والمأمون وما استتبع ذلك من قتال كان هو الأبرز في هذا الباب.

ولأنّ القضية بهذه الشهرة، فسوف لا نعيد ذكرها، وانّما نشير إليها اشارة طفيفة يقول السيوطي:

وكان الرشيد بايع بولاية العهد لابنه محمّد في سنة خمس وسبعين ومائة ولقّبه الأمين وله يومئذٍ خمس سنين، لحرص أمّه زبيدة على ذلك، قال الذهبي: فكان هذا أوّل وهن جرى في دولة الاسلام من حيث الإمامة، ثمّ بايع لابنه عبدالله من بعد الأمين في سنة اثنتين وثمانين ومائة ولقبه المأمون وولّاه ممالك خراسان بأسرها، ثمّ بايع لابنه القاسم من بعد الأخوين في سنة ست وثمانين ومائة ولقبه المؤتمن وولّاه الجزيرة والثغور وهو صبي.

فلمّا قسّم الدُنيا بين هؤلاء الثلاثة، قال بعض العقلاء لقد ألقى بأسهم بينهم، وغائلة ذلك تضرّ بالرعيّة، وقالت الشعراء في البيعة المدائح، ثمّ انّه علق نسخة البيعة في البيت العتيق[١].

* * *

ولكن ـ وكما قلنا سابقاً وكرّرنا ذلك مراراً ـ انّ الخليفة يحيط نفسه بجماعة تحاول أن تتملّق له وتحقّق رغباته وتزيّن له الأمور رهبة ورغبة وهو الّذي حصل مع الأمين،

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٢٩٠.

حيث أشار عليه بعض خاصّته بخلع المأمون والبيعة لابنه موسى.

فمال الأمين إلى أقوالهم، ثمّ انّه استشار عقلاء أصحابه فنهوه عن ذلك وحذّروه عاقبة البغي ونكث العهود والمواثيق وقالوا له:

لا تجرّئ القوّاد على النكث للأيمان وعلى الخلع فيخلعوك، فلم يلتفت إليهم... واشتدّت العداوة بين الأخوين الأمين والمأمون وقطعت الدروب بينهما من بغداد إلى خراسان وفتّشت الكتب وصعب الأمر وقطع الأمين خطبة المأمون في بغداد وقبض على وكلائه.

وكذلك فعل المأمون بخراسان ونما الشر بينهما، وكان بقدر ما عند المأمون من التيّقظ والضبط عند الأمين من الإهمال والتفريط والغفول[1].

* * *

ثمّ وقعت بينهما الحرب، قتل فيها الأمين واخذت رأسه إلى المأمون وقتل من الجيشين العدد الكبير.

والأمور معروفة فلا نعيدها.

ولم تكن تنفع العهود المكتوبة والأيمان المغلّظة وتعليق الوصيّة في داخل الكعبة، بل لم تنفع الأخوّة والرحم بينهما، ولم يكن العقل والتدبير والسياسة تتغلّب على أحدهما فيحجم عن الحرب والقتال.

فلماذا كل ذلك؟

أليست هي الدُّنيا وبهرجتها؟

أليست هم الخصيان الّذين كان يهتم بهم أمير المؤمنين الأمين؟

حين ترك كل شيء واهتم بهم وبعث إلى الاقطار والمهالك من يشتريهم له بأغلا الأثمان؟

* * *

---

١ ـ الفخري لابن الطقطقي / ص ٢١٢.

أمّا المأمون، فهو أخو الأمين من طينة واحدة، ولم يكن ما يتظاهر به من العلم والتقوى إلّا رياءً ونفاقاً لكسب ودّ الناس وخداعهم.

يقول ابن الطقطقي:

وتوجّه الفضل بن الربيع إلى بغداد (بعد وفاة الرشيد) فاستوزره الأمين، ثمّ اشتغل (أي الأمين) باللهو واللعب ومعاشرة المـُجّان.

فأشار الفضل بن سهل وزير المأمون على المأمون بإظهار الورع والدين وحسن السيرة، فأظهر المأمون حسن السيرة واستمال القوّاد وأهل خراسان، وكان كلّما اعتمد الأمين حركة ناقصة اعتمد المأمون حركة شديدة...[1]

فالخلافة للدنيا، وإمرة المؤمنين للتسلّط على المؤمنين وخداعهم والاستحواذ عليهم واقتتال الأخوين أعطى للأمّة المسلمة انطباعاً سيّئاً عن سيرة خلفاء بني العباس، وتكشّفت لها حقيقة العباسيين وان ما كانوا يدّعونه في بيانهم الأوّل في خطبة أبي العباس السفاح ما هو إلّا تضليل وبهتان.

❊ ❊ ❊

الإقتتال بين الأمين والمأمون جرّأ أصحاب الأطماع

والإقتتال بني الأخوين، حرّك إبراهيم بن المهدي، وبويع له بالخلافة عام ٢٠١ هـ، فما دامت الدُّنيا تؤخذ غلاباً. فما المانع أن يكون إبراهيم بن المهدي الخليفة وأميراً للمؤمنين وإن كان مغنّياً مخنّثاً.

والإقتتال بين الأخوين، دفع بابك الخرّمي للثورة والظهور في أذربيجان عام ٢٠١هـ كذلك.

والاقتتال بين الأخوين العباسيين، شجّع اليمانية والنزارية بالموصل على إثارة العصبية والاقتتال عام ١٩٨هـ.

---

١ ـ الفخري لابن الطقطقي / ص ٢١٢.

كما شجّع (حسن الهرشي) الخروج في جماعة من سفلة الناس ومعه خلق كثير من الأعراب ودعا إلى الرضا من آل محمّد، وأتى النيل فجبى الأموال ونهب القرى[١].

فلقد أحسّ (حسن الهرشي) انّ الأمور تنال بالتزييف والتحريف والقوّة، فادّعى ما ادّعاه العباسيون زوراً ـ للرضا من آل محمّد ـ ففعل مثلهم عسى أن يحقق شيئاً وهكذا...

وسوف يشجع هذا الاقتتال الخلفاء الّذين يأتون بعد الأمين والمأمون على التخالع والتنازع، وسوف تتردّى الأوضاع وتسوء يوماً بعد آخر، حتّى يتسلّط الأتراك والبويهيون والسلاجقة، وأخيراً التتار الّذين يقضون على كل شيء.

ولن يتحمل مسؤولية تردّي وضع المسلمين إلّا أولئك الّذين تسلّطوا عليهم باسم الدِّين وانصرفوا للّهو واللّعب وفعل المنكرات.

وكذلك المأمون يخلع أخاه المؤتمن

إذا كان الأمين قد خلع أخاه المأمون وجرت بينهما الحروب، فانّ المأمون كذلك لما مرض خلع أخاه القاسم (المؤتمن) وهو الّذي كان قد نصّ عليه أبوه الرشيد في الوثيقة الّتي علقت في جوف الكعبة حين جعل ولاية العهد لأولاده الثلاثة الأمين ثمّ المأمون ثمّ المؤتمن.

فخلع المأمون أخاه المؤتمن، وأخذ البيعة لأخيه أبي إسحاق (المعتصم) وأمر أن يكتب إلى البلاد الكتب: من عبدالله المأمون أمير المؤمنين وأخيه الخليفة من بعده أبي إسحاق المعتصم بن هارون الرشيد[٢].

فليست الوثيقة المكتوبة كانت ملزمة، ولا الدِّين ولا الأخلاق ولا الشهود ولا الأب ولا الأبناء.

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٥ / ص ٤١٥.

٢ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ١٣٥.

والّذي فعله المأمون هو نفس ما فعله أخوه الأمين.

فاذا كان الأمين قد خلع أخاه المأمون فانّ المأمون خلع أخاه المؤتمن أيضاً وبايع لأخيه الآخر أبي إسحاق المعتصم.

أمّا المعتصم الّذي كان أخوه المأمون قد أحسن إليه في البيعة وأسقط حقّ المؤتمن منها فانّه لمّا بويع له بعد موت المأمون، شغب الجند، ونادوا باسم (العباس ابن المأمون) وربّما كان العباس محبوباً من قبل الجند.

فخرج إليهم العباس فقال:

ما هذا الحب البارد؟ وقد بايعت عمي، فسكنوا[1].

ولكن المعتصم لم يحفظ للعباس هذا الموقف، فحبسه عام ٢٢٣هـ وأمر بلعنه[2] فقدم إليه طعام كثير، فلمّا طلب الماء منع وادرج في مسح فمات[3].

المتوكل يعيد نفس الخطأ

فيعقد الولاية لأولاده الثلاثة والنتيجة قتال وحروب

والخطأ الّذي ارتكبه هارون الرشيد، أعاده حفيده المتوكل، إذ عقد البيعة لبنيه الثلاثة بولاية العهد.

يقول ابن العبري:

وفي سنة ٢٣٥هـ عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة بولاية العهد وهم المنتصر والمعتز والمؤيد، وعقد لكل واحد منهم لواء، وولّى المنتصر العراق والحجاز واليمن، والمعتز خراسان والري، والمؤيد الشام[4].

---

١ ـ المصدر السابق / ص ١٣٨.

٢ ـ تاريخ الرسل والملوك للطبري / ج ١١ / ص ١٢٥٦.

٣ ـ المصدر السابق / ص ١٢٦٥.

٤ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ١٤٢.

ثمّ بدا للمتوكل أمر آخر، هو أن يقدم المعتز على المنتصر من دون ان يحدّد للمنتصر ترتيبه في ولاية العهد، ولعلّه كان يعتقد انّ المعتز إذا تقدّم فسوف يلغي موقع أخيه المنتصر نهائياً.

ولنستمع لما يقوله السيوطي بهذا الصدد:

كان المتوكل بايع بولاية العهد لابنه المنتصر ثمّ المعتز ثمّ المؤيد، ثمّ انّه أراد تقديم المعتز لمحبته لأمّه، فسأل المنتصر أن ينزل عن العهد فأبى، فكان يُحضره مجلس العامّة ويحط منزلته ويتهدّده ويشتمه ويتوعّده.

واتّفق انّ الترك انحرفوا عن المتوكل لأمور، فاتفق الأتراك[1] مع المنتصر على قتل أبيه، فدخل عليه خمسة، وهو في جوف اللّيل في مجلس لهوه فقتلوه هو ووزيره الفتح ابن خاقان وذلك في خامس شوال سنة سبع وأربعين ومائتين[2].

❊ ❊ ❊

وإذا كان هارون قد عقد ولاية العهد لابنه الأمين وعمره خمس سنوات إكراماً لأمّه (زبيدة) الّتي كانت معروفة بالجمال، فان حفيده المتوكل عمل نفس الشيء، فقد كان مغرماً بزوجته أمّ المعتز الّتي كانت تُسمّى (قبيحة) على الضد من صفاتها، فقد كانت بارعة الجمال.

وتأثر الخلفاء بالنساء، أمر جرى عليه الأوّلون والآخرون، كما كان يفعل ذلك خلفاء بني أميّة، وتلك معضلة عظيمة عندما يدخل حبّ النّساء عنصراً مهمّاً في اتخاذ القرارات بالدولة الاسلامية، وهي واحدة من مساوئ الخلفاء الأجلاء!

❊ ❊ ❊

والماليك الأتراك الّذين جاء بهم المعتصم، كان باكورة أعمالهم في تغيير الخلفاء

١ ـ أو انّ المنتصر هو الّذي اتّفق مع الأتراك في قصّة معروفة ذكرناها في الفصل الأوّل.

٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٣٥٠.

.وعزلهم ونصبهم هو اشتراكهم مع المنتصر في قتل أبيه الخليفة المتوكل.

وحيث نجحوا في ذلك، فانّهم سوف يستمرون في أعمالهم تلك ويتدخّلون في كل أمور الخليفة والدولة ويساهمون مساهمة فعّالة في ضعف الدولة الاسلامية وتمزّقها، ويعطون مبرّراً لدخول البويهيين كعنصر جديد في المعادلة.

وإذا كان الأتراك هم وحدهم الّذين يتحكمون في البلاد، ففي عهد البويهيين كان هناك سلطان وخليفة، ولكلّ منهما سلطاته ومجاله، وإن كان السلطان أقوى نفوذاً وتأثيراً.

وعندما دخل السلاجقة وضعوا الخليفة في زاوية صغيرة، فلم يكن له إلّا باب داره، وحتّى داره المحترمة كان السلاجقة يدخلونها ويتصرفون فيها كما يتشاؤون.

فمَن المسؤول عن ذلك كلّه؟

وعن هذا الانهيار والانحدار؟

الخلفاء هم المسؤولون الّذين انشغلوا بخلافاتهم ولهوهم ولعبهم وتركوا التزام القرآن وتمسكوا بالخصيان، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

* * *

الخليفة المنتصر بن المتوكل يعزل أخويه المعتز والمؤيد

والأتراك في قصّة المتوكل لولم يجدوا أرضية مناسبة لما أقدموا على قتله، ولكنّهم بلغهم الاختلاف بين المنتصر وأبيه، فاستغلوا ذلك أيّما استغلال حتّى أوصلوه إلى القتل.

ثمّ عملوا على عزل المعتز وأخيه المؤيد.

وتوالت قضايا الخلع والعزل:

المستعين يخلع المعتز ويحبسه.

ثمّ المعتز يخلّع المستعين ويقتله.

والمعتز يحبس أخاه المؤيد.

وهكذا...

فأي خلاف هذا بينكم أيُّها الخلفاء؟

أين الشهامة وأين الرّجولة وأين الرحم وأين الاسلام وأين الدين وأين التدبير وأين العقل وأين الشجاعة يا جبناء؟

❊ ❊ ❊

فعملية نقض العهد الّتي سنّها أبو الخلفاء العباسيين أبو جعفر المنصور، كانت كالنار الّتي تسري في الهشيم، فلقد توارثها الأبناء عن الآباء كابراً عن كابر. فلا تكاد تصفو ولاية العهد لأحد ما لم يتبعها العزل وربّما القتل والتعذيب.

ونقض العهد الّذي ابتدعه المنصور لنزوة خاصّة به وبذريّته، استغلها الأتراك فوجدوا أن نقض العهد والأيمان أمر من الممكن أن يكون، لأنّ الخلفاء ساروا عليه، فكانوا هم يبادرون إلى ذلك متى ما وجدوا فيه مصلحة لهم.

❊ ❊ ❊

ولقد وجدنا فيما نقض انّ الأتراك ليس فقط أصبحوا يتدخّلون في نقض ولاية العهد وانّما ينقضون الخلافة نفسها، فيعزلون من يشاؤون وينصبون مَن يشاؤون.

والأمور كلّها مترابطة، والشر سريع الجريان كالماء المنحدر.

ولا شك انّ المنصور هو الّذي أو قد فتيل نقض العهد والأيمان الّذي عمق مع غيره من الأسباب تقزّم الدولة العباسية وتفتيتها إلى دويلات ومقاطعات، وتسافلت الأمور حتى كانت نتيجتها الحتمية أن يلتهمها التتار عام ٦٥٦هـ.

❊ ❊ ❊

أصبح الخلع ونقض العهد سُنّة جارية، وتوسّع الخلاف

فعندما جاء المهتدي للخلافة حبس المعتمد.

وعندما قتل المهتدي أخرجوا المعتمد وبايعوه.

وانهمك المعتمد في اللّهو والملذّات وبايع بولاية العهد بعده لابنه المفوض إلى الله (جعفر) ثمّ من بعده لأخيه الموفق (طلحه) وعقد لكل منهما لواءين أبيض وأسود ولكن الموفق خرج على أخيه المعتمد وحجر عليه في واسط.

ثمّ أعيد المعتمد إلى سامراء ودخل بغداد.

ثمّ الموفق يقبض على ابنه المعتضد ويحبسه لأنّه أمره أن يسير إلى بعض الوجوه. فقال: (لا أخرج إلّا إلى الشام) فلمّا امتنع حبسه.

ربّما يكون الموفق محقاً في حبس ابنه، لأنّه خالفه وامتنع عن السير إلى بعض الوجوه فقال: (لا أخرج إلّا إلى الشام) فلمّا امتنع حبسه.

ولكن لم تكن كل تلك الحبوس ونقض العهود مبرّره، فالعباسيون كان كل واحد منهم (الخليفة وأبناؤه وأقرباؤه) له أعوانه وأصحابه ومواليه وبعض المقربين، وأولئك جميعاً يتحرّكون لمصلحتهم ومنفعتهم أوّلاً وأخيراً، ويؤيدون صاحبهم عسى أن يفوز يوماً بالخلافة، فتكون لهم الجولة القادمة وما يصاحبها من نعيم واستحواذ.

بل انّ أولئك الأعوان والرفقاء والمنتفعين، كانوا يحاولون دائماً أن يوجدوا بين الخليفة وأقربائه خلافاً وعداوة ليحققوا بذلك رغباتهم ومطامعهم.

والخلفاء لم يكونوا يستقلّون بالرأي والقرار الحاسم وانّما كان يملى عليهم فيولون ويخلعون ويحبسون ويبعّدون وربّما يقتلون حسبما يرتأي أولئك.

ثمّ يتوسّع الخلاف وتبتعد الشقّة، ويحمل السلاح وتقع الحروب وعندها يفرح الأعداء ويتحرك الطامحون في العرش والسلطان.

والحوادث الّتي تدرّجت في الدولة العباسية كانت متسلسلة يرتبط بعضها ببعض، وكان لابدّ ان يحصل الّذي حصل.

وإذا لم يكن البويهيون والسلاجقة والتتار قد حكموا، فانّه كان لابدّ أن يأتي

غيرهم لالتهام الفريسة، لأنّ الفريسة كانت هي الّتي تنادي من يأخذها ويغتنمها.

❊ ❊ ❊

وكالعادة في الخلع المستمر بين الخلفاء، فانّ الخليفة المعتمد على الله، جلس للقواد والقضاة ووجوه الناس عام (٢٧٩ هـ) وأعلمهم انّه خلع ابنه المفوّض إلى الله (جعفراً) من ولاية العهد، وجعل ولاية العهد للمعتضد بالله أبي العباس (أحمد بن الموفق).

وشهدوا على المفوض انّه قد تبرّأ من العهد واسقط اسمه من السكّة والخطبة والطرز وغير ذلك[١].

وجاء المعتضد للخلافة، وكان باكورة أعماله انّه حبس عبدالله بن المهتدي.

❊ ❊ ❊

الخلاف بين الخلفاء شمل حريم الخلفاء أيضاً

والخلاف والقتال الّذي كان يحصل في الدولة العباسية لم يقتصر على الرجال فقط من الخلفاء والمرشحين للخلافة وأولادهم، وانّما شمل حتّى النِّساء.

فالخليفة القاهر الّذي بويع له عام ٣٢٠هـ، بدأ عمله بأن تشاغل بالبحث عمّن استتر من أولاد المقتدر وحرمه وبمناظرة والدة المقتدر، وكانت مريضة، قد ابتدأ بها الاستسقاء، وقد زاد مرضها بقتل ابنها.

ولمّا سمعت انّه بقي مكشوف العورة جزعت[٢] جزعاً شديداً وامتنعت من المأكول والمشروب حتّى كادت تهلك، فوعظها النِّساء حتّى أكلت شيئاً يسيراً من الخبز والملح.

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٦/ ص ٣٨٨.

٢ ـ كان الخليفة المقتدر قد قتله جنده، فلمّا قتلوه رفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه وأخذوا جميع ما عليه حتّى سراويله وتركوه مكشوف العورة إلى ان مرّ به رجل من الأكرة (الّذين يحفرون الأرض للزراعة) فستره بحشيش ثمّ حفر له موضعه ودفن وعفي قبره (الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٧/ ص ٧٤).

وعذّبها القاهر تعذيباً شديداً وطلب منها أن تحلّ أوقافها فامتنعت من ذلك، وقالت: قد أوقفتها على أبواب البرّ والقرب بمكّة والمدينة والثغور وعلى الضعفي والمساكين، ولا استحلّ حِلّها ولا بيعها.

فلمّا علم القاهر بذلك، أحضر القاضي والعدول وأشهدهم على نفسه انّه قد حلّ وقوفها جميعها ووكّل في بيعها، فبيع ذلك جميعه مع غيره، واشتراه الجند من أرزاقهم.

وتقدم القاهر بكبس الدور الّتي سُعي إليه انّه اختفى فيها ولد المقتدر، فلم يزل كذلك إلى أن وجدوا منهم أبا العباس الراضي وهارون وعليّاً والعباس وإبراهيم والفضل، فحملوا إلى دار الخليفة فصودروا على مال كثير[1].

* * *

فأيّة حُرمة تبق للخلفاء عندما يعذّبون النِّساء، وكيف يريدون أن يحترمهم الناس؟ حتّى إذا حملوا القضيب بأيديهم، فلن يغني القضيب عنهم شيئاً ما دامت أخلاقهم هابطة وأعمالهم غير شريفة وتوجهاتهم على نقيض الشرع الشريف.

ولم يكن في بعضهم على الأقل من الاسلام إلّا كونه أميراً للمؤمنين وخليفة لرسول الله ﷺ زوراً وبهتاناً ليحكم الناس وتجبى إليه أموالهم ويخطب له على المنابر وتدق له الطبول باليوم خمس مرّات.

فالخلفاء أصبحوا من التفاهة حدّاً لا يمكن تصوره.

وهذا الّذي نقرأه الآن بعد مرور ثلاثة عشر قرناً، لا شك انّه أقل بكثير ممّا كان يتداول في وقته لأنّه مسموع ومرئي، يسمعه ويراه الناس في بغداد ثمّ ينتقل بسرعة إلى المناطق الأخرى، وهو الّذي يشجع أصحاب الطموح على التمرد والاستقلال في الولايات والمقاطعات، اضافة إلى اطماع الأجانب الّذين كانوا يبحثون عن مناطق جديدة يضيفونها إلى ممالكهم كالّذي حدث للبويهيين والسلاجقة والتتار.

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٧ / ص ٧٦.

وعندها لن يتحمّل الوزر إلّا أولئك الخلفاء التافهون.

* * *

القادر بالله يهرب من الطائع لله

يقول ابن الأثير:

وفي هذه السنة (٣٧٩هـ) هرب القادر بالله من الطائع لله[١] إلى البطيحة، فاحتمى فيها، وكان سبب ذلك ان إسحاق بن المقتدر والد القادر لمّا توفي جرى بين القادر وبين أخت له منازعة في ضيعة، وطال الأمر بينهما.

ثمّ انّ الطائع لله مرض مرضاً شديداً، أشفي منه ثمّ أبل، فسعت إليه بأخيه القادر وقالت له: إنّه شرع في طلب الخلافة عند مرضك، فتغيّر لونه فيه، فأنفذ أبا الحسن ابن النعمان وغيره للقبض عليه، وكان بالحريم الطاهري.

فأصعدوا في الماء إليه، ووصل أصحاب الطائع لله إليه واستدعوه، فأراد لبس ثيابه، فلم يمكنوه من مفارقتهم، فأخذه النّساء منهم قهراً.

وخرج من داره واستتر، ثمّ سار إلى البطيحة فنزل على مهذب الدولة فأكرم نزله ووسّع عليه وحفظه وبالغ في خدمته، ولم يزل عنده إلى ان أتته الخلافة[٢].

وكانت مدّة مقامه في البطيحة سنتين واحد عشر شهراً ولم يخطب له في جميع خراسان وكانت الخطبة فيها للطائع لله[٣].

* * *

١ ـ يُلاحَظ انّ كل الخلفاء العباسيين اتخذوا ألقاباً تتصل بالله سبحانه وتعالى (القادر بالله والطائع لله والمستنصر بالله والناصر لدين الله وهكذا...) وكلّهم انحرفوا عن الله وابتعدوا، ولكنّهم وجدوا في هذه النسبة وكذلك في استخلافهم لرسول الله ﷺ زوراً، انّهم يستطيعون أن يسوسوا الأمّة ويخدعوها ويستحوذوا عليها.

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٧ / ص ٤٣٩.

٣ ـ المصدر السابق / ص ٤٥١.

وهكذا مع كل خليفة نجد هارباً ومتوارياً، وإذا وقع بيده فلا يرحمه، وإنّما هو الحبس والقيود والأغلال والتعذيب والعطش والجوع ثمّ الموت.

وتتكرّر هذه الحالة مع كل خليفة.

ثمّ ربّما يقع الخليفة نفسه بيد خليفة جديد فيخلعه ويسمل عينيه وهكذا...

ولا نجد منهم من يرعوي ويعتبر ويتعقّل الأمور، فكلهم في حبّ الدُّنيا وشهواتها سواسية، يطمحون دائماً لدقّ الطّبول وحمل القضيب وتقبيل الأرض بين اليدين وجباية الأموال ثمّ الجواري والخصيان وما إلى ذلك.

* * *

الأمير أبو الحسن يهرب من أخيه الخليفة المسترشد

ولمّا بُويعَ المسترشد بالخلافة عام (٥١٢هـ) هرب أخوه الأمير أبو الحسن واخفى نفسه ومضى إلى الحلة مستجيراً بدبيس بن صدقة صاحب الحلة.

وكان دبيس بن صدقة أحد أجواد الدُّنيا، كان صاحب الدار والجار والحمى والذمار، وكانت أيّامه أعياداً، وكانت الحلة في زمانه محط الرجال، ملجأ بني الآمال ومأوى الطريد ومعتصم الخائف الشديد.

فأكرمه دبيس إكراماً زائداً عن الحد، وأفرد له داراً وأكرمه إكراماً كثيراً. ومكث عنده مدّة على أحسن حال.

فلمّا علم أخوه المسترشد بالله انّه عند دبيس، قلق لذلك وخاف من أمر يحدث من ناحيته.

فبعث نقيب النقباء علي بن طراد الزينبي إلى الحلة بخاتمه وأمانه وأمره أن يأخذ البيعة على دبيس، ويطلب فيه أن يسلِّم إليه الأمير أبا الحسن.

فقال دبيس: امّا البيعة فالسمع والطّاعة لأمير المؤمنين، وبايع.

وأمّا تسليم جاري فلا والله، لا أسلمه إليكم وهو جاري ونزيلي ولو قتلت دونه، إلّا أن اختار.

فأبى الأمير أبو الحسن التوجه صحبة النقيب إلى أخيه.

فمضى النقيب وحده.

ثمّ بعد ذلك ظفر به المسترشد، فسجنه في بعض دوره[1].

هكذا كان الوضع الداخلي للعباسيين...

تُعذّب أمّ الخليفة أشدّ تعذيب.

ويهرب الأخ من أخيه ويتوارى عنه، فلا يعلم له مكان إلّا بعد حين.

فالخليفة يخشى من أخيه أن يخرج عليه يوماً من الأيّام، لأنّ الخلافة أصبحت لمن يغلب، ولمن يكسب معه عدداً من الأمراء ليبايعوه.

ويخشى الأخ من الخليفة ان يخلده السجن.

وكذا الكلام في الأبناء والأقرباء.

والعيّارون كانوا يتربّصون الأحداث لينطلقوا ومعهم الغوغاء ـ وهم حاضرون دائماً ـ إلى مغانم كثيرة، فيستولون على أموال الناس بالنهب والسلب والمصادره.

ان هذا الوضع المتهرئ كان يصل إلى اسماع أصحاب الطموح في الخارج، وتتوجه أنظارهم إلى الدولة ذات التاريخ العريق.

وكان أهمّ تلك المكاسب هو أن يستحصل السلطان على (فرمان) من خليفة المسلمين في ملك شرق الأرض وغربها ليخوله ذلك ان يسرق أموال الناس باجازة شرعية ورسمية من أمير المؤمنين.

وقلنا سابقاً انّ أولئك، لم يكونوا بحاجة إلى إجازة شرعية وإذن رسمي في مصادرة أموال الناس، ولكن كثيراً من الأمّة في تلك الأيّام كانوا لا يزالون يكنّون احتراماً للخليفة باعتباره يمثل منصباً شريفاً يتصل برسول الله ﷺ.

أمّا التتار، فلم يكن يستهويهم (الفرمان) ذلك، فهم لا يعترفون بالاسلام أصلاً ولا بخليفتهم.

---

١ ـ الفخري لابن الطقطقي / ص ٣٠٢.

ثمّ انّهم كانوا يملكون ناصية الأرض، وكان الّذي يستهويهم هو حبّ السيطرة وتوسعة الممالك ومن ثمّ أموال الخلافة الّتي تجمّعت في بغداد خلال أكثر من خمسمائة عام.

الظاهر بالله يُبايَع بولاية العهد وهو محبوس

ولمّا توفي الناصر لدين الله بويع ابنه الإمام الظاهر بأمر الله عدّة الدين أبو نصر محمّد في ثاني شوال من سنة اثنتين وعشرين وستمائة.

وكان والده قد بايع له بولاية العهد وكتب بها إلى الآفاق، وخطب له بها مع أبيه على سائر المنابر.

ومضت على ذلك مدّة، ثمّ نفر عنه بعد ذلك. وخافه على نفسه، فانّه (الناصر) كان شديداً قويّاً أيّداً عالي الهمّة. فأسقط اسمه من ولاية العهد في الخطبة واعتقله وضيّق عليه ومال إلى أخيه الصغير الأمير (علي) إلاّ انّه لم يعهد إليه.

فاتفقت وفاة الأمير علي الصغير في حياة والده، فعلم الإمام الناصر انّه لم يبق له ولد تصير الخلافة إليه بعده غيره، فعهد إليه وبايع له الناس وهو في الحبس مضبوط عليه.

وكانت عامّة أهل بغداد يميلون إليه.

فلمّا توفّي الناصر أخرجه أرباب الدولة وبايعوه بالخلافة[1].

❊ ❊ ❊

والحوادث كثيرة والقصص تملأ كتب التاريخ، والخلاف بين الخلفاء، يكاد لا ينجو منه خليفة.

وكان ذلك أمراً طبيعياً، فما دامت الخلافة للدنيا، يقع النزاع عليها، ويستوحش الخليفة حتّى من أخيه وابنه.

---

١ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ٢٤٢.

ويستطيع القارئ الكريم ان يكوّن له صورة عمّا كان يجري في قصور الخلفاء الميامين من اختلاف كان يؤدي في الغالب إلى الحبس والقتل، وكان يطال أحياناً النِّساء حتّى التعذيب بأبشع صوره.

ولا شكّ انّ هذا الاختلاف بين الخلفاء، كان يساهم مساهمة جدّيه في ضعف كيان الدولة وإرباكها وحلول الاضطراب فيها.

والخليفة عندما يعطي انطباعاً للأمّة بأنّه لا يتورّع حتّى من قتل أبيه أو ابنه أو حبسه، ولا يتورّع عن نقض العهود والأيمان المغلّظة والطّلاق والعتاق... فأيّة قيمة تبقى للخليفة لدى الأمّة؟ وهو يقترف المنكرات؟

ولقد وجدنا انّ الفرقاء المختلفين من الخلفاء قد يستعينون على بعضهم البعض بالأمّة (كما في المستعين والمعتز) وتلك طامّة كبرى حين تتوزّع عواطفهم بين الحكّام وما يستتبع ذلك من انقسام في الأمّة ويجعلها شيعاً وأحزاباً، تؤدّي بالتالي إلى تسلّط الغوغاء والعيّارين واللّصوص، كما تشجّع أصحاب الأطماع من الأمراء على التآمر على الخلفاء، والاستقلال في الولايات والمقاطعات، ثمّ تشجّع القوى الخارجية على اغتنام الدولة الّتي كان يحكمها العباسيون، وهو الّذي حدث، فكانت طعمة لأولئك، حتّى التهمها وازدردها التتار، ليس في غفلة من التاريخ، بل في وضوح منه ولعنته للّذين تسبّبوا في كل هذه الكوارث الّتي حلّت بالمسلمين، بحيث لم تقم لهم قائمة بعد ذلك، وبقوا دولاً متعدِّدة مستضعفة حتّى يومنا هذا الّذي نعيش فيه الاستعمار مسيطراً على دولنا الاسلامية بشتّى أنواع السيطرة، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

* * *

ولا بأس بأن نختم هذا الفصل بحديث ابن خلدون إذ يقول:

كانت مدينة بغداد قد احتفلت في كثرة العمران بما لم تنته إليه مدينة في العالم منذ مبدأ الخليقة فيما علمناه.

واضطربت آخر الدولة العباسية بالفتن وكثر فيها المفسدون والدّعّار والعيّارون من الرها. وأعيا على الحكّام أمرهم، وربّما اركبوا العساكر لقتالهم ويثخنون فيهم، فلم

يحسم ذلك من عللهم شيئاً.

وربّما حدثت الفتن من أهل المذاهب ومن أهل السنّة والشيعة من الخلاف في الإمامة ومذاهبها وبين الحنابلة والشافعية وغيرهم من تصريح الحنابلة بالتشبيه في الذات والصفات ونسبتهم ذلك إلى الإمام أحمد، وحاشاه منه.

فيقع الجدال والنكير ثمّ يفضي إلى الفتنة بين العوام.

وتكرّر ذلك منذ حجر الخلفاء، ولم يقدر بنو بويه ولا السلجوقية على حسم ذلك منها، لسكنى أولئك بفارس وهؤلاء بأصفهان، وبعدهم عن بغداد، والشوكة الّتي تكون بها حسم العلل لاتفاقهم.

وانّما تكون ببغداد شحنة تحسم ما خفّ من العلل ما لم ينته إلى عموم الفتنة.

ولم يحصل من ملوكهم اهتمام لحسم ذلك لاشتغالهم بما هو أعظم منه في الدولة والنواحي وعامّة بغداد، أهون عليهم من أن يصرفوا همّتهم عن العظائم إليهم.

فاستمرّت هذه العلّة ببغداد ولم يقلع عنها إلى أن اختلفت جدّتها وتلاشى عمرانها وبقي طراز ردائها لم تذهبه الأيّام[1].

* * *

وابن خلدون وإن ذكر هذه الحقيقة، ولكنّه أغمض عينه عن بعض الحقائق الأُخرى. فانّ الخلفاء وإن كانوا محجورين عليهم، ولكن كان ذلك بتصرّفاتهم هم وسوء تدبيرهم. هذا أوّلاً، ثمّ انّ السلاطين لم يكونوا مشغولين بما هو أعظم.

نعم، كانوا مشغولين بالاختلافات فيما بينهم والحروب والقتال وكذلك بالنساء والخصيان.

أمّا طراز رداء بغداد الّذي يقول عنه ابن خلدون انّه لم تذهبه الأيّام، بل أذهبته الأيّام نتيجة للحروب الداخلية والفتن الطائفية، وأخيراً الغزو الخارجي.

---

١ ـ تاريخ ابن خلدون / ج ٣ / ص ٤٧٧.

الفصل الرابع

الإسماعيليون والخوارزم
وتحريض المغول
على احتلال بلاد المسلمين

لقد تدرّجنا في الحديث عن العوامل الّتي أدّت إلى سقوط بغداد، ابتداء من إبراهيم الإمام، ووجدنا كيف انّ الخلفاء أنفسهم ساهموا من حيث يقصدون أو لا يقصدون بمأساة بغداد.

وسوف نبحث في هذا الفصل (الرابع) عن عناصر أخرى كان لها دور في انهيار الدولة ـ بغض النظر عن حجم هذا الدور ـ وهي عناصر ثلاثة:

١ ـ الإسماعيليون.

٢ ـ دولة خوارزم.

٣ ـ وتحريض المغول على احتلال بلاد المسلمين.

وسوف نتحدث عنها بالقدر الّذي يعنينا منهم:

أوّلاً ـ الإسماعيليون:

وهم القائلون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام بعد أبيه جعفر، وبذلك اختلفوا عن الشيعة الإمامية الاثني عشرية الّذين يقولون بإمامة موسى الكاظم بعد جعفر الصادق.

وقد كانت الدولة الفاطمية على المذهب الإسماعيلي، وبعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر عام ٤٨٧هـ حصل انشقاق خطير في صفوف الإسماعيليين، ذلك انّه تولّى الخلافة بعد المستنصر ولده أبو القاسم أحمد.

ولكن أحمد هذا لم يكن الابن الأكبر للخليفة، ولا كان هو المؤهل لولاية العهد بنظر بعض الإسماعيليين، بل كان المؤهل بنظرهم أخوه (نزار) ويرون أنّ الخليفة المستنصر عهد إلى نزار بولاية العهد فعلاً، وأخذ البيعة له خلال مرضه، إلّا أنّ وزير الخليفة (الأفضل بن بدر الجمالي) أخذ يُماطل بذلك ليحول دون نزار وولاية العهد لأمور كانت بينه وبين نزار، ولقرب أبي القاسم أحمد من الوزير الأفضل.

كما يرون أنّ المستنصر توفّي ووزيره الأفضل مسيطر على الحكم، فتمّت بذلك ولاية العهد وانتقال الخلافة لأبي القاسم أحمد الّذي لقّب بالمستعلي بالله.

وهكذا انقسم الإسماعيليون عام ٤٨٧هـ إلى فرقتين، واحدة تقول بإمامة أبي القاسم أحمد المستعلي وسمِّيت بالتالي (المستعلية) والثانية تقول بإمامة نزار وسميت بالتالي بالنزارية[١] ووقع بين الأخوين قتال.

وكان في مصر في تلك الأيّام أحد قادة الإسماعيليين هو (الحسن بن الصباح الحميري) وكان ممّن يرون أنّ المستنصر الفاطمي كان مكرهاً على تولية ولده أحمد، وانّ الأمر هو لنزار، لا لأحمد.

وفرّ (الحسن) هذا من مصر، داعياً إلى نزار، ثمّ أرسل بعض فدائييّة، فأحضروا ابناً لنزار إلى قلعة (ألَموت) قرب قزوين...

وأصبح (الحسن بن الصباح) الرجل الأوّل والموجّه الفعلي للدعوة النزارية دون أن يدّعي الإمامة، وإن كان العقل المدبّر واليد الفعالة بجميع الحوادث الّتي كانت تجري في العالم الاسلامي في ذلك العصر.

وبعد وفاة (الحسن بن الصباح) عام ٥١٨هـ وعندما تولى أمر الدعوة النزارية (الحسن الثاني بن محمّد كيابزرك) سنة ٥٥٨هـ، طرأ تحول خطير على العقيدة الإسماعيليّة النزارية، ذلك انّ الحسن الثاني المذكور دعا اتباعه إلى طرح جميع التكاليف الدينية والامتناع عن إقامة الفرائض.

وبذلك انقطعت الصلة بين هذه الفرقة وبين العقيدة الإسماعيلية الفاطمية، ولكنّها ظلّت مع ذلك تحمل اسم الإسماعيلية[٢].

وآل الأمر إلى جلال الدين حفيد الحسن الثاني، وكان قد أخذ على نفسه انّه بمجرّد وصوله إلى الحكم سيزيل الإنحراف ويعود بالحكم إلى القواعد الإسماعيلية، وهكذا كان.

---

١ ـ الإسماعيليون والمغول للسيّد حسن الأمين / ص ٨٥ ـ ٨٦.

٢ ـ المصدر السابق / ص ٨٧.

فما ولي بعد أبيه سنة ٦٠٧هـ حتّى أعلن الغاء كل ما قرره سلفاه (أبوه وجده) وعنّف الآخذين بمنهجها ومنعهم بكل صراحة من الاستمرار على ذلك المنهج، وألزمهم الأخذ بأحكام الاسلام أخذاً كاملاً[1].

وينقل حسن الأمين في كتابه عن الإسماعيليين ما كتبه المؤرِّخ الجويني في كتابه (جهان كشاي): أمر جلال الدين بأن تحرق هذه الكتابات (الكتابات الالحادية من قبل أبيه وجدّه).

بحضور القزوينيين وحسب رغبتهم، وتلفظ بلعن آبائه وأسلافه، وطعن فيهم.

ولقد رأيت كتاباً بيد أعيان وقضاة قزوين كان قد أملي من جلال الدين (حسن) تكلّم فيه عن التزامه بالاسلام وقبوله شعائر الشريعة والتبرّؤ من الإلحاد ومذهب أجداده وأسلافه.

وكتب (جلال الدين) بضع كلمات بخطّ يده في صدر الكتاب، فذكر تبرّؤه من مذهبهم، وذلك بأن أضاف اللّعنة (ملأ الله قبورهم ناراً)[2].

ولم يكتف بذلك، بل اتصل بحكّام الاقطار الاسلامية يعلنهم العودة إلى الاسلام ليوثق الصلات بهم وبجمهور المسلمين بعد الّذي شاع عن انحراف جدّه، وما أعلنه من خروج على الشريعة.

فراسل الخليفة في بغداد (الناصر لدين الله) وخوارزمشاه وغيرهما من الملوك والأمراء.

كما أرسل والدته وزوجته للحج وأمر ببناء المساجد وقرّب إليه الفقهاء والقراء[3].

أمّا صاحب كتاب العسجد فيقول:

---

١ ـ المصدر السابق / ص ١٠٣.

٢ ـ المصدر السابق / ص ١٠٣.

٣ ـ المصدر السابق / ص ١٠٣، وابن الأثير / ج ١٠ / ص ٣٥٧.

وفي هذه السنة (٦٠٨هـ) أظهر الإسماعيليّة الانتقال عن فعل المحرّمات واستحلالها وأقاموا الصلاة وشرائع الاسلام ببلادهم من خراسان والشام، وأرسل مقدّمهم جلال الدين بن حسن بن الصباح رسلاً بذلك إلى الخليفة وغيره من ملوك، يخبرهم بذلك، وأرسل والدته إلى الحج، فأكرمت ببغداد إكراماً عظيماً وكذلك في طريق مكّة[١].

ويقول صاحب شذرات الذهب:

«فيها قدم رسول جلال الدين حسن صاحب (الألموت) بدخول قومه في الاسلام، وانّهم قد تبرّأوا من الباطنية وبنوا المساجد والجوامع وصاموا رمضان ففرح الخليفة[٢].

ويؤيّد ذلك ابن كثير إذ يقول:

... وفيها أظهرت الباطنية الاسلام وأقامت الحدود على من تعاطى الحرام، وبنوا الجوامع والمساجد وكتبوا إلى اخوانهم بالشام بذلك.

وكتب زعيمهم جلال الدين إلى الخليفة يعلمه بذلك، وقدمت أمّة منهم إلى بغداد لأجل الحج، فأكرموا وعظّموا بسبب ذلك[٣].

* * *

ولسنا نريد هنا أن نؤرّخ للإسماعيليين في إيران، فليس ذلك من صميم بحثنا، ولكننا نذكرهم بقدر ما يتعلّق الأمر بهم في موضوعنا الّذي نحن بصدده.

والإسماعيليون في إيران استطاعوا ان يحكموا مدّة تقترب من قرنين من الزمان، وعرفوا بأنّهم أشدّاء لايهابون الموت، ويسكنون قلاعاً حصينة جدّاً يصعب الوصول إليها فضلاً عن السيطرة عليها.

وكانت قلاعهم تتجاوز المائة والخمسين، وأكبر قلعة لهم هي قلعة (ألَموت) بفتح

---

١ ـ العسجد المسبوك / ص ٣٣٨.

٢ ـ شذرات الذهب / ج ٥ / ص ٣٢.

٣ ـ الاسماعيليون والمغول للسيّد حسن الأمين / ج ١٣ / ص ٧٤

الهمزة واللّام، قرب قزوين.

ولقد جدنا انّ الإسماعيليين فرقة اسلامية في نشأتها، ولكن بعض الحكّام فيها انحرفوا واستطاعوا أن يحرفوا معهم قسماً من قومهم على قاعدة (إنّ الناس على دين ملوكهم) وانكروا المعاد والحساب حتّى أصبحوا ملاحده.

ولكن المؤرِّخين يقولون في هذا المقطع من تاريخ الإسماعيلية إنّ الانحراف الّذي أحدثه (حسن) قوبِلَ بنقمة من الجموع الإسماعيلية، وكان أوّل الناقين أخو زوجته.

ففي يوم الأحد السادس من ربيع الأوّل سنة (٥٦١هـ ـ ١١٦٦م) أي بعد سنتين من الانحراف قام شقيق الزّوجة بطعن المضل في قلعة (لمبسر)، وهكذا مضى من هذه الدنيا إلى نار الله الموقدة على حدّ تعبير المؤرِّخ الجويني[1].

وعلى كل حال، فانّ حالة الانحراف لم تدم أكثر من خمسين عاماً، ابتداء من عام ٥٥٨ ـ ٦٠٨هـ عندما تولّى الأمر جلال الدين، وأرجع الأمور إلى نصابها في وضعها الاسلامي السابق.

وكان جلال الدين هذا ذكيّاً، فلقد أرسل الرسل والبعوث إلى الخلافة العباسية في بغداد وإلى بقيّة الأقطار الاسلامية يُعلمهم بالوضع الجديد.

ثمّ شرع في بناء المساجد والجوامع وأرسل والدته وأقواماً كثيرين للحج ليطلع عامّة المسلمين في موسم الحج على الحالة الجديدة للإسماعيليين الّذين رجعوا إلى أصولهم الاسلامية بعد أن عبث بهم بعض الحكّام.

ولكن المؤرِّخين، وربّما لدوافع خاصّة ـ وقد كانوا يطلقون عليهم اسم الملاحدة يوم انحرفوا عن الاسلام ـ استمروا في هذه التسمية على الرغم من انّهم يصلّون ويصومون ويؤدون الحج ويقيمون الحدود.

---

١ ـ الاسماعيليون والمغول للسيّد حسن الأمين / ص ١٠٢.

قاضي القضاة يطلب من التتار الوثنيين أن يقضوا على الإسماعيليين

وإذا كان التاريخ يخبِّئ العجائب والغرائب، فان من أعجب العجائب وأغربها أن نرى شخصاً ينتمي للاسلام، بل ويتسنّم أعلى وظيفة قضائية فيه، هو الإمام قاضي القضاة شمس الدين القزويني يطلب من التتار ان يقضوا على الإسماعيليين.

في عام ٦٤٨هـ للهجرة كان (منكوقاآن) حفيد جنكيزخان هو الّذي انتهت إليه خلافة جنكيز، وكان هو الحاكم الّذي تسير بإشارته جيوش المغول في كل مكان، وكان له عدّة اخوة يقودون جيوشه ويحكمون باسمه، أحدهم (هولاكو).

على (منكوقاآن) هذا كان يتردد قاضي قضاة المسلمين شمس الدين القزويني، وكان همّ هذا القاضي ان يثير حفيظة الامبراطور المغولي على الإسماعيليين ويحرضه على اقتحام بلادهم، فلم يترك وسيلة من الوسائل إلّا استغلها لإنجاح مقصده[١].

أمّا رشيد الدين الهمداني المؤرِّخ الّذي عاصر المغول، وكان في حملة هولاكو فيقول: «في ذلك الوقت كان قاضي القضاة المرحوم شمس الدين القزويني موجوداً في بلاط الخان، وذات يوم ظهر للخان مرتدياً الزرد وأخبره انّه يلبسه تحت ثيابه خشية الملاحدة، كما سرد له طرفاً من اعتداآتهم وغاراتهم.

وكان الخان يتوسّم في أخيه هولاكو مخايل الملك ويرى في عزائمه مراسم الفتح والغزو، وكان قد تفكر فرأى أنّ بعض ممالك العالم قد دخل فعلاً في حوزة جنكيزخان وبعضها لم يستخلص»[٢].

أمّا الجوزجاني فيقول:

«انّ شمس الدين هذا كان على اتصال بالمغول، وكان إماماً وعالماً كبيراً، ذهب مرّة إلى منكوخان وطلب منه أن يضع حدّاً لشرّ الملاحدة ويخلص الناس من فسادهم»

١ ـ الغزو المغولي للسيِّد حسن الأمين / ص ٨٢.

٢ ـ جامع التواريخ لرشيد الدين الهمداني / ص ٢٣٣.

ثمّ يردف فيقول:

انّ كلمات هذا القاضي كان لها أثر عميق في نفس منكوخان إذ نسب إليه الضعف والعجز لأنّه لم يستطع أن يستأصل شأفة هذه الطائفة الّتي تدين بدين يخالف ديانات المسيحيين والمسلمين والمغول، وما إلى ذلك إلّا لأنّهم استطاعوا أن يغروا منكوخان بالمال، بينما هم يتحيّنون فرصة ضعف دولته فيخرجون من الجبال والقلاع ليقضوا على البقية الباقية من المسلمين ويعفوا آثارهم»[1].

* * *

وإذا علمنا انّ الإسماعيليين كانوا قد رجعوا إلى الاسلام عام ٦٠٨هـ فانّ قاضي القضاة، أغرى بهم بعد ان مضى على عودتهم للاسلام أكثر من أربعين عاماً، ذلك لأنّ (منكوقاآن) تسلّم الحكم عام ٦٤٨هـ.

انّ قاضي القضاة هذا يذكرنا بقول اليهود للمشركين انّ دينكم خير من دين محمّد، لكي يثيروهم على قتال رسول الله ﷺ علماً بأنّ المشركين كانوا يعبدون الأوثان.

فكيف سوّغ قاضي المسلمين لنفسه ان يثير الوثنيين على المسلمين؟

هذا إذا نظرنا للقضيّة من الناحية الدينية.

ثمّ كيف سوّغ لنفسه سياسياً أن يغريهم باحتلال جزء من المنطقة الاسلامية؟

الّتي لا شك سوف تشجع أولئك على الاستمرار في احتلال بقيّة المناطق، وهو الّذي حدث بالفعل.

فالملك (منكوقاآن) جهز جيشاً قوياً بقيادة أخيه هولاكو، ووجّهه إلى جهة إيران والعراق وكلّفه بالقضاء على الإسماعيليين الّذين كان قاضي المسلمين يسمّيهم (الملاحدة).

وحضرة القاضي هذا، لا شكّ كان قد أحسّ بالخطر المغولي يوم قاده جنكيزخان، ولكنّه لم ير في وثنية المغول إلحاداً وانّما رأى الإلحاد في عقيدة الإسماعيليين، ولم يفكر

---

١ ـ طبقات ناصري / ص ٤١٣ ـ ٤١٤.

لا هو ولا غيره في الاعتبار من الماضي في تنظيم القوى الاسلامية وجمع صفوفها لتكون سدّاً منيعاً في وجه غزو مغولي جديد.

لا نشك انّ القاضي شمس الدين كان ضيق الأفق والتفكير، فانطلق من الرّوح الطائفية المقيتة الّتي كانت تتملّكه ضدّ فرقة من فرق المسلمين تتجه اتجاهاً مذهبياً غير الّذي يذهب إليه هو.

وتدلّ تصرّفاته على انّه كان داهية دهماء يعرف كيف يصل إلى قلب محدثه وعقله وكيف يستحوذ على عواطفه وشعوره.

ثمّ انظر كيف استطاع أن يثير في نفس حفيد جنكيزخان ذكريات عدم توفق جدّه بالاستيلاء على قلاع النزاريين، حتّى أدّى الأمر إلى أن يروي لنا المؤرِّخ الموقف على هذا الشكل «فرأى منكوخان انّ بعض ممالك العالم قد دخل فعلاً في حوزة جنكيزخان وبعضها لم يستخلص بعد»[1].

ومن البدهي ان قلاع النزاريين كانت ممّا لم يستخلص بعد.

وتعقيباً على ذلك يقول صاحب جامع التواريخ «فاستقر رأي منكوخان على أن يعهد بكل طرف من المملكة إلى واحد من اخوته ليخضعها لإرادته».

وكانت بلاد النزاريين من نصيب هولاكو.

* * *

هذه قصّة من قصص بداية الغزو المغولي للبلاد الإسلامية على يد هولاكو الّذي انتهى إلى ما انتهى إليه من الوصول إلى بغداد وما جرى فيها من الفضائع والأهوال.

لقد كان بعض المسلمين محرِّضين على هذا الغزو، وكان بطل التحريض «قاضي القضاة الإمام العالم الكبير شمس الدين».

ويفجعك فيما يفجعك انّ القاضي الإمام المحرّض قد جعل من أبرز جرائم النزاريين انّهم لا يدينون بالوثنية دين المغول، فلو دانوا بها لما كان عليهم من بأس عند قاضي

١ ـ الإسماعيليون والمغول للأمين / ص ١١٨.

المسلمين وإمامهم العالم الكبير.

واستطاع هذا القاضي أن ينجح في مسعاه، فقضى المغول على دولة النزاريين ولكنّهم قضوا في الوقت نفسه على خلافة بغداد وأزالوا دولة العباسيين[١].

* * *

صحيح أنّ المغول كانوا يعدّون العدّة لغزو العالم الاسلامي، سواء حرّضهم القاضي أم لم يحرّضهم.

ولكن الصحيح أيضاً أن قاضي القضاة كان من المحرضين المتحمّسين لهذا الغزو وانّه أعطاهم المبرّر ورفع لهم الشعار وكان من أخلص الأعوان.

لقد مضى هولاكو بجيشه الجرار معلناً انّه انّما يمضي للتغلّب على النزاريين، ولمّا وصل إلى (كش) أقام مدّة شهر، ثمّ أرسل عدّة رسل إلى الملوك والسلاطين المسلمين تشتمل على هذه العبارت «بناء على أمر القاآن قد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وازعاج تلك الطائفة، فاذا أسرعتم وساهمتم في تلك الحملة بالجيوش والآلات فسوف تبق لكم ولايتكم وجيوشكم ومساكنكم وستحمد لكم مواقفكم، أمّا إذا تهاونتم في امتثال الأوامر وأهملتم فإنّا حين نفرغ بقوّة الله من أمر الملاحدة فإنّنا لانقبل عذركم ونتوجّه إليكم فيجري على ولايتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى»[٢].

ملوك وسلاطين المسلمين يشاركون هولاكو في زحفه على بلاد المسلمين

ولبّى الملوك والسلاطين والأمراء المسلمون نداء هولاكو لمعاونته في مهمّته.

ويصف رشيد الدين فضل الله الهمداني الّذي عاصر هولاكو في (جامع التواريخ)

---

١ ـ الإسماعيليون والمغول للأمين / ص ١٢٠.

٢ ـ المصدر السّابق، نقلاً عن جامع التواريخ / ص ١٢١.

التسارع إلى تلبية النداء، فيقول:

«أقبل من بلاد الروم السلطانان عزّ الدين وركن الدين ومن فارس سعد بن الأتابك مظفرالدين ومن العراق وخراسان وآذربيجان وأرّان وشروان وجورجيا الملوك والصدور والأعيان»[١] كما ساهم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل مع الحملة المغولية الّتي استهدفت غزو العراق واحتلال بغداد وقد كان على خلاف مع الخليفة على الرغم من تظاهره بالولاء له[٢].

* * *

السلاطين الأيوبيون يتعاونون مع المغول في حرب المسلمين وتسليمهم البلاد

على انّ الأمر لم يقف عند هذا الحد، فبعد احتلال هولاكو لبغداد وزحفه إلى بلاد الشام، انضم إليه من انضم من ملوك المسلمين وساروا معه لقتال اخوانهم المسلمين ومعاونته في فتح بلادهم.

نذكر منهم: الملك السعيد بن الملك العزيز بن الملك العادل أخي صلاح الدين الأيوبي الّذين سلّم لهولاكو الصبيبة[٣] وانضم إليه في زحفه[٤].

ويقول عن ذلك أبو الفداء في تاريخه «وسار الملك السعيد معهم (أي مع المغول) واعلن الفسق والفجور وسفك دماء المسلمين»[٥].

وفي معركة عين جالوت، كان مع المغول يقاتل المسلمين، ولمّا انهزم المغول أسّره

١ ـ الإسماعيليون والمغول نقلاً عن جامع التواريخ ص ١٢١.

٢ ـ العراق في التاريخ / مجموعة كتاب ص ٤٦٣.

٣ ـ الصبيبة قلعة بأعلى جبل شاهق تطل على بلدة بانياس الواقعة في سفح جبل الشيخ في سورية ويدعوها العوام قلعة النمرود.

٤ ـ الإسماعيليون والمغول للأمين / ص ١٢١.

٥ ـ تاريخ أبي الفداء / ج ٣ / ص ٢٠٤.

المسلمون ثمّ قتلوه.

وكان معهم أيضاً في هذه المعركة الملك الأشرف موسى صاحب حمص الّذي استطاع الفرار عند حصول الهزيمة فلم يؤسر، وهو من أحفاد شيركوه عم صلاح الدين الأيوبي.

وممّن حرّضوا المغـول على غزو الشام ومصر، الملك المغيث فتح الدين عمر ابن العادل بن الكامل بن العادل شقيق صلاح الدين الأيوبي، وبعد النصر الاسلامي في معركة عين جالوت قبض عليه الظاهر بيبرس.

ويقول عنه أبو الفداء في هذا المقطع انّه «أحضر الفقهاء والقضاة وأوقـفهم عـلى مكاتبات من التتر إلى المغيث أجوبة عما كـتب إليهـم في إطـماعهم في مـلك مـصر والشام»[1].

ثمّ قتله الملك الظاهر.

وقد كان الأيوبيون في الجزيرة والشام أوّل من تعاون مع هولاكو، فأرسلوا إليه يهادونه ويخطبون ودّه.

وقد أسرع الناصر الأيوبي نفسه إلى إعلان خضوعه للمغول وأرسل ابنه العزيز عام ٦٥٦هـ «بتحف وتقادم إلى هولاكو وصانعه».

أمّا الأشرف موسى الأيوبي صاحب دمشق فقد أسرع في تقديم ولائه لهولاكو، في حين بادر المنصور بن المظفر الأيوبي صاحب حماة بالفرار إلى مصر تاركاً حمـاة وأهلها يلقون مصيرهم، ثمّ فرّ الناصر من دمشق وتركها فوضى[2].

---

١ ـ تاريخ أبي الفداء / ج ٣ / ص ٢١٧.

٢ ـ يقول الدكتور فايد حماد عاشور في كتابه (العلاقات السياسية بين المماليك) والمغول ص ٣٦: كان من الطبيعي بعد سقوط بغداد بيد التتار ان يتابع المغول زحفهم إلى بلاد الشام، وكان صاحب الشام في ذلك الوقت الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمّد بن الظاهر غازي ابن صلاح الدين الأيوبي، وكان معادياً للمماليك في مصر.

والملاحَظ أنّ هؤلاء السلاطين والملوك، وكذلك القاضي شمس الدين كانوا كلّهم من طائفة واحدة من المسلمين (من السنّة)، ولذلك فانّ المؤرِّخين لم يوجهوا إليهم أنظارهم وسهامهم.

وهكذا تضيع الحقائق التاريخية:

فالمؤرِّخ يكتب للسلطان وليس للرعية، يكتب لما يلائم مذهب السلطان ورغبته وذوقه، وربّما يكتب الكتاب ويهديه للسلطان نفسه، ليرتفع مقامه عنده وترتفع درجته، ثمّ يستتبع ذلك المال والعطاء.

أمّا الّذي يتعفّف من ذلك، أو لم يجد سلطاناً في زمانه ومكانه، فانّه يكتب حسبما يلائم مذهبه الديني أو السياسي أو عنصريته القومية وهكذا.

وتلك مصيبة فادحة ابتلي بها تاريخ الاسلام، فالمؤرِّخ الّذي يريد ان يكون واقعيّاً يجد صعوبة بالغة في استخراج الحقائق من الزوايا والآكام أو من ثنايا السطور وفلتات اللِّسان.

ولكن ما عسى ما يستطيع أن يفعله هذا المؤرِّخ؟

فلقد تثقّفت أفكار الناس على ما يقوله أولئك الأولون، فاذا جاء انسان بما يخالف ما اعتاده الناس، فكأنّه جاء بالشاذ من الأخبار، ولن يجد مصدّقاً له فيما بينهم إلّا في الّذين وهبهم الله عقلاً متجرداً ورؤية فاحصة وفكراً محايداً.

ويكفي المؤرِّخ انّه قال الحقيقة سواء صدّقه الناس أو كذبوه.

* * *

ونحن نتساءل هنا، من أُولئك المؤرِّخين، ماذا كنتم ستفعلون لو أن ملكاً أو أميراً

← فلم يجد بدّاً من الاستعانة بالتتار ضدّ سلاطين المماليك في مصر، فأرسل ولده الملك العزيز إلى هولاكو وبصحبته بعض الأمراء ومعهم الهدايا والتمسوا من هولاكو مساعدة الملك الناصر ضدّ المماليك في مصر.

وهكذا فان عاشور، هذا يرى أنّه كان لابدّ من الخيانة والتحالف مع المغول على المسلمين!

كانوا من طائفة أخرى وسلموا (الصبيبة) لهولاكو؟ وانضموا إلى جيشه أو قاتلوا مع المغول في معركة عين جالوت؟

ولكن تعست الأفكار الجامدة والأحقاد الطائفية والعنصرية البغيضة، الّذين يغضون الطرف عن عملاء كبار عاونوا هولاكو على سفك دماء المسلمين.

ولقد رأينا انّ ملوك الأيوبيين كانوا يتهافتون على هولاكو مؤيّدين له ومتعاونين معه ضدّ المسلمين وخائفين منه.

فلماذا لا يسلّط الضوء عليهم ويوجّه الاتهام إليهم؟

أين الأقلام الحرّة؟

لماذا يغفلون عن هذه الأحداث المهمّة؟

في حين نجدهم لا يغفلون عن سعر رغيف الخبز عند هجوم الجراد.

لماذا لم يتعرض أحد للأيوبين؟

ولماذا لم يتعرّض أحد لما فعله أبو بكر فخر الدين عبدالله بن عبدالجليل القاضي المحدّث الّذي ذكر صاحب كتاب (الحوادث الجامعة) انّه كان يتولّى إخراج الفقهاء البغداديين ليقتلوا في مخيم هولاكو؟

وصاحب (الحوادث الجامعة) مؤرخ معاصر شهد الأحداث بنفسه فهلا انتقد المؤرّخون هذا الفقيه الكبير الّذي يداهم بيوت فقهاء بغداد ويخرجهم ويسوقهم أمامه إلى هولاكو ليقتلهم؟ وقد كان يعرفهم واحداً واحداً، لأنّه منهم ويعرف مراتبهم ودرجاتهم ويعرف بيوتهم ومجالسهم، فكان سهلاً عليه انتقاؤهم وسحبهم لتهرق دماؤهم[1].

فهل هناك من سبب نجده قاسماً مشتركاً للسكوت عن كل تلك الحوادث وغيرها غير الطائفية الّتي تنظر بعين واحدة؟

---

١ ـ الإسماعيليون والمغول / ص ١٢٣.

لقد كانت تلك نفثة انتابتني كما تنتاب الّذين يبحثون عن الحقائق المجـرّدة دونما ستار وتزوير، أوردتها هنا، في حين نجد انّ أولئك الّـذين زوّروا التـاريخ يـوحون للناس انّ الّذي حرّك التتار لاحتلال بغداد هم الإسماعيليون.

وسوف نراهم بعد حين يقولون انّ الّذي دعا هولاكو إلى بغداد هو وزير الخليفة المستعصم (ابن العلقمي)[1].

علماً بأنّنا هنا لسنا ممّن يريد الدفاع عن الإسماعيلية، فالمسلمون في ذلك الوقت، بل حكّامهم لم يكن يفلت أحد منهم من مسؤولية النكبة الّتي حلت بساحتهم.

فكلّ الملوك والسلاطين ساهموا، بل انّهم ـ وللأسف الشديد ـ كان بعضهم يحالف الوثنيين ضدّ بعضهم الآخر من المسلمين.

* * *

الشافعيّة في اصفهان
يدعون المغول ليقتلوا الأحناف فيسلّموهم اصفهان

ففي عام ٦٣٣ هـ كتب الشافعية في اصفهان إلى التتار ووعدوهم أن يفتحوا لهم أبواب اصفهان على أن يقتلوا الحنفية.

فلنستمع إلى ما يقوله ابن أبي الحديد:

... فانّهم (أي التتار) نزلوا عليها (أي على اصفهان) مراراً في سنة سبع وعشرين وستمائة، وحاربهم أهلها وقتل من الفريقين مقتلة عظيمة ولم يبلغوا منها غرضاً.

حتّى اختلف أهل اصفهان في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وهم طائفتان: حنفية وشافعية وبينهم حروب متصلة وعصبية ظاهرة.

فخرج قوم من أصحاب الشافعي إلى من يجاورهم ويتاخمهم من ممالك التـتار،

---

١ ـ سوف نصل إلى هذه النقطة إن شاء الله ونبحثها بتجرد لنرى مدى صحّتها؟

فقالوا لهم: اقصدوا البلد حتّى نسلّمه إليكم.

فنقل ذلك إلى (قاآن بن جنكيزخان) بعد وفاة أبيه، والملك يومئذٍ منوط بتدبيره، فأرسل جيوشاً من المدينة المستجدّة الّتي بنوها وسمّوها (قراحرم) فعبرت جيحون مغرّبة، وانضمّ إليها قوم ممّن أرسله (جرماغون) على هيئة المدد لهم، فنزلوا على اصفهان في سنة ثلاث وثلاثين و(ستمائة) المذكورة، وحصروها.

فاختلف سيفا الشافعية والحنفية في المدينة حتّى قتل كثير منهم، وفتحت أبواب المدينة.

فتحها الشافعية على عهد بينهم وبين التتار ان يقتلوا الحنفية ويعفوا عن الشافعية، فلمّا دخلوا البلد بدأوا بالشافعية فقتلوهم قتلاً ذريعاً، ولم يقفوا مع العهد الّذي عهدوه لهم ثمّ قتلوا الحنفية، ثمّ قتلوا سائر الناس وسبوا النِّساء وشقّوا بطون الحبالى ونهبوا الأموال وصادروا الأغنياء ثمّ أضرموا النار فأحرقوا اصبهان حتّى صارت تلولاً من الرماد[1].

❊ ❊ ❊

نعم، هكذا تفعل الأحقاد في الانسان، فالشوافع والأحناف كلّهم مسلمون وكلّهم محسوبون على السنّة، وكل إيران في ذلك الوقت كانت من الطائفة السنّيّة، ولكننا نجدهم يستنجدون على بعضهم بالوثنيين، فيأتون ويقضون على الجميع.

وكما فعل هؤلاء في اصفهان، فعل المسلمون في الأندلس ولكن الأندلسيين كانوا أحسن حظاً من غيرهم، لأنّهم استنجدوا بالنصارى وهم أهل كتاب وليسوا وثنيين.

إلّا انّ الجميع سواء الّذين في المشرق أو الّذين في المغرب لم يكونوا يستوعبون الاسلام، وانّما ينطلقون من أضغان ضيّقة جدّاً، تحركت فأكلتهم أوّلاً ثمّ أكلت غيرهم.

وتلك محنة الاسلام والمسلمين منذ يوم انحرف الحكّام وانحرف معهم المحكومون

---

١ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ج ٨ / ص ٢٣٧.

وابتعدوا قليلاً قليلاً عن الشرع حتّى أصبحوا لا يحملون من الاسلام إلّا اسمه.

❊ ❊ ❊

وإذا كنّا ننعى على قاضي القضاة شمس الدين في تحريضه المغول على غزو بلاد الإسماعيلية، وعلى ما فعله أهل اصفهان السنيين ضد بعضهم البعض، فإنّنا سوف نتطرق في المستقبل إلى ما هو أدهى وأنكى من ذلك، عندما نعلم انّ الخليفة نفسه كان يكتب للتتار أيضاً ويحثهم على غزو (الخوارزمية).

ولا نستبق الحوادث، فسوف نوردها في المستقبل القريب إن شاء الله، ونرى بعض المفاجئات الّتي يحير بها لبّ الانسان حين يجد الحكّام المسلمين يخرّبون بيوتهم بأيديهم.

ولا ننسى انّنا في بداية الحديث في الفصل الرابع قلنا انّنا سوف نبحث ثلاثة عناصر ساهمت في السقوط والانهيار وتكلمنا عن الإسماعيلين، وكيف أن قاضي القضاة كان قد أغرى المغول بهم وحرّضهم على غزوهم باعتبار انّهم ملاحدة (ودين الوثنيين خير من دين الملاحدة).

ثمّ كيف تشجع المغول في الاستمرار في احتلال بلاد المسلمين إلى أن وقفوا في الشام وانكسروا في معركة عين جالوت.

ونعتقد أنّ ما كتبناه عن الإسماعيليين يكفي غرضنا في البحث الّذي نحن بصدده لكي نتكلّم عن الخوارزم.

❊ ❊ ❊

ثانياً ـ دولة خوارزم:

بلاد واقعة على نهر آمو داريا (جيحون) الأسفل في تركستان.

وكان نهر جيحون يعد الحد الفاصل بين الأقوام الناطقة بالفارسية والأقوام الناطقة بالتركية، أي (إيران) و(طوران) فما كان في شماله أي وراءه من أقاليم سمّاه

العرب (ما وراء النهر).

وفتح المسلمون إقليم خوارزم سنة ٩٣هـ[١].

أمّا دولة خوارزم فقد قامت في عام ٤٩٠هـ، أسّسها قطب الدين محمّد في هذا العام حين اطلق على نفسه لقب خوارزمشاه ـ أي ملك خوارزم ـ وأعلن قيامها، وأصبحت تذكر منذ ذلك الوقت باسم الدولة الخوارزمية وإن كان ملوكها تظاهروا في البداية بالطاعة والولاء للسلاجقة وعدّوا أنفسهم معينين من قبلهم[٢].

وكانت الحروب بينهم وبين السلاجقة مستمرة، وآخرها كانت عام ٥٤٣هـ حيث انتصر ملك خوارزم (آتسز) واستقرّ حكم آتسز وخلفائه على خوارزم، كما رسخت قواعد الدولة الخوارزمية وأخذت تزداد قوّة بمرور الأعوام وتساهم في توجيه سير الأحداث في إيران والعراق[٣].

وتوسّعت مملكة خوارزم وقويت شوكتها واصبحت في ذلك العصر من أقوى الحكومات الاسلامية، وكانت في أمل الاستيلاء على الخلافة أو جعلها منقادة إليها.

وكان ملكها المعاصر لجنكيزخان هو محمّد علاء الدين، استقرّ في الحكم حين توفّي والده خوارزمشاه (تكش بن أرسلان) في ٢٠ رمضان سنة ٥٩٦هـ = ١٢٠٠م، وكان والده عادلاً حسن السيرة، يعرف الفقه والأصول على مذهب الحنفية.

وحكومتهم في خوارزم وبعض خراسان والري وغيرها من البلاد الجبلية[٤].

وفي سنة ٦٠٤هـ = ١٢٠٨م كاتب ملوكُ ماوراء النهر مثل ملك سمرقند وملك بخارى، خوارزمشاه، يشكون ما يلقونه من (الخطا) ويبذلون له الطاعة والخطبة والسكّة ببلادهم إن دفع (الخطا).

---

١ ـ الإسماعيليون والمغول للسيّد حسن الأمين / ص ٦٠.

٢ ـ إيران والعراق في العصر السلجوقي / ص ١٢٣.

٣ ـ المصدر السابق / ص ١٢٣.

٤ ـ العراق بين احتلالين / عباس العزاوي / ج ١ / ص ١٠١.

فعبر علاء الدين محمّد خوارزمشاه نهر جيحون واقتتل مع (الخطا) وحدثت عدّة وقائع، والحروب بينهم وبينه سجال[١].

واستقامت خراسان كلّها لخوارزمشاه وذلك سنة ٦٠٥هـ = ١٢٠٩م بانقراض دولة (الغوريه) بقتل آخر ملوكهم[٢].

* * *

خوارزمشاه يستولي على مملكة الخطا

ولمّا خلا الجو لخوارزمشاه (علاء الدين محمّد) في جهة خراسان عبر (نهر جيحون) وسار إلى (الخطا) وكان وراء الخطا المغول في حدود الصّين، وكان هناك ملك يقال له كشلي‌خان (كوچلو) وكان بينه وبين الخطا عداوة مستحكمة.

فأرسل كل من كشلي‌خان ومن (الخطا) يسأل خوارزمشاه أن يكون معه على خصمه. فأجابهما بالمغالطة، وانتظر ما يكون منهما، فتقارعا بينهما، فانهزمت الخطا، فمال عليهم خوارزمشاه وفتك فيهم. وكذلك فعل كشلي‌خان بهم.

فانقرضت (الخطا) ولم يبق منهم إلّا من اعتصم بالجبال أو استسلم وصار في عسكر خوارزمشاه.

وهذه الوقعة من الظروف الكبرى المسهّلة لجنكيزخان في فتحه وامتلاكه لهذه (المملكة الكبرى) بحيث صار مجاوراً لخوارزمشاه بعدما قضى عليها واكتسحها[٣].

«بعدما اكتسح خوارزمشاه مملكة الخطا أصبحت دولة خوارزم مجاورة لدولة المغول وأصبح من السهل القضاء عليها».

---

١ ـ العراق بين احتلالين / عباس العزاوي / ج ١ / ص ١٠٣.

٢ ـ المصدر السابق / ص ١٠٣.

٣ ـ المصدر السابق / ج ١ / ص ١٠٤.

ثمّ وجّه خوارزمشاه أنظاره إلى بغداد وحاول أن يفرض سيطرته على الخليفة

وتعاظمت الدولة الخوارزمية وشعر ملكها (محمّد) بالانتفاخ، فلقد دانت له الملوك والسلاطين، وامتدّ بصره إلى مقر الخلافة العباسية (بغداد).

يقول السبكي:

«وكان السلطان الأعظم للمسلمين ـ أيّام جنكز ـ هو السلطان علاء الدين خوارزمشاه محمّد بن تكش... اتسعت ممالكه وعظمت هيبته، وأذعنت له العباد ودخلت تحت حكمه.

وخلت الديار من ملك سواه... فتجبّر وطغى.

وأرسل إلى خليفة الوقت الناصر لدين الله الّذي لا يصطلي لمكره بنار ولا يعامل في أحواله بخداع، يقول له: كن معي كما كانت الخلفاء قبلك من سلاطين السلجوقية... فيكون أمر بغداد والعراق لي، ولا يكون لك إلّا الخطبة.

فيقال والله أعلم: انّ الخليفة جهز رسله إلى جنكيزخان يحركه عليه...»[1]

* * *

أمّا السيوطي فيقول:

وبعث (أي السلطان محمّد الخوارزمي) إلى الخليفة يطلب السلطنة وإعادة دار السلطنة إلى ما كانت وان يجيء إلى بغداد ويكون الخليفة من تحت يده كما كانت الملوك السلجوقية.

فهدم الخليفة دار السلطنة وردّ رسوله بلا جواب[2].

---

١ ـ طبقات السبكي / ج ١ / ص ١٧٦.

٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٥٤ ـ ٤٥٥.

وجاء في كتاب (جنكيزخان جهرة خون ريز تاريخ) باللّغة الفارسية، ما يلي:

... ويمكن القول: انّ السلطان محمّد خوارزمشاه تمكّن من كسب شهرة عالمية أثر الانتصارات العسكرية الّتي حققها هنا وهناك، والّتي زادت من سلطته الجغرافية، خاصّة بعد انتصاره على (الخطا)، بحيث أصبح الناس يلقبّونه بلقب (ظلّ الله والاسكندر الثاني).

في تلك الظروف الّتي كان يشعر بها السلطان بنشوة الانتصار، تدهورت علاقاته مع الخليفة إلى درجة كبيرة.

فالسلطان محمّد كبقية سلاطين آل بويه والسلجوقية كان يتمنى ان تُقرأ الخطبة باسمه. ولتحقيق هذه الأمنية، أرسل القاضي مجير الدين عمر بن سعد إلى بغداد كمبعوث رسمي من قبله.

إلّا ان حكومة بغداد رفضت اقتراحه وبعثت الشيخ شهاب الدين السهروردي يحمل رسالة إلى السلطان خوارزمشاه، ولكنّ السلطان رفضه أيضاً.

وينقل انّه حينما دخل الشيخ شهاب الدين (مبعوث الخليفة) بلاط السلطان محمّد خوارزمشاه، لم يأذن له السلطان حتّى بالجلوس.

فطلب الشيخ من السلطان ان يأذن له برواية حديث عن الرسول ﷺ، فسمح له السلطان وجلس على ركبتيه لاستماع الحديث ـ كما كانت العادة آنذاك ـ.

فقرأ عليه حديثاً، كان مضمونه انّ النبيّ ﷺ حذّر المؤمنين من إيذاء بني العباس وبعد استماع الحديث، قال السلطان للشيخ:

إنّي وان كنت تركياً، لا أعرف اللّغة العربية بصورة جيّدة، لكني فهمت الحديث الّذي نقلته، فأنا لم أؤذِ أحداً من بني العباس، ولا حاولت إيذاءهم. وقد وصلتني أخبار تقول انّه يوجد في سجون أمير المؤمنين دائماً بعض من أبناء العباس، بحيث انّهم يتناسلون في السجون.

ويا ليت الشيخ يقوم بقراءة هذا الحديث على أمير المؤمنين فانّه يفيده وينفعه أكثر ممّا ينفعني. وعلى كل حال، لم تحقق رسالة الشيخ شهاب الدين أيّة نتيجة، فيا ازداد بعدها العداء والحقد بين السلطان والخليفة.

فكما كان السلطان محمّد طموحاً ومغامراً، كان الخليفة الناصر لدين الله يبحث دائماً عن سبيل لإبادته والقضاء عليه[1].

أمّا ابن كثير فيقول بهذا الصدد:

فقال الملك: أمّا ما ذكرت من فضل الخليفة، فانّه ليس كذلك ولكني إذا قدمت بغداد، أقمت من يكون بهذه الصفه[2].

* * *

فخلفاء بني العباس كانوا ضعافاً يطمع فيهم السلاطين والملوك، ولا شك انّ سلطة خورازم شاه (محمّد) كانت أقوى من سلطة آل بويه والسلاجقة الّذين كانوا قد سيطروا على الخلفاء وسحبوا منهم كل سلطاتهم حتّى غدوا يقتلون مَن يشاؤون ويسملون عيونهم ويعزلون وينصبون.

والمطلب الّذي طلبه خوارزمشاه من الخليفة الناصر لدين الله، جاء منسجماً مع الحالة السابقة الّتي عاشها الخلفاء مع السلاطين، ولكن خوارزمشاه لم يحسن التقدير والتدبير والسياسة، فالسابقون كانوا يستولون على مقادير الأمور أوّلاً ثمّ يضيّقون على الخليفة، أمّا هذا فقد كان مستعجلاً في خطواته، فأراد ان يحقق ذلك بالمراسلة.

اشتداد الخلاف بين الخليفة الناصر وخوارزمشاه وبدأ يتربّص أحدهما بالآخر

فقد نشأت بين الخليفة والسلطان وحشة، وبدأت تتسع وتتعمّق على مرور الأيّام.

---

١ ـ جنكيزخان جهره خون ريز تاريخ / لمؤلفه محمّد أحمد پناهي سمناني / ص ٢٢ ـ ٢٣.

٢ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١٣ / ص ٩١.

أمّا السلطان خوارزمشاه:

فقد كان يبحث عن ذريعة قويّة لقطع علاقاته الرسمية مع الخليفة بشكل تام. وفي النهاية عثر على الذريعة الّتي يريدها، حيث ادّعى انّه عثر خلال احتلاله مدينة (غزنه) عام ٦١٢هـ على وثائق تشير إلى انّ الخليفة كان يحرّك الغوريين ويحرّضهم ضدّه دائماً.

بعد ذلك استحصل على فتوى من أئمّة المسلمين حسبما جاء في كتاب تاريخ الفتوحات «كل إمام يبادر بالقيام بمثل الحركات المذكورة تسقط عنه الإمامة، ويحق للسلطان الّذي يدافع عن الاسلام ان يجاهد في هذا المجال ويعزله وينصب إماماً آخر بدلاً عنه».

وبالفعل فقد نادى السلطان بخلع الخليفة العباسي ومنع ذكر اسمه في الخطب ومحى اسمه من على النقود وبادر بتعيين (علاء الملك الترمذي) خليفة للمسلمين بدلاً عنه[1].

وهنا يعلّق ابن الأثير على قطع الخطبة، فيقول:

(فبقيت كذلك «أي الخطبة مقطوعة» إلى أن كان منه ما كان، وهذه من جملة سعادات هذا البيت الشريف العباسي، لم يقصده أحد بأذى إلّا لقيه فعله وخبث نيّته، لا جرم لم يمهل هذا خوارزمشاه حتّى جرى له ما نذكره ممّا لم يسمع بمثله قديماً وحديثاً)[2].

وليت ابن الأثير عاش فأدرك عصر هولاكو حفيد جنكيزخان حين تعرّض (للبيت الشريف العباسي) لا بقطع الخطبة فحسب بل بالاذلال والقتل والقضاء على الخلافة فلم يلقه فعله وخبث نيته، وانّ البيت العباسي وغير البيت العباسي لا يحميهم الله حين لا يحمون شعوبهم ولا يعزّهم الله حين يذلّون أمّتهم.

---

١ ـ جنكيزخان جهرة خون ريز تاريخ / ص ٢٥.

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ١٠ / ص ٣٧٢.

على انّ ابن الأثير نفسه لا يلبث حتّى يتحدّث بعد ذلك عن نهاية خوارزمشاه ويرثيه بمثل هذا القول (وكان فاضلاً عالماً بالفقه والأصول وغيرهما وكان مكرماً للعلماء مُحبّاً لهم مُحسِناً إليهم، يكثر مجالستهم ومناظرتهم بين يديه، وكان صبوراً على التعب وإدمان السّير، غير متنعم ولا مقبل على اللّذّات، وانّما همّه في الملك وتدبيره وحفظه وحفظ رعاياه، وكان مُعظِّماً لأهل الدِّين مُقبلاً عليهم متبرِّكاً بهم)[1].

* * *

وأمّا الخليفة

فكان همه القضاء على الدولة الخوارزمية، واتبع في سبيل ذلك اسلوبين:

الأسلوب الأوّل: فهو انّه استنجد بالاسماعيليين ليعيروه بعض فدائييهم لقتل أعدائه من الخوارزمية.

يقول محمّد بناهي:

انّ الخليفة اقترب من مقدم الإسماعيلية (جلال الدين حسن) واستطاع ان يأخذ منه عدداً من الفدائيين، واستخدمهم للقضاء على أعدائه من الخورازميين[2] وبالفعل فقد قضى على بعضهم.

وأمّا الأسلوب الثاني: فانّ الخليفة الناصر لدين الله، كتب للتتار يحرِّضهم على غزو بلاد المسلمين، ونحن لا نستبعد أن يكون مقصود الخليفة من بلاد المسلمين هو بلاد خوارزم خاصه.

فلنستمع لما يقوله المؤرِّخون بهذا الصّدد:

أمّا ابن خلدون فيقول:

«ويقال انّه الّذي أطمع التتر في ملك العراق لما كانت بينه وبين خوارزمشاه من

---

١ ـ المصدر السابق / ص ٤٠٧.

٢ ـ جنكيزخان جهره خون ريز تاريخ / ص ٢٤.

الفتنة[١].

وأمّا ابن الأثير فيذكر القضيّة في موضعين، عام ٦١٧هـ وعام ٦٢٢هـ.

ففي عام ٦١٧هـ يقول:

وقيل في سبب خروجهم (التتار) إلى بلاد الاسلام غير ذلك ممّا لا يذكر في بطون الدفاتر.

فكان ما كان ممّا لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر[٢]

فكأنّه يخشى أو يهاب مقام الخليفة، فلا يصرِّح باسمه، ولا يوجِّه إليه التهمه...

وفي عام ٦٢٢هـ يقول:

وإن كان ما ينسبه العجم إليه (الناصر) صحيحاً من انّه هو الّذي أطمع التتر في البلاد وراسلهم في ذلك، فهو الطامة الكبرى الّتي يصغر عندها كل ذنب[٣].

أمّا عباس العزاوي فيقول:

لقد كانت مملكة (الخطا) تفصل بين دولة خوارزم وبين التتار، ولكن التتار استولوا على (الخطا) فأصبحوا متجاورين، بل أصبح التتر مجاورين لبلاد المسلمين.

وكان خوارزمشاه (السلطان محمّد) وجنكيزخان كل منهما يحذر من الثاني ويتمنّى لو يستطيع التغلّب عليه، ولكنهما مع ذلك كانت بينهما علاقات صداقة ووفاق، فصار عدوّ أحدهما عدوّ الآخر وصديقه صديقه، فتعاهدوا على ان لا يضر الواحد الآخر.

وعلى هذا ذهب سفراء جنكيزخان إليه (إلى السلطان محمّد) وعزم ان لا يتجاوز على السلطان ما لم يتعدّ عليه[٤].

---

١ ـ تاريخ ابن خلدون / ج ٣ / ص ٥٣٥.

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ١٠ / ص ٤٠٢.

٣ ـ المصدر السابق / ج ١٠ / ص ٤٥٣، والعسجد المسبوك / ص ٤٠٨، والبداية والنهاية لابن كثير / ج ١٣ / ص ١٢٥.

٤ ـ لقد كانت بين سلطان خوارزم محمّد وبين سلطان التتر جنكيزخان معاهدة صداقة وعدم اعتداء

وفي هذه الأثناء جاءه سفير الخليفة الناصر، فلم يلتفت إليه، أو بالتعبير الأصح أظهر طرد سفير الخليفة ولم يقبله حبّاً في المصافاة... وفي هذا من التكتم ما فيه... حتّى دعا ذلك ان يقال انّه لم يفكر في الاخلال في المعاهدة كما في (شجرة الترك)[1].

ويضيف عباس العزاوي:

ومهما كانت الروايات، فانّ الّذي دعا لهذه النفرة والاشتباه من هؤلاء القوم (جنكيزخان وقومه) وصول سفير الخليفة الناصر لدين الله العباسي يغريه على القيام ومناصرة الخليفة له ويُروى انّه لم يقبله أو تظاهر بذلك... وقد شاعت هذه القضيّة حتّى ان ابن الأثير لم يستطع كتمانها وهو يدوّن التاريخ لذلك الحين وانّما قصّ قضيّة قتل التجار ونهب أموالهم، وأن ذلك هو السبب وقال «وقيل في سبب خروجهم إلى بلاد الاسلام غير ذلك ممّا لا يذكر في بطون الدفاتر:

فكان ما كان ممّا لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

فنراه يخشى من تدوينه في بطن الدفاتر، كما انّ في قوله (فكان ما كان ممّا لست أذكره) تأييداً لصحّة هذه الشائعة وترجيحاً لصدقها وان لم يبيّنها، والكناية أبلغ من التصريح في مثل هذا المقام، ومنها يتبيّن انّ مهمّة رسول الخليفة هي حث جنكيزخان على الخروج على خوارزمشاه[2].

وجاء في طبقات ابن السبكي ما يوضح ذلك، قال:

«وكان السلطان الأعظم للمسلمين ـ أيّام جنكز ـ هو السلطان علاء الدين

← ولكن كل واحد منهما كان يطمح ببلاد الآخر وينتظر أن يكون الإخلال بالمعاهدة ليس من جانبه. وذهب سفراء جنكيزخان إلى السلطان محمّد لتأكيد الاتفاقية وقد أظهر فيها جنكيزخان انّه لن يتعدى على السلطان ما لم يتعدّ هو. وفي هذه الأثناء جاء إلى جنكيزخان سفير الخليفة الناصر يستحثّه على حرب السلطان محمّد، فاظهر طرد سفير الخليفة ولم يقبله حبّاً في المصافاة، وإن كان يكتم أمراً آخر.

١ ـ تاريخ العراق بين احتلالين لعباس العزاوي / ج ١ / ص ٩٥.

٢ ـ المصدر السابق / ج ١ / ص ٩٦.

خوارزمشاه محمّد بن تكش... اتسعت ممالكه وعظمت هيبته وأذعنت له العباد ودخلت تحت حكمه، وخلت الديار من ملك سواه... فتجبّر وطغى وأرسل إلى خليفة الوقت الناصر لدين الله الّذي لا يصطلي لمكره بناره ولا يعامل في أحواله بخداع، يقول له: كن معي كما كانت الخلفاء قبلك مع سلاطين السلجوقية... فيكون أمر بغداد والعراق لي، ولا يكون لك إلّا الخطبة، فيقال ـ والله أعلم ـ انّ الخليفة جهّز رسله إلى جنكيزخان يحرِّكه عليه...»[١].

أمّا الدكتور فاروق عمر فوزي، فيقول:

«أمّا الناصر لدين الله فقد أثار ملوك الأطراف ضدّ خوارزمشاه، بل انّ (جلال الدين منكوبرتي) يتّهمهم بمكاتبته المغول واثارتهم ضدّ أبيه، ولا بدّ من الاشارة إلى انّ المؤرِّخ المعاصر ابن الأثير يتحرج حين يذكر سبب دخول المغول إلى دار الاسلام، فيقول مموّهاً، وقيل في سبب خروجهم إلى بلاد الاسلام غير ذلك ممّا لا يذكر في بطون الدفاتر، ثمّ يقتبس البيت التالي:

فكان ما كان ممّا لست أذكره ... فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر[٢]

ويضيف كذلك «... بل انّ بعضهم ـ أي بعض أمراء المسلمين وملوكهم ـ تهادن مع الصليبيين وتعاون مع المغول ودخل في حمايتهم وشارك إلى جانبهم في (عين جالوت)، ولكنّهم لقوا عاقبة خيانتهم... وهنا يصدق قول ابن الأثير «نسأل الله أن ييسّر للاسلام والمسلمين نصراً من عنده فانّ الناصر والمعين والذاب عن الاسلام معدوم» وهو في استعماله كلمة (الناصر) ربّما كان يعرّض بالخليفة الناصر[٣].

وجاء في كتاب (العراق في التاريخ):

وقد ذكر المقريزي عندما ذكر خروج التتر فاعتبر الخليفة الناصر هو السبب في

١ ـ طبقات السبكي / ج ١ / ص ١٧٦.

٢ ـ تاريخ العراق في عصر الخلافة العربية الاسلامية للدكتور فاروق عمر فوزي / ص ٣٦٠.

٣ ـ المصدر السابق / ص ٣٦٣.

خروجهم ولضرب الدولة الخوارزمية[١].

أمّا محمّد بناهي فيقول:

إنّ الناصر لدين الله حاول ان يقوّي علاقته مع أعداء السلطان خوارزمشاه ليحفظ كيانه ودولته واستقراره في الخلافة، فأرسل وفداً بصورة سرّية إلى جنكيزخان يشوّقه بالاستيلاء على المناطق الّتي تحت نفوذ خوارزمشاه[٢].

* * *

نعم، إنّ أمير المؤمنين خليفة رسول الله الناصر، هو الّذي يكتب للوثنيين ويحرضهم على غزو بلاد المسلمين (الخوارزم).

فقد كان الخليفة حاقداً على السلطان منذ يوم أراد منه السلطان ان يكون معه كما كان آباؤه مع آل بويه وآل سلجوق.

ولكن الحقد أنساه انّه خليفة المسلمين، ينبغي عليه ان يحافظ على بيضة الاسلام في كل مكان، فلا يفرّط في شبر من بلادهم.

ونراه الآن فقد دينه وعقله ومسؤوليته وحسن تدبيره، فغدا انساناً يتصرّف كالعيّارين الّذين كان ينتسب إليهم ويلبس سراويلهم اعتزازاً بهم وتكريماً لشأنهم، في حين إنّ بعض المؤرّخين يرفعونه إلى مصاف الأنبياء إلّا قليلاً.

يرفعونه إلى درجة عالية من التقدير والتقديس حتّى قيل انّه يُكاشف أو أن جنيّاً يأتيه بالأخبار[٣].

يقول عنه السيوطي:

«دانت السلاطين للناصر ودخل في طاعته من كان من المخالفين، وذلّت له العتاة

---

١ ـ العراق في التاريخ، لمجموعة مؤلفين / ص ٤٦٣.

٢ ـ جنكيزخان جهرة خون ريز تاريخ / محمّد بناهي / ص ١٩.

٣ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١٣ / ص ١٢٥.

والطّغاة وانقهرت بسيفه الجبابرة، واندحض أعداؤه وكثر أنصاره وفتح البلاد العديدة وملك من الممالك ما لم يملكه أحد ممّن تقدمه من الخلفاء والملوك. وخطب له ببلاد الأندلس وبلاد الصين، وكان أشدّ بني العباس، تنصدع لهيبته الجبال وكان حسن الخلُقُ لطيف الخلق كامل الظرف فصيح اللسان بليغ البيان، له التوقيعات المسدّدة والكلمات المؤيدة، وكانت أيّامه غرّة في وجه الدهر ودرّة في تاج الفخر وكان شهماً شجاعاً ذا فكرة صائبة وعقل رصين ومكر ودهاء»[١].

* * *

ولن تثير القارئ الكريم هذه العبارات والأوصاف، فوعاظ السلاطين ومؤرِّخو السلاطين موجودون دائماً، والأحقاد والعنصريات القومية والطائفية، كلّها تلعب أدواراً في تزييف الحقائق.

كيف جاز لأمير المؤمنين، حامي حمى المسلمين أن يستنجد بالوثنيين على المسلمين؟ وإذا كان قاضي قضاة المسلمين شمس الدين القزويني الّذي حرّض التتار على غزو الإسماعيليين بحجّة كاذبة، هي انّهم ملاحدة، فما حجّة خليفة رسول الله الناصر لدين الله في هذا؟

ثمّ أين نبله وشهامته وصرامته وحكمته المتعالية...؟

فهل كان حكيماً صائباً في عمله؟

ولنستمع لما يعدِّد له صاحب الشذرات من صفات:

«... أحيا هيبة الخلافة وكانت قد ماتت بموت المعتصم ثمّ ماتت بموته، وكان الملوك والأكابر بمصر والشام إذا جرى ذكره في خلواتهم خفضوا أصواتهم هيبة وإجلالاً»[٢].

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٥٠ ـ ٤٥١.

٢ ـ شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي / ج ٥ / ص ٩٨.

فكيف أحيا الناصر هيبة الخلافة الّتي كانت قد ماتت، في حين نجد انّ الناصر نفسه يعمل على فناء المسلمين؟[1]

ولكن ما الحيلة؟ فالأمور بدأت تنحدر إلى الهاوية منذ عدّة قرون، والأساس الّذي بني عليه ملك بني العباس كان أساساً واهياً، ومهما أرادوا أن يكسبوا حكمهم الشرعية لم يستطيعوا.

وإذا كانوا قد فقدوا الشرعية، فانّهم فقدوا معها السياسة والتعقل وحسن التدبير، ثمّ انشغلوا بالملاهي وانصرفوا لإشباع البطون والفروج ووقعوا في مزالق ومتاهات.

وكانوا كلّما مرّت بهم الأيّام والسّنون يزدادون انحداراً وسقوطاً. فلا نستغرب عندما ينقل لنا التاريخ ان خليفة المسلمين الإمام الناصر لدين الله يطلب من الوثنيين أن يغزوا بلاد خوارزم، وهي بلاد سكانها من المسلمين، مع انّ الخليفة ـ ولو نظرياً ـ إمامهم وإمام جميع المسلمين.

ونحن عندما نذكر ذلك، فلا ندافع عن ملك خوارزم، فالملوك سواسية في الفساد والطغيان إلّا ما رحم ربّي.

❊ ❊ ❊

جلال الدين ملك خوارزم يموت له غلام كان مغرماً بحبه، فيفقد عقله واتزانه

إنّ جلال الدين الّذي تسنّم الملوكية في خوارزم بعد أبيه (محمّد) ينقل جلّ المؤرّخين عنه خبراً، يتعفف عنه أراذل الناس، ولكن الملك أو ملك الملوك يقترفه ويقتل من يعارضه فيه.

فلنستمع إلى هذه القصّة:

يقول ابن كثير:

---

١ ـ لزيادة الاطلاع على صفات الناصر نحيل القارئ لمراجعة ص ١٤٣ وما بعدها من هذا الكتاب.

«وكان جلال الدين قد ظهرت منه أفعال تدل على قلّة عقله، وذلك انّه توفي له غلام خصي يقال له (قلج) وكان يحبه، فوجد عليه وجداً عظيماً، بحيث انّه أمر الأمراء أن يمشوا بجنازته، فمشوا فراسخ، وأمر أهل البلد ان يخرجوا بحزن وتعداد عليه.

فتوانى بعضهم في ذلك، فهمّ بقتلهم حتّى تشفّع فيهم بعض الأمراء.

ثمّ لم يسمح بدفن (قلج) فكان يحمل معه بمحفّة، وكلّما أحضر بين يديه طعام يقول: احملوا هذا إلى (قلج).

فقال له بعضهم: أيُّها الملك! إنّ (قلج) قد مات، فأمر بقتله، فقتل فكانوا بعد ذلك يقولون: هو الآن اصلح ممّا كان ـ يعني انّه بمريض وليس بميّت ـ فيجد الملك بذلك راحة من قلّة عقله ودينه، قبّحه الله.

فلمّا جاءت التتار، اشتغل بهم، وأمر بدفن (قلج) وهرب من بين أيديهم وامتلأ قلبه خوفاً منهم[1].

أمّا ابن الأثير فيقول:

... واتفق انّ الخادم مات فأظهر من الهلع والجزع عليه ما لم يسمع بمثله، ولا لمجنون ليلى، وأمر الجند والأمراء ان يمشوا في جنازته رجّالة.

وكان موته بموضع بينه وبين تبريز عدّة فراسخ، فمشى الناس رجّالة ومشى هو بعض الطريق، فألزمه أمراؤه ووزيره بالركوب.

فلمّا وصل إلى تبريز أرسل إلى أهل البلد فأمرهم بالخروج عن البلد لتلقي تابوت الخادم، ففعلوا فأنكر عليهم حيث لم يبعدوا ولم يظهروا من الحزن والبكاء أكثر ممّا فعلوا، وأراد معاقبتهم على ذلك، فشفع فيهم أمراؤه، فتركهم، ثمّ لم يدفن ذلك الخصي، وانّما كان يستصحبه معه أين ساروا وهو يلطم ويبكي، فامتنع من الأكل

---

١ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١٣ / ص ١٥

والشراب، وكان إذا قدم له طعام يقول احملوا من هذا إلى (قلج) ولا يتجاسر أحد يقول انّه مات.

فانّه قيل له مرّة: انّه مات فقتل القائل له ذلك، انّما كانوا يحملون إليه الطّعام ويعودون، ويقولون انّه يقبل الأرض ويقول: انّني أصلح ممّا كنت.

فلحق أمراءه من الغيظ والأنفة من هذه الحالة ما حملهم على مفارقة طاعته والانحياز عنه مع وزيره، فبقي حيران لا يدري ما يصنع، لا سيما لما خرج التتار.

فحينئذٍ دفن الغلام الخصي، وراسل الوزير واستماله وخدعه إلى ان حضر عنده. فلمّا وصل إليه بقي أيّاماً وقتله جلال الدين، وهذه نادرة غريبة لم يسمع بمثلها(*)[1].

❊ ❊ ❊

الصّدام بين الخوارزمية وبين الخليفة الناصر

ولم يكن من الممكن ان تبقى الحالة متوترة على وضعها بين الخليفة الناصر وبين السلطان محمّد خوارزمشاه، فكل منهما كان يتربّص الدوائر بالآخر.

ولعلّ السلطان وجد الفرصة مناسبة في غزو الخليفة في عقر داره في (العراق) بعد

❊ ـ نعم، سمع المسلمون بمثل هذا بل بما هو أدهى وأمر.

فجلال الدين كان سلطاناً ولكن (يزيد بن عبدالملك الأموي) كان خليفة للمسلمين. كانت له جارية تسمّى (حبّابه) وقد غلبت عليه، فعذله مسلمة بن عبدالملك (أخوه) لمّا عمّ الناس من الظّلم والجور باحتجابه وإقباله على الشّراب واللّهو.

واعتلّت (حبابه) وأقام يزيد أيّاماً لا يظهر للناس. ثمّ ماتت فأقام أيّاماً لا يدفنها جزعا عليها حتّى جيفت.

فقيل انّ الناس يتحدّثون بجزعك، وانّ الخلافة تجلّ عن ذلك. فدفنها وأقام على قبرها. فقال:

فان تسلوَ عنك النفس أو تدع الهوى   فباليأس تسلو النفس لا بالتجلد

ثمّ أقام بعدها أيّاماً قلائل ومات (مروج الذهب، ج ٣، ص ١٩٦ ـ ١٩٧).

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ١٠ ص ٤٩١. والعسجد المسبوك ص ٤٤٢.

الّذي ادّعاه أنّه عثر على رسائل كان قد بعثها الخليفة الناصر إلى الغوريين عند احتلاله (أي احتلال السلطان لغزنه)، كان يحرّضهم فيها ضدّ الخوارزمية.

ولذلك فانّه عزم على المسير إلى بغداد للاستيلاء عليها سنة ٦١٤هـ = ١٢١٨م، وقدّم بعض العساكر بين يديه.

وسار خوارزمشاه في أثرهم عن همدان يومين أو ثلاثة، فسقط عليهم من الثلج ما لم يسمع بمثله، فهلكت دوابهم، وخاف من حركة التتر على بلاده، فولّى ولاة على البلاد الّتي استولى عليها، وعاد إلى خراسان وقطع خطبة الخليفة الإمام الناصر من بلاد خراسان سنة ٦١٥هـ = ١٢١٩م، وكذلك قطعت خطبة الخليفة من بلاد ما وراء النهر[١].

ويضيف ابن الأثير إلى ذلك عندما يتكلّم عن عسكر خوارزمشاه المتوجّه إلى بغداد: انّ الثلج قد غطّاهم ومات كثير منهم، وطمع فيمن بقي منهم بنو هكار الأكراد فتخطفوهم، فلم يرجع منهم إلى خوارزمشاه إلّا اليسير[٢].

أمّا السيوطي فيقول: فوقع عليهم ثلج عظيم عشرين يوماً فغطّاهم في غير أوانه[٣] ويرجع خوارزمشاه إلى الوراء، ليشتبك مع التتار في معارك رهيبة عام ٦١٧هـ، سوف نتطرّق لها في حينها إن شاء الله، كان نتيجتها هروب خوارزمشاه وموته في جزيرة (آب سكون) في بحر الخزر واستيلاء التتر على بلاد المسلمين في خوارزم وغيرها.

ثمّ تأتي نوبة جلال الدين بن محمّد خوارزمشاه لقتال التتار، ولكنّه يهرب أيضاً كما هرب أبوه من قبل.

هرب إلى الهند، ثمّ عاد عام ٦٢٢هـ، ولكنّه لم يحارب التتر وانّما توجّه للمسلمين

---

١ ـ العراق بين احتلالين / عباس العزاوي / ج ١ / ص ١٠٥.

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ١٠ / ص ٣٧٢.

٣ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٤٩.

أنفسهم، واتّجه إلى ما كان بأيدي الخليفة العباسي، فحاصر (تستر) فلم يقدر عليها.

ثمّ انتشر جنده حتّى بلغوا أطراف بغداد وأطراف البصرة وتقدّم إلى (دقوقا) فافتتحها عنوة، فاذا به يُنسي المسلمين ما فعل المغول بهم، فيعمل في أهل (دقوقا) المسلمين وفي مدينتهم أشنع من أفعال المغول من قتل ونهب وتخريب[1].

ويقول ابن الأثير:

في أوّل هذه السنة (٦٢٢هـ) وصل جلال الدين بن خوارزمشاه محمّد بن تكش إلى بلاد خوزستان والعراق، وكان مجيئه من الهند لأنّه وصل إليها لما قصد التتر (غزنه) وقد ذكرنا ذلك، فلمّا تعذّر عليه المقام ببلاد الهند، سار عنها إلى كرمان ووصل إلى اصفهان وهي بيد أخيه (غياث الدين) وقد تقدمت أخباره، فملكها وسار عنها إلى بلاد فارس، وكان أخوه قد استولى على بعضها كما ذكرنا، فأعاد ما كان أخوه أخذه منها إلى أتابك (سعد) صاحبها وصالحه، وسار من عنده إلى خوزستان، فحصر مدينة (تستر) في المحرّم، وبها الأمير مظفر الدين المعروف بوجه السبع مملوك الخليفة الناصر لدين الله حافظاً لها وأميراً عليها.

فحصره جلال الدين وضيّق عليه، فحفظها وجه السبع وبالغ في الحفظ والاحتياط، وتفرّق الخوارزمية ينهبون حتّى وصلوا إلى (بادرايا وباكسايا) وغيرهما، وانحدر بعضهم إلى ناحية البصرة، فنهبوا هنالك.

فسار إليهم شحنة البصرة وهو الأمير (ملتكين) فأوقع بهم وقتل منهم جماعة. فدام الحصار نحو شهرين، ثمّ رحل عنها بغتة.

وكانت عساكر الخليفة مع مملوكه جمال الدين قشتمر بالقرب منه، فلمّا رحل جلال الدين لم يقدر العسكر على منعه، فسار إلى ان وصل إلى (بعقوبا) وهي قرية مشهورة بطريق خراسان، بينها وبين بغداد نحو سبعة فراسخ.

فلمّا وصل الخبر إلى بغداد تجهزوا للحصار وأسلحوا السلاح من الجروخ والفي

---

١ ـ الغزو المغولي للأمين / ص ٧٠.

والنشّاب والنفط وغير ذلك. وعاد عسكر الخليفة إلى بغداد.

وأمّا عسكر جلال الدين، فنهب البلاد وأهلها، وكان قد وصل هو وعسكره إلى خوزستان في ضرٍ شديد وجهد جهيد وقلّة من الدواب، والّذي معهم فهو من الضعف إلى حد لا ينتفع به، فغنموا من البلاد جميعها واستغنوا واكثروا من أخذ الخيل والبغال، فانّهم كانوا في غاية الحاجة إليها.

وسار من (بعقوبا) إلى (دقوقا) فحصرها، فصعد أهلها إلى السور وقاتلوه، وسبّوه واكثروا من التكبير، فعظم ذلك عنده وشقّ عليه وجدّ في قتالهم، ففتحها عنوة وقهراً ونهبتها العساكر وقتلوا كثيراً من أهلها، فهرب من سلم منهم من القتل وتفرقوا في البلاد...[1].

❊ ❊ ❊

وجلال الدين الخوارزمي هذا هو نفسه صاحب الغلام الخصي الّذي أبى ان يدفنه بعد موته، بل كان يقتل من يقول انّه مات.

نعم، ان جلال الدين وهو ينوي الهجوم على بغداد عام ٦٢٢هـ، كتب إلى الملك المعظم بن العادل يستدعيه لقتال الخليفة ويحرضه على ذلك، فامتنع المعظم من ذلك، ولمّا علم الخليفة بقصد جلال الدين بن خوارزمشاه بغداد انزعج لذلك وحصن بغداد واستخدم الجيوش والأجناد، أنفق في الناس ألف ألف ينار، وكان جلال الدين قد بعث جيشاً إلى الكرج فكتبوا إليه: أن أدركنا قبل أن نهلك عن آخرنا، وبغداد ما تفوت، فسار إليهم وكان من أمره ما ذكرنا[2].

الملوك والخلفاء والامراء يخربون بيوتهم بأيديهم

فالملوك والأمراء والخلفاء والقضاة كلّهم كانوا يخربون بيوتهم بأيديهم، وما وجدنا

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ١٠ / ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤.

٢ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١٣ / ص ١٢٤.

فيهم رجلاً رشيداً، فكل واحد منهم تحكمه الأنانية والطائفية والحقد والحسد والطمع وقلّة التدبير.

والقاسم المشترك بينهم هو أنهم كانوا بعيدين عن الاسلام والتدين.

فلقد وجدنا في ثنايا الأوراق السابقة:

١ ـ انّ السلطان محمّد خوارزمشاه يطلب من الخليفة الناصر ان يدعى له على المنابر وتضرب النثور باسمه.

٢ ـ فيمتنع الخليفة، فيأمر السلطان بقطع الخطبة للخليفة.

٣ ـ ثمّ يجد السلطان من يفتي له بعزل الخليفة الناصر، فيعين السلطان خليفة غيره.

٤ ـ ثمّ السلطان جلال الدين الخوارزمي يكتب للملك المعظم يطلب منه المعاونة على حرب الخليفة الناصر.

٥ ـ والخليفة يستنجد بالإسماعيلية ليعيروه بعض الفدائيين في قتل عدد من ولاة الخوارزمية.

٦ ـ والخليفة يحرّض الغوريين ضدّ خوارزمشاه.

٧ ـ والخليفة أيضاً يكتب للتتار (الوثنيين) يحرضهم على غزو بلاد خوارزم المسلمين.

٨ ـ والإسماعيليون يكتبون للتتار بغزو خوارزم كالّذي فعله الخليفة.

٩ ـ وقاضي القضاة الإمام شمس الدين، يحرض التتار على غزو الإسماعيليين.

١٠ ـ والشافعية يطلبون من التتار ان يقتلوا الحنفية ويسلموهم أصفهان مقابل ذلك وكلهم من السنّة.

١١ ـ والمعركة في بلاد المسلمين يديرها خليفة عيار، مهتم بطيوره وسلطان لواط في حين انّ الغازي وثني لا يعترف بالجميع.

وهكذا... والأمور مفجعة، والمسلمون كلّهم خاسرون، وسوف نجد انّ الرابح هم التتار الوثنيون.

والقتل والنهب وهتك الأعراض وتخريب البيوت والأملاك، كل ذلك من نصيب المسلمين.

وليت المسلمين اتخذوا من ذلك عبرة، فلقد تكررت هذه الحالة نفسها في مقاطع عدّة من التاريخ الاسلامي وفي الأندلس عندما تحالف المسلمون مع المسيحيين ضدّ بعضهم البعض، فسقطوا كلّهم وخلصت الأندلس للمسيحيين عام ٨٩٧هـ = ١٤٩٢م.

ولا تزال الحالة نعيشها، فلم نجد وفاقاً وصفاء بين الدول الاسلامية، في حين انّها تملك أهمّ ثروات العالم في الأنهار والبحار والمضائق والمعادن، ولكنّها غدت دولاً متنافرة متناحرة تحكمها الاختلافات والحروب دائماً والكافر هو المهيمن المتسلط.

وإلى هنا ينتهي الحديث عن الخوارزمية، حيث قلنا في هذا الفصل انّه ينبغي لاستكمال البحث أن نتحدّث بصورة موجزة عن الإسماعيلية والخوارزمية.

الفصل الخامس

التتار ونواقيس الخطر
ثمّ الانهيار

التتار أو المغول

تعريف بهم وبأماكنهم

من تلك السهول المنبسطة في الشرق من آسيا، ومن تلك البقاع الممتدة امتداداً طويلاً عريضاً، حيث تقوم اليوم جمهورية (منغوليا) انطلقت على فترات متباينة من التاريخ موجات من الناس العتاة القساة، كان قوام حياتهم الغزو العنيف لجيرانهم في الصين وتركستان غزواً عماده القتل والسلب.

بل كانوا إذا أعوز جماعة منهم ضرورات العيش، لم تبالِ تلك الجماعة ان تستطيل على من هو أضعف منها، فتقتل فيه وتسلب وتنهب وتعيث ما استطاعت العيث.

ومن سلالات تلك الجماعات الدموية عرف الكون قبائل (الهون) في القرن الثالث قبل الميلاد، تلك القبائل الّتي تصدّرت اكتساح أوربا، فهزمت (القوط) الجرمانيين، وبدت بأقصى مظهر من مظاهر العنف والوحشيّة، فنشرت في أوربا الهلع المقيم المقعد.

وفيما بين القرنين السادس والثامن الميلاديين عرفت آسيا ما عرفت من البلاء من قبائل (تليو) المغولية الّتي كانت مواطنها على ضفاف نهري (اورخون) حيث تقوم اليوم (أولان بانور) عاصمة منغوليا.

لقد سيطرت قبائل تليو على المناطق الشاسعة فيما حولها، وتحكمت بأهلها على اختلاف عشائرهم تحكماً قاسياً، على انّها هي كانت محكومة حكماً جائراً لا رحمة فيه، فقد كانت السيطرة فيها لطبقة معيّنة، هي الفائزة بالغنائم والأموال، وهي المتمتعة بالترف والنعيم، طبقة مؤلفة من القواد والحكام والقضاة وجامعي الضرائب. تلتف حول مقدّمها (الكاغان).

وأمّا بقيّة الشعب فقد كان يتألّف منها مجموعة الجيش، وكان عليها أن تملأ بطونها

وتسدّ خلّتها ممّا تجنيه من المعارك وما تنهبه من المقهورين المهزومين.

وتطوّرت بعد ذلك الأمور، فقلّت الفوارق بين الطبقات بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين.

ثمّ استطاع راعٍ بسيط ان يسيطر بقوّة شخصيته وجبروته على الموقف ويستولي على الحكم وان يتزوج أميرة رزق منها ابنه (تيموشين) ويسمّيه ابن الأثير (تموجين) الّذي ورث ملك والده.

وفي سنة ١٢٠٦م نوديَ بتيموشين (كاغنا) ولقّبوه بـ (جنكيزخان) أي مبعوث السماء، واطلق على القبائل كلّها اسم القبائل (المنغولية).

(مبعوث السماء) هذا، هو الّذي مضى يفسد في الأرض بعد أن أعدّ قومه إعداداً جبّاراً مدخلاً في روعهم انّهم فوق كل الأقوام وانّه سيقودهم إلى السيطرة على الأمم وإلى الغنائم والأسلاب.

وفي السنة نفسها الّتي تولّى فيها الملك (١٢٠٦م) نظم جيشه تنظيماً محكماً وصهر تلك القبائل المتفرّقة صهراً جعلها كتلة واحدة[١].

❊ ❊ ❊

أمّا صاحب كتاب (العراق بين احتلالين) فيقول:

إنّ جنكيزخان كان أصله حداداً وليس راعياً، وكان له كرم نفس وقوّة وبسطة في الجسم، وكان يجمع الناس ويطعمهم، ثمّ صارت له جماعة فقدّموه على أنفسهم وغلب على بلده وقوي واشتدّت شوكته واستفحل أمره فغلب على ملك (الخطا) ثمّ ملك الصين وعظمت جيوشه، وتغلّب على بلاد الختن وكاشخر (كاشغر) والمالق[٢].

وأمّا الدكتور فاروق عمر، فيكتب عنهم بشيء من التفصيل فيقول: عرف المغول

---

١ ـ الغزو المغولي للأمين / ص ٢٩ ـ ٣٠.

٢ ـ العراق بين احتلالين / عباس العزاوي / ج ١ / ص ٧٣.

بأسماء مختلفة، منها المغول والتتر والتتار وهي مسمّيات واحدة لشعب واحد يتكون من قبائل متعدِّدة، ويعتبرون جميعاً من الترك.

والمغول أهل بداوة يتنقلون في مواطنهم، من مكان إلى آخر في وسط آسيا ويغيرون على الأقاليم المجاورة لهم ثمّ ينسحبون، إلّا ان غارات هذه الجماعات البدوية كانت بربرية.

وفي مطلع القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي دخل المغول في صراعات داخلية انتهت بظهور جنكيزخان زعيماً لهم والّذي استطاع أن يوحِّدهم ويوجِّه نشاطهم نحو الأقاليم المجاورة[١].

وكان جنوده يظهرون له من الطاعة ما لم يتحقّق لأحد غيره.

يقول ابن الطقطقي «لم ينقل التاريخ ولا تضمنت سيرة من السير ان دولة من الدول رزقت من طاعة جندها ورعاياها ما رزقته هذه الدولة القاهرة المغولية، فان طاعة جندها ورعاياها لها طاعة لم ترزقها دولة من الدول»[٢].

ويقول ابن السبكي «كانوا ببادية الصين وهم من أبر الناس على القتال وأشجعهم، فملّكوا جنكيزخان عليهم وأطاعوه طاعة العباد المخلصين لربّ العالمين[٣].

ووضع لهم جنكيزخان قانوناً ينظم حياتهم ومعاملاتهم معتمداً على الأعراف والتقاليد سمِّي (اليساق).

* * *

وقد بدأ احتكاك المغول بالعالم الاسلامي سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م حين احتكوا بدولة خوارزم[٤]، فكان غزوهم لأقاليم الخوارزمية كارثة كبيرة وغارة مدمرة لم

---

١ ـ تاريخ العراق في عصر الخلافة العربية الاسلامية للدكتور فاروق عمر فوزي.

٢ ـ الفخري لابن القفطقي / ص ٢٤.

٣ ـ طبقات السبكي / ج ١ / ص ١٧٦.

٤ ـ سيرة جلال الدين للنسوي / ص ٣٨، والدولة الخوارزمية والمغول لحافظ مهدي / ص ١٠٨ وما بعدها.

تتوقف عند (ما وراء النهر) أو خراسان، بل استمرّت لتحطّم كل المشرق الاسلامي بما في ذلك العراق وبغداد حاضرة الخلافة العباسية وأجزاء من الجزيرة الفراتية وبلاد الشام، وتمّ ذلك خلال أربعين سنة فقط من بدء تحرك المغول باتجاه العالم الاسلامي حتّى أوقفهم عند حدّهم أهل الشام ومصر في موقعة عين جالوت ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م.

لقد ارتكب هؤلاء المغول البرابرة فضائح وحشية وأعمالاً تخريبية من قتل وإحراق وتخريب لكل مظاهر الحضارة في المجتمع الاسلامي آنذاك، وقد عكس العديد من المؤرِّخين أحاسيس الرأي العام وردود فعلهم عمّا شاهدوه من الهلع والفزع.

ولعلّ ابن الأثير كان خير من عبر عن ذلك حين قال عن أحداث سنة ٦١٧هـ «لقد بقيت عدّة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها فأنا أقدِّم رِجلاً وأؤخِّر أخرى، فمَن الّذي يسهل عليه أن يكتب نعي الاسلام والمسلمين ومَن الّذي يهون عليه ذلك»[١].

* * *

لقد بدأ الغزو المغولي يهدّد الخلافة العباسية والعراق منذ سنة ٦١٨هـ، ولكن السد الّذي وقف حاجزاً بين المغول والعراق هو الدولة الخوارزمية.

إلّا انّ جنكيزخان استطاع سنة ٦١٦هـ أن يحطِّم قوّة خوارزمشاه علاء الدين محمّد الّذي فرّ إلى إحدى جزر بحر قزوين ومات هناك، وعاد جنكيزخان إلى بلاده حيث توفِّي هو الآخر سنة ٦٢٠هـ.

* * *

ويرى الدكتور جعفر خصباك أنّ خلاص الخلافة العباسية في العراق كان يتوقّف على أمرين:

فإمّا ان تفقد الدولة المغولية قابليتها على الاندفاع والتوسع نتيجة الانقسامات

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ١٠ / ص ٣٩٩.

والخلافات الداخلية.

وأمّا أن تتوحّد الجبهة الاسلامية في المشرق لتقف أمام الخطر المغولي القادم.

ولقد كان بإمكان الخلفاء وأمراء الأطراف في المشرق الاسلامي أن ينتهزوا فرصة انسحاب المغول بقيادة جنكيزخان إلى مواطنهم الأصلية سنة ٦٢٠هـ لكي يكونوا جبهة موحّدة وقوّة عسكرية موحدة تحسباً لهجوم مغولي جديد.

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، فانّ خوارزمشاه الجديد جلال الدين منكوبرتي انصرف إلى محاربة أمراء المسلمين بدل المغول وحقد على الخلافة العباسية واعتبرها مسؤولة عن وفاة والده.

❊ ❊ ❊

وهكذا غدت الدولة الخوارزمية دون حليف، فتمكّن المغول منها سنة ٦٢٨هـ، وقتل جلال الدين وحيداً هارباً بيد الأكراد.

أمّا الأيوبيون في مصر وبلاد الشام فانشغلوا بالمنازعات والحروب فيما بينهم بعد وفاة الملك العادل (أخي صلاح الدين) سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م، في الوقت الّذي كانت تهدّدهم الكيانات الصليبية القديمة والحملات الصليبية الجديدة مثل حملة فردريك الثاني أمبراطور ألمانيا إلى الشام سنة ٦٢٩هـ وحملة القديس لويس التاسع ملك فرنسا سنة ٦٤٧هـ.

وفي الفترة بين وفاة جنكيزخان وتولي منكوخان زعامة المغول ٦٤٩هـ واصل المغول القيام بعمليات غزو مفاجئة وغارات متعددة ومتواصلة على المدن والأقاليم الممتدة بين خراسان وآسيا الصغرى والجزيرة الفراتية وحدود العراق.

وكان هدفها السلب والتدمير واثارة القلق والبلبلة وإشاعة حالة من الفوضى من أجل جسّ النبض لقوّة أمراء الأطراف وتحسس قوّة جيش الخلافة ومدى تأثيرها على ملوك وأمراء الأقاليم الاسلامية الأخرى، وقد وصلوا في حملاتهم هذه إلى خانقين وداقوقا، بل انّهم سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م بلغوا حرّان والرها وديار بكر وميافارقين

وصـادفوا قافلة متجهة إلى بغـداد، فنهبوا أموالها وقتلوا شيوخها وأسّروا نســاءها وصبيانها ثمّ انسحبوا بسرعة إلى اذربيجان.

* * *

وعلى هذا فانّ سقوط بغداد ونكبتها على يد المغول لايمكن اعتبارها حدثاً مفاجئاً باغتَ به المغولُ الخلافةَ الاسلامية، بـل أنّ النـاس وأمـراء الأطـراف والمـؤرّخين والوعاظ كانوا يستغيثون منبهين الخلافة والحكام على هول الخطر منذ أن انهـارت دولة الخوارزميين.

على أنّ الزّحف المغولي الّذي جعل هدفه العراق هو زحف هولاكو أخي منكوخان الّذي كلف بقيادة الحملة الجديدة.

وتحرّك من معسكره في قراقوم في سنة ٦٥١هـ ووصل أسوار بغداد في المحرّم سنة ٦٥٦هـ بعد أن أسقط في طريقة قلاع الإسماعيلية الواحدة تلو الأخرى[١].

* * *

ولعلّ أشمل وصف لما قام به المغول من جرائم هو الّذي نقله ابن الأثير إذ يقول:

... ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدّس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرّب هؤلاء الملاعين من البلاد، الّتي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا؟

ولعلّ الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى ان ينقرض العالم وتفنى الدُّنيا، فـإنّهم قتلوا النّساء والرّجال والأطفال وشقّوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم لهذه الحـادثة الّتي استطار شررها وعمّ ضررها وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح.

---

١ ـ تاريخ العراق في عصر الخلافة العربية الاسلامية للدكتور فاروق عمر فوزي /ص ٣٥٧ ـ ٣٥٩.

فانّ قوماً خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاد ساغون، ثمّ منها إلى بلاد ماوراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما فيملكونها ويفعلون بأهلها ـ ما نذكره ـ ثمّ تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكاً وتخريباً وقتلاً ونهباً ثمّ يتجاوزونها إلى الري وهمذان وبلد الجبل، وما فيه من البلاد إلى حدّ العراق ثمّ بلاد آذربيجان وأرانيه ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها، ولم ينج إلّا الشريد النافر في أقل من سنة. هذا ما لم يسمع بمثله.

ثمّ لمّا فرغوا من آذربيجان وأرانيه ساروا إلى دربند شروان فملكوا مدنه ولم يسلم غير القلعة الّتي بها ملكهم.

وعبروا عندها إلى بلد اللان واللكز ومن في ذلك الصقع من الأمم المختلفة فأوسعوهم قتلاً ونهباً وتخريباً، ثمّ قصدوا بلاد قفجاق، وهم من أكثر الترك عدداً فقتلوا كل من وقف لهم، فهرب الباقون إلى الغياض، ورؤوس الجبال وفارقوا بلادهم واستولى هؤلاء التتر عليها.

فعلوا هذا في أسرع زمان لم يلبثوا إلّا بمقدار مسيرهم لا غير، ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان، ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء وأشدّ.

هذا ما لم يطرق الأسماع مثله. فانّ الإسكندر الّذي اتفق المؤرّخون على انّه ملك الدُّنيا، لم يملكها في هذه السرعة، انّما في نحو عشر سنين، ولم يقتل أحداً، إنّما رضي من الناس بالطاعة.

وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلاً وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة في نحو سنة، ولم يبق أحد من البلاد الّتي لم يطرقوها إلّا وهو خائف يتوقعهم، ويترقب وصولهم إليه.

ثمّ انّهم لا يحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم، فانّهم معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير، وأمّا دوابهم الّتي يركبونها فانّها تحفر

الأرض بحوافرها وتأكل عروق النبات، لا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من خارج.

وأمّا ديانتهم، فانّهم يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يحرّمون شيئاً، فانّهم يأكلون جميع الدواب حتّى الكلاب والخنازير وغيرها، ولا يعرفون نكاحاً بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال، فإذا جاء الولد لا يعرف أباه.

ولقد بُليَ الاسلام والمسلمون في هذه المدّة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم، منها هؤلاء التتر ـ قبحهم الله ـ أقبلوا من المشرق، ففعلوا الأفعال الّتي يستعظمها كل من سمع بها، وستراها مشروحة متصلة إن شاء الله تعالى.

ومنها خروج الفرنج ـ لعنهم الله ـ من المغرب إلى الشام، وقصدهم ديار مصر وملكهم ثغر دمياطِ منها، وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم، وقد ذكرناه سنة أربع عشرة وستمائة.

ومنها انّ الّذي سلم من هاتين الطائفتين، فالسيف بينهم مسلول، والفتنة قائمة على ساق، وقد ذكرناه أيضاً، فانّا لله وإنّا إليه راجعون، نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين نصراً من عنده.

فانّ الناصر والمعين والذاب عن الاسلام معدوم[1] «وإذا أراد الله بقوم سوءً فلا مردّ له وما لهم من دونه من وال» فانّ هؤلاء التتر انّما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع، وسبب عدمه ان خوارزمشاه محمّداً كان قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها، فلمّا انهزم منهم لم يبق في البلاد من يمنعهم ولا من يحميها ﴿لِيَقْضِيَ الله أَمْراً كَانَ مَفعُولاً﴾[2].

❊ ❊ ❊

هؤلاء هم التتر، ونحن لا نستبعد أن يكون المؤرّخون قد أضافوا إليهم أموراً كثيرة

---

١ ـ قلنا في موضع سابق ان كلمة (فان الناصر معدوم) ربّما كانت تعريضاً بالخليفة الناصر.

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ١٠ / ص ٣٩٩ ـ ٤٠١.

ليست منهم، على عادة الناس في زيادة الأوصاف ونقصانها حسب مشتهياتهم وحسب الانتصارات الّتي كان يحقّقها جيش المغول.

فأصبح المؤرّخون يعطون أوصافاً ضخمة حتّى لخيولهم ودوابهم الّتي كانت (تحفر الأرض بحوافرها وتستخرج أصول النبات فتأكله!).

وكلّ المؤرّخين يجمعون على أنّ المغول كانوا أمّة متوحّشة لاتعرف للانسانية معنى، فهم انّما انتصروا بإراقة الدماء وبالسّلب والنهب.

وجنكيز الّذي كان شخصاً مغموراً، راعياً أو حدّاداً، واتته الظّروف فأصبح ملكاً وصار يلقّب بـ(جنكيزخان) واستطاع بدهائه وقوّته وجبروته أن يجمع حوله مجموعة منتفعة من أقاربه ومن القواد والحكام، فالسيطرة العليا له، ولكن الحكم كان طبقيّاً، كان أولئك هم الّذين يستفيدون أوّلاً، أمّا الشعب فمحكوم بالقوّة والبطش.

وكان جنوده يكتفون بشبع بطونهم وبما يستولون عليه من غنائم وأسلاب في الحروب والغزوات.

والظروف كانت مواتية جدّاً لأن يتغلّب جنكيزخان على الإمارات والممالك المجاورة، ومن المحتمل أن يكون جنكيزخان قد فكر في السيطرة على دولة خوارزم ودولة الخلافة من بعدها، ولكنّه لم يجد المبرّر لغزو خوارزم لوجود اتفاقية صداقة بينهما، إضافة إلى أنّ دولة خوارزم كانت دولة قويّة مرهوبة الجانب، فكان جنكيزخان يهابها ولذلك فانّه لم يلتفت إلى سفير الخليفة الناصر يوم طلب منه أن يغزو خوارزم، ولكنّه لا شكّ اعتبر خطوة الخليفة هذه خطوة عظيمة سوف تساهم في تحقيق رغباته في السيطرة على دول الاسلام بسهولة.

والمبرّر الّذي كان يتوخّاه جنكيزخان في الخروج على الاتفاقية الثنائية بينه وبين خوارزمشاه، تحقّق عام ٦١٧هـ، يوم قتل خوارزمشاه مجموعة من التجار التابعين لمملكة خوارزم في حادثة سوف نذكرها، فكان لسان حال جنكيزخان (الخير فيما وقع).

فخوارزمشاه أخلّ بالاتفاقية أوّلاً، ثمّ اطمأنّ جنكيزخان إلى ان الخليفة سوف لا ينجد خوارزمشاه، بل الأمر هو العكس، فالعداء بين الخليفة وخوارزمشاه قد تأصّل وتعمّق واستحكم بينهما لحد بالغ جدّاً.

والخليفة الناصر لم يكن شهماً شجاعاً مقداماً حكيماً كما يعدّد وعاظ السلاطين له الأوصاف، بل كان غبياً أحمق متخلفاً من الناحية الاسلامية والسياسية.

* * *

انتقادان يوجّهان إلى الخليفة الناصر

ولنا أن نوجِّه للخليفة الناصر انتقادين:

أوّلاً: كيف جاز له ـ وهو إمام المسلمين ـ ان يستنجد بوثني على مسلم؟

وإذا كان خوارزمشاه قد تجبّر وطغى وأساء إلى مقام الخلافة، فما كان من الخليفة أن يستعين بالمغول عليه.

ثانياً: ثمّ ألم يكن يدور في خلد الخليفة ـ سياسياً ـ انّ المغول إذا احتلّوا خوارزم فسوف يتشجّعون لاحتلال بغداد والعراق كلّه؟

ومهما كانت خطوة خوارزمشاه مع الخليفة خاطئة، فانّه لا يجوز للخليفة دينياً وسياسياً أن يقبل بوجود عدوّ يتربّع على حدود أعمال العراق.

لقد كان بإمكانه أن يستنجد بملوك وأمراء المسلمين في الشام ومصر والموصل وأربيل وأماكن أخرى، ليكون بذلك قد سعى في تكوين جبهة عسكرية مسلمة ضدّ خوارزمشاه.

أمّا أن يفكِّر بالقضاء على الخطر بما هو أخطر منه، فليس مقبولاً منه ذلك، وليس هو من الحكمة والحنكة السياسية.

ولقد كان تصرّف حفيده المستنصر حكيماً عندما وجد الخطر المغولي عام ٦٢٩هـ على الأبواب، حاول أن يجمع الجيوش الاسلامية، وذلك عندما توجه جيش المغول

من مدينة تبريز إلى العراق يوم كان المستنصر بالله متربّعاً على عرش الخلافة العباسية، فطلب النجدة من سلاطين المناطق المجاورة الّتي تعترف بخلافته.

فاستجاب له الكامل ملك مصر والملك الناصر داود والملك الأيوبي أشرف وعلاء الدين كيقباذ الملك السلجوقي.

وتشكّل نتيجة هذا الأمر اتحاد عسكري من قبل ملوك الدول الاسلامية ضدّ المغول... وكان هذا الاتحاد قادراً على مواجهة المغول، إلّا ان نفاق الملوك وأنانيتهم وسوء تدبيرهم أدّى إلى الانهيار.

فالكامل ملك مصر توجه إلى الشام بجيش جرار في طريقه لاسناد الخليفة، والتحق به السلاطين الأيوبيون وكذلك الملك السلجوقي، لكنّه عندما بلغ مدينة (حرّان) وسمع بانسحاب المغول من منطقة (اخلاط) أخذ يفكر بفتح بعض المناطق بدلاً من مطاردة المغول ومحاربتهم، ولذلك اتّجه نحو ديار بكر وتمكن من انتزاعها من الملك (المسعود) وذلك بعد محاصرة استمرت خمسة أيّام، ثمّ اتّجه نحو (حصن كيفا) شرق ديار بكر وشمال شرق ماردين على ضفة دجلة العليا واحتلّه أيضاً، ثمّ عاد بعد ذلك إلى مقرّ حكومته في مصر دون ان يواجه المغول ويحاربهم[1].

فسرعان ما تفرّق الملوك، وقد كانت سمعة قوّة الجيش المغولي تسبق الجيش نفسه، فيجفل أولئك الملوك ويتقاعسون ويحاول كلّ منهم ان يحتفظ باقليمه ومملكته.

ولكن الناصر كان يتصرف تصرف لاعبي الطيور وليس كإمام وخليفة، فدقّ اسفيناً في جسم الدولة الاسلامية كمن يريد ان ينتحر من حيث يعلم أو لا يعلم.

* * *

جنكيزخان المغولي كان أذكىٰ من الخليفة الناصر

أمّا جنكيزخان، فقد كان أدهى من الخليفة الناصر سياسياً وأقوى منه عسكرياً، فهو وإن كان وثنياً دموياً إلّا انّه استطاع بحنكته السياسية ان يجمع حوله عدداً من

---

١ ـ جنكيزخان جهرة خون ريز تاريخ / محمّد بناهي / ص ١٩٣.

المسلمين الّذين كانوا أشبه ما يكونون بالمستشارين له في أموره السياسية والعسكرية، علماً بأن جنكيزخان كان يسكن في مملكته عدد كبير من المسلمين.

يقول صاحب كتاب (الإسماعيليون والمغول):

... وكان فيمن أخلص لجنكيزخان ثلاثة رجال مسلمين هم: جعفر خوجا الّذي يقال ان جنكيزخان كان متزوّجاً أخته، وحسن ودانشمند الحاجب، وكان هذان الإثنان مع جنكيزخان في هجومه على خوارزم وأدّيا له خدمات جليلة لا سيما في مفاوضاته مع أهل البلاد المفتوحة، وقد عاش دانشمند ٢٥ سنة بعد جنكيز، وكان مؤدباً لأحد أحفاد جنكيز، ابن ابنه أوكتاي بن جنكيز.

وهؤلاء المسلمون وأمثالهم جاؤوا في الأصل إلى تلك البلاد تجاراً، وكان التجّار المسلمون القادمون من الغرب هم الّذين يتولّون التجارة مع منغوليا والصين.

وكان ممّن عمل مع جنكيز قبل الهجوم على خوارزم، محمّد يلواج الّذي أرسله جنكيز رسولاً إلى محمّد خوارزمشاه واتخذ منه جنكيز وزيراً ومستشاراً، وبعد استيلاء جنكيز على ماوراء النهر جعله حاكماً عليها، حيث قام بإعمار ما خرّبه المغول، وأدار البلاد إدارة صحيحة أحسنت إلى الناس.

وممّن عملوا مع جنكيزخان فخرالدين محمود بن محمّد الخوارزمي الّذي يقول عنه (ابن الفوطي): كان من أعيان وزراء جنكيزخان وعليه مدار الملك في المشرق وإليه تدبير ممالك تركستان وبلاد الخطا وماوراء النهر وخوارزم وكان مع ذلك الدهاء كاتباً سديداً يكتب بالمغولية والخوارزمية والتركية والفارسية الخطائية (لهجة من لهجات تركستان) والهندية والعربية، وكان غاية في الفهم والذكاء والمعرفة، وبتدبيره السديد انتظم للمغول ملكهم[١].

ويقول العريني عن زحف جنكيز: أمضى جنكيزخان صيف ١٢١٩م على نهر أرتش ثمّ تقدّم بجيوشه في الخريف إلى (قاياليق) حيث انحاز إليه قوّات الأمراء

١ ـ الإسماعيليون والمغول للأمين / ص ٧٥ ـ ٧٦.

المسلمين في (آلماليق) و(قاياليق) فضلاً عن أرسلان خان أمير (الفارلوق) وصحب جنكيزخان أيضاً التجّار المسلمون الّذين استخدمهم وسطاء بين المغول والسكّان الأصليين نظراً لدرايتهم بأحوال البلاد الداخلية[١].

❋ ❋ ❋

بدايات الخلاف بين المغول وخوارزم

يكاد يجمع المؤرِّخون على انّ العلاقات بين التتر المغول وبين دولة خوارزم، كانت في البداية علاقات جيّدة، وكان كل من جنكيزخان ومحمّد خوارزمشاه يخشى ويحذر من الثاني، حيث كانت الدولتان قويتين مرهوبتي الجانب.

ولكن الخلاف بدأ بينهما هكذا...

في سنة ٦٠٩هـ قصد ثلاثة نفر تجار من البخاريين (التابعين لدولة خوارزمشاه) ديارَ التاتار ومعهم البضائع من الثياب المذهبة والكرباس وغيرهما ممّا يليق بالمغول، بما سمعوا انّ للمتاع عندهم قيمة وافرة، وانّ الطرق قد أقام بها جنكيزخان جماعة يسمّونهم (قراقجية) أي مستحفظين، يخفرون المتردِّدين إليهم[٢].

ولمّا وصلوا إلى نواحيهم وافاهم المستحفظون ووقفوا على ما معهم من السلع فرأوا قماش واحد منهم اسمه أحمد لائقاً للخازن[٣] فسيّروه مع صاحبيه إليه.

فعرض أحمد متاعه على الحجاب وطلب في ثمن كل ثوب كان مشتراه عليه عشرة دنانير إلى عشرين ديناراً ثلاثة بواليش[٤].

---

١ ـ المغول للباز العريني / ص ١٢٠.

٢ ـ ليس بعيداً أنّ هؤلاء الثلاثة كان قد أرسلهم خوارزمشاه إلى بلاد التتار لأغراض التجسس بلباس التجار، وما كانت هذه الحيلة تنطلي على جنكيزخان، فلذلك كان قد وضع على الحدود أولئك المستحفظين يراقبون الحدود ويترصّدون المارّة كالّذي يجري اليوم من تفتيش المارة على الحدود ومراقبتهم.

٣ ـ خازن ثياب الملك.

٤ ـ بواليش جمع باليش، وهي وحدة نقديه.

فغضب لذلك جنكيزخان، وقال: هذا الغافل كأنّه يظن انّنا ما رأينا ثياباً قط، وأمر الخازن فأراه من الأقمشة الّتي أهداها إليه ملوك الخطا، أشياء نفيسة، وتقدم ان يكتب ما معه وأنهبه لمن حضر من الحاشية، واعتقل أحمد[١].

وطلب صاحبيه، فعرضا عليه متاعهما برمّته وقالا: هذا كلّه انّما أتينا به لنقدمه خدمة للخان لا لنبيعه عليه، فألحّوا عليهما أن يثمّناه فلم يفعلا.

فأمر جنكيزخان أن يعطيا لكل ثوب مذهّب باليش من ذهب ولكل كرباسين باليش من فضّة، وعوّض لأحمد أيضاً مثل ما أعطاهما وتقدم إلى الأولاد والخواتين والأمراء ان ينفذوا معهم جماعة من أصحابهم ومعهم بواليش الذهب والفضّة ليجلبوا لهم من طرائف البلاد ونفائسها ما يصلح لهم، فامتثلوا ما أمرهم به.

فاجتمع معهم مائة وخمسون[٢] تاجراً من مسلم ونصراني وتركي، وأرسل معهم رسولاً إلى السلطان محمّد يقول له: انّ التجار وصلوا إلينا وقد أعدناهم إلى مأمنهم سالمين غانمين، وقد سيّرنا معهم جماعة من غلماننا ليحصلوا من طرائف تلك الأطراف، فينبغي أن يعودوا إلينا آمنين ليتأكّد الوفاق بين الجانبين وتنحسم مواد النفاق من ذات البين[٣].

❊ ❊ ❊

أمّا هؤلاء التجّار الّذين ذهبوا من بلاد التتار، فكان معهم شيء كثير من النقرة والقندر[٤] وغيرهما إلى بلاد ماوراء النهر، سمرقند وبخارى ليشتروا له ثياباً للكسوة.

فوصلوا إلى مدينة من بلاد الترك تسمّى (أوترار) وهي آخر ولاية خوارزمشاه[٥]

---

١ ـ تصوّر جنكيزخان ان أحمد انّما عرض البضاعة بثمن عالٍ جداً، انّه لم يأت للتجارة وانّما للتجسّس، ولذلك أمر باعتقاله، ولكن صاحبي أحمد خشيا من الاعتقال، فادّعيا انّهما لم يأتيا لبيع بضاعتيهما وانّما ليقدّماها هديّة للخان.

٢ ـ ويُروي الجويني انّ القافلة كانت من ٤٥٠ رجلاً كلّهم من المسلمين.

٣ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ٢٣٠.

٤ ـ النقرة: القطعة المذابة من الذهب والفضّة، والقندر حيوان مائي لبون تتخذ منه الفراء.

٥ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ١٠ / ص ٤٠١.

وكان عليها خال خوارزمشاه، فقبض عليهم وأخذ أموالهم شرهاً منه، ثمّ كاتب خوارزمشاه يقول: انّهم تتار في زي التجّار وقصدهم التجسّس في البلاد.

ثمّ جاءت رسل جنكيزخان إلى خوارزمشاه تقول: إن كان ما فعله خالك بأمره فسلّمه إلينا وإن كان بأمرك فالعذر قبيح وستشاهد ما تعرفني به[١].

أمّا ابن العبري فيقول:

ولم يكتف خال خوارزمشاه بأخذ أموال التجّار وانّما طالع السلطان في إبادتهم فأذن له في ذلك فقتلهم طراً إلاّ واحداً منهم فانّه هرب من السجن، ولمّا رأى ما جرى على أصحابه لحق بديار التاتار واعلمهم بالمصيبة.

فعظم ذلك عند جنكيزخان وتأثّر منه إلى الغاية وهجر النوم وصار يحدث نفسه ويفتكر فيما يفعله[٢].

❊ ❊ ❊

خوارزمشاه يستطلع قوّة جنكيزخان ويندم على ما فعل

أمّا خوارزمشاه فانّه أرسل جواسيس إلى جنكيزخان لينظر ما هو؟ وكم مقدار ما معه من (اليزك)[٣] وما يريد أن يعمل؟

فمضى الجواسيس وسلكوا المفازة والجبال الّتي على طريقهم حتّى وصلوا إليه، فعادوا بعد مدّة طويلة وأخبروه بكثرة عددهم وانّهم يخرجون عن الاحصاء وأنّهم من أصبر خلق الله على القتال، لا يعرفون هزيمة، وانّهم يعملون ما يحتاجون إليه من السلاح بأيديهم.

فندم خوارزمشاه على قتل أصحابهم وأخذ أموالهم، وحصل عنده فكر زائد. فأحضر الشهابي الحيوفي، وهو فقيه فاضل كبير المحل عنده، لا يخالف ما يشير به،

---

١ ـ شذرات الذهب لابن عماد الحنبلي / ج ٥ / ص ٦١.

٢ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ٢٣٠.

٣ ـ اليزك: الجنود.

فحضر عنده.

فقال له: قد حدث أمر عظيم لا بدّ من الفكر فيه فآخذ رأيك في الّذي نفعله، وذاك انّه قد تحرّك إلينا خصم من ناحية الترك في كثرة لا تحصى.

فقال له:

عساكرك كثيرة، ونكاتب الأطراف ونجمع العساكر ويكون النفير عاماً، فانّه يجب على المسلمين كافة مساعدتك بالمال والنفس، ثمّ نذهب بجميع العساكر إلى جانب سيحون وهو نهر كبير يفصل بين بلاد الترك وبلاد الاسلام، فنكون هناك، فاذا جاء العدو وقد سار مسافة بعيدة لقيناه ونحن مستريحون وهو وعساكره قد مسّهم النصب والتعب.

فجمع خوارزمشاه أمراءه ومن عنده من أرباب المشورة فاستشارهم، فلم يوافقوه على رأيه، بل قالوا نتركهم يعبرون (سيحون) إلينا ويسلكون هذه الجبال والمضايق، فانّهم جاهلون بطرقهم ونحن عارفون بها، فنقوى حينئذٍ عليهم ونهلكهم فلا ينجو منهم أحد.

فبينما الأتراك كذلك، إذ ورد رسول من هذا اللعين جنكزخان معه جماعة يتهدّد خوارزمشاه ويقول: تقتلون أصحابي وتأخذون أموالهم، استعدّوا للحرب، فانّي واصل إليكم بجمع لا قبل لكم به[1].

ولكن خوارزمشاه ـ لسوء تدبيره ـ قبض على رئيس الوفد فقتله وأمر بحلق لحى الباقين، وأعادهم إلى جنكيزخان يخبرونه بما حدث لهم ولرئيسهم، ويقولون له انّ خوارزمشاه سائر إليك كي يلحقك بأصحابك[2].

❊ ❊ ❊

حماقة خوارزمشاه سبّبت الكوارث للمسلمين

لقد كان على خوارزمشاه أن لا يفعل ما فعله بالتجّار المغول، خصوصاً وقد كانت

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ١٠ / ص ٤٠٢.

٢ ـ الغزو المغولي للأمين / ص ٥٢.

بينهما علاقات حُسن جوار.

وكان عليه أن يستشير قبل أن ينفِّذ فيهم القتل والسّلب.

وأن لا يفعل فعلته النكراء الثانية في حلق لحى الوفد وإهانتهم وقتل رئيسهم ولكنّها الكبرياء الّتي أعمت بصيرته وأظهرت له انّ قوّته لا يمكن أن تندحر، فسوّلت له نفسه ذلك، واقدم على فعلته المنكرة الّتي قضت عليه وعلى غروره وجيشه ودولته، فهرب إلى جزيرة (آب سكون) في بحر الخزر، حيث قضى نحبه هناك، وأعطى مبرِّراً للمغول بأن يستمروا في زحفهم نحو الغرب حتّى كانت نهاية الخلافة العباسية عام ٦٥٦هـ على يد هولاكو حفيد جنكيزخان.

ثمّ استطاع المغول بعد ذلك ان يبسطوا نفوذهم على كل المواقع الّتي كانت تحت سيطرة خوارزمشاه، بل على مناطق أُخرى واسعة.

فلقد تهاوت الممالك والإمارات بعد سقوط خوارزم.

وكان من أعظم ما حقّق للمغول سهولة الانتصار هو فقدان القيادة الاسلامية وتفكّك الناس، فاستفردوا المدن مدينة مدينة والجموع جمعاً جمعاً ممّا أدّى إلى انهيار العزائم وتشتت القوى واستيلاء اليأس.

هذه الانتصارات المتلاحقة للمغول وتخاذل القيادة الاسلامية وانهيار معنوياتها فعلت أسوأ الفعل في نفوس الشعوب وأوهت عزائمها وضعضعت، روحها فغدا الناس وكأنّهم أشباح لا قوّة فيها ولا رجولة تحميها ولا ذهن يمدّها ولا حسّ يرشدها، ويروي المؤرِّخون المعاصرون (لتلك الأيّام) أقاصيص عجيبة تريك إلى أي حدٍّ بلغ الوهن بالنفوس والتلاشي بالهمم والضياع بالعقول[1].

ويذكر ابن الأثير ان مغولياً واحداً دخل درباً فيه مائة رجل، فما زال يقتلهم واحداً واحداً حتّى أفناهم ولم يمد أحد يده إليه بسوء.

---

١ ـ الغزو المغولي / للأمين / ص ٦٦.

ويقول أيضاً: انّ امرأة من التتر دخلت داراً وقتلت جماعة من أهلها وهم يظنونها رجلاً، فوضعت السلاح، وإذا هي امرأة فقتلها رجل أخذته أسيراً[1].

* * *

المغول يتوجّهون إلى أربيل، وحكّام المسلمين يتخاذلون

يقول ابن الأثير ـ وقد كان معاصراً ـ:

ثمّ رحلوا (التتر) عنها (عن مدينة مراغة في اذربيجان) نحو مدينة إربل. ووصل الخبر إلينا بذلك بالموصل، فخفنا حتّى ان بعض الناس همّ بالجلاء خوفاً من السيف.

وجاءت كتب مظفّرالدين صاحب إربل إلى بدرالدين (لؤلؤ) صاحب الموصل يطلب منه نجدة من العساكر.

فسيّر جمعاً صالحاً من عسكره وأراد ان يمضي إلى طرف بلاده من جهة التتر ويحفظ المضايق لئلّا يجوزها أحد، فانّها جميعها جبال وعرة ومضايق لا يقدر ان يجوزها إلّا الفارس بعد الفارس، ويمنعهم من الجواز إليه.

ووصلت كتب الخليفة ورسله إلى الموصل وإلى مظفر الدين يأمر الجميع بالاجتماع مع عساكره بمدينة داقوقا ليمنعوا التتر، فانّهم ربّما عدلوا عن جبال إربل لصعوبتها، إلى هذه الناحية ويطرقون العراق[2].

فسار مظفر الدين من إربل في صفر وسار إليهم جمع من عسكر الموصل وتبعهم من المتطوعة كثير، وأرسل الخليفة أيضاً إلى الملك الأشرف يأمره بالحضور بنفسه في عسكره ليجتمع الجميع على قصد التتر وقتالهم.

فاتفق انّ المعظم بن الملك العادل (أي صلاح الدين الأيوبي) وصل من دمشق إلى

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ١٠ / ص ٤١٢.

٢ ـ فالخليفة الناصر لم يخش أن يحتلّ التتار مدينة أربيل، وانّما كان يخشى أن يطرقوا العراق، ويقصد بذلك (بغداد) فلا شيء يهمه غيرها، وكأنّه ليس مسؤولاً عن البلاد الاسلامية وثغورها، وهو يحمل لقب إمام المسلمين وخليفة رسول الله وأمير المؤمنين.

أخيه الأشرف وهو بحرّان يستنجده على الفرنج الّذين بمصر وطلب منه ان يحضر بنفسه ليسيروا كلّهم إلى مصر ليستنقذوا دمياط من الفرنج، فاعتذر إلى الخليفة بأخيه وقوّة الفرنج وإن لم يتداركها خرجت هي وغيرها.

وشرع يتجهّز للسّير إلى الشام ليدخل مصر.

* * *

الخليفة الناصر يرسل فقط ثمانمائة خصي لردع التتار عن إربل

وحكى مظفر الدين (صاحب إربل) قال:

لمّا أرسل إليّ الخليفة في معنى التتر قلت له:

إنّ العدو قوي وليس لي من العسكر ما ألقاه به، فان اجتمع معي عشرة آلاف فارس استنقذت ما أخذ من البلاد.

فأمرني بالمسير، وواعدني بوصول العسكر، فلمّا سرت لم يحضر عندي غير عدد لم يبلغوا ثمانمائة (طوّاشي)[1].

فأقمت وما رأيت المخاطرة بنفسي وبالمسلمين.

ولمّا سمع التتر باجتماع العساكر لهم، رجعوا القهقرى ظنّاً منهم انّ العسكر يتبعهم، فلمّا لم يروا أحداً يطلبهم، أقاموا، وأقام العسكر الاسلامي عند (دقوقا)، فلمّا لم يروا أنّ العدوّ يقصدهم ولا المدد يأتيهم تفرّقوا، وعادوا إلى بلادهم[2].

* * *

تعقيب على خصيان الخليفة الناصر

إنّ كلّ ما قدّمه خليفة المسلمين لصد عدوان التتر هو أنّه أرسل ثمانمائة خصي فقط.

---

١ ـ الطواشي: الخصي.

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ١٠ / ص ٤١٢ ـ ٤١٣ في حوادث عام ٦١٧هـ.

فهل كان هؤلاء هم كلّ جيش الخلافة؟

أم انّ الخليفة استهان بقوّة التتر؟ ووجد ان هؤلاء الخصيان يكفون في ردع العدوّ؟ أم هو شيء آخر؟

وعلى كل الاحتمالات، فانّ الخليفة ـ الناصر لدين الله ـ أمير المؤمنين يتحمّل وزراً كبيراً في قضيّة التتر وهجومهم على بلاد المسلمين وقضائهم على دولة الخلافة العباسية.

فالخليفة الإمام (الناصر) كان مشغولاً بلهوه في الطيور والترامي بالبندق في صيد العصافير وتشبّهه بالعيارين (اللصوص والشقاة وقطاع الطرق وأصحاب كل رذيلة) فكان يلبس سراويلهم ويدعو الناس إلى ان يتشبهوا به.

فكيف سوّغ لنفسه ان يبعث فقط ثمانمائة (خصي) لصد عدوان التتار الّذين كانوا يحققون الانتصارات تلو الانتصارات؟

فاذا كان قد استهان باستغاثة مظفر الدين صاحب إربل في نجدته إيّاه فتلك هي السياسية الخرقاء.

وإن كان يعتبر (أربيل) خارجة عن دولته، وبالتالي فهو غير مسؤول عن حمايتها فهو البلاء العظيم.

وإن كان لا يجد غير هؤلاء الّذي أرسلهم، وهم قوام جيشه، فالويل للمسلمين من الخلفاء الحمق.

ولكن الأنكى من الجميع، انّ وعاظ السلاطين كانوا قد أضفوا على الناصر صفات الأنبياء، فاذا ذكره أحدهم بخلاف ذلك، فلن يسمع له صوت، فصوت أولئك أعلا وأقوى.

والخليفة الناصر كان اهتمامه منصباً على ملاحقة الناس ومتابعة أخبارهم مهتمّاً بالأمن الداخلي لمدينة بغداد فقط دون أن يولي اهتماماً للأمن الخارجي الّذي يحيط بالدولة.

يقول السيوطي بهذا الصّدد:

إنّ الناصر كان له أصحاب أخبار يطالعونه بجزئيات الأمور، حتّى ذكر انّ رجلاً ببغداد عمل دعوة وغسل يده قبل أضيافه، فطالع صاحب الخبر الناصر بذلك[1].

وهكذا قضى (طويل العمر) الناصر لدين الله حياته كـلّها سـعايات ووشـايات وشكايات وإنصات لأحاديث الناس!

تُرى إلى أي منحدر كان قد وصل أمير المؤمنين الناصر لدين الله؟ الّـذي اهـتمّ بالتنصّت على الناس وأمورهم الخاصّة، وترك أمور الدولة لا يعيرها أيّة أهميّة، سواء شرّقت أو غرّبت.

فأمير المؤمنين مشغول بما هو أهم حسبما توصّل إليه اجتهاده، فتراآى له أنّ الطيور الّتي كان يلعب بها والبندق الّذي كان يتسابق به والتنصّت وما إلى ذلك هي محض وظيفته الشرعية كأمير المؤمنين وخليفة لمسلمي الأرض.

فبؤساً له وللمسلمين الّذين كانوا يجدونه إماماً مُفترَض الطاعة!

وأي خليفة هذا الّذي كان يحاول أن يصدّ عدوان المغـول بثمانمـائة خـصي مـن خصيان البلاط المكرّمين؟

وهل كانت تعوزه الأمور المالية فاقتصر على الخصـيان؟ وهو الّذي كان يمـتلك حوضاً ممتلئاً من الذهب؟

لقد كان الناصر سيّئ السّيرة، خربت في أيّامه العراق ممّا أحدثه من الرسوم، وأخذ أموالهم وأملاكهم[2].

ويضيف السيوطي:

إنّ الظاهر (ابن الناصر) لمّا ولي الخلافة، أعاد من الأموال المغصوبة والأمـلاك

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٥١.

٢ ـ المصدر السابق / ص ٤٥١.

المأخوذة في أيّام أبيه وقبلها شيئاً كثيراً وأبطل المكوس في البلاد جميعها[١].

ولمّا دخل إلى الخزائن قال له خادم: كانت في أيّام آبائك تمتلئ.

فقال: ما جعلت الخزائن لتمتلئ، بل تفرغ وتنفق في سبيل الله فانّ الجمع شغل التجار[٢].

❋ ❋ ❋

هذا هو خليفة المسلمين، الناصر لدين الله، الّذي كتب بنفسه إلى التتر بأن يغزوا بلاد خوارزم المسلمين، فغزوهم ثمّ غزوا بلاده هو.

وقصّة الناصر تشبه تماماً قصّة الشافعية في اصفهان الّذين عرضوا على التتار ان يسلموهم اصفهان على أن يقضوا على الحنفية، فجاء التتر وقضوا على الطرفين.

والناصر كذلك، طلب مجيء التتار ليقضوا على عدوّه (خوارزمشاه)، فجاؤوا وبدأوا بخوارزمشاه ثمّ توجّهوا إلى العراق ليقضوا على حكم الناصر نفسه، ولم تنفعه سفارته الّتي بعثها إلى جنكيزخان ولا هيبتة الّتي كان يتمتّع بها كخليفة لمسلمي الأرض.

والعجيب في الأمر انّ المؤرّخين ومنهم وعّاظ السلاطين، عندما يذكرون انّ الناصر بعث إلى مظفّر الدين صاحب (إربل) ثمانمائة خصي لردع قوّة المغول الغازية، يذكرون الخبر ويمرون عليه مرور الكرام، ولا يعلقون عليه، في حين نجدهم ينسبون بعض الأحداث (زوراً) إلى من يكرهونه في المذهب أو القومية، ثمّ يقيمون الدنيا ويقعدونها دونما دليل وبرهان.

❋ ❋ ❋

والقصّة الّتي نقلناها عن مظفر الدين (صاحب أربيل) والّتي ينقلها هو نفسه تنبئ أن مظفر الدين كان انساناً شهماً قوي الإرادة، لا يستسيغ وجود التتر، ولكنّه كان رجلاً واقعيّاً يعترف لنفسه انّه لا يستطيع ان يردع المغول (فالعدوّ قوي وليس له من

١ ـ المصدر السابق / ص ٤٥٩.

٢ ـ المصدر السابق / ص ٤٦٠.

العسكر ما يلقاه به، فان اجتمع معي عشرة آلاف فارس استنقذت ما أخذ من البلاد...).

فهو يعرف قوّته الحقيقية وقوّة المغول، وانّه لا قِبَلَ له بهم، فإذا ما توفّر له العدد الكافي، وكان يقدِّره بعشرة آلاف فارس فانّه يستطيع أن يستنقذ ما أخذه المغول من البلاد.

وكان يظن أنّ الخليفة سوف يحقّق له ما يريد، فأمره الخليفة بالمسير ووعده بوصول العسكر، والمدد قادم متواصلاً من بغداد إلى (إربل).

ولكن بقدر ما كان صاحب إربل شخصاً حريصاً على سمعة الاسلام وأمن المسلمين، فانّ الخليفة كان متقاعساً لاهياً بطيوره، وكأنّ الأمر لا يهمه في شيء وانّما ذلك من وظيفة صاحب إربل.

فجناب الخليفة المحترم، كانت وظيفته أن يلفت انتباه الأمراء لمجيء التتر ليس إلّا. أمّا هو؟

فلعله كان مشغولاً بالسياسة العظمى فيما يعود على المسلمين بالمصالح العامّة في الطيور والبندق وما إلى ذلك.

ثمّ هو خليفة وإمام يعمل حسب اجتهاده، وما يعمله هو محض الصلاح!

وقد قال مبعوث الناصر إلى خوارزمشاه (الشيخ شهاب الدين السهروردي): إنّ الخليفة يُبايع على كتاب الله وسنّة رسوله واجتهاده، فان اقتضى اجتهاده حبس شرذمة لإصلاح أمّة لا يقدح ذلك في طريقته المُثلى[1].

فهو إمام وهو مجتهد، والّذي يتخذه ـ كيفما يكون ـ لا يقدح في طريقته المثلى.

* * *

ووعّاظ السلاطين لهم دور في كل دولة وزمان، وهم مع الملوك ـ ما درّت عليهم معايشهم ـ حيث يسوّلون للخليفة وللسلطان بأن ما يفعله هو الأنسب والأصلح.

---

١ ـ الإسماعيليون والمغول للأمين / ص ٦٤.

وثمانمائة خصي يرسلهم الخليفة لردع المغول، كان حسب اجتهاده هو الأصلح والأنسب والأفضل والأقرب سياسياً وعسكرياً، وليس لمسلم أن ينتقده.

فالإمام الناصر يرى ما لا يرى البشر، واجتهاده هو الّذي أوحى له بهذا الموقف الحازم! وسوف نتدرّج بالحديث، ونصل عمّا قريب إن شاء الله إلى حفيده المستعصم لنجده أكثر سخفاً من جدِّه وأكثر جهلاً وحماقة.

وتلك مصيبة عظمى ابتلي بها المسلمون بحكامهم وخلفائهم من أمثال الناصر وما سبقه وما لحقه، وهي مصيبة عظمى أيضاً عندما ينبري واعظ من وعّاظ السلاطين فيحسّن للخليفة ما يعمل، أو يبرِّر له كل تصرّفاته الشائنة لتصبح مقياساً للدِّين ومناراً يُهتدى بها في الأجيال القادمة:

* * *

بقي أن نقول أنّ مظفر الدين كوكبري صاحب إربل، عندما وجد أن معونة الخليفة كانت ثمانمائة خصي، أحجم عن الالتحام مع جيش المغول في استرداد ما أخذ من بلاد المسلمين، لأنّه وجد في ذلك نوعاً من العبث والقاء النفوس في المهالك، إذ يقول: (فأقمت، وما رأيت المخاطرة بنفسي وبالمسلمين).

وحسناً فعل، فجيش المغول لا يُردّ ولا يُصدّ بالخصيان الثمانمائة.

ولكنّنا لا ننسى أنّ مظفر الدين كان قد أخرج العسكر الخاص الّذي يمتلكه وإن كان لا يفي بالغرض، ثمّ أرسل له صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ بعض النجدات، وتمركز الكلّ في (دقوقا) وهو ما جعل المغول يحسبون حساباً للدفاع الاسلامي، ويتردّدون في قصد العراق والتوجّه إلى إربل.

فقد كانت هيبة الخلافة الاسلامية تبهرهم، وكانوا يتصوّرون أنّ الخليفة يمتلك القوّة والطّاعة على أكثر المسلمين.

والحشد العسكري الّذي وجدوه في (دقوقا) كانوا يتصوّرونه طلائع للجيش العظيم، فتراجعوا مسرعين خوفاً من ان يتبعهم المسلمون.

يقول ابن الأثير هنا:

«ولمّا سمع التتر باجتماع العساكر لهم، رجعوا القهقرى، ظنّاً منهم انّ العسكر يتبعهم، فلمّا لم يروا أحداً يطلبهم أقاموا».

وأمّا العسكر الاسلامي الّذي كان في (داقوقا) فانّهم لمّا لم يروا انّ العدوّ يقصدهم ولا المدد يأتيهم تفرقوا وعادوا إلى بلادهم[1].



مات الناصر ومات ابنه الظاهر ثمّ جاء المستنصر ومات جنكيزخان وجاء ابنه أوكتاي وتواصلت الحروب

كان الّذي ذكرناه سابقاً قد حدث عام ٦١٧هـ أيّام الناصر وأيّام جنكيزخان، ولكن الناصر مات عام ٦٢٢هـ، وتولّى الخلافة من بعده ابنه الظاهر الّذي ما لبث في الخلافة أكثر من تسعة أشهر، فتوفي وجاء من بعده ابنه المستنصر.

ومات جنكيزخان، وجاء من بعده ابنه (أوكتاي) فواصل سياسة والده جنكيزخان في الحروب والاستيلاء والقتل والسلب.

ويبدو انّ التتار اكتشفوا ضعف المسلمين في جميع المالك، فبدأوا يتقرّبون قليلا قليلاً من بغداد حاضرة الخلافة العباسية، فكانت لهم عدّة حملات:

ففي عام ٦٢٨هـ وصل طائفة من التتر من اذربيجان إلى أعمال إربل، فقتلوا من على طريقهم من التركمان الايوائية والأكراد والجوزقان وغيرهم إلى أن دخلوا بلد إربل فنهبوا القرى وقتلوا من ظفروا به من أهل تلك الأعمال، وعملوا الأعمال الشنيعة الّتي لم يسمع بمثلها من غيرهم.

وبرز مظفّر الدين صاحب إربل في عساكره واستمدّ عساكر الموصل، فساروا إليه، فلمّا بلغه عود التتر إلى اذربيجان أقام في بلاده، ولم يتبعهم، فوصلوا إلى بلد الكرخيني

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ١٠ / ص ٤١٣.

وبلد دقوقا وغير ذلك وعادوا سالمين لم يذعرهم أحد ولا وقف في وجوههم فارس[١].

* * *

فالتتار قتلوا ونهبوا، ثمّ ذهبوا، وكان تحرك مظفر الدين صاحب إربل متأخراً، لأنّه طلب مدداً من الموصل، وفي خلال هذه الفترة كان التتار قد أنهوا مهمتهم، واكتشفوا فيها غفلة المسلمين وأمرائهم عن تلك المداهمات، ولذلك فانّهم عاودوا التعرّض لمدينة أربيل الّتي كانت حدود العراق حيث يحكم الخليفة.

والّذي يبدو لنا انّ التتار، كانوا قد وضعوا في حسابهم احتلال بغداد منذ أيّام جنكيزخان، منذ يوم طلب أمير المؤمنين الناصر من جنكيزخان ان يتقدم إلى احتلال خوارزم، لأن ملكها كان قد أساء إلى مقام الخلافة، فما كان من الخليفة إلّا أن ينتقم منه بالصورة الّتي ذكرناها قبل عدّة صفحات.

* * *

إربل هي الهدف للتتار من جديد

وفي عام (٦٣٣هـ) جاءت فرقة من التتار، فكسرهم عسكر إربل، فما بالوا، وساقوا إلى بلاد الموصل، فقتلوا وسبوا.

فاهتم المستنصر بالله وانفق الأموال، فردّوا ودخلوا الدربند.

أمّا ابن العبري فيعطي تفصيلاً أكثر إذ يقول:

وفي سنة ٦٣٣هـ غزا التتار بلد إربل وعبروا إلى بلد نينوى[٢]، ونزلوا على ساقية قرية (ترجلي وكرمليس)، فهرب أهل كرمليس ودخلوا بيعتها، وكان لها بابان، فمَن خرج من أحد بابيها قتلوه، ومن خرج من الباب الآخر أطلقه الأمير الّذي على ذلك الباب وابقاه، فتعجب الناس لذلك[٣].

---

١ ـ شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي / ج ٥ / ص ١٥٩.

٢ ـ نينوى هي الموصل.

٣ ـ تاريخ مختصر الدول / ص ٢٤٩.

وحيث انّ المغول اكتشفوا في تعرّضهم لأربيل ضعف القوّة الاسلامية، فانّهم في عام ٦٣٤هـ غزوا أربيل بحملة قويّة، هي الأولى من نوعها، أوقعت في المسلمين كثيراً من القتلى.

يقول ابن أبي الحديد:

فلمّا لم يبق لهم (أي التتار) بلد من بلاد العجم إلّا وقد دوّخوه صمدوا نحو إربل في سنة ٦٣٤ هـ، وقد كانوا طرقوها مراراً وتحيّفوا[1] بعض نواحيها، فلم يوغلوا فيها.

والأمير المرتّب بها يومئذٍ (باتكين) الرومي.

فنزل عليها في ذي القعدة من هذه السنة منهم نحو ثلاثين ألف فارس، أرسلهم (جرماغون)، وعليهم مقدّم كبير من رؤسائهم يعرف بـ (جكتاي) فغاداها القتال وراوحها، وبها عسكر جم من عساكر الاسلام، فقتل من الفريقين خلق كثير، واستظهر التتار ودخلوا المدينة وهرب الناس إلى القلعة، فاعتصموا بها وحصرهم التتار وطال الحصار حتّى هلك الناس في القلعة عطشاً.

وطلب (باتكين) منهم أن يصالحوه عن المسلمين بمالٍ يؤدّيه إليهم، فأظهروا الإجابة. فلمّا أرسل إليه ما تقرّر بينهم وبينه أخذوا المال وغدروا به وحملوا على القلعة بعد ذلك حملات عظيمة وزحفوا إليها زحفاً متتاعباً وعلّقوا عليها المنجنيقات الكثيرة.

وسيّر المستنصر بالله الخليفة جيوشه مع مملوكه وخادم حضرته وأخصّ مماليكه به (شرف الدين إقبال الشرابي) فساروا إلى تكريت.

فلمّا عرف التتر شخوصهم، رحلوا عن إربل بعد أن قتلوا منها ما لايُحصى، وأخربوها وتركوها كجوف حمار، وعادوا إلى تبريز وبها مقام جرماغون وقد جعلها دار ملكه.

فلمّا رحلوا عن إربل، عاد العسكر البغدادي إلى بغداد وكانت للتتار بعد ذلك نهضات وسرايا كثيرة إلى بلاد الشام قتلوا ونهبوا وسبوا فيها[2].

---

١ ـ تحيّفوا فيها أي أحدقوا ببعض نواحيها.

٢ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ج ٨ / ص ٢٣٨.

ويضيف رشيد الدين فضل الله الهمداني:

وفي أوائل هذه المدّة المذكورة، كان المستنصر هو خليفة آل عباس، وكان جنود المغول بموجب فرمان (بايجونويان) يغيرون على حدود بغداد أفواجاً أفواجاً. وقد حاصروا أربيل واستولوا عليها عنوة. فتحصّن أهل المدينة بالقلعة وصاروا يحاربون بعنف.

ونظراً لعدم وجود الماء في القلعة هلك أناس كثيرون، ولما كان من المتعذّر دفنهم صاروا يحرقون جثثهم، ثمّ خرّب المغول المدينة ونصبوا المجانيق على الأبراج.

فلمّا علم الخليفة بما حدث، أرسل (شمس الدين أرسلان تيكين) مع ثلاثة آلاف فارس لمساعدة المدافعين.

وعندما بلغ المغول نبأ وصولهم، رحلوا فجأة وولّوا هاربين.

واستفتى الخليفة الفقهاء «أيّهما أفضل الحجّ أم الجهاد؟».

فأفتى الجميع بأنّ الجهاد أفضل. فأمر الخليفة بعدم الذهاب إلى الحج في ذلك العام، وأخذ العلماء والفقهاء والخواص والعوام سواء منهم الغرباء وأهل المدينة يتدرّبون على رمي السهام وقواعد استعمال السلاح، كما أمر بتعمير خندق بغداد وسورها ووضعوا المجانيق على الأبراج[1].

أمّا صاحب كتاب البداية والنهاية فيرجّح انّ انهزام المغول كان بسبب فصل الشتاء، إذ يقول:

فيها (٦٣٤هـ) حاصرت التتار إربل بالمجانيق، ونقبوا الأسوار حتّى فتحوها عنوة، فقتلوا أهلها وسبوا ذراريهم، وامتنعت عليهم القلعة وفيها النائب من جهة الخليفة، فدخل فصل الشتاء، فأقلعوا عنها وانشمروا إلى بلادهم.

---

١ ـ جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله الهمداني / ص ١٩١، وتاريخ العراق بين احتلالين لعباس العزّاوي / ج ١ / ص ١٣٧، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ٢٥٠، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي / ج ٥ / ص ١٦٢، والعسجد المسبوك / ص ٤٧٨.

وقيل انّ الخليفة جهّز لهم جيشاً فانهزم التتار[١].

* * *

اهتمام الخلفاء بأربيل بعد عام ٦٢٩هـ يختلف عمّا قبلها؟

الملاحظ في غزو التتار مدينة أربيل قبل عام ٦٢٩هـ، انّ الخليفة العباسي الناصر أو حفيده المستنصر، لم يكونا يبديان اهتماماً بما يقوم به المغول في الغزو والاحتلال والقتل والنهب وما تبع ذلك من تخريب.

في حين نجد انّ المستنصر يبدي اهتماماً خاصّاً في عام ٦٢٩هـ، فيدعو ملوك الأطراف لتشكيل تجمّع عسكري لصد عدوان المغول[٢].

فلماذا الإهمال؟

ثمّ لماذا الإهتمام؟

الّذي يبدو لنا انّ أربيل كانت بيد مظفّر الدين كوكبري، وكان هذا مستقلّاً فيها عن سلطة الخلافة في بغداد، شأنه في ذلك شأن صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ وشأن جميع الملوك في الشام وديار بكر ومصر...

وإذا كانت كذلك، فهي لا تستأهل اهتمام الخليفة. فالخليفة إذا اهتمّ بأمر، فانّما يهتم لخاصّة نفسه ومملكته الّتي يشرف عليها إشرافاً فعلياً.

أمّا الاهتمام بالبلدان الاسلامية بصورة عامة وبشؤون المسلمين في كل مكان، فان ذلك ليس من خلق الناصر والمستنصر وسياستها.

ومظفر الدين صاحب إربل يعرف هذه القضيّة جيّداً، ولذلك فانّه في عام ٦٢٨هـ لم يطلب المعونة من الخليفة وإنّما طلبها من صاحب الموصل.

---

١ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١٣ / ص ١٦٩.

٢ ـ أشرنا إلى هذا الاتحاد العسكري قبل عدّة صفحات، عندما وجهنا انتقاداً إلى الخليفة الناصر في استنجاده بالمغول على خوارزم.

أمّا في عام ٦٢٩هـ فانّ مظفّر الدين مات، وانتقلت الولاية إلى الخليفة المستنصر. وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون:

... توفّي مظفر الدين كوكبري بن زين الدين كجك صاحب إربل سنة تسع وعشرين لأربع وأربعين سنة من ولايته عليها أيّام صلاح الدين بعد أخيه يوسف، ولم يكن له ولد، فأوصى بإربل للخليفة[1] المستنصر، فبعث إليها نوابه واستولى عليها وصارت من أعماله[2].

ولذلك فانّ المستنصر ـ وقد أصبحت إربل من أعماله ـ طلب النجدة من سلاطين المناطق المجاورة الّتي تعترف بخلافته، وقد مرّ هذا الحديث قبل عدّة صفحات.

❊ ❊ ❊

اللّوم يوجّه للحكّام وعلى رأسهم الخليفة حيث أوقعوا المسلمين في الدواهي

وانّ أشدّ ما يوجّه اللّوم للّذين أوقعوا المسلمين في هذه الدواهي هم الحكّام أنفسهم، وإذا قلنا الحكّام، فانّ على رأسهم الخليفة، لأنّه ـ نظريّاً ـ أمير المؤمنين وخليفة الله في الأرض، بهذه الصفات يمتلك الخليفة أموال المسلمين، وتُقبّل يداه ورجلاه، وتُقدّم له فروض الطّاعة.

---

١ ـ وحيث لم يكن لمظفر الدين ولد، فقد أوصى بإربل للخليفة، فكأنّما هي ملك له لا بدّ ان يتوارثه الوارثون وحيث لا وراث له فهي للإمام.

هكذا كانت الممالك الّتي كانت في يوم من الأيّام تحت النفوذ العباسي. ولكن العباسيين ضعفوا وانصرفوا للملاهي والخصيان والنسوان، فكان كل من يجد في نفسه قوّة ونشاطاً يستولي على بقعة من الأرض يقتطعها من الدولة العباسية ويعلن نفسه حاكماً مطلقاً عليها.

ولن يعترض عليه الخليفة ما دام يذكره في الخطبة ويرسل له المقسوم من الهدايا في المناسبات ويقبل يديه ورجليه، وحينذاك يسمّى هكذا (صاحب إربل وصاحب الموصل وصاحب حلب) فكأنّما سجلت المنطقة باسمه في دائرة التسجيل العقاري (الطابو).

٢ ـ تاريخ ابن خلدون / ج ٥ / ص ٢٧٥.

ولقد رأينا الناصر لدين الله، كيف يشغل نفسه بالتوافه، ويلقي حبل الدولة على غاربها، ثمّ يكتب للتتار بالتوجه لاحتلال أكبر سلطنة اسلامية، وهو ما تتهلّل له أسارير المغول.

فقد وجد المغول الخلاف عميقاً بين الخليفة وخوارزمشاه وهو ما جعلهم يعتقدون بأنّ الكيان الاسلامي كيان ممزق متهرئ، تقسّمه الأطماع وتجعله امارات وأقاليم لا يجمعها جامع، وكل واحد سواء كان خليفة أو سلطاناً أو أميراً، كل واحد منهم يكيد للآخر ويبغيه الغوائل.

ولقد وجدنا كيف انّ الخليفة لا يهمه مطلقاً تعرض إربل لغارات التتر، لأن إربل لا تخضع فعلاً لسيطرته، بل كان يوجّه الجيش إلى (دقوقا) لأنّها ضمن منطقة النفوذ.

أمّا يوم تصبح إربل تحت حماية الخليفة، فنراه يبدي اهتمامه فيها، وإن كان اهتماماً لا يتناسب مع قوّة التتار وسطوتهم.

والتتر انّما كانوا يغيرون على أربيل والمناطق الخليفية، فهو لجسّ نبض الخليفة أوّلاً، ثمّ لمعرفة تحركه وتحرك الحكّام المسلمين، فإذا ما وجدوا أن قوّة المسلمين سرعان ما تقهر وتتقهقر، فانّهم يتقدّمون إلى الأمام نحو خانقين وسرّ من رأى ثمّ أطراف بغداد ثمّ بغداد نفسها عام ٦٥٦هـ على يد هولاكو.

وعندها تقع الواقعة الّتي ساهم فيها الخلفاء أوّلاً ثمّ التتر ثمّ عوامل أخرى ذكرنا بعضها، وسوف نذكر بعضها الآخر إن شاء الله.

ولقد وجدت اشارة تاريخية ينقلها ابن الأثير، تشير إلى هذه الفكرة الّتي تحسّسناها في الخطط العسكرية المغولية، إذ يقول:

ولقد وقفت على كتاب من تاجر من أهل الري في العام الماضي (٦٢٧هـ) كان قد انتقل إلى الموصل وأقام بها هو ورفقاء له، ثمّ سافر إلى الري في العام الماضي قبل خروج التتر، فلمّا وصل التتر إلى الري وأطاعهم أهلها وساروا إلى اذربيجان سار هو معهم إلى تبريز، فكتب إلى أصحابه بالموصل يقول:

إنّ الكافر ـ لعنه الله ـ ما نقدر نصفه ولا كثرة جموعه حتّى لا تنقطع قلوب

المسلمين، فانّ الأمر عظيم، ولا تظنّوا انّ هذه الطائفة الّتي وصلت إلى نصيبين والخابور، والطائفة الأخرى الّتي وصلت إلى إربل ودقوقا، كان قصدهم النهب، انّما أرادوا أن يعلموا. هل في البلاد مَن يردّهم أم لا؟

فلمّا عادوا، أخبروا ملكهم بخلوّ البلاد من مانع ومدافع، وانّ البلاد خالية من ملك وعساكر، فقوي طمعهم وهم في الربيع يقصدونكم وما يبق عندكم مقام إلّا إن كان في بلد الغرب، فان عزمهم على قصد البلاد جميعها، فانظروا لأنفسكم.

هذا مضمون الكتاب، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم[١].

❊ ❊ ❊

فالتتار كانوا يتحيّنون الفرص للقضاء على شوكة المسلمين وديارهم.

والمسلمون ومعهم خليفتهم وسلطانهم مشغولون بأمور تافهة، ويتقاتلون فيما بينهم، والعدوّ يبتهج عندما يرى تفكّك المسلمين، وهم أولى بالألفة والاجتماع والتراص وإعداد القوّة.

ولقد أغنانا ابن الأثير حين يصف جلال الدين الخوارزمي، فيقول:

كان جلال الدين سيِّئ السيرة قبيح التدبير لملكه، لم يترك أحداً من الملوك المجاورين إلّا عاداه ونازعه الملك، وأساء مجاورته.

فمن ذلك انّه أوّل ما ظهر في اصفهان وجمع العساكر قصد خوزستان، فحصر مدينة شوشتر وهي للخليفة وسار إلى دقوقا فنهبها وقتل فيها، فأكثر وهي للخليفة أيضاً.

ثمّ ملك اذربيجان وهي لأوزبك، وقصد الكرج وهزمهم وعاداهم، ثمّ عادى الملك الأشرف صاحب خلاط، ثمّ عادى علاء الدين صاحب بلاد الروم، وعادى الإسماعيلية ونهب بلادهم وقتل فيهم فأكثر، وقرّر عليهم وظيفة من المال كل سنة وكذلك غيرهم، فكلّ الملوك تخلّى عنه ولم يأخذ بيده[٢].

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ١٠ / ص ٤٩٤.

٢ ـ المصدر السابق / ص ٤٩٤.

الملوك الأيوبيون يخونون الاسلام ويعطون القدس للصليبين

الأدهى من كل شيء، حين يتآمر الملك المسلم على الملك المسلم بالتعاون مع قوى الكفر.

بل انّ الأدهى من ذلك كلّه، حين يكون التآمر على المقدّسات الاسلامية، كما فعل الملوك الأيوبيون مع الصليبيين، فسلموهم القدس الشريف.

وإذا ذكرنا ذلك، فلن نكون قد خرجنا من البحث الأساس في سقوط بغداد، وانّما هو من الصميم، لكي يتبيّن القارئ الكريم مدى ما فعله الملوك المسلمون وعلى رأسهم الخلفاء في تفكك الكيان الاسلامي، ومن ثمّ في التمهيد لغزو المغول الّذين قضوا على الخلافة العباسية في بغداد عام ٦٥٦هـ، بل على الشعور الاسلامي في الدفاع عن الوطن والدين.

وسوف يدرك القارئ المتجرّد ان قضية اجتياح المغول لم تكن مجرّد رغبة منهم في التسلّط على مناطق أوسع وممالك أكبر، وانّما الّذي شجعهم على ذلك هم الحكّام أنفسهم وعلى رأسهم الخلفاء الأجلّاء أمراء المؤمنين العباسيون.

كان للعادل أي صلاح الدين الأيوبي ثلاثة أولاد، هم:

الكامل والمعظم والأشرف.

وبعد وفاة أبيهم العادل، قام النزاع بين أولاده، لا سيما بين الكامل والمعظم، فاستنجد الكامل بفردريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية في غرب أوربا مرسلاً إليه شيخ الشيوخ الأمير فخرالدين يوسف[1] يدعوه أن يحضر لمساعدته في الشام وتعهّد له ان يعطيه مقابل ذلك «بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل»[2].

---

١ ـ أينا تولوا وجوهكم تجدوا وعاظ السلاطين.

٢ ـ مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك للدكتور سعيد عاشور / ص ٩٣، نقلاً عن العيني في عقد الجمان حوادث سنة ٦٢٤هـ، والمقريزي في كتاب السلوك / ج ١ / ص ٢٢١ ـ ٢٢٣.

وصل الرّسول (سماحة شيخ الشيوخ) إلى فردريك وهو بصقلية، فاستجاب للدعوة، وغادر الغرب في ٦٢٥هـ قاصداً بلاد الشام، فكانت هذه الحملة هي الحملة الصليبية السادسة الّتي تمّت برعاية الملك الكامل الأيوبي.

وفي شهر شباط سنة ١٢٢٩م / ٦٢٦هـ تمّ الاتفاق بين الطرفين على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة وتبنين وصيدا وطريق الحج من القدس إلى يافا وعكا، على ان تكون الصخرة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين، فدخل فردريك الثاني القدس في ١٩ آذار سنة ١٢٢٩م / ٦٢٧هـ ليتوّج نفسه إمبراطوراً في كنيسة القيامة، ثمّ عاد إلى أوربا.

وفي سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م استردّ الناصر داود القدس من الصليبيين، وفي ٦٣٧هـ / ١٢٤٠م اشتدّ النزاع بين الأيوبيين، فتآمر فريق منهم على العادل صاحب مصر فحلّ محلّه في حكم مصر الصالح نجم الدين أيوب، فاستاء ذلك الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق، فاستنجد بالصليبيين لينصروه على الصالح أيوب في مصر وحليفه الناصر أيوب في الأردن وتعهد لهم بتسليمهم القدس وإعادة مملكة الصليبيين إلى ما كانت عليه قديماً بما فيها الأردن.

ولكي يبرهن صاحب دمشق على نيته تجاه الصليبيين بادر فوراً بتسليمهم القدس وطبرية وعسقلان، فضلاً عن عدد آخر من قلاع الشام الّتي كانت بأيدي المسلمين[١].

فأسرع الصليبيون إلى تسلّم القدس وحصّنوا قلعتي طبريا وعسقلان ثمّ رابطوا بين يافا وعسقلان، ووعدهم الصالح إسماعيل بأنّه إذا ملك مصر أعطاهم بعضها، فاتجهوا نحو غزة عازمين على غزو مصر[٢].

ثمّ حضر الصالح إسماعيل صاحب دمشق والملك المنصور إبراهيم الأيوبي صاحب

---

١ ـ مصر والشام / ص ١٠٨ وما بعدها، نقلاً عن المقريزي في السلوك / ج ١ / ص ٣٠٣.

٢ ـ النجوم الزاهرة / ج ٦ / ص ٣٢٢.

حمص على رأس جيوشهما لمعاونة الصليبيين على غزو مصر [١].

ولكن القوات الشامية التابعة للصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم رفضت ذلك وانضمت إلى الجيش المصري ما أدّى إلى فشل الصليبيين.

ولم يلبث النزاع أن دبّ مرّة أخرى بين الصالح أيوب في مصر وعمّه الصالح إسماعيل في دمشق، وساند الأخير الناصر داود في الأردن.

وكان أن لجأ ملكا دمشق والأردن إلى طلب مساعدة الصليبيين وعرضا عليهم مقابل تلك المساعدة ان يوافقا على ان تكون سيطرة الصليبيين على القدس تامّة.

بمعنى أن يستولي الصليبييون على الحرم الشريف بما فيه من المسجد الأقصى وقبّة الصخرة، وهي المواضع الّتي ظلّت ـ ولو إسمياً ـ في حوزة المسلمين وتحت إشرافهم منذ تسليم القدس للصليبيين بمقتضى اتفاقية سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م [٢].

وفي ذلك الوقت نفسه عرض السلطان الصالح أيوب على الصليبيين محالفته على ملك دمشق والأردن مقابل الثمن الّذي عرضه هذان الملكان على الصليبيين.

ولذلك فانّ الملوك الأيوبيين الثلاثة: الصالح أيوب والصالح إسماعيل والناصر أيوب قد أقروا في تلك السنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣ ـ ١٢٤٤م مبدأ استيلاء الصليبيين على الحرم الشريف.

ويروي المؤرّخ جمال الدين بن واصل أنّه مرّ بالقدس عندئذٍ «فرأيت الرهبان على الصخرة وعليها قناني الخمر ورأيت الجرس في المسجد الأقصى وأبطل الأذان في الحرم» [٣].

---

١ ـ المصدر السابق / ج ٦ / ص ٣٢٣.

٢ ـ مصر والشام في عهد الأيوبين والمماليك / ص ١١١، نقلاً عن المقريزي في السلوك / ج ١ / ص ٣١٥.

٣ ـ مصر والشام / ص ١١٢، نقلاً عن العين في عقد الجمان حوادث سنة ٦٤١هـ، وأبو الفداء حوادث سنة ٦٤١.

وهكذا... ففي نفس الفترة الّتي كان المغول يغيرون على البلاد الإسلامية والّذي كان يجب على المسلمين وعلى حكّامهم بصورة خاصّة ان يتحدوا ويكونوا جبهة واحدة قويّة متراصة أمام العدو الوثني، فانّنا نرى الملوك الأيوبيين يتحالفون مع الصليبيين على بعضهم البعض ويسلّمونهم القدس الشريف.

وتلك محنة المسلمين في كل زمان ومكان، والّذي جرى في الأندلس هو عين ما كان يجري على يد الأيوبيين، وهو نفسه الّذي يجري الآن في فلسطين بعد أن ارتبط حكّام المسلمين بالصليبيين الجدد وبالصهاينة الّذين هم أشدّ خطراً من المغول.

* * *

تلك كانت زفرة تخرج من الأعماق وتحرق القلب لما كان يجري في البلدان الاسلامية على يد خلفائهم وحكّامهم الّذين أساؤوا إلى الاسلام بقدر ما أساء المغول، إن لم يكونوا يفوقونهم.

وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

* * *

المغول بدأوا يقتربون من بغداد عندما استشعروا ضعف القوّة الاسلامية

ذكرنا سابقاً كيف غزا المغول مدينة أربيل عام ٦٣٤هـ، ورجّحنا انّهم كانوا يريدون استطلاع الوضع الخليفي واختبار القوّة، فكانوا يتقدمون قليلاً قليلاً.

علماً بأنّ الحملة العسكرية، سواء كانت للاستطلاع أو للغزو، فانّها كانت تحقق لهم مكاسب في النهب والسلب.

ولذلك فانّهم في عام ٦٣٥هـ بدأوا يزحفون إلى قرب بغداد ووصلوا إلى دقوقا ثمّ إلى بعقوبا وسرّ من رأى وحوالي بغداد.

ثمّ تراجعوا ولا يُدرىٰ هل تراجعوا لأنّهم لمسوا قوّة الجيش الخليفي، أو لأنّهم في الأساس لم يكونوا يريدون احتلال بغداد وأرجأوا ذلك إلى وقت آخر.

وعلى كلّ حال، فالهجوم عام ٦٣٥هـ، كان في البداية على أربيل وكان استعداد نائب الخليفة المستنصر في أربيل استعداداً جيّداً، وهو الّذي ينقله لنا صاحب كتاب العسجد المسبوك إذ يقول:

عاد التتر إلى إربل في جمع كثير، وكان وصولهم بغتة، فانزعج مَن كان فيها من الناس ومَن كان بالقلعة خوفاً منهم، فأمر زعيمها بخروج العسكر إلى ظاهر البلد واستعدّوا للحراسة، فعدل التتر عن إربل وقصدوا داقوقا وانبثّوا في أعمال بغداد.

فوصل الخبر إلى الخليفة، فبعث إليهم شرف الدين اقبال الشرابي، فنزل إلى ظاهر البلد في العساكر الاسلامية، وسار نحوهم.

فلمّا وقعت العين في العين وشهرت السيوف واضطربت الصفوف، ولمعت الأسنّة، وارتفع التكبير، وتعبّأ المسلمون ميمنة وميسرة وقلباً، عاد التتر راجعين، فتبعهم الترك، فقتلوا من ساقهم جماعة وأخذوا خيولاً، وكانت الوقعة يوم الثلاثاء سابع عشر صفر[١].

ولكن صاحب شذرات الذهب يقول انّ المغول عندما انسحبوا من إربل إلى داقوقا انهزم منهم المسلمون.

... فيها (أي في عام ٦٣٥هـ) وصلت التتار إلى دقوقا تنهب وتفسد، فالتقاهم الأمير (بكلك) الخليفتي في سبعة آلاف والتتار في عشرة آلاف، فانهزم المسلمون بعد أن قتلوا خلقاً وكادوا ينتصرون، وقتل (بكلك) وجماعة أمراء أعيان[٢]، ثمّ زحفوا (التتر) إلى بغداد.

وهنا يذكر التاريخ موقفاً شهماً للخليفة المستنصر ينقله لنا رشيد الدين الهمداني في كتابه جامع التواريخ فيقول:

... ولكن المغول عاودوا الهجوم على أربيل، فانزعج سكّانها ووقف الأمير

---

١ ـ العسجد المسبوك / ص ٤٧٩.

٢ ـ جامع التواريخ رشيد الدين فضل الله الهمداني / ص ١٩١.

(أرسلان تيكين) بجيش عظيم منظم خارج المدينة يترقب وصولهم.

فلمّا علم المغول بذلك عادوا من هناك وزحفوا على منطقة (دقوقا) وأعمال بغداد وأعملوا فيها القتل والنهب وأخذوا السبايا.

فكان شرف الدين اقبال الشرابي قد طلب من خطيب بغداد أن يحثّ الناس على الجهاد، فخرجوا، وكان جمال الدين (قوشتيمور) قائداً للجيش، فالتقى الجيشان عند جبل حمرين، وقد خرج الخليفة المستنصر من مدينة بغداد واحضر الخواص والعوام وخاطب الناس قائلاً: «انّ المغيرين وأعداء الدين قد قصدوا ديارنا من كل جانب وليس لي سوى هذا السيف لمقاومتهم وانّي لعازم على ان أسير بنفسي لمحاربتهم».

فقال الملوك والأمراء: (لاينبغي أن يشقّ الخليفة على نفسه، فسنذهب نحن الأتباع لقتالهم).

ثمّ ذهبوا جميعاً وحاربوا ببسالة، وعاد المغول واستردّوا أسرى أربيل ودقوقا[1] إلّا ان ابن العبري يذكر انّ الجيش الاسلامي أعطى خسائر عظيمة فيقول:

وفيها (أي في سنة ٦٣٥هـ).

غزا التتار العراق، ووصلوا إلى تخوم بغداد، إلى موضع يسمّى (زنكاباذ) وإلى سرّ من رأى، فخرج إليهم مجاهدالدين الدويدار وشرف الدين اقبال الشرابي في عساكرهما، فلقوا المغول وهزموهم، وخافوا من عودهم، فنصبوا المنجنيقات على سور بغداد، وفي آخر هذه السنة عاد التاتار إلى بلد بغداد ووصلوا إلى خانقين، فلقيهم جيوش بغداد، فانكسروا (أي انكسر جيش بغداد) وعادوا منهزمين إلى بغداد بعد أن قتل منهم خلق كثير.

وغنم المغول غنيمة عظيمة وعادوا[2].

---

١ ـ جامع التواريخ رشيد الدين فضل الله الهمداني / ص ١٩١.

٢ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ٢٥١.

المؤرّخ ابن الفوطي يشرح العمليات الحربية لعام ٦٣٥هـ شرحاً دقيقاً

ولعلّ أفضل من كتب عن حوادث عام ٦٣٥هـ هو ابن الفوطي في كتابه (الحوادث الجامعة) وقد كان معاصراً للأحداث، إذ يقول:

في صفر وصلت الأخبار إلى أهل إربل، ان عساكر المغول عادوا إلى قصدهم في جميع كثير، فانتزح من كان بها وبالقلعة أيضاً.

فلمّا رأى زعيمها الأمير شمس الدين باتكين خلو البلد، أمر بخروج العسكر المقيم هناك إلى ظاهر البلد ثمّ الاستعداد للحراسة، فعدلوا حينئذٍ عن إربل وقصدوا دقوقا.

وانبثّوا في أعمال بغداد وعاثوا بها أشدّ العيث.

فوصل الخبر إلى بغداد، فخرج شرف الدين اقبال الشرابي مبرزاً إلى ظاهر البلد وأمر خطيب جامع القصر أبا طالب بن المهتدي بأن يحرّض في خطبته على الجهاد، ففعل ذلك.

فبكى الناس لما سمعوا كلامه، وأجابوا بالسمع والطاعة.

وقدم أهل السواد من دقوقا وغيرها إلى بغداد معتصمين بها.

وتضاعفت أجرة المساكن، وانزعج الناس لذلك، وتتابع خروج الأمراء والعساكر إلى ظاهر البلد.

وركب الخليفة المستنصر بالله إلى الكشك، فنزل بـه وظـهر للأمـراء، وأمـرهم المشورة، فقال كل واحد ما عنده، وسهّل الأمير جمال الدين قشتمر الأمر في لقائهم، وعين الشرابي على جماعة من الأمراء لقصدهم.

فتوجّهوا إلى القليعة ونزلوا بها، فبلغهم انّ المغول في جمع كثير وهم بالقرب من الجبل، فساروا نحوهم، فلمّا قاربوهم تعبّوا ميمنة وميسرة وقلباً.

فلمّا شاهدت عساكر المغول ذلك، ولوّا راجعين، فتبعهم جماعة من العسكر فقتلوا منهم جمعاً كثيراً وأسّروا منهم جماعة، وغنموا من دوابهم وأثقالهم، وأرسلوا إلى الشرابي برؤوس كثيرة.

فضربت البشارة عند مخيمه وخلع على الواصلين بالخبر، واستأذن الشرابي في دخول البلد فاذن له.

فدخل في مستهل ربيع الأوّل، هو والأمير جمال الدين قشتمر والعسكر.

وأذن لنور الدين أرسلان شاه بن عماد الدين زنكي صاحب شهرزور في العود إلى بلده، وخلع عليه وعلى أصحابه.

وتقدم إلى تاج الدين محمّد بن الصلايا العلوي بالتوجه إلى إربل وتجديد سورها وعمارة ما خرّب من دورها، ونفذ معه كركر الناصري ليكون مستحفظاً بقلعتها، وعيّن الأمير (أيدمر) الأشقر الناصري زعيماً بها، وكان زعيمها الأمير شمس الدين باتكين قد فارقها.

ثمّ تقدّم بعمارة سور بغداد وقسم بين أرباب الدولة، فسلم إلى ديوان الأبنية منه قطعة ممّا يلي دار المسناة، وقسّم العمل بين ثلاثة وهم:

فخرالدين المبارك بن المخرمي صاحب الديوان.

وابن أبي عيسى صدر المخزن.

وتاج الدين عليّ بن الدوامي صاحب الباب، ووقع الحث على ذلك.

ثمّ وصل الخبر في شهر رجب المبارك انّ عساكر المغول قد سارت نحو بغداد، فتقدّم إلى الأمراء بالخروج إلى ظاهر البلد فخرج الأمير جمال الدين بكلك الناصري والأمير جمال الدين قشتمر وغيرهما من الأمراء، وخيّموا ظاهر البلد.

وكاتب الخليفة ملوك الأطراف يستنجدهم ويعرِّفهم الحال، فوصل في شهر رمضان ولدا الملك الأمجد فرّخشاه صاحب بعلبك، وهما الملك السعيد شاهنشاه والمظفّر عمر ومعهما ألف فارس.

فخرج الموكب إلى لقائهما، فدخلا وقبّلا العتبة فخلع عليهما، وعلى الأمراء الواصلين صحبتهما ثمّ خرجا وأنزلا في المخيم بظاهر السور.

ثمّ وصل بعده الملك خضر بن صلاح الدين صاحب دمشق ومعه ستمائة فارس وتلقي ودخل البلد وخلع عليه وعلى أصحابه، وخرج إلى ظاهر السور.

وخرج شرف الدين اقبال الشرابي أيضاً إلى مخيمه، وتكملت العساكر عنده، فأمرهم بالمسير إلى لقاء المغول، فساروا في شوال، وكانت عدتهم سبعة آلاف فارس، فوصلوا قريباً من جبل خانقين.

فبلغ جمال الدين بكلك ان عدّة عساكر المغول خمسة آلاف فارس، فسار ليله أجمع ليدركهم نازلين، فكبسهم.

فلمّا أسفر الصبح، عبر هو والأمراء الّذين معه والعسكر قنطرة هناك، فلمّا تكاملوا عبور القنطرة، بان لهم غبار عساكر المغول وهم سائرون نحوهم، فواقعوهم على تعب وسهر. واقتتلوا قتالاً شديداً، وانكسرت ميمنة المغول وميسرتهم ولم يبق إلّا القلب فحينئذٍ ظهرت كوامن كانت لهم وأحاطوا بعسكر بغداد وكانوا قد لجّوا وراء المنهزمين.

فانهزمت حينئذٍ عساكر بغداد وقتل منهم خلق كثير، فالتجأوا إلى دجلة (؟) قريبة من موضع الوقعة، فهلك معظمهم جوعاً وعطشاً.

وعاد من سلم منهم إلى بغداد، وقتل جمال الدين بكلك وطبرس وطغرل الحلبي وقيصر الظاهري وبهاء الدين علي الإربلي كيكلدي بن قرغوي وجماعة من كبار الزعماء يطول ذكرهم.

وكانت هذه الوقعة يوم الخميس ثالث ذي القعدة.

ووصل الخبر على جناح طائر يوم الجمعة رابعه، فانقلب البلد وماج بأهله، ووصل أثر الطائر أهل طريق خراسان والبنديجين وغيرهم منتزحين عن أوطانهم.

وقدم ابن أبي عيسى صدر المخزن ومشرفه والعمال والنواب، وكثر الهرج، وضجّ الناس.

فتقدّم الخليفة إلى كافّة الأمراء بالتبريز (بمعنى الظهور) وفتحت أبواب السور، فخرجوا في تلك اللّيلة وخرج الشرابي، وخيّموا جميعهم بالقرب من الملكية.

وخرج الخليفة لينظر المخيم والعسكر، فبلغ الشرابي ذلك، فركب عجلاً للقائه، فظن الناس ان ركوب الشرابي لأمر حدث، فركب معظم العسكر منزعجين، ووصل الخبر إلى عوام البلد وخواصه.

فخرج أكثرهم متسلّحين، فلمّا عرفوا حقيقة الحال سكنوا واطمأنوا.

أمّا المغول فانّهم حازوا الغنائم وعادوا راجعين من خانقين وراسلوا الخليفة، فوصل رسولهم في ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وستمائة، فأنفذ العدل جعفر بن محمّد ابن عباس البطائحي ناظر التركات، صحبة الرسول الوارد من (جرماغون) مقدمهم، وكان عودهم في سنة سبع وثلاثين، واجتمع به بالقرب من قزوين.

وأذن للشرابي والأمراء والعساكر بالدخول إلى البلد فدخلوا في آخر ربيع الآخر، ولم يحجّ في هذه السنة أيضاً[1].

❊ ❊ ❊

المستنصر يُصاب بالغرور
فيرفض عرضاً كريماً للصّلح بينه وبين المغول

ولربّما شعر الخليفة المستنصر بالقدرة الفائقة وبالقوّة الغالبة، فظنّ انّه لن يقهر بعد هذا، عندما جاءه أحد العلماء متبرّعاً بالذهاب إلى المغول والتكلّم معهم عسى أن ينفع ذلك ويرجعوا أدبارهم، ولكنّ الخليفة رفض هذه الوساطة فلنستمع إلى هذه القصّة الّتي يرويها صاحبها (رضي الدين علي بن طاووس) فيقول:

... انّه قد غلب التتار على بلاد خراسان، وطمعوا في هذه البلاد، ووصلت سراياه إلى نحو مقاتلة بغداد في زمن الخليفة المستنصر، فكتبت إلى الأمير قشمر وكان إذ ذاك

---

١ ـ الحوادث الجامعة لابن الفوطي / ص ١٠٩ ـ ١١٤.

مقدم العساكر خارج بلد بغداد، وهم مبرزون بالخيم والعدد والاستظهار ويخافون أن تأتيهم عساكر التتار، وقد نودي في باطن البلد بالخروج إلى الجهاد.

فقلت له بالمكاتبة:

استأذن لي الخليفة وأعرض رقعتي عليه في أن يأذن لي في التدبير ويكونون حيث أقول يقولون، وحيث اسكت يسكتون، حتّى أصلح الحال بالكلام، فقد خيف على بيضة الاسلام، وما يعذر الله جلّ جلاله من يترك الصلح بين الأنام.

وذكرت في المكاتبة: أنّني ما أسير بدرع ولا عدّة إلّا بعادتي من ثيابي، ولكنّي أقصد الصلح بكل ما في أيديكم لله جلّ جلاله، ولا أبخل بشيء لا بدّ منه، وما أرجع بدون الصلح فانّه ممّا يريده الله عزّ وجلّ ويقرّبني منه، فاعتذروا وأرادوا غير ما أردناه.

وقد حضرت عند صديق لنا وكان أستاذ دار وقلت له:

تستأذن الخليفة في أن أخرج أنا وأخي الرضا والآوي محمّد بن محمّد بن محمّد الأعجمي، ونأخذ معنا من يعرف لغة التتار، ونلقاهم ونحدثهم بما يفتح الله جلّ جلاله علينا، لعل الله جلّ جلاله يدفعهم بقول أو فعل أو حيلة عن هذه الديار.

فقال: نخاف تكسرون حرمة الديوان ويعتقدون انّكم رسل من عندنا.

فقلت: تغدو معنا ديوانية ومن تختارون، ومتى ذكرناكم أو قلنا انّنا عنكم، يحملون رؤوسنا إليكم، فقد أنجاكم ذلك وأنتم معذورون، ونحن انّما نقول إنّنا أولاد هذه الدعوة النبويّة والمملكة المحمّدية وقد جئنا نحدثكم عن ملتنا وديننا، فإن قبلتم وإلّا فقد أعذرنا إلى الله جلّ جلاله وإلى رسوله ﷺ.

فقال: اجلس في موضع منفرد، أشار إليه.

وظاهر الحال انّه أنهى ذلك إلى المستنصر جزاه الله عنّي ما هو أهله، ثمّ أطال، وطلبني من الموضع المنفرد، وقال ما معناه (إذا دعت الحاجة إلى مثل هذا أذنّا لكم، لأنّ القوم الّذين أغاروا ماهم متقدم تقصدونه وتخاطبونه، وهؤلاء سرايا متفرقة وغارات غير متفقة).

فقلت لهم:

إذا تركتم الاذن لنا في ذلك فقد حصل لنا اخلاص في النيّة، فنخاف ان تطلبونا وقت الاذن وما كان عندنا هذا الاخلاص، فلا نوافقكم على الخروج إليهم، فلم يأذنوا في ذلك.

وكذا جرى فانّني كنت استأذنت الخليفة في زيارة مولانا الرضا عليه التحيّة والثناء بخراسان، فأذن وتجهزت، وما بقي إلّا التوجه في ذلك المكان.

فقال من كان الحديث في الاذن إليه:

قد رسم انّك تكون رسولاً إلى بعض الملوك، فاعتذرت.

وقلت: هذه الرسالة إن نجحت ما يتركوني بعدها أتصرّف في نفسي إلّا لا أزال رسولاً.

وإن جنحت صغر أمري عندكم وانكسرت حرمتي، واعتقدتم انّني ما أعرف القيام بمثل هذا،

لو توجّهت كان بعدي من الحسّاد من يقول لكم انّه يبايع ملك الترك ويجيء به إلى هذه البلاد، وتصدقونه وتصير همّتكم في إنفاذ مَن يقتلني بالسم وغيره....[1].

❊ ❊ ❊

فالغرور أصاب الخليفة المستنصر، وفوّت عليه فرصة عظيمة كانت سانحة ففرّط بها.

والفرص نادرة دائماً تمرّ مرّ السحاب.

فما كان يضيره لو أذن لابن طاووس في الذهاب إلى القائد المغولي، فعسى ان يحقق شيئاً؟

فلربّما كانت الوساطة تنجح فتعوّق تقدم المغول أيّام المستنصر ثمّ أيّام المستعصم وتدرأ غائلة سقوط بغداد.

وأي بأس على كرامة المستنصر لو وافق على ذلك؟

---

١ ـ كشف المحجّة لثمرة المهجة لرضي الدين علي بن طاووس / ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

فلو نجح ابن طاووس في مسعاه فهو الفوز العظيم.

وإن جنح فلن يصيب المستنصر أي خذلان، لأنّ الوساطة لم تكن في الأساس بأمره.

ولقد كان ابن طاووس ذكياً حين قال لهم انّني اذهب من تلقاء نفسي لكيلا يصل الخليفة بأس إذا فشلت في مهمتي.

أمّا إذا كلفه الخليفة بالمهمة، فانّه يخشى ان تكون نتيجته الفشل الّذي يحسب على الخليفة.

وأضاف أمراً آخر، ووضع اصبعه على المرض الّذي كان سارياً آنذاك بين أصحاب الخليفة وحاشيته، فانّ الحسّاد سوف يقولون عنه انّه يبايع ملك الترك ويجيء به إلى هذه البلاد.

والعجيب انّ المؤرّخين لا يشيرون إلى هذه القضيّة مطلقاً، في حين نراهم يتمسّكون بأمور واهية ليصلوا إلى نتائج ليست بذات أساس، ولا قيمة لها من الناحية التأريخية المجرّدة.

فالعنصرية القومية والطائفية تتحكم بأقلامهم، فيكتبون حسب أهوائهم، ولكن القارئ اللبيب يستطيع ان يميّز بين الغث والسمين وبين الحقيقة والهراء.

ومع ذلك فانّ أولئك المؤرّخين استطاعوا ان يؤثروا على قطاعات واسعة من الناس في تعميق الخلاف والتشويه والتزوير، حتّى أصبح كل ذلك وكأنّه حقيقة واقعة ليس فيها محل للنقاش.

❋ ❋ ❋

تتويج كيوك خان ملكاً للمغول والمستعصم يبعث سفيراً للتهنئة

في عام ٦٣٩هـ مات أوكتاي خان بن جنكيز خان، وتسلّمت زوجته الحكم ثمّ تنازلت عن العرش إلى ولدها (كيوك) في ربيع عام ٦٤٣هـ[1] وكان يوم جلوس كيوك خان على العرش يوماً مشهوداً.

---

١ ـ في حين أنّ بعض المؤرّخين يقولون أنّ الاجتماع كان في عام ٦٤٥هـ كما في العبري والعراق بين احتلالين، ولكننا نرجح التاريخ ٦٤٣هـ.

وقد نقل لنا المؤرّخ المعاصر رشيدالدين الهمداني تفاصيل حفلة التتويج وما جرى فيها:

... وصل الأمراء الأنجال وأمراء الميمنة والميسرة، كل منهم مع أتباعه وأشياعه،

وقبل الجميع وصلت (سيور قوقتيتي بيكي) وأبناؤها من دانين بأنواع الزينات وفي ابهة تامّة، وبقية الأعمام وأبناء الأعمام.

ومن معسكر (جوجي) كان (باتو) قد أوفد اخوته،

وقدم من كل فج (النويان)[1] والأمراء الكبار المشهورون وفي معيّتهم الأمراء الأنجال.

وجاء من ناحية (الخطا) الأمراء وذوو المناصب الكبيرة.

ومن التركستان وماوراء النهر الأمير مسعود بيك وفي رفقته عظماء تلك الديار.

ومن خراسان الأمير أرغون وفي صحبته الأمراء والوجهاء في هذا الاقليم ومن العراق واللور واذربيجان وشيروان.

ومن بلاد الروم السلطان ركن الدين.

ومن جورجيا (كرجستان) اثنان يحملان اسم داوود.

ومن حلب أخو أميرها.

ومن الموصل رسول بدر الدين لؤلؤ.

ومن دار الخلافة ببغداد قاضي القضاة فخر الدين.

ورسل الفرنج وفارس وكرمان.

ومن قبل علاء الدين صاحب ألموت محتشما قوهستان، شهاب الدين وشمس الدين.

* * *

---

١ ـ جمع نوين، وهو أمير لعشرة آلاف.

حضرت هذه الجماعة كلّها بأحمال كثيرة وهدايا تليق بمثل تلك الحضرة وكانوا قد أعدّوا لهم ما يقرب من ألفي سرادق.

ولكثرة الخلق لم يبق موضع للنزول في المنطقة المحيطة بالمعسكر.

بعد ذلك بدأ (كيوك خان) بترتيب أعماله وتعيين الولاة.

فولّى على (الخطا) الصاحب (يلواج).

وأحال حكم التركستان وماوراء النهر إلى الأمير مسعود بيك.

وعهد بحكم خراسان والعراق واذربيجان وشيروان اللور وكرمان وجورجيا (كرجستان) وأطراف الهند إلى الأمير (أرغون).

وأمر بأن يعطى جميع الأمراء والملوك التابعين لكل واحد من هؤلاء الولاة اليرالغ والبايزات، وفوّض إليهم مباشرة المهام.

ومنح السلطان ركن الدين سلطة الروم وعزل أخاه، وجعل (داود بن قيز ملك) تابعاً لداوود الآخر[1].

وأرسل على لسان رسول الخليفة تهديداً ووعيداً له، وذلك بسبب الشكوى الّتي شكاها منه (شيرامون بن جرماغون) وكذلك أمر بأن يكتب ردّ الرسالة الّتي كان قد أحضرها إليه رسولا الإسماعيلية بكل خشونة وغلظة[2].



ممّا تقدّم تتوضّح لنا عدّة أمور:

١ ـ انّ الخليفة المستعصم بعث قاضي القضاة (فخر الدين) إلى المغول لتهنئة كيوك خان بجلوسه على العرش.

٢ ـ ملوك الدنيا يتسابقون في ارسال ممثلين لهم في هذا الاحتفال.

---

١ ـ كان كلاهما يطالب بعرش جورجيا.

٢ ـ جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله الهمداني / ص ١٨٠ ـ ١٨٤.

٣ ـ ورد ذكر وصول وفد من العراق، ونحن نعتقد أنّ المقصود به هو وفد الخليفة (قاضي القضاة) وليس وفداً آخر.

٤ ـ كيوك خان يعين ملوك الأقاليم أو يقرّهم بمواضعهم، وكان من ذلك أن عيّن (ارغون) حاكماً لخراسان والعراق واذربيجان وشيروان واللور وكرمان وجورجيا والهند.

٥ ـ أرسل على لسان رسول الخليفة تهديداً ووعيداً.

والسؤال الّذي يبرز أمامنا هنا هو:

لماذا هذه السفارة من الخليفة والحروب بينهما سجال؟

ربّما كانت السفارة لأنّ الخليفة يخشى من سطوة المغول، فأراد مداراتهم، أو لأنّ الخليفة المستعصم وجد نفسه خليفة جديداً، ووجد (كيوك خان) ملكاً جديداً، فأراد أن يشعر المغول بعهد جديد، يُتناسىٰ فيه الماضي وتكون فيه العلاقات جيّدة.

* * *

ولكن كيوك خان لم تكن تؤثر فيه هذه المجاملات، فقد أرسل على لسان رسول الخليفة تهديداً ووعيداً، وذلك بسبب الشكوى الّتي شكاها منه شيروان ابن جرماغون.

وما هي هذه الشكوى؟

وأين وقعت؟

لم يذكر التاريخ عنها شيئاً، وكل ما في الأمرأن كيوك خان أهان رسول الخليفة، وكذلك كتب رسالة خشنة إلى صاحب (ألموت) الإسماعيلي.

في حين انّ كلّاً من الإسماعيليين والخليفة العباسي الناصر، كان قد كتب للمغول يستحثه على غزو خوارزم.

فهل استهان بهما منذ ذلك اليوم واستصغر شأنها؟

ثمّ انّنا نجد ان كيوك خان يعين الولاة للأقاليم، ومنهم الأمير (ارغون) حيث عيّنه

حاكماً لعدّة أقاليم، كان منها العراق موطن الخليفة.

وهذه صفعة أخرى للنظام الخليفي في العراق.

* * *

أوّل هجوم مغولي علىٰ بغداد كان عام ٦٤٣ هـ

والاهانة الأكبر كانت في الهجوم المغولي على أطراف بغداد، الّذي وقع في نفس الوقت الّذي كان يتوّج فيه كيوك خان، ولربّما كان سفير الخليفة لا يزال بعد في بلاط الملك، وان كنّا غير متأكدين من ان يكون كيوك خان هو الّذي أمر بهذا الغزو.

وقد كان سببه المباشر، هو أن أحد أمراء الخليفة (المستعصم) قتل أحد مدراء شرطة المغول في جبل حمرين.

وفي هذا الصدد يقول ابن أبي الحديد الّذي كان معاصراً لهذه الحادثة الّتي وقعت في عام ٦٤٣هـ (ومات هو عام ٦٥٥هـ)، فلنستمع إليه:

... إلى ان دخلت سنة ثلاث وأربعين وستمائة، فاتّفق أنّ بعض أمراء بغداد وهو (سليمان بن برجم) وهو مقدم الطائفة المعروفة بالايواء وهي من التركمان، قَتَل شِحنةً من شحنهم في بعض قلاع الجبل، يعرف بـ(خليل بن بدر).

فأثار قتله أن سار من تبريز عشرة آلاف غلام منهم يطوون المنازل ويسبقون خبرهم.

ومقدمهم المعروف بـ(جكتاي الصغير) فلم يشعر الناس إلّا وهم على البلد، وذلك في شهر ربيع الآخر من هذه السنة في فصل الخريف.

وقد كان الخليفة المستعصم بالله، أخرج عسكره إلى ظاهر سور بغداد على سبيل الاحتياط، وكان التتر قد بلغهم ذلك، إلّا ان جواسيسهم غرّتهم وأوقعت في أذهانهم انّه ليس خارج السور إلّا خيام مضروبة لا رجال تحتها، وانّكم متى أشرفتم عليهم، ملكتم سوادهم وثقلهم، ويكون قصارى أمر قوم قليلين تحتها أن ينهزموا إلى البلد

ويعتصموا بجدرانه.

فأقبلت التتر على هذا الظن وسارت على هذا الوهم، فلمّا قربوا من بغداد وشارفوا الوصول إلى المعسكر، أخرج المستعصم بالله الخليفة مملوكه وقائد جيوشه شرف الدين اقبالاً الشرابي إلى ظاهر السور، وكان خروجه في ذلك اليوم من لطف الله تعالى بالمسلمين.

فانّ التتار لو وصلوا وهو بعد لم يخرج لاضطرب العسكر لأنّهم كانوا بغير قائد ولا زعيم، بل كل واحد منهم أمير نفسه وآراؤهم مختلفة، لا يجمعهم رأي واحد ولا يحكم عليها حاكم واحد، فكانوا في مظنة الاختلاف والتفرق والاضطراب والتشتت.

فكان خروج شرف الدين اقبال الشرابي في اليوم السادس عشر من هذا الشهر المذكور.

ووصلت التتر إلى سور البلد في اليوم السابع عشر، فوقفوا بازاء عسكر بغداد صفاً واحداً وترتب العسكر البغدادي ترتيباً منتظماً.

ورأى المغول من كثرتهم (كثرة عسكر بغداد) وجودة سلاحهم وعددهم وخيولهم ما لم يكونوا يظنونه ولا يحسبونه، وانكشف ذلك الوهم الّذي أوهمهم جواسيسهم عن الفساد والبطلان.

ابن العلقمي
هو الّذي كان يدبّر أمر العسكر والمحافظة على بغداد

وكان مدبِّر أمر الدولة والوزارة في هذا الوقت هو الوزير مؤيّدالدين محمّد ابن أحمد بن العلقمي، ولم يحضر الحرب، بل كان ملازماً ديوان الخلافة بالحضرة، لكنّه كان يمدّ العسكر الاسلامي من آرائه وتدبيراته بما ينتهون إليه ويقفون عنده.

فحملت التتار على عسكر بغداد حملات متتابعة، ظنوا ان واحدة منها تهزمهم، لأنّهم قد اعتادوا انّه لا يقف عسكر من العساكر بين أيديهم وانّ الرعب والخوف

منهم يكفي ويغني عن مباشرتهم الحرب بأنفسهم.

فثبت لهم عسكر بغداد أحسن ثبوت ورشقوهم بالسهام، ورشقت التتار أيضاً بسهامهم، وانزل الله سكينته على عسكر بغداد وانزل بعد السكينة نصره.

فما زال العسكر البغدادي تظهر عليه امارات القوّة وتظهر على التتار امارات الضعف والخذلان إلى ان حجر اللّيل بين الفريقين ولم يصطدم الفريقان، وانّما كانت مناوشات وحملات خفيفة لا تقتضي الاتصال والممازجة، ورشق بالنشاب شديد.

فلمّا أظلم اللّيل، أوقد التتار نيراناً عظيمة وأوهموا انّهم مقيمون عندها، وارتحلوا في اللّيل راجعين إلى جهة بلادهم.

فأصبح العسكر البغدادي فلم ير منهم عيناً ولا أثراً.

وما زالوا يطوون المنازل ويقطعون القرى عائدين حتّى دخلوا الدربند ولحقوا ببلادهم[1].

* * *

المؤرّخ ابن أبي الحديد ينظم قصيدة في الثناء على الوزير ابن العلقمي لموقفه المشرّف في حرب عام ٦٤٣هـ

يقول ابن أبي الحديد:

وكتبت إلى مؤيّدالدين الوزير عقيب هذه الوقعة (الّتي مرّ ذكرها عام ٦٤٣هـ) الّتي نصر فيها الاسلام ورجع التتر مخذولين ناكصين على أعقابهم، أبياتاً أنسب إليه فيها الفتح، واشير إلى انّه هو الّذي قام بذلك، وإن لم يكن حاضراً له بنفسه.

واعتذر إليه عن الإغباب بمديحه، فقد كانت الشواغل والقواطع تصدّ عن الانتصاب لذلك ـ شعراً:

---

١ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ج ٨ / ص ٢٣٩ ـ ٢٤١.

أبـقى لنـا الله الوزيـر وحـاطه — بكـتائب مـن نـصره ومـقانب
وامــتدّ وارف ظــلّه لنزيــله — وصفت متون غديره للشـارب
يا كالئ الاسـلام إذ نـزلت بـه — فرغاء تشهق بالنجيع السـالب
في خـــطة بهــاء ديــومية — لا يهتدي فيها السليك للاحب
لا يمتـطي سَلســاتُها مرهــوبة الإبســـاس جلسٌ لا تدرّ لعــاصب
فرّجتَ غـمرتها بـقلب ثـابت — في حمـلة ذعـرى ورأي ثـاقب
ما غبت ذاك اليوم عن تدبيرها — كم حاضرٍ يُعصىٰ بسيفِ الغائب
عُمَرُ الّـذي فـتح العـراق وانّمـا — سعد حسام في يمـينِ الضـارب
أثني عليك ثناء غـير مـوارب — واجيد فيك المدح غير مـراقب
وأنا الّذي يهواك حـبّاً صـادقاً — مـتقادماً ولربّ حبٍّ كـاذب
حبّاً ملأتُ به شعاب جوانحـي — يفعاً وها أنا ذو عـذار شـائب
انّ القـريض وإن أغبّ مـتيّم — بكـمُ ورب مجـانب كـمواظب
ولقـد يخـالصك القـصي وربّمـا — يُمـنى بـودّ ممـاذق مـتقارب
سدّت مسالكه همـوم جعجعت — بالفكر حـتّى لا يـبضّ لحـالب
ومـن العـناء مـغلّب في خـطّه — يـبغي مـغالبة القـضاء الغـالب

وهي طويلة وانّما ذكرنا منها ما اقتضته الحال(١).

الوفود المتقابلة بين الخليفة المستعصم وبين المغول لم تغن شيئاً

لقد رأينا انّ سفارة الخليفة المستعصم إلى المغول لم تغن عنه شيئاً، بل انّها عكّرت الجو بينهما أكثر ممّا سبق. فقد أهين السفير من قبل (كيوك خان) ورجع مخذولاً.

---

١ ـ المصدر السابق / ج ٨ / ص ٢٤٣.

وتمّ في الأيّام الأولى للملك الجديد أن عيّن ملوكاً وأمراء لأقاليم الأرض، وكان منها العراق، حيث عين له الأمير (أراغون).

ورأينا كيف نشأت الحرب في العام نفسه بين التتار وجيش الخليفة، ظاهر مدينة بغداد، ثمّ تراجعهم عن ذلك امّا تكتيكاً وامّا انهزاماً.

ثمّ بعد هذا، يذكر التاريخ ان رسولين من المغول إلى الخليفة وصلا بغداد عام ٦٤٤هـ.

فهل كان ذلك لتأنيب الخليفة وتوبيخه ومن ثمّ تهديده لما حصل من تعرّض مقدم الجيش الخليفي (سليمان بن برجم) لشحنة[١] مغولي أو لأمر آخر؟

لا نعلم تفصيلاً في ذلك، وكل ما لدينا هو وصولهما حيث يقول صاحب كتاب العسجد:

وفي شهر ربيع الأوّل (عام ٦٤٤هـ) وصل رسولان من التتر، أحدهما من بركه[٢] والآخر من (أحو)[٣].

فركب لتلقيهما كافة الزعماء من عساكرهم إلى ظاهر البلد واصطفوا صفين وجاز الرسولان في وسطهم وكان العسكر كثير العدد جميل العدد[٤].

فلماذا هذا الاجراء؟

هل هو ينبئ عن خشية الخليفة المستعصم، فأجرى للوفد استقبالاً حاراً؟

أمّا أراد أن يعرض للوفد قوّة العضلات الّتي يمتلكها جيش الخلافة؟

فإذا كانت الثانية، فانّ المغول كانوا قد اكتشفوا قوّة جيش الخلافة الحقيقية، فقد دخل معهم المغول عدّة حروب، استطاعوا ان يكتشفوا فيها واقعهم بسهولة.

---

١ ـ الشحنة: هو الّذي يقيمه الملك أو الخليفة لضبط المدينة، وهو رئيس البوليس في يومنا.

٢ ـ وفي النجوم الزاهرة / ج ٦ / ص ٣٥٦: (بركه خاتون).

٣ ـ وفي النجوم الزاهرة / ج ٦ / ص ٣٥٦: (ناخو).

٤ ـ العسجد المسبوك / ص ٥٤٢.

وأمّا إذا كان هذا الاستقبال للمداراة وللخشية الّتي كانت قد أصـابت الخـليفة، فالتجأ إلى هذا الاجراء الّذي قد يجعل المغول ينكفئون إلى الوراء ويكفي الله المؤمنين القتال.

وهو اجراء قد يكون حكيماً لمن لا يستطيع المواجهة، فيلجأ إلى المداراة وإهداء التحف والأموال وإظهار الاحترام والتبجيل.

ولكنّنا سوف نرى الخليفة يرفض مداراة هولاكو على هذه الطريقة، عندما عرض عليه وزيره ابن العلقمي أن يدفع غائلة المغول بالأموال والذهب الّذي كان مكدّساً في أحواض تحت الأرض.

وسوف نرى أنّ هولاكو نفسه يستهجن عقل المستعصم وتصرفه عندما كان يمتلك هذه الأموال الضخمة ولا يستفيد منها في الحرب والقتال والدفاع عن النفس وعن الدولة.



الخليفة المستعصم ونواقيس الخطر

كنّا قد تكلّمنا في الفصل الأوّل من هذا الكتاب عن الخلفاء العباسيين واحداً بعد آخر، وقد رأينا كيف أنّهم ساهموا مساهمة جدّيّة في النهاية الّتي حلّت ببغداد والخلافة.

وكنّا قد أرجأنا الحديث عن المستعصم، وارتأينا أن نذكره في الفصل الخامس وهو الّذي يتعلّق بالتتار والانهيار، حيث كان هو بطل هذا الفصل.

فانّ المؤرّخين يجمعون على أنّ المستعصم كان ضعيفاً، بل انّ اختياره منذ اليوم الأوّل كان ملحوظاً فيه هذه الناحية من سيرته.

يقول السيوطي:

كان متديّناً، متمسّكاً بالسنّة كأبيه وجدّه، ولكنّه لم يكن مثلهما في التيقظ والحزم وعلوّ الهمّة.

وكان للمستنصر أخ يُعرف بالخفاجي يزيد عليه في الشجاعة والشهامة، وكان يقول:

إنّ ملكني الله الأمر لأعبرنّ بالجيوش نهر جيحون، وانتزع البلاد من التتار واستأصلهم.

فلمّا توفي المستنصر، لم ير الدويدار والشرابي والكبار تقليد الخفاجي الأمر، وخافوا منه وآثروا المستعصم للينه وانقياده ليكون لهم الأمر، فأقاموه[1].

* * *

فهذه هي الخيانة الكبرى، عندما يفرط الدويدار والشرابي والكبار بالاسلام والمسلمين فيختاروا خليفة طوع أيديهم ليحقّقوا ما يصبون إليه من ترف الدُّنيا

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٦٤، واليونيني في ذيل مرآة الزمان / ص ٢٥٤، وبغداد مدينة السّلام وغزو المغول لسلمان التكريتي / ص ١٣٦.

ومنافعهم الخاصّة، في حين ان الخفاجي كان مرشحاً لهذا المنصب.

وخطر التتار كان ماثلاً للعيان، عندما قضموا البلاد الشرقية من الدولة الاسلامية، والخفاجي من الشهامة بحيث انّه كان يتمنى ان يكون إليه الأمر ليعبر نهر جيحون ويعيد للدولة الاسلامية عزّتها.

ولكن المؤرِّخين أو كثيراً منهم يغفلون عن هذا الخبر، فلا يعلقون عليه مطلقاً، وانّما يمرّون عليه مرور الكرام ثمّ يحملون على الوزير ابن العلقمي حيث يوجهون إليه السهام في استدعاء التتار وسقوط الدولة العباسية.

ونحن لا نريد ان نستبق البحث الّذي سوف نخوضه ـ إن شاء الله ـ في صحّة التهمة الموجهة إلى ابن العلقمي، وسوف يتبين لنا هناك مدى صحّة التهمة تلك، وسواء كانت صحيحة أم ملفقة، فان الدويدار والشرابي والكبار ساهموا مساهمة فعالة في السقوط.

والدويدار والشرابي والّذين معهما، لم يكونوا بدعاً من الأمراء العباسيين، وانّما هم ساروا على سلفهم الّذين مضوا من قبلهم.

والمستعصم كذلك سار على سلفه من الخلفاء السخفاء الّذين كانوا لا يعيرون أيّة أهمية لشؤون الدولة، وانّما هم منغمسون لآذانهم بالفسق والفجور.

ولقد وجدنا في تاريخ الخلفاء كيف تناقصت همم أولئك واستولى عليهم الجنود والخصيان والنسوان؟

وكيف كانوا يسملون عيونهم ويعصرون خصاهم ويضربونهم بالمداس، ولم يكن الخليفة في الواقع إلّا العوبة بأيدي هؤلاء، يوجهونه حيث يريدون، حتّى لم يبق للخليفة إلاّ القضيب والبردة ودقّ الطبول والدُّعاء في الخطبة، وكان يذكر إلى جانبه السلاطين والأمراء وربّما العيارون.

وقصّة المستعصم والدويدار على نسق تلك القصص الّتي سمعناها عن الخلفاء

الضعاف الّذين كان يتصرّف بشؤونهم الأتراك والبويهيون ومن ثمّ السلاجقة.

والخلافة وإن كانت وراثية في بني العباس، وعلى رغم انّ الخليفة قد يوصي لابنه من بعده، ولكن الرأي الغالب كان لأولئك القواد والمتنفذين في الدولة.

وهو الّذي رأيناه في الدويدار وصحبه الّذين حجبوا الخفاجي عن الخلافة، لأنّه قوي ذو همة عالية، وخليفة كهذا لا يدع أولئك يتصرفون بالدولة كما يشاؤون وإنّما اختاروا المستعصم وآثروه للينه وانقياده ليكون لهم الأمر فأقاموه للخلافة.

* * *

ولو يتجرّد الانسان من عواطفه وميوله القومية والمذهبية، ثمّ تعرض عليه هذه الحالة (حالة أولئك الّذين رفضوا تعيين الخفاجي وطموحه بانتزاع البلاد من التتار ثمّ عينوا المستعصم للينه وضعفه).

ماذا كان يقول هذا الانسان المتجرّد؟

ولا شكّ أنّ أولئك من الممكن أن يرتكبوا أيّة خيانة بحق الخليفة الجديد وبحق البلاد والعباد ـ وهو الّذي وقع ـ إذ المبدأ هو هذا: التلاعب بالخليفة كما يشاؤون فلا يريدونه قوياً في مقابل الأعداء.

وهم إذا كانوا في عام ٦٤٠هـ يرفضون من ينتزع البلاد من التتار، فهم في عام ٦٥٦هـ كانت أمورهم ولهوهم وانغماسهم في الدنيا وملذاتها قد تعمّقت، فلا يريدون أن يغيّروا منها شيئاً.

والقوّة الّتي كانوا يمتلكونها في الجيش والبلاط ليست لدفع الأعداء، وانّما لتركيز مناصبهم والامساك بزمام الخليفة، وليسوا هم بأقل قدرة من الّذين سبقوهم من أسلافهم الّذين كانوا يعزلون الخلفاء وينصبون غيرهم لمجرّد انّ الخليفة لا يستجيب لمطاليبهم.

هويّة المستعصم وبطاقته الشخصية

كان المستعصم يوم مات أبوه صاحب لهو وقصف، شغف بلعب الطيور، واستولت عليه النِّساء، وكان ضعيف الرأي، قليل العزم، كثير الغفلة عمّا يجب لتدبير الدولة.

ويقول عنه صاحب كتاب الفخري:

كان شديد الكلف باللّهو واللّعب وسماع الأغاني، لا يكاد مجلسه يخلو من ذلك ساعة واحدة، وكان ندماؤه وحاشيته جميعهم منهمكين معه على التنعّم واللذات، لا يراعون له صلاحاً، وكتبت له الرقاع من العوام وفيها أنواع التحذير، وألقيت فيها الأشعار في أبواب دار الخلافة.

فمن ذلك:

قل للخليفة مهلاً ... أتاك ما لا تحبّ
ها قد دهتك فنون ... من المصائب غُرب
فانهض بعزمٍ وإلّا ... غشّاك ويل وحرب
كسر وهتك وأسر ... ضرب ونهب وسلب

وفي ذلك يقول بعض شعراء الدولة المستعصمية من قصيدة أوّلها:

يا سائلي ولمحض الحق يرتاد ... أصخ فعندي نشدان وإنشاد
واضيعة الناس والدين الحنيف وما ... تلقاه من حادثات الدّهر بغداد
هتك وقتل واحداث يشيب بها ... رأس الوليد وتعذيب وأصفاد

كل ذلك وهو عاكف على سماع الأغاني واستماع المثالث والمثاني، وملكه قد أصبح واهي المباني.

وممّا اشتهر عنه انّه كتب إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه جماعةً من ذوي الطرب، وفي تلك الحال وصل رسول السلطان هولاكو إليه يطلب منه منجنيقات وآلات الحصار.

فقال بدر الدين: انظروا إلى المطلوبين وابكوا على الاسلام وأهله.

وبلغني انّ الوزير مؤيد الدين محمّد بن العلقمي كان في أواخر الدولة المستعصمية ينشد دائماً:

كيف يرجى الصلاح من أمرِ قومٍ ضيعوا الحزم فيه أي ضياع

فمطاع المقالِ غير سديد وسديد المقال غير مطاع[1]

ويقول ابن العبري عن المستعصم:

... وكان إذا نبه على ما ينبغي ان يفعله في أمر التاتار، إمّا المداراة والدخول في طاعتهم وتوخي مرضاتهم أو تجييش العساكر وملتقاهم بتخوم خراسان قبل تمكّنهم واستيلائهم على العراق.

فكان يقول: أنا بغداد تكفيني، ولا يستكثر ونها لي إذا نزلت لهم عن باقي البلاد ولا أيضاً يهجمون عليّ وأنابها، وهي بيتي ودار مقامي.

فهذه الخيالات وأمثالها عدلت به عن الصّواب، فأصيب بمكاره لم تخطر بباله[2].

ويقول عباس إقبال:

كان يفتقد العزم، وكان ذا رأي سخيف، ولم يكن له إلمام بالسياسة وإدارة الدولة، ولم يكن يرغب بالاطلاع على أمور المملكة.

يقضي أكثر أيّامه باستماع الأغاني ومعاقرة الجواري والرجال المضحكين بالوقت الّذي كان المغول قد طرقوا باب بغداد.

ورجال الدولة كانوا من أراذل الناس ويستولون استيلاء كاملاً على الخليفة[3].



١ ـ الفخري لابن الطقطقي / ص ٤٦ ـ ٤٧.

٢ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ٢٥٥.

٣ ـ جنكيز خان جهره خون ريز تاريخ / ص ٢٢٦ نقلاً عن تاريخ الملوك / عباس اقبال اشتياني.

فأي سفيه هذا الرّجل الّذي يدّعي أنّه خليفة رسول الله وإمام المسلمين وأمير المؤمنين، ويكون سخيفاً لهذا الحد؟

رجل صاحب لهو وقصف، مشغوف بلعب الطيور،

استولت عليه النِّساء،

ضعيف الرأي،

قليل العزم،

كثير الغفلة.

يقنعه أن يترك له التتار بغداد ليكون خليفة عليها.

شخص بهذه المواصفات، كيف جاز للخونة (الدويدار والشرابي والكبار الآخرين) أن يجعلوه أميراً للمؤمنين وخليفة للمسلمين؟

والمستعصم وهو في أشدّ حالات الحصار على بغداد وعلى قصره بالذات، كان يلهو مع جارية له.

يقول ابن كثير:

وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب حتّى أصيبت جارية، كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة حظاياه، وكانت مولّدة تسمّىٰ (عرفه) جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها، وهي ترقص بين يدي الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعاً شديداً، واحضر السهم الّذي أصابها بين يديه فاذا عليه مكتوب:

إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم.

فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز، وكثرة الستائر على دار الخلافة[1].

* * *

---

١ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١٣ / ص ٢٣٣.

أيّة غفلة أكثر ممّا كان يفعله هذا الأحمق؟

أما كان الأجدر به ان يكون من عامّة الناس، حمالاً أو عامل بناء؟

فتعساً وسحقاً لأولئك الّذين نصبوه إماماً للمسلمين. وتعساً له عندما يتعرّض لأمور المسلمين وهو لا يحسن منها شيئاً.

وهل يجد المنصف شخصاً أولى بالخيانة والجناية في سقوط بغداد من هذا الأرعن الأحمق؟

وهل كان ينفع المستعصم ما يقوله عنه وعاظ السلاطين، كالسيوطي الّذي يصفه بأنّه كان متديّناً متمسّكاً بالسنّة كأبيه وجدّه.

فهل كان من التديّن أن يفرّط بالمسلمين ودولة الاسلام؟

وهل كان من التديّن والتمسّك بالسنّة أن ينصرف إلى اللّعب بالطيور، شأنه في ذلك شأن العيارين المفسدين أبناء الشوارع؟

وهل كان من التديّن والسنّة بمكان أن يلهو بالجواري وهو مُحاصَر في قصره يوشك أن يهجموا عليه فيقتلوه وجواريه وينهبوا منه طيوره الّتي يعبث بها؟

وإذا كان الخليفة المستعصم قد انزعج وفزع فزعاً شديداً عندما جاء السهم، فليس لأنّه استيقظ ضميره، فأدرك أنّ الأعداء يحيطون به من كل جانب، وانّما لأن جاريته قد ماتت بهذا السهم، الّذي نظن انّه كان من أحد المسلمين أراد أن يسمع صوته للخليفة بهذه الصورة عسى أن يرعوي فيتدارك الأمر.

ولكن أنّىٰ له التدارك؟

فكل ما فعله انّه أمر بالإكثار من الستائر لئلّا تُصاب له جارية أخرى.

❊ ❊ ❊

الخليفة المستعصم يصلّي صلاة العيد ليلاً

وبلغ من استهتار المستعصم بالناس وبالدين والشعائر الاسلامية، انّ صلاة العيد في عهده أصبحت تقام وقت غروب شمس يوم العيد أو بالليل.

فلنقرأ ماذا كتب صاحب كتاب العسجد المسبوك في ذلك:

وفي عيد شهر رمضان (٦٤٤هـ) خرج العسكر إلى المصلّى.

فأوّل من خرج مجاهد الدين أيبك الخاص المستنصري، فركب من داره وقت السّحر في الأضواء والشموع.

ثمّ كان يتلوه الأمير علاء الدين الطيبرسي.

ثمّ سارت العساكر تلو مسيره في أوفر عدد وأكمل عدد.

ولم يزالوا مجدّين في الخروج إلى بعد المغرب.

وخرج موكب الخليفة في الأضواء والشموع وصلّى الخطيب عليّ بن المنصوري صلاة العيد في المصلى قريباً من ثلث اللّيل، وعادوا على غير ترتيب.

وفي عاشر ذي الحجّة، خرجت العساكر إلى ظاهر البلد على جاري عادتهم، وصلّوا صلاة العيد وقت غروب الشمس، وعادوا في الأضواء والشموع[1].

ولقد ورد في هامش الصفحة ٥٤٤ من كتاب العسجد المسبوك ما يلي:

تقدم قريباً انّهم صلّوا صلاة عيد الفطر قريباً من ثلث اللّيل، وههنا صلّوا صلاة عيد الأضحى وقت غروب الشمس.

وهذا كلّه مخالفة لما كان عليه الشارع، وليس العجيب من الخليفة فهو متخلّف، انّما العجيب من علماء الشريعة مع كونهم في هذا الوقت لا سيما بمدينة بغداد عدداً كبيراً.

---

١ ـ العسجد المسبوك / ص ٥٤٣ ـ ٥٤٤.

إذن أين هو التدين وتنسّك الخليفة المستعصم؟ يا سيوطي يا واعظ السلاطين ومتى كانت صلاة العيد تقام عند غروب الشمس وفي اللّيل؟

وهل هذا من التمسك بالدين كما كان يفعل أجداده وآباؤه؟

نعم، صحيح انّه كآبائه وأجداده في اللّهو واللّعب والاستهتار بالمقدّسات، بالدِّين وبسنّة رسول ربّ العالمين.

وسيرة آبائه وأجداده هي الّتي كان لابدّ أن يصل إليها المستعصم وأن تصل دولتهم إلى نهايتها على عهده العتيد!

فإذا كان الخليفة محمّد الأمين بن هارون الرشيد يلهو بالخصيان والصبيان، فلماذا لا يلهو المستعصم بالجواري والنسوان؟

وإذا كان الناصر يلعب بالحمام ويتسابق بها مع الأقران.

فما أجدر بالمستعصم ان يتبع سيره جدّه فيلعب بالطيور أيضاً ويصلّي العيد ليلاً لتسير أمامه الأضواء والشموع.

فأبهة الخلافة تتجلّى بأضواء الشموع أكثر ممّا تتجلّى في ضوء الشمس.

ولقد وجدنا خلال دراستنا للخلفاء الميامين! واحداً بعد آخر كابراً بعد كابر! انّهم ليس لأحد منهم علاقة وثيقة بالتدين والسيرة النبويّة بالرغم من انّهم كانوا يتسمّون بخلفاء رسول الله وأمراء المؤمنين.

فجدّهم الأعلى إبراهيم الإمام، كان قد فرض على أبي مسلم الخراساني ان يقتل كل من ينطق بالضاد ممّن بلغ خمسة أشبار.

والمنصور أوّل من أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين وكانوا قبل ذلك فئة واحدة هم الهاشميون.

والهادي غلبت عليه أمّه.

والرشيد كان يراود جارية أبيه، ولم يستقر حتّى نكحها.

والأمين بنى في اليوم الثاني من بيعته بالخلافة ميداناً يلعب منه بالكرة، وكان معروفاً بتقريبه الخصيان والصبيان وتركه للنسوان، لا تورعاً وانّما شذوذاً.

والمأمون أوّل خليفة لرسول الله يقتل خليفة لرسول الله.

والمعتصم قرّب الأتراك وكان ذلك بلاء على الناس وعلى الخلفاء، فكانوا يسملون عيون الخلفاء ويقتلونهم وينصبون من يشاؤون.

والمتوكل كان لا يخجل من تظاهره بشرب الخمور.

والمعتمد كان الغالب عليه، اللهو وكان خبيراً بالرقص وأنواعه، ومات من افراطه في شربه للخمور.

وتدحرجت الأمور سراعاً، لأنّها لم تكن تسير على المحجّة البيضاء والطريق المستقيم، إلى أن كانت نهايتها على يد المغفّل الأحمق المستعصم الّذي كان لا بدّ أن تنتهي في عهده الخلافة العباسية الّتي سعى إلى ذلك أجداده وآباؤه.

والأسباب الّتي تظافرت في السقوط، كان منها الخلفاء العباسيون أنفسهم، الّذين كان كلّ واحد منهم يتبع سيرة من مضى في التهتّك والانحلال، ثمّ يضيف إليها الشيء الجديد من مبتكراته واختراعاته.

فإذا كان الرشيد ينكح زوجة أبيه، فليكن ابنه الأمين لواطاً.

وإذا كان الخلفاء يسرقون أموال الأمّة ويختزنونها فليكن الناصر عياراً مفسداً يرتقي السطوح ويتسابق بالحمام مع العيّارين.

وإذا كان الأمين وهو في أشد حالات الحصار عليه من قوات أخيه المأمون يصطاد السمك، فانّ المستعصم يلهو مع محظيته (عرفه) الّتي كانت ترقص له فأصابتها السهام، فتفتّق ذهنه وأسدل الستائر.

❊ ❊ ❊

كان هؤلاء خلفاء بني العباس، ضع يدك على مَن شئت منهم، فكل واحد منهم، كان في الواقع يسعى حثيثاً نحو السقوط في الهاوية.

ولقد كان لا بدّ ان تسقط بغداد وتسقط خلافتهم قبل التتار، منذ أيّام الأتراك والبويهيين والسلاجقة، ولكن هيبة الخلافة كانت تضفي عليهم بعض المناعات.

والبويهيون والسلاجقة كان بإمكانهم القضاء على الخلافة بسهولة، ولكنهم وجدوا أنّ بقاءها والتحكّم باسمها أفضل لهم وأبقى لوجودهم، فلن يضيرهم شيء إذا كانوا هم الّذين يحكمون فعلاً والخليفة ليس له إلّا الخطبة، لأنّه يحمل القضيب والبردة.

وسقوط بغداد كان نهاية طبيعية جدّاً لكل تلك المفارقات الّتي كانت تقترف وتحدث في دولة الاسلام تحت رعاية من يدّعي انّه خليفة رسول الله وأمير المؤمنين.

* * *

وذهبت تلك المقولة أدراج الرّياح، الّتي أطلقها أبو العباس السفاح يوم خطب على منبر الكوفة في أوّل خطبة له (انّ هذه الدولة سوف تبقى بأيديهم إلى أن يسلّموها إلى المسيح عيسى بن مريم).

فقد بدأت الدولة العباسية دولة عالمية تضرب بأطنابها الشرق والغرب، ثمّ تصاغرت عندما تصاغر خلفاؤها، فأصبحت بالتالي تعني بغداد وحدها يوم اكتفى المستعصم ببغداد واستبعد أن يأخذها التتار منه.

وفي هذا الصّدد يقول مرتضى راوندي: هكذا كان وضع الخليفة، وأتعس من هذا، فانّه كان رجلاً عياراً يلعب بالطيور، وكان يطلب أجمل الراقصات وأمهر المغنيات، وكان يعتقد بأنّ القدرة الإلهيّة هي الّتي تحفظ الدولة العباسية [1].



---

١ ـ تاريخ اجتماعي ايران / ج ٢ / مرتضى راوندي.

نظرة عامّة على الدولة العباسية

هكذا كانت الدولة العباسية:

الأمراء هم الحكّام الفعليّون،

والعيّارون بيدهم مفاتيح الدولة،

والجواري والخصيان كان لهم شأن،

والأتراك والبويهيون والسلاجقة يمسكون بكلّ شيء، وإذا أرادوا خلع خليفة سملوا عينيه أو قتلوه أو عصروا خصيته حتّى يموت، أو يضرب بالأخدية وتخلع ملابسه لتظهر عورته ويوقف بالشمس أو يوضع في سرداب ويجصّص عليه إلى أن يموت.

والخمور تُستباح على قدم وساق.

والزّنا واللّواط لهما سوق رائجة، لأنّ الخلفاء لا يترفعّون عن ذلك.

والصلاة يُستهان بها، فصلاة العيد تقام ليلاً.

والمفسدون يملأون البلاد، والخلفاء يتقرّبون إليهم وربّما ينتسبون إليهم، لأنّهم أصبحوا قوّة تضرب بأطنابها طول البلاد وعرضها.

واللّصوص والحرامية كانت لهم وجاهة ويخشاهم الناس.

والطّامعون الكبار، أصبحوا يمتلكون البلاد والمواقع الحساسة على نحو الإقطاع والتعهّد والمزايدة.

والفتن الطائفية ربّما يثيرها الحكّام أنفسهم ويشتركون فيها بين الشيعة والسنّة وبين الحنابلة والشافعية.

وإقامة الحدود والقصاص شعيرة معطلة، لا وجود لها، لأنّها إذا أريد لها أن تطبق فسوف تطال الخلفاء أوّلاً ثمّ أبناءهم ثمّ الوزراء والأمراء ثمّ سائر الناس.

أمّا الحج فلم يكن الطريق إلى مكّة سالكاً لأنّ قطاع الطرق وحكّام الولايات ينهبون الحجّاج ويقتلونهم.

والمستعصم أسقط الجند ليتخلص من أرزاقهم، أمّا الّذين بقوا من الجند، فانّه لم يكن يدفع لهم رواتبهم من الخزينة المركزية وانّما كان يجبيه من الأسواق.

ولعلّ إسقاط الجند وقطع الأرزاق كان نابعاً من أنّ المستعصم يعتقد أنّ بغداد تكفيه في ممارسة دور الخلافة، ولا يستكثرونها عليه، فكان يجد في صرف الأرزاق للجند إسرافاً وتبذيراً للأموال لا مبرِّر له.

ولمن هذه الأموال الّتي كان يجبيها ويكدِّسها إذا لم يكن يصرفها على أخطر مرفق من مرافق الدولة؟

ونعود إلى وعاظ السلاطين الّذين ينطلقون في كتاباتهم من نعرات طائفية وقومية أو من أجل الأموال الّتي يغدقها عليهم الحكّام، فقد أفسدوا علينا تاريخنا وزيّفوه، فضاعت معلومات كثيرة وأدخلت توافه لا أساس لها من الصحّة، وبات من الصعوبة البالغة لمن أراد ان يتحرّى الحقيقة فيصل إليها.

والمستعصم الّذي نحن بصدده يضفي عليه السيوطي صفات الأتقياء الأبرار (كان متديّناً متمسّكاً بالسنّة كأبيه وجدّه) ولكنّه كان ضعيفاً مغلوباً على أمره، يسقط الجنود لكيلا يصرف عليهم، والعدوّ على الأبواب،

ويكدِّس الأموال من الحرام والحلال (إذا كان فيها حلال)، بل انّ المستعصم سرق مالاً كان مودعاً لديه.

يقول ابن كثير:

كان فيه (أي في المستعصم) لين وعدم تيقظ ومحبة للمال وجمعه، ومن جملة ذلك انّه استحلّ الوديعة الّتي استودعه إيّاها الناصر داود بن المعظم وكانت قيمتها نحواً من مائة ألف دينار، فاستقبح هذا من قبل الخليفة، وهو مستقبح ممّن هو دونه بكثير، بل من أهل الكتاب مَن إن تأمنه بقنطار يؤدِّه إليك[1].

مع انّ ابن كثير يمدحه في نفس الصفحة، فيقول عنه (صحيح العقيدة... فكان آخر

١ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١٣ / ص ٢٣٨.

الخلفاء من بني العباس الحاكمين بالعدل بين الناس).

ولا بأس بالاستماع إلى ابن كثير من جديد عندما يتكلم عن الخلفاء العباسيين كما هي حقيقتهم!

«... حتّى لم يبق مع الخليفة إلّا بغداد وبعض بلاد العراق، وذلك لضعف خلافتهم واشتغالهم بالشهوات وجمع الأموال في أكثر الأوقات».

❊ ❊ ❊

ونحن عندما نجد المستعصم شحيحاً بخيلاً في صرف الأموال على الجنود، فيسقطهم، نراه من جانب آخر يبذل بلا حساب على حفلات الختان الّتي أجراها لولديه.

يقول ابن كثير نفسه:

طهّر الخليفة المستعصم بالله ولديه الأميرين أبا العباس أحمد وأبا الفضائل عبدالرّحمان، وعملت ولائم فيها كل أفراح ومسرّه، لا يسمع بمثلها من أزمان متطاولة.

وكان ذلك وداعاً لمسرات بغداد وأهلها في ذلك الزمان[1].

ويذكر صاحب كتاب العسجد المسبوك خبراً آخر من ختان (الأمير الصغير أبي المناقب المبارك ابن الخليفة المستعصم بالله) واستدعى الجماعة الّذين ختنوا معه (فيذكر عدداً من أولاد الأمراء)، ونفذ مع ابن أخي الخليفة صندوق به من فاخر الثياب والزركش ما قيمته ثلاثة آلاف دينار وسبعة أكياس فيها سبعة آلاف دينار، ونفذ مع ولد الدويدار الصغير صندوق فيه ستّة آلاف دينار وما قيمته ألف دينار، ثمّ مع ولدي الدويدار الكبير كذلك. ثمّ مع ولد ابن قيران صندوق فيه ألف دينار وثياب تناسب ذلك، ثمّ خلع على الطبيب وعلى بواب دار التشريفات وعلى وكيل الخدمة.

وعمّت الخلع والمبار خلقاً كثيراً، ثمّ عرضت التهاني والمدائح، ويذكر بالمناسبة قصيدة...[2].

❊ ❊ ❊

---

١ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١٣ / ص ٢٠٠.

٢ ـ العسجد المسبوك / ص ٥٨٦.

نظرة أخرىٰ على الوضع العام أيّام المستعصم

كانت أمور الخلافة بيد الدواتدار الكبير ومجاهد الدين الدواتدار الصغير وإقبال الشرابي والوزير ابن العلقمي.

وكان الدواتدار الصغير قد خطّط أن ينفّذ مؤامرة على المستعصم ويحوّل الخلافة إلى شخص آخر من العباسيين، ولكن هذه المؤامرة أحبطت من قبل صاحب ديوان الخليفة الوزير ابن العلقمي.

وكان أبو بكر بن الخليفة من الأشخاص الّذين جلبوا الدمار لأبيه، وكانت عادة خلفاء بني العباس ان يحتاطوا لأنفسهم فيضعوا أولادهم في السجن، ولكن المستعصم خرج على هذه العادة ولم يحبس أولاده الثلاثة.

ولذلك فقد استفاد أبو بكر الابن الأكبر من الضعف الّذي كان يمتاز به أبوه المستعصم، فارتكب الفساد والقتل والتخريب ممّا أدّى إلى سقوط العباسيين وكان المستعصم بخيلاً جدّاً، فانّه عندما طرقه هولاكو، أمر بتعبئة الجيش ولكنّه لم يكن يرغب بصرف احتياجات الجيش، ولذلك فانّه أمر بتسريح الجيش لئلّا يصرف شيئاً عليه.

أمّا النزاع بين الشيعة والسنّة، فقد كان مصيبة أخرى تحلّ في بغداد خصوصاً وان كبار الدولة كانوا يشتركون في هذه النزاعات.

وفي أواخر عهد المستعصم وبالضبط في عام ٦٥٤هـ حدثت معركة بين الشيعة والسنّة فأرسل الخليفة ابنه الأكبر ليقضي على الفتنة، فأحرق محلّة الكرخ حيث يسكنها الشيعة، وأحرق كذلك مشهد الإمام موسى بن جعفر، وارتكب فجائع كثيرة.

ويجمل ذلك ابن خلدون فيقول:

كانت الفتنة ببغداد لا تزال متصلة بين الشيعة وأهل السنّة وبين الحنابلة وسائر أهل المذاهب وبين العيارين والدعّار والمفسدين...

وضاقت الأحوال على المستعصم، فأسقط أهل الجند وفرض أرزاق الباقين على البياعات والأسواق وفي المعاش، فاضطرب الناس وضاقت الأحوال وعظم الهرج والمرج ببغداد[١].

ويكتب صاحب كتاب العسجد عن الفتن الّتي كانت مستشرية أيّام المستعصم بين الشيعة والسنّة، فيقول عن حوادث عام ٦٥٥:

وكانت الفتن قد ثارت بين السنّة والشيعة وتجالدوا بالسيوف، وقتل جماعة ونهبوا.

وشكا أهل باب البصرة (وهم من أهل السنّة) إلى الأمير ركن الدين الدويدار والأمير أبي بكر بن الخليفة، وتقدما إلى الجند بنهب الكرخ (وهم من أهل الشيعة) فهجموا عليهم وقتلوا منهم جماعة ونهبوا محالهم وارتكبوا من الشيعة العظائم[٢].

والفتن الطائفية تحدث دائماً، أمّا ان يكون الخليفة طرفاً فيها فهو أمر غير مقبول مطلقاً.

والأتعس من ذلك أن يطلب الخليفة من الجند بالقتل والنهب وارتكاب العظائم، وهو أمير المؤمنين وخليفة رسول الله وإمام المسلمين.

وإذا علمنا انّ ذلك حدث في عام ٦٥٥هـ، عرفنا مدى تفاهة الخليفة المستعصم، حين يتصرّف هكذا مع أمّتـه، في حين أنّ العدوّ يطرق الأبواب بجحافله الّتي تملأ الآفاق.

فهو في الوقت الّذي كان يجب عليه أن يوحِّد صفوف الأمّـة بجميع فصائلها ومختلف مذاهبها، نراه يرتكب أكبر فاجعة طائفية حدثت في بغداد.

ولكن ماذا نقول؟

وكل ما نقوله هو أن نسترجع (إنّا لله وإنّا إليه راجعون).

---

١ ـ تاريخ ابن خلدون / ج ٣ / ص ٥٣٦ ـ ٥٣٧.

٢ ـ العسجد المسبوك / ص ٦٢٥.

أبواق الخطر

في زحف هولاكو

النصوص الّتي أوردها المؤرّخ رشيد الدين فضل الله الهمداني في كتابه (جامع التواريخ) وكذلك ما ورد في كتاب (طبقات ناصري) تدلّ على أنّ قاضي قضاة المسلمين شمس الدين القزويني الّذي حرّض المغول على حرب بلاد المسلمين، كان موجوداً في بلاط (منكوقاآن) عندما جرى تقسيم المهمات العسكرية بين إخوته وارسال كل واحد منهم إلى جهة من الجهات لفتحها.

فعهد إلى هولاكو بفتح غرب ايران والشام ومصر وبلاد الروم والأرمن.

وقبل مسير الحملة أرسل منكوقاآن خبراء الطرق ليكشفوا على الطريق الّذي ستسلكه حملة هولاكو من (قراقوم) حتّى شاطئ جيحون، وليقيموا الجسور على الأنهار والمجاري.

وحدّد لكلّ جندي (مائة من) من الدقيق وقربة من النبيذ[١].

وحدّد لهولاكو مهمته بهذه الوصية:

«انّي مرسلك مع هذا الجيش الجرار من ملك توران إلى مملكة ايران وموصيك ان تعمل بمقتضى تعاليم جنكيزخان بحذافيرها ولا تتهاون بها، واعلم ان من أطاعك وإنقاد لأمرك ونهيك من هنا إلى أقصى بلاد مصر فاخفض له جناحك وأظهر له حبّك.

ومن عصاك أو خالفك فاسحقه وأذلّه مع زوجه وولده وسائر أقربائه ومتعلقاته ونكّل بهم جميعاً.

ابدأ بهدم القلاع والأسوار والاستحكامات وخرّبها من أوّل قهستان إلى منتهى خراسان.

---

١ ـ طبقات ناصري / ص ٤١٣ ـ ٤١٤.

فإذا أنهيت ذلك وتمّ لك الفوز في ايران فتوجّه نحو العـراق، وأهلك من انتصب لمناوأتك وأراد ان يكون عثرة في طريقك من (لر وكرد وغيرهما) الّـذين يـقطعون الطرق على سالكها.

ولا تتعرّض للخليفة ببغداد إن كان أظهر لك الطاعة وانقاد لخـدمتك، وأمّـا إذا أبدى غروراً وكبراً ولم يخلص لك قلباً ولساناً فعامله كغيره ممّن سبق.

وعليك أن تجعل العقل رائدك والرأي الصائب مقتداك ونهجك في كلّ الأحوال ولا تزغ عن ذلك.

وأن تراعي الحيطة والرزانة وتكون يقظاً متنبهاً في جميع الأحوال»[١].

وبعد أن أتمّ وصاياه ونصائحه بهذا الوجه أكرمه ومن تبعه من الخواتين والأولاد كلّاً على حدة في الذهب واللّباس والخيل، ما يليق بهم من وافر العطايا وأنعم على بقيّة الأمراء والأتباع الّذين كانوا بصحبته.

ولمّا وصلوا حدود تركستان استقبلهم صاحب تركستان وماوراء النهر أمـير مسعود بك وأمراء تلك الأنحاء وقاموا بخدمات جلّى نحوهم وقدموا الهدايا اللّائقة[٢].

❊ ❊ ❊

هولاكو ينفّذ وصيّة أخيه الملك منكوقاآن تنفيذاً دقيقاً

وكان تنفيذ هولاكو للوصية تنفيذاً حرفياً، إذ أغرق في الذلّة والمهانة فضلاً عن المنية كل من اجتاز بهم، وزاد فلم يقتصر في التخريب على القلاع والحصون، بل شمل جميع العمران.

وفي شهر ذي الحجّة سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م، قصد هولاكو معسكره يتهيّأ ويستعد وينظّم أموره.

---

١ ـ جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله الهمداني، كما في العراق بين احتلالين / ج ١ / ص ١٤٨.

٢ ـ تاريخ العراق بين احتلالين لعباس العزّاوي / ج ١ / ص ١٤٩.

وبعد سنة كاملة في شهر ذي الحجّة سنة ٦٥١هـ كان قد أتمّ وتدارك حاجاته، فمشى زاحفاً بجيوشه الجرارة.

وقبل أن يسير كان قد عهد إلى حكّام الولايات الّتي سيجتاز بها، بأن يعدّوا المأكل والمشرب للجنود وان يمهدوا من الطرق ما يحتاج للتمهيد وأن يُعدّوا السفن لعبور الأنهار.

وكان كلّما اجتاز بولاية ينضمّ إليه ما أعدّته من جنود.

وفي صيف سنة ٦٥٢هـ كان يعسكر في تركستان وماوراء النهر.

وفي شهر شعبان من سنة ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م، كان ينزل على مراعي سمرقند، فأمضى هناك ما يقرب من أربعين يوماً منصرفاً للشراب.

ثمّ رحل حتّى نزل عند حدود (كش) فأقام فيها مدّة شهر، ومن هناك أرسل إلى الملوك والحكّام رسائل تقول:

بناء على أمر القاآن قد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة[١] وازعاج تلك الطائفة، فاذا أسرعتم وساهمتم في تلك الحملة بالجيوش والعدد والآلات، فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم وستحمد لكم مواقفكم.

أمّا إذا تهاونتم في امتثال الأوامر وأهملتم، فانّنا حين نفرغ بقوّة الله من أمر الملاحدة، فانّنا لا نقبل عذركم، ونتوجه إليكم فيجري على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم[٢].

❊ ❊ ❊

في هذا المنشور الموجّه إلى الحكّام، لا يوضح هولاكو حقيقة مهمّته الّتي حدّدتها وصيّة منكوقاآن من أن عليه ان يفتح البلاد من جيحون إلى أقاصي مصر، بل يحصر

---

١ ـ وهم الإسماعيليون الّذين كان يسميهم قاضي القضاة شمس الدين بـ(الملاحدة) ليغري بهم التتار الوثنيين.

٢ ـ الغزو المغولي للأمين / ص ١٠٩، نقلاً عن جامع التواريخ.

مهمّته في (تحطيم قلاع الملاحدة وازعاج تلك الطائفة).

أي انّه يعلن انّما ينفذ ما طلب إليه إمام المسلمين وقاضي قضاتهم شمس الدين القزويني تنفيذه، وأنّ على حكّام المسلمين أن يُسارِعوا إلى معونته في ذلك.

فها نحن نصبح في صميم المأساة: طاغية وثنيّ يعكف في طريقه شهراً على الشراب يريد أن يخلِّص (المؤمنين) من (الملحدين).

نعم، تخليص الناس من (الإلحاد) هو ما يهدف إليه هولاكو[1].

* * *

ويصف رشيد الدين فضل الله الهمداني في جامع التواريخ، التسارع إلى تلبية نداء هولاكو فيقول:

أقبل من بلاد الروم السلطانان عز الدين وركن الدين.

ومن فارس سعد بن الأتابك مظفر الدين.

ومن العراق وخراسان وآذربيجان وآران وشروان وجورجيا، الملوك والصدور والأعيان.

فلقد تجمع لديه الملوك من جيحون إلى أقاصي مصر.

وها هو هولاكو على ضفة جيحون ليخطو الخطوة العملية الأولى في طريق رحلته الطويلة، فأمر بتوقّف حركة النقل في النهر الكبير ونصب عليه جسراً عبرت عليه قوّاته في غرة ذي الحجّة سنة ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م.

وفي اليوم التالي كان ينزل في مرعى (شبورقان) من توابع بلخ ففاجأته هناك الأمطار والثلوج واستمرت سبعة أيّام، فهلك الكثير من دوابه برداً فقرّر تمضية الشتاء هناك عاكفاً على اللّهو والطرب والاستمتاع[2].

---

١ ـ الغزو المغولي للأمين / ص ١٠٩.

٢ ـ المصدر السابق / ص ١١٠.

نترك هولاكو خان في (شبور قان) ليقضي فترة الشتاء هناك ريثما تنقطع الأمطار.

وننتقل إلى بغداد، لنتكلم عمّا جرى بين الوزير وقائد الجيش.

❊ ❊ ❊

ظهور الفتنة
ووقوع الخلاف بين الدواتدار والوزير ابن العلقمي

في آخر صيف سنة أربع وخمسين وستمائة، حدث سيل عظيم أغرق مدينة بغداد، لدرجة انّ الطبقة العليا من المنازل هناك غرقت في الماء واختفت تماماً.

وقد استمرّ انهمار السيل في تلك الديار خمسين يوماً، ثمّ بدأ بالنقصان.

وكان من نتيجة ذلك، أن بقيت نصف أراضي العراق خراباً يباباً.

وخلال تلك الواقعة امتدت أيدي جماعة من الزناطرة والمشاغبين والرعاع والسفلة بالاعتداء والسلب. وكانوا في كل يوم يغتصبون بعض الأشخاص الأبرياء.

وكان مجاهد الدين الدواتدار يحتضن بنفسه هؤلاء الرعاع والسفلة، فصار في مدّة وجيزة صاحب شوكة وبأس.

ولمّا لمس في نفسه القوّة، ورأى الخليفة المستعصم شخصاً عاجزاً، لا رأي له ولا تدبير وساذجاً، اتفق مع طائفة من الأعيان على خلعه وتولية خليفة آخر من العباسيين في مكانه.

وعندما علم مؤيدالدين بن العلقمي نبأ تلك المؤامرة، أخبر الخليفة على انفراد قائلاً: «يجب تدارك أمرهم».

فاستدعى الخليفة الدواتدار على الفور، وأطلعه على ما قاله الوزير في شأنه، ثمّ قال له: «ولمّا كنت اعتمد عليك واثق بك، فانّي لم أصغ إلى كلام الوزير وهو يغمزك، وانّي لأبلغك بأنّه لا يجوز ان تخدع بأيّة حال، ولا تحيد عن جادّة الطاعة» فلمّا أحسّ الدواتدار من الخليفة الشفقة والعطف، أجاب: «إذا ثبت عليّ جرم فهذا رأسي وهذا

هو السيف، ومع هذا فأين يذهب عفو الخليفة وصفحه وغفرانه... أمّا هذا الوزير المزور المخادع، فقد حمله الشيطان بعيداً عن الطريق المستقيم، واختمرت في ذهنه المظلم فكرة الولاء والميل إلى هولاكو خان وجيش المغول، وان سعايته في حقي، لمن أجل دفع هذه التهمة عن نفسه، وأنّه عدوّ الخليفة، فهو يتبادل مع هولاكو خان الجواسيس».

فاستماله الخليفة وقال له: «منذ هذه اللحظة كُنْ يقظاً وعاقلا».

وبعد ذلك خرج مجاهد الدين من حضرة الخليفة، وعلى سبيل المكابرة وعدم المبالاة، أصرّ على مهاجمته (أي مهاجمة الخليفة).

فجمعَ حوله رنود بغداد وأوباشها، وكانوا يلازمونه ليل نهار، فخشي الخليفة مغبّة الحال، وجمع جيشاً لدفع هذا الخطر.

ثمّ زادت الفتنة والاضطراب في بغداد، وكان الأهالي هناك قد ملّوا العباسيين وكرهوا حكمهم، ولمّا عرفوا ان دولتهم قد آذنت بالمغيب، ظهرت الأهواء المختلفة بينهم[1].

* * *

فقد عرف الأمير مجاهد الدين الدواتدار ان الدولة العباسية آذنت بالمغيب، فليس أمامه إلّا ان يستغل الأمر استغلالاً فضيعاً.

ففي البداية احتضن الرعاع والسفلة، ولمّا لمس في نفسه القوّة تآمر على الخليفة المستعصم ليزيحه ويولي خليفة آخر من العباسيين مكانه.

وعلم الوزير بالمؤامرة، وكان لا بدّ ان يخبر الخليفة بذلك ليأخذ حذره، ولكن الخليفة الأحمق يطلع الدواتدار على ما أخبره الوزير، وانّه لا يثق بالّذي قاله الوزير، والخليفة هنا لا ينبغي له ان يخبر الدواتدار بذلك.

فالأمر ربّما كان صحيحاً، فليتروّ قليلاً ويستكشف الحقيقة.

---

١ ـ جامع التواريخ / رشيد الدين الهمداني / ص ٢٦٣.

وإذا كان وشاية وسعاية من قبل الوزير، فانّه كان ينبغي له أن يعزل الوزير بسرعة ويحبسه تحت طائلة المحاسبة والعقاب.

ولكن الخليفة أوقع الخلاف بينهما، في حين كان العدو على أبواب بغداد.

هذه هي قصّة نشوء الخلاف بين الوزير وقائد الجيش.

الوزير يتهم قائد الجيش بالمؤامرة على الخليفة في خلعه وتنصيب غيره.

وقائد الجيش يتهم الوزير بمكاتبة هولاكو والتفاهم معه.

وكلا الأمرين خطيران جدّاً وفي وقت حرج للغاية.

كان الأنسب للخليفة أن يتحقّق في صحّة التهم تلك ثمّ يكون حازماً حاسماً في قراره ويبعد أحدهما.

ولكنّه لم يفعل ذلك، وإنّما أبقاهما وأثار الخلاف بينهما.

ولم يذكر لنا التاريخ انّ الخليفة سأل الوزير عن صحّة التهمة الّتي وجّهها له قائد الجيش الدواتدار، مع انّه أمر جدير بالتحقيق.

فهل كان الخليفة معتقداً بصدق الاتهام الموجّه إلى الدواتدار؟ إذن لماذا كرّمه وتغاضى نهائياً عن متابعة التهمة؟

أمّا إذا كان يكذّب الاتهام.

فلماذا لم يتابع ابن العلقمي؟

وتركهما معاً، والخلاف مُستعِر بينهما، والدولة مُقبِلة على حرب حاسمة، ولكن المحصّلة النهائية الّتي تأكّدت لدينا أنّ الخليفة كان أهوج في تصرّفه ذلك، كما عوّدنا هو أن يكون أهوج دائماً.

* * *

ويبدو أنّ اتهام ابن العلقمي بالخيانة نشأ من اليوم الّذي واجه الخليفة قائده بالمؤامرة، فما كان من هذا إلّا ان وجه تهمة بمستواها ضدّ الوزير.

ولسنا هنا في موضع التحقيق من صحّة التهمة، وانّما نرجئ البحث عنها إلى موضع

آخر إن شاء الله.

وانّما أوردناها هنا ليكوّن القارئ له فكرة عن أصل الخلاف الّذي نشأ بين القائد والوزير.

وسوف ننتقل الآن إلى الحديث عن بغداد في الأيّام تلك.

❊ ❊ ❊

بغداد عام ٦٥٥ هـ

كانت بغداد عام ٦٥٥هـ غافلة عمّا يراد بها، غارقة في شقاقاتها الشخصية وفتنها المذهبية.

وكانت قد نكبت قبل ذلك آخر صيف ٦٥٤هـ بفيضان عظيم طغى عليها، فأغرقها، واستمر خمسين يوماً يعمل عمله، ثمّ أخذ بالتناقص، ونتج عن ذلك فوضىٰ أدّت إلى سيطرة طبقة من الرّعاع أخذوا بالإعتداء على الناس والسلب والنهب، وقد ذكرنا ذلك.

وكان أبرز رجال الدولة في ذلك الوقت شخصين يتوليان منصبين خطيرين هما الوزير مؤيدالدين محمّد بن أحمد بن العلقمي وقائد الجيش مجاهد الدين الدواتدار، وكانا لسوء الحظ متنافرين متشاكسين يدسّ كلّ منهما على الآخر، ولم يكن في شخصية الخليفة من القوّة ما يحسم مثل هذه الأمور، بل لم يكن في شخصيته ما يؤهّله لقيادة العالم الاسلامي في معركته الحاسمة.

والمسلمون لم يفهموا انّ المغول انّما يستهدفون كيانهم، والّذين فهموا كانوا غافلين.

❊ ❊ ❊

لقد كانت القلاع الإسماعيلية المنيعة تستطيع الصمود طويلاً أمام الموجة المغولية، بل لم يكن النصر مُستحيلاً لو أنّ المسلمين عضدوا الإسماعيليين وأمدّوهم.

ولكنّ المسلمين كانوا بين محرّض على الإسماعيليين وبين شامت وبين متجاهل،

وهم جميعاً عمهم السرور للقضاء على الإسماعيليين.

بل إنّ دولة خوارزم كان من الممكن ان تقف حائلاً بين المسلمين والمغول، لو وقف المسلمون معها، في حين نجد انّ الخليفة الناصر لدين الله كان يحرّض المغول على غزو بلاد خوارزم.

وقد قال صاحب دمشق معلقاً على سقوط الخوارزميين:

«سوف ترون غب هذا، والله، لتكونن هذه الكسرة سبباً لدخول التتر بلاد الاسلام، ما كان الخوارزمي إلّا مثل السد الّذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج»[1].

* * *

وها هو التهديد المغولي يصل إلى بغداد، ويتردّد صداه في جميع أنحاء العالم الاسلامي دون أن يكون لهذا الصّدىٰ أيّة ردّة فعل عملية.

وعلى هذا مضى الأمر وتهيّأ هولاكو لمتابعة الخطوات في اتجاه بغداد. وكانت الخلافات الشخصية تحول دون كل تفاهم بين أولي الأمر في بغداد، وكانت نكبتها بالفيضان قد خلقت طبقة رعاعية معتدية ـ كما قدّمنا ـ، ويظهر انّ هذه الطبقة سيطرت على الشارع بحيث جعل النافذين يتسابقون إليها استنصاراً بها، فكان أن احتضنها مجاهدالدين الدواتدار واعتضد بها، ففرض نفسه على الخليفة بحيث صار اسمه يذكر في الخطبة بعد اسم الخليفة.

من هذا وأشباهه يمكننا أن نحكم على ما كان يشغل أولي الأمر في بغداد وعلى مقدار انصرافهم إلى الاهتمام بمعالجة الخطر الداهم.

ولم يكن يدري الدواتدار انّه بتصرّفاته هو وغيره من المسؤولين كان يمهّد إلى أن يُمحىٰ اسمه واسم الخليفة، لا من الخطبة فقط بل من والوجود...[2].

* * *

١ ـ سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان / ج ٨ / قسم ٢ / ص ٦٧١.

٢ ـ الغزو المغولي للأمين / ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

توجّه هولاكو إلىٰ بغداد وتردّد الرّسل بينه وبين المستعصم

بلغ هولاكو خان (الدينور) في التاسع من ربيع الآخر سنة خمس وخمسين وستمائة قاصداً بغداد، ثمّ قفل راجعاً ومضى إلى همدان.

في الثاني من شهر رجب من تلك السنة.

وفي العاشر من رمضان، أرسل إلى الخليفة رسولاً يتهدّده ويتوعّده قائلاً:

«لقد أرسلنا إليك رسلنا وقت فتح قلاع الملاحدة[1] وطلبنا مدداً من الجند، ولكنّك أظهرت الطّاعة ولم تبعث الجند، وكانت آية الطّاعة والاتحاد أن تمدّنا بالجيش عند مسيرنا إلى الطّغاة، فلم ترسل إلينا الجند، والتمست العذر.

ومهما تكن أسرتك عريقة وبيتك ذا مجد تليد...

شعر:

فانّ لمعان القمر قد يبلغ درجة

يخفى فيها نور الشمس الساطعة

ولا بدّ أنّه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام، ما حلّ بالعالم والعالمين على يد الجيش المغولي منذ عهد جنكيز خان إلى اليوم، والّذي حاق بأسر الخوارزمية والسلجوقية وملوك الديالمة والأتابكة وغيرهم، ممّن كانوا ذوي عظمة وشوكة، وذلك بحول الله القديم الدائم.

ولم يكن باب بغداد مغلقاً في وجه طائفة من تلك الطوائف، واتخذوا منها قاعدة ملك لهم، فكيف يغلق في وجهنا رغم ما لنا من قدرة وسلطان[2].

---

١ ـ يقصد بذلك قلاع الإسماعيليين.

٢ ـ ولقد أشرنا إلى هذا في مطاوي حديثنا عندما قلنا انّ ضعف الخلفاء وانصرافهم للهو والعبث جرّأ عليهم أصحاب الطموح والأطماع، فاستولوا على البلاد وبدأوا يعزلون خليفة وينصبون آخر، ابتداء من الأتراك ثمّ البويهيين ثمّ السلاجقة، ثمّ جاء التتار يريدون دوراً لهم ولكن بعد إزاحة الخلافة.

ولقد نصحناك من قبل.

والآن نقول لك: احذر الحقد والخصام ولا تضرب المخصف بقبضة يدك ولا تلطخ الشمس بالوحل فتتعب.

ومع هذا فقد مضى ما مضى، فاذا أطاع الخليفة، فليهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لابنه ويحضر لمقابلتنا، وإذا لم يرد الحضور، فليرسل كلّاً من الوزير وسليمان شاه والدواتدار ليبلغوه رسالتنا دون زيادة أو نقص.

فاذا استجاب لأمرنا، فلن يكون من واجبنا ان نكنّ له الحقد، وسنبقي له على دولته وجيشه ورعيّته، أمّا إذا لم يصغ إلى النصح وآثر الخلاف والجدال، فليعبّئ الجند وليعيّن ساحة القتال، فانّنا متأهبون لمحاربته وواقفون له على استعداد.

وحينما أقود الجيش إلى بغداد مندفعاً بسورة الغضب فانّك لو كنت مختفياً في السماء أو في الأرض....

شعر:

فسوف أنزلك من الفلك الدوار

وسألقيك من عليائك إلى الأسفل كالأسد

ولن أدَعَ حياً في مملكتك

وسأجعل مدينتك واقليمك وأراضيك طعمة للنار

فإذا أردت ان تحفظ رأسك وأسرتك فاستمع لنصحي بمسمع العقل والذكاء وإلّا فسترى كيف تكون إرادة الله [1].

❊ ❊ ❊

الخليفة المستعصم يرسل وفداً إلى هولاكو يحمل رسالة وهدايا

وبعدما بلغ الرّسل بغداد وبلغوا الرسالة، أوفد الخليفة وفداً من ثلاثة أشخاص إلى هولاكو هم:

---

١ ـ جامع التواريخ / رشيد الدين الهمداني / ص ٢٦٨.

شرف الدين عبدالله بن استاذ الدار محي الدين يوسف بن الجوزي، وكان رجلاً فصيحاً.

وبدر الدين محمود،

وزنكي النخجواني.

يحملون رسالة إلى هولاكو يقول فيها:

أيُّها الشاب الغرّ المتمنّي قصر العمر ومَن ظنّ نفسه محيطاً ومتغلّباً على جميع العالم مغترّاً بيومين من الإقبال، متوهّماً أنّ أمره قضاء مبرم وأمر محكم.

لماذا تطلب منّي شيئاً لن تجده عندي.

شعر:

كيف يمكن أن تتحكّم في النجم وتقيّده

بالرأي والجيش والسلاح[1]

ألا يعلم الأمير أنّه من الشرق إلى الغرب، ومن الملوك إلى الشحّاذين ومن الشيوخ إلى الشباب ممّن يؤمنون بالله ويعملون بالدّين، كلّهم عبيد هذا البلاط وجنود لي[2].

إنّني حينما أشير بجمع الشتات سأبدأ بحسم الأمور في إيران ثمّ أتوجّه منها إلى بلاد توران وأضع كل شخص في موضعه وعندئذٍ سيصير وجه الأرض جميعه مملوءً بالقلق والاضطراب.

غير إنّي لا أريد الحقد والخصام ولا أن أشتري ضرر الناس وإيذاءهم، كما إنّني لا أبغي من وراء تردّد الجيوش ان تلهج ألسنة الرعية بالمدح أو القدح، خصوصاً وأنّني مع الخاقان وهولاكو قلب واحد ولسان واحد.

---

١ ـ الشعر بالأساس باللّغة العربية وهو غير موجود الآن، إلّا انّه مترجم للفارسية ثمّ أعيد للعربية.

٢ ـ متى كان الّذين يؤمنون بالله عبيداً للمستعصم وآبائه؟ يخسأ المستعصم إذ يقول ذلك، فالناس عبيد لله وحده وليسوا عبيداً له.

انّه كيزيد بن معاوية عندما شنّ حرباً عام ٦٣هـ على المدينة المنوّرة يوم الحرّة وقتل الأبرياء، وبايع الناس على انّهم عبيد ليزيد ومن أبى ذلك تعرّض للسيف (مروج الذهب / ج ٣ / ص ٧٠).

وإذا كنت مثلي تزرع بذور المحبة، فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم، فاسلك طريق الود وعد إلى خراسان وإن كنت تريد الحرب والقتال...

شعر:

فلا تتوان لحظة ولا تعتذر

إذا استقرّ رأيك على الحرب

انّ لي ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجّاله

وهم متأهبون للقتال

وانّهم يثيرون الغبار من ماء البحر وقت الحرب والطعان

وعلى هذا النحو بلغ الرسالة وصرف الرسل مع بعض التحف والهدايا[١].

* * *

كانت تلك رسالة الخليفة إلى هولاكو.

وواضح انّها كانت (عنتريّات) فارغة، يعرف ذلك هولاكو وغيره والقاصي والداني، بما فيهم الخليفة نفسه.

وخلفاء بني العباس، منذ أمد بعيد فقدوا قوتهم وسيطرتهم على البلاد، عندما انصرفوا للّهو واللّعب وشرب الخمور وجمع الخصيان... فكانوا طعمة للماليك الأتراك، ثمّ البويهيين ثمّ السلاجقة، يتصرّفون بهم كما يشاؤون، وقد مرّ بنا ذلك، ولا نحتاج إلى إعادة.

وهولاكو واضح لديه تماماً ان خليفة بغداد لا يستطيع ان يجمع شتات الناس من الشرق والغرب ومن الملوك والشحاذين، ليبدأ بهم حسم الأمور في إيران ثمّ يتوجّه بهم إلى توران وأخيراً يصبح وجه الأرض مملوءً بالقلق والاضطراب.

فلم يكن المستعصم يمتلك ـ في أيّامه ـ إلّا بغداد فقط، فالحلّة وواسط والبصرة

١ ـ جامع التواريخ لرشيد الدين الهمداني / ص ٢٧٠.

وأربيل والموصل ليست له، فضلاً عن المناطق البعيدة الخارجة عن حدود العراق.

وهو يعلم ذلك جيّداً، وسوف نراه بعد قليل يعتقد انّ المغول سوف لا يبخلون عليه ببغداد وهي تكفيه.

فلم يكن الرجل في واقعه وحقيقته يشعر بالعظمة والكبرياء ونفوذ الخلافة في الأصقاع. ولكنها (عنتريّات) الأطفال الّذين سرعان ما ينهزمون عندما يجدّ الجد ويحتدم الخصام.

وهو في رسالته يعطي لنفسه مجالاً للهروب عندما يقول «غير انّي لا أريد الحقد والخصام ولا أن اشتري ضرر الناس وايذاءهم».

فلماذا لا يريد ذلك؟

والحرب تنطوي على اراقة الدماء، والعدو القاهر يطرق عليه الأبواب، ولكنّه أسلوب للانكفاء للقهقرى.

ثمّ لماذا الهدايا يرسلها الخليفة إلى هولاكو بعد رسالة التهديد الّتي وردت منه؟ ما معنى الهدايا والتحف؟

انّها مبرِّر آخر للإنهزام، لم يكن من المناسب أن يسلكه.

فإمّا حرب يستعد لها وتراق فيها الدماء دفاعاً عن الاسلام ـ وهو غير قادر على ذلك ـ وإمّا هدايا وتحف ومداراة ومصانعة، وليس من الممكن جمعها معاً ومبرِّر الانهزام هو الأقوى عندما يقول:

(خصوصاً وانّني مع الخاقان وهولاكوخان قلب واحد ولسان واحد).

فما معنى هذا الكلام؟ حتّى كنت معها قلباً واحداً.

ثمّ كيف ينسجم هذا الكلام مع ما سبقه، فاذا كنت وإيّاه قلباً واحداً فلماذا الحرب؟

وما أجد لكلامك يا خليفتنا إلّا انّك أحمق وسخيف.

أو هجمت عليك المعضلات فأصبحت لا تعي ما تقول.

لقد كان الخليفة المستعصم أحمق وأهوج في نفسه، كما كان يؤثّر فيه أولئك الّذين اختاروه للخلافة منذ اليوم الأوّل (للينه وضعفه)، ورفضوا الخفاجي لأنّه كان يتمتّع بالقوّة والشهامة والطموح في عبور نهر جيحون واسترجاع ما أخذه الأعداء من بلاد المسلمين.

❊ ❊ ❊

نعود إلى حديثنا عن الرسالة الّتي بعثها الخليفة المستعصم إلى هولاكو ومعها الهدايا والتحف.

... وحينما خرج الرسل من بغداد، وجدوا الصحراء كلّها ممتلئة بالرعاع، فأطلقوا ألسنتهم بسبّ هؤلاء الرسل، وبادروهم بالسفاهة، وأخذوا يمزقون ثيابهم ويبصقون في وجوههم، لعلّهم يقولون شيئاً يتّخذونه ذريعة لإيذائهم والإعتداء عليهم، فلمّا أخبروا الوزير بذلك، أرسل على الفور بعض الغلمان فأبعدوهم[1].

وعندما وصل الرسل إلى هولاكو خان وعرضوا عليه كل ما شاهدوه، غضب

---

١ ـ جامع التواريخ / ص ٢٧٠.

نحن لانستبعد أن يكون مجاهدالدين الدواتدار وراء هؤلاء الرّعاع، فقد مرّ بنا قبل قليل عندما كنّا نتكلّم عن فيضان بغداد عام ٦٥٤هـ، ونقلنا عن رشيدالدين في جامع التواريخ قوله «وخلال تلك الواقعة امتدّت أيدي جماعة من الزناطرة والمشاغبين والرّعاع والسّفلة بالإعتداء والسّلب وكانوا في كلّ يوم يغتصبون بعض الأشخاص الأبرياء، وكان مجاهد الدين الدواتدار يحتضن بنفسه هؤلاء الرّعاع والسّفلة.

فصار في مدّة وجيزة صاحب شوكة وبأس، ولمّا لمس في نفسه القوّة ورأى الخليفة المستعصم شخصاً عاجزاً لا رأي له ولا تدبير وساذجاً، اتفق مع طائفة من الأعيان على خلعه وتولية خليفة آخر من العباسيين في مكانه.

فالدواتدار منذ البداية كان يطمح بلين الخليفة وضعفه، ويتخذ من الرعاع والسفلة طريقاً لخلع الخليفة وبيعة غيره، ليعين وزيراً جديداً غير ابن العلقمي، فابن العلقمي أصبح شوكة أمام الطموح الّذي يصبو إليه.

وسوف نرى بعد قليل أيضاً أنّ الدواتدار يهدد الخليفة إذا أرسل الهدايا إلى هولاكو بناء على رأي الوزير ابن العلقمي.

الملك وقال «انّ الخليفة ليست لديه كفاءة قط، انّه كالقوس الأعوج، فلو أمدني الله الأزلي بعونه، فسوف أجعله مستقيماً كالسهم».

* * *

رسل الخليفة يصلون إلىٰ هولاكو فيغضب ويجدّد تهديده بالحرب

ثمّ دخل رسل الخليفة وهم ابن الجوزي وبدر الدين وزنكي، وبلّغوا الرسالة فغضب هولاكو من عبارة الخليفة غير اللّائقة وقال:

«إنّ إرادة الله مع هؤلاء القوم أمر آخر، إذ ألق في روعهم مثل هذه الأوهام»[1].

واذن هولاكو بانصراف رسل الخليفة، وقال لهم:

إنّ الله الأزلي رفع جنكيز خان ومنحنا وجه الأرض كلّه من الشرق إلى الغرب، فكل من سار معنا وأطاعنا واستقام قلبه ولسانه، تبق له أمواله ونساؤه وأبناؤه.

ومن يفكر في الخلاف والشقاق لا يستمتع بشيء من ذلك.

ثمّ عاتب الخليفة بشدّة قائلاً: لقد فتنك حبّ الجاه والمال والعجب والغرور بالدولة الفانية، بحيث انّه لم يعد يؤثّر فيك نصح الناصحين بالخير وإن في أذنيك وقراً، فلا تسمع نصح المشفقين.

ولقد انحرفت عن طريق آبائك وأجدادك، وإذن فعليك ان تكون مستعداً للحرب والقتال، فانّي متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد.

ولو جرى سير الفلك على شاكلة أخرى، فتلك هي مشيئة الله العظيم.

---

١ ـ كان هدف هولاكو هو السيطرة على العراق، وكان يفضل ان يكون ذلك بدون حرب، والرسائل الّتي كان يبعثها للخليفة تؤكّد هذا المعنى، كان يطلب منه أن يظهر الطاعة في أن يمدّه بالجيش في مسيره إلى حرب الإسماعيليين.

ولعلّ ذلك كان تنفيذاً لوصية أخيه الملك (منكوقاآن): ولا تتعرّض للخليفة ببغداد إن كان أظهر لك الطاعة وإنقاد لخدمتك، وأمّا إذا أبدى غروراً وكبراً ولم يخلص لك قلباً ولساناً فعامله كغيره ممّن سبق (أي بالحرب).

وبعد أن وصل رسل بغداد، بلغوا رسالة ذلك الملك الفاتح إلى الوزير، فعرضها برمّتها على الخليفة.

فقال: ماذا ترى لدفع هذا الخصم القاهر القادر؟

فأجاب الوزير:

ينبغي أن ندفعه ببذل المال، لأنّ الخزائن والدفائن تُجمع لوقاية عزّة العرض وسلامة النفس، فيجب إعداد ألف حمل من نفائس الأموال وألفاً من نجائب الإبل وألفاً من الجياد العربية المجهزة بالآلات والمعدات، وينبغي إرسال التحف والهدايا في صحبة الرّسل الكفاة الدّهاة مع تقديم الاعتذار إلى هولاكو، وجعل الخطبة والسكّة باسمه.

فاعجب الخليفة برأي الوزير، وأشار بانجاز ذلك[1].

* * *

لقد كانت فكرة الوزير ابن العلقمي في تقديم الهدايا جيّدة، فهي الوسيلة الوحيدة الّتي يستطيع الخليفة المستعصم ان يقوم بها.

فالحرب هي الأرجح لو كان للخليفة طاقة عليها، ولكنّه ضعيف الإرادة مسلوب الرأي، ثمّ هو لا يملك من الجند إلّا القليل، فقد اسقطهم منذ مدّة بخلاً بالأموال الّتي تعطى لهم، اضافة إلى ان قائد الجيش شخص خان الأمانة وخان الخليفة.

خان الأمانة يوم حجب الخلافة عن الخفاجي، وهو الشخص القوي الشّهم، وبايعَ للمستعصم للينه وضعفه.

وخان الخليفة يوم أراد ان يقوم بعمل انقلابي عليه فيبايع لولده أبي بكر.

إذن قائد الجيش لا يعتمد عليه، وسوف نراه يهرب حين يحتدم وطيس الحرب مع المغول فلم يكن أمام المستعصم إلّا المداراة والمصانعة بالهدايا والتحف المناسبة، والوزير يعرف أنّ من طبيعة الملوك إذا دخلوا قرية أشاعوا فيها الفساد وأباحوا ذمارها وانتهكوا حرماتها وحطّموا القوّة المدافعة عنها وعلى رأسها رؤوسها، وجعلوهم أذلّة.

---

١ ـ جامع التواريخ لرشيد الدين الهمداني / ص ٢٧١.

وأخبار هولاكو مع الإسماعيليين وغيرهم وصلت إليهم في فضاعتها وشناعتها، والهدية تلين القلب وتعلن الود وقد تفلح في دفع القتال.



الخليفة تعجبه فكرة الوزير بالهدايا ويأمر بإنجازها ولكن الدواتدار يهدده فيتراجع

ولكن مجاهد الدين ايبك المعروف بالدواتدار الصغير ـ بسبب الوحشة الّتي كانت بينه وبين الوزير ـ أرسل إلى الخليفة رسالة بالاتفاق مع الأمراء الآخرين ورنود بغداد يقولون:

«إنّ الوزير دبّر هذه الحيلة لمصلحته الخاصّة لكي يتقرّب زلفى إلى هولاكو، ويلقي بنا نحن الجنود في البلاء والمحنة، ولكننا سوف نرقب مفارق الطّرق ونلقي القبض على الرسل ونأخذ ما معهم من أموال وندعهم في العذاب والعناء».

فعدل الخليفة ـ بسبب هذا الكلام ـ عن إرسال الأحمال، وبدافع من التهوّر والغرور أرسل إلى الوزير من يقول:

«لا تخش القضاء المقبل ولا تقل خرافة، فان بيني وبين أخيه منكوقاآن صداقة وألفة، لا عداوة وقطيعة، وحيث انّني صديق لهما، فلابدّ انّهما أيضاً يكونان صديقين وموالين لي، وإن ارسال الرسل غير صحيحة.

أمّا إذا أضمر الأخوان لي خلافاً وغدراً فلا ضير على الأسرة العباسيّة، إذ أنّ ملوك الأرض هم بمثابة الجنود لي وهم منقادون ومطيعون لأمري ونهيي، فأدعوهم من كل قطر وأسير لدفعهما (أي لدفع منكوقاآن وهولاكو خان) وأثير ايران وتوران عليهما، فقوّ قلبك ولا تخافنّ تهديد المغول ووعيدهم، فانّهم رغم كونهم أرباب دولة وأصحاب شوكة إلّا انّهم لا يملكون سوى الهوس في رؤوسهم والريح في أكفّهم»[1].

---

١ ـ جامع التواريخ لرشيد الدين الهمداني / ص ٢٧٣.

لقد بلغ الخليفة من السخف والسفاهة انّه يحسب العدوّ صديقاً والمحارِب مُسالِماً.

فهولاكو يرسل عدّة رسل للخليفة يهدده فيها بهجم بيته على رأسه والزحف على بغداد بجيش كالنمل والجراد، ومع ذلك فالخليفة المحترم يقول ان هولاكو وأخاه الملك صديقان لي.

انّهما يريدان رأسك وبلادك وعرشك الّذي تتربع عليه أيُّها الخليفة، وإذا كانت بينكم صداقة وألفة، فلماذا سألت الوزير «ماذا ترى لدفع هذا الخصم القاهر القادر»؟ فالهوس هو في رأسك أنت يا أيُّها الخليفة اللّاعب بالطيور.

وسؤال آخر إليك يا أمير المؤمنين:

متىٰ كان ملوك الأرض بمثابة الجنود لك؟

ومتىٰ كانوا منقادين مطيعين لأمرك ونهيك؟

قد تكون هذه (العنتريّات) ضرورية في عرض العضلات أمام هولاكو، ولكن ما معنى هذا مع الوزير الّذي هو مطّلع على خفايا الأمور؟

ودولتكم العباسية أصبحت واضحة الضعف والهزال والشيخوخة للقريب والبعيد، منذ كان الأتراك والبويهيون والسلاجقة يعصرون خصية الخليفة حتّى الموت، ومنذ كانوا يضربونه بالمداس على الراس، ومنذ كانوا يسملون العيون ويعزلون وينصبون من يشاؤون، ومنذ امتنع الدواتدار والشرابي اللذان اقترفا الخيانة العظمى في ابعاد الخفاجي عن الخلافة وتنصيبك أنت، لأنّهم وجدوك سفيهاً وضعيفاً ليناً يتصرفون بك وبعقلك كيفما يشاؤون، أنت الّذي تعبّر عن المغول انّهم لا يملكون سوى الهوس في رؤوسهم والريح في اكفهم.

ألم يبلغك يا سفيه، ما فعل المغول مع الأقوام الّذين كانوا في طريقهم حتّى وصلوا إليك؟

ثمّ ألم تتخذ عبرة ودرساً في غزوهم اربل ودقوقا وبعقوبا وخانقين وبغداد نفسها عام ٦٤٣هـ؟

فهل كان ذلك كلّه صداقة والفة صميمة؟

يا مَن فـرّطت بـالدولة والخـلافة والكـيان وبـنفسك أنت بـالذات وجـواريك والرّاقصات اللّاتي كن يرقصن بين يديك والعدو محيط بـقصرك الشـامخ، وأصـيبت الرّاقصة ولكنك لم تعقل إلّا انّك أسدلت الستائر لئلّا تصاب راقصة أخـرى بـسهام المغول، وكنت تقول: ان بغداد تكفيني، وهم لا يستكثرونها عليّ.

إذن أين ذهبت الصداقة والألفة الحميمة يا خائن ويا مغرور؟

والأنكىٰ من كل ذلك، عندما تدّعي أن لا ضير على الأسرة العباسية، وهو الإفتراء الّذي كنتم ـ أيُّها الخلفاء الجبناء ـ تحذِّرون الناس، فتدّعون أنّ كل من قصدكم بسوء ارتدّ على أعقابه.

فمن أنتم؟

وما هي ميزتكم ليحميكم ربّ العالمين؟

﴿وَلَقَدْ أَهْلَـكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِـكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُـلُهُم بِالبَيِّـنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[١].

فما هذه الخدعة الّتي تتمسكون بها؟

وأنتم تقترفون الزّنا واللّواط والقتل والهتك والسلب والسرقات والخيانات واللّعب بالطيور، حتّى انتسب إمامكم (الناصر لدين الله) للعيارين ولبس لباسهم مفتخراً.

لقد أبرزتم وجهاً قبيحاً لأئمّة المسلمين وأمراء المؤمنين، أكلتم نصيبكم في الدُّنيا، أمّا الآخرة فلكم فيها عذاب مهين.

* * *

فلمن كنت تدخّر أموالك يا أمير المؤمنين؟

ولماذا لم تنقذ بها الاسلام والمسلمين وقد داهمك الخطر؟

---

١ ـ يونس / ١٣.

ولماذا اسقطت الجنود؟

ألكي تزداد بذلك أموالك؟

ولمن هذا المال الوفير الّذي كنت قد دفنته في أحواض تحت الأرض؟

لماذا لم تستفد منه في انقاذ البلاد والعباد يا أحمق؟

نعم، هكذا كان ردّ الخليفة الحصيف! على رسالة هولاكو.

ويخاطبُ الوزير:

«لا تخش القضاء المقبل، فان بيني وبين أخيه منكوقاآن صداقة وألفة... انّ ملوك الأرض هم بمثابة الجنود لي وهم منقادون ومطيعون لي...».

* * *

بعد مقالة الخليفة يضطرب الوزير ويدعو إلىٰ مؤتمر وطني

ولكن الوزير ابن العلقمي اضطرب لهذا الكلام وأيقن أنّ دولة العباسيين سوف تزول.

وإذ كان إدبار هذه الدولة سيكون في عهده، فانّه طفق يتلوّى كالثعبان ويفكر في كل تدبير[1].

والوزير وإن كانت بينه وبين قائد الجيش الدواتدار وحشة وخلاف عميق إلّا أنّ الأمر كان أكبر من ذلك بكثير. فالخلافات في الأحوال الصعبة يجب أن تختفي وتزول وأن يفكّر الجميع في إنقاذ البلاد والعباد.

فدعا إلى ما يسمّى بـ(المؤتمر الوطني) كبار المسؤولين في البلاد للتشاور في الأمر، وهو ما تلتجئ إليه الدول في الحالات الاضطرارية المفاجئة.

وابن العلقمي لو لم يكن مخلصاً لما دعا إلى هذا المؤتمر الخطير، ولكنّه وجد أنّ الخطر قادم لا محالة، والخليفة يلهو كالأطفال ويتصرّف كالمجانين.

والقادة العسكريون انّما اختاروا المستعصم للخلافة لأنّهم وجدوا فيه ضعفاً ولينـ

---

١ ـ جامع التواريخ / رشيد الدين الهمداني / ص ٢٧٣.

ولم يبق مَن يتحمّل مسؤولية البلاد غير الوزير الّذي كان يـقدر حـجم المسـؤولية التاريخية الكبرى الملقاة على عاتقه.

وارتفع ابن العلقمي عن كل الصغائر وتناسى ما فعل أولئك العسكريون بالنسبة إليه وبالنسبة إلى الدولة والأمّة كلّها.

إنّ العاقل المخلص في تلك الحالة، كان لا بدّ أن يفكّر كيف يتخلّص من العدوّ وهو المطلب الأوّل الّذي يهون فيه كل أمر آخر.

ولذلك فانّه دعا إلى هذا المؤتمر الوطني لانقاذ البلاد.

* * *

إنعقاد المؤتمر الوطني والخليفة لا يزال في غيّه وسفاهته

يقول صاحب كتاب جامع التواريخ: انّ الخليفة المستعصم عندما أطـلق كـلامه اللّامسؤول في تقييمه لخطر المغول القادم، اضطرب الوزير لهذا الكـلام، فـدعا إلى اجتماع عاجل:

وقد اجتمع عند الوزير أمراء بغداد وعظماؤها، مثل سليمان شاه بن برجم وفـتح الدين بن كره ومجاهد الدين الدواتدار الصغير، وأطلقوا ألسنتهم بقدح الخليفة وطعنه قائلين: انّه صديق المطربين والمساخرة وعدو الجيوش والجنود، وانّنا أمراء الجيش بعنا كلّ ما ادّخرناه في عهد والده.

وقال سليمان شاه: إذا لم يقدم الخـليفة على دفع هذا الخصم القوي ولم يبادر إلى طلب العون والمساعدة، فيستغلب جيش المغول ـ عن قريب ـ على بغداد، وحينئذٍ لا يرحمون أي مخلوق، كما فعلوا ذلك بسائر البلاد والعباد فلا يبقون على أي شخص من الحضر أو من البدو قويّاً أم ضعيفاً وسيخرجون ربات الخدور من ستر العصمة.

ولو انّ المغول لم يحدقوا بجميع الجهات لكان من السهل حشد الجنود من الأطراف ولحملتُ عليهم بجيش في غارة ليلية وشتّت شملهم، ولو جرت الأمور على خلاف ذلك.

فأولى بالفتى ان يقتل في حومة الميدان في عزّة وشرف[1].

* * *

إنّ موقف سليمان شاه في ذلك التجمع، كان صائباً، لأنّه يثير في الحاضرين الهمّة والإقدام، ويا ليته كان له موقف حازم قبل استفحال الأمر واحتدام الوضع.

ولو أخذ الخليفة برأي سليمان شاه، فلربّما كان يستطيع أن يردّ غائلة العدوّ، ولكن الخليفة بلغ من السفاهة حدّاً لا ينفع فيه أي حل وتدبير.

ولقد عهدنا الخليفة يأمر بتعبئة الجيوش، ولكنّه عندما يجد أنّ ذلك يكلفه الأموال فما أسرع ما يغيّر رأيه.

يقول الهمداني:

وعندما بلغ الخليفة هذا الكلام (أي كلام سليمان شاه) أعجب به، وقال للوزير: إنّ كلام سليمان شاه له الأثر في النفس المنهكة، فاستعرض الجند حسب تقريره، لأغنيهم بالدرهم والدينار، وسلم أمرهم إلى سليمان شاه ليحقق خطّته.

على أنّ الوزير عرف أنّ الخليفة لن يمنح مالاً ولكنّه لم يبد ـ على الفور ـ رأياً مخالفاً لأعدائه[2].

وهو موقف حكيم جدّاً من الوزير، فسليمان شاه كان عدوّاً للوزير ينسب له التهم والأباطيل ويوجد له المتاعب.

ولكن الوزير كان يجد انّ الموقف لا يتحمل الأخذ بالثار والمقابلة بالمثل فالنار سوف تلتهم الجميع.

ثمّ انّ الوزير كان يعلم انّ الخليفة سوف لا يفي ببذل الأموال، فهو شحيح في ذلك وبخيل، لا يكاد يخرج من الذهب المكدّس في الأحواض شيئاً، ومع ذلك فقد امتثل

---

١ ـ المصدر السابق / ص ٢٧٤.

٢ ـ المصدر السابق / ص ٢٧٤.

أمر الخليفة وأمر العارض بأن يعرض الجنود بالتدريج فوجاً فوجاً، ليصل نبأ تعبئة الجنود في حضرة الخليفة إلى البعيد والقريب والترك والعرب، فتفتر عزيمة العدو.

وبعد خمسة أشهر أبلغ العارض الوزير انّ الجـند قد صاروا عدداً وفيراً وجيشاً جراراً، وانّ على الخليفة أن يمنح المال.

فعرض الوزير الأمر على المستعصم، ولكنّه اعتذر.

فيئس الوزير من مواعيده كلية ورضي بالقضاء ووضع عين الانتظار على نافذة الاصطبار.

مصراع:

حتّى يكشف الفلك نفسه عمّا وراء الستار[١].

* * *

لقد رأينا انّ الوزير ابن العلقمي، دعا إلى عقد مؤتمر وطني، ودعا إليه علية القوم، ورأينا موقف سليمان شاه.

أمّا قائد الجيش مجاهد الدين الدواتدار فلم نسمع له رأياً في هذا المؤتمر.

والّذي يظهر انّه إلى تلك اللحظة، وفي تلك الحالة العصيبة الحاسمة، كان يتفاعل مع أحقاده وضغائنه، فكان يحاول الايـقاع بـالوزير واتهـامه بـالخيانة، ويسـتعين بأوباش الناس وسفلتهم.

فلن يهمّه وضع الخليفة وحالة البلاد وأمر العباد.

فهو انّما جاء بالمستعصم كخليفة، لأنّه وجد فيه ضعفاً وليناً ليكون طوع يديه. ولا شك انّ الخليفة كان يشعر دائماً انّه مدين للدواتدار لأنّه هو الّذي رشّحه للخلافة على رغم كفاءة عمّه الخفاجي وعلوّ همته.

والخفاجي كان من ضمن برنامجه إذا بويع للخلافة ان يعبر بالجيوش نهر جيحون

---

١ ـ المصدر السابق / ص ٢٧٤.

وينتزع البلاد من التتار ويستأصلهم[١].

ولكن الدواتدار كان على النقيض من الخفاجي، فهو لا تهمّه ولا تحرّك عواطفه بلاد المسلمين المنتهكة ولا تثيره وحشيّة الأعداء، وما سوف تؤول إليه البلاد ومصير العباد.

إنّما كانت همّته السلطة والجاه والأبّهة والفرج والبطن، وهذا ربّما لم يكن يستطيع تحقيقه مع الخفاجي، وهو متيسّر له مع المستعصم الضعيف اللين.

وفي المؤتمر الّذي دعا إليه الوزير ابن العلقمي لم يذكر التاريخ رأياً طرحه الدواتدار لنعرف وجهة نظره في درء الخطر القادم، ولكنه لجأ إلى الاشاعة كما يذكر ذلك الهمداني إذ يقول:

ولمّا كان الدواتدار ـ في تلك الفترة ـ خصماً للوزير، فان اتباعه من سفلة المدينة وأوباشها، كانوا يذيعون بين الناس انّ الوزير متفق مع هولاكو خان أنّه يريد نصرته وخذلان الخليفة، فقوي هذا الظن[٢].

❋ ❋ ❋

ونحن لا نستبعد انّ الدواتدار هو الّذي أثنى الخليفة عن البذل على الجند، وربّما هوّن له من حجم الخطر الّذي يصوره له الوزير.

والعجيب في الأمر انّ المؤرّخين ممّن ينتمون إلى سلالة وعاظ السلاطين والّذين تؤسرهم العصبيات الطائفية يصورون انّ الوزير هو الّذي أشار على الخليفة بتسريح الجند ليحقق أغراضه في (الخيانة).

فلنستمع إلى السيوطي إذ يقول:

وكان أبوه (أبو المستعصم) المستنصر قد استكثر من الجند جداً، وكان مع ذلك

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٦٤.

٢ ـ جامع التواريخ لرشيد الدين الهمداني / ص ٣٧٤، وتاريخ العراق بين احتلالين لعباس العزاوي / ج ١ / ص ١٦٢، وبقية المصادر.

يصانع التتار ويهادنهم ويرضيهم، فلمّا استخلف المستعصم كان خليّاً من الرأي والتدبير، فأشار عليه الوزير بقطع أكثر الجند...[١]

وعلى هذا النسق يقول ابن الوردي:

... وكان عسكر بغداد مائة ألف فارس، فحسّن ابن العلقمي وأمثاله للمستعصم قطعهم ليحمل إلى التتر متحصل اقطاعاتهم، فصار عسكر بغداد دون عشرين ألفاً[٢].

ولكن كيف ينسجم هذا الكلام مع ما وجدناه من الوزير حين يدعو لعقد المؤتمر، ثمّ يعرض الجند على الخليفة بطريقة ذكية جدّاً، فوجاً بعد فوج، ليصل نبأ تعبئة الجنود إلى البعيد والقريب والترك والعرب، فتفتر عزيمة العدوّ....

والأنكى من كل ذلك، أن يأتي المؤرّخون المتأخّرون والّذين تفصل بينهم وبين تلك الأيّام سنين متطاولة، فيكيلوا اللّوم للوزير دون ان ينظروا بعين البصيرة للأمور وحقائق التاريخ.

وتلك مصيبتنا في وعاظ السلاطين وأصحاب العصبيات الطائفية والقومية، حين تؤخذ القضايا على خلاف حقيقتها، فيقرأها الناس مقلوبة مشوّهة.

❋ ❋ ❋

فقد امتنع الخليفة من بذل الأموال واعتمد على مقولة واهية لا أساس لها من الصحّة، وانّما ابتدعها العباسيون أنفسهم لإخافة الناس وبسط هيمنتهم، وكأنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي يحفظهم من كيد الأعداء ليسلمهم وليرفلوا بالمنكرات والمخازي باسم الاسلام.

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وخسئ أولئك الكاذبون.

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٦٦.

٢ ـ تاريخ ابن الوردي / ج ٢ / ص ١٩٠.

الخليفة يبعث هديّة صغيرة إلىٰ هولاكو ويتشبّث بمقولة كاذبة في حفظ الكيان العباسي

وعلى كل حال، فانّ الخليفة بعدما امتنع من منح المال للجند، أرسل هدية صغيرة إلى هولاكو على الطريقة الّتي سلكها من قبل، مع رسالة باهتة كان يظن انّها سوف تمنع تقدم جيش هولاكو نحو بغداد.

يقول الهمداني:

ثمّ أرسل الخليفة ثانية هدية صغيرة إلى هولاكو، على يد بدر الدين دريكي قاضي بندنيجان، وبعث يقول:

«لو غاب عن الملك، فله ان يسأل المطلعين على الأحوال، إذ أن كل ملك ـ حتّى هذا العهد ـ قصد أسرة بني العباس ودار السلام بغداد، كانت عاقبته وخيمة، ومهما قصدهم ذوو السطوة من الملوك وأصحاب الشوكة من السلاطين، فان بناء هذا البيت محكم للغاية وسيبقى إلى يوم القيامة.

وفي الأيّام السالفة قصد يعقوب بن اللّيث الصفار الخليفة وتوجه بجيش لجب إلى بغداد فلم يبلغ مأربه، إذ مات بعلّة الزحار.

والأمر كذلك مع أخيه عمرو، إذ قبض عليه إسماعيل بن أحمد الساماني وكبّله وأرسله إلى بغداد لكي يجري عليه الخليفة ما حكم به القضاء.

وكذلك جاء البساسيري بجيش عظيم من مصر إلى بغداد، وقبض على الخليفة وسجنه في الحديثة وفي بغداد جعل الخطبة والسكة مدّة عامين باسم المستنصر الّذي كان خليفة الإسماعيلية في مصر، وفي النهاية علم طغرل بك بذلك فأسرع من خراسان وقصد البساسيري في جيش جرّار وقبض عليه وقتله واخرج الخليفة من السجن وأعاده إلى بغداد وأجلسه على عرش الخلافة.

وكذلك قصد السلطان محمّد السلجوقي بغداد، فعاد منهزماً وهلك في الطريق.

وجاء محمّد خوارزمشاه بجيش عظيم قاصداً استئصال هذه الأسرة، فـابتلي في روابي (أسد آباد) بالثلج والعواصف بسبب غضب الله عليه وهلك أكثر جنده، وعاد خائباً خاسراً، ثمّ لاقى ما لاقى من جدك جنكيز خان في جزيرة آب سكون.

فليس من المصلحة ان يفكر الملك في قصد أسرة العباسيين، فاحذر عين السوء من الزمان الغادر.

فاشتدّ غضب هولاكو بسبب هذا الكلام واعاد الرسل قائلاً.

شعر:

اذهب واصنع من الحديد المدن والأسوار

وارفع من الفولاذ الأبراج والهياكل

واجمع جيشاً من المردة والشياطين

ثمّ تقدم نحوي للخصام والنزال

فسأنزلك ولو كنت في السماء

وسأدفع بك غضباً إلى أفواه السباع[1]

* * *

الخليفة المستعصم يتخبّط في قراراته

استمعنا إلى رسالة خليفة المسلمين المستعصم الأهوج الأحمق....

ففي رسالة سابقة منه يقول: انّ بيني وبين هولاكو وأخيه منكوقاآن صداقة وألفة، لا عداوة وقطيعة، وحيث انّني صديق لهما، فلابدّ انّهما أيضاً يكونان صديقين ومواليين لي.

وفي رسالة ثانية يقول: لا أظن انّ هولاكو سوف يبخل علي ببغداد.

---

١ ـ جامع التواريخ / رشيد الدين الهمداني / ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

وفي هذه الرسالة الأخيرة نراه يذكّر هولاكو ويحذّره من مغبّة هجومه على بغداد فانّ الله سوف يكسر ظهره، بناء على المقولة الكاذبة (مَن أراد سوءً بالدولة العباسية أكبّه الله على منخريه).

ونراه مع كل الرسائل يبعث بنزر يسير من الهدايا والتحف.

ولكن لاندري لماذا هذه الهدايا، مع انّ الله سوف ينتقم من هولاكو؟

إنّ الخليفة الأحمق يتصوّر أنّه بهذه الخزعبلات سوف يرد غائلة المغول، في حين نجده يرتعش من الخوف والفزع ويسأل وزيره ابن العلقمي ماذا ترى لدفع هذا الخصم القاهر القادر؟

إنّه تخبّط في التفكير أوّلاً ثمّ تخبّط في المواقف:

فمرّة هو صديق لهولاكو وأخيه الملك.

ومرّة أخرى نجد انّ الخليفة يصف هولاكو بانّه خصم قاهر قادر.

وأخرى يخشى منه أن يُطبق عليه ويقضي على طغيانه، فيهذي، ويحذّره بكسران الظهر إن هو أقدم على احتلال بغداد.

ثمّ نجده يأمر بتجنيد الجنود وعرضهم عليه ليبذل الدينار والدرهم، وبعدها يرفض تعبئة الجيش.

ونجده مرّة أخرى يأمر بإرسال التحف والهدايا على مستوى كبير، ليرد غائلة هولاكو.

فيمنعه الدواتدار ويهدده بأنّه سوف يسلبها قبل ان تصل إلى الملك.

وهو في جميع ذلك يصرّح تصريحات متناقضة متباينة متهافتة، تنبئ عن سفاهة وحماقة وتردّد وخوف واضطراب، ولا يجد إلّا أن يعيد الأكذوبة الكبرى حول الأسرة العباسية.

ولقد أحسن السيّد الأمين إذ يقول:

... انّه لجأ إلى هذا الاسلوب الساذج المضحك مهدداً ببركة أجداده وأسرارهم الإلهيّة الّتي ردّت عنهم الأعداء، ونصرتهم على الخصماء، ناسياً انّه إذا صحّ ان يقول القائل القديم:

«إنّ للبيت ربّاً يحميه».

فلا يصحّ أن يُعاد هذا القول مرّة ثانية، وأنّ ربّ البيت لا يحميه، إذا كان أهله لم يتولّوا بأنفسهم حمايته والدفاع عنه، وانّ الربّ ـ جلّ وعلا ـ هو القائل: ﴿وَاعِدّوا لَهُم مَا اَسْتَطَعْتُم مِن قُوَّة...﴾.

ولكن أنّىٰ للمستعصم أن يسمع كلام الله هذا، وأنّىٰ له أن يعتبر ممّا مضى وأن يرجع إلى عقله وتدبيره.

فيكفّ عن تلك الخزعبلات ويكون رجل الساعة ويأخذ الأمور بحزم وقوّة، فيعزل الخائن والمتردد.

ويعبّئ الجيوش.

ويستنجد بملوك الأطراف.

ويعلن النفير العام.

ويجمع شتات الأمّة ويوحد صفوفها.

ثمّ يستخرج الأموال والذهب المكدّس في الأحواض لينفقه في سبيل الله، ومن أجل حفظ كيان الدولة ويرد غائلة الأعداء.

وكما قال له الوزير ابن العلقمي:

فانّ الخزائن والدفائن تجمع لوقاية عزّة العرض وسلامة النفس.

وكما قال السيِّد الأمين:

انّه كان عليه أن يترك السّخف من القول في أزليّة الدولة العباسية وقدسيّتها، ويرجع إلى نفسه ويعتبر بالآية الكريمة ﴿وَأعِدّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّة...﴾.

فقد كان محمّد رسول الله ﷺ وهو سيِّد البشر يعدّ صفوف الجيش ويجمع القوى، ويتحالف ويستعمل وسائل الحرب.

تدابير هولاكو للزحف علىٰ بغداد

بعد الرسالة السابقة الّتي بعث بها الخليفة المستعصم إلى هولاكو، لم يتردّد الأخير في مهاجمة بغداد، ولكنّه كان يخشى من كثرة جند الخليفة.

ولذلك فانّ خطّته العسكرية كانت أن يستولي على المناطق في طريقه إلى بغداد، فأمر بتجهيز الجيوش والتأهب، بنيّة أن يستولي أوّلاً على أطراف بغداد ونواحيها ليسهل عليه دخولها في يده نظراً للاستحكامات المنيعة الّتي كانت تعترضه في طريقه[1].

وأرسل رسولاً لاستدعاء (حسام الدين عكّه) الّذي كان حاكماً على (درتنك)[2] وما حولها من قبل الخليفة، وكان حانقاً عليه (أي على الخليفة).

فسلّم حسام الدين (درتنك) ـ دون تردّد ـ إلى ابنه الأمير سعد، وحضر بنفسه لتقديم الطاعة لهولاكو، فشمله بكثير من العطف والرعاية واذن له بالعودة، ومنحه حصن (مرج وروده) وعدّة قلاع أخرى، ثمّ قفل راجعاً.

فأرسل إلى كل قلعة جيشاً، فخضع له أهلها جميعاً وسلموا له القلاع[3].

❊ ❊ ❊

الأمير حسام الدين يتراجع عن تأييد هولاكو، ويطلب من الخليفة جيشاً من الفرسان ليصدّ المغول عن بغداد، ولكن الخليفة يرفض

إنّ حسام الدين هذا، وإن كان قد التحق بركب هولاكو، وأنعم عليه هذا بعدّة قلاع أخرى تُضاف إلى مملكته.

---

١ ـ تاريخ العراق بين احتلالين لعباس العزاوي / ج ١ / ص ١٦٣.

٢ ـ درتنك كانت أيّام الخلافة وما بعدها تابعة إلى بغداد، وبقيت كذلك إلى أيّام السلطان سليمان القانوني.

٣ ـ جامع التواريخ لرشيد الدين الهمداني / ص ٢٧٧.

وهو وإن كان حانقاً على الخليفة ومتألماً منه، إلّا انّه أدرك صعوبة الخيانة العظمى الّتي ارتكبها في مساعدة قوى الكفر على الاسلام، فأحدثت له هذه القضيّة وخزة في الضمير.

ولربّما كان منذ البداية يشعر هذا الشعور نفسه، ولكنّه التحق بهولاكو خوفاً من سلطانه وجبروته.

ولذلك فقد كتب إلى صديقه تاج الدين بن صلايا العلوي حاكم إربل ليتوسط بينه وبين الخليفة في المصالحة أوّلاً ثمّ يبعث له جيشاً من الفرسان فقط ليحارب هولاكو ويمنعه من التقدم إلى بغداد وبذلك يحفظ الخليفة المستعصم والخلافة العباسية بصورة عامّة.

فلنسمع إلى ما يقوله صاحب كتاب جامع التواريخ بهذا الصّدد:

أرسل حسام الدين إلى ابن صلاية العلوي حاكم إربل ليصلحه مع ديوان الخليفة وقال:

لقد قدّرت هولاكو وما هو عليه من كفاءة وكياسة، ومهما يكن له من العنف والتهديد، فليس له عندي قدر ولا وزن.

فلو طيب الخليفة خاطري وطمأن قلبي.

وبعث إليّ بجيش من الفرسان.

لجمعت أنا أيضاً ما يقرب من مائة ألف من فرق المشاة من كرد وتركمان، ولسددت الطرق في وجه هولاكو، ولا أدَعُ أي مخلوق من جنده يدخل بغداد.

فعرّف ابن صلايا الوزير بذلك، فعرضه هذا بدوره على الخليفة، فلم يبدِ اهتماماً كثيراً [1].

* * *

والسؤال الّذي يطرح نفسه هنا:

لماذا لم يبد الخليفة اهتماماً كثيراً بالأمر؟ وهو محرج من جميع الجوانب.

---

١ ـ جامع التواريخ لرشيد الدين الهمداني / ص ٢٨٧.

فحسام الدين لم يطلب من الخليفة جيشاً كثيفاً وانّما الفرسان منهم فقط، وهو يعبّئ مائة ألف من المشاة الأكراد والتركمان، وسوف يقف حائلاً قوياً أمام هولاكو، ولن يدعهم يصلون إلى بغداد.

ورسالة حسام الدين ـ كما ينقلها المؤرِّخون ـ لم يطلب فيها من الخليفة أموالاً لتموين هؤلاء الجنود، ومعنى هذا انّه لم يكلف الخليفة أي مجهود مالي.

فلماذا إذن لم يهتم الخليفة بذلك؟

ولماذا لم يعلق المؤرِّخون على هذا النبأ؟ وانّما يزيحون بوجوههم عنه.

أمّا الخليفة؟

فلم يهتم ولن تتحرّك أحاسيسه بالخسران الّذي سوف يحلّ به وبدولته العباسية لأنّه لا يزال يعيش مقولة كاذبة سمعها من أجداده انّ (بغداد مدينة صانها الله من كل جبار يريد لها سوء) ولأنّه في الأساس شخص ضعيف ولين اختاره الدواتدار لهذه الصّفة الّتي تعجب أولئك المتربّصين، لإشباع غرورهم وأطماعهم ليكيّفوها حسب أهوائهم ومشتهياتهم.

وشاهدنا منهم نماذج كثيرة منذ تأسست الدولة وإلى يوم سقطت.

وأمّا المؤرِّخون؟

فانّهم كما وجدناهم فيما سبق يغضّون الطرف عن كثير من القضايا لأنّ اثباتها لا يلائم عواطفهم العرقية والمذهبية، وهو بلاء أصيبت به الأمّة فضاعت بسببهم كثير من الحقائق.

❊ ❊ ❊

نعم، بعث حسام الدين برسالته التأريخية إلى ابن صلايا العلوي، فعرّف ابن صلايا الوزير بذلك، فعرضها هذا بدوره على الخليفة، فلم يبد اهتماماً كثيراً.

ولمّا بلغ هولاكو خان هذا الكلام ثارت سورة غضبه، وأوفد (كيتوبوقا) مع ثلاثين[1] ألفاً من الفرسان لدفعهم و(التنكيل بهم).

---

١ ـ نحتمل أنّ الخليفة عرض طلب حسام الدين على الدواتدار على أساس أنّ الطلب عسكري محض

وعندما اقترب منهم استدعى حسام الدين قائلاً: «لقد صممنا على قصد بغداد ونحن في حاجة إلى مشورتك».

فحضر حسام الدين دون تفكر أو تدبير وأوكل به (كيتوبوقا) وقال: إذا أردت النجاة والبقاء حاكماً على هذه القلاع، فأنزل نساءك وأبناءك وأتباعك وجنودك جميعاً من هذه القلاع لكي أحصيهم، وأقرر لهم الأموال والمؤون فلم يجد حسام الدين بداً من الطاعة واحضرهم جميعاً.

فقال (كيتوبوقا):

إذا كانت ميولك مخلصة للملك، فمر بتخريب جميع القلاع ليتحقق هذا المعنى.

فأحسّ حسام الدين بأنّهم اطلعوا على مذاكراته مع الخليفة والمكاتبات معه. فيئس من حياته الغالية، وأرسل من يهدم كل القلاع، ثمّ قتله المغول مع كافة اتباعه وأشياعه ما عدا أهل القلعة الّتي كان فيها ابنه الأمير سعد، فقد طلبوا إليه التسليم تخويفاً وإرهاباً، فلم يجبهم.

وقال:

إنّ عهدكم غير صحيح، ولا أثق به.

ثمّ ظلّ يتجوّل مدّة خليع العذار في تلك الجبال، وأخيراً سار إلى بغداد ولقي من

← (فرسان من الجيش) وعلى أساس أنّ الدواتدار هو قائد الجيش، ولكن الدواتدار عرفناه شخصاً لا يريد الخير للخليفة ولا للدولة العباسية، ولعلّه كان يشعر بعدم انتمائه لتربة الوطن لأنّه شخص من الشركس وبالتالي فلا يخلص له.

وإرسال الفرسان إلى حسام الدين يفسَّر سلبياً على الدواتدار، حيث لم يقدر هو على أن يرد غائلة العدوّ، فكيف يحقّق غيره هذا النصر؟ ولذلك فانّه أوصل الخبر إلى هولاكو بطريقةٍ ما، ثمّ حدث ما حدث.

ولقد كانت هذه آخر فرصة تسنح للخليفة في إنقاذ البلاد من الأعداء، فلم يستفد منها وفرط بكل شيء، بنفسه أوّلاً وبالذهب المكدّس في الأحواض الّذي كان لا يريد أن يصرف منه شيئاً على الجند بل كان يريد أن يزيد في الذهب عندما أسقط الجند.

وأخيراً فرط بالدولة العباسية يوم تسلط الوثنيون على دولة الاسلام.

ديوان الخليفة حسن الاستقبال، إلى ان قتل في حرب بغداد[١].

* * *

لقد رأينا كيف بدأت تتسارع وتشتد الأزمة يوماً بعد يوم، فقد أرسل هولاكـو رسالة تهديد شديدة اللهجة إلى الخليفة.

فاستشار الخليفة وزيره ابن العلقمي في تدبير الأمر.

فقال له الوزير: انّه ينبغي ان ندفع غائلة العدو ببذل المال، لأنّ الخزائن والدفائن تجمع لوقاية عزّة العرض وسلامة النفس.

فأعجب الخليفة برأي الوزير وأشار بانجاز ذلك.

ولكن الدواتدار أرسل إلى الخليفة رسالة يقول فيها:

انّ الوزير دبّر هذه الحيلة لمصلحته الخاصّة، وسوف نرقب مفارق الطرق ونلقي القبض على الرّسل، ونأخذ ما معهم من أموال وندعهم في العذاب والعناء.

فعدل الخليفة عن ارسال الأحمال والتحف، لأنّها سوف لا تصل بيد هولاكـو، وانّما بيد العيارين وقطاع الطرق، وبالنتيجة فلن تفيده شيئاً.

فأرسل الخليفة رسالة إلى الوزير يقول فيها:

لا تخش العاقبة، فهولاكو صديقي أوّلاً، ثمّ انّ ملوك الأرض بمثابة الجنود لي، وهم مطيعون لي...

فاضطرب الوزير ودعا إلى عقد مؤتمر استثنائي لتدارس الوضع المتفاقم، فاقترح سليمان شاه حشد الجيوش ومقاتلة العدوّ.

وافق الخليفة في البداية ثمّ امتنع عن بذل الأموال[٢].

---

١ ـ المصدر السابق / ص ٢٧٨.

٢ ـ إنّ صاحب ميافارقين حين خطب في الناس يحثهم على مقاومة المغول، قال من جملة ما قال: «فانّني والحمد لله لست كالمستعصم عبداً للدينار والدرهم الّذي طوّح برأسه وبملك بغداد بسبب بخله» جامع التواريخ / ص ٣١٩.

ولمّا كان الدواتدار خصماً للوزير، فان اشياعه من سفلة المدينة وأوباشها كانوا يذيعون بين الناس انّ الوزير متفق مع هولاكو وانّه يريد نصرته وخذلان الخليفة وهنا بيت القصيد:

فكلّما وجد الدواتدار انّ الأزمة في طريق الحل، سواء بإرسال الهدايا أو بالحرب، فانّه يتدخل ويفسد الأمر.

ونحن لا نستبعد، بل نظن انّ الدواتدار هو الّذي اثنى الخليفة عن الاستجابة لطلب حسام الدين.

وقد وجدنا ان حسام الدين كان رجلاً مخلصاً للخليفة وللوطن الاسلامي، ولم يكن في طلبه احراج للخليفة.

فعبء الجيش وتسليحه وتمويله يتحمله هو، ولكنّه أراد من الخليفة ان يؤيده في عمله هذا ويطيّب خاطره عن الجفوة الّتي كانت بينهما والّتي لا ندري عنها شيئاً.

والّذي يدرس طبيعة الخليفة وطبيعة الدواتدار الّذي اختار الخليفة المستعصم لضعفه ولينه، يعرف جيداً انّه هو الشخص الوحيد الّذي كان مهيمناً على عقل الخليفة.

* * *

هولاكو يتشاور مع الأمراء ومع المنجّم في تصميمه على الزحف إلى بغداد

وكان هولاكو يتشاور مع أركان دولته وأعيانهم في أمر تصميمه على الزحف إلى بغداد.

فكان كل منهم يبدي رأيه حسبما يعتقد.

ثمّ طلب من حسام الدين المنجّم الّذي كان مصاحباً له بأمر (الملك القاآن) ليختار وقت النزول والركوب وقال له:

بيّن كل ما يبدو لك في النجوم دون مداهنه.

ولمّا كانت (لحسام الدين المنجم) جرأة بسبب تقربه، فقد قال للملك بصورة مطلقة:

إنّه ليس ميموناً قصد أسرة الخلافة والزحف بالجيش إلى بغداد، إذ أن كل ملك ـ حتّى زماننا هذا ـ قصد بغداد والعباسيين لم يستمتع بالملك والعمر، وإذا لم يصغ الملك إلى كلامي وذهب إلى هناك، فتسظهر ستّة أنواع من الفساد:

أوّلها: أن تنفق الخيول كلّها ويمرض الجنود.

ثانيها: أنّ الشمس لا تطلع.

ثالثها: أنّ المطر لا ينزل.

رابعها: تهب ريح صرصر وينهار العالم بالزلزال.

خامسها: لا ينبت النبات في الأرض.

سادسها: أنّ الملك الأعظم يموت في تلك السنة[1].

* * *

ولا شكّ أنّ حسام الدين المنجّم كان مسلماً، ودولة التتار كان فيها بعض المسلمين، وهم أمّا من بلاد المغول نفسها وأمّا من الّذين تمّ الاستيلاء عليهم من بلاد المسلمين.

وحسام الدين هذا ـ كما يبدو ـ كان يخشى على دولة الاسلام أن يقضى عليها من قبل التتر.

والمقولة الّتي كان يرددها المستعصم، كان يرددها هذا، عسى أن يفلح في إرغام هولاكو على الرجوع.

ولكن هولاكو وإن كان مأموراً من قبل أخيه الملك (القاآن) بالاستماع إلى ما يقوله هذا المنجّم في النزول والركوب إلّا انّه لم يكن يؤمن بهذه الأسطورة فصمّم على الزحف.

١ ـ المصدر السابق / ص ٢٧٩.

ولا شكّ أنّ هولاكو خان في مشاورته للأمراء لم يكن متردِّداً في الزحف إلى بغداد والهجوم عليها.

ولكنّه كان يريد أن يختبر أمراءه وتصميمهم على الزحف والقتال، وسوف يكون صادقاً عندما يقول لابن الجوزي موفد الخليفة ساخراً:

وكيف نترك زيارة الخليفة بعد كل ما قطعناه من هذا الطريق؟

* * *

زحف

جيوش المغول إلى بغداد

بات من المقرّر أن يزحف هولاكو إلى بغداد.

فالرسل الّتي كانت تتحرّك منه إلى الخليفة وبالعكس، لم تحقّق له أمراً.

والخليفة لا يزال يعتقد انّ أحداً لا يستطيع أن يدنّس بلاده، فالله له بالمرصاد.

والبخل الشديد الّذي كان عليه، والضعف واللّين، وسيطرة أمراء الجيش على مقدّراته، كل ذلك جعل هولاكو يتقدّم باطمئنان.

وأفضل المؤرِّخين الّذين كتبوا عن تلك الفترة اثنان، هما:

١ ـ رشيد الدين فضل الله الهمداني، الّذي كان وزيراً للمغول، صاحب كتاب (جامع التواريخ).

٢ ـ كمال الدين عبدالرزاق الشيباني صاحب (الحوادث الجامعة).

وسوف نقتبس منهما كثيراً من الوقائع الّتي قارنت الهجوم على بغداد، وقد كانا معاصرين لذلك.

وهولاكو وإن كان رجلاً دموياً إلّا انّه كان محارباً جيداً وقائداً عسكرياً، يبدو انّه يمتلك قدرة واسعة في الخطط الحربية.

فلقد قرّر الزحف إلى بغداد واحتلالها من ثلاث نقاط، ليحصر بغداد بين مجموعة من الجيوش:

١ ـ أن تتحرّك جيوش (جرماغون وبايجو نويان) اللّذين كانت معاقلها في بلاد الروم، والّتي أخضعت آسيا الصغرى، عن طريق إربل إلى الموصل، ثمّ تعبر جسر الموصل وتعسكر في الجانب الغربي من بغداد (الكرخ).

وحدّد لهذه القوات فترة زمنية بحيث يصادف وصولها إلى بغداد عند وصول القوّات الشرقية.

٢ ـ وأمر قوّات أخرى بقيادة (بلغا بن شيبان بن جوجي وتوتار بن سكنقور ابن جوجي وقولي بن أورده بن جوجي وبوقا تيمور وسونجاق).

أن يسيروا على الميسرة، فتزحف من حدود لرستان وبيات وخوزستان لتدخل بغداد وتستقر في شرقها[١].

٣ ـ وفي أوائل المحرّم سنة ٦٥٥هـ سار هولاكو وعلى رأسه التاج المغولي المسمّى: (قباق نويان)[٢] من همدان الّتي كان معسكراً فيها عن طريق كرمانشاه وحلوان، ومعه أعاظم الأمراء: (كوكا ايلكا وأرقنو آقا وقراتاي بتيجي وسيف الدين بتيكجي، وكانوا مدبري مملكته)[٣].

وهكذا كانت ثلاثة جيوش ضخمة تتقدّم للإحاطة ببغداد.

ومع ذلك، فقد ظلّت بغداد تعلّل النفس بالأماني الفارغة معتمدة على الأوهام.

* * *

وفادة أخرى بين هولاكو والخليفة

وعندما بلغ هولاكو أسدآباد، أوفد رسولاً لدعوة الخليفة مرّة أخرى للحضور، فكان يماطل ويتعلل...

ومن جانب الخليفة وصل ابن الجوزي للمرة الثانية قادماً من بغداد، يحمل رسالة بالوعد والوعيد وملتمساً أن يعود هولاكو خان ويتراجع في مقابل ان يسلم الخليفة للخزانة كلّما يقرّره هولاكو.

فظنّ (هولاكو خان) انّ الخليفة يريد من وراء عودة الجيوش، أن يعدّ جنده ويهيّئهم لمقاومة المغول.

---

١ ـ جامع التواريخ لرشيد الدين الهمداني / ص ٢٨١.

٢ ـ قباق ما يلبس في الرأس ونويان بمعنى القائد أو الأمير.

٣ ـ تاريخ العراق بين احتلالين لعباس العزّاوي / ج ١ / ص ١٦٨.

فقال مستهزئاً :

وكيف نترك زيارة الخليفة بعد كل ما قطعناه من هذا الطريق ؟

سوف نعود بإذنه بعد الحضور للقائه والتحدّث معه [١].

* * *

لعلّ الخليفة رجع إلى رشده هنا وأدرك حقيقة الخطر المحدق به وبالدولة العباسية بصورة عامّة.

فعرض على هولاكو أن يسلّمه الخزانة، وهي الّتي كان يمتنع أن يصرف منها شيئاً على الجند، يوم عرض عليه سليمان شاه الاستعداد للقتال، فاقتنع الخليفة وأمر بتجهيز الجيوش، ولكن الدواتدار منعه في اللحظة الأخيرة.

ويوم عرض عليه ابن صلايا العلوي صاحب إربل رسالة (حسام الدين عكه) حاكم درتنك أن يطيّب خاطره ويؤيّده بقطعة من الفرسان، ويهيِّئ حسام الدين مائة ألف جندي من المشاة، فامتنع أيضاً.

ويوم عرض عليه وزيره ابن العلقمي ان يرسل إلى هولاكو بالهدايا والتحف.

فكان الدواتدار يقول له: انّ الوزير يدبّر شأن نفسه.

فما دهاه الآن وهو يعرض على هولاكو ان يسلمه كلّما يقرّره في الخزائن ؟

أبعد خراب البصرة ؟

ولماذا كنت يا أمير المؤمنين دمية يلعب بك الدواتدار ؟

ثمّ لماذا هذا التراجع ؟ وأنت تتمسّك بمقولتك الواهية (كل مَن يبغي سوءً لبغداد يحطِّمه الرّحمٰن).

* * *

لقد كانت تؤسر الخليفة أربعة أمور:

---

١ ـ جامع التواريخ / ص ٢٨٢.

١ ـ الدواتدار.

٢ ـ البُخْل المفرط.

٣ ـ الغباء الحاد.

٤ ـ المقولة الاسطورية (انّ الله يريد بقاء دولة بني العباس، وكل مَن يتعرّض لها ينكسر ظهره).

ولذلك فانّه لم يكن يستجيب لاقتراحات المخلصين، الوزير والأمراء المحاربين، اعتماداً على تلك المقولة.

ولكنّه عندما وجد أنّ (الحديدة حارّة) وانّ المغول على وشك أن يدخلوا بغداد فيقتلوه.

في هذه اللّحظة جادت نفسه بالأموال، ولكن في وقت لم يكن ينفعه شيء.

* * *

جيوش هولاكو تتقدّم وجيوش الخليفة يصيبها الخوار

تحركت جنود المغول من أسد آباد إلى جبال الأكراد، ونزلوا بكرمانشاه في السابع والعشرين من الشهر، وقاموا بالقتل والسلب.

وفي كرمانشاه أمر هولاكو بإحضار الأمراء (سونجاق وبايجو نويان وسونتاى) على وجه السرعة، وأن يصلوا إليه قرب طاق كسرىٰ.

ويبدو أنّ الخليفة كان قد تحرك، فأرسل طلائع من جيشه بقيادة (أيبك الحلبي وسيف الدين قلج) لمقابلة الجيوش الجرارة.

ولكن هذه الطلائع كانت من الهزال بحيث لم تلبث أن قبض على قائِدَيها وأحضِرا إلى هولاكو، فاستنطقهما، فقصّا عليه حقيقة الوضع في بغداد، وإذا بهما ينضمان إليه ويسيران في طلائع جيشه[1].

---

١ ـ الغزو المغولي للأمين / ص ١٣٢.

كان قائد الطلائع لجند الخليفة هو (قبجاق المعروف بقراسنقر).

أمّا (سلطان جوق) الّذي كان من نسل الخوارزميين، فقد كان من طلائع المغول، فكتب هذا رسالة إلى قرا سنقر يقول فيها:

إنّني وأنت من جنس واحد (أي من الأتراك)، وبعد البحث والتدقيق التحقت بخدمة هولاكو بسبب الفقر والاضطرار، ودخلت في طاعته.

وهو الآن يعاملني معاملة طيّبة، فأنقذ أنت أيضاً حياتك وترفّق بها وأشفق على أولادك وقدّم الطّاعة حتّى تأمن على دارك وأولادك ومالك وروحك من هؤلاء القوم[1].

إلّا انّ قرا سنقر رفض ذلك وأبى الاستسلام، وهو ما يحمد عليه، ولكن المؤسف هو تعليل أسباب الرفض الّتي في رسالته الجوابية، إذ لم تكن مستمدة من روح الدفاع عن الاسلام والأوطان وحماية الذمار والتنديد بالخيانة.

بل كانت جزء من الروح الانهزامية المسيطرة على الخليفة نفسه، القانعة بأنّ الله وحده سيحمي العباسيين ويردّ عنهم غائلة المعتدين.

إذ قال قرا سنقر في جوابه:

مَن يكون هؤلاء المغول حتّى يقصدوا أسرة العباسيين... لقد شاهدت هذه الأسرة الكثيرين من أمثال دولة جنكيزخان، وإن أساسها لأكثر إحكاماً ورسوخاً من أساس أسرة جنكيزخان الّتي تترنّح من كل ريح عاصف.

ثمّ انّ العباسيين قد استمروا حكاماً أكثر من خمسمائة سنة، وكل مخلوق قصدهم بسوء قضى عليه الزمان.

وإذن فليس من العقل والكياسة أن تدعوني لأنضم إلى جانب الغصن الغض لدولة جنكيز خان، وكان الأولى بالود والمسالمة إلّا يتجاوز هولاكو خان الري بعد فراغه من فتح قلاع الملاحدة وأن يعود إلى خراسان وتركستان، لأنّ قلب الخليفة متأثر وساخط بسبب زحف هولاكو بجيوشه.

---

١ ـ جامع التواريخ لرشيد الدين الهمداني / ص ٢٨٣.

فإذا كان هولاكو نادماً حقاً على فعلته، فعليه أن يعيد الجيش إلى همدان، لكي نجعل الدواتدار شفيعاً، فيتضرّع بدوره إلى الخليفة علّه يزول ألمه ويقبل الصلح بذلك، فينغلق بذلك باب القتال والجدال[1].

* * *

لا تزال الفرية الكبرى تثار بين فترة وأخرى (فرية قداسة حكم العباسيين) وكأن (قرا سنقر) يعتبر أن طول حكم العباسيين يضفي على الأسرة رسوخاً واستحكاماً.

ولكن الصحيح انّ الدولة العباسية لطول مدّتها، أصبحت أكثر شيخوخة ومرضاً وتمزقاً.

فلقد بدأت الأمرض تنخر في جسمها منذ اليوم الأوّل من تأسيسها، إن لم نقل منذ يوم الدعوة إليها على يد إبراهيم الإمام ـ كما أسلفنا ذلك ـ.

فأي استحكام في أساسها، والأتراك والبويهيون والسلاجقة هم المتحكمون؟ وهم الّذين يعصرون خصية الخليفة يعزلونه وينصبون غيره.

وأي استحكام فيها والخليفة المستعصم يقول تكفيني بغداد، وهم لا يبخلون بها علي؟ ويلعب به الدواتدار كالدمية؟

وأي كلام باهت هذا الّذي يتصوّره (قرا سنقر) عندما يخاطب صاحبه القائد المغولي بأن قلب الخليفة متأثر وساخط بسبب زحف هولاكو بجيوشه؟

وما تأثير هذا الكلام في هولاكو وهو يريد ان يقضي على دولة الخليفة ويحرق البلاد والعباد؟

والأنكى من ذلك، عندما يطلب منه الرجوع ليتشفّع فيه الدواتدار لدى الخليفة علّه يزوال ألمه عن هولاكو؟

كلام سخيف وعجيب...

---

١ ـ جامع التواريخ / ص ٢٨٤.

ولقد كان الأولى به أن يردّ عليه ويخاطبه أن يثوب إلى حضيرة الاسلام ويلتحق بجيش الخلافة ويترك المغول.

ولكن المأساة كان مقدّراً لها أن تسير هكذا... وأن يُبتلى المسلمون بخلفاء وقادة كأولئك.

ويقول حسن الأمين بهذا الصّدد:

إنّ هذا الجواب يرينا حقيقة الحال المسيطرة على رجال الدولة جميعاً في تلك الساعات الحاسمة، فقرا سنقر لا يعتدّ بقوّة الجيش المعدّ، ولا يقول كلمة ترويع وتخويف بالحشود والزحوف، بل يهدد ويتوعد بالقوّة الغيبية وحدها، كما فعل سيِّده وخليفته من قبل... فضلاً عن اعلانه ان ما يمنعه من الانضمام إلى المغول هو أن غصنهم لا يزال غضّاً، والدخول معهم غير مأمون العواقب، والانضمام إليهم لا يضمن المستقبل[1].

❊ ❊ ❊

فلمّا عرض (سلطان جوق) تلك الرسالة على هولاكو، ضحك وقال:

ان اعتمادي على الله لا على الدرهم والدينار، فاذا كان الله الأزلي مساعداً لي ومعيناً، فماذا أخشاه من الخليفة وجيشه...؟

ثمّ قرأ شعراً:

تتساوى في نظري النملة والبعوضة والفيل

كما يتساوى الينبوع والنهير والبحر والنيل

ولو كان أمر الله على خلاف ذلك

فمن يدري سواه كيف يكون ذلك الكلام.

---

١ ـ الغزو المغولي للأمين / ص ١٣٣.

هولاكو ينذر الخليفة بالقتال أو الطاعة

ثمّ أرسل هولاكو من جديد رسولاً إلى الخليفة يقول:

إذا كان الخليفة قد أطاع فليخرج.

وإلّا فليتأهّب للقتال.

وليحضر قبل كلّ شيء، الوزير وسليمان شاه والدواتدار وليسمعوا ما نقول[١] والملاحظ أنّ هولاكو أرسل عدّة رسائل إلى الخليفة، وهي كلّها تهديد ووعيد وطلب الخضوع والطاعة، وفي بعضها كان يطلب إرسال الوزير أو أحد القواد العسكريين.

أمّا في هذه الرسالة، فقد طلب هولاكو أن يحضر الخليفة نفسه، ولكن قبل حضوره لابدّ أن يرسل أركان الدولة الثلاث (الوزير وسليمان شاه والدواتدار).

وهذا يدل على أنّ هولاكو يعتقد دون شك بأنّه سوف ينتصر على الخليفة وسوف يحتلّ بغداد.

وهو وإن بعث هذه الرسالة إلى الخليفة، إلّا أنّه لم ينتظر جوابها. ففي اليوم التالي سار هولاكو وعسكر على شاطئ حلوان[٢] حتّى الثامن والعشرين من ذي الحجّة ٦٥٥هـ فهو الآن على حدود العراق، ومن العجيب انّه لم يظهر أي أثر للمقاومة على طول تلك المسافة من همدان حتّى حلوان فيما عدا ما رأيناه من وجود الطلائع الّتي استسلم قائداها وانضما إلى المغول، وسنرى أيضاً انّ الدفاع سيظل مفقوداً، وانّ المغول سيصلون ضواحي بغداد دون ان يلقوا مقاومة.

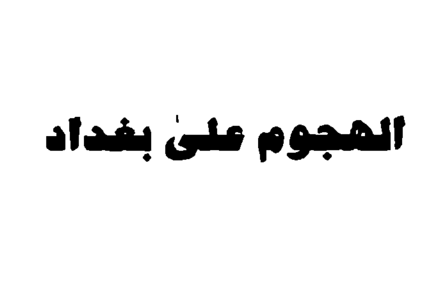
وانّ أيّة هزيمة ستفسح المجال لدخول بغداد بسهولة كما حدث بعد ذلك بالفعل[٣].

---

١ ـ جامع التواريخ / ص ٢٨٤.

٢ ـ حلوان: قال ياقوت انّها آخر السواد ممّا يلي الجبال من بغداد، أي انّها على الحدود العراقية الإيرانية.

٣ ـ الغزو المغولي للأمين / ص ١٣٤.



الهجوم علىٰ بغداد

ذكرنا فيما سبق ان هولاكو أمر (جرماغون وبايجونويان) أن يسيرا بجنودهما عن طريق إربل إلى الموصل ويعبروا جسر الموصل ليعسكروا في الجانب الغربي من بغداد.

وفي ٩ محرّم ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م عبر هذا الجيش حسبما كان مقرّراً له نهر دجلة عن طريق نهر دجيل ووصلوا إلى نواحي نهر عيسى على حدود الأنبار، على بُعد تسعة فراسخ من بغداد.

وقد التمس (سونجاق نويان إلى بايجو) أن يكون قائداً لجيش غرب بغداد، ثمّ سار بعد الاستئذان وجاء إلى (حربي).

وقبل ذلك كان مجاهد الدين ايبك الدواتدار الّذي كان قائداً لجيش الخليفة ومعه (ابن كر) قد أقاما معسكرهما بين بعقوبا وباجسرى.

وحينما سمعا بمجيء المغول إلى الضفة الغربية عبرا نهر دجلة، وحاربا (سونجاق وبوقا تيمور) في حدود الأنبار على باب قصر المنصور في أعلى (المزرقة)[١].

وقد كانت عساكر المغول قد أقبلت كالجراد المنتشر[٢] فالتقوا واقتتلوا يوم الأربعاء تاسع المحرّم.

---

١ ـ جامع التواريخ للهمداني / ص ٢٨٥.

٢ ـ يقول السيوطي انّ عددهم كان مائتي ألف / ص ٤٧١، وكذلك صاحب شذرات الذهب / ج ٥ / ص ٢٧٠ / إضافة إلى مدد من صاحب الموصل بدرالدين لؤلؤ مع ولده الصالح إسماعيل يقول صاحب كتاب البداية والنهاية:

وجاءت إليهم (إلى قوّات المغول) امداد صاحب الموصل يساعدونهم على البغاددة، وميرته وهداياه وتحفه.

وكلّ ذلك خوفاً على نفسه من التتار ومصانعة لهم (البداية والنهاية) ج ١٣ / ص ٢٣٣.

فانكسرت عساكر المغول قصداً وخديعة، فتبعهم الدواتدار وقتل منهم عدّة كثيرة وحمل رؤوسهم إلى بغداد، وما زال يتبعهم بقية نهاره.

فأشار عليه الأمير (فتح الدين بن كر) بأن يثبت مكانه ولا يتبعهم، فلم يصغ إليه فأدركه اللّيل وقد تجاوز نهر بشير، فباتوا هناك.

فلمّا أصبحوا حملت عليهم عساكر المغول، وقاتلوهم قتالاً شديداً، فلم تثبت عساكر الدواتدار، فانكسروا وكروا راجعين إلى بغداد[١].

* * *

ولقد كانت معنويّات جيش الخليفة متدنية جدّاً، فلنستمع إلى ما يقوله ابن الطقطق بهذا الصّدد:

حدثني ملك الدين محمّد بن أيدمر، قال:

كنت في عسكر الدواتدار الصغير لما خرج التتر بالجانب الغربي من مدينة دار السلام في واقعتها العظمى سنة ست وخمسين وستمائة.

قال: فالتقينا بنهر بشير من أعمال دجيل، فكان الفارس منا يخرج إلى المبارزة وتحته فرس عربي وعليه سلاح تام كأنّه وفرسه كالجبل العظيم، ثمّ يخرج إليه من المغول فارس تحته فرس كأنّه حمار وفي يده رمح كأنّه المغزل وليس عليه كسوة ولا سلاح.

فيضحك منه كل مَن رآه، ثمّ ما تمّ النهار حتّى كانت لهم الكرّة، فكسرونا كسرة عظيمة كانت مفتاح الشر، ثمّ كان من الأمر ما كان[٢].

وفي تلك النواحي كان يوجد نهر كبير، ففتح المغول السد المقام عليه[٣] فغمرت

---

١ ـ الحوادث الجامعة / ص ٣٢٤.

٢ ـ الفخري لابن الطقطقي / ص ٨٠.

٣ ـ الحوادث الجامعة / ص ٣٢٤.

المياه كل الصحراء الواقعة خلف جيش بغداد[١] فعجزت الخيول عن سلوكه ووحلت فيه، فلم يخلص منه إلّا ما كانت فرسه شديدة. وألقى معظم العسكر نفسه في دجلة، فهلك منهم خلق كثير.

وهزم جيش بغداد وقتل (فتح الدين بن كر وقرا سنقر) أمّا الدواتدار فقد فرّ هارباً مع نفر ضئيل، ودخلوا بغداد على أقبح صورة وتبعهم الأمير بايجو وعسكره يقتلون منهم، وغنموا سوادهم وكل ما كان معهم.

ونزلوا بالجانب الغربي وقد خلا من أهله، فشرعوا بالرمي بالنشاب إلى الجانب الشرقي، فكانت السهام تصل إلى الدور الشّطانية[٢].

* * *

الدواتدار يهرب من المعركة في بداياتها

نعم، فرّ قائد جيش الخلافة أمير الأمراء (الدواتدار).

هذا الّذي كانت مساهمته كبيرة جدّاً في سقوط بغداد، منذ مات المستنصر وجرى الكلام حول الخليفة الجديد.

وكان الخفاجي أخو المستنصر من أبرز المشرحين لقوته وشجاعته وشهامته، وكان يقول: إن ملكني الله الأمر لأعبرنّ بالجيوش نهر جيحون وانتزع البلاد من التتار واستأصلهم[٣].

---

١ ـ لقد فعلوا نفس الأمر عندما كانوا يحاربون خوارزم، يقول ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة / ج ٨ / ص ٢٣٥:

فلمّا فرغوا (التتر) من (بلد خوارزم) وقضوا وطرهم من القتل والنهب، فتحوا السّكر «ما سُدّ به النهر» الّذي يمنع ماء جيحون عن خوارزم، فدخل الماء البلد، فغرق كلّه وانهدمت الأبنية، فبقي بحراً ولم يسلم من أهل خوارزم أحد البتّة.

فانّ غيره من البلاد كان يسلم نفر يسير من أهلها وأمّا خوارزم، فمن وقف للسيف قتل ومن استخفى غرّقه الماء أو أهلكه الهدم، فأصبحت خوارزم يباباً.

٢ ـ الحوادث الجامعة / ص ٣٢٥.

٣ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٦٤.

ولكن الدواتدار كانت جذور الخيانة قد غرست فيه، فرشّح المستعصم للينه وانقياده ليكون له الأمر، فأقاموه، فليس له مع القوي نصيب ولن يستطيع معه أن يحقق أغراضه الدنيئة في السيطرة والجاه والمال واللّهو واللعب.

وبدأت أعماله الخيانية تتوالى الواحدة بعد الأخرى.

وحاول أن يقوم بعمل انقلابي ضدّ الخليفة نفسه ويبايع لولده (ولد الخليفة) أبي بكر واطّلع الوزير ابن العلقمي على هذه المؤامرة، وأخبر الخليفة، ولكن الخليفة كان أتعس وانكى، فسكت وعفا عن الدواتدار، وحنق الأخير على الوزير حيث احبط مشروعه الانقلابي.

واشتدّت أزمة المغول حول الدولة العباسية والخليفة بالذات، وكان كلّما وجد بصيصاً في الانفراج تدخل تدخلاً سريعاً ووسع من نطاق الشدّة.

وكان الوزير ابن العلقمي قد توضح لديه ان جيش الخليفة لا يستطيع مواجهة جيش المغول، لضعف الخليفة ولأنّه اسقط الجند ولأن قائد الجيش (الدواتدار) شخص لا يؤتمن.

فكان الخليفة يسأل الوزير ما السبيل؟

فيقترح عليه الوزير ارسال الهدايا والتحف، فليس للخليفة من سبيل إلّا هذه، ولكن الدواتدار كان يقول للخليفة انّ الوزير يدبّر شأن نفسه.

واشتدت الازمة وتضيقت وأصبحت رياح الحرب والسقوط قاب قوسين، ودعا الوزير إلى عقد مؤتمر استثنائي لانقاذ البلاد، واقترح سليمان شاه ان يعلن النفير العام ومن ثمّ المواجهة الشاملة.

وافق الخليفة على ذلك واستعد أن يصرف عليهم الدرهم والدينار، ولكنّه في اللحظة الأخيرة رفض الاقتراح.

ورجّحنا في وقتها ان يكون الدواتدار خلف ذلك...

وأخيراً فانّ الدواتدار ذلك القائد الفاشل يدخل حرباً ولكنّه سرعان ما يهرب

ويرجع إلى بغداد، وسوف نراه يحاول الهرب من بغداد مرّة أخرى ويترك الخليفة للأعداء.

ولكن المغول يطلقون حجارة المنجنيق على سفينته ويحرقونها، ويعود منهزماً إلى بغداد...

❊ ❊ ❊

قوّات المغول تحيط بقصر الخلافة

وأحاطت التتار بدار الخلافة، يرشقونها بالنبال من كل جانب حتّى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتُضحِكه، وكانت من جملة حضاياه، وكانت مولّدة تسمّى (عرفه)، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعاً شديداً وأحضر السهم الّذي أصابها بين يديه فإذا عليه مكتوب:

إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوي العقول عقولهم.

فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز وكثرة الستائر على دار الخلافة[1].

❊ ❊ ❊

هكذا كان خليفة المسلمين وأمير المؤمنين...

فالأعداء يحيطون بالقصر ويرشقونه بالنبال، والجيش الخليفي يعتبر شبه المنتهي قتلاً وغرقاً وانهزاماً، والأمّة تعيش الفوضى.

والخوف يملأ أرجاء بغداد، والذعر يسيطر على النفوس.

وجيش المغول يحاصر بغداد من كل مكان.

---

١ ـ قلنا سابقاً أنّنا نعتقد ان هذا السهم ربّما جاء من أحد البغداديين، وربّما كان من أحد أفراد القصر. عندما وجد خليفة المسلمين غير مكترث لما تتعرض له بلاد المسلمين.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ (الإسراء / ١٦).

في حين نجد مولانا الخليفة يقضي ليلة ساهرة بالرقص والغناء والضحك، لا يهمه من الأمر شيء.

فهل كان لا يزال يعتقد انّ الله تعالى سوف يحرسه ويحرس دولة بني العباس في اللحظة الأخيرة؟

وليته ارعوى واستيقظ من رقدته عندما جاءه السّهم[١] فينتفض ويشمر ساعديه للمواجهة العنيفة، وإن كان ذلك لا ينفعه:

ولكن السفيه بدلاً من أن يثوب إلى رشده قليلاً، فإنّ كل ما فعله هو أنّه أمر بزيادة الاحتراز وكثرة الستائر لئلّا تصاب راقصة أخرى.

ألا بئس الخليفة هذا، وبئس المؤرّخون أولئك الّذين يغضون الطّرف عن هذه الحادثة وأمثالها، ويتمسّكون بقضايا مختلقة لا أساس لها ولا برهان.

* * *

الجيش المغولي يتدفّق علىٰ بغداد

ثمّ وصل أيضاً (بوقا نويان) والأمراء الآخرون من ناحية (نجاسيه وصرصر) بجيش عظيم.

وترك هولاكو معسكراته في خانقين وواصل سيره إلى بغداد، ونزل في الجهة الشرقية منها في ١١ محرّم ٦٥٦ هـ[٢].

ثمّ تدفّق جيش المغول كالنمل والجراد من كل جهة، فحاصروا أسوار بغداد واحتموا بجدار أقاموه[٣].

---

١ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١٣ / ص ٢٣٣.

٢ ـ يلاحظ في هذا انّ التحرك العسكري المغولي كان دقيقاً جدّاً، فهولاكو وهو في همدان عندما قسّم قواته في محاصرة بغداد، حدّد لها وقتاً معلوماً بحيث تصل كلّها في آن واحد، وهو الّذي حصل.

٣ ـ جامع التواريخ / ص ٢٨٦.

فلمّا رأى أهل بغداد ذلك الجيش العظيم، امتلأت قلوبهم رعباً فنصبوا المجانيق على الأسوار واستعدوا للحصار وظنوا ان مدّة الحصار تدوم، فعند ذلك ضاقت الأرض عليهم بما رحبت[١].

أمّا المغول؟

فانّهم في يوم وليلة استطاعوا ان يبنوا بالجانب الشرقي (سيبا) أي سوراً عالياً، وبنى (بوقا تيمور وسونجاق نوين وبايجو) بالجانب الغربي كذلك، وحفروا خندقاً عظيماً داخل (السيبا)، ونصبوا المنجنيقات بأزاء سور بغداد من جميع الجوانب ورتّبوا العرّادات وآلات النفط[٢].

❋ ❋ ❋

إحتدام المعركة

وفي يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من المحرّم ٦٥٦هـ، شرعوا في الحرب، والتحم الجيشان. وكان هولاكو في القلب من طريق خراسان، على الجانب الأيسر من المدينة، في مقابل برج العجمي[٣].

وكان (ايلكا نويان وآخرون) على بوّابة كلواذي.

أمّا (قولي وبولغا ونوتار وشيرامون وأرقيو) فقد نزلوا في عرض المدينة في مواجهة بوّابة سوق السلطان.

وكان (بوقا تيمور) يقف في جهة القلعة وجانب القبلة بموضع (دولاب بقل)، وكان (بايجو وسونجاق) يرابطان في الجانب الغربي حيث المارستان العضدي، وكان الجميع يحاربون، وقد صوّبوا المجانيق مباشرة تجاه برج العجمي، حتّى أحدثوا فيه ثغرة.

وعندئذٍ أرسل الخليفةُ الوزيرَ والجاثليق إلى هولاكو يقول:

---

١ ـ العسجد المسبوك / ص ٦٣٠.

٢ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ٢٧٠.

٣ ـ سمي بهذا الاسم نسبة إلى الشيخ عبدالقادر الكيلاني الّذي كان يلزم الخلوة فيه.

«انّ الملك قد أمر بأن أبعث إليه الوزير، وها أنا ذا قد لبيت طلبه فينبغي ان يكون الملك عند كلمته».

فردّ الملك قائلاً:

«انّ هذا الشرط طلبته وأنا على باب همدان، أمّا الآن فنحن على باب بغداد، وقد ثار الاضطراب والفتنة، فكيف اقنع بواحد».

ينبغي أن ترسل هؤلاء الثلاثة «الدواتدار وسليمان شاه والوزير».

❊ ❊ ❊

وفي اليوم التالي خرج إلى هولاكو الوزيرُ وصاحبُ الديوان وجمع من المعارف والمشاهير، ولكنّه أعادهم.

وقد دارت حرب طاحنة مدّة ستّة أيّام.

ثمّ أمر الملك بأن يكتب ستّة منشورات، تفيد بأنّ القضاة والعلماء والشيوخ والسادات والتجار وكل من لا يحاربنا لهم الأمان منا، وربطوا هذه المنشورات بالنبال وألقوها على المدينة من جوانبها الستّة.

ولمّا لم تكن توجد حجارة للمجانيق في أطراف بغداد، فانّهم كانوا يأتون بها من جبل حمرين وجلولاء، وكانوا يقطعون النخيل ويرمون بقطعها بدلاً من الحجارة.

❊ ❊ ❊

وفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من المحرّم:

هدم المغول برج العجمي.

وفي يوم الإثنين الثامن والعشرين، وحيث كان يقف هولاكو، تسلق جنود المغول السور عنوة وطهّروا أعالي الأسوار من الجند، لكنّهم لم يتسلّقوا الأسوار من ناحية سوق السلطان، حيث كان يحارب (بولغا وتوتار) فعاتبهم السلطان.

وفي المساء (أي مساء اليوم الثامن والعشرين من المحرّم) تسلّم المغول الأسوار الشرقية.

بعد ذلك أمر هولاكو خان بأن يقيموا جسراً في أعلى بغداد، وآخر في أسفلها وأن يُعدّوا السفن وينصبوا المجانيق ويعينوا المستحفظين.

وكان (بوقا تيمور) قد رابط مع عشرة آلاف جندي على طريق المدائن والبصرة، ليصد كل من يحاول الهرب بالسفن.

ولمّا حمي وطيس الحرب في بغـداد، وضاق الحـال على الأهالي، أراد الدواتدار أن يهرب إلى ناحية (سيب) ولكنّه بعد أن اجتاز قرية (العقاب) بسفينته أطلق جند (بوقا تيمور) حجارة المنجنيق والسهام وقوارير النفط واستولوا على ثلاثة سفن، وأهلكوا من فيها.

وعاد الدواتدار منهزماً.

فلمّا وقف الخليفة على تلك الحال، يئس نهائياً من الاحتفاظ ببغداد ولم ير أمامه مفراً ولا مهرباً قط، فقال:

«سأسلم وسأطيع»[١].

* * *

محاولة فاشلة للخليفة

والخليفة الّذي رفض أن يبذل المال لتقوية الجيش عندما عرض عليه الوزير ذلك، عاد الآن يفكر ببذل المال لعلّه يردع هولاكو.

فأرسل فخر الدين الدامغاني وابن درنوش مع قليل من التحف إلى هولاكو، زاعماً انّه لو بعث بالكثير لكان ذلك دليلاً على خوفه، فيتجرّأ العدو.

فلم يلتفت هولاكو إلى هذه الهدايا وعادا محرومين.

---

١ ـ جامع التواريخ / ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

ويضيف صاحب مجمع الآداب / ج ٤ / ص ٣٥٩: أنّ الدواتدار كان قد سرق المجوهرات وهرب بسفينة ولكنّه وقع بيد هولاكو.

وفي يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من المحرّم، خرج من بغداد (للقاء هولاكو) أبو الفضل عبدالرّحمان الابن الثاني للخليفة، وكان صاحب الديوان وجماعة من العظماء مع أبي الفضل وقد حملوا أموالاً كثيرة، فلم تقبل منهم أيضاً.

* * *

وفي غد ذلك اليوم، آخر المحرم خرج ابن الخليفة الأكبر ومعه الوزير وجماعة من المقرّبين للشفاعة فلم يجدوا فائدة، وعادوا إلى المدينة[1].

* * *

هولاكو يستهين بالخليفة وقواده ويطلب منهم ان يخرجوا إليه

وفي أوّل صفر ٦٥٦هـ أرسل هولاكو وفداً إلى بغداد يطلب أن يخرج إليه سليمان شاه والدواتدار، قائلاً:

إن شاء الخليفة فليأت، وإذا لم يشأ فليبق، وان جيش المغول سيبقى خلال ذلك على الأسوار ولن يقتحم المدينة.

ويبدو أنّ هولاكو كان يخشى مقاومة ضارية تليق بشرف بغداد الرفيع، إذا هو هاجم المدينة هجومه الأخير، فيتكبد الكثير من الضحايا والخسائر، فأراد أن يدخل دخولاً هيناً، ولذلك طلب الدواتدار وسليمان شاه وهما المسؤولان الأوّلان عن الجيش، وتساهل في حضور الخليفة اتماماً لخطته.

فخرج الرّجلان إليه، ولكنّه أعادهما طالباً أن يخرج معهما أتباعهما ليضمّهم إلى القوّات المعدّة للزّحف على مصر والشام.

* * *

جنود الخليفة يتسابقون في تسليم أنفسهم للمغول

وهنا وصل الموقف إلى الهوان الأكبر، فقد تسابق جند بغداد للخروج معهم ملقين

---

١ ـ جامع التواريخ / ص ٢٨٩.

بأيديهم إلى المغول طمعاً في الخلاص[١].

وكانوا على حد تعبير جامع التواريخ: خلقاً لا يُحصى، فكان نصيب هذا (الخلق الّذي لا يحصى) أن قُسِّم إلى ألوف ومئات وعشرات وقتلوا جميعاً[٢].

وهكذا فقدت بغداد الغالية من كان مفروضاً بهم ان يكونوا حماتها، فقدتهم فقداناً حزيناً كسيراً ذليلاً.

فبدلاً من أن تسفك تلك الدماء دفاعاً عن الحمى المنيع، وبدلاً من أن تصمد تلك العشرات من الألوف تحت ظلال السيوف ذوداً عن أعزّ مدينة وصوناً لكرامة أكرم كريمة.

سفكت تلك الدماء صبراً في مواقف الذل، وغدت بغداد العزيزة وحيدة يستفردها الطّغاة.

❊ ❊ ❊

هروب وقتلىٰ من وجه المغول

أمّا من بقي في بغداد، فقد هربوا إلى الانفاق ومواقد الحمامات.

وأمّا عن عدد القتلى؟

فقد جمع الاستاذ الدكتور جعفر خصباك أقوال المؤرّخين في عدد القتلى في واقعة بغداد وقال:

«ولكن المبالغة واضحة في هذه الأرقام، فانّ أسوار بغداد كانت تضم الرقعة الواقعة بين باب المعظم الحالية والباب الشرقي من جهة، وتمتد بعيداً عن النهر حتّى مبنى متحف الأسلحة الحالي، وهي مساحة صغيرة نسبيّاً لا يمكن أن تضم ملايين من السكان».

---

١ ـ الغزو المغولي للأمين / ص ١٣٧.

٢ ـ جامع التواريخ / ص ٢٨٩.

واستدلّ على أنّ كثيراً من أهل المدينة سلموا من القتل بعودة الازدهار والنشاط إلى المدينة بعد فترة قصيرة، يضاف إلى ذلك أنّ بغداد لم تكن في أواخر الدولة العباسية من المدن المزدحمة بالسكّان، ولعلّ تقدير أحد الكتاب المحدثين بأنّ عدد القتلى بلغ تسعين ألفاً تقدير قريب من الصحّة»[1].

ويضاف إلى ذلك ـ ما تقدّم ـ من أنّ هولاكو أمر أن تكتب ستّة منشورات تفيد بأنّ القضاة والعلماء والشيوخ والسادات والتجار، وكل من لا يحاربنا لهم الأمان منا وربطوا هذه المنشورات بالنبال وألقوها على المدينة[2].

ثمّ خرج جماعة من أعيان المدينة وطلبوا الأمان قائلين:

انّ أناساً كثيرين طائعون خاضعون فليمهلوا، لأنّ الخليفة سيرسل أبناءه ويخرج بنفسه أيضاً.

وأمر هولاكو بأن يقام على بوابة الحلبة أمان للناس، فشرع الأهالي يخرجون من المدينة.

❊ ❊ ❊

الدواتدار يُقتل ذليلاً

وفي يوم الجمعة الثاني من صفر ٦٥٦هـ، قتل الدواتدار .

والدواتدار...؟

ما كان أبعد عن اللقب الّذي لقّب به نفسه: «مجاهد الدين» فما جاهد للدين ولا للشرف، بل انّه انهزم أوّلاً، ثمّ انهزم ثانياً، ثمّ مسكوه، وقتل أذل قتلة، وكان حرّياً به أن يجري دمه، وبيده السّيف تحت الرايات لا أن يجري ذلك المجرى الخسيس[3].

---

١ ـ العراق في عهد الايلخانيين للدكتور جعفر خصباك / ص ٥٦.

٢ ـ جامع التواريخ / ص ٢٨٧.

ـ المصدر السّابق / ص ٢٩٠.

٣ ـ الغزو المغولي / ص ١٣٨.

ولنعرف كيف كان الدواتدار يعيش بعد أن عرفنا كيف مات، ننقل صورة من حياته منقولة من (العسجد المسبوك) إذ يقول:

... مجاهد الدين أبو الميامن الدواتدار المستنصري، وكان ممّن رزق السعادة في دنياه، ولمّا رغب بدرالدين لؤلؤ زعيم الموصل إليه في الوصلة عظم شأنه وارتفع مكانه وملك جزيل الأمور من العين والرقيق والدواب والعقار والبساتين والضياع ممّا يتعذّر ضبطه على الحساب.

وفي ليلة بنائه بزوجته نفذ إلى داره من أواني الذهب والفضّة والثياب والجواهر ما يزيد على ثلاثمائة ألف دينار وانعم عليه في صبيحة تلك اللّيلة الّتي دخل فيها بزوجته ستمائة ألف دينار عيناً وإلى غير ذلك مماً يطول ذكره ويتعذر وصفه.

وبلغ من الجاه العريض والحرمة الوافرة حتّى انّه كان يترفع على وزير الدولة الّذي هو نائب الخلافة وعلى شرف الدين اقبال الشرابي الّذي كان مقدم العساكر.

ولم يركب إلى أحد سوى الخليفة، وكان في جماعة من أكابر الزعماء وأرباب العمائم وأصحاب الكوسات والأعلام، يقصدونه في داره خدمة وتقرباً إليه، وكان يصل إليه من اقطاعه وأملاكه ومزارعاته زيادة على خمسمائة ألف دينار.

وقتل وقد جاوز عمره ثمانين سنة[1].

ثمّ جاءت نوبة سليمان شاه بن برجم فقتل

ثمّ جيء بسليمان شاه[2] مع سبعمائة من أقاربه، وكان مكبّل اليدين.

فاستجوبه هولاكو قائلاً:

---

١ ـ العسجد المسبوك / ص ٦٣٣.

٢ ـ لقد مرّ بنا سابقاً انّ الأزمة عندما اشتدّت، ودعا الوزير ابن العلقمي إلى عقد مؤتمر لتدارس الوضع المتفاقم، فاقترح سليمان شاه حشد الجيوش ومقاتلة العدو فوافق الخليفة في البداية، ثمّ امتنع عن بذل الأموال.

واستطاع الدواتدار ان يثني الخليفة عن القبول بهذا الاقتراح.

«لقد كنت منجّماً ومطّلعاً على أحوال السعد والنحس للبلاد، فكيف انّك لم تتنبّأ بسوء مصيرك ولم تنصح مخدومك لكي يبادر إلينا عن طريق الصلح....»؟

فأجاب سليمان شاه:

لقد كان الخليفة مستبدّاً برأيه، منكود الطالع، فلم يستمع لنصح الناصحين.

ثمّ أمر بقتله مع كافة أتباعه وأشياعه.

كما قتل الأمير تاج الدين بن الداوتدار الكبير وأرسل الرؤوس على يد الملك الصالح[1] ابن بدر الدين لؤلؤ إلى الموصل.

وكان بدر الدين صديقاً لسليمان شاه، فبكى، ولكنّه علق رؤوسهم خوفاً على حياته.

❋ ❋ ❋

الخليفة المستعصم يفيق من سباته ويقع في الفخ ولات حين مناص

وبعد أن رأى الخليفة المستعصم انّ الأمر قد خرج من يده، استدعى الوزير وسأله: ما تدبير أمرنا؟[2]

---

١ ـ كان هذا الملك الصالح مع هولاكو في حربه لبغداد على رأس بعض القطعات العسكرية، بعثه أبوه بدرالدين لؤلؤ، بناء على طلب هولاكو.

٢ ـ فلم يرعو الخليفة إلّا في هذه اللحظة، وندم ولات حين مندم، بعدما رأى أن السيف مصلت على رأسه.

فلقد طالما نصحه وزيره يوم كان هولاكو لا يزال في همدان.

ولكن الخليفة كان يلعب به الدواتدار كما يشاء.

قال له الوزير: ابعث إليه بالأموال المناسبة.

ولكن الدواتدار قال له: انّ الوزير يدبّر شأن نفسه، فلا تلتفت إليه وجاءت الرسل من هولاكو بالوعد والوعيد.

وقال الخليفة: انّ هولاكو صديقي فلا أظنه جاداً في الهجوم على بغداد.

وتحرك هولاكو إلى أسد آباد وجرت الرسل بينه وبين الخليفة.

فأنشد الوزير هذا البيت في جوابه:

يـظنّون أنّ الأمـر سهـل وانّمـا هو السيف حُدّتْ للّقاء مضاربه

وبعد خراب البصرة، خرج الخليفة ومعه أبناؤه الثلاثة: أبوالفضل عبدالرّحمٰـن، وأبو العباس أحمد وأبو المناقب مبارك، وكان ذلك في يوم الأحد الرابع من صفر سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م.

← فكان الخليفة يقول له: انّ الخلافة العباسية محروسة من الله، وكل من يبغي لها سوءً، فالله يقصم ظهره.

وتلوّى الوزير كالثعبان لما يجري، لسوء تدبير الدواتدار ولضعف الخليفة ولينه.

وعقد مؤتمراً.

فقال سليمان شاه: فلنحشد الجيوش ولنقاتل.

فاقتنع الخليفة أوّلاً، ولكنّه امتنع بالأخير عن بذل الأموال.

واشتدت الأزمة...

والتجأ الخليفة للوزير، فأشار عليه هذا ببذل الأموال الطائلة.

فهدّده الدواتدار، وحرّك معه الأوباش وقطاع الطرق: بأننا سوف ننهب تلك الأموال ولا ندعها تصل إلى هولاكو.

وتفاقمت الأمور...

ونخاطب الخليفة ونقول له:

لقد كنت أيُّها الخليفة تقول: ان هولاكو لا يبخل عليّ ببغداد.

ثمّ أحاطوا بك وبقصرك المنيف يرشقونك بالنبال ولكننك كنت تقيم حفلة ساهرة للرقص والغناء واللهو.

فما استيقظ ضميرك ولم تفعل شيئاً إلاّ ان أمرت بزيادة الستور لئلّا تُصاب راقصة أخرى.

انّ النتيجة الّتي وصلت إليها، لم تجرّ عليك القتل والويل فقط وانّما جرّت على المسلمين أيضاً، وكنت أنت السبب في المذابح والتخريب والنهب والسلب، بل انّك تسبّبت في الكوارث الّتي لحقت بالمسلمين منذ عام ٦٥٦هـ وإلى يومنا هذا...

ولكن وعاظ السلاطين وعلى رأسهم (الدواتدار) كانوا يحسّنون لك الخنوع ويحبذون لك تكديس الأموال.

وتلك محنة عظمى لا يزال المسلمون يكتوون بها.

وكان معه ثلاثة آلاف من السادات والأئمّة والقضاة والأكابر وأعيان المدينة.

فلم يبد الملك غضباً قط، وكلمه بالحُسنىٰ، ثمّ قال له بعد ذلك:

«مر حتّى يضع سكان المدينة اسلحتهم ويخرجوا لكي نحصيهم».

فأرسل الخليفة من ينادي في المدينة ليضع الناس أسلحتهم ويخرجوا، فألقى الناس أسلحتهم زمراً زمراً[1].

ثمّ أمر بأن تقام الخيام للخليفة وأبنائه وأتباعه ببوابة كلواذي في معسكر (كيتو بوقا نويان) ونزلوا فيها، وعهدوا بحراستهم إلى عدد من المغول.

وكان الخليفة ينظر بعين الحقيقة إلى هلاكه، ويأسف على تركه الحزم وإبائه قبول النصح.

شعر:

قال في نفسه: لقد فاز عدوي إذ رآني
قد وقعت في الشرك كالطائر الحذر[2]

* * *

احتلال بغداد والاستيلاء علىٰ أموال الخليفة

يذكر بعض المؤرّخين انّ احتلال بغداد كان يوم ٥ صفر، ولكنّنا نرجِّح أن يكون ذلك يوم ٧ صفر ٦٥٦هـ.

والجيش المغولي وإن كان قد تصرّف ببغداد قبل هذا التاريخ، إلّا أن هجوم الجيش بصورة مكثّفة لم يكن إلّا يوم ٧ صفر.

ولذلك فان المؤرّخ المعاصر لتلك الأيّام، رشيد الدين الهمداني يقول:

---

١ ـ لقد أراد هولاكو أن يدخل بغداد دخول الفاتحين، بدون مقاومة ليقلّل الخسائر في جيشه وهو الّذي تمّ له.

٢ ـ جامع التواريخ / ص ٢٩١.

وكان بدء القتل العام والنهب في يوم الأربعاء السابع من صفر، فاندفع الجند مرة واحدة (جند هولاكو) واخذوا يحرقون الأخضر واليابس ما عدا بعض منازل الرّعاة، وبعض الغرباء.

وفي يوم الجمعة التاسع من صفر، دخل هولاكو المدينة لمشاهدة قصر الخليفة وجلس في الميمنية واحتفل بالأمراء، ثمّ أشار باحضار الخليفة وقال له: «إنّك مضيف ونحن الضيوف... فهيّا احضر ما يليق بنا».

فظنّ الخليفة ان هذا الكلام على سبيل الحقيقة، وكان يرتعد من الخوف، وبلغ من دهشته انّه لم يعد يعرف مكان مفاتيح المخازن.

فأمر بكسر عدّة أقفال واحضر لهولاكو ألفي ثوب وعشرة آلاف دينار ونفائس ومرصعات وعدداً من الجواهر.

فلم يلتفت هولاكو خان إليها، ومنحها كلّها للأمراء والحاضرين ثمّ قال للخليفة:

«انّ الأموال الّتي تملكها على وجه الأرض ظاهرة وهي ملك عبيدنا، ولكن اذكر ما تملكه من الدفائن، ما هي وأين توجد؟»[1].

فاعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب الأحمر، وكان كلّه سبائك تزن الواحدة مائة مثقال.

❊ ❊ ❊

بعد ذلك صدر الأمر باحصاء نساء الخليفة، فعدّوا سبعمائة زوجة وسريّة وألف خادمة.

فلمّا اطّلع الخليفة على تعداد نسائه تضرّع وقال: «مُنّ عليَّ بأهل حرمي اللّائي لم تطلع عليهنّ الشمس والقمر».

فقال له هولاكو:

«اختر مائة من هذه النّساء السبعمائة واترك الباقي».

---

١ ـ يظهر أنّ هولاكو كان على اطّلاع تام بالخليفة وأحواله وسراياه وأمواله المخفيّة.

فأخرج الخليفة معه مائة امرأة من أقاربه والمحبّبات إليه.

ثمّ رجع هولاكو إلى المعسكر ليلاً.

وفي الصباح أمر بأن يسير (سونجاق) إلى المدينة وأن يجرّد أموال الخليفة ويخرجها.

وقصارى القول، ان كل ما كان الخلفاء قد جمعوه خلال خمسة قرون وضعه المغول بعضه على بعض، فكان كجبل على جبل[1].

❋ ❋ ❋

وما أحسن ما يعلّق السيّد الأمين على هذا فيقول:

حوض من الذهب الأحمر وسبعمائة غانية...! هذه كانت مشاغل الخليفة المستعصم بل مشاغل من سبقوه من الخلفاء والحكّام في الأقطار الاسلامية.

حوض من الذهب الوهاج كان هؤلاء الخلفاء يجمعونه من أقوات الشعب ويكنزونه من مال الفقراء والمحرومين ويتوارثونه واحداً عن واحد، وكل واحد يضيف إليه جديداً حتّى سلّموه يداً بيد إلى الطاغية هولاكو.

حوض من الذهب.

ثمّ يأبى هذا الخليفة أن ينفق على إعداد الجيش وتعبئته.

حوض من الذهب وسبعمائة غانية!

وهال المستعصم ما يتعرّض له نساؤه، وتضرّع لهولاكو قائلاً: «منّ عليَّ بأهل حرمي اللّائي لم تطلع عليهنّ الشمس والقمر».

أجل لم تطلع الشمس والقمر على مئات الجواري في قصره وقصور غيره من الخلفاء والحكّام، ولكن الشمس كانت تطلع كل يوم على ملايين الكادحات في الحقول والبراري والباحات، يعملن جاهدات على إحراز القوت.

---

١ ـ جامع التواريخ / ص ٢٩٢.

ثمّ يأتي زبانية الخلفاء والحكّام فيشاطرونهنّ اللقيمات ويقاسمونهنّ ما حصلن عليه بكد اليمين وعرق الجبين ليزيدوا ذهباً في أحواض الذهب.

لم تطلع الشمس ولم يطلع القمر على نسائك السبعمائة أيُّها الخليفة.

ولكن الشمس طلعت كل يوم على ضحاياك وضحايا أسلافك وضحايا عمالك وعمّال أسلافك.

والقمر اطّلع كل ليلة على المرضى الّذين لا يجدون الدواء، والغرثى الّذين لا يجدون الغذاء، والعرايا الّذين لا يجدون الكساء في حكمك وحكم أسلافك[1].

* * *

ثمّ أحرقّ المغول أكثر الأماكن المقدّسة مثل جامع الخليفة ومشهد موسى والجواد عليهما الرحمة وقبور الخلفاء.

وأخيراً أوفد سكان المدينة «شرف الدين المراغي وشهاب الدين الزنجاني والملك دل راست» إلى هولاكو وطلبوا الإمان.

فصدر الأمر بالتوقف من بعد ذلك عن القتل والنهب.

وحسب قول هولاكو: «ان بغداد أصبحت ملكاً لنا».

فليستقر الأهالي ولينصرف كل شخص إلى عمله.

وبهذا وجد الأمان أولئك الّذين نجوا من السيف[2].

رحيل هولاكو والقضاء على الخليفة

وفي يوم الأربعاء الرابع عشر من صفر، رحل هولاكو خان عن بغداد، ونزل بقريتي (الوقف والجلابيه)، وأرسل الأمير عبدالرّحمان لفتح ولاية خوزستان.

---

١ ـ الغزو المغولي للأمين / ص ١٣٩.

٢ ـ جامع التواريخ / ص ٢٩٣.

ثمّ استدعى الخليفة، فأدرك هذا أن إمارات النحس تبدو على مصيره، وخاف خوفاً شديداً وقال للوزير ما حيلتنا؟

فأجاب الوزير: «لحيتنا طويلة».

وكان مراده من ذلك انّه عندما فكر أوّل الأمر في أن تُرسَل أحمال وفيرة لدفع هذا البلاء، قال الدواتدار «لحية الوزير طويلة» وحال دون الأخذ بهذا الرأي واستمع الخليفة لكلامه واهمل تدبير الوزير.

ويئس الخليفة من انقاذ حياته واستأذن في ان يذهب إلى الحمام ليجدّد اغتساله فأمر هولاكو خان بأن يذهب مع خمسة من المغول، ولكن الخليفة قال: «أنا لا أريد أن أذهب بصحبة خمسة من الزبانية».

وكان ينشد بيتين أو ثلاثة من قصيدة هذا مطلعها:

وأصبحنا لنا دار كجنّات وفردوس   وأمسينا بلا دار كأن لم يغن بالأمس

وفي مساء الأربعاء الرابع عشر من صفر ٦٥٦هـ قضوا على الخليفة وعلى ابنه الأكبر وخمسة من الخدم كانوا في خدمته في قرية «الوقف».

وفي اليوم التالي قتلوا الّذين كانوا قد نزلوا معه في بوابة كلواذي، كذلك قضوا على كلّ شخص وجدوه حيّاً من العباسيين، اللّهمّ إلّا افراداً قلائل لم يأبهوا بهم. وقد سلم مباركشاه الابن الأصغر للخليفة إلى «أولجاي خاتون» فأرسلته إلى مراغة ثمّ زوّجوه من امرأة مغولية فأنجب منها ولدين.

وفي يوم الجمعة السادس عشر من صفر ألحقوا الابن الثاني بوالده وأخيه.

وبذلك قضي على دولة خلفاء آل العباس الّذين حكموا بعد بني أميّة، وكانت مدّة خلافتهم خمساً وعشرين وخمسمائة سنة[١].

* * *

١ ـ جامع التواريخ / ص ٢٩٤.

تقويم للعمليات الحربية بين المغول وجيش الخليفة

وحيث انتهى الغزو المغولي لبغداد، وانتهت الحرب على هذه الصورة، فانّنا نقتبس هنا ما أورده الشيخ محمّد رضا الشبيبي عن نجاح خطة المغول الحربية وتخلف الجيش الخليفي إذ يقول:

سار (بايجو) طبق الخطة المرسومة له، إلى أربيل فالموصل فتكريت، وعبر دجلة من الموضع المعيّن للعـبور، ثمّ تقدّم إلى بغداد من جانبها الغربي، وقد خلا من أهله ملتجئين إلى الجانب الشرقي على الأكثر، وعلى هذا المنوال تمّ للمغول ما أرادوا.

وتعذّر على البغداديين وعلى العدد الّذي لا يحصى من الملتجئين إلى بغداد مغادرتها إلى الحلّة أو الأنبار، أو إلى أي جهة من جهات الفرات، كما تعذر عليهم الانحدار في دجلة إلى واسط والبطائح لمكان الجسر والحرس اللّذين أقامهما المغول جنوبي المدينة.

وقد ترتّب على حركة الالتفاف هذه من جانب المغول نتائج خطيرة، كان منهـا (السد الّذي كسروه على الفرات) في إبادة نخبة الجيش البغدادي.

هكذا ظهر المغول وقاربوا بغداد حسب الخطة المعيّنة.

فماذا فعل البغداديون؟

وما هي الخطة الّتي رسموها لاتقاء شرهم؟

لقد كانت خطتهم هي استبقاء الجيش داخل أسوار المدينة، ثمّ الاستعداد للدفاع، كما هو رأي فريق من أمراء الجيش نفسه.

ولكن الدواتدار وهو أعظم رجل في الدولة بعد الخليفة (كان قد انتقل بجيشه إلى ما بين بعقوبا وباجسرى، لاعتقاده بأنّ الجيش المغولي سوف يزحف من هناك).

وعندما بلغه أنّ المغول أصبحوا قرب الأنبار، بادر بدافع من الانـفعال النـفسي الشديد إلى العبور إلى الجانب الغربي ظناً منه ان هولاكو هناك.

ولمّا التقى الفريقان تقهقر المغول (تكتيكاً) وطاردهم البغداديون، ثمّ مـالوا (أي

المغول) على جيش بغداد ميلة انتهت بإبادته.

وقد برهن قادة المغول الّذين أشرفوا على إدارة رحى الحرب مع الدواتدار في هذه الوقعة الكبرى وفي طليعتهم الأمير (بايجو) على خبرة حربية تامّة ومعرفة بالغة بهيئة الأراضي والمسالك العسكرية، فلم يمكّنوا البغداديين المنهزمين من الرّجوع إلى بغداد بما خرّبوه من المسالك وبما غمروه من الأراضي بمياه الترع والأنهار.

وبالجملة لم يبق في بغداد بعد هذه الوقعة جيش يعوّل عليه في الدفاع عن الجانب الشرقي منها، كما انّ هولاكو ـ وقد كان إلى ذلك الحين في جبال حمرين يتطلّع طلع الحوادث والأنباء ـ سار من فوره سالكاً طريق بعقوبا للأشراف على حصار بغداد من ناحيتها الشرقية.

لقد كان عبور فرقة الدواتدار وهي نخبة الجيش الخليفي إلى الجانب الغربي لمطاردة المغول من أكبر الغلطات الحربية الّتي عجلت بسقوط بغداد وقصّرت أمر الدفاع عنها.

ولو بقيت مدافعة عن الجانب الشرقي وهو قلب بغداد لضاعفت خسائر المغول ولأخّرت حلول الكارثة.

علماً بأنّ أحد أمراء الجيش العراقي وهو (فتح الدين بن كر) فانّه لمّا رأى تهوّر الدواتدار في مطاردة المغول أشار عليه ان يثبت مكانه، فلم يصغ إليه، كما جاء في الحوادث الجامعة[1].

وهذا كل ما أورده صاحب الحوادث عن هذا الأمير، ولم يذكر لنا هو ولا غيره من المؤرّخين مصيره بعد الواقعة، ولعله استشهد، كما استشهد زميله قمر الدين.

والحق انّهما ذهبا في جملة من ذهب من جرّاء إهمال الخليفة وخبط رجاله وفي مقدّمتهم مجاهد الدين الدواتدار.

---

١ ـ الحوادث الجامعة / ص ٣٢٤.

يستنتج ممّا تقدّم جسامة الفرق بين الدولتين من حيث الخطط والأنظمة العسكرية، ومن حيث توفر أصحاب الكفاءات من القواد وكذلك من حيث عدد الجيوش وأنواع المعدّات الحربية والمؤسّسات العسكريّة.

وبالجملة من حيث قوى الفريقين على اختلافها من مادّية ومعنويّة.

ومن يتصفّح التاريخ منذ ظهور المغول إلى سقوط بغداد مع إمعان في النظر، ودقّة في الملاحظة، يقف على أسرار ظفر المغول في حروبهم وعوامله، كما يقف على أسباب سقوط الدولة العباسية من حيث فساد أوضاعها وخططها الحربية.

وإذا جاز لنا ان نحلل تلك العوامل والأسباب بشيء من التفصيل حلّلناها على الطريقة الآتية:

١ ـ كان النظام مفقوداً من جيش الخليفة، وقد مني جيشه إذا صحّ اطلاق هذا الاسم عليه بفقدان التجانس بين أفراده، ولو وقف الأمر عند هذا الحد لهان، ولكنّه مني مضافاً إلى ذلك بفقدان الوحدة في قيادته.

فكان له عدّة قواد، كل يعمل على شاكلته وبرأيه الخاص، خلافاً لما كان عليه الحال لدى المغول، فقد كان جيشهم كلّه من أبناء جنسهم، وكان النظام سارياً فيه، بفضل توحيد قيادته العليا وحصرها بشخص السلطان يؤازره ديوان شورى الحرب.

ومن تصفح تاريخ المغول يجد أن ديوان شورى الحرب أو شورى السلطان من جملة مؤسّساتهم العسكرية القديمة الّتي رافقت ظهورهم وانسياحهم في الأرض، وهو مؤلّف من كبار قادة المغول وأمرائهم.

ومن مهام هذا الديوان تقرير الخطط الحربية، وكان يجتمع أيضاً لنصب سلطان مكان آخر، إلى هذا ونحوه من الشؤون السياسية والحربية العليا.

٢ ـ أهمل الخليفة الاستعداد للحرب، واهمل الجيش على وجه خاص اتكالاً على مركزه أو منصبه من الخلافة وصبغته المقدسة، هذا مضافاً إلى اعتزازه بنسبه الكريم وشرفه القديم، لا يملّ من التبجّح بذلك، وقد جاراه رجال دولته على ذلك، واصبح

هذا ديدنهم في جميع الأحوال.

وبالجملة كان جل اعتماد الخليفة ورجاله على الخيال لا على الحقيقة.

أمّا المغول؟

فكانوا شعباً فتيّاً يجهل التحدّث عن الأحساب والأنساب ولا يعوّلون إلّا على أنفسهم لا على تلك المخدرات والأوهام.

كما كانوا يعتزون بضرب من الشعور القومي على قدر ما تسمح به الأحوال في تلك العصور.

وقد رسخت فيهم أيضاً عقيدة غريبة، إليها يعود الفضل بتوسعهم في الفتوح وظفرهم في الحروب وامعانهم في تخريب الممالك والبلدان.

وجوهر تلك العقيدة أنّ الأرض فسدت بسكانها، وانّ المغول بعثوا لتطهيرها، ولا يتم تطهيرها إلّا بالتدمير والاستئصال.

ومن يتصفح رسائل سلاطينهم الّتي بعثوا بها إلى بعض الخلفاء والملوك يطلع فيها على فحوى تلك العقيدة الغريبة.

٣ ـ لم يكن للخليفة المستعصم ولا لقادة جيشه عناية بفن الاستطلاع أو الوقوف على الحقائق في بلاد الأعداء، بل كان خليفة بغداد يجهل أو يتجاهل كل شيء من هذا القبيل.

أمّا المغول فكانت لهم عناية بالغة بهذا الفن، وكان لجيشهم عيون يعولون عليها في موافاتهم بحقائق الأحوال.

ومن تفننهم في ذلك استعمال طلائعهم العسكرية في التجسّس، وربّما تكرّر ذلك منهم سنين طويله.

ويُعزى ظفرهم في كثير من الحروب إلى عوامل من جملتها اهتمامهم بتسقّط أنباء الأعداء.

وقد علمنا من تصفح التاريخ انّهم شنّوا الغارات العديدة على حدود العراق قبل واقعة بغداد بما يربو على العشرين سنة، خصوصاً على عهد المستنصر (٦٢٣ ـ ٦٤٠ هـ).

ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن جل غرضهم منها ما أشرنا إليه، ولم يكن غرضهم إذ ذاك، الاشتباك بمعركة حاسمة غايتها الاستيلاء على بغداد والبطش بالخليفة ورجال دولته.

وقد مكّنتهم تلك الغارات من سبر الأحوال العامّة في الدولة العراقية وتقدير قيمتها من حيث قوتها الحربية والسياسية أو من حيث مستواها في الثروة والعمران.

ولا حاجة إلى القول بأن مظاهر الضعف والفساد كانت بادية لهم في كل مكان. كما لا ينبغي لنا ان نشك بأن قادة هذه الحملات رفعوا إلى ملوكهم كل ما وقفوا عليه من هذا القبيل، ولو وقع إلينا بعض «رقوعهم» أو تقاريرهم لوجدناه يتضمّن بلا ريب «انّ البلاد مهملة وحدودها شاغرة وأنضمتها فاسدة وجيوشها خائرة القوى وخلفاءها قابعون في قصورهم منكمشون بين غلمانهم وجواريهم أمّا عمالها فمتعسّفون جائرون زرعوا كراهيّة الدولة في صدور رعاياها بحيث لا تتحدّث الرعيّة إلّا بانقراضهم آناً بعد آن، وأمّا الشعب فمستسلم عاجز قد تفكّكت روابطه وانحلّت جامعته، حتّى استولى عليه الرّعب واليأس.

وبالجملة فقد ظهر الفساد في الدولة من قرنها إلى قدمها» إلى غير ذلك.

كان علم المغول بهذه الحقائق الراهنة عن بلاد أعدائهم وجهل هؤلاء بما كان عليه المغول، مضافاً إلى العوامل الأخرى الّتي سبق تصوير بعضها، من أهم أسرار تفوقهم على أعدائهم وظفرهم في حروبهم واكتساحهم للممالك الواحدة تلو الأخرى، وذلك كما بدا لنا من ثنايا التاريخ، وقد أجملناه في هذا الحديث مع انّ المجال كما لا يخفى يتسع لأضعافه، وذلك لتحصل لنا فكرة إجمالية عن هذا الموضوع ليس إلّا وهذا هو المقصود[1].

---

١ ـ مقال للشيخ محمّد رضا الشبيبي منشور في مجلة الاعتدال النجفية في العدد الأوّل من السنة الرابعة بتاريخ ١٤ / ٩ / ١٩٣٦.

مأساة المسلمين بخلفائهم

الخليفة والأمراء والقادة كانوا في عام ٦٥٦هـ قد فقدوا كل معنى من معاني الرّجولة والدِّين والعقل والسياسة والتدبير ورعاية الأمّة.

فلقد تدرّجت الأمور للهبوط إلى تلك الحالة منذ الناصر لدين الله الّذي انتسب لنقابة العيارين.

بل منذ المعتصم الّذي قرّب المماليك الأتراك وألبسهم مناطق الذهب وميّزهم عن باقي الجند.

بل منذ الأمين الّذي جمع حوله الصبيان والخصيان، وأسّس ميداناً يلعب فيه بالكرة، وترك الأمّة وشأنها.

بل منذ أبي جعفر المنصور الّذي دقّ اسفيناً بين بني هاشم فجعلهم علويين وعباسيين. بل منذ إبراهيم الإمام الّذي خوّل أبا مسلم الخراساني بقتل كل من يتكلم العربية من المضريين.

انّهم كانوا ينحدرون إلى الهاوية.

ربّما كان بعضهم ينحدر مرقاة مرقاة، ولكن بعضهم كان يتدحرج مسرعاً.

ولو لم يكن ينقضّ عليهم التتار عام ٦٥٦هـ لانقضّت عليهم الذئاب وأبناء آوى، حيث فقدوا كل معاني البقاء، ولأكل بعضهم بعضاً، ولتسلّط عليهم العيّارون والحرامية.

وأصبح الخلفاء يمثلون التفاهة والسخرية والدناءة المتناهية والتخلّف والانحطاط.

ولم تكن هذه الحالة الّتي وصلوها، فرضت عليهم فرضاً وأكرهوا عليها إكراهاً، وانّما اختاروها بأنفسهم يوم فقدوا الوازع الديني، ويوم تنكروا لسيرة رسول الله ﷺ ويوم انساقوا وراء شهوات بطونهم وفروجهم، فارتكبوا المعاصي والموبقات.

ثمّ ركبهم الناس وأهانوهم وصفعوا ظهورهم وبصقوا في وجوههم وجرّدوهم من ثيابهم وسملوا عيونهم وعصروا الخصيتين وسجنوهم في الحمّامات وقتلوهم، وهم

يتبخترون بالقضيب الّذي يحملونه معهم وكأنّه يعصمهم من عذاب الله وغضب الناس.

ثمّ وقعت الواقعة الّتي لم يكن لوقعتها كاذبة، فقد كانوا ينخرون صرح الدولة وهم يعلمون ماذا يصنعون، إلى أن انهار بنيانهم وخرّ عليهم السقف وقضي على دولة كان من الممكن ـ لو أحسنوا رعايتها ـ ان تحمل مشعل الاسلام وشريعة الله إلى الدنيا بأسرها وتحقق للبشرية السعادة والاطمئنان وعزّ الاسلام.

ولم يكن الّذي حدث خلافاً للسنّة الطبيعيّة في الأرض الّتي يقول عنها الله سبحانه وتعالى ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾[1].

وما أحسن ما يقول المرحوم سيّد قطب في هذا الصدد:

... والمترفون في كلّ أمّة هم طبقة الكبراء الناعمين الّذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الرّاحة، فينعمون بالدّعة وبالرّاحة وبالسّيادة، حتّى تترهّل نفوسهم وتأسن وترتع في الفسق والمجانة، وتستهتر بالقيم والمقدّسات والكرامات، وتلغ في الأعراض والحرمات.

وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فساداً، ونشروا الفاحشة في الأمّة وأشاعوها وأرحضوا القيم العليا الّتي لا تعيش الشعوب إلّا بها ولها.

ومن ثمّ تتحلّل الأمّة وتسترخي وتفقد حيويّتها وعناصر قوّتها وأسباب بقائها فتهلك وتطوي صفحتها.

والآية تقرّر سنّة الله هذه، فاذا قدّر الله لقرية أنها هالكة لأنّها أخذت بأسباب الهلاك، فكثر فيها المترفون فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم، سلّط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها، فعمّ فيها الفسق، فتحلّلت وترهّلت فحقّت عليها سنّة الله، وأصابها الدمار والهلاك.

---

١ ـ الإسراء / ١٦.

وهي المسؤولة عمّا يحلّ بها، لأنّها لم تضرب على أيدي المترفين، ولم تصلح من نظامها الّذي يسمح بوجود المترفين.

فوجود المترفين ذاته هو السبب الّذي من أجله سلّطهم الله عليها ففسقوا، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحقّت الهلاك وما سلّط الله عليها من يفسق فيها ويفسد، فيقودها إلى الهلاك.

انّ إرادة الله قد جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلّف وسنناً لا تتبدّل، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج فتنفذ إرادة الله وتحق كلمته، والله لا يأمر بالفسق لأنّ الله لا يأمر بالفحشاء، لكن وجود المترفين في ذاته دليل على أنّ الأمّة قد تخلخل بناؤها وسارتْ في طريق الانحلال وأنّ قدر الله سيصيبها جزاء وفاقاً، وهي الّتي تعرّضت لسنّة الله بسماحها للمترفين بالوجود والحياة[1].



١ ـ في ظلال القرآن لسيّد قطب / ج ٤ / ص ٢٢١٨.

مراثي بغداد

كانت فاجعة العالَم الاسلامي بسقوط بغداد فاجعة عظمى، وكانت سيطرة المغول بالشكل الّذي سيطروا فيه عليها، مثار الأسى العميم.

وكان الشعر مظهراً لتلك المشاعر الّتي ملكت النفوس.

وبالرغم ممّا في ذاك الشعر من عواطف صادقة وشجى مؤثر، فلم يكن يوجد في ذلك الوقت الشاعر الملهم الّذي يستطيع أن يحلق بشعره التحليق الّذي تستحقّه بغداد الشهيدة.

وسوف نقتبس من الشعراء بعض ما قالوا.

قال شمس الدين الكوفي الهاشمي الواعظ من قصيدة:

بانوا ولي أدمع في الخد تشتبك	ولوعة في مجال الصدر تعترك
بالرغم لا بالرضا مني فراقهم	ساروا ولم أدرِ أي الأرض قد سلكوا
يا صاحبي ما احتيالي بَعْدَ بُعدهم	أشِر عليّ فانّ الرأي مشترك
عزّ اللِّقاء وضاقت دونه حيلي	فالقلب في أمره حيران مرتبك
يعوقني عن مرادي ما بليت به	كما يعوق جناحي طائرٍ شَرَك
أروم صبراً وقلبي لا يطاوعني	وكيف ينهض من قد خانه الورك
إن كنت فاقد إلفٍ نح عليه معي	فإنّنا كلنا في ذاك نشترك
يا نكبة ما نجا من صرفها أحد	من الورى فاستوى المملوك والملك
تمكنت بعد عزٍّ في أحبّتنا	أيدي الأعادي فما أبقوا وما تركوا
لو أن ما نالهم يُفدى فديتهم	بمهجتي وبما أصبحت امتلك
ربع الهداية أضحى بعد عهدهم	معطّلاً ودم الاسلام منسفك
أين الّذين على كل الورى حكموا	أين الّذين اقتنوا أين الأولى ملكوا

أجابني الطّلل البالي وربعهم الخالي نعم هاهنا كانوا وقد هلكوا

ولهذا الشاعر أكثر من قصيدة في هذا الموضوع، وقد جاء في مطلع قصيدة أخرى:

عندي لأجل فراقكم آلام فعلام أعـذل فـيكم وألامُ

* * *

وقال أحد الشعراء:

لسائل الدمع عن بـغداد أخـبار فما وقوفك والأحباب قد ساروا

يا زائـرين إلى الزوراء لا تـفدوا فـما بـذاك الحـمى والدار ديّـار

تاج الخلافة والربع الّذي شرفت بـه المـعالم قـد عـفّاه إقـفار

أضحى لعطف البلى في ربعه أثر وللـدموع عـلى الآثـار آثـار

* * *

كما انّ الشاعر الفارسي سعدي الشيرازي رثى بغداد حين بلغته أخبارها بقصيدة فارسيّة وأخرى عربيّة قال فيها:

حبست بجفني المدامع لا تجـري فلمّا طغى الماء استطال على السكر

نسيم صبا بـغداد بـعد خـرابهـا تمنّيت لو كانت تمرّ على قبري[١]

وضع بغداد الإداري بعد مقتل الخليفة

وفي نفس اليوم الّذي قتلوا فيه الخليفة، ارسلوا (أي المغول) إلى المدينة:

١ ـ مؤيد الدين بن العلقمي ليقوم بالوزارة.

٢ ـ فخر الدين الدامغاني ليكون صاحب الديوان.

٣ ـ علي بهادر شحنة لها (بمثابة مدير الشرطة).

٤ ـ عماد الدين عمر القزويني نائباً للأمير (قراتاي) وهو الّذي عمّر مسجد الخليفة ومشهد موسى الكاظم.

---

١ ـ الغزو المغولي للأمين / ص ١٤٠ ـ ١٤١.

٥ ـ نجم الدين أبو جعفر أحمد بن عمران الملقب بـ (راست دل) بمعنى المخلص، والياً على أعمال شرقي بغداد، مثل طريق خراسان والخالص والبنديجين[١].

٦ ـ نظام الدين عبدالمؤمن البندنجيني قاضياً للقضاة، وكان قاضي القضاة في زمن الحكومة العبّاسية.

٧ ـ تاج الدين عليّ بن الدوامي حاجب الباب (صدر الأعمال الفراتية)[٢].

٨ ـ واختار (ايلكا نويان وقرابوقا) ومعهما ثلاثة آلاف من فرسان المغول، وبعث بهم إلى بغداد ليقوموا بالعمارة في الحال وليعملوا على استتباب الأمن.

* * *

وقد رتّبت الحكومة المحلّيّة حال البلاد ومهّدوا قواعدها، وعينوا بها الصدور[٣] والنظّار والنوّاب، فعينوا:

سراج الدين البجلي في الأعمال الواسطية والبصرية.

نجم الدين بن المعين صدر الأعمال الحلية والكوفية.

فخر الدين مبارك بن المخرّمي في صدر دجيل والمستنصري.

عزّ الدين بن أبي الحديد كاتب السلة، فلم تطل أيّامه وتوفّي فرتّب مكانه ابن الجمل النصراني.

عزّ الدين بن الموسوي العلوي نائب الشرطة[٤].

---

١ ـ كان يسمّى بالوزير الصادق أو المخلص (راست‌دل) وهو من أهل باجسرى، وكان يخدم زمن الخليفة عاملاً، فاتصل ببعض الأمراء أيّام الحرب وحضر بين يدي السلطان هولاكو خان وأنهى إليه من حال العراق ما أوجب تقديمه وتشريفه، فعهد إليه ان يتفق مع الوزير وصاحب الديوان في الحكم ولُقِّب بالملك (تاريخ العراق بين احتلالين / ج ١ / ص ٢٠١).

٢ ـ الحوادث الجامعة لابن الفوطي / ص ٣٣٢، وجامع التواريخ / ص ٢٩٥.

٣ ـ الصّدر بمعنى المحافظ أو المدير العام.

٤ ـ تاريخ العراق بين احتلالين / عباس العزاوي / ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

والشيخ عبدالصمد بن الجيش إمام مسجد قمرية، خازن الديوان.

فتوفي الوزير مؤيد الدين محمّد بن العلقمي في مستهل جمادى الآخرة ودفن في مشهد موسى بن جعفر عليه السلام، فأمر السلطان ان يكون ابنه عز الدين أبوالفضل وزيراً بعده.

وعيّن علي شهاب الدين بن عبدالله صدراً في الوقوف، وأثبت الفقهاء والصوفية وأدرّ عليهم الأخباز والمشاهرات.

وسُلِّمت مفاتيح دار الخليفة إلى مجد الدين محمّد بن الأثير وجعل أمر الفراشين والبوّابين إليه وتقدم للجاثليق بسكنى دار علاء الدين الطبرسي الدواتدار الكبير التي على شاطئ دجلة، فسكنها، ودق الناقوس على أعلاها، واستولى على دار الفلك الّتي كانت رباطاً للنساء تجاه هذه الدار المذكورة وعلى الرباط البشري المجاور لها، وتقدّم الكتابة الّتي كانت على البابين وكتب عوضها بالسرياني[1].

❊ ❊ ❊

نائب السّلطنة أو الحاكم العام

والحاكم الفعلي هو عماد الدين عمر القزويني.

وهو أوّل حاكم مغولي حكم العراق بعد سقوط بغداد.

ويقول عنه ابن الفوطي:

كان من أعيان أهل قزوين المعروفين بمتانة الدين وحسن اليقين، لما أنفذ الله قضاءه وقدره، وقتل الخليفة، وخربت بغداد، وخرب الجامع، وعطّلت بيوت العبادات تداركهم الله بلطفه، فأتاح لهم عناية (عمادالدين) فقدمها وعمر المساجد والمدارس، ورقّم الربط والمشاهد واجرى الجرايات من وقوفها للعلماء والفقهاء والصوفيّة وأعاد رونق الاسلام بمدينة السّلام.

---

١ ـ الحوادث الجامعة / لابن الفوطي / ص ٣٣٤.

وحاز بهذا الفعل الجميل الّذي يبق على جبهات الزمان حسن الأجر والثناء. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقد تأثّر بذلك شمس الدين الكوفي الهاشمي الّذي اشتهر رثاؤه لبغداد، والّذي يسمّيه الشبيبي في كتابه عن ابن الفوطي «شاعر مأساة بغداد» فمدح عماد الدين في قصيدة يقول فيها:

يا ذا العُلىٰ يا عماد الدين يا ملكاً ... بعدل سيرته يسمو على السير
جمعت عدلاً ومعروفاً ومعرفة ... والعدل ما زال منسوباً إلى عمر
أحيا المدارس من بعد الدروس بإبقاء الدروس حياة العلم والفكر
وعاد كلّ رباط بعدما هجرت أرجاؤه عامراً بالذِّكر والسّمر
رددت للجامع المعمور رتبته الأولىٰ وأبقيت فيه أحسن الأثر
ألبست مشهد موسى إذ حللت به ... الحلي بعد لباس البؤس والضرر
فالله يشكر ما أوليت من حسن ... وسائر الخلق والمبعوث من مضر

* * *

ولكن عماد الدين لم يبق كثيراً في منصبه، بل اختير علاء الدين الجويني لهذا المنصب سنة ٦٥٧هـ، وعيّن عماد الدين معاوناً له...

والجويني كان على الكثير من الكفاءة واتقان العمل ممّا أدّى إلى بعث حركة عمرانية كبرى في العراق كلّه.

فهو الّذي جدّد كثيراً من المدارس المتداعية، ومنها المستنصرية، وهو الّذي أنشأ جملة من المدارس ودور الكتب وغير ذلك.

كما انشأ جملة من الرباطات والملاجئ والمستشفيات واجرى عليها الجرايات.

وعني بتعمير المشاهد في النجف وكربلاء والكاظمين.

وحفر الترع وأجرى الماء من الفرات إلى الكوفة، فالمشهد الغروي.

وهو الّذي شجع حركة التأليف والمؤلّفين وأجزل العطاء والبذل لهم(١).

* * *

هولاكو يأمر بإعمار بغداد
والتشكيلات الإدارية في الوضع الجديد

الملاحظ أنّ هولاكو أمر بإعمار بغداد قبل أن يُقتل الخليفة.

فعندما طلب وفد سكان بغداد الأمان، أمر بالتوقف عن القتل والنهب وقال: إنّ بغداد أصبحت ملكاً لنا، فليستقرّ الأهالي ولينصرف كل شخص إلى عمله(٢).

وعندما قتل الخليفة يوم ١٤ صفر ٦٥٦هـ، عيّن حكومة محلّيّة في نفس ذلك اليوم، من وزير وموظّفين للأمور العامّة وعمال، كما بعث ثلاثة آلاف من فرسان المغول ليقوموا بالعمارة في الحال وليعملوا على استتباب الأمن(٣).

وكان يقول:

إنّنا بحمد الله فاتحون للبلاد ومدبّرون لشؤونها، نغزو الطغاة ونرعى شؤون المطيعين(٤).

والملاحظ في الحكومة المحلية انّها كلّها من أبناء البلاد المسلمين، عدا الحاكم الفعلي عماد الدين عمر بن محمّد القزويني، فقد كان من أهل قزوين وكان من أعيانهم وكان ذا دين ومروءة.

وعيّن شهاب الدين بن عبدالله صدراً للوقوف وتقدم إليه بعمارة جامع الخليفة وكذلك مشهد موسى بن جعفر وحفيده محمّد الجواد عليهما السلام(٥).

---

١ ـ مؤرّخ العراق ابن الفوطي لمحمّد رضا الشبيبي / ص ١٤٦.

٢ ـ جامع التواريخ / ص ٢٩٣.

٣ ـ المصدر السابق / ٢٩٥.

٤ ـ المصدر السابق / ٣٠٢.

٥ ـ تاريخ العراق بين احتلالين للعزاوي / ص ٢٠٣.

وانّ التشكيلات الإدارية ـ بصورة عامّة ـ أبقيت على ما هي عليه، ولو كان هولاكو قد تولى إدارة العراق رأساً وبصورة مباشرة من قبل الفاتحين لانمحت نضارة بغداد ولذهب حسنها بمدّة وجيزة، وما أصابها حين الفتح من دماء، فكان أشبه بالمرض يعتري البدن ثمّ يزول[1].

وجاء في كتاب (العراق في التاريخ):

وبعد انتهاء عمليات الاستباحة، أمر هولاكو باصلاح بعض ما خرّب وترميم الأسواق ورفع جثث القتلى من الناس والحيوان، ورحل هولاكو عن المدينة بعد ان فوّض أمرها إلى جماعة معيّنة لإعادة تنظيمها، وابقى على التشكيلات الإدارية، كما كانت في العصر العباسي الأخير، ووضع على رأس الإدارة بعض المسؤولين في العهد السابق للاستفادة منهم ريثما تتكوّن مجموعة من الإداريين المغول، ومن هؤلاء مؤيد الدين بن العلقمي وزيراً وفخر الدين الدامغاني صاحب الديوان والقضاء، ونجم الدين ابن الدرنوس، وعين شحنة للمدينة علي بهادر[2].

والحكومة المركزية (حكومة هولاكو) كانت تودع شؤون العراق لأمير مغولي بمقام مراقب، حذراً من اختلاس الأموال، أو التدخّل في شؤون السياسة المضرّة بصالحهم... لكنها رأت من القوم الفساد الأخلاقي والتنازع بين الأفراد على الوظائف بحيث صار كل واحد يسند الخيانة لصاحبه، ويظهر الخدمة والإخلاص.

فلم تقف الحكومة على حقيقة الأقوال من كل جانب، فولت الإدارة إلى غيرهم. إلّا انّها لم تنزع كل الوظائف، وانّما احتفظت ببعضها واستخدمت من الباقين من أهل العراق.

والتشكيلات الإدارية آنئذٍ تقسم إلى:

١ ـ بغداد: وفيها الوزير وفي الغالب له مشرف ونائب وصاحب الديوان والشحن

---

١ ـ المصدر السابق / ص ٢٠٤.

٢ ـ العراق في التاريخ لمجموعة مؤلفين / ص ٥٤٧.

(مدير الشرطة) ونائب الشرطة وخازن الديوان.

٢ ـ الأعمال الشرقية: (الخالص وطريق خراسان والبنديجين).

٣ ـ الأعمال الفراتية.

٤ ـ الأعمال الواسطية والبصرية.

٥ ـ أعمال دجيل والمستنصري.

٦ ـ الأعمال الكوفية والحلية.

٧ ـ أعمال الأنبار.

٨ ـ أعمال داقوقا.

وأمّا إربل فانّها لا تزال خارجة عن حدود هذه المملكة.

وكان يعيّن لهذه الأعمال (الصّدور)، والصّدر هنا بمقام (المحافظ)، وكل منطقة من هذه الأعمال بمنزلة (المحافظة) وقد يُسمّى القائم بإدارتها (الملك) وهذا اللقب يناله من كانت له خدمة يستحقّ عليها هذا اللّقب مثل نجم الدين أبي جعفر أحمد بن عمران الباجسري وغيره، ومعهم النوّاب والنظّار حسب الحاجة وسعة الأعمال.

وعلى هذا اكتسبت الإدارة استقراراً نوعاً ما[1].

هولاكو يواصل السّير إلىٰ همدان وتأتيه الملوك فتقدّم له الولاء والطاعة

وفي يوم الجمعة الثالث والعشرين من صفر ٦٥٦هـ رحل هولاكو من قريتي (الوقف والجلابية)، ونزل بقبّة شيخ المكارم، ومن هناك كان يسير مرحلة بعد مرحلة، إلى ان بلغ معسكراته في خانقين[2].

---

١ ـ تاريخ العراق بين احتلالين / عباس العزاوي / ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

٢ ـ تاريخ العراق بين احتلالين لعباس العزاوي / ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

وفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شهر ربيع الآخر، وصل هولاكو إلى (اغرورق) من ضواحي همدان وسياه‌كوه.

وأنفذ بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إليه ابنه الملك الصالح إسماعيل ومعه جماعة من عسكره نجدة له.

فأظهر له هولاكو عبسة، وقال:

أنتم بعد في شك من أمرنا ومطلتم نفوسكم يوماً بعد يوم، وقدمتم رجلاً وأخّرتم أخرى لتنظروا من الظافر بصاحبه.

فلو انتصر الخليفة وخُذِلنا لكان مجيئكم إليه لا إلينا، قل لأبيك: لقد عجبنا منك تعجّباً، كيفْ ذهب عليك الصّواب وعدل بك ذهنك عن سواء السّبيل واتخذت اليقين ظنّاً، وقد لاح لك الصّبح فلم تستصبح؟[1]

فلمّا عاد الصالح إلى الموصل وبلّغ أباه ما حمل من الرسالة الزاجرة، أيقن بدر الدين أنّ المنايا قد كشّرت له عن أنيابها وذلّت نفسه وهلع هلعاً شديداً، وكاد يخسف بدره ويكسف نوره.

فانتبه من غفلته وأخرج جميع ما في خزائنه من الأموال واللآلئ والجواهر والمحرّمات من الثياب، وصادر ذوي الثروة من رعاياه[2].

وأخذ حتّى حلي حظاياه والدرر من حلق أولاده وسار إلى طاعة هولاكو بجبال همدان.

فأحسن هولاكو قبوله واحترمه لكبر سنه ورقّ له وجبر قلبه بالمواعيد الجميلة واستأمن إليه وداعبه وقدّمه إلى أن اصعده إليه على التخت، وأذن له أن يضع بيده في

١ ـ لقد مرّ بنا أنّ بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل كان قد أرسل قطعة من الجيش إلى هولاكو في حربه للجيش الخليفي، ولكن يظهر أنّ هولاكو كان يتوقّع من بدر الدين أكثر من ذلك وتلك هي طبيعة القائد المنتصر دائماً.

٢ ـ الرّعايا دائماً هم الطّبقة المسحوقة.

أذنيه حلقتين كانتا معه فيهما درّتان يتيمتان.

وأقام في خدمته أيّاماً، ثمّ عاد إلى الموصل مسروراً مبروراً بل مذعوراً ممّا شاهد من عظمة هولاكو وهيبته ودهائه[١].

كذلك جاء إلى الحضرة، الأتابك سعد بن أبي بكر، أتابك فارس في السابع من شعبان للتهنئة بفتح بغداد، فحضي بالعناية الخاصة.

وحضر أيضاً السلطان عزّ الدين صاحب الروم في الرابع من ذلك الشهر في (مونيق) من ضواحي تبريز.

ثمّ جاء في أثره السلطان ركن الدين في الثامن من ذلك الشهر، وكان السلطان ممتعضاً من السلطان عزّ الدين بسبب عدم اعتنائه بـ (بايجونويان) وقتاله إيّاه، فلمّا فتحت بغداد، خاف السلطان عزّ الدين خوفاً شديداً وأراد أن يبحث له عن مخرج من ورطة هذا الذّنب معتمداً على دقائق الحيل لكي ينقذ نفسه.

فأمر بصنع حذاء ملكي في غاية الجودة ونقشت صورته (أي صورة السلطان عزّ الدين نفسه) على نعل ذلك الحذاء، ثمّ قدمه للملك أثناء معاتبته إيّاه، وعندما وقع نظر هولاكو على تلك الصورة، قبّل عزّ الدين الأرض وقال:

إنّ أملي هو أن يُشرّف الملك رأس هذا العبد بوضع قدمه المباركة عليها. فرقّ له هولاكو خان، ورفعت (دوقوز خاتون) من قدره وتشفعت له، فعفا عنه)[٢].

❊ ❊ ❊

هكذا هم ملوك المسلمين وسلاطينهم، يتجبّرون على رعاياهم ويجبون أموالهم ويقتلونهم ويحبسونهم ويتعسفون بحقوقهم.

ولكنّهم صاغرون أذلّاء لدى هولاكو، حتّى يضع أحدهم صورته على الحذاء

---

١ ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ٢٧٧.

٢ ـ جامع التواريخ / ص ٣٠١.

ويشرّفه ان يضع هولاكو قدمه على رأس هذا السلطان الحقير.

ويا ليته يشعر بالدّناءة والضِّعة عندما يعود إلى شعبه، فيتعامل معهم بالحسنى، معاملة حريّة بالإحترام والتقدير، ويعود إلى ربّه مستغفراً من ذنوبه الّتي اقترفها وقضى عمره في الفسق والفجور وهتك الأعراض.

ولسنا نستبعد أن يفعل الخليفة المستعصم كما فعل هذا السلطان، عندما وضع صورته على نعال هولاكو ليعفو عنه، لو كان يعتقد الخليفة ان هذا ينجيه.

ولكن سبق السيف العذل.

❊ ❊ ❊

أمّا هولاكو فقد مات سنة ٦٦٣هـ، وكان عمره ثمانية وأربعين سنة في آذربيجان قرب (مراغه).

فتولّى بعده ابنه الأكبر (أباقا) الّذي مات عام ٦٨٠هـ، فتسلم الحكم أخوه (تكدار) الّذي أسلم وسمّى نفسه (أحمد)[1].

❊ ❊ ❊

١ ـ الغزو المغولي للأمين / ص ١٨٦.

أمّا التشكيلات الإدارية على مستوى العراق؟

فقد تحوّل العراق بعد هذه الكارثة إلى ولاية من ولايات الامبراطورية الايلخانية[١] المترامية الأطراف الّتي شملت في أوج قوتها البلاد الواقعة ما بين نهر جيحون والمحيط الهندي ومن السند إلى الفرات مع جزء من آسيا الصغرى وبعض القوقاز، قاعدتها اذربيجان، وتابعة من الناحية الشكلية للإمبراطورية المغولية، بعدما كانت بغداد قاعدة الخلافة وعاصمة العالم الاسلامي.

وقسّم العراق على ثلاث ولايات:

١ ـ العراق، وهو القسم الأهم، ويمتد ما بين الزاب الأعلى إلى عبّادان طولاً، ومن القادسية إلى حلوان عرضاً.

٢ ـ الجزيرة الفراتية، وفيها الموصل وسنجار والعمادية واربيل.

٣ ـ بلاد الجبل وفيها مدينة شهر زور.

وكان العراق إحدى الولايات الايلخانية المهمّة الّتي كانت تسمّى ممالك، ويدعى حكامها أحياناً ملوكاً.

وكانت عاصمته بغداد، وترد في كتابة المعاصرين باسم مدينة السلام، وقد زارها الأمراء الايلخان عدّة مرّات.

وألغيت في هذا العهد أكثر الدواوين وبقي ديوان الوزير وديوان الزمام، ثمّ أدمج الديوانان في ديوان واحد صار رئيسه صاحب الديوان وهو الحاكم الأعلى في العراق، وهو الّذي يعيّن كبار الموظفين وغيرهم.

وإلى جانب صاحب الديوان، هناك كاتب السلّة، وهو مسؤول عن كتّاب الولاية وبيده أسرارها، ويطلق عليه أحياناً اسم (كاتب العراق).

---

١ ـ الايلخانية بمعنى المغولية.

وبقي منصب قاضي القضاة وهو الّذي يعيّن القضاة في مختلف أنحاءالبلاد ويتولّى أمر مراقبتهم ونقلهم وعزلهم.

وبقيت الحسبة وصاحبها المحتسب، ومهمّته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومراقبة الأسواق.

كما كانت هناك وظيفتان إداريتان هما:

الصّدر والنّاظر، وقد ذكرنا معنى الصّدر، أمّا النّاظر فهو موظّف من أولى مهمّاته النّظر في الشؤون المالية.

وأهم الوظائف العسكرية: الشحنة ونائب الشرطة، فأمّا الشحنة فكان كالقائد العسكري الأعلى ومهمّته المحافظة على الأمن والقضاء على الثورات و حركات التمرد ومراقبة صاحب الديوان لضمان ولائه للدولة.

ولهذا ظل أمر هذه الوظيفة بأيدي المغول عامّة إلى آخر العهد الايلخاني.

أمّا نائب الشرطة فانّه مسؤول عن المحافظة على الأمن في بغداد.

وكانت ادارة الامبراطورية الايلخانية لا مركزية، ويتمتع حاكم العراق بدرجة من الاستقلال في إدارة شؤونه مقابل تقديمه المال اللازم لخزينة الامبراطور وإرسال القوّات العسكرية المناسبة له في حالات الحرب، ولكن هذه اللّامركزيّة لم تكن كاملة لأنّ الحاكم الايلخان كان يزور العراق ويقضي الشتاء بين ربوعه في بعض الأحيان، كما كان يرسل مشرفاً يستقصي شؤونه عن كثب ويرفع تقريراً عنه.

وكانت سلطة الايلخان غير محدودة وله حق قتل من يريد، ولم تكن للشعب حقوق بل كانت عليهم واجبات أهمها الطاعة ودفع الضرائب المتنوعة.

ومن أهم سمات حكومة العراق في هذا العهد عدم الاستقرار والفساد[1].

* * *

١ ـ العراق في التاريخ / ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠.



الملاحق

ملحق رقم ـ ١ ـ
تلخيص للأسباب الّتي أدّت إلى سقوط الدولة العباسية

وهي أسباب مباشرة وغير مباشرة.

أوّلاً ـ الأسباب غير المباشرة:

لقد أسهبنا في الحديث عن الأسباب الّتي أدّت إلى سقوط بغداد، ولا نعتقد أن أحداً سبقنا في ذلك من وجهة نظر اسلامية.

ووجدنا انّ الخلفاء العباسيين أنفسهم، ساهموا مساهمة جادة في سقوطها، بل انّهم ساهموا في الاساءة إلى الاسلام الّذي هم مؤتمنون عليه بناء على اللّقب الّذي يتمسّكون به (أمير المؤمنين وخليفة رسول الله).

ولكنّهم جميعاً مارعوا الأمانة، وكانوا يعملون على خلاف العهد الّذي قطعوه على أنفسهم للأمّة في بداية انتصارهم على بني أميّة في (خدمة الاسلام والمسلمين) ورفع الحيف عنهم من المظالم الّتي اقترفها السابقون.

فإنّهم ما إن وجدوا حلاوة الخلافة وتقبيل اليدين والرجلين والأرض الّتي يضعون عليها أقدامهم، ولبسوا البردة ومسكوا بأيديهم (القضيب والخاتم) حتّى مالوا على الاسلام بصورة أشد بكثير ممّا كان عليه بنو أميّة.

فقد كانوا يتشبّثون ببعض الروايات الموضوعة بأن حكمهم كان بإرادة من الله، وسوف يبقون في الحكم حتّى يسلّموا الدولة إلى المسيح عند ظهوره في آخر الحياة الدنيا إذ يقول داود بن علي عم أبي العباس بعد خطبة السفاح «واعلموا انّ هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتّى نسلمه إلى عيسى بن مريم عليه السلام»[1].

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٥ / ص ٦٦.

ولا يغيب عن بال القارئ اللّبيب، انّنا ابتدأنا في الأسباب تلك من (إبراهيم الإمام) عندما كتب إلى أبي مسلم الخراساني (... وان استطعت ان لا تدع بخراسان من يتكلم العربية فافعل، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فافعل)[١].

وهي أوّل فتنة أطلقها إمامهم قبل تشكيل الدولة، ثمّ تبعتها فتنة أبي جعفر المنصور، الّذي دقّ إسفيناً بين بني هاشم، فجعلهم قسمين متنازعين، وقد كانوا شيئاً واحداً[٢].

وكان يجد نفسه مكلّفاً من الله بأن يسوس الناس بالقتل والقهر (وأنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه ورشده، وخازنه على فيئه أقسّمه بارادته وأعطيه بإذنه...)[٣].

فقد أوقع القتل بالعلويين بناء على هذه المقولة، فكان أوّل من ارتكب الفضايع بما لم يرتكبه الأمويون... وهكذا.

فكان لذلك كلّه تأثير في احداث الفرقة بجماعة المسلمين الّذين كانوا أحوج ما يكونون إلى الوحدة والعودة إلى حضيرة الاسلام بعد الاستئثار الّذي ارتكبه الأمويون والاستهتار بالمقدّسات.

علماً بأنّ الّذي فعله إبراهيم الإمام وأخوه المنصور والّذي فعله الآخرون من خلفاء العباسيين، كان ينخر بصورة هادئة أحياناً وبصورة سريعة الخطوات أحياناً أُخرى في جسم الدولة، بحيث كانت الأمور واضحة لمن يقرأ المستقبل انّ الدولة سوف تنهار انهياراً فضيعاً إن عاجلاً أو آجلاً.

وفتنة المأمون، جاءت لتعمّق الخلاف بين المسلمين من منظور جديد في (فتنة خلق القرآن) فقد كان صراعه مع الفقهاء والعلماء خاصّة، يعذب ويحبس ويقتل.

---

١ ـ المصدر السابق / ج ٥ / ص ٢١.
٢ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٢٦١.
٣ ـ المصدر السابق / ص ٢٦٣.

واستمرّت هذه الفتنة حتّى أيّام الواثق.

وكانت تلك الفتن، كل واحدة منها تخرم قسماً من الأمّة وتسلب منهم ولاءهم للدولة وحبّهم للحكم القائم، ليحلّ محل ذلك الضغينة والبغضاء.

* * *

وعندما حلّ المعتصم بالخلافة وجاء دوره فيها، كان يتعشّق الغلمان الأتراك، فاجتمع لديه منهم بضعة عشر ألفاً.

والقضيّة هذه لم تكن قضيّة عادية (خليفة اتخذ جنوداً من الأتراك) انّها ليست كذلك، فالغلمان أولئك اتخذهم المعتصم جيشاً له فألبسهم أنواع الديباج والمناطق الذهبية والحلية المذهّبة وميّزهم بالزي على سائر جنده.

وكان الأتراك يؤذون الناس بمدينة السلام، بجريها الخيول في الأسواق، وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك.

فكان أهل بغداد، ربّما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأة أو شيخ كبير أو صبي أو ضرير[1].

وهذه القضيّة جعلت الأمّة تنفر من المعتصم وذكره وخلافته، وانضافت فئة جديدة منهم في الحقد على الخلفاء، حتّى خاطبه أحدهم وقال له: «لا جزاك الله عن الجوار خيراً، جاورتنا فأيتمت صبياننا وأرملت بهم نسواننا وقتلت رجالنا....»[2].

ثمّ دخل الأتراك عنصراً جديداً في إدارة الدولة والتأثير على الخليفة نفسه، بل حتّى في عزله وتنصيب غيره، فانحلّت عرى الدولة وبدى ضعفها وهزالها. فأطمع ذلك البويهيين والسلاجقة، فكانوا يمسكون بكل شيء في الدولة حتّى الخطبة والسكة عدا (البردة والقضيب والخاتم).

---

١ ـ مروج الذهب للمسعودي / ج ٣ / ص ٤٦٦.

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ٦ / ص ٢٢.

ثمّ تقسّمت امبراطورية الخلافة العباسية إلى دويلات ومقاطعات وإمارات حتّى لم يبق للخليفة إلّا بغداد وبعض المناطق الأخرى.

* * *

إضافة إلى الخلافات المذهبية الّتي كانت تُثار بين فترة وأخرى، حتّى إنّ بعض الخلفاء كانوا يورون زنادها، كما فعل المستعصم في فتنة، عام ٦٥٤هـ، ناهيك عن تأثير ذلك في الناس.

وإذا كانت فتنة المأمون تطال الفقهاء والعلماء خاصّة، فانّ الفتن الطائفية لها تأثير في عموم الأمّة حتّى العجائز منهم والصبيان.

فما كانت تلك الفتن تشتعل حتّى تعم قطاعات واسعة قد تصيب الأموات أحياناً، فتحرق قبورهم وتنبش عظامهم.

وكانت تلك الفتن (بين الشيعة والسنّة) تتجدّد ـ عادة ـ كل عام في شهر محرم حيث ذكرى الحسين عليه السلام، فتمنع السلطة من قراءة المقتل والاحتفال بتلك المناسبة.

في البداية تحدث الفتنة في مكان ضيق، ثمّ تتوسع شيئاً فشيئاً، وتنتشر ويتنادى الناس فيما بينهم، كلٌ يعاون طائفته الّتي ينتمي إليها، وهكذا...

كما كانت الفتن الطائفية تنشأ بين المذاهب السنّية، وعلى العموم يكون الحنابلة طرفاً فيها.

* * *

كل تلك الفتن وانحسار الخلفاء من الرصيد الشعبي، جعل العيارين ينشطون في عملهم ومداهماتهم للبيوت وقطع الطرق ونهب أموال الناس، حتّى ان بعضهم تمادى فأصبح اسمه فقط يذكر في الخطبة وليس اسم الخليفة العباسي أو الملك[1].

والأنكى من ذلك كلّه، هو انّ الإمام الخليفة، أمير المؤمنين الناصر لدين الله، تشبّه

١ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١٢ / ص ٤٤.

بهم ولبس لباسهم الخاص، وطلب من أمراء الأطراف أن يشربوا كأس الفتوة (الأنخاب) احتفالاً بهذه الظاهرة الجديدة.

* * *

وفي جميع تلك الأدوار كان الخلفاء يرتكبون من المخالفات الشرعية ما لا يحد ولا يوصف، من شرب الخمور واللواطة والزّنا وتبذير أموال المسلمين والقتل وما إلى ذلك، بحيث جعلوا الأمّة تنظر إلى الخليفة وكأنّه عيّار إلّا انّه متسلّط على رقاب الناس بالقوّة وباسم الخلافة.

فكان نتيجة ذلك كلّه هو عدم انسجام الأمّة مع الحكّام، بل كانوا يعيشون حالة من الانفصام والتحدّي.

فكان كل فريق منهم يعتبر الثاني عدوّاً له، فاذا ما حدث هجوم المغول على بغداد، لم نجد الأمّة بصورة عامّة متعاطفة مع الخليفة.

ولذلك فقد كان الجنود والأهالي، كل فرد منهم يفكر في نفسه وأهله، وليس في الدفاع عن الدولة الاسلامية وخليفتها إلّا القليل منهم الّذين كانوا يُدفعون دفعاً للحرب والمواجهة.

هذه باختصار الأسباب غير المباشرة الّتي ساهمت في السقوط والانهيار.



ثانياً ـ الأسباب المباشرة:

أمّا الأسباب المباشرة، فانّنا نوجزها بما يلي:

١ ـ الإمام الناصر لدين الله:

فانّ أصابع الاتهام تُوجّه إليه من المؤرِّخين، بأنّه هو الّذي كاتب التتر.

إذ يقول ابن خلدون:

«ويقال انّه الّذي أطمع التتر في ملك العراق، لما كانت بينه وبين خوارزمشاه من الفتنة»[١].

كما يذكر الاتهام نفسه مؤرِّخون آخرون، أوردناه فيما سبق.

في حين كان الناصر خليفة للمسلمين.

وليس من الاسلام بل وليس من العقل ان يستنصر بالوثنيين على المسلمين.

وكان نتيجة ذلك ان سقطت دولة خوارزم، فقال صاحب دمشق معلقاً: «وسوف ترون غب هذا لتكونن هذه الكسرة سبباً لدخول التتر بلاد الاسلام، ما كان الخوارزمي إلّا مثل السد الّذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج»[٢].

ولو كان الناصر حصيفاً لتناسى خلافه مع خوارزمشاه وقوّى جنده ولو بقطعات صغيرة، أو على الأقل لا يكون عوناً للمغول عليه، وهو الّذي حدث وجرّأهم على الاستمرار في بلاد المسلمين حتّى اسقطوا الخلافة.

* * *

٢ ـ القاضي شمس الدين القزويني:

وقد مرّ بنا ذكره، والدور الخياني الّذي قام به، فانّه كان يتردّد على بلاط (منكوقاآن) حفيد جنكيزخان وأخي هولاكو، الّذي يقول عنه المؤرِّخ رشيد الدين

---

١ ـ تاريخ ابن خلدون / ج ٣ / ص ٥٣٥.

٢ ـ مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي / ج ٢ / قسم ٢ / ص ٦٧١.

الهمداني «في ذلك الوقت كان قاضي القضاة المرحوم شمس الدين القزويني موجوداً في بلاط الخان، وذات يوم ظهر للخان مرتدياً الزرد، وأخبره أنّه يلبسه تحت ثيابه خشية الملاحدة[1]، كما سرد له طرفاً من اعتداآتهم وغاراتهم».

وكان الخان يتوسم في أخيه هولاكو مخايل الملك، ويرى في عزائمه مراسم الفتح والغزو، وكان قد تفكّر فرأى ان بعض ممالك العالم قد دخل فعلاً في حوزة جنكيز خان وبعضها لم يستخلص بعد[2].

ويقول الجوزجاني:

«انّ شمس الدين هذا كان على اتصال بالمغول وكان إماماً وعالماً كبيراً، ذهب مرّة إلى (منكو خان) وطلب منه ان يضع حداً لشرّ الملاحدة ويخلص الناس من فسادهم، وان كلمات هذا القاضي كان لها أثر عميق في نفس (منكو خان) إذ نسب إليه الضعف والعجز لأنّه لم يستطع أن يستأصل شأفة هذه الطائفة الّتي تدين بدين يخالف ديانات المسيحيين والمسلمين والمغول...»[3].

* * *

٣ ـ الشافعيّة:

الّذين كانوا مختلفين مع الحنفية في اصفهان، وكانت الحروب بينهما سجالاً، والسيوف مشرعة، فكاتبوا التتار عام ٦٣٣هـ بأن يأتوا إلى اصفهان، وتعهدوا بأن يسلموها لهم مقابل ان يقتلوا الحنفية.

فلمّا دخل المغول، قتلوا الفريقين قتلاً ذريعاً، ولم يقفوا مع العهد الّذي عهدوه لهم، ثمّ قتلوا سائر الناس وسبوا النِّساء وشقوا بطون الحبالى ونهبوا الأموال وصادروا الأغنياء، ثمّ أضرموا النار فأحرقوا اصفهان حتّى صارت تلولاً من الرماد.

---

١ ـ يقصد بذلك الإسماعيليين.

٢ ـ جامع التواريخ لرشيد الدين الهمداني / ص ٢٣٣.

٣ ـ طبقات ناصري / ص ٤١٣ ـ ٤١٤.

فلمّا لم يبق لهم بلد من بلاد العجم إلّا وقد دوخوه، صمدوا نحو إربل في سنة أربع وثلاثين وستمائة...[1].

وتشجّعوا على الاستمرار في جهة الغرب لكي يقضوا على بغداد ومن ثمّ الشّام ومصر.

وقضيّة الشافعية في اصفهان تعطي انطباعاً عن ضعف المسلمين وهزالهم وتفككهم حين يحالفون الوثنيين على قومهم وبلادهم.

❊ ❊ ❊

٤ ـ قصّة سليمان بن برجم:

الّذي هو أحد قواد الخليفة المستعصم، وهو مقدم الطائفة الايوائية التركمانية، ذكرنا انّه في عام ٦٤٣هـ قتل شحنة من شحن المغول في بعض قلاع الجبل، فأثار قتله أن سار من تبريز عشرة آلاف غلام من المغول إلى ان وصلوا إلى بغداد، وجرت معارك بين الطرفين.

وسليمان بن برجم يبدو انّه كان قائداً عسكرياً مخلصاً للخليفة ولكن عمله هذا كان لا مبرر له، حيث جرّ الويلات على بغداد ذاتها، وشجع المغول لمعاودة الكرّة، وهو الّذي حدث عام ٦٥٦هـ.

❊ ❊ ❊

٥ ـ أطماع المغول:

وفي الفترة بين وفاة جنكيزخان وتولي منكوخان زعامة المغول عام ٦٤٩هـ، واصل المغول القيام بعمليات غزو مفاجئة وغارات متعدّدة ومتواصلة على المدن والأقاليم الممتدة بين خراسان وآسيا الصغرى والجزيرة الفراتية وحدود العراق.

وكان هدفها السلب والتدمير واثارة القلق والبلبلة واشاعة حالة من الفوضى من

---

١ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ج ٨/ ص ٢٣٨.

أجل جسّ النبض لقوّة أمراء الأطراف وتحسّس قوّة جيش الخلافة ومدى تأثيرها على ملوك وأُمراء الأقاليم الاسلاميّة الأخرى.

وقد وصلوا في حملاتهم هذه إلى خانقين وداقوقا، بل انّهم سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م وصلوا حرّان والرها وديار بكر وميا فارقين...

وعلى ذلك فانّ سقوط بغداد ونكبتها لا يمكن اعتبارها حدثاً مفاجئاً باغت به المغول الخلافة العباسية، بل انّ الناس وأمراء الأطراف والمؤرّخين والوعّاظ كانوا يستيغثون منبّهين الخلافة والحكّام على هول الخطر منذ أن انهارت دولة الخوارزميين.

ونستطيع القول:

إنّ إرهاصات هجوم المغول على بغداد مقر الخلافة العباسية، كانت منذ لمع نجم جنكيز خان عام ٦١٧هـ عندما هرب منه (علاء الدين بن تكش) خوارزمشاه، ولو لم يكن المغول قوّة قاهرة لما طلب منهم الناصر لدين الله ان يقضوا على دولة خوارزم، لأن دولة خوارزم كانت في تلك الأيّام قويّة جدّاً وممتدة الأطراف، فلا يقضي عليها إلّا من هو أقوى منها.

ثمّ تأكّدت تلك الارهاصات عام ٦٢٨هـ، عندما قضى المغول على آخر سلاطين خوارزم (جلال الدين منكو برتي).

ثمّ تبع ذلك غارات مكثّفة على إربل ودقوقا وخانقين وظاهر بغداد، وأخيراً الزحف الكبير عام ٦٥٦هـ بقيادة هولاكو خان الّذي قضى على الدولة العباسية بعد أن أسقط قلاع الإسماعيليين الواحدة بعد الأخرى[1].

* * *

٦ ـ قصّة الخفاجي:

وقد ذكرنا سابقاً انّ المستنصر كان له أخ يعرف بالخفاجي، يزيد عليه (أي على

---

١ ـ تاريخ العراق في عصر الخلافة العربيّة الاسلاميّة للدكتور فاروق عمر فوزي / ص ٣٥٩.

المستنصر) في الشجاعة والشهامة.

وكان يقول: إن ملكني الله الأمر لأعبرنّ بالجيوش نهر جيحون وانتزع البلاد من التتار واستأصلهم.

فلمّا توفي المستنصر، لم ير الدواتدار والشرابي والكبار تقليد الخفاجي الأمر، وخافوا منه، وآثروا المستعصم للينه وانقياده، ليكون لهم الأمر فأقاموه[1].

ولا نعلم الأقدار، هل كان الخفاجي ـ لو أصبح خليفة ـ يستطيع أن يحقّق آماله في دفع التتار إلى ما وراء جيحون؟ ويتخلص المسلمون من غائلتهم؟

ولكن الواضح انّ الخفاجي كان شخصاً شهماً شجاعاً، ليس كالمستعصم، سوف يعمل جاهداً في ردع الغزاة، وربّما يستطيع أن يجمع حوله أمراء الأطراف فيكوِّن منهم جيشاً قويّاً يقف بوجه المغول ولو لفترة.



٧ ـ المستعصم والدواتدار:

الأوّل في ضعفه ولينه والثاني في خبث سريرته.

وقد كانت صفات الضّعف واللّين هي الّتي رشحت المستعصم خليفة من قبل الدواتدار، ويبرز ضعفه جلياً في حادثة الرّاقصة الّتي كانت ترقص له في حين كان القصر مُحاطاً بالأعداء يرمونه بالسهام.

وحيث كان الدواتدار قد اختاره للخلافة، فانّ المستعصم كان يشعر دائماً انّه مدين له، فكان إمّعةً[2] مطيعاً للدواتدار بلا حدود.

وحتّى يوم أراد ان يعزله وينصب ابنه خلفاً له، وكشف ابن العلقمي هذه المؤامرة، فانّ الخليفة كان يتغاضى عن قبول هذا الخبر.

---

١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ص ٤٦٤.

٢ ـ الإمّعة: هو التابع لكلّ أحد على رأيه.

والحادثة هذه عمّقت الخلاف، أو كانت مفتاح الخلاف بين الوزير ابن العـلقمي وبين الدواتدار. فكلما كان الوزير يشـير به على الخـليفة في تدارك الأمـور، كـان الدواتدار يفسد على الخليفة رأيه.

ويوم اقترح سليمان بن برجم تحشيد الجيوش، فانّ الدواتدار منعه من بذل الأموال من أجل رزق الجند وتسليحهم.

ونصح الوزير خليفته في أن يبعث إلى هولاكو بالأموال الضخمة، ووافق الخليفة في البداية، ولكن في اللّحظة الحاسمة هدده الدواتدار بأنّه سـوف يحـرّك الأوبـاش ليقطعوا الطريق عليها وينهبوها.

وطلب (حسام الدين) من الخليفة بواسطة ابن صلايا العلوي أن يؤيّده الخـليفة بقطعة رمزية من العسكر، وهو يحشّد مائة ألف جندي مع أرزاقهم.

ولكن المستعصم لم يلتفت إلى هذا الطلب وفوّت فرصة ثمينة.

وأخيراً فقد وجدنا انّ الدواتدار ينهزم من المعركة أوّلاً ثمّ يحاول الهروب ثـانية بالذهب والجوهر في ثلاث سفن ولكن جنود هولاكو كانوا قد مسكوا بعنق دجلة من الجنوب، فلا يدعون سفينة تفلت من أيديهم.

❊ ❊ ❊

وهكذا تتجمّع الأسباب المباشرة وغير المـباشرة لتلتقي عـام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م على أرض بغداد، ولتتحقق النهاية الّتي كان لابدّ أن تقع في هذا التاريخ بالذات.

فالخلفاء بدأوا يهبطون بالدولة منذ عام ١٣٢ وهو يوم تأسيسها، حتّى إذا كان العام ٦٥٦هـ، كانت الأجراس قد تهيأت لتقرع بأصواتها معلنة الوصول إلى النهاية.

وكما انتهت الدولة الأمـوية من قبل، فقد انتهت الدولة العباسـية، لأنّ الجـمـيع تركوا طريق الاسلام اللّاحب، وسلكوا طريقاً وعراً تكثر فيه الانحرافات والالتوآت والتعرّجات والحفر والآكام.

ويناسب المقام هنا ان نذكر هذه القصّة الّتي كانت تنطبق على بني أميّة، فهي كذلك

تنطبق على بني العباس:

إذ يقول ابن عبد ربّه في العقد الفريد:

سمر المنصور ذات ليلة، فذكر خلفاء بني أمّية وسيرهم وانّهم لم يزالوا على استقامة حتّى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترفين، وكانت همّتهم مع عظم شأن الملك وجلالة قدره، قصد الشهوات وإيثـار اللّذّات والدخول في معـاصي الله ومسـاخطه، جهلاً باستدراج الله وأمناً بمكره، فسلبهم الله العزّ ونقل عنهم النعمة.

فقال له صالح بن علي:

يا أمير المؤمنين! إن عبدالله بن مروان لمّا دخل النوبة هارباً فيمن تبعه، سأل ملكُ النوبة عنهم فأخبر.

فركب إلى عبدالله، فكلمه بكلام عجيب في هذا النحو لا أحفظه، وأزعجه عن بلده، فإن رأى أمير المؤمنين ان يدعو به من الحبس بحضرتنا في هذه اللّيلة ويسأل عن ذلك؟

فأمر المنصور بإحضاره، وسأله عن القصّة.

فقال:

يا أمير المؤمنين! قدمنا أرض النـوبة وقد خُبِّر الملك بأمرنا، فدخل عليَّ رجـل أقنى الأنف طوال حسن الوجه، فقعد على الأرض ولم يقرب الثياب.

فقلت: ما يمنعك ان تقعد على ثيابنا؟

قال: لأنّي ملك ويحق على الملك ان يتواضع لعظمة الله، إذ رفعه الله.

ثمّ قال:

لأي شيء تشربون الخمر وهي محرّمة عليكم؟

قلت: اجترأ على ذلك عبيدنا وغلماننا وأتباعنا، لأن الملك قد زال عنا.

قال: فلم تطئون الزروع بدوابكم والفساد محرم عليكم في كتابكم؟

قلت: يفعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم.

قال: فلم تلبسون الديباج والحرير وتستعملون الذهب والفضّة، وذلك محرم عليكم!

قلت: ذهب الملك عنا وقلّ أنصارنا، فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا، فلبسوا ذلك على الكره منا.

قال: فأطرق مليّاً وجعل يقلّب يده وينكث الأرض ويقول: عبيدنا وأتباعنا وقوم دخلوا في ديننا وزال الملك عنا، يردّد مراراً.

ثمّ قال:

ليس ذلك كذلك، بل أنتم قوم قد استحللتم ما حرّم الله، وركبتم ما نهاكم عنه وظلمتم من ملّكتم، فسلبكم الله العزّ وألبسكم الذلّ بذنوبكم، ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها بعد، وأخاف ان يحلّ بكم العذاب وأنتم ببلدي فيصيبني معكم، وانّما الضيافة ثلاثة أيّام، فتزوّدوا ما احتجتم وارتحلوا عن بلدي[1].



١ ـ العقد الفريد لابن عبد ربّه / ج ٣ / ص ٤٤٠ ـ ٤٤١.

ملحق رقم ـ ٢ ـ

ابن العلقمي

سوف يكون حديثنا عن الوزير ابن العلقمي في قسمين:

القسم الأوّل: في ترجمته الشخصيّة.

القسم الثاني: عن التهمة الموجهة إليه في (الخيانة).

* * *

القسم الأوّل:

لعلّ ابن العلقمي كان أحد الوزراء القلائل في النزاهة والأدب وكرم المحتد والشرف والدين والترفع عن أموال الناس وأموال الدولة.

فلم يذكر التاريخ عنه انّه كان يحضر مجالس اللهو والشراب والطرب والغناء والفسق والفجور، كما كان يفعل الآخرون.

ولربّما كانت هذه الصفات هي الّتي جعلته مكروهاً من قبل الأمراء، فهم انّما يريدون العمل في الدواوين ليتمتّعوا في ملاذ الدُّنيا وبهرجتها على عادة السلاطين وأعوان السلاطين ووعاظ السلاطين.

ولقد مارس أولئك جميع المنكرات حتّى بدت وكأنّها من مستلزمات الحياة العاديّة كالأكل والشرب، ليس فيها أي ضير.

أمّا هويّته الشخصية؟

فهو مؤيدالدين، عراقي، عربي، أسدي من النيل (قرب الحلّة).

قيل لجدِّه العلقمي لأنّه حفر النهر المعروف بهذا الاسم، وكان خاله عضدالدين أبو نصر المبارك بن الضحّاك، من المعدّلين بمدينة السّلام، رتّب ناظراً بديوان الجوالي،

وكتب في ديوان الانشاء، ونفذ رسولاً إلى صاحب الشام.

وعندما توفّي الخليفة العباسي الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله سنة ٦٢٢هـ كان هو المتولّي لأخذ البيعة للخليفة الجديد المستنصر بالله، وقد ظل في عهده استاذاً للدار حتّى وفاته سنة ٦٢٧هـ[١].

* * *

ويكاد يجمع المؤرّخون في الثناء على شخصية الوزير ابن العلقمي.

فقد وصفوه بالعقل والكفاية والوقار والنزاهة والعفة عن أموال الديوان والمعرفة بأدوات الرياسة[٢].

ويقول عنه سبط ابن الجوزي:

انّه كان رجلاً فاضلاً صالحاً قارئاً للقرآن[٣].

أمّا الملك الغسّاني فيقول عنه:

انّه كان عالماً فاضلاً أديباً، حسن المحاضرة، دمث الأخلاق، كريم الطِّباع، خيِّر النفس، كارهاً للظلم، خبيراً بتدبير الملك، لم يباشر قلع بيت ولا استيصال مال[٤].

واشتغل محمّد بن العلقمي في صباه بالأدب، ففاق فيه وسمع الحديث واشتغل في الحلة على عميد الرؤساء أيوب.

وعاد إلى بغداد وأقام عند خاله عضد الدين أستاذ الدار، الّذي عُرِفَ بالعلم والرياسة والتجربة لتخلقه بأخلاقه، واستنابه في ديوان الأبنية إلى أن توفّي، حيث انقطع ابن العلقمي ولزم داره.

---

١ ـ الحوادث الجامعة / ص ١٦.

٢ ـ طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي / ج ٥ / ص ١١٠، وتاريخ الدول الاسلاميّة لابن الطقطقي / ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨.

٣ ـ مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي / ج ٨ / قسم ٢ / ص ٧٤٧.

٤ ـ العسجد المسبوك للملك الغسّاني / ص ٦٤٠.

ولكن شمس الدين أبا الأزهر أحمد بن الناقد الّذي عين أستاذاً للدار بعد عضد الدين استدعاه إلى دار التشريفات وأمره بالتردّد إليها ومشاركة النواب بها.

وعندما عزل المستنصر بالله وزيره (ابن القمي) سنة ٦٢٩هـ، كان العلقمي مُشرفاً بدار التشريفات، فعيّن بعد قليل أستاذاً للدار مكان شمس الدين ابن الناقد الّذي عيّن للوزارة[١].

وعندما توفّي ابن الناقد سنة ٦٤٢هـ، عيّن ابن العلقمي مكانه، وظل يشغل منصب الوزارة حتّى سقوط بغداد ومقتل الخليفة عام ٦٥٦هـ[٢].

وقد عرف ابن العلقمي بحبّه للعلم والأدب ومعرفته باللّغة، وكانت له مقدرة على نظم الشعر وكتابة النثر الجيد الحسن.

وأنشأ لنفسه مكتبة في داره في ٦٤٦هـ، نقل إليها عدداً كبيراً من الكتب من أنواع العلوم، وصفها العدل موفق الدين القاسم بن أبي الحديد بأبيات أوّلها:

رأيت الخزانة قد زيّنت بكتب لها المنظر الهائل[٣]

وذكر علي ابن أخت الوزير المذكور، انّها كانت تشتمل على عشرة آلاف مجلّد من نفائس الكتب.

وقد صنّفت للوزير كتب، منها (العباب) الّذي وضعه الصغاني اللّغوي، وشرح نهج البلاغة لعزّ الدين عبدالحميد بن أبي الحديد[٤].

ويقول عنه صاحب الفخري:

... اشتغل في صباه بالأدب، ففاق فيه، وكتب خطاً مليحاً، وترسّل ترسلاً فصيحاً وضبط ضبطاً صحيحاً، وكان رجلاً فاضلاً كاملاً لبيباً كريماً وقوراً، رئيساً متمسكاً

---

١ ـ الحوادث الجامعة / ص ٣٥، وخلاصة المذهب المسبوك / ص ٢١١.

٢ ـ الغزو المغولي للأمين / ص ٩٠.

٣ ـ الحوادث الجامعة / ص ٢٠٩.

٤ ـ تاريخ الدول الاسلامية لابن الطقطقي / ص ٣٣٧.

بقوانين الرياسة، خبيراً بأدوات السياسة... وكان مؤيد الدين الوزير عفيفاً عن أموال الديوان وأموال الرعية، متنزهاً مترفعاً.

قيل ان بدر الدين صاحب الموصل أهدى إليه هدية تشتمل على كتب ولطائف قيمتها عشرة آلاف دينار، فلمّا وصلت إلى الوزير حملها إلى خدمة الخليفة وقال:

ان صاحب الموصل قد أهدى لي هذا، واستحييت منه أن أردّه إليه، وقد حملته وأنا أسأل قبوله، فقبل.

ثمّ انّه أهدى إلى بدر الدين عوض هديته شيئاً من لطائف بغداد قيمته اثنا عشر ألف دينار، والتمس منه إلّا يهدي إليه شيئاً بعد ذلك[1].

❊ ❊ ❊

وفي عام ٦٤٣هـ، حَدَثَ أن سليمان بن برجم أحد أمراء بغداد تحرّش بالتتار، وقتل جماعة منهم، ممّا شجع التتار على الهجوم على بغداد.

وقد ذكر ابن أبي الحديد هذه الحادثة، ثمّ ذكر مجيء التتر إلى بغداد واندحارهم من قبل جيش الخليفة المستعصم.

فنظم ابن أبي الحديد قصيدة أرسلها إلى ابن العلقمي، حيث كان النصر بتدبيره وكفاءته، ومطلعها:

أبقى لنا الله الوزير وحاطه بكتائب من نصره ومقانب[2]

وقد ذكرناها فيما سبق، فلا داعي لاعادتها.

❊ ❊ ❊

وفي السابع والعشرين من شوّال ٦٤٦هـ، زادت دجلة زيادة عظيمة، وأغرقت بالجانب الغربي الدور والدكاكين والمساكن والحمامات، وتلف بها من الأمتعة والأقمشة

---

١ ـ تاريخ الدول الاسلاميّة لابن الطقطقي / ص ٣٣٨.

٢ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ج ٨/ ص ٢٤٢.

والغلّات شيء كثير، ونبع الماء من أساس المدرسة المستنصرية، وامتنع الناس من الجواز[1] هناك.

وخرج الدواتدار بنفسه ومماليكه، فعمل على داره حائطاً منع الماء من الخروج والإحاطة بداره وغيرها.

وأمر الخليفة على نائب المخزن بملازمة (القورج)[2] وإحكامه، وأطلق من الديوان ذهب لإقامة الرِّجال ولزوم العمل ليلاً ونهاراً.

وخرج الوزير في غرّة ذي القعدة مسرعاً قاصداً للقورج وتتابع خروج الناس في أثره ونزل عن مركوبه وحمل باقة حطب وسار إلى آخر القورج ونبّه الناس على المواضع المستضعفة.

ونقص الماء في ذلك اليوم أربع أصابع، فأنشد عليّ بن الوكيل:

أقسمتُ يا أيُّها المولى الوزير لقد ... حاط الرّعيّة طرف منك يقظان
من ماء دجلة لما أن طغى وعنت له ... الهضاب وخافت منه بغدان
عرا زيادَتَه لما برزتَ له ... من خوف عزمتك الغراء نقصان
لو كنت في عصر نوح ما ألمّ به ... في الأرض ـ ياخير أهل الأرض ـ طوفان
أو كان ذا الماء سلطان يراع به ... فأنتَ فينا على السلطان سلطان[3]

وفي شهر ربيع الآخر ٦٤٦هـ، أنعم المستعصم على الوزير ابن العلقمي بدواة فضّة مذهّبة مدوّرة مثمّنة بديعة الصنعة جميلة الوضع.

فقال بعض الشعراء:

زاد إمام العصر ديوانه ... زيادة فيها تقر العيون

---

١ ـ من الجواز بمعنى من السير.

٢ ـ القورج بمعنى المسنّاة.

٣ ـ العسجد المسبوك / ص ٥٦٥.

أعـــطى دواة للـوزير الّـذي بــفضله يــعترف العــالمون
وانها نون كذا قد أتى القـرآن إذ أقـــسم فـــيه بــنون
وجــوده يــقضي بـتكميلها بالقلم الجاري وما يسـطرون
حتّى يقول النـاس في فـضله لمثل هذا يعمل العــاملون[١]

* * *

وفي يوم الأحد سادس شهر ربيع الآخر ٦٥٠هـ، استدعي الجلال (كشلو خان) ابن الأمير مجاهدالدين ايبك الدواتدار إلى دار الوزير، وشرّفه بـالإمارة[٢] وخـلع عليه قباءً أطلس بقطي وشربوش كبير شاهي وأعطي فرساً بمركب ذهباً وغاشية حمراء وركانه.

ورُفع وراءه سيفان أحضرا من المخزن سوى ما أحضر له من دار أبيه من السيوف والدرباشات.

وتوجّه إلى دارهم في جمع عظيم ونثر عليه ذهب في عدّة مواضع، وكان عـمره يومئذٍ تسع سنين[٣].

* * *

كان ذلك باختصار عن شخصية ابن العلقمي، اقتطفناه من أقوال بعض المؤرّخين، وقد قلنا انّهم يكادون يجمعون على أدبه وعلمه وأخلاقه...

ووجدناه من عائلة عراقيّة عريقة بالمجد والشرف، تقلّبت في دواوين الخلفاء، كما كان خاله عضد الدين استاذ الدار ورسولاً إلى صاحب الشام من قبل الخليفة.

والقصّة الّتي رويناها عن الهدية الّتي بعثها إليه بدر الدين لؤلؤ صاحب المـوصل

---

١ ـ العسجد المسبوك للملك الغسّاني / ص ٥٦٢.
٢ ـ بمعنى أضفى عليه لقب الأمير.
٣ ـ العسجد المسبوك / ص ٥٨٧.

تُنبئ عن خلق عالٍ وترفع عن أموال الناس والدولة.

فعمّال الخلفاء والوزراء يثرون ويكتزون الذهب والفضّة ممّا يُهدىٰ إليهم وممّا يبتزّون به الأمّة ظُلماً وعدواناً، في حين نرى ان ابن العلقمي يأخذها من بدر الدين على استحياء، ويقدمها للخليفة ترفعاً، وليجعل كل شيء يجري تحت نظره، الّذي هو سيّده وصاحب النعمة الّتي أولاه بها.

ثمّ نراه يلتمس من بدر الدين ألّا يهدي إليه شيئاً بعد ذلك، وهذا إن دلّ على شيء، فانّما يدل على إيثار وإباء في منتهى القمة.

ونحن لانشكّ أنّ المكتبة الضخمة الّتي كان يمتلكها، كانت من أمواله الخاصّة، فهو كما يبدو كان من عائلة ذات ثراء، حيث حفر جده نهر العلقمي.

* * *

ويوم زادت دجلة وأغرقت بغداد، ظهرت ثلاثة أسماء:

١ ـ الخليفة ـ بذل الأموال لإصلاح المسنّاة.

٢ ـ الدواتدار ـ اهتمّ بداره، فعمل على داره حائطاً لمنع الماء.

٣ ـ والوزير ابن العلقمي ـ الّذي كان رجل المواقف الحاسمة، فقد خرج مسرعاً يحمل باقة من حطب، ورآه الناس فتتابعوا في الخروج في أثره، ونبهّهم على المواضع المستضعفة من المسناة.

فتدافع الناس ليعملوا مثله حتّى احكموا السداد، ونقصت دجلة في ذلك اليوم أربعة أصابع.

فالدواتدار يهتم بنفسه فقط، في حين كان عليه ان يوجه جنده إلى مبادرة سريعة لإنقاذ بغداد، ولكنّه كان يخشى ان تتخرّب دوره، ولا يخشى على خراب بغداد.

ولعل ذلك ناشئ من انّ (الدواتدار) لا يشعر بالمواطنة فهو شركسي كان مملوكاً، ثمّ أصبح قائداً للجيش.

ولقد وجدناه في أحلك الساعات، عندما يحمي وطيس الحرب يحاول الهروب بثلاث سفن وفيها الجواهر الّتي يمتلكها ـ وهو أمير الجيش.

* * *

والهجوم الّذي قام به التتار عام ٦٤٣، وتعبئة الجند وصدّ العدوان، كان دليلاً آخر على حرص الوزير على سلامة البلد، مع انّه شخص إداري، والأمور العسكريّة كانت بيد الدواتدار.

علماً بأنّ الدواتدار كان موجوداً آنذاك، وهو الّذي اختار المستعصم للخلافة لضعفه وانقياده، ورفض تعيين الخفاجي لأنّه كان شهماً نبيلاً قويّاً.

وكان مدبر أمر الدولة والوزارة في ذلك الوقت هو ابن العلقمي، ولم يحضر الحرب، بل كان ملازماً للخلافة بالحضرة، لكنّه كان يمدّ العسكر من آرائه وتدابيره ممّا ينتهون إليه ويقفون عنده.

فحملت التتار على عسكر بغداد حملات متتابعة ظنوا ان واحدة منها تهزمهم لأنّهم اعتادوا أن لا يقف عسكر من العساكر بين أيديهم، وانّ الرُّعب والخوف منهم يكفي ويغني عن مباشرتهم الحرب بأنفسهم.

فثبت لهم عسكر بغداد وأحسن الثبوت ورشقوهم بالسهام ورشقت التتار أيضاً بسهامها وأنزل الله سكينته على عسكر بغداد، وأنزل بعد السكينة نصره، فما زال العسكر البغدادي تظهر عليه إمارات القوّة وتظهر على التتار إمارات الضعف والخذلان إلى أن حجز اللّيل بين الفريقين، ولم يصطدم الفيلقان، وانّما كانت مناوشات وحملات خفيفة لا تقتضي الاتصال والممازجة ورشق بالنشاب شديد.

فلمّا أظلم اللّيل أوقد التتار نيراناً عظيمة ووهموا انّهم مقيمون عندها وارتحلوا في اللّيل راجعين إلى جهة بلادهم، فأصبح العسكر البغدادي فلم ير منهم عين ولا أثر.

وما زالوا يوطئون المنازل ويقطعون القرى عائدين حتّى دخلوا (الدربند) ولحقوا ببلادهم.

ويقول ابن أبي الحديد:

«كتبت إلى مؤيدالدين الوزير عقب هذه الوقعة الّتي نصر فيها الاسلام ورجع التتر مخذولين ناكصين على أعقابهم أبياتاً أنسب فيها الفتح وأشير إلى انّه هو الّذي قام بذلك وإن لم يكن حاضراً بنفسه...

وقد ذكرنا القصيدة سابقاً.

أمّا الاحتفال عام ٦٥٠هـ، فهو يدلّ على انّ ابن العلقمي لم يكن أنانياً، ولم يضمر سوء للدواتدار.

ولقد مرّ بنا انّ العلاقات ساءت بينهما وتشنّجت عام ٦٥٣هـ عندما أراد الدواتدار أن يعزل المستعصم ويبايع لولده الأكبر، فأحبط الوزير هذه المؤامرة.

* * *

القسم الثاني ـ تهمة الخيانة:

رأينا فيما تقدّم انّ (الإمام العالم الكبير) قاضي قضاة المسلمين شمس الدين القزويني كان يحرّض المغول على العالم الاسلامي، تعصّباً منه على الإسماعيليين وانتقاماً لوجودهم سالمين في قلاعهم الحصينة.

ولكن المؤرِّخين ينسون هذا ولا يقفون عنده، في حين انّه جدير بالتوقف الطويل، وخليق بأن يركّز عليه كلّما كتب كاتب عن المغول، فليس أفضع في تأريخ الأمّة الاسلاميّة من أن يكون إمام المسلمين وقاضي قضاتهم هو المحرِّض للمغول.

وليس من خيانة في تاريخ الاسلام تعدل هذه الخيانة ولا من جريمة فيه تقاس بهذه الجريمة من حيث موضوعها، مضافاً إلى شخصية صاحبها وصفته الدينية.

ومع هذا يمرّون بها مرور الكرام ولا يتعرّض لها متعرِّض ويتمسّكون بابن العلقمي تمسّكاً عجيباً ويهيمون في تمسّكهم بالاختلاق والاختراع.

يقول الدكتور جعفر خصباك في كتابه[1]:

---

١ ـ العراق في عهد المغول للدكتور جعفر خصباك، الملوك الإيلخانيين / ص ١٢ وما بعدها.

وجّه كثير من المؤرّخين المسلمين إلى الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي تهمة في غاية الخطورة، خلاصتها انّه خان سيّده الخليفة المستعصم بالله ودينه الاسلام وجلب على قومه القتل والذلّ والخراب، بمكاتبة هولاكو طاغية التتار وإطماعه بفتح العراق، بل دعوته لذلك وتهيئة الأمور له بأساليب متعدِّدة، منها اشارته على الخليفة بتسريح أكثر جنوده وتشجيعه على عدم انفاق المال في سبيل الاستعداد العسكري، وتهوين أمر المغول أمامه، ودعوته للخروج لمواجهة هولاكو حينما أحاط هذا ببغداد وللتغرير به بحجة حضور عقد نكاح ابنة هولاكو لابن الخليفة.

وسبب ذلك انّ الوزير كان شيعياً رافضياً وانّه كان يريد الانتقام من أهل السنّة خصوصاً طائفة من مستشاري الخليفة كابنه أبي بكر وقائد عسكره مجاهد الدين الدواتدار الصغير لأنّهم اوقعوا بمحلّة الكرخ الشيعية سنة ٦٥٤هـ وقتلوا العدد من أهلها وسبوا نساءها ونهبوا دورها وكان في المحلة أقارب للوزير.

أقوال المتّهمين (اسم فاعل)

قال أبو شامة شهاب الدين عبدالرّحمان بن إسماعيل المتوفّى سنة ٦٦٥هـ عن حوادث سنة ٦٥٦هـ، انّ التتار استولوا على بغداد بمكيدة دبّرت مع وزير الخليفة[١].

وأعاد قطب الدين اليونيني البلعبكي المتوفى سنة ٧٢٦هـ نفس العبارة ثمّ أضاف إليها قوله:

انّ هولاكو تهيّأ في سنة أربع وخمسين وستمائة لقصد العراق.

وسبب ذلك أنّ مؤيدالدين بن العلقمي وزير الخليفة كان رافضيّاً وأهل الكرخ روافض، وفيه جماعة من الأشراف، والفتن لا تزال بينهم وأهل باب البصرة فاتفق انّه وقع بين الفريقين محاربة، فشكا أهل باب البصرة وهم سنية إلى الدواتدار والأمير أبي بكر ابن الخليفة فتقدّما إلى الجند بنهب الكرخ، فهجموا ونهبوا وقتلوا وارتكبو

---

١ ـ تراجم رجال القرنين السادس والسابع / ص١٩٨.

العظائم، فشكا أهل الكرخ ذلك إلى الوزير، فأمرهم بالكف والتغاضي، وأضمر[١] هذا الأمر في نفسه، وحصل بسبب ذلك عنده الضغن على الخليفة.

ويضيف اليونيني:

وكاتب الوزيرُ ابنُ العلقمي التتر وأطمعهم في البلاد وأرسل إليهم غلامه وأخاه بذلك، وأخذوا في التجهيز لقصد العراق، وكاتبوا بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل في أن يسيّر إليهم ما يطلبونه من آلات الحرب، فسيّر إليهم ذلك.

ولمّا تحقق قصدهم على انّهم إن ملكوا العراق لا يبقون عليه (أي علم بدر الدين بذلك) فكاتب الخليفة سرّاً في التحذير منهم وانّه يعدّ لحربهم، فكان الوزير لا يوصل رسله إلى الخليفة، ومن وصل إلى الخليفة منهم بغير علم الوزير، أطلع الخليفة وزيره، على أمره.

ثمّ يمضي اليونيني فيصف تقدم جيش هولاكو إلى بغداد وهزيمته العسكريّة وإحاطته بها.

ويعود فيقول:

فحينئذٍ أشار ابن العلقمي الوزير على الخليفة بمصانعة ملك التتر ومصالحته وسأله ان يخرج إليه في تقرير ابنته من ابنك الأمير أبي بكر ويبقيك في منصب الخلافة كما أبقى سلطان الروم في سلطة الروم، لا يؤثر إلّا أن تكون الطاعة له كما كان أجدادك مع السلاطين السلجوقية وينصرف بعساكره عنك، فتجيبه إلى هذا، فانّ فيه حقن دماء المسلمين، ويمكن بعد ذلك أن تفعل ما تريد.

---

١ ـ الوزير هنا حسب رأي اليونيني اتّخذ موقفين:

أ ـ أمر أهل الكرخ بالكفّ والتغاضي، وهو أمر جليل جدّاً يقصد به القضاء على الفتنة، ولو فعل الوزير كما فعل ابن الخليفة وقائد العسكر الدواتدار لحصلت معارك كبيرة لا يعرف مداها إلّا الله.

ب ـ انّه أضمر (الخيانة) وهو أمر كما يقول عنه (نيّة في القلب) فكيف عرف اليونيني هذه النيّة وهي مضمرة؟

فحسّن له الخروج إليه، فخرج في جمع من أكابر الصحابة، فأنزل في خيمة ثمّ دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأماثل ليحضروا عقد النكاح فيما أظهره، فخرجوا فقتلوا.

وكذلك صار يخرج طائفة بعد طائفة[1].

وقال شمس الدين الذهبي المتوفّى سنة ٧٤٨هـ في كلامه عن وقائع سنة ٦٤٨هـ ما يأتي:

وأمّا بغداد فضعف دست الخلافة وقطعوا أخبار الجند الّذين استنجدهم المستنصر وانقطع ركب العراق.

كل ذلك من عمل الوزير ابن العلقمي الرافضي، جهد في أن يزيل دولة بني العباس ويقيم علوياً، وأخذ يكاتب التتار ويراسلونه، والخليفة غافل لا يطلع على الأمور ولا له حرص على المصلحة[2].

وقال عبدالله بن فضل الشيرازي الّذي ألّف كتابه حوالي ٧٢٩هـ، ما معناه أنّ الخليفة المستعصم بالله كان منصرفاً إلى الرّاحة واللّهو، وكان وزيره ابن العلقمي مستبداً بالأمور حتّى انّه لم يكن يحترم المقرّبين إلى الخليفة ولا يظهر تأدّباً في مخاطبته إيّاهم[3].

وقد تغيّرت نيّته إزاء الخليفة بسبب واقعة الكرخ لأن ابن الخليفة أرسل جنوداً أغاروا عليها وأسّروا البنين والبنات وبينهم العلويات، فبعث ابن العلقمي لذلك رسالة إلى تاج الدين محمّد بن نصر الحسيني أحد سادات العصر.

وعندما فرغ البادشاه هولاكو سنة ٦٥٤هـ من فتح قلاع الملاحدة، وأرسل

---

١ ـ ذيل مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي / ج ١ / ص ٨٥ ـ ٨٩.

٢ ـ دول الاسلام / ج ٢ / ص ١١٨.

٣ ـ لقد مرّ بنا انّ الدواتدار هو الّذي كان مسيطراً على الخليفة، وهو الّذي نصبه للخلافة للينه وانقياده وكان يحتقر كل انسان.

بالرسل يبشرون بالنصر في المشارق والمغارب، أرسل ابن العلقمي في الخفاء رسولاً إلى هولاكو أظهر الإخلاص والطاعة وزين مملكته بغداد في خاطره وذمّ الخليفة.

وقال لهولاكو: أنّه إذا توجّه بسرعة فسوف تسلم له مملكة بغداد، ولكن هذا لم يعتمد على قوله لأن حصانة بغداد وكثرة جنودها كانت أمراً مشهوراً في الأقاليم السبعة[1] وكان ملك العالم (أوكتاي) في أوّل جلوسه على العرش قد أرسل القائد (جرماغون) بجيش فتاك، فهزم من قبل الخليفة المستنصر بالله.

ولذلك فانّ البادشاه طلب من رسول ابن العلقمي ما يؤكد صحّة أقواله ليطمئن بذلك خاطره الشريف.

وعندما زحفت جيوش هولاكو على بغداد واطمأنّ ابن العلقمي لنجاح مكيدته، قال للخليفة:

إنّ الجمّ الغفير من سلاطين وملوك الأطراف أظهروا ولله الحمد إخلاصهم وطاعتهم، وسمعة الخليفة كبيرة وحكمه نافذ وماله كثير، فمن الخير توفير أموال الخزينة وعدم صرفها على الجند.

فكان الخليفة منصرفاً لسماع الأغاني والاجتماع بالجواري والمغنيات.

وابن العلقمي يفرق الكلمة ويشرّد جميع الأفراد وينفر الجنود، في الوقت الّذي

---

١ ـ حصانة بغداد وكثرة جنودها... كلام أشبه ما يكون بالهراء. متى كان ذلك؟ هل كان أيّام البويهيين أم أيّام السلاجقة؟ وقد سلب الجميع كل سلطات الخليفة ـ إذا كانت قد بقيت له سلطات ـ واستقلّوا بالأمر وتقضّمت حدود الدولة العباسية منذ مدّة طويلة، ولم يبق للخليفة إلّا بغداد.

وقد رأينا فيما سبق أنّ (إربل) عندما رجعت إلى حكم الخليفة، أعلنت البشائر في بغداد، فكأنّما هو فتح عظيم.

والخلفاء وجدناهم مستضعفين إلى حدّ رضّ الخصيتين والصفع في الظهور والبصاق في الوجوه... وقد ملأ الخافقين والأقاليم السبعة ذلك، لا ما يقوله هذا المؤرّخ الّذي كان واعظاً من نقابة وعّاظ السلاطين، وهم كثيرون، فيما سبق من التاريخ وفيما لحق وسوف يبقون إلى يوم يبعثون.

انتشرت فيه أخبار جيش المغول.

وكان الشرابي[١] والدواتدار يحذّرون الخليفة منه، وابن العلقمي يسخّف أقوالهم[٢].

وقال ابن شاكر الكتبي المتوفّىٰ سنة ٧٦٤هـ في كلامه عن الوزير ابن العلقمي:

ولم يزل ناصحاً لأصحابه وأستاذه حتّى وقع بينه وبين الدواتدار، لأنّه كان متغالياً في السنة وعنده ابن الخليفة.

فحصل عنده من الضغن ما أوجب سعيه في دمار الاسلام وخراب بغداد على ما هو مشهور، لأنّه ضعف جانبه وقويت شوكة التتار بحاشية الخليفة، وأخذ يكاتب التتار إلى أن جرّأ هولاكو وجرّه على أخذ بغداد[٣].

وقال عنه أيضاً:

وحكي انّه لمّا كان يكاتب التتار تخيّل انّه أخذ رجلاً وحلق رأسه حلقاً بليغاً وكتب ما أراد عليه بالأبر ونفض عليه الكحل وتركه عنده إلى إن طلع عليه شعره وغطّى ما كتبه، فجهّزه.

وقال:

إذا وصلت أؤمرهم بحلق رأسك ودعهم يقرأون ما فيه، وكان في آخر الكلام «اقطعوا الورقة» فضربت عنقه، وهذا في غاية المكر والخزي[٤].

وقال تاج الدين السبكي المتوفّىٰ سنة ٧٧١هـ:

أنّه لمّا توفّي المستنصر بالله، كان أكبر الأمراء وأعظمهم الدواتدار والشرابي وهم

---

١ ـ مات الشرابي عام ٦٥٣هـ، في حين انّهم يقولون انّ ابن العلقمي اتصل بهولاكو بعد سقوط قلاع الإسماعيليين، أي بعد عام ٦٥٤هـ، فكيف تصح هذه الرواية؟

٢ ـ تاريخ وصاف الحضرة (طبعة الهند) / ج ١ / ص ٢٧ و ٣٨.

٣ ـ فوات الوفيات / ج ٢ / ص ٣١٣.

٤ ـ المصدر السابق / ص ٣١٥.

الّذين أقّروا المستعصم لضعفه ولينه وأقاموه واستوزروا ابن العلقمي (وكان فاضلاً أديباً) وكان شيعيّاً رافضيّاً، في قلبه غلّ[1] على الاسلام وأهله، وحبّب إلى الخليفة جمع المال والتقليل من العساكر، فصار الجنود يطلبون من يستخدمهم في حمل القاذورات.

ثمّ كرّر الكاتب المذكور رواية مكاتبة ابن العلقمي للتتار، وعزا ذلك إلى رغبته في الانتقام من الأمير أبي بكر ابن الخليفة والدواتدار قائد الخليفة، لأنّهما أوقعا بالكرخ.

ووصف طريقة مكاتبة التتار بما يأتي:

«انّه حلق رأس شخص وكتب عليه بالسواد وعمل على ذلك وأصار المكتوب كل حرف كالحفرة في الرأس، ثمّ تركه عنده حتّى طلع شعره وأرسله إليهم.

وأضاف السبكي إلى ذلك قوله:

إنّ الوزير كتب إلى نائب الخليفة في أربيل (تاج الدين محمّد بن صلايا) وهو شيعي أيضاً رسالة يقول فيها: (نهب الكرخ المكرّم والعترة النبويّة) وحسن التمثيل بقول الشاعر:

أمور تضحك السفهاء منها ويبكي من عواقبها اللبيب

فلهم أسوة بالحسين حين نهب حريمه واريق دمه:

أمرتهم أمري بمنعرج اللّوى فلم يستبينوا الرشد إلّا ضُحى الغد

وقد عزموا ـ لا أتمّ الله عزمهم ولا أنفذ أمرهم ـ على نهب الحلّة والنيل، بل سوّلت لهم أنفسهم أمراً فصبر جميل، والخادم قد أسلف الإنذار وعجّل الاعتذار.

---

١ ـ يبدو من كلام السبكي انّه حاقد على الشيعة لدرجة لا يعتبرهم من طائفة المسلمين، حيث يقول عن ابن العلقمي (في قلبه غل على الاسلام) فكأنّ الشيعة فرقة أخرى من غير المسلمين، ولعلّ ابن المستعصم والدواتدار كانا بهذه العقلية في هجومهم على الكرخ واستباحوا النّساء وأسّروهنّ، وإذا كان المؤرّخون بهذه العقلية فلا يؤتمنون على منقولاتهم، وتلك مصيبة المسلمين في مؤرّخيها الّذين شوّهوا الحقائق وأضافوا للوقائع ما لم يكن فيها.

فكان جوابي بعد خطابي لا بدّ من الشنيعة بعد قتل جميع الشيعة، ومن أحرق كتاب الوسيلة والذريعة، فكن لما تقول سميعا وإلّا جرّعناك الحمام[1].

ولآتينّهم بجنود لا قبل لهم بها ولأخرجنّهم منها أذلّة وهم صاغرون.

ووديعة منّي لآل محمّد أودعتها إذ كنت من أمنائها

فاذا رأيت الكوكبين تقاربا في الجدي عند صباحها ومسائها

فهناك يؤخذ ثأر آل محمّد لطلابها بالترك من أعدائها

فكن لهذا الأمر بالمرصاد وترقب أوّل النحل وآخر الصاد[2].

* * *

وقال عبدالرّحمان بن محمّد بن خلدون المتوفّىٰ سنة ٨٠٨هـ:

إنّ هولاكو لمّا رجع إلى بلاد الإسماعيلية وقصد قلعة (ألموت) بلغته في طريقه وصيّة من ابن العلقمي وزير المستعصم ببغداد في كتاب ابن الصلايا صاحب أربيل يستحثّه للمسير إلى بغداد ويسهل عليه أمرها، لما كان ابن العلقمي رافضياً هو وأهل محلّته بالكرخ، وتعصّب عليه أهل السنّة وتمسّكوا بابن الخليفة والدواتدار يظاهرونهم، وأوقعوا بأهل الكرخ، وغضب ابن العلقمي ودسّ إلى ابن الصلايا بأربيل، وكان

---

١ ـ كلّ المؤرّخين يقولون ان ابن العلقمي كان أديباً فاضلاً يحسن الشعر والنثر... وهو في هذه الرسالة المدّعاة عليه يخبر ابن صلايا صاحب أربيل ويستنهضه ويستنصره، ولكن ما معنى أن يقول له: فكن لما تقول سميعاً وإلّا جرعناك الحمام؟ وهل ينسجم هذا الكلام مع الاستنهاض والاستنصار؟

ثمّ ما معنى هذا الكلام (ولآتينهم بجنود لا قبل لهم بها) ومتى كان له جنود؟ والجيش كلّه بيد الدواتدار.

اضافة إلى انّ الخليفة حسبما ينقل كلّ المؤرّخين كان قد اسقط الجند، إمّا نتيجة لإشارة ابن العلقمي كما يقول مناوؤه وامّا لأنّ الخليفة كان بخيلاً. اضافة إلى انّ مفردات هذه الرّسالة تبدو وكأنّها (رقية من العقرب).

٢ ـ طبقات الشافعية الكبرى للسبكي / ج ٥ / ص ١٠٩ ـ ١١٢.

صديقاً له بأن يستحث التتر لملك بغداد، وأسقط عامّة الجند[١].

* * *

وعندما نصل إلى أواخر القرن العاشر الهجري نجد أن قصّة سقوط بغداد وخيانة الوزير ابن العلقمي تتسع إلى حدٍّ غير معقول، وتختلط بأقاصيص غريبة على يد الشيخ حسن الديار بكري المتوفّىٰ سنة ٩٩٠هـ، حيث كتب يقول:

انّ الوزير ابن العلقمي الرّافضي كان قد كتب إلى هولاكو ملك التتار في الدست انّك تحضر إلى بغداد وأنا أسلمها لك.

وكان قد داخل قلب اللعين الكفر.

فكتب هولاكو: انّ عساكر بغداد كثيرة فان كنت صادقاً فيما قلته وداخلاً في طاعتنا، فرّق عساكر بغداد ونحن نحضر.

فلمّا وصل كتابه إلى الوزير ودخل إلى المستعصم وقال:

إنّ جندك كثيرة وعليك كلفة كبيرة، والعدو قد رجع من بلاد العجم، والصواب ان تعطي دستوراً لخمسة عشر ألف من عسكرك وتوفر معلومهم.

فأجاب المستعصم لذلك.

فخرج الوزير لوقته ومحا اسم من ذكره من الديوان، ثمّ نفاهم من بغداد ومنعهم من الإقامة بها.

ثمّ بعد شهر فعل مثل فعلته الأولى، ومحا اسم عشرين ألفاً من الديوان.

ثمّ كتب إلى هولاكو بما فعل.

وكان قصد الوزير بمجيء هولاكو أشياء:

منها انّه كان رافضيّاً خبيثاً وأراد أن ينقل الخلافة من بني العباس إلى العلويين،

---

١ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر / ج ٥ / ص ١١٤٩.

فلم يتم له ذلك من عظم شوكة بني العباس وعساكرهم، ففكّر ان هولاكو قد يقتل المستعصم واتباعه، ثمّ يعود لحال سبيله وقد زالت شوكة بني العباس وقد بقي هو على ما كان عليه من العظمة والعساكر وتدبير المملكة، فيقوم عند ذلك بدعوة العلويين الرّافضة من غير ممانع لضعف العساكر ولقوته، ثمّ يضع السيف في أهل السنة.

فهكذا كان قصده لعنه الله.

ولمّا بلغ هولاكو ما فعل الوزير ببغداد، ركب وقصدها إلى ان نزل عليها، وصار المستعصم يستدعي العساكر ويتجهز لحرب هولاكو، وقد اجتمع أهل بغداد وتحالفوا على قتال هولاكو، وخرجوا إلى ظاهر بغداد، ومضى عليهم بعساكره فقاتلوا قتالاً شديداً، وصبر كل من الطائفتين صبراً عظيماً وكثرت الجراحات والقتلى في الفريقين إلى أن نصر الله تعالى عساكر بغداد وانكسر هولاكو أقبح كسرة.

وساق المسلمون خلفهم وأسروا منهم جماعة وعادوا بالأسرى ورؤوس القتلى إلى ظاهر بغداد ونزلوا بخيمهم مطمئنين بهروب العدوّ.

فأرسل الوزير ابن العلقمي في تلك اللّيلة جماعة من أصحابه فقطعوا شط دجلة فخرج ماؤها على عساكر بغداد وهم نائمون، فغرقت مواشيهم وخيامهم وأموالهم وصار السعيد منهم من لقي فرساً يركبها.

وكان الوزير قد أرسل إلى هولاكو يعرّفه بما فعل ويأمره بالرجوع إلى بغداد، فرجعت عساكره على بغداد وبذلوا فيها السيف[١].

وأضاف هذا الكاتب رواية جديدة عن مصير ابن العلقمي بقوله (فلم يلبث أن أمسكه هولاكو بعد قتل المستعصم بأيّام ووبّخه بألفاظ شنيعة معناها إنّه إن لم يكن له خير في مخدومه ولا دينه، فكيف يكون له خير في هولاكو، ثمّ انّه قتله شرّ قتله)[٢].

---

١ ـ تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس للشيخ حسن الدياربكري / ج ٢ / ص ٤٢٠ ـ ٤٢١.
٢ ـ المصدر السابق / ص ٤٢١.

كانت تلك خلاصة النصوص الّتي وردت باتهام الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي، ومثل هذه التهم ليست غريبة في أيّام المحن العامّة والكوارث الخطيرة.

وقد كان سقوط بغداد بأيدي المغول الوثنيين وقتلهم خليفة المسلمين حدثاً عظيماً هزّ العالم الاسلامي وترك جرحاً عميقاً في قلوب المسلمين جعلهم يفتّشون عمن كان السبب فيه.

وكان الوزير شيعياً، في وقت كان للدين سيطرة عظيمة على النفوس، والمنازعات الطائفية شديدة في بغداد.

وكان الوزير يحتل اسميّاً المنصب الثاني في دولة الخلافة، وأعداؤه يتربّصون به الدوائر، والأموال العامّة في تدهور، والمغول يطرقون أبواب البلاد دون ان يكون أمامهم استعداد عسكري واضح، وقد قتل الخليفة واستُبيحت بغداد، أمّا الوزير فلم يقتل، بل انّه كان أحد جماعة عهد إليهم إعادة تنظيم إدارة العراق، فلم لا توجّه إليه التّهمة؟

* * *

أدلّتنا في تبرئة ابن العلقمي من الخيانة

وقد أدّت بنا دراساتنا للتهمة الموجّهة للوزير ابن العلقمي بعد قراءة المصادر الّتي أوردناها، وتفهم طبيعة الغزو المغولي منذ بدايته وأحوال العراق والعالم الاسلامي المعاصر إلى رفضها، بناء على الأسباب التالية:

أوّلاً:

إنّ التّهمة تحدِّد البداية التأريخيّة لخيانة ابن العلقمي بمراسلته هولاكو بعد استباحة محلّة الكرخ الشيعية سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م، خصوصاً بعد فراغ الفاتح المذكور من فتح قلاع الإسماعيليّة أو خلال محاصرته لها في السنة المشار إليها.

ولكن الحقيقيّة هي غير ذلك.

لأنّ هولاكو كان يسير إلى غزو العراق قبل هذا التاريخ ببضعة سنين، وانّه كان يعمل طبقاً لأوامر عُليا صدرت إليه قبل وصوله بلاد الإسماعيلية، أي قبل وقوع حادثة الكرخ.

ولعلّ الأمر يتّضح بدراسة النقاط التالية:

أ ـ كان غزو العراق أمراً تتضمّنه طبيعة الغزو المغولي الّذي كان يستهدف السيطرة على العالم، وقد استولى المغول فعلاً على أكثر الصين وأواسط آسيا وإيران وأوربا الشرقية، وبقيت بلاد الإسماعيلية والعراق وسورية ومصر جيباً جغرافياً وعسكرياً، كان لا بدّ من الاستيلاء عليه، وهذا ما قام به هولاكو.

وإذا كان العراق قد سقط بأيدي المغول نتيجة لخيانة وزيره ابن العلقمي، فكيف نفسّر سقوط كل هذه البلاد الممتدة من المحيط الهادي إلى أواسط أوربا؟

ومَن هم الخونة الّذين سلّموها إلى الأعداء؟

ثمّ كيف نفسّر احتلال هولاكو لسورية واستعداده للزحف على مصر؟

ب ـ ربمّا تلقي ضوءً على رغبة المغول في ضمّ العراق إلى منطقة نفوذهم قبل سنين عديدة من استيلائهم الفعلي عليه، المقابلةُ الّتي جرت بين الامبراطور (كيوك خان) بمناسبة تنصيبه على العرش المغولي سنة ٦٤٤هـ / ١٢٣٦م ورسول الخليفة، حيث هدّد الخانُ ذلك الرسول موعداً ومنذراً، وقد ذكرناها سابقاً.

ج ـ إنّ زحف هولاكو على العراق واحتلاله إيّاه، انّما تمّ بناء على أوامر عُليا أصدرها امبراطور المغول (مانغوخان) سنة ٦٥١هـ / ١٢٥٣م بفتح البلاد الغربية الّتي ضمنها العراق وسورية ومصر.

يؤيّد ذلك التقرير الّذي رفعه (جانغته) الّذي أرسله (مانغوخان) إلى أخيه هولاكو، ودوّنه أحد الصينيين المسمّىٰ (ليو) المتصلين بالسفير المذكور، وما ورد في كتاب التاريخ الصيني للأسرة المغولية الّتي حكمت الصين، والّذي أمر بوضعه أحد أباطرة الصين، وتمّ إعداده سنة ٧٧٢هـ / ١٢٧٠م.

وقد ورد في كلا المصـدرين أنّ (مانغوخان) أمر أخاه هولاكو سـنة ٦٥١هـ / ١٢٥٣م بالزّحف لاحتلال البلاد الغربية واخضاع خليفة بغـداد[١] وقد سبق هـذا التاريخُ حادثةَ الكرخ بثلاث سنوات على أقل تقدير.

وأيّد ذلك ابن العبري[٢] وجاء في الحوادث الجامعة[٣] وجامع التواريخ[٤] بل انّ تحرّك المغول نحو الغرب باتجاه تركستان وإيران وآذربيجان والعراق كان يسبق هذا التأريخ بكثير.

ولقد مرّ بنا في مطاوي حديثنا ذكر تلك الغزوات الّتي كان يبدو منها انّهم سوف يتوجّهون إلى بغداد لا محالة.

وكان على الخلفاء أن يعتبروا من ذلك ويتّخذوا الحيطة والحذر لئلّا يغزوا العراق أو بغداد على الأقل، ولكنّهم ـ مع الأسف ـ كانوا منشغلين بأمور أخرى تافهة، وكان مثالهم المستعصم الّذي يقول: لا أظنّهم يبخلون عليّ ببغداد وهي تكفيني.

ولا بأس بأن نثبت هنا ـ على سبيل الاختصار ـ بعض تلك الغزوات الّتي قام بها المغول قبل حادثة بغداد عدّة مرّات، كان أوّلها قبل السقوط بنصف قرن:

ففي عام ٦١٧هـ، تحرّكوا، فقصدوا بلاد تركستان، ثمّ منها إلى بلاد ما وراء النهر ثمّ إلى خراسان ثمّ إلى الري وهمدان وإلى حد العراق، تخريباً وقتلاً ونهباً، ولم ينج إلّا الشريد النادر[٥] كان ذلك أيّام جنكيزخان في قصّة معروفة مع خوارزمشاه.

وقيل في سبب خروجهم إلى بلاد الاسلام: انّ الخليفة الناصر هو الّذي دعاهم إلى

١ـ EBRETCHNEIDEN, MEDIEVAL RESERCHES FROM EASTERN ASIATIC SOURCES I.P. 109, 121.

٢ـ تاريخ مختصر الدول لابن العبري / ص ٢٦٣.

٣ـ الحوادث الجامعة لابن الفوطي / ص ٢٦٧.

٤ـ جامع التواريخ لرشيد الدين الهمداني / ج ٢ / قسم ١ / ص ٢٣٨.

٥ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ١٠ / ص ٤٠٠.

ذلك، لأنّ خوارزمشاه طلب من الخليفة أن تكون له الخطبة والسكة، وقد ذكرنا ذلك سالفاً.

وفي عام ٦٢١هـ، غزوا الري وهمدان، فوضعوا في أهلها السيف، وقتلوهم كيف شاؤوا[١].

وفي عام ٦٢٤هـ، غزوا دامغان بالقرب من الري عازمين على بلاد الاسلام، فسار إليهم جلال الدين خوارزمشاه وحاربهم، واشتدّ القتال بينهم، فانهزموا منه فأوسعهم قتلاً[٢].

وفي عام ٦٢٥هـ، عاود التتر الخروج إلى الري، وجرى بينهم وبين جلال الدين حروب كثيرة، كان أكثرها عليه[٣].

وفي عام ٦٢٨هـ، وصل التتر من بلاد ما وراء النهر إلى آذربيجان وحاصروا (مراغه) فامتنع أهلها، ثمّ أذعنوا بالتسليم على مال طلبوه، فبذلوا لهم الأمان، وتسلّموا البلد، وقتلوا فيه، وجعلوا في البلد شحنة. وعظم حينئذٍ شأن التتر[٤].

ووصلت طائفة من التتر من اذربيجان إلى اعمال أربيل فقتلوا مَن على طريقهم من التركمان الايوائية والأكراد وغيرهم، إلى ان دخلوا بلد أربيل ودقوقا، فنهبوا القرى وقتلوا من ظفروا به من أهل تلك الأعمال، وعملوا الأعمال الشنيعة الّتي لم يسمع بمثلها من غيرهم.

وفي هذه السنة (٦٢٨هـ) استولى التتر على بلاد خوارزم[٥] وقد علّق صاحب دمشق على سقوط الخوارزميين «سوف ترون غب هذا والله لتكوننّ هذه الكسرة

١ ـ المصدر السابق / ص ٤٣٩.
٢ ـ المصدر السابق / ص ٤٧٣.
٣ ـ المصدر السابق / ص ٤٧٦.
٤ ـ المصدر السابق / ص ٤٩١.
٥ ـ المصدر السابق / ص ٤٩٤.

سبباً لدخول التتر بلاد الاسلام، ما كان الخوارزمي إلّا مثل السد الّذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج»[١].

وفي هذه (٦٢٨هـ) أيضاً، تردّدت رسل التتار إلى ديوان الخلافة وإلى جماعة من الملوك يطلبون منهم ان لا ينصروا خوارزمشاه[٢].

ولا بأس بذكر هذه القصّة، فانّها تنفع في المقام، وإن كنّا قد ذكرناها سابقاً:

يقول ابن الأثير:

«ولقد وقفت على كتاب وصل من تاجر من أهل الري، كان قد انتقل إلى الموصل وأقام بها هو ورفقاء له، ثمّ سافر إلى الري في العام الماضي (٦٢٧هـ) قبل خروج التتر.

فلمّا وصل التتر إلى الري وأطاعهم أهلها وساروا إلى اذربيجان، سار هو معهم إلى تبريز، فكتب إلى أصحابه بالموصل يقول:

انّ الكافر ـ لعنه الله ـ (ويقصد بذلك التتر) ما نقدر نصفه ولا كثرة جموعه حتّى لا تنقطع قلوب المسلمين، فانّ الأمر عظيم، ولا تظنوا ان هذه الطائفة الّتي وصلت إلى نصيبين والخابور، والطائفة الّتي وصلت إلى إربل ودقوقا كان قصدهم النهب، انّما أرادوا أن يعلموا هل في البلاد من يردّهم أم لا؟

فلمّا عادوا أخبروا ملكهم بخلوّ البلاد من مانع ومدافع وانّ البلاد خالية من ملك وعساكر، فقوي طمعهم، وهم في الربيع يقصدونكم، وما يبقى عندكم مقام إلّا إن كان في بلد الغرب، فان عزمهم على قصد البلاد جميعها»[٣].

* * *

وفي عام ٦٣٤هـ، وفي شهر شوال، نزل التتر على إربل وأحاطوا بها من كل

---

١ ـ مرآة الزمان / سبط ابن الجوزي / ج ٨ / قسم ٢ / ص ٦٧١.

٢ ـ العسجد المسبوك / ص ٤٤٥.

٣ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير / ج ١٠ / ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦.

ناحية، فدخلوها عنوة يوم التاسع والعشرين، وأمدّ التتر زعيمُ الموصل (بدر الدين لؤلؤ) بما يحتاجون إليه من ميرة وغيرها[١] فتحصّن أهل إربل بالقلعة، فقلّ عليهم الماء، فتلف منهم ألوف كثيرة عطشاً، ولم يمكن دفنهم لضيق الموضع ولا إلقاؤهم لئلّا يسدوا الخندق، فأحرقوهم بالنار[٢].

وفي عام ٦٣٥هـ، عاد التتر إلى إربل في جمع كثير، ثمّ ذهبوا إلى دقوقا[٣].

وفي عام ٦٤٢هـ، قصد التتر شهرزور، فدخلوها فجأة عند وصول الأمير (محمّد ابن سنقر) إليها، فنجا بنفسه وأخذوا جميع ما كان معه واحرقوا طبوله واعلامه وقتلوا من وجد من أصحابه[٤].

وفي عام ٦٤٣هـ، عندما تحرّش بهم سليمان بن برجم وجاؤوا إلى بغداد وحصلت معركة رهيبة، انتهت بانهزام التتر.

وكان ابن العلقمي هو مدبّر هذا الانتصار، كما يذكر ابن أبي الحديد، وله قصيدة يمدحه فيها[٥].

* * *

ثانياً:

إنّ القول بأنّ الوزير كان يسيطر على الخليفة، بحيث انّه كان يمنع الرّسل الّذين يحذّرونه من خطر المغول، مردود.

---

١ ـ زعيم الموصل (بدر الدين لؤلؤ) عاون التتار على بلاد الاسلام مرّتين، الأولى عام ٦٣٤هـ أثناء محاصرتهم لأربيل، والثانية عام ٦٥٦هـ في زحفهم إلى بغداد، وبعد ذلك ذهب إلى همدان لتقديم فروض الطاعة والانقياد إلى هولاكو عند رجوعه بعد سقوط بغداد، ولكن المؤرّخين يمرّون على ذلك مرور الكرام، وكأنّه لم يقم بأي عمل خياني، وتلك سيرة وعاظ السلاطين.

٢ ـ العسجد المسبوك / ص ٤٧٨.

٣ ـ المصدر السابق / ص ٤٧٩.

٤ ـ المصدر السابق / ٥٣٣.

٥ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ج ٨/ ص ٢٤٠.

لأنّ الأدلّة تشير إلى انّ الوزير كان ضعيفاً غير مسموع القول[1] ولم يكن له نفوذ على الخليفة الّذي كان واقعاً تحت نفوذ أعداء الوزير، وخصوصاً مجاهد الدين الدواتدار الصغير الشركسي الّذي كان قائداً للجيش.

والدليل على ذلك ما يأتي:

أ ـ إنّ محلّة الكرخ الّتي استبيحت سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م، كان فيها أقارب للوزير، فلو كان له نفوذ في الدولة وهو بمنصب وزير، وهو يقابل رئيس الوزراء في عصرنا، لمنع استباحة المحلة المذكورة، أو لأوقفها عند حدّها حفظاً لأقاربه على الأقل.

ب ـ في الخلاف الّذي وقع بين الوزير والدواتدار قائد الجيش، لم يأخذ الخليفة برأي الوزير، بل انّه صفح عن الدواتدار مع عظم التهمة الّتي نسبت إليه.

ج ـ ان هولاكو كان يراسل الخليفة، ويطلب منه نجدة وينذره بالقدوم إليه منذ أن كان يحاصر قلاع الإسماعيليّة، وكان الخليفة يستشير الوزير والدواتدار وغيرهما من أفراد حاشيته وخواصه، وكانت نصائح الوزير معقولة تدل على فهم لطبيعة الخطر المغولي من جهة وأحوال العراق من جهة أخرى، ولم تكن تتضمن تغريراً بالخليفة ولا تآمراً عليه، ولكن الخليفة كان يهمل نصائح الوزير ويأخذ برأي خصومه خصوصاً الدواتدار الصغير.

د ـ وفيما يتعلق بمنع الوزير للرسل من الوصول إلى الخليفة، إنّ الأدلّة لا تؤيد ذلك.

لأنّ الخطر المغولي كان يهدّد العراق منذ أيّام الخليفة الناصر لدين الله، أي منذ أن كان المستعصم بالله صبياً صغيراً، وقد استمرّ أيّام الظاهر والمستنصر.

وأمره ذائع معروف، وأخباره يعرفها الخاص والعام، والمعروف انّ المستشارين

---

١ ـ يقول صاحب كتاب الفخري: كان ابن العلقمي مكفوف اليد مردود القول يترقّب العزل صباح مساء / ص ٣٣٣.

أيّام الخطر العسكري هم العسكريون لا المدنيون، ولم يكن الوزير عسكرياً.

فكيف يعتمد عليه الخليفة دون قواد الجيش وأمرائه؟

وقد قدّمنا انّ الوزير لم يكن صاحب نفوذ على الخليفة، بل انّ النفوذ الحقيقي كان بأيدي الفئة العسكرية وعلى رأسها الدواتدار الصغير عدوّ الوزير.

ثمّ هل كان ابن العلقمي يستطيع منع أفراد العائلة العباسية من تحذير الخليفة أو الوقوف بين رجال الدولة الآخرين كصاحب الديوان وعارض الجيش والنقباء والمحتسب وغيرهم وإخبار الخليفة بحقيقة الأمر؟

ولو صحّت هذه التهمة على الوزير لكان معناها انّه كان يترأس مؤامرة كبرى يشترك فيها أكثر رجال الحكومة.

لكن المصادر التأريخية تبيّن انّ المراسلات كانت قائمة بين هولاكو والخليفة فعلاً وانّها لم تكن سرية، لأنّ الخليفة كان يستشير فيها حكومته، وانّ الخليفة أرسل ابن الجوزي إلى هولاكو، وانّ هذا الرسول كان مخلصاً للخليفة بدليل ان هولاكو قتله بعد فتح بغداد[1].

* * *

ثالثاً:

والمؤتمر الوطني الّذي دعا إليه ابن العلقمي شاهد على نزاهته، عندما عرض الوزير على الخليفة ان يصانع هولاكو بإرسال الهدايا، فأثناه الدواتدار عن ذلك، وهدّده (سوف نرقب مفارق الطرق ونلقي القبض على الرسل ونأخذ ما معهم من أموال...) فامتنع المستعصم عن ارسال الهدايا وقال قولته المشهورة يخاطب ابن العلقمي:

إنّ بيني وبين الملك منكوقاآن صداقة وانّ المغول رغم كونهم أرباب دولة وأصحاب

١ ـ الحوادث الجامعة لابن الفوطي / ص ٣٢٨.

شوكة إلّا انّهم لا يملكون إلّا الهوس في رؤوسهم والريح في أكفهم.

فاضطرب الوزير وطفق يتلوّى كالثعبان ويفكّر في كل تدبير[١].

فدعا إلى مؤتمر استثنائي لمعالجة الوضع بسرعة، ودعا إليه أمراء الجيش ومنهم الدواتدار وتناسى الخلاف بينه وبين الدواتدار، لأنّ الأمور أخطر بكثير ممّا بينهما من خلاف.

وأطلق الأمراء ألسنتهم بقدح الخليفة قائلين: انّه صديق المطربين والمساخرة وعدوّ الجيوش والجنود، وانّنا أمراء الجيش بعنا كل ما ادّخرناه في عهد والده[٢].

وقرأنا فيما سبق انّ الخليفة بعد هذا المؤتمر أمر بأن يعبّأ الجيش ويبذل الأموال في ذلك.

وفرح ابن العلقمي وأمر عارض الجيش بأن يعرض الجنود بالتدريج فوجاً فوجاً ليصل نبأ تعبئة الجنود إلى البعيد والقريب والترك والعرب فتفتر عزيمة العدو، ولكن الخليفة امتنع من بذل الأموال[٣].

رابعاً:

أمّا عن تآمر الوزير مع المغول لينصب علوياً خليفة للمسلمين بدلاً من المستعصم بالله، فهو أمر مردود أيضاً.

لأنّ علاقة العلويين بالعبّاسيين كانت طيّبة في هذه الفترة، وقد عرض المستنصر بالله على رضي الدين أبي القاسم علي بن طاووس (ت: ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م) أن يذهب رسولاً إلى سلطان التتر فرفض ذلك، وعرض عليه ان يكون وزيراً ولكنّه رفض أيضاً[٤].

---

١ ـ جامع التواريخ لرشيد الدين الهمداني / ص ٢٧٣.

٢ ـ المصدر السابق / ص ٢٧٤.

٣ ـ المصدر السابق / ص ٢٧٤.

٤ ـ كشف المحجة لثمرة المهجة لابن طاووس / ص ١٦٩ ـ ١٧٠.

وقد قتل المغول الفاتحون العدد الكثير من العلويين، ومنهم السيِّد شرف الدين ابن الصّدر العلوي وكان محترماً في الدولة العبّاسية، وروسل به الملوك، وقد قتلوا نقيب العلويين عليّ بن النقيب الحسن بن المختار وعمر بن عبدالله بن المختار العلوي صاحب باب المراتب، كما قتلوا نقيب مشهد موسى الكاظم ثمّ شرف الدين أبي الفضل محمّد ابن طاووس العلوي، كما أحرقوا مشهد الإمام موسى[1].

يضاف إلى ذلك، كيف يرضى العلويون بتنصيب أحدهم خليفة للمسلمين من قبل المغول الوثنيين؟

وهل كان الوزير يستطيع تدبير مثل هذا الأمر الخطير بدون استشارة كبار العلويين؟ فمن هم هؤلاء؟

امّا اتهام الوزير بأنّه كان يعمل على إطماع المغول بالعراق ليكون نائباً لهم، فهو مردود، لأنّه ـ أي الوزير ـ كان يشغل منصب الوزارة في دولة الخليفة وليس هناك ما يدل على انّه كان سيمنح منصباً أعلا من ذلك.

* * *

خامساً:

اختلفت الروايات الّتي تعيّن رسل الوزير إلى هولاكو، فمنهم من قال انّه أرسل أخاه، ومنهم من قال انّه أرسل غلامه ومنهم من قال انّه راسل هولاكو بواسطة ابن الصلايا العلوي صدر أربيل.

يضاف إلى ذلك انّنا نلاحظ ما يأتي:

أ ـ ان كل ما قيل عن رسل الوزير، انّما كان مجرّد ترديد لإشاعات لا تستند إلى أي دليل، فليس هناك من يدعي انّه رأى رسل ابن العلقمي إلى هولاكو أو تحدث معهم أو شهدهم يدخلون على هولاكو.

---

١ ـ العسجد المسبوك / ص ٦٣٩.

ب ـ إنّ هولاكو في مراسلاته مع الخليفة، طلب مواجهة عدد من كبار رجال الدولة العباسية، ولكنّه لم يقصر طلبه على الوزير وحده في أيّة مرّة من المرات وكان من المعقول أن يفعل ذلك لو كانت هناك اتصالات سريّة بينهما.

ج ـ إنّ ابن الصلايا الّذي تزعم بعض المصادر انّه كان صلة بين الوزير وهولاكو لا يمكن أن يكون قد قام بالعمل الخياني هذا، لأنّه أحد الناس الّذين أمر هولاكو بقتلهم[١].

* * *

سادساً:

إنّ الوضع والتكلف يتضحان من نصوص الروايات الّتي تتّهم الوزير، فهو يحلق رأس رسوله ويكتب عليه بالأبر.

أو يجعل الكتابة على رأسه كل حرف كالحفرة.

وهو يخرج إلى هولاكو ليتوثق لنفسه ثمّ يعود إلى الخليفة ليبلغه ان هولاكو يرغب بزواج ابنته من ابن الخليفة وانّ الأصلح الخروج مع أعيان الدولة لحضور عقد النكاح، في وقت كان فيه الجيش المغولي يحيط ببغداد ويضربها بالمنجنيق.

والمعروف انّ هولاكو لم يجلب معه إحدى بناته عند زحفه على العراق.

* * *

سابعاً:

انّ الزعم بأنّ الخلفاء السابقين للمستعصم بالله وخصوصاً المستنصر بالله كانوا يتخذون جيوشاً كبيرة، وانّ الوزير ابن العلقمي عمل على صرفها وتفريقها ليسهل أمام هولاكو غزو العراق أمر مردود للسببين التاليين:

أ ـ ليس هناك دليل يؤيّد اتخاذ أولئك الخلفاء جيوشاً كبيرة، بل يبدو أنّ العكس

---

١ ـ الحوادث الجامعة لابن الفوطي / ص ٣٣٧.

هو الصحيح، فجيش الناصر لدين الله وهو من أكثر الخلفاء العباسيين اهتماماً بالأمور العسكريّة ورغبة في التوسع، لم يستطع الوقوف أمام الخوارزميين ومنهم السلطان جلال الدين منكوبرتي الّذي لم يستطع بدوره الوقوف أمام المغول لأنّهم هزموه وشردوه، فكيف يستطيع الجيش العبّاسي وحده الوقوف أمامهم؟

يضاف إلى ذلك ان غزوات المغول للعراق تكررت أيّام المستنصر بالله، وكان الخوف منهم يسيطر على البلاد.

ولو كان لدى الخليفة جيش كبير هاجم المغول في قواعدهم وهي في إيران، مع أنّهم لم يكونوا في عهده على ما وصفهم أستاذ داره غير (سرايا متفرّقة وغارات متفقة)[1] ولكن قوّات الخليفة الّتي وقفت لمحاربتهم كانت ضعيفة وقليلة العدد.

ب ـ كيف يستطيع الوزير اقناع الخليفة بصرف أكثر جنوده والاكتفاء بالقليل منهم، في وقت كان الخطر المغولي يهدّد الدولة العبّاسية والعراق، وكان للخليفة مستشارون عسكريون على رأسهم الدواتدار الصغير عدوّ الوزير؟[2]

ثامناً:

هناك مصادر مهمّة لم ترد فيها أيّة اشارة إلى خيانة الوزير مثل كتاب (جهانكشاي) لعطا ملك الجويني، الّذي هو أحد المصادر الرئيسية في تاريخ المغول،

---

١ ـ كشف المحجّة لثمرة المهجة لابن طاووس / ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

٢ ـ وجاء في كتاب (العراق في التاريخ) ضعف القدرة العسكريّة للدولة العبّاسية في أيّامها الأخيرة ما يلي:

ولم يظهر الخلفاء العبّاسيون المتأخّرون اهتماماً جدّيّاً بالخطر الداهم المحدق بادئ الأمر، ولم يدركوا طبيعة ذلك الخطر الّذي كان يتهدّد بلادهم، ولذلك لم يضعوا سياسة واضحة لمعالجته أو درئه أو الاحتياط له.

وكل ما فعلوه هو جمع قوات بصورة مرتجلة وارسالها إلى مواطن الخطر القريبة، ثمّ تسريح أكثر الجنود بعد تراجع العدو والانتظار إلى حين ظهور الخطر من جديد، في وقت كان المغول يشكلون أعظم خطر يهدد كيان الدولة والأمّة.

وقد سرد الأحداث إلى نهاية احتلال جيش هولاكو لقلاع الإسماعيليّة وتدميره لدولتهم.

والمفروض انّ مراسلات الوزير مع هولاكو انّما جرت أيّام تلك الأحداث، ولم يشر عطا ملك الجويني إلى أيّة مراسلات من هذا النوع، مع انّه كان شديد الصلة بهولاكو، وكان في رفقته عند زحفه على بغداد، في حين انّه ـ أي الجويني ـ أورد التهمة المنسوبة إلى الناصر لدين الله من أنّه راسل ملوك الخطا.

وكذلك لم ترد تلك التّهمة في كتاب (الذهب المسبوك) لعبدالرّحمان سنبط بن فنيتو الاربلي، مع انّه عراقي معاصر للحوادث.

ولا يذكرها كذلك أبو الفرج ابن العبري في كتابه (تاريخ مختصر الدول) وهو معاصر اتصل بالمغول وعرف أخبارهم.

وكذلك يرفض التهمة ابنُ الطقطقي في كتابه (الفخري) الّذي وضعه سنة ٧٠١هـ / ١٢٣٠م.

أمّا رشيد الدين فضل الله الهمداني والّذي هو أفضل من يستند إليه في أحداث تلك الأيّام في كتابه (جامع التواريخ)، فانّه يفصّل أحداث الفتح ويشير إلى التّهمة بأنّ مصدرها الدواتدار الصغير عدوّ الوزير.

ورشيد الدين مؤرّخ عرف بصلته الشديدة بسلاطين المغول وأخبارهم وتاريخ شعوبهم، وقد اطلع على المصادر الاسلاميّة والمغولية ولم تكن له مصلحة في الدفاع عن الوزير[1].

ولم ترد التّهمة في كتاب ابن الفوطي البغدادي (تلخيص مجمع الآداب) وهو معاصر كبير الاطلاع.

ويقول الدكتور عبدالهادي شعيرة بهذ الصدد:

---

١ ـ جامع التواريخ / رشيد الدين الهمداني / ج ٢ / القسم الأوّل / ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤.

إنّ المشكلة خرجت من حقيقتها الموضوعية إلى الخصومة المذهبية وان تعاون ابن العلقمي مع هولاكو بعد الفتح المغولي لبغداد وقبوله العمل تحت سلطتهم يعود إلى محاولته انقاذ ما يمكن انقاذه بعد التدمير الّذي حصل[١].

أمّا الدكتور فاروق عمر فوزي في كتابه (تاريخ العراق في عصر الخلافة العربية الاسلامية) فيبدو انّه حائر متردد.

فهو يقول: «ومهما يكن من أمر فاذا كان الاتهام يرتبط بعدد المؤيدين له أو المعارضين، فان تهمة (الخيانة العظمى) تثبت على ابن العلقمي، لكثرة عدد المؤرّخين الّذين أيّدوها أو أشاروا إليها».

علماً بأن كثرة المؤرّخين المتأخّرين لا تغني عن الحق شيئاً، أمّا القدامى المعاصرون للحدث فانّهم يجمعون على تبرئته، اللّهم إلّا أبو شامة عبدالرّحمان بن إسماعيل المتوفّىٰ عام ٦٦٥هـ.

ثمّ يعود الدكتور فاروق فيقول:

«... في الوقت الّذي لا يمكن والحالة هذه الجزم في مدى تواطؤ الوزير مع المغول لتسهيل أمر دخولهم بغداد، فانّنا لا يمكننا أن نبرئه والآخرين من تهمة الاهمال والتقصير...»[٢].

* * *

تاسعاً:

إنّ سلامة شخص الوزير ومشاركته في اللجنة الّتي أعادت تنظيم بغداد والعراق بعد السقوط، لا تقوم حجّة على خيانته، لأنّ صاحب ديوان الخليفة المستعصم بالله، أي وزير ماليته وحاجب الباب في عهده أي مدير شرطة العاصمة قد عوملوا بنفس المعاملة.

---

١ ـ تاريخ المغول / عبدالهادي شعيره / ص ٥٧.

٢ ـ تاريخ العراق في عصر الخلافة العربية الاسلامية / د. فاروق عمر فوزي / ص ٣٦٧.

كما سلم أقرب مستشاري الخليفة إليه، صديقه عبدالغني بن درنوس، وسلم الابن الأصغر للخليفة مع اخواته فاطمة وخديجة ومريم[١].

وقد كان هولاكو بحاجة إلى من يدبّر أمر العراق بعد فتحه، وكان الوزير وصاحب الديوان وحاجب الباب خبيرين بأموره، فأشركهم في لجنة عهد إليها أمر تنظيمه.

ومن المحتمل ان هولاكو أعجب بالوزير عند مقابلته له نيابة عن الخليفة، فاستبقاه، والأرجح ان شفاعة نصير الدين الطوسي له كانت أهم سبب في نجاته[٢].

* * *

عاشراً:

تجمع الروايات على أنّ هولاكو لم يفرّق في استباحته لبغداد بين السنيين والشيعيين، بينما استثنى النصارى.

ولو كان ابن العلقمي قد اتفق مع المغول على تسليم بغداد انتقاماً من السنيين، لحفظ له المغول جميل عمله، فلم يقتلوا الشيعة على الأقل.

* * *

حادي عشر:

أمّا سقوط بغداد نفسها، فلم يكن للوزير أي دخل فيه، لأنّه تمّ بعد هزيمة جيش الخليفة بقيادة الدواتدار واستيلاء المغول على أسوار المدينة.

وسبب ذلك تفوق المغول الواضح في العدد والعدد والقيادة والمعنويّة.

وقد كان سقوط بغداد أمراً متوقعاً منذ تدمير المغول لدولة خوارزم وقتلهم آخر سلاطينها جلال الدين منكو برتي سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م، ولو أراد المغول فتح

---

١ ـ جامع التواريخ لرشيد الدين الهمداني / ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤.

٢ ـ الحوادث الجامعة لابن الفوطي / ص ٣٢٩ ـ ٣٣٢.

العراق آنذاك لما وجدوا صعوبة في ذلك.

علماً بأنّ هولاكو كان يحمل أوامر عُليا بالفتح، أصدرها إليه الامبراطور (مانغو خان) ومعه جيش متفوق على عدوه تفوقاً ساحقاً في العدد والعدّة، لم يستطع الإسماعيليون إيقافه بالرغم من كثرة عدد حصونهم وامتناعهم في جبال عالية وقمم شاهقة، بينما تقع بغداد في سهل فسيح يسهل الإحاطة بها وقطع الميرة عنها.

ويبدو أنّ الصاق تهمة سقوط بغداد بالوزير، انّما غايتها تبرير الإهمال والتسيّب اللّذين سيطرا على إدارة العراق منذ بداية الغزو المغولي لدولة خوارزم سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م، وقد كانت الخطة الصحيحة المناسبة آنذاك هي محاربة المغول منذ أوّل ظهورهم في بلاد ماوراء النهر وخراسان، وليس التفرّج على هجماتهم وفضائعهم وانتظارهم عند أسوار بغداد، ثمّ اتهام الوزير بأنّه السبب في سقوط المدينة[1].



١ ـ الغزو المغولي / للسيّد حسن الأمين / ص١٠٦.

ملحق رقم ـ ٣ ـ

نصير الدين الطوسي

ولد عام ٥٩٧هـ في مدينة طوس، ومات عام ٦٧٢هـ في بغداد.

يمرّ الطوسي بمراحل ثلاث من حياته:

المرحلة الأولىٰ:

وهي الفترة الّتي عاشها في إيران منذ ولادته حتّى التحاقه بالإسماعيليين، وهي الفترة الكبيرة من حياته، قضاها طالباً للعلم مجداً.

* * *

المرحلة الثانية:

وقد ابتدأها حين عصف المغول بالبلاد الاسلاميّة، وأخذت تسقط مدنها الواحدة تلو الأخرى، عَصْفَ الريح بأوراق الخريف، فلجأ مضطراً إلى الإسماعيليين ليتّقي شرّ هذه العاصفة الهوجاء، حين لم يبق أمام التتار مَن يناهضهم سوى الإسماعيليين وقلاعهم الصّامدة أمام زحفهم السّاحق.

وانتهت هذه المرحلة بانتصار المغول على القلاع الإسماعيليّة.

* * *

وقد شاء القدر أن يعصف التيار المغولي بقيادة جنكيز خان على نيسابور، بلد العلم والفلاسفة أثناء وجود الطوسي فيها، وان يسلم بروحه من صاعقة الدمار الّتي أتت على خراسان، فجعلتها يباباً بعد أن انهزم أمام زحفهم السلطان محمّد خوارزمشاه، وانهارت لديه جميع أسباب المقاومة الّتي يملكها.

ولم يصمد أمامهم سوى قلاع الإسماعيليين الّتي ظلّت تقاوِم صدمات التتار وزحفهم حتّى أعجزتها عن نيلها.

بل وأكثر من ذلك كان الإسماعيليون يوقِعون بالتتار بواسطة الفدائيين الّذين أظهروا بطولة نادرة، ولم تسقط قلاعهم إلّا في الحملة الأخيرة بقيادة هولاكو حفيد جنكيز خان.

وفي زحمة هذا الرُّعب الآخذ بالأنفاس يمّم الطوسي شطر الإسماعيليين، الحمى الوحيد إذ ذاك من نوازل التتار، فسافر إلى (قهستان) عاصمة الإسماعيليين لدى متولّيها ناصر الدين عبدالرحيم بن أبي منصور، بدعوة منه ونزل ضيفاً عليه[١].

ولم يكن نصير الدين وحده هو الّذي احتمى بهذه القلاع، بل لقد لجأ إليها كثير ممّن استطاعوا الفرار والنجاة.

❊ ❊ ❊

ولكن رواية أخرى تنفي ان يكون الطوسي قد لجأ إلى الإسماعيليين بمحض إرادته، وانّما تمّ اختطافه من قبل بعض فدائييهم، فترصدوه في أطراف بساتين نيسابور وطلبوا إليه مرافقتهم إلى القلعة المذكورة، وانّه امتنع من ذلك، فهدّدوه بالقتل وأجبروه على مرافقتهم، وانّه كان يعيش هناك شبه أسير أو سجين[٢].

❊ ❊ ❊

في حين انّ البعض يرى انّه ذهب في أوّل الأمر باختياره، وانّه بعد ذلك حدث ما عكّر الجوّ بينه وبين ناصر الدين الإسماعيلي، واعتبره هذا سجيناً وأرغمه على مصاحبته إلى قلعة (ميمون دز) حيث عاش سجيناً، لا يبرح مكانه[٣].

---

١ ـ فلاسفة الشيعة لعبدالله نعمة / ص ٥٣٧.

٢ ـ مجلة العرفان / م ٤٧ / ج ٤ / ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

٣ ـ المصدر السابق / ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

ويؤكّد السيِّد حسن الصدر انّه كان سجيناً في حصن الديلم بأمر (خورشيد شاه) الإسماعيلي، فلمّا غلبه التتر وأخذوا حصن الديلم، أطلقوا نصير الدين من الحبس وأكرموه لعلمه بعلم النجوم، وصار في عداد وزرائهم[١].

❊ ❊ ❊

وقد أنجز الطوسي أكثر كتبه في الفترة الّتي قضاها في كنف الإسماعيليين، سواء باللّغة العربية أو الفارسية أو التركية الّتي كان يجيدها كلّها.

ومن هذه المؤلّفات (روضة القلوب وتحرير المجسطي وتحرير اقليدس وتحرير اكرمانالاوس، وأخلاق ناصري وروضة التسليم وشرح الاشارات، وكتب في التنجيم وأخرى في الفلك)[٢].

❊ ❊ ❊

وقد كتب الطوسي نفسه في آخر شرحه للاشارات الّذي ألّفه وهو في قلاع الإسماعيليين في عام ٦٤٠هـ ما يؤيّد انّه كان مُرغَماً على الإقامة بينهم، وهو يعبّر عن تململه وبرمه في الحياة، ويعبر كذلك عن آلامه وعن اعتلاجات نفسه المخنوقة بالدموع، يقول:

«رقّمت أكثرها في حال صعب، لا يمكن أصعب حال فيها، ورسمت أغلبها في مدّة كدورة بال، بل في أزمنة يكون كل جزء منها ظرفاً لغصّة وعذاب أليم... وأمكنة كل آن منها زبانية نار جحيم ويصب من فوقها حميم، وما مضى وقت ليس بالي مكدّراً ولم يجئ حين لم يزد ألمي ولم يضاعف همي وغمي...

اللّهمّ نجّني من تزاحم أفواج البلاء وتراكم أمواج العناء بحق رسولك المجتبىٰ ووصيّه المرتضىٰ صلّى الله عليهما وآلهما، وفرّج عنّي ما أنا فيه بلا إله إلّا أنت، وأنت أرحم الرّاحمين»[٣].

---

١ ـ تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام / السيِّد حسن الصدر / ص ٢٩٧.

٢ ـ تاريخ علم الفلك في العراق / عباس العزاوي / ص ٣٤.

٣ ـ الاشارات لابن سينا مع شرحي الطوسي والرازي / ج ٢ / ص ١٤٦ المطبوع بالمطبعة الخيريّة في مصر سنة ١٣٢٥هـ.

المرحلة الثالثة:

وهي تبتدئ بالتحاقه بهولاكو حتّى وفاته في بغداد عام ٦٧٢هـ / ١٢٧٤م. وعندما تقدّم المغول في غزوهم الثاني، وأعاد هولاكو سيرة جدّه، كانت الحملة هذه المرة من القوّة بحيث هابتها القلاع الإسماعيليّة فلم تستطع لها صداً.

ونزل الأمير الإسماعيلي (ركن الدين خور شاه) على حكم المغول، فكان حكمهم قتله وقتل أعوانه ومن لجأ إليه.

واستثنوا من ذلك ثلاثة رجال، كانت شهرتهم العلمية قد بلغت هولاكو، فأمر بالإبقاء عليهم، ولم يكن هذا الإبقاء حبّاً للعلم وتقديراً لرجاله، بل لأن هولاكو كان بحاجة إلى ما اختصّ به هؤلاء الثلاثة من معارف.

فاثنان منهم كانا طبيبين، هما: موفق الدولة ورئيس الدولة، والثالث كان مشهوراً باختصاصه في أكثر من علم واحد، هو نصير الدين الطوسي، وكان ممّا اختصّ به: علم الفلك، وكان هولاكو مقدراً لهذا العلم تقدير حاجة لا محض تقدير، مؤمناً بفائدته له.

لذلك رأيناه بعد ذلك يُعنى بإنشاء مرصد (مراغه) ويوفر له كل ما يستدعي نمّوه وتقدّمه[1].

* * *

هولاكو كان محتاجاً للطوسي لعلمه بالفلك

وقد احتفظ هولاكو بالطوسي، واختصّه لنفسه لمكانته العلمية واصطحبه معه، واغتنم الطوسي هذه الفرصة واستغل هذه الخطوة لدى هولاكو، وقربه منه للحيلولة دون اكتمال الكارثة المنصبة على الاسلام والمسلمين، فعمل جهده وبكل ما لديه من امكانيات للاحتفاظ بما بقي من العلماء والفلاسفة والحكماء من الابادة الّتي كانت

١ ـ الإسماعيليون والمغول للسيّد حسن الأمين / ص ٤٢.

تنتظرهم.

وكان من أقوى العوامل على إبقاء هذا النفر من أهل المعرفة والفلسفة والعلم. وكان من نتيجة ذلك ان انتهى أمر المغول بعد حين قليل إلى اعتناق الدين الاسلامي وأصبح أحفاد جنكيز الّذين أقبلوا لهدم الاسلام وللقضاء على حضارته، أصبح هؤلاء الملوك، المسلمين وحماة الاسلام[1].

* * *

الطّوسي ينقذ الكتب الإسلاميّة من التّلف والفكر الإسلامي من الإنحلال

كان الطوسي ذا فكر منظم، يعرف كيف يخطّط ويدبّر، وقد أدرك انّ النصر العسكري على المغول ليس ممكناً أبداً.

فقد انحلّ نظام العالم الاسلامي انحلالاً تامّاً، وأيقن انّه إذا تمّ للمغول النصر الفكري بعد النصر العسكري، كان في ذلك القضاء على الاسلام.

فاستغلّ حاجة هولاكو إليه وحرصه على أن يكون في معسكره فلكي عالم بالنجوم، فعزم على كسب ثقته واحترامه، فكان ما أراد، وصار له من ذلك سبيل لإنقاذ أكبر عدد من الكتب وتجميعها. كما استطاع أن ينجي من القتل الكثيرين ممّن كانوا سيقتلون.

فقد أقنع هولاكو بأن يعهد إليه بالإشراف على الأوقاف الاسلاميّة والتصرف بمواردها بما يراه، فوافق هولاكو.

وتطلع نصير الدين فرأى انّ المسلمين كانوا قد وصلوا من الانحلال الفكري إلى حد أصبح العلم عندهم قشوراً لا لباب فيها وانّهم حصروا العلم في الفقه والحديث وحدهما، وحرّموا ما عداهما من سائر صنوف المعرفة الّتي حثّ عليها الدين العظيم، وانصرفوا عن العلوم العمليّة انصرافاً تامّاً.

---

١ ـ فلاسفة الشيعة لعبدالله نعمة / ص ٥٤١.

فأعلن افتتاح مدارس لكل من الفقه والحديث والطب والفلسفة، وانّه سيتولّى الانفاق على طلّاب هذه المدارس.

فعمل دار حكمة ورتّب فيها فلاسفة، ورتّب لكل واحد في اليوم واللّيلة ثلاثة دراهم، ودار طب فيها للطبيب في اليوم درهمان، ومدرسة لكل فقيه في اليوم درهم، ودار حديث لكل محدث نصف درهم في اليوم[١].

لذلك أقبل الناس على معاهد الفلسفة والطب أكثر من إقبالهم على معاهد الفقه والحديث، بينما كانت العلوم من قبل تدرس سراً دون أجر[٢].

* * *

فالّذي يدرس الفلسفة له ثلاثة دراهم وللطبيب درهمان أمّا الفقيه فله درهم واحد وللمحدث نصف درهم.

وهذه طريقة ذكيّة جدّاً في جعل الناس لا يهتمّون بالفقه والحديث فقط، وانّما أصبح اهتمامهم بالحكمة والفلسفة والطب[٣].

وتكاثر طلّاب كل باب من أبواب المعارف تلك، وتخرّجت أجيال وجاءت أجيال أخرى، وازدهر العلم في بلاد الاسلام ودونت الكتب وترجمت، وعاد للاسلام رونقه، كما عادت إليه حضارته بعدما جهد هولاكو على طمس معالمه في محاولات جاهلة وخسيسة[٤].

---

١ ـ الإسماعيليون والمغول للسيّد حسن الأمين / ص ٤٥.

٢ ـ البداية والنهاية لابن كثير / ج ١٣ / ص ٢٤٩.

٣ ـ كان الطوسي يعلم انّ الفقه والحديث لهما سوق رائجة في كثير من البقاع الاسلاميّة، في مكّة والمدينة ومصر والشام والمغرب، ولكن دارسي العلوم الأخرى كالطب والهندسة والفلسفة قليلو العدد، فأنشأ المدارس والمعاهد الّتي تركز على دراسة تلك العلوم لكيلا تندثر وليكون للمسلمين فيها قدم سبق.

٤ ـ الإسماعيليون والمغول للسيّد حسن الأمين / ص ٤٥.

الطّوسي ينشئ المعاهد والمدارس

أحرز نصير الدين النصر الأوّل في معارك الاسلام، فالعلم لن ينقطع بعد اليوم، ولن يجمد المسلمون عن طلبه، ثمّ انصرف يخطط للمعركة الكبرى الكاسحة.

فإذا كان إنشاء المدارس المتفرقة لن يلفت هولاكو إليها، ولن يدرك أهميّتها، فإن إنشاء الجامعة الكبرى وحشر العلماء فيها وحشر الكتب في خزائنها سيكون حتماً منبّهاً لهولاكو فكيف العمل؟

فراح يقنع هولاكو بأنّه من أجل استمراره في عمله والاستفادة من مواهبه لا بدّ من إنشاء مرصد كبير.

فوافق هولاكو على إنشاء المرصد الكبير وفوّض لنصير الدين المباشرة بالعمل.

* * *

لقد كانت هذه الموافقة الحلم الأكبر الّذي حققته الأيّام لنصير الدين، وبات بعدها مستريحاً للمستقبل لا يشغله شيء إلّا الإعداد الدقيق والتخطيط السليم الموصل إلى الغاية القصوى.

ضخّم نصير الدين أمر المرصد لهولاكو وأقنعه انّه وحده أعجز من ان يرفع حجراً فوق حجر في ذاك البناء الشامخ، وانّه لابدّ له من مساعدين أكفاء يستند إليهم في مهمته الشاقة وانّه لا مناص من أجل ذلك من أن يجمع عدداً من الناس المختارين سواء في البلاد المحتلة أو في خارجها.

فوافق هولاكو على ذلك.

* * *

الطوسي يدعو علماء المسلمين في كل مكان للإلتحاق بمعاهده الكبرىٰ

وهنا هبّ نصير الدين إلى اختيار رسول حكيم هو (فخر الدين لقمان بن عبدالله

المراغي) وعهد إليه بالتطواف في البلاد الاسلامية وتأمين العلماء النازحين ودعوتهم للعودة إلى بلادهم، ثمّ دعوة كل من يراه متفوقاً في علمه وعقله من غير النازحين.

مضى العمل دقيقاً منظماً وانصرف العلماء بإشراف الطوسي منفذين مخططاً مدروساً، فلم يمض كبير وقت حتّى كانت المكتبات تغصّ بالكتب، وحتّى كانت المدارس تقام في كل مكان، وحتّى كانت الثقافة الاسلامية تعود حيّة سويّة، وحتّى كانت النفوس مشبعة بالأمل والقلوب مليئة بالرجاء[1].

* * *

تردّي العلاقات بين الطّوسي وهولاكو

يبدو انّ صلة الطوسي بهولاكو لم تدم، فقد تغيّر قلب هذا الأخير عليه، وانحطّت مرتبته لديه، حتّى همّ بقتله.

وقد ذكر صاحب (روضات الجنّات) شيئاً من ذلك، وخلاصته:

انّ هولاكو ذكره في بعض مجالسه ببعض المساوئ وأظهر الشكاية منه مع رجال دولته، وأخذ يعدد خياناته معه.

وفي الأثناء حضر الطوسي، فصرف هولاكو بوجهه عنه، واظهر الكراهية من لقائه، ثمّ التفت إليه بعد زمان طويل قائلاً له:

«هوّن عليك يا رجل، مهلاً يا فلان، وحذراً وسكوناً، فلولا أن أمر الرّصد يبقى بفقدك بائراً، لرأيت إنّي كنت بقتلك آمراً ولهتكك شاهراً»[2].

وينقل الدكتور سليمان دنيا رئيس قسم العقيدة والفلسفة في جامعة الأزهر عن كتاب (المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي) تأليف جمال الدين يوسف الأتابكي الطاهري المحفوظ بمكتبة الأزهر، قسم التاريخ تحت رقم ٦١٧ خصوصي و ٦٨٦٦٥١

---

١ ـ الإسماعيليون والمغول للسيّد الأمين / ص ٤٥ ـ ٤٦.

٢ ـ روضات الجنّات / ص ٦١.

عمومي:

انّ هولاكو أمر بقتل نصير الدين الطوسي، فجرى حوار بينهما، قال فيه نصير الدين: انّ اللّيلة الفلانية يخسف القمر.

قال هولاكو: احبسوه، إن صدق أطلقناه وأحسنّا إليه، وإن كذب قتلناه.

فحبس إلى اللّيلة المذكورة، فخسف القمر خسفاً بالغاً، فاتفق ان هولاكو تلك اللّيلة غلب عليه السكر فنام.

فقيل لنصير الدين ذلك.

فقال نصير الدين:

إن لم ير القمر بعينه وإلّا فأغدو مقتولاً لا محالة، وفكّر ساعة، ثمّ قال للمغول: دقّوا على الطاسات وإلّا يذهب قمركم إلى يوم القيامة.

فشرع كلّ واحد يدقّ على طاسة.

فعظمت الغوغاء.

فانتبه هولاكو بهذه الحيلة، ورأى القمر قد خسف.

فصدّقه وآمن به.

ثمّ يقول مؤلّف الكتاب:

ومن ثمّ صار الدقّ على النحاس إذا خسف القمر، ولم يكن له سبب غير ما ذكرنا[١].

* * *

وتبرز عظمة الطوسي انّه استطاع ان يستحوذ بلباقته تدريجياً على عقل هولاكو، وأن يروّض شارب الدماء، فيوجهه إلى اصلاح الأمور الاجتماعيّة والثقافيّة والفنيّة وأن يجعل من هادم الحضارات بانياً يحتضن الحضارات وينمي الثقافات[٢].

---

١ ـ الإسماعيليون والمغول للأمين / ص ٥٤ ـ ٥٥.

٢ ـ فلاسفة الشيعة لعبدالله نعمة / ص ٥٤٥.

وبهذا الصّدد يقول المستشرق روندلسن:

«اقترح الطوسي في مراغة على هولاكـو: انّ القـائد المـنتصر يجب أن لا يـقنع بالتخريب فقط.

فأدرك المغولي المغزى، وخوّله بناء مرصد عظيم على تل شمالي (مراغه) وتمّ هذا العمل في اثنتي عشرة سنة، وجمع في خلال ذلك الزيج الّذي أكمل بعد وفاة هولاكو وهو الزيج الإيلخاني... وجمع مكتبة عظيمة، ضمّ إليها ما نهب من الكتب في بغداد»[1].

* * *

ما هو مصير كتب بغداد؟

نحن لا نستبعد أن تكون كثير من كتب بغداد قد اتلفت نتيجة الرمي بالمنجنيقات والحرائق، وربّما كان الجنود المغول يتلفونها على طريقة النهب والسلب والغـوغائية الّتي إذا نشبت فانّها تسري سريان الحريق.

ولكنّنا نرى كثيراً من المبالغات الّتي تروى بهذا الصدد، حتّى إن بعض المؤرّخين كان يحلو لهم أن يقولوا انّ المغول بنوا اصطبلات الخيول وطولات المـعالف بكـتب العلماء عوضاً عن اللّبن.

وهناك نص طريف جعل فيه بغداد على نهر الفرات وقال: «ورموا كتب بغداد في الفرات، وكانت لكثرتها جسراً يمرّون عليها ركباناً ومشاة، وتـغيّر لون المـاء بمـداد الكتابة إلى السّواد».

إلّا ان هناك مصادر مهمّة سكتت عن هذه المسألة.

منها ما دوّنه رشيد الدين فضل الله الهمداني المتوفّى سنة ٧١٨هـ، والّذي يُعتبَر بحق مؤرّخ المغول الأوّل، فقد سكت في تاريخه (جامع التواريخ) عن مصير الكتب، ولكنّه ذكر القتل العام والنهب والإحراق والاستيلاء على قصور الخلفاء.

---

١ ـ مجلة العرفان / م ٤٧ / ج ٤ / ص ٢٣٠.

كما نلاحظ السكوت أيضاً عند اليونيني المتوفىٰ عام ٧٢٦هـ وأبي الفداء المتوفىٰ عام ٧٣٢هـ والذهبي المتوفىٰ سنة ٧٤٨هـ، وغيرهم من المتأخّرين كابن العماد الحنبلي المتوفىٰ سنة ١٠٨٩هـ[١].

* * *

ومن المؤكّد انّ نصيرالدين الطوسي عندما أسّس مرصد (مراغه) أسّس مكتبة مهمّة ملأها من كتب بغداد وغيرها من المدن، حتّىٰ تجمع فيها زيادة على أربعمائة ألف مجلّد[٢].

كما انّ المدرسة المستنصرية قد نجت أثناء حادثة سقوط بغداد، إذ كانت على وضعها حين وصفها ابن بطّوطة سنة ٧٢٧هـ، مطنباً في تصوير عظمتها[٣].

وفي الحوادث الجامعة في سنة ٦٥٦هـ:

«كان أهل الحلة والكوفة والمسيب يجلبون إلى بغداد الأطعمة، فانتفع الناس بذلك، وكانوا يبتاعون بأثمانها الكتب النفيسة»[٤].

ويقول محمّد أمين زين الدين في معرض حديثه عن نصير الدين الطوسي:

ومَن يعرف العدد الكبير الّذي جمعه هذا الفيلسوف الاسلامي العظيم في مكتبة (مراغه) من الكتب الّتي نهبها الجند المغولي من بغداد والشّام والجزيرة، ويعرف العدد الّذي جمعه حوله من علماء المسلمين وفلاسفتهم في (مراغه) وفي رصدها التأريخي المشهور وأذاقهم حلاوة الأمن بعد ذلك الخوف الشديد والنكال المبيد ويسّر لهم الحياة الهانئة والمعيشة الرخيّة.

مَن يعرف هذه السلسلة من الجهود والأعمال العظيمة المشكورة، يعلم علم اليقين

١ ـ الإسماعيليون والمغول للأمين / ص ٤٨.
٢ ـ عيون التواريخ لابن شاكر الكبتي.
٣ ـ الإسماعيليون والمغول للأمين / ص ٥.
٤ ـ الحوادث الجامعة / ص ٣٣١.

كذلك ان نصير الدين كان عيناً حارسة تعمل في جيش (هولاكو) لحياطة الاسلام وحفظ معنوياته وجمع منتشراته، عيناً حارسة ساهرة تعمل ما أمكن العمل وتحوط ما وسعت الحياطة وتحفظ ما استطاعت الحفظ وتجمع ما قدرت على الجمع[1].

* * *

أمّا المصدر المهم الّذي أنار الطريق في الكشف عن موضوع الكتب، فهو معجم ابن الفوطي الموسوم بتلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، حيث يذكر أنّ نصير الدين فوّض أمر خزائن الكتب ببغداد إلى ثلاثة، أحدهم الشيخ تاج الدين عليّ بن أنجب.

من مجموع ما تقدّم يتّضح لنا ان مصير الكتب ليس كما ينقله أولئك الّذين غالوا في وضعها وانّها أصبحت جسراً على الفرات!

ثمّ هي لم تبق سليمة كما كانت أيّام ازدهار بغداد، وانّما أصابتها النكسة كما أصابت غيرها في البشر والممتلكات.

فقد بقي القسم الأكبر منها في بغداد ذاتها وانتقل بعضها إلى مكتبة المرصد في (مراغه) كما اتّخذ قسم منها سبيلاً للمعاوضة في الحصول على الأطعمة.

* * *

معهد الدراسات الرياضية

يُضاف إلى ما تقدّم انّ نصيرالدين الطوسي أحدث هذا المعهد العلمي الكبير في جوار المرصد، وغير بعيد عن خزانة الكتب، وكان يعج بالطّلاب والوافدين عليه من كل فج عميق.

وقد تميّز صاحبه نصيرالدين بحبّه للطلبة واشتهر برعايته لهم ورفقه بهم وتوفير أسباب الدراسة والبحث لهم.

---

١ ـ إلى الطليعة المؤمنة لمحمّد أمين زين الدين / ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

وكان بقاء المرصد والمعهد يستدعي تخصيص مبالغ طائلة من المال، ذكر المؤرّخون انّ هولاكو بذلها لإنفاقها على بناء المرصد في دور التأسيس على يد نصير الدين.

على انّ اتّساع كل من المرصد والمعهد والمكتبة على توالي الأيّام استنفد تلك المقادير العظيمة.

ولهذه العلّة عني نصير الدين بإيجاد موارد مالية جديدة.

وكان الإشراف على إدارة الأوقاف الاسلاميّة في جميع الممالك الإيلخانية من خراسان إلى العراق مردوداً إليه، وكان ريع هذه الأوقاف جسيماً، فخصّص الطوسي مقداراً كافياً منه لسدّ نفقات المرصد ونفقاته[1].

وأخيراً فانّنا ننقل هنا ما قاله الدكتور مصطفى جواد عن مشاريع الطوسي العلمية فيقول:

التحق نصير الدين الطوسي بهولاكو لينجي نفسه من الهلاك وليأتي بمعجزة القرن السابع، وهي نشر العلوم في الشرق وتأسيس أوّل أكاديمية علمية بالمعنى العلمي الحديث الّذي تدلّ عليه كلمة ACADEMIE، وإقامة أعظم رصد عُرِفَ في الشرق، وإنشاء أوّل جامعة حقيقية من النوع المعروف اليوم بـ UNIVERESITE[2].

١ ـ الإسماعيليون والمغول للأمين / ص ٥٥.

٢ ـ المصدر السابق / ص ٥٥.

ثبت بأسماء
الخلفاء العبّاسيين حسب تسلسلهم

١ ـ أبو العباس السفاح	عبدالله بن محمّد بن عليّ بن عبدالله بن العبّاس
٢ ـ أبو جعفر المنصور	عبدالله بن محمّد بن عليّ بن عبدالله بن العبّاس
٣ ـ أبو عبدالله المهدي	محمّد بن المنصور
٤ ـ أبو محمّد الهادي	موسى بن المهدي
٥ ـ أبو جعفر هارون الرشيد	محمّد بن المهدي
٦ ـ أبو عبدالله الأمين	محمّد بن الرشيد
٧ ـ أبو العباس المأمون	عبدالله بن الرشيد
٨ ـ أبو إسحاق المعتصم بالله	محمّد بن الرشيد
٩ ـ أبو جعفر الواثق بالله	هارون بن المعتصم
١٠ ـ أبوالفضل المتوكل على الله	جعفر بن المعتصم
١١ ـ أبو جعفر المنتصر بالله	محمّد بن المتوكل
١٢ ـ أبو العباس المستعين بالله	أحمد بن المعتصم
١٣ ـ أبو عبدالله المعتز بالله	محمّد بن المتوكل
١٤ ـ أبو إسحاق المهتدي بالله	محمّد بن الواثق
١٥ ـ أبو العباس المعتمد على الله	أحمد بن المتوكل
١٦ ـ أبو العباس المعتضد بالله	أحمد بن الموفق
١٧ ـ أبو محمّد المكتفي بالله	عليّ بن المعتضد
١٨ ـ أبوالفضل المقتدر بالله	جعفر بن المعتضد
١٩ ـ أبو منصور القاهر بالله	محمّد بن المعتضد
٢٠ ـ أبو العباس الراضي بالله	محمّد بن المقتدر

٢١ ـ أبو إسحاق المتقي لله	إبراهيم بن المقتدر
٢٢ ـ أبو القاسم المستكفي بالله	عبدالله بن المكتفي
٢٣ ـ أبو القاسم المطيع لله	الفضل بن المقتدر
٢٤ ـ أبو بكر الطائع لله	عبدالكريم بن المطيع
٢٥ ـ أبو العباس القادر بالله	أحمد بن إسحاق بن المقتدر
٢٦ ـ أبو جعفر القائم بأمر الله	عبدالله بن القادر
٢٧ ـ أبو القاسم المقتدي بأمر الله	عبدالله بن محمّد بن القائم
٢٨ ـ أبو العباس المستظهر بالله	أحمد بن المقتدي بالله
٢٩ ـ أبو منصور المسترشد بالله	الفضل بن المستظهر بالله
٣٠ ـ أبو جعفر الراشد بالله	منصور بن المسترشد
٣١ ـ أبو عبدالله المقتفي لأمر الله	محمّد بن المستظهر بالله
٣٢ ـ أبو المظفر المستنجد بالله	يوسف بن المقتفي
٣٣ ـ أبو محمّد المستضيء بأمر الله	الحسن بن المستنجد
٣٤ ـ أبو العباس الناصر لدين الله	أحمد بن المستضيء
٣٥ ـ أبو نصر الظاهر بأمر الله	محمّد بن الناصر
٣٦ ـ أبو جعفر المستنصر بالله	منصور بن الظاهر
٣٧ ـ أبو أحمد المستعصم بالله	عبدالله بن المستنصر

* * *

وللعلم فانّ أمّهات خلفاء بني العباس، ثلاثة منهنّ فقط عربيات هنّ:

أمّهات أبي العباس السفاح والمهدي والأمين.

وأمّهات الباقين أمّهات أولاد[1].

ثلاثة منهنّ بربريات:

---

١ ـ أمّ الولد هي الّتي كانت مملوكة فتزوّجها شخص حرّ وأولدت فأصبحت حرّة فسُمّيت (أمّ ولد).

(أمّهات المنصور والهادي والرّشيد).

وأمّ المأمون فارسية.

وأمّهات الواثق والمنتصر والمعتز والمعتمد والراضي روميّات.

وأمّهات المقتدر والناصر والمستنصر تركيّات.

وأمّ القائم أرمنيّة.

كيفيّة نهاية كل خليفة

١ ـ أبو العبّاس السفّاح	مات موتاً طبيعياً
٢ ـ أبو جعفر المنصور	= = =
٣ ـ المهدي	= = =
٤ ـ موسى الهادي	قيل انّ أمّه الخيزران سمّته لمّا عزم على قتل الرّشيد ليعهد إلى ولده، وقيل انّها أمرت بأن غمّوا وجهه ببساط وجلسوا على جوانبه
٥ ـ هارون الرشيد	مات موتاً طبيعياً
٦ ـ الأمين	قتله أخوه المأمون
٧ ـ المأمون	مات موتاً طبيعياً
٨ ـ المعتصم	= = =
٩ ـ الواثق	أكثرَ من الجماع فأصيب بالاستسقاء فوضعوه في تنّور فمات
١٠ ـ المتوكّل	قتله الأتراك سكراناً بالتعاون مع ولده المنتصر
١١ ـ المنتصر	فصده بعض أطبائه بمبضع مسموم فمات
١٢ ـ المستعين	قتله المعتز
١٣ ـ المعتز	قتله الأتراك، جرّوه برجله وضربوه بالدبابيس وأقاموه في الشمس يلطمون وجهه ثمّ أدخلوه سرداباً وجصّصوا عليه فمات
١٤ ـ المهتدي	الأتراك عصروا خصيتيه حتّى مات
١٥ ـ المعتمد	قيل انّه سمّ، وقيل بل نام فغُمّ في بساط من قِبَل الأتراك، وقيل مات لإفراطه في شرب الخمر

١٦ ـ المعتضد	مات من كثرة افراطه في الجماع
١٧ ـ المكتفي	مات موتاً طبيعياً
١٨ ـ المقتدر	قتله البرابرة وترك مكشوف العورة
١٩ ـ القاهر	الأتراك سملوا عينيه وخلعوه ثمّ مات
٢٠ ـ الراضي	مات موتاً طبيعياً
٢١ ـ المتقي	خلعه الأتراك وسملوا عينيه ثمّ مات
٢٢ ـ المستكفي	خلعه البويهيون وسملوا عينيه ثمّ مات
٢٣ ـ المطيع	خلع ومات
٢٤ ـ الطائع	خلعه البويهيون ومات
٢٥ ـ القادر	مات موتاً طبيعياً
٢٦ ـ القائم	= = =
٢٧ ـ المقتدي	سمّته جاريته فمات
٢٨ ـ المستظهر	مات موتاً طبيعياً
٢٩ ـ المسترشد	أسّره السلاجقة وقتلوه
٣٠ ـ الرّاشد	قتله السلاجقة
٣١ ـ المقتفي	مات موتاً طبيعياً
٣٢ ـ المستنجد	خنقوه في الحمام
٣٣ ـ المستضيء	مات موتاً طبيعياً
٣٤ ـ الناصر	= = =
٣٥ ـ الظاهر	= = =
٣٦ ـ المستنصر	= = =
٣٧ ـ المستعصم	قتله التتار

الدولة العبّاسيّة في استقلالها واحتلالها (*)

لقد مرّ بنا الأدوار الّتي تحكمت فيها قوى خارجية (أي خارجة عن إرادة بني العباس) من أتراك وبويهيين وسلاجقة...

وإذا أردنا ان نعمل إحصائية للسنين الّتي كانت الإرادة فيها مستقلة وكذلك الّتي كانت فيها إرادة الآخرين هي المتحكمة، لتبيّن لنا ما يلي:

الأتراك	من عام	٢١٨ ـ ٣٣٤هـ	= ١١٦ عاماً
البويهيون	من عام	٣٣٤ ـ ٤٤٧هـ	= ١١٣ عاماً
السلاجقة	من عام	٤٤٧ ـ ٥٩٠هـ	= ١٤٣ عاماً

* * *

وفي عام ٥٩٠هـ حرّض الخليفة الناصر لدين الله، حاكم خورازم على القضاء على طغرل السلجوقي، ثمّ استعان بالتتار ليقضوا على الخوارزمية.

وأخيراً يقضي التتار على حكومة بغداد، حيث أبدى لهم الناصر ضعفه واستنجاده بهم، فأطمعهم ذلك في بغداد، وهو الّذي تحقق لهم عام ٦٥٦هـ.

* * *

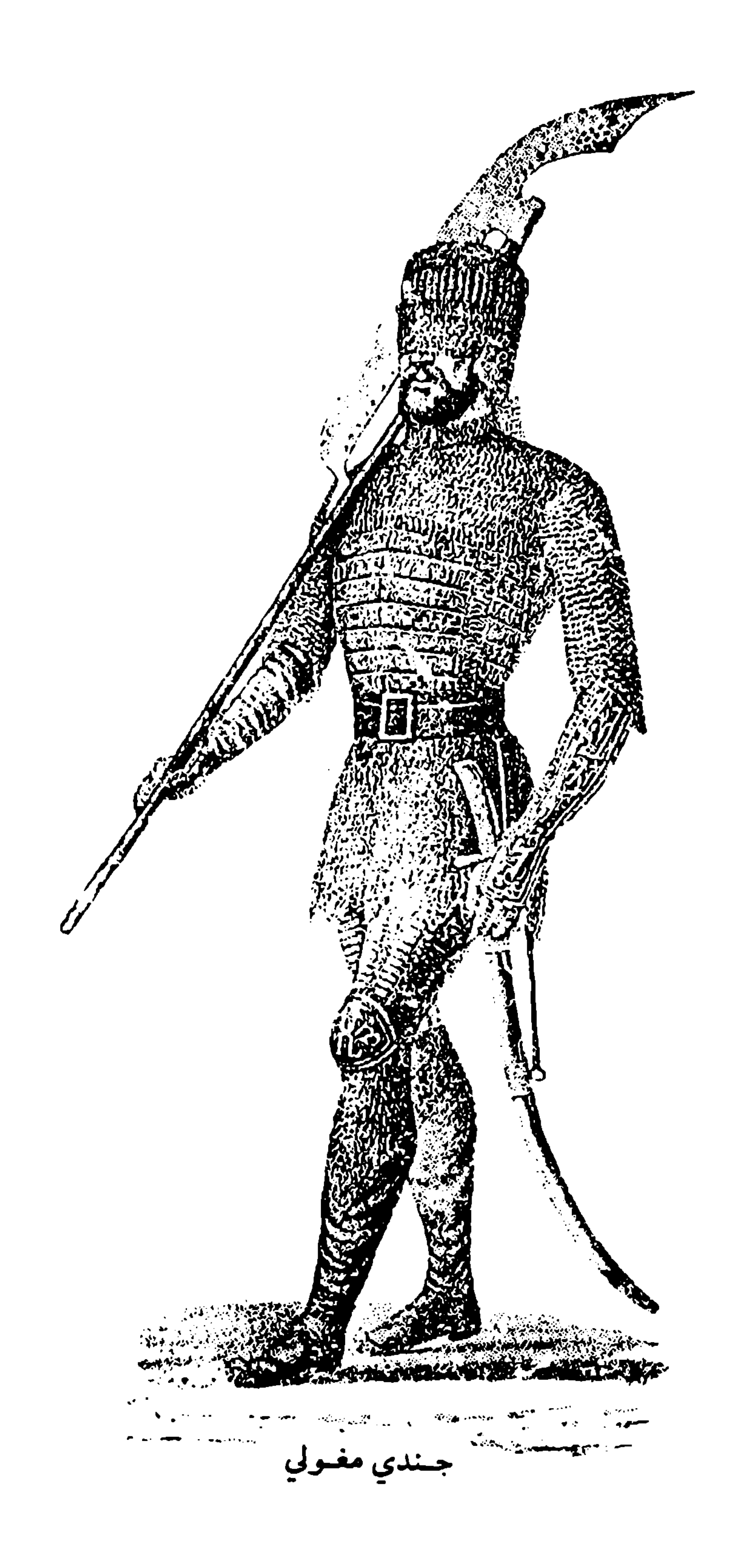
وإذا جمعنا السنين الّتي تحكمت فيها القوى الخارجية بالدولة العباسية وسيطرت على الخليفة نفسه، كانت ٣٧٢ عاماً، وإذا عرفنا انّ الدولة العبّاسية من يوم تأسّست في عام ١٣٢ إلى يوم سقوطها عام ٦٥٦هـ = ٥٢٤ عاماً ونطرح منها ٣٧٢ عاماً هي للقوى الخارجية، فيبقى ١٥٢ عاماً فقط و ٦٦ عاماً من ٥٩٠ ـ ٦٥٦هـ كان الخلفاء مستضعفين جدّاً يتحكّم فيهم العسكريون والمتنفّذون من بقايا الأتراك، ولم يبق للعبّاسيين كحكم مستقل الّا ٨٦ عاماً، كان ربّما شاركهم في ذلك العيارون واللّصوص.

---

* ـ نقصد بالاحتلال، سيطرة القوى غير العباسية على الدولة.



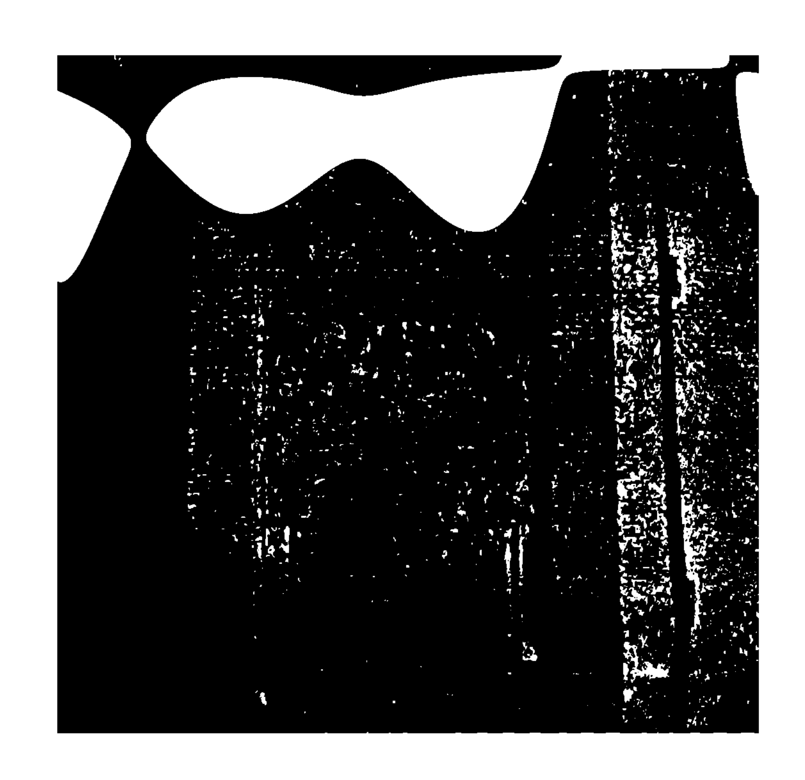
جنكيزخان «من متحف اللّوفر في فرنسا»



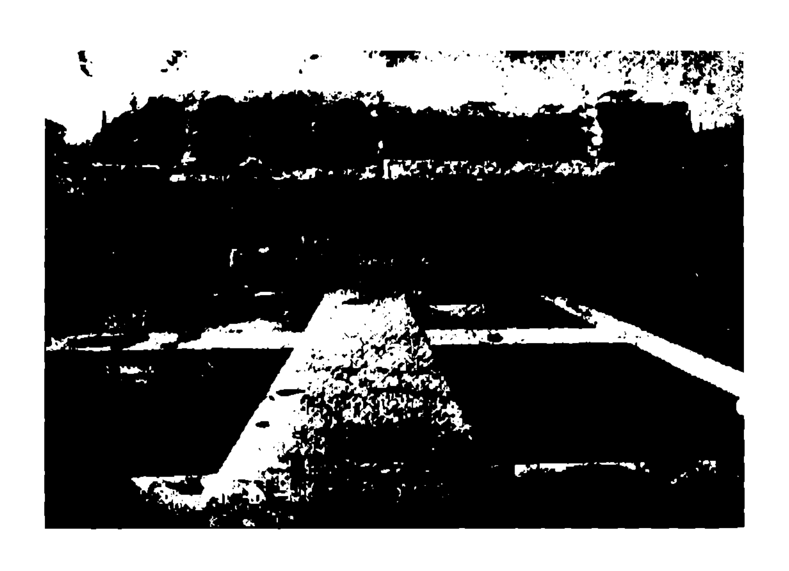
جـندي مغـولي

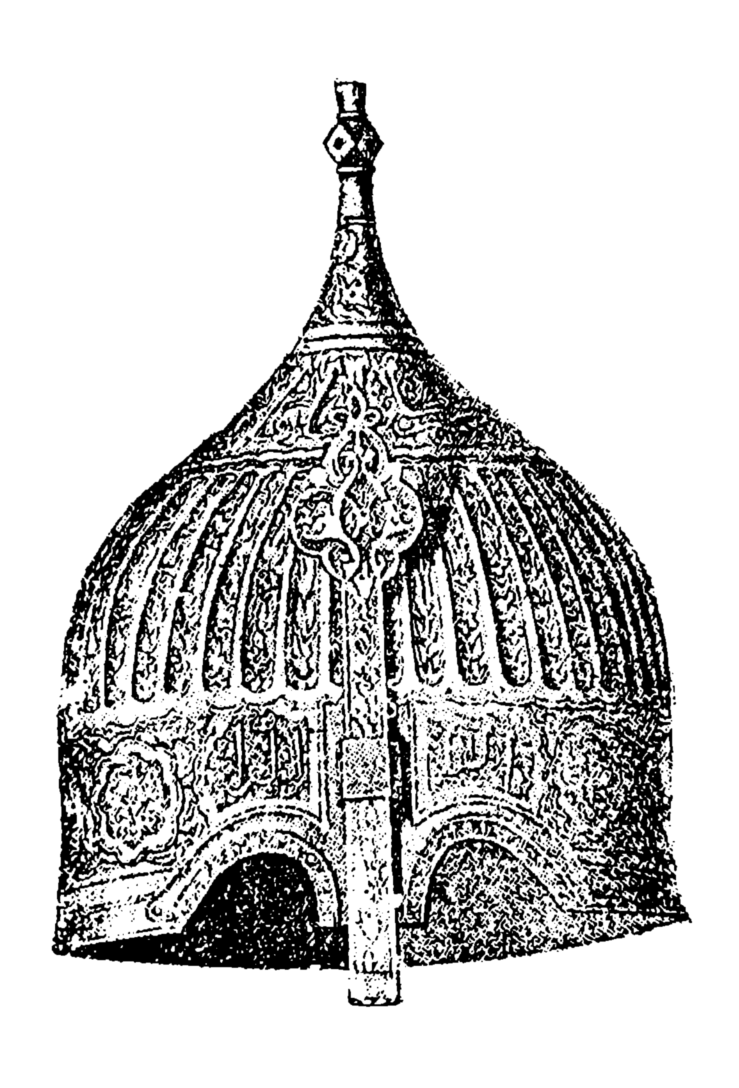


بقايا القصر العبّاسي في بغداد

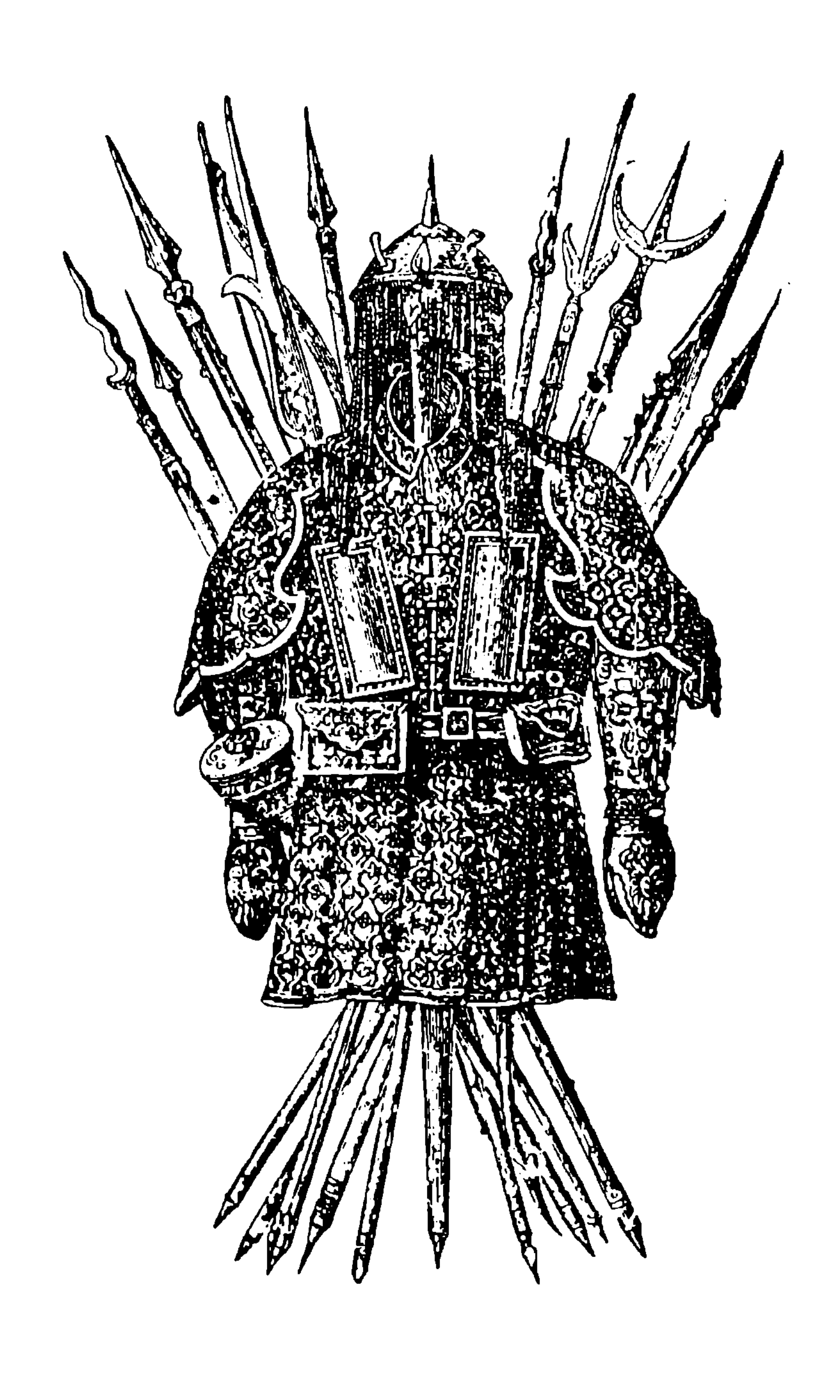


باب الحلبة (باب الطلسم) جُدِّد في عهد الناصر لدين الله

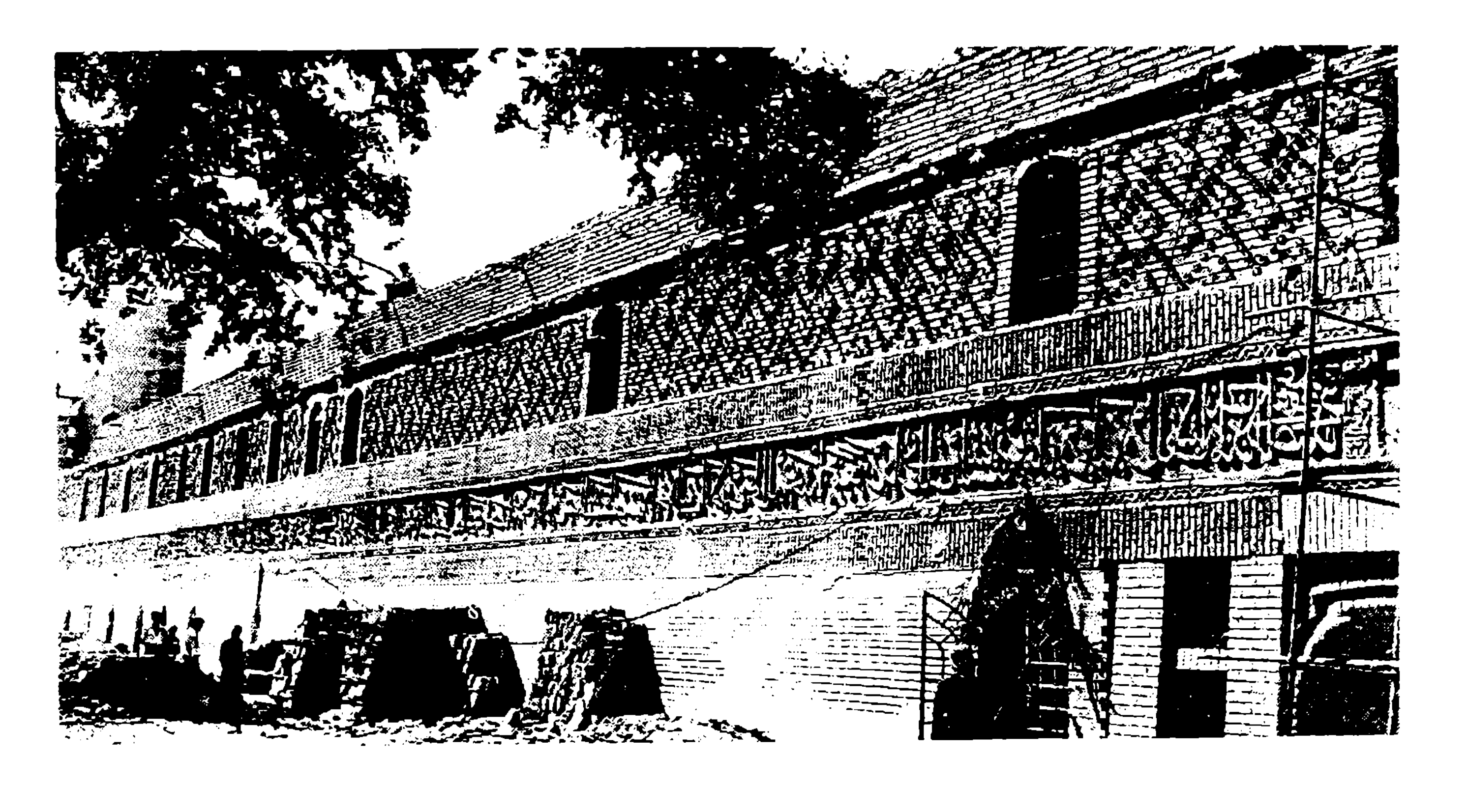




مغفر مغولي



أسلحة المغول



واجهة المدرسة المستنصريّة المطلّة على نهر دجلة

ثبت بالمصادر

١ ـ الكامل في التاريخ — لابن الأثير
٢ ـ مروج الذهب — للمسعودي
٣ ـ تاريخ الرسل والملوك — للطبري
٤ ـ الإمامة والسياسة — لابن قتيبة
٥ ـ شذرات سياسية من حياة الأئمّة — للمؤلف
٦ ـ بغداد مدينة السلام وغزو المغول — سلمان التكريتي
٧ ـ تاريخ ابن خلدون — عبدالرّحمان بن خلدون
٨ ـ عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب — جمال الدين الحسيني
٩ ـ تاريخ الخلفاء — للسيوطي
١٠ ـ العقد الفريد — لابن عبد ربّه
١١ ـ الإمام أحمد بن حنبل — مصطفى الشكعة
١٢ ـ البداية والنهاية — لابن كثير
١٣ ـ تاريخ مختصر الدول — لابن العبري
١٤ ـ الفخري — لابن الطقطقي
١٥ ـ تاريخ اليعقوبي — ابن واضح اليعقوبي
١٦ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم — لابن الجوزي
١٧ ـ شذرات الذهب — لابن العماد الحنبلي
١٨ ـ تاريخ ابن الوردي — لابن الوردي
١٩ ـ العسجد المسبوك — للملك الأشرف الغسّاني
٢٠ ـ إيران والعراق في العصر السلجوقي — للدكتور عبدالنعيم محمّد حسنين

٢١ ـ العراق في التاريخ مجموعة مؤلّفين
٢٢ ـ حياة الحيوان الكبرى للدميري
٢٣ ـ تاريخ العراق في عصور الخلافة العربيّة الاسلاميّة للدكتور فاروق عمر فوزي
٢٤ ـ الإسماعيليون والمغول للسيِّد حسن الأمين
٢٥ ـ جامع التواريخ رشيد الدين فضل الله الهمداني
٢٦ ـ وصّاف الحضرة عبدالله بن فضل الله
٢٧ ـ تاريخ أبي الفداء أبو الفداء
٢٨ ـ العلاقات السياسيّة بين المماليك والمغول حماد عاشور
٢٩ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد
٣٠ ـ العراق بين احتلالين عباس العزاوي
٣١ ـ طبقات الشافعية للسبكي
٣٢ ـ جنكيزخان جهرهٔ خون ريز تاريخ محمّد بناهي سمناني
٣٣ ـ الغزو المغولي للسيِّد حسن الأمين
٣٤ ـ سيرة جلال الدين للنسوي
٣٥ ـ الدولة الخوارزمية والمغول حافظ مهدي
٣٦ ـ المغول الباز العريني
٣٧ ـ مصر والشّام في عهد الأيوبيين والمماليك للدكتور سعيد عاشور
٣٨ ـ السلوك للمقريزي
٣٩ ـ النجوم الزّاهرة في أخبار مصر والقاهرة ابن تغري بردي
٤٠ ـ الحوادث الجامعة لابن الفوطي
٤١ ـ كشف المحجة لثمرة المهجة للسيِّد رضي الدين بن طاووس
٤٢ ـ ذيل مرآة الزمان لليونيني

٤٣ ـ تاريخ اجتماعي إيران | مرتضى راوندي
٤٤ ـ مرآة الزمان | سبط ابن الجوزي
٤٥ ـ العراق في عهد الإيلخانيين | للدكتور جعفر خصباك
٤٦ ـ مؤرّخ العراق ابن الفوطي | محمّد رضا الشبيبي
٤٧ ـ دول الاسلام | شمس الدين الذهبي
٤٨ ـ تاريخ وصاف الحضرة | عبدالله بن فضل الله
٤٩ ـ تراجم رجال القرنين السادس والسابع | أبو شامة شهاب الدين
٥٠ ـ تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس | للشيخ حسن الدياربكري
٥١ ـ فلاسفة الشيعة | عبدالله نعمة
٥٢ ـ مجلّة العرفان | أحمد عارف الزين
٥٣ ـ تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام | للسيّد حسن الصّدر
٥٤ ـ تاريخ علم الفلك في العراق | عباس العزاوي
٥٥ ـ الإشارات | لابن سينا
٥٦ ـ روضات الجنّات | محمّد باقر الخوانساري
٥٧ ـ عيون التاريخ | لابن شاكر الكبتي
٥٨ ـ الطليعة المؤمنة | محمّد أمين زين الدين
٥٩ ـ مجلّة الاعتدال النجفية | محمّد علي البلاغي
٦٠ ـ تاريخ جهان كشاي | عطا ملك الجويني
٦١ ـ في ظلال القرآن | سيّد قطب
٦٢ ـ تاريخ الملوك | عبّاس اقبال اشتياني
٦٣ ـ عقد الجمان | بدر الدين العيني

الفهرس

مقدّمة البحث ٥
مفارقات حصلت في الثورة والدولة ٩
إبراهيم الإمام يطلب قتل كل شخص يتكلّم العربيّة ١١
إبراهيم الإمام يلتزم القبائل اليمانية ضدّ المضرية ١٣
أبو مسلم الخراساني يثير حرباً بين المضرية واليمانية ١٥
إبراهيم الإمام كان لا يريد ان يشرك عرب خراسان في دعوته ١٩
الدعوة لأهل البيت كانت شعاراً ٢١
إبراهيم الإمام يوهم الخراسانيين بأن أبا مسلم من أهل البيت ٢٢
كان العباسيون يجبون أموال الناس بحجّة أنّهم أهل البيت ٢٦
أبو جعفر المنصور يحارب النفس الزكيّة بالمخدوعين بالشعار الكاذب ٢٨
لم تكن استجابة الفرس لدعوة (الرضا من أهل البيت) لغرض القضاء على الاسلام ٢٩
لم تكن حركة أبي سلمة الخلال للإجهاز على الحكم الاسلامي ٣١
هارون كان يخشى من ولديه وليس من الفرس ٣٣
أبو مسلم يأمر بقتل أبي سلمة الخلال لأنّه حاول صرف الدعوة لبني علي ٣٥
محاولة لاكتشاف دوافع أبي سلمة ٣٦
أبو مسلم الخراساني لم يكن يفكر في حرف الدعوة للمجوسية ٣٧

الفصل الأوّل: كيف ساهم الخلفاء العباسيون في سقوط بغداد؟ ٤١
خلفاء بني العباس والمغول أسقطوا بغداد ٤٣
العباسيون كانوا يوهمون النّاس انّهم سوف يستمرّون بالحكم حتّى يسلّموا الدولة للمسيح ٤٥
تفاءلت الأمّة ثمّ انكشف لها الزيف ٤٦
الخلفاء العباسيون، كل واحد منهم يضرب مِعْولاً في جسم الدولة ٥٣
المهدي يتجرّأ على الله في حد شارب الخمر ٥٦
هارون الرشيد ينكح جارية أبيه ٥٨
هارون يلهو مع المغنّين ٥٩
فوّض هارون أمور الدولة إلى يحيى بن خالد وجعل أمّه (الخيزران) ناظرة عليه ٦٠
ثمّ جاء محمّد الأمين ٦١
شهود على لواط الخليفة الأمين ٦٣
المأمون يبتدع فتنة خلق القرآن ٦٥
المعتصم يحذو حذو المأمون في الفتنة ويستقدم الأتراك ٦٧
طريقة بائسة في اختيار الخليفة ٧١
المتوكل يعلن حرباً شعواء ضدّ العلويين ويأمرهم بهدم قبر الحسين ٧٢
شخص نصرانيّ يأخذ البيعة للمكتفي بالله ليكون خليفة للمسلمين ٨١
بطانة السوء تبايع للمقتدر لأنّه محتاج إليهم ٨٤
أمّ المقتدر هي الآمرة الناهية ٨٥
الخليفة المقتدر يعطي الولايات على طريقة الضمان ٨٦
ثورة للجياع ٨٧
وزراء المقتدر كالخليفة في الفساد ٩٠

مؤنس الخادم يخلع المقتدر فتردّه العامّة ٩٣
المقتدر والّذين سبقوه تسبّبوا في ظهور خلفاء آخرين من غير بني العباس ٩٤
مؤنس الخادم يتحرّك من جديد ضدّ الخليفة المقتدر ويطيح به ويقتله ٩٦
وعاظ السلاطين يصفون المقتدر بأنّه جيد العقل وصحيح الرأي ٩٧
القاهر بالله صادر الأموال وعذب أمّ أخيه المقتدر ٩٨
الخليفة الراضي بالله كان يبيع الوزارة ويقاطع البلاد بالأموال ٩٩
الخليفة المتقي كذلك أعطى الأمور لغيره وأخلد للرّاحة ١٠٣
ثمّ يهرب الخليفة المتقي إلى الموصل ١٠٤
الخليفة المهزوم يطلب الصلح مع عدوه (توزون) ١٠٥
جاء المستكفي وخلعه البويهيون ١٠٩
المطيع لله كان محبوساً فأخرجه البويهيون ونصبوه خليفة ١١٠
الطائع بلغ أعلا درجة من الطاعة لآل بويه ١١٢
القادر بالله منذ البداية تنازل عن كلّ شيء عدا قصره المنيف ١١٤
القائم بأمر الله هو الّذي أدخل السلاجقة في بغداد ١١٥
طريقة ضمان الولايات أصبحت تتكرّر ١١٩
الخليفة المستظهر كان غبياً بليداً ١٢١
المسترشد يُؤسَر ثمّ يُقتَل ١٢٣
الخليفة الراشد يدّعي يوم بويع انّه منصوب من قبل الله ١٢٥
الخليفة الراشد يهرب إلى الموصل وآذربيجان ١٢٦
ثلاثة أخبار طريفة حدثت أيّام المقتفي ١٢٧
الخليفة المستنجد يوصف بالذّكاء الغالب ولكن يتغلّب عليه الأمراء ١٣١
الإمام الناصر ذهب بصره، فكانت جاريته تنفّذ الأمور ١٣٢
الخليفة الناصر لدين الله ينتسب رسمياً إلى نقابة العيّارين ١٣٤

الخليفة الظاهر بن الناصر جعل الكيل صحيحاً بعدما كان ناقصاً أيّام أبيه ١٣٨
الخليفة المستنصر واجه خزانة فارغة فأسقط الجند ١٤٠
في أيّام المستنصر تقطّعت أوصال الدولة العباسية ولم يبق إلّا بغداد ١٤٢

الفصل الثاني: ضعف الدولة وتمزّقها بعد دخول الأتراك والبويهيين والسّلاجقة وانقسامها إلىٰ دويلات ١٤٥

لم يكن الفرس أصحاب نوايا للانقلاب على الدعوة والدولة العباسية ١٤٨
دخول الأتراك عنصراً جديداً في الدولة العباسية أضعفها ١٦٥
الخليفة المعتصم كان مغرماً بجمع المماليك الأتراك ١٦٨
ظاهرة الأتراك تسبّبت احراجات كثيرة للمعتصم ١٦٩
الأتراك يسلبون الدولة من الواثق ويبقى له القصر ١٧٤
تعاظم خطر الأتراك على المتوكل ١٧٥
الأتراك يخطّطون لقتل الخليفة المتوكل ١٧٥
وتمكّنت الحيلة للأتراك فقتلوا المتوكل ١٧٨
كيفيّة قتل المتوكّل ١٨٠
الأتراك يجبرون الخليفة المنتصر على خلع أخويه ١٨٢
الأتراك يغتالون الخليفة المنتصر بالسم ١٨٤
الأتراك يعقدون مؤتمراً يفوّضون فيه ثلاثة منهم لاختيار الخليفة بعد المنتصر ١٨٥
المستعين يرد الجميل لـ(أوتامش) فيطلق يده في أموال المسلمين ١٨٧
اختلف اللّصوص فيما بينهم ووقعت الفتنة ١٨٧
الأتراك يشغبون فيخلعون المستعين ويبايعون للمعتز ١٩٠
الأتراك يتسبّبون في معارك طاحنة بين بغداد وسامراء ١٩١
الخلفاء أوّلاً ثمّ الأتراك كانوا شركاء في تمزّق الدولة ١٩٤

لماذا يتناسى المؤرخون تلك المآسي ١٩٥
الخلفاء العبّاسيّون تسبّبوا في تمزيق الدولة وتقسيمها إلى ولايات ١٩٥
اللّصوص والعيّارون يملأون كل فراغ ١٩٨
الأتراك يثيرون فتنة مع المغاربة ١٩٨
تجدّد المعارك بين الأتراك أنفسهم ١٩٩
المعتز يخلع نفسه بعد تعذيب شديد ٢٠١
المهتدي بايعه الأتراك خليفة ثمّ عصروا خصيتيه وخلعوه ٢٠٣
الخليفة القاهر بالله كان مقهوراً بالأتراك خلعوه وسملوا عينيه ٢٠٦
الخليفة المتقي آخر خليفة عباسي تُسمل عيناه من قبل الأتراك ٢٠٨
انقضى عهد الأتراك فجاء البويهيون وكانوا أشدّ تنكيلاً بالخلفاء وأكثر تخريباً للدولة ٢١١
تعريف بالبويهيين ٢١٣
كيف وصل البويهيون إلى العراق؟ ومسكوا بزمام الخلافة العباسية ٢١٥
كان للخلافة العباسية مظاهر باهتة ولكن البويهيين قضوا عليها ٢٢١
آل بويه يتخاصمون حول أحد الغلمان ٢٢٧
الخليفة المطيع يبيع ثيابه ويعطي ثمنها إلى عزّ الدولة ٢٢٩
المطيع يخلع نفسه من الخلافة ويسلم من سمل العيون ٢٣٠
الخليفة الطائع يفوّض ما وراء بابه مرّتين ٢٣٣
الخليفة الطائع لم تشفع له المظاهر الكاذبة وخلعه صاحب اللّقبين بهاء الدولة وضياء الملّة ٢٣٥
المعارك تتجدّد بين الأتراك والبويهيين ٢٣٨
الأتراك نغّصوا على جلال الدولة حياته ٢٤٣

مات جلال الدولة (ملك الملوك) وتحرّك الأتراك للشغب والنهب ٢٤٥
هبّت رياح طغرلبك فاشتط الأتراك وتطاولوا إلى الفتنة ٢٤٦
السّلاجقة ودورهم في تخريب البلاد ٢٤٩
تعريف بالسّلاجقة ٢٥١
طغرل بك يضع عينه على العراق ٢٥٢
القائم بأمر الله يعترف بدولة السلاجقة لقاء عشرة آلاف دينار ٢٥٣
كان السلاجقة أكبر قوّة في العالم الاسلامي عام ٤٤٧ هـ ٢٥٥
الخليفة القائم يجدِّد دعوته لطغرل بك في زيارة بغداد ٢٥٦
طغرل بك يصل بغداد ٢٥٦
نشوب القتال بين البساسيري والخليفة ووقوع الخليفة أسيراً ٢٥٧
كيف اعتُقِل الخليفة القائم بأمر الله ؟ وكيف تذلّل لأعدائه ؟ ٢٥٧
أنصار الخليفة يستنجدون بالسلطان طغرلبك فيسرع إلى بغداد ويرسل إلى الخليفة مَن ينقذه من الأسر ٢٥٩
السّلاجقة يغتصبون دور الناس ويعيثون فساداً ٢٦٢
الخشية تدفع الخليفة أن يتزوّج ابنة أخي طغرل والطمع يدفع طغرل أن يتزوّج بنت الخليفة ٢٦٣
مات طغرل وتحرّك العيّارون واللّصوص ٢٦٥
حفلات تتويج الملوك تدل على ضعف الخلفاء ٢٦٦
العيّارون يقامرون على موت الخليفة ٢٦٦
السّلطان ملكشاه السلجوقي يطلب من الخليفة المقتدي أن يخرج من بغداد إلى أي بلاد شاء ٢٦٧
الخليفة المقتدي يأمر بالخطبة لابن ملكشاه وعمره أربع سنوات ٢٧٠
الخليفة المسترشد قتله السلاجقة وجدعوا أنفه وأذنيه وتركوه عرياناً ٢٧٧

الخليفة (الراشد) يؤدي اليمين بأن لا يكيد للسلطان مسعود ٢٨١
بُويعَ للمقتفي بالخلافة على أن يدفع ضريبة للسلطان بمقدار مائة وعشرين ألف دينار ٢٨٧
السلاطين يتنافسون على بغداد ٢٨٩
الخليفة المستنجد بالله يتآمر عليه السّلاجقة ويخنقونه في الحمّام ٢٩٠
الخليفة المستضيء بأمر الله يتحكّم فيه السلاجقة ٢٩١
الخليفة الناصر يدعو الناس لطاعة بني العباس ليدخلوا الجنّة ٢٩٣
الخليفة الناصر يبلغ حدّاً من الضعف أطمع فيه ملوك السلاجقة ٢٩٥
حقيقة صفات الخليفة الناصر ٣٠٠

الفصل الثالث: الفتن العنصرية والطائفية والعيارون واللّصوص والاختلاف بين الخلفاء ٣٠٣
١ ـ فتنة إبراهيم الإمام العنصريّة ٣٠٦
٢ ـ فتنة أبي جعفر المنصور القبليّة ٣٠٧
٣ ـ فتنة المأمون في خلق القرآن ٣٠٩
٤ ـ الفتن الطائفية ٣١٢
الخليفة المقتدي بأمر الله يقود حملة طائفية لقتال الشيعة ٣٣١
الخليفة المستنصر يعمق الخلاف بين طوائف الأُمّة ٣٣٣
الخليفة المستعصم يسرف في قتل الشيعة ويرتكب العظائم ٣٣٥
٥ ـ العيّارون ٣٣٦
الخليفة المستعين يعترف رسمياً بالعيارين ويجعل لهم عريفاً ٣٣٨
العيّارون يحتلّون بغداد، والشرطة تهرب ٣٣٩
توسّعت حملات العيارين، فدخل معهم الأتراك والعامّة ٣٤١

البرجمي العيّار يسيطر على بغداد خمسة أعوام ويخطب له على منابرها . ٣٤٣
أصبح للعيّارين أعيان وأشراف ٣٤٧
العيّاران ابن بكران وابن البزاز أرادا أن يضربا السكّة باسميهما ٣٤٧
العيّارون كانوا يحتمون بأمراء الدولة العباسية ٣٥٠
أصبح حكّام بني العباس شركاء للعيّارين ٣٥١
الخليفة الناصر لدين الله يصبح عيّاراً ٣٥٢
٦ ـ الخلاف بين الخلفاء ٣٥٥
أوّل خلاف بين الخلفاء العباسيين، كان بين المنصور وعمّه عبدالله بن عليّ ٣٥٧
الخليفة المهدي يجدِّد الطّلب من عيسى بن موسىٰ بخلع نفسه والبيعة لولديه
موسىٰ وهارون ٣٦٠
الخليفة الهادي ودوره في خلع الرشيد ٣٦٣
الأمين والمأمون خليفتان تخالعا وتحاربا ٣٦٦
الإقتتال بين الأمين والمأمون جرّأ أصحاب الأطماع ٣٦٨
المأمون يخلع أخاه المؤتمن ٣٦٩
المتوكل يعيد نفس الخطأ فيعقد الولاية لأولاده الثلاثة والنتيجة قتال وحروب ٣٧٠
الخليفة المنتصر بن المتوكل يعزل أخويه المعتز والمؤيد ٣٧٢
وتوالت قضايا الخلع والعزل ٣٧٢
أصبح الخلع ونقض العهد سُنّة جارية وتوسّع الخلاف ٣٧٣
الخلاف بين الخلفاء شمل حريم الخلفاء أيضاً ٣٧٥
القادر بالله يهرب من الطائع لله ٣٧٧
الأمير أبو الحسن يهرب من أخيه الخليفة المسترشد ٣٧٨
الظاهر بالله يُبايع بولاية العهد وهو محبوس ٣٨٠

الفصل الرابع: الإسماعيليون والخوارزم وتحريض المغول على احتلال بلاد المسلمين ٣٨٢
أوّلاً ـ الإسماعيليون: ٣٨٥
قاضي القضاة يطلب من التتار الوثنيين أن يقضوا على الإسماعيليين ٣٩٠
ملوك وسلاطين المسلمين يشاركون هولاكو في زحفه على بلاد المسلمين ٣٩٣
السلاطين الأيوبيون يتعاونون مع المغول في حرب المسلمين وتسليمهم البلاد ٣٩٤
الشافعيّة في اصفهان يدعون المغول ليقتلوا الأحناف فيسلّموهم اصفهان ٣٩٨
ثانياً ـ دولة خوارزم: ٤٠٠
خوارزمشاه يستولي على مملكة الخطا ٤٠٢
وجّه خوارزمشاه أنظاره إلى بغداد وحاول أن يفرض سيطرته على الخليفة ٤٠٣
اشتداد الخلاف بين الخليفة الناصر وخوارزمشاه وبدأ يتربّص أحدهما بالآخر ٤٠٥
جلال الدين ملك خوارزم يموت له غلام كان مغرماً بحبه، فيفقد عقله واتزانه ٤١٣
الصّدام بين الخوارزمية وبين الخليفة الناصر ٤١٥
الملوك والخلفاء والامراء يخربون بيوتهم بأيديهم ٤١٨
الفصل الخامس: التتار ونواقيس الخطر ثمّ الانهيار ٤٢١
تعريف بالمغول ٤٢٣
انتقادان يوجّهان إلى الخليفة الناصر ٤٣٢
بدايات الخلاف بين المغول وخوارزم ٤٣٥
حماقة خوارزمشاه سبّبت الكوارث للمسلمين ٤٣٨
المغول يتوجّهون إلى أربيل، وحكّام المسلمين يتخاذلون ٤٤٠

الخليفة الناصر يرسل فقط ثمانمائة خصي لردع التتار عن إربل ٤٤١
إربل هي الهدف للتتار من جديد ٤٤٨
اللّوم يوجّه للحكّام وعلى رأسهم الخليفة حيث أوقعوا المسلمين في الدواهي ٤٥٢
الملوك الأيوبيون يخونون الاسلام ويعطون القدس للصليبيين ٤٥٥
المغول بدأوا يقتربون من بغداد عندما استشعروا ضعف القوّة الاسلامية ... ٤٥٨
المؤرِّخ ابن الفوطي يشرح العمليات الحربية لعام ٦٣٥هـ شرحاً دقيقاً ٤٦١
المستنصر يُصاب بالغرور فيرفض عرضاً كريماً للصّلح بينه وبين المغول . ٤٦٤
تتويج كيوك خان ملكاً للمغول والمستعصم يبعث سفيراً للتهنئة ٤٦٧
أوّل هجوم مغولي علىٰ بغداد كان عام ٦٤٣ هـ ٤٧١
ابن العلقمي هو الّذي كان يدبّر أمر العسكر والمحافظة على بغداد ٤٧٢
المؤرِّخ ابن أبي الحديد ينظم قصيدة في الثناء على الوزير ابن العلقمي
لموقفه المشرّف في حرب عام ٦٤٣هـ ٤٧٣
الوفود المتقابلة بين الخليفة المستعصم وبين المغول لم تغن شيئاً ٤٧٤
الخليفة المستعصم ونواقيس الخطر ٤٧٧
هويّة المستعصم وبطاقته الشخصية ٤٨٠
الخليفة المستعصم يصلّي صلاة العيد ليلاً ٤٨٤
أبواق الخطر في زحف هولاكو ٤٩٣
هولاكو ينفِّذ وصيّة أخيه الملك منكوقاآن تنفيذاً دقيقاً ٤٩٦
ظهور الفتنة ووقوع الخلاف بين الدواتدار والوزير ابن العلقمي ٤٩٩
بغداد عام ٦٥٥ هـ ٥٠٢
توجّه هولاكو إلىٰ بغداد وتردّد الرّسل بينه وبين المستعصم ٥٠٤
الخليفة المستعصم يرسل وفداً إلى هولاكو يحمل رسالة وهدايا ٥٠٥

رسل الخليفة يصلون إلىٰ هولاكو فيغضب ويجدّد تهديده بالحرب ٥١٠
الخليفة تعجبه فكرة الوزير بالهدايا ويأمر بإنجازها ولكن الدواتدار يهدِّده فيتراجع ٥١٢
إنعقاد المؤتمر الوطني والخليفة لا يزال في غيّه وسفاهته ٥١٦
الخليفة يبعث هديّة صغيرة إلىٰ هولاكو ويتشبّث بمقولة كاذبة في حفظ الكيان العباسي ٥٢١
الخليفة المستعصم يتخبّط في قراراته ٥٢٢
تدابير هولاكو للزحف علىٰ بغداد ٥٢٥
هولاكو يتشاور مع الأمراء ومع المنجّم في تصميمه على الزحف إلى بغداد ٥٣٠
زحف جيوش المغول إلى بغداد ٥٣٣
جيوش هولاكو تتقدّم وجيوش الخليفة يصيبها الخوار ٥٣٨
هولاكو ينذر الخليفة بالقتال أو الطاعة ٥٤٢
الهجوم علىٰ بغداد ٥٤٣
الدواتدار يهرب من المعركة في بداياتها ٥٤٧
قوّات المغول تحيطُ بقصر الخلافة ٥٤٩
الجيش المغولي يتدفّق علىٰ بغداد ٥٥٠
إحتدام المعركة ٥٥١
محاولة فاشلة للخليفة ٥٥٣
هولاكو يستهين بالخليفة وقواده ويطلب منهم ان يخرجوا إليه ٥٥٤
جنود الخليفة يتسابقون في تسليم أنفسهم للمغول ٥٥٤
هروب وقتلىٰ من وجه المغول ٥٥٥
الدواتدار يُقتَل ذليلاً ٥٥٦
الخليفة المستعصم يفيق من سباته ويقع في الفخ ولات حين مناص ٥٥٨

احتلال بغداد والاستيلاء علىٰ أموال الخليفة ٥٦٠
رحيل هولاكو والقضاء على الخليفة ٥٦٣
تقويم للعمليات الحربية بين المغول وجيش الخليفة ٥٦٥
مأساة المسلمين بخلفائهم ٥٧٠
مراثي بغداد ٥٧٣
وضع بغداد الإداري بعد مقتل الخليفة ٥٧٤
نائب السّلطنة أو الحاكم العام ٥٧٦
هولاكو يأمر بإعمار بغداد والتشكيلات الإدارية في الوضع الجديد ٥٧٨
هولاكو يواصل السير إلىٰ همدان وتأتيه الملوك فتقدِّم له الولاء والطاعة ٥٨٠
التشكيلات الإدارية على مستوى العراق؟ ٥٨٣

الملاحق ٥٨٧
ملحق رقم ١: تلخيص للأسباب الّتي أدّت إلى سقوط الدولة العباسية ٥٨٩
أوّلاً ـ الأسباب غير المباشرة: ٥٨٩
ثانياً ـ الأسباب المباشرة: ٥٩٤
ملحق رقم ٢: ابن العلقمي ٦٠٢
ملحق رقم ٣: نصير الدين الطوسي ٦٣٦

ثبت بأسماء الخلفاء العبّاسيين حسب تسلسلهم ٦٤٩
كيفيّة نهاية كل خليفة ٦٥٢
الدولة العبّاسيّة في استقلالها واحتلالها ٦٥٤
ثبت بالمصادر ٦٦٣
الفهرست ٦٦٧